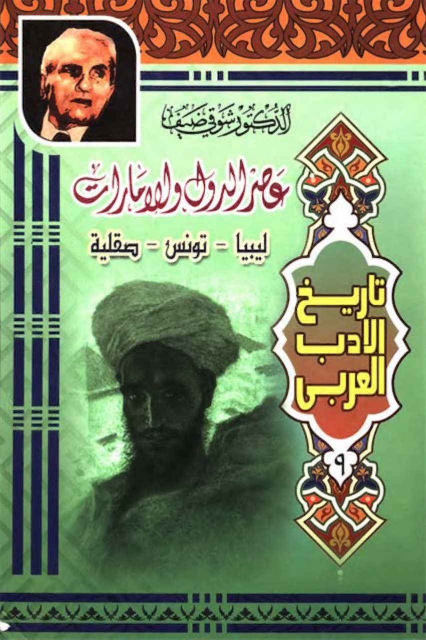

الدكتور شوقي ضيف
عصر الدول والإمارات
ليبيا - تونس - صقلية
تاريخ
الأدب
العربي
٩

عصر

الدول والإمارات

لِيبْيَا - تُونِس - صَقَلِيَة



تاريخ
الأدب العربي
٩

عصر
الدول والإمارات
لِيبيا - تونِس - صقلِيّة

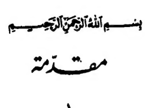
تأليف
الدكتور شوقي ضيف



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربي (ج ٩)
المؤلف :	شوقي الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولى
تاريخ الطبع :	١٤٢٨
الكمية :	١٠٠٠ نسخة
المطبعة :	ستاره
شابك ج ٩:	٣-١٩٢-٥١٨-٩٦٤-٩٧٨

مركز التوزيع : قم ـ پاساژ قدس ـ الطابق الاوّل ـ رقم ٥٩ ـ تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣-٠٢٥١-٩٨+



١

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي قبل العصر الحديث خاص بليبيا وتونس وصقلّية، وقد بدأته بليبيا، فتحدثت عن جغرافيتها ومناطقها: طرابلس وفزّان وبرقة، وعن زروعها وصناعاتها وتجارتها وموانيها، كما تحدثت عن تاريخها القديم وفتح العرب لها، وسطوع شمس الإسلام بديارها، وعن ولاتها أيام الأمويين والعباسيين وتبعية ولاية طرابلس وقسمها الغربي للدولة الأغلبية، وتبعية برقة وقسمها الشرقي لوالى مصر، وتبعيتها معًا للدولة العبيدية الفاطمية فى المهدية والقاهرة، وتسترجع الدولة الصنهاجية فى القيروان طرابلس، ويؤسس بها لنحو نصف قرن بنو خزرون إمارة لهم، وتكتسح ليبيا الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وتتبع برقة مصر فى أيام الأيوبيين والمماليك، بينما تتبع طرابلس الدولة الحفصية فى تونس، وتتأسس بها دولة بنى عمار فى القرن الثامن الهجرى (٧٢٤ - ٨٠٣هـ) وتسترجعها الدولة الحفصية، ويستولى عليها فرديناند ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م ويُسَلِّمها بعده شارل الخامس إلى فرسان مالطة سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م ويطردهم منها الأسطول العثمانى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م، وتصبح ولاية عثمانية ويتولاها دايات مختلفون حتى إذا وليها أحمد القرمانلى سنة ١١٢٣هـ/١٧٩٥م جعلها وراثية فى أبنائه. وفى سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م استردَّتها الدولة العثمانية من الأسرة وحوَّلتها من إيالة إلى ولاية، وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وقد سكن ليبيا - من قديم - سلالات من البربر، ويقسمها النسابون إلى برانس، وهم الحضر أهل المدن، وبُتْر وهم الرحَّل أهل الهضاب والصحارى، ونزلها قديمًا الفينيقيون والإغريق والرومان وبعض اليهود والزنوج، ثم نزلها العرب ومن تألفت منهم جيوشهم من أهل إيران والعراق والشام ومصر، وهاجر إليها أندلسيون كثيرون بين القرنين السابع والحادى عشر للهجرة. ونزلتها حاميات تركية فى العهد العثمانى، وألقى إليها القراصنة ببعض أسراهم المسيحيين، وأسلم منهم كثيرون. وكل هذه العناصر انصهرت فى البوتقة الليبية وظل العنصر

الليبى البربرى - مع ما حدث له من بعض التطور - هو العنصر الغالب على كل العناصر الوافدة على دياره. ومن قديم كانت التجارة رائجة رواجًا كبيرًا فى برقة وطرابلس، مما جعل الإغريق يحتلّون الأولى ويؤسسون بها مدنا تجارية متعددة، كما جعل الفينيقيين والرومان يحتلون - بدورهم - طرابلس. وكان الساحل الشمالى يموج بمصايد الأسماك فيه، وكان ما وراءه من المدن والسهول والوديان يكتظ بأشجار الزيتون والنخيل والفواكه والزروع والحبوب، واكتظت الواحات بالنخيل وأنواع التمور والفواكه، وامتلأت الهضاب والصحارى بمراعى الأغنام والأنعام. ونلتقى بصناعات يدوية كثيرة وخاصة صناعة النسيج والزجاج وعصر الزيت ودبغ الجلود وقطع الرخام: طيبات كثيرة من الرزق. وكان البربر وثنيين ونزل بديارهم اليهود وكانت لهم بطرابلس حارة خاصة بهم، واستجاب بعض أهل المدن فى عهد الرومان وبيزنطة للمسيحية، وكان بينهم أرثوذكس يتبعون كنيسة القبط فى الإسكندرية وكاثوليك يتبعون كنيسة روما البابوية. وما إن نزل الإسلام ليبيا حتى أسرعت جماهيرها إلى اعتناقه، وآثرت دائما مذهب مالك السنى واعتنق المذهب الإباضى جبلُ نفوسة وبعضُ أهل طرابلس. ومعروف أن الدولة العثمانية كانت تعمل على إشاعة مذهب الإمام أبى حنيفة فى الولايات التابعة لها، غير أن مذهب مالك ظل فى ليبيا - مثل جميع بلاد المغرب - هو المذهب العام للجماهير الليبية. وقد نزع كثير من أهل ليبيا إلى الزهد، وشاعت بينهم فى الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

وأخذت الحركة العلمية تنشط فى ليبيا منذ الفتح، إذ لم يكن الفاتحون غزاة يبتغون المغانم، إنما كانوا مجاهدين فى سبيل الله يبتغون نشر دينه فى أرجاء الأرض، ولذلك كانوا بمجرد الفراغ من الفتح يتحولون معلمين يهدون أهل الشعوب المفتوحة للإسلام وتعاليمه مع تحفيظهم لبعض آياتٍ وسورٍ من الذكر الحكيم، وسرعان ما كانوا ينشئون لهم الكتاتيب - كما حدث فى طرابلس - يعلمونهم فيها مبادئ القراءة والكتابة ويحفّظونهم القرآن ويرشدونهم إلى تعاليم الإسلام. وأخذت حلقات العلماء تكثر فى المساجد بالمدن والقرى، وبالتدريج أخذوا يعنون بتفقيه الناس فى الدين وتعريفهم بالعربية وقواعدها السديدة فى النطق والتعبير. ولم يلبث أن رحل إلى المشرق بعض الليبيين فى طلب العلم. واشتهر فى كل مدينة ليبية بعض العلماء، وظهر فى كل علم أئمة كبار، ونمت العلوم اللغوية والإسلامية. ودار الزمن دورات، وازدهرت تلك العلوم فى عهد الدولة الحفصية وساعد على ازدهارها نشوء المدارس والزوايا، وخمدت الحركة العلمية فى العهد العثمانى، أو بعبارة أدق أصابها شىء من الركود.

وإذا أخذنا نراجع العلوم والعلماء على مر الزمن لاحظنا أن ليبيا لم تعرف بنشاط فى علوم الأوائل ولكنها عرفت ذلك فى العلوم اللغوية والدينية، إذ لمع فيها - طوال القرون الإسلامية - علماء مختلفون مثل الأجدابى اللغوى فى القرن الخامس الهجرى ومؤمن بن فرج

المقرئ في نفس القرن الخامس والمقرئ على بن عبد الحميد العوسجي في القرن العاشر وفي التفسير الخروبي في نفس القرن العاشر. ونبغ في الحفاظ المحدثين أسرة أحمد بن صالح العجلي في القرن الثالث وابن زكرون وأحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع وابن عبيد في القرن السابع، ولمع في الفقه السني موسى بن عبد الرحمن القطان في القرن الثالث وابن المنمر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع والزليطني في القرن التاسع، وممن نبغ في الفقه الإباضي عمروس النفوسي في القرن الثالث، وأحمد بن بكر النفوسي مؤسس جماعة العزابة في القرن الخامس وعلى بن يخلف التمْجاري في القرن السادس والجيطالي والشماخي في القرن الثامن. وظهر بليبيا بعض المؤرخين.

وقد تعرَّبت ليبيا سريعا لكثرة من نزل بها من القبائل العربية ومن الجند الناشرين للإسلام، وأكملتْ تعربها هجرةُ الأعراب الكبرى من بنى سُلَيْم وبنى هلال في منتصف القرن الخامس الهجرى، إذ امتزجت عشائر القبيلتين أو بعبارة أدق من استقرَّ منها في ليبيا بأهلها من البربر، وأصبحوا شعبا عربيا كبيرًا في تقاليده وعاداته وملابسه ومطاعمه وأفراحه وأحزانه وأخلاقه وشيمه وفروسيته ومروءته ونجدته، وكان طبيعيا أن تنتصر العربية لغة الدين والثقافة أثناء ذلك على اللغة البربرية انتصارا حاسما، ويشهد الرحالة الكبير العبدرى لأهل برقة بالفصاحة، ويؤكد أنهم كانوا - حتى زمنه - في آخر القرن السابع الهجرى - لا يزالون يتكلمون بالفصحى بأنصع وأدق مما ينطق بها ويتكلمها أهل الحجاز، ولا تزال لغة برقة - إلى اليوم بشهادة بعض المعاصرين - قريبة قربا شديدًا من أمّها الفصحى. ولم تحدث في ليبيا نهضة أدبية واسعة قبل عصرها الحديث، ومرجع ذلك - في رأينا - إلى أنه لم ينشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء، ولا نشأ بها ديوان إنشاء يحدث فيها حركة نثرية أدبية، ولا كان فيها رعاة للشعر يجزلون العطاء للشعراء. ويلمع فيها بأخرة من القرن الثالث الهجرى شاعر طرابلسى يسمى خليل بن إسحق ويلتحق بحاشية العبيديين في عاصمتهم مدينة المهدية، ويلمع بها في القرن السابع الهجرى فتح بن نوح الإباضي وابن أبي الدنيا وابن معمر، كما يلمع في العهد العثماني البُهلول الطرابلسي، وله ديوان في المديح النبوى، وألمع شاعر بعده أحمد بن عبد الدائم. وتذكر كتب التراجم - من حين إلى آخر - لبعض الكتاب الليبيين رسالة أو مقامة مكتفية بمثل هذه الإشارة دون أن تعرضها على القارئ، وكان فتح بن نوح الإباضي ناثرًا مجيدًا، كما كان شاعرًا مجيدًا.

٢

وتركتُ ليبيا إلى القطر التونسى قلب إفريقية النابض، فتحدثت عن جغرافيته وتاريخه المغرق فى القدم وفتح العرب له واعتناق أهله الدينَ الحنيف وعن ولاته الأولين وفى مقدمتهم عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس. ومن أهم ولاتها فى القرن الثانى عبدالرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع المستولى على جزيرة قوصْرة فى البحر المتوسط. ومن ولاتها بعده يزيد بن حاتم المهلبى وقد أحدث بها حركة أدبية نشيطة. ولم يلبث أن تولاها إبراهيم بن الأغلب وجعلها الخليفة هرون الرشيد وراثية فى أبنائه، وافتتحت تلك الدولة صقلية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م ونشرت بها أضواء الإسلام والعروبة كما نشرتها فى مالطة بعد فتحها سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨م. وتخلفها الدولة العبيدية سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩م إلى أن انتقل المعز العبيدى الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦١ هـ/٩٧١م وخلفه فى الإقليم التونسى الدولة الصنهاجية وظلت تستشعر ولاءها للدولة الفاطمية فى القاهرة إلى أن أعلن حاكمها الصنهاجى المعز بن باديس استقلاله عن مصر سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦م وقيل بل فى سنة ٣٩ أو أربعين، مما جعل الخليفة الفاطمى المستنصر يسلِّط عليه أعراب بنى هلال وسليم، وكانوا قد نزلوا شرقى الصعيد وعاثوا فيه فسادًا فنزحوا إلى ليبيا وإفريقية التونسية كجراد منتشر، ونازلوا المعز واضطروه إلى الانحياز إلى مدينة المهدية، واستقل بعض الولاة بمدنهم وأقاليمهم. وبذلك شاع فى إفريقية التونسية نظام أمراء الطوائف مثل بنى جامع الهلاليين فى قابس وبنى خراسان فى تونس. وفى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م نزل الساحل التونسى ومدينة المهدية روجَّار الثانى النورمانى وطرده عبد المؤمن الموحدى بعد اثنتى عشرة سنة، وعاث فى أرجائها قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وأنقذ البلاد منهم الموحدون والدولة الحفصية، وعاشت لعهد الحفصيين فى رخاء وأمن، وحاصر تونس لويس التاسع وقُبِر تحت أسوارها، ونهضت البلاد نهضة علمية وأدبية طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٢ هـ/١٥٣٥م وخلَّصها منه بعد نحو أربعين عاما الأسطول العثمانى سنة ٩٨١ هـ/١٥٧٣م وتبعت الدولة العثمانية، وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وأسرته، والباى حسين بن على وأسرته.

ويزخر المجتمع التونسى - بجانب سلالات البربر - بعناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجية وزنجية ويهودية ورومانية وألمانية من الوندال وبيزنطية وعربية وممن امتزج بهم العرب من إيران والشام ومصر وأيضا عناصر أندلسية وتركية ومسيحية ممن جلبهم القراصنة، وامتزجت هذه العناصر وكونت الشعب التونسى وظل للعنصر البربرى فيه الغلبة مع ما حدث

له من صور تطور مختلفة إذ ظل يفرض هويته وشخصيته على كل ما وفد عليه من عناصر. وهيأ الإقليم التونسي دائمًا لسكانه رخاء واسعا قديمًا وحديثًا من الزروع وأشجار الزيتون والنخيل من الفواكه والصناعات مثل صناعة الزجاج والبلور والخزف وعصر الزيت والمنسوجات والسجاجيد والوراقة وكل ما يلزم المنشآت العمرانية من فسيفساء وتفنن في الزخرفة وضروب التجارات من منتوجاتها ومنتوجات ما يرد عليها من إفريقيا السوداء ومن أوربا إذ كانت سوقا عالميا ضخما. وأهلها ذلك لرفه واسع في الحياة وفي المطعم والملبس ولاحتفالات عظيمة بالأعياد ولاهتمام بالموسيقى والعزف على آلات الطرب والغناء في الحضر وعند أهل الوبر. وحظيت المرأة في المجتمع التونسي بمكانة كريمة جعلتها تستشعر كرامتها وشخصيتها إلى أقصى حد، كما جعلتها تستشعر حمايتها لوطنها حين تدلهم به الخطوب، مع برهنتها على حصافتها وكياستها السياسية. وكان البربر - قديمًا - وثنيين ونزل بينهم يهود في القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعده، وحاولوا نشر ديانتهم فيهم ولم يتبعهم إلا القليل. واستولى على ديارهم الرومان وحاولوا - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر المسيحية بينهم، وبُنيت بعض كنائس وأسقفيات، واعتنقها بعض البربر في المدن الشمالية، وظلت عناصر مسيحية - فيما بعد - تنزل البلاد وخاصة من الصقالبة وممن كان يجلبهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين الوحيد الذي عم إفريقية التونسية بعد الفتح العربي بحيث أصبح دين الأمة التونسية - بل الأمة البربرية جميعا - لبساطته وتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ومحوه الفوارق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الشعوب. وكانت إفريقية التونسية دائمًا سنية، واختارت مذهب مالك الفقهي وعاش بجانبه المذهب الحنفي حتى نهاية القرن الثالث، وعم مذهب مالك بعد ذلك حتى إذا كان العهد العثماني عاد المذهب الحنفي معه إلى الظهور، ولم تنجح في إفريقية التونسية دعوة الإباضية ولا دعوة العبيديين الشيعية، وكثر فيها الزهد والزهاد، كما كثرت الرباطات لحراسة البلاد على السواحل وظل النسّاك لا يبرحونها، وكثرت بأخرة الطرق الصوفية.

ومنذ القرن الأول الهجري ينشر الفاتحون في القطر التونسي تعاليم الإسلام وشريعته السمحة في معاملة الأمم المفتوحة، بحيث يصبح من أسلم منهم على قدم المساواة مع العربي الفاتح، ويقبل البربر على اعتناق الإسلام، وينشأ جيل من مواليد إفريقية التونسية من البربر والعرب ينقض انقضاضًا على حلقات العلماء في المساجد ويأخذ كل ما لديهم، ويطلب نفر منه المزيد، فيرحل إلى المشرق للقاء الإمامين الكبيرين أبي حنيفة ومالك، ويحمل مذهبيهما إلى العاصمة: القيروان وإلى تونس. وتنمو في القيروان حركة أدبية ولغوية. وساعد في ازدهار الحركة العلمية بإفريقيا التونسية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة في القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشىء - أيام الحفصيين - من مدارس ومكتبات. ولم يبق علم

إلا عنيت به إفريقية التونسية. ونبدأ بعلوم الأوائل فقد أسس لها إبراهيم بن أحمد الأغلبي فى عاصمته رقادة بجوار القيروان مدرسة كبرى باسم بيت الحكمة نبغ فيها أطباء عظام كان لهم ولتلاميذهم تأثير عظيم فى الغرب. وينبغ فى العهد الصنهاجي فلكي كبير كان له أثره فى علم الفلك الغربى، وتؤسس تلك الدولة مدرسة فى الكيمياء. ونلتقى فى عهد الدولة الحفصية بكيميائى كبير هو التيفاشى كما نلتقى بأطباء ورياضيين مختلفين وأيضا ببعض الجغرافيين. ويتكاثر اللغويون والنحويون فى العهد الصنهاجي ويلمع من بينهم عالمان لغويان كبيران هما القزاز وله معجم ومؤلفات لغوية كثيرة وعبد الدائم بن مرزوق حامل شعر أبى العلاء المعرى إلى القيروان والأندلس كما يلمع الحصرى بمختاراته الشعرية والنثرية فى كتابه زهر الآداب. ويضع ابن عصفور فى العهد الحفصى أسسا قوية لمدرسة نحوية تونسية ويقود ابن رشيق بكتابه: «العمدة فى صناعة الشعر ونقده» حركةً نقدية وبلاغية واسعة لافى إفريقيا التونسية وحدها بل فى جميع المغرب. وكان علم القراءة للذكر الحكيم نشيطا إلى أقصى حد، ونقل ابن خيرون قراءة ورش المصرى عن نافع قارئ المدينة، وهى القراءة المنتشرة فى جميع بلدان المغرب إلى اليوم، ولم يلبث أن ظهر فى القراءات إمام كبير هو مكى بن أبى طالب، ومن أعلام القراء فى العهد الحفصى اللبيدى وابن بدال وفى العهد العثمانى باطاق. ومن أوائل المفسرين للذكر الحكيم عكرمة مولى ابن عباس ويحيى بن سلام، ومن كبار المفسرين فى العهد الصنهاجي على بن فضال وفى العهد الحفصى ابن بزيزة وفى العهد العثمانى محمد زيتونة. ويتكاثر المحدثون منذ القرن الثانى الهجرى، ومن أهمهم البهلول بن راشد، ومن كبار المحدثين القابسى فى القرن الرابع والمازرى فى القرن السادس ومحمد بن عمر الأبىّ فى القرن التاسع ومحمد بن برناز فى العهد العثمانى. ويتعايش فى الفقه المذهبان الحنفى والمالكى فى القرنين الثانى والثالث، ومن فقهاء المذهب الحنفى عبد الله بن فروخ ومن فقهاء المذهب المالكى على بن زياد حامل كتاب الموطأ عن مالك وسحنون المشهور صاحب المدوَّنة التى حملها عن عبد الرحمن بن القاسم فى الفسطاط تلميذ مالك. ومن حملة المذهب الكبار فى القرن الرابع ابن أبى زيد. وكُتب له أن يسود ويعم جميع بلدان المغرب منذ حمل المعز بن باديس الصنهاجي الفقهاء والناس عليه. ومن أهم فقهائه المازرى المذكور بين المحدثين وابن بزيزة المذكور بين المفسرين وتلميذه محمد بن عبد السلام أستاذ ابن خلدون وابن عرفة. ويجعل العثمانيون الفتوى بيد الفقهاء الأحناف ولهم الكلمة العليا فى القضاء واشتهر بينهم غير فقيه كما اشتهر غير قليل من فقهاء المالكية مثل محمد الحجيّج وله حاشيتان على مختصر خليل فى الفقه المالكى.

وكل ما كان يدور فى المشرق من جدل فى المذاهب الكلامية كان يدور مثله فى القيروان، وقد تجادلوا طويلا فى مذاهب الخوارج ومبادئ الإرجاء وما تجادل فيه المعتزلة مع غيرهم فى مسائل

القدر وهل القرآن قديم أو حادث مخلوق، والتشبيه على الذات العلية. واشتد الجدال بين الفرق فى جامع عقبة واشتدت ضوضاؤهم مما اضطر سحنون حين ولى القضاء إلى تفريق حلقاتهم فيه وإبطالها، ومن كبار المتكلمين سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد وله منازلات ضارية مع دعاة العبيديين الشيعة ودائمًا هو الغالب المنتصر. وشاع من قديم المذهب الكلامى الأشعرى، وكانت له الغلبة فى العصور التالية.

وازدهرت الكتابات التاريخية مبكرة فى القيروان عن مغازى إفريقيا وأخبارها وحروبها وعن الدولة الأغلبية، وعُنى بعض المؤرخين بتاريخ الدولة العبيدية وسيرة مؤسسها عبيد الله المهدى، وتكاثرت الكتابة عن علماء إفريقية التونسية كما يلقانا عند أبى العرب والخشنى، وللرقيق القيروانى كتاب فى تاريخ إفريقية والمغرب، ولابن رشيق كتاب نفيس فى تراجم الشعراء باسم أنموذج الزمان، وللمالكى رياض النفوس فى علماء إفريقية وزهادها، وللدباغ كتاب معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان وعليه تعليقات لابن ناجى، وللتجانى رحلة مشهورة تكتظ بالعلماء والأدباء فى البلاد التونسية، وليحيى بن خلدون كتاب فى تاريخ بنى عبد الواد بتلمسان، وتتوّج الكتابات التاريخية بتاريخ ابن خلدون ومقدمته النفيسة وما فيه من أخبار البربر. ويكتب ابن المنتاق عن تاريخ الدولة الحفصية وابن أبى دينار عن تاريخ إفريقية وتونس فى كتابه المؤنس ومحمد السراج عن الأخبار التونسية فى كتابه الحلل التونسية، ويترجم حسين خوجة - فى كتابه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان - لفقهاء البلدان الكبيرة فى حقبة من حقب العهد العثمانى.

وقد عايشت اللغة البربرية لغتين متحضرتين: الفينيقية واللاتينية قرونا طويلة ولم تتحول إلى لغة متحضرة لها أبجديتها الخاصة وكتبها التاريخية، وظل من يتحضر منهم أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل فى أيام الرومان. وكان كثيرون من البربر قبل الفتح العربى يحسن اللاتينية نطقا وكتابة، وظلت بعد الفتح بقايا من ذلك. ولكن سرعان ما أخذت البربرية لغة الشعب بعد الفتح واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل فيها محلها العربية، وتظل البربرية حيَّة فى جزيرة جربة وفى البوادى والجبال، حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى امتزج البربر والأعراب وكوّنوا شعبا عربيا مكتمل العروبة فى اللغة والدين والملبس والمطعم والأخلاق والعادات والأحزان والأفراح، وكان هؤلاء الأعراب من بنى هلال وسليم ينطقون عربية فصيحة، وظلوا ينطقون بها حتى القرن السابع الهجرى، وكانت تشيع بجانبها عامية فى ألسنة أهل المدن، وأخذ لسان هؤلاء الأعراب يتأثر بها مع طول السنين، ويقول ابن خلدون إنهم هجروا الإعراب لعصره فى القرن الثامن الهجرى ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلوم ولغة الأدب الرفيعة، وبث فيها المهاجرون الأندلسيون فى القرنين السابع والحادى عشر روحا وانتعاشا.

ويكثر الشعراء في القطر التونسي منذ منتصف القرن الثاني الهجري بفضل ما أحدثه فيها واليها يزيد بن حاتم المهلبي من حركة أدبية واسعة بما صحبه إليهـا - ووفد عليـه - من الشعراء، وكان إبراهيم بن الأغلب شاعرا، وبالمثل كثير من أهل بيته، فراج في القيروان سوق الشعر وازداد رواجه في عهد الخلفاء العبيديين وكانوا جميعا شعراء وأجزلوا لمادحيهم في العطاء. وينهض الشعر نهضة عظيمة في عهد المعز بن باديس الصنهاجي، وكان ينثر العطايا على مادحيه نثرا ويقال إنهم بلغوا مائة عدًّا،وألف ابن رشيق كتابه أنموذج الزمان لعهده وترجم فيه لمائة من أفذاذ الشعراء ونابهيهم وجميعهم من معاصريه. وكان ابنه تميم جوادا ممدَّحا وكان شاعرا وقصده الشعراء من جميع الآفاق: كما قصدوا ابنه يحيى وحفيده عليا وابنـه الحسن، ولابن حمديس الصقلي وأمية بن أبي الصلت الأندلسي في الثلاثة مدائح طنَّانة سوى من كان يحف بهم من شعراء القيروان. ويتنافس حكام المدن بعهد أمراء الطوائف في جمع الشعراء حولهم على نحو ما يصور ذلك العماد الأصبهاني في كتابه الخريدة، وممن ذكرهم من شعراء أبي الحملات مدافع أمير مدينة قابس سلام بن فرحان القابسي وهـو من الشعراء المجيدين وذكر من شعـراء جبارة بن كامل أمير مدينة سوسه التراب السوسي وهو من الشعراء المبدعين. ومن الشعراء الأفذاذ لهذا العهد علي الحصري المهاجر إلى الأندلس وأبـوالفضل بن النحـوي وعبد الله الشقراطسي. ويزدهر الشعر في العهد الحفصي. ويفد على مدينة تونس كثير من شعراء الأندلس ويستقرون فيها ويبعثون فيها حركة شعـرية خصبـة مثل ابن الأبـار وابن عميرة وحـازم القرطاجني وابن القصير. وأخذ الشعراء يتكاثرون في تونس مثل عثان بن جابر وابن عُريبة ومحمد بن أبي الحسين وابن الشباط وابن السَّماط وابن حُسَينة والشهاب بن الخلوف. ويزاحم منذ القرن الثامن الشعر الشعبي الشعر الفصيح. ويضعف الشعر في أواخر العهـد الحفصي وأوائل العهد العثماني، وتبعث فيه هجرة الأندلسيين إلى الإقليم التونسي في القرن الحادي عشر الهجري غير قليل من النشاط ويسترد حيويته ونضرته في عهد الأسرة الحسينية على لسان أمثال علي الغراب ومحمد الورغي ومحمد ماضور وتكثر فيه المعارضات الشعرية. ويتكاثر أعلام الشعراء في جميع أغراض الشعر وفنونه منذ الحقب التاريخية الأولى. ومن أعلام المديح علي بن محمد الإيادي والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسي وابن عُرَيْبة وعبد الله التجاني وعلي الغراب والورغي، ومن أعلام الفخر والهجاء تميم بن المعز الصنهاجي ومحمد الرشيد الحسيني، ويتكاثر شعراء الغزل من أمثال علي الحصري وأحمد اللِّلياني ومحمد ماضور ومن شعراء الغربة والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبي الحسين، ويكثر شعراء الطبيعة من مثل عبدالواحد بن فتوح وابن أبي حديدة وأبي علي بن إبراهيم، وبالمثل شعراء الرثاء للأفراد والمدن والدول مثل ابن شرف القيرواني ومحمد بن عبدالسلام، ومن شعراء الوعظ أحمد الصواف وشعراء التصوف محرز بن خلف وأبوالفضل بن النحوي ومن شعراء المديح النبوي

الشُّقْراطسي وابن السماط المهدوي. ومع كل غرض من هذه الأغراض ما يوضح نشاط الشعراء فيه من الترجمة لنابهيهم وعرض روائع أشعارهم.

ونهض النثر مبكرا في القيروان وتونس على لسان الولاة والقواد وتأسست الدواوين منذ القرن الأول الهجرى، ونهض أبو اليسر الشيباني بالكتابة الديوانية لعهد الأغالبة نهضة عظيمة وكوّن فيها مدرسة، وأصبح لها فيها تقاليد متبعة، صوّرها القلقشندى في صبح الأعشى، واحتفظ برسالة ديوانية في العهد الحفصي بليغة بلاغة رائعة. وكثرت الرسائل الشخصية منذ القرن الثالث الهجرى بين استعطاف وعتاب ومديح وهجاء واستمناح وعزاء، وهى مسجوعة، ودخلها في الحقب المتأخرة غير قليل من التكلف. ونلتقى ببعض مقامات، وهى لا تقوم على أديب متسول وحيله الكثيرة في جذب السامعين وإثارة عطفهم، وإنما تقوم على موضوعات أدبية يراد بها إظهار التفنن في الكتابة الأدبية. وترجمت لثلاثة من أهم الكتّاب، هم أبو اليسر الشيباني رئيس ديوان الإنشاء في عهد الأغالبة، وإبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب، وابن خلدون درة تونس الفريدة

٣

وانتقلت إلى جزيرة صَقَلِّية، فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح إفريقية التونسية لها في عهد زيادة الله الأغلبي سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ونشر الدين الحنيف فيها ولغتها العربية وغزو الدولة الأغلبية فيها قَلَوْرِيَّة جنوبى إيطاليا واستمرار استيلائها عليها إلى نهاية أيام الدولة الأغلبية وفتحها لجزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م ونشرها للدين الحنيف فيها واللغة العربية، ولا تزال إلى اليوم تتكلم لكنة عربية تونسية ودخلت عليها تحريفات كثيرة بحكم طول الزمن وما وقع على لغة مالطة من تأثيرات. وولى للدولة العبيدية على صقلية ولاة حكموها حكما جائرا، إلى أن وليها الحسن بن أبي الحسين الكلبي سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م وظلت وراثية في أبنائه، وحكموها في القرن الرابع حكما سليما، واضطرب حكمهم، وساء سوءًا شديدًا في القرن الخامس، فثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى أمراء طوائف وبلدان، وتحارب ابن الثمنة أمير بلرم مع أمير قصريانَّة، وهُزم فاستغاث بالنورمان حكام قَلَوْرِيَّة، فأغاثه ملكهم روجار الأول، وسرعان ما تحولت الاستعانة به إلى الاستيلاء على مدينة بلرم سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢ م وما توافى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م حتى يكون قد استولى على جميع مدن صقلية. ويدور العام فيستولى على جزيرة مالطة سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م. ورأى روجار أن شعب صقلية العربى أكثر حضارة ومدنية من شعبه مع تفوقه عليه في شئون الزراعة والصناعة اليدوية، فأخذ يصانعه للإفادة منه وأخْذِ ما عنده مع التنكيل الفاشم به، وخفّف ابنه روجار الثانى وحفيده غليوم الأول

من هذا التنكيل البشع. غير أنه من الخطأ ما يقال من أنها عاملا المسلمين فى صقلية معاملة عادلة سمحة فإن ذلك إن صدق على تعاملها مع حاشيتها المسلمة فى بلرم فإنه لا يصدق على معاملتها العامة للمسلمين فى البلدان الأخرى على نحو ما يصور ذلك ابن جبير فى رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول. واستحالت المعاملة السيئة إلى عسف لا يطاق حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصى، فاتفق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م مع فردريك الثانى على إجلائهم إلى إفريقية التونسية. فجلوا عنها جميعا، وأجلى فردريك من كان بمالطة من المسلمين أو بعبارة أدق أجبرهم على الجلاء عنها إلى مدينة أمالفى (Amalfi) جنوبى إيطاليا.

وقد عامل المسلمون - طوال حكمهم لصقلية - أهلها المسيحيين معاملة سمحة كريمة أقصى ما تكون السماحة والكرم، فحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية. وكان بصقلية ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية مساعدوِن للوالى يسمون قوادا. كما كان لها قضاة عدول ومجموعة من الدواوين، من أهمها ديوان المحاسبة، وكانت صقلية تزخر بطيبات كثيرة من الرزق، فكان أهلها يعيشون فى رخاء واسع بفضل زروعها وصناعاتها الكثيرة. وانتقلت إليها صناعة الورق من القيروان ونقلتها عنها أوربا، مما أتاح لفوتنبرج اختراع الطباعة. ونلتقى فى صقلية بنفر من الزهاد أمثال القاضيين ميمون وابن أبى محرز وببعض من لهم ميول صوفية مثل أبى القاسم عبدالرحمن بن محمد البكرى.

وقد فتح النورمان صقلية العربية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، إذ رأوا -هم وملوكهم- سمو العرب المسلمين الحضارى، فحاولوا - بكل ما وسعهم - الإفادة من حضارتهم، ونكّل روجار الأول بالمسلمين تنكيلا شديدا، واضطرته هذه الحضارة أن يدفع ابنه روجار الثانى إلى تعلم العربية والإكباب على ثقافتها وعلومها، وأخذ الرومان يفيدون من نظم المسلمين وتراتيبهم الإدارية فى الجزيرة، واتخذوا لأنفسهم دواوين على شاكلة الدواوين العربية، واندفع غليوم الأول مثل أبيه إلى إتقان العربية ومعرفة علومها ودفع النورمانّ معه إلى اقتباس العلوم والفنون وعناصر الحضارة الإسلامية فتحضروا بعد أن كانوا متبدين، وانغمسوا فى تلك الحضارة، ومع ذلك ظلوا يقسون على المسلمين ويحاولون بكل ما استطاعوا فتنتهم فى دينهم الحنيف وازداد الظلم والعسف فى عهد أباطرة الألمان، مما اضطر من بقى بصقلية من المسلمين إلى الجلاء عنها نهائيا.

ونقل العرب إلى صقلية الإسلامية ما كان بالقيروان من حركة علمية، فإذا الشباب فيها يكبُّ على ما لدى علمائها من علوم دينية ولغوية، ويرحل منهم نفر إلى القيروان والمشرق للتزود من علمائها، ويرحل إليهم كثير من علماء القيروان لتزويدهم بالعلوم والآداب ونشير

خاصة إلى رحلة ابن رشيق القيروانى بكتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده إلى صقلية، مما كان له أثر بعيد فى نهضتها الأدبية لعهد الكلبيين وبعدهم، وهاجر إليها كثير من شباب الأندلس وعلمائه للتعلم والتعليم، وبالمثل من علماء المشرق وأدبائه وكتب المشرق ودواوينه. ويقول ابن حوقل إنه كان فى مدينة بلرم وحدها أكثر من مائتى مسجد وثلاثمائة معلم، مما يدل على أنه كان بها نشاط علمى واسع، ومثلها بقية المدن . وكان نحو نصف سكانها المسيحيين فئتين: فئة تتكلم الإغريقية، وفئة تتكلم اللاتينية، وربما كان فى الفئتين من يتقن اللغتين جميعا، وكان فيها مَنْ يتقن العربية، كما كان بين العرب من يتقن اللاتينية أو الإغريقية، وأهّل ذلك للاشتغال بترجمة بعض علوم الأوائل، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - أن الأمير إبراهيم الأغلبى مؤسس بيت الحكمة فى عاصمته رقّادة بجوار القيروان طلب إلى بعض الرهبان الصقليين المتكلمين بالعربية ترجمة بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية، كما يدل عليه طبيب صقلى يسمى أبا عبداقه كان يتقن الإغريقية ومعرفة أسماء العقاقير والأدوية رحل إلى الأندلس فى زمن عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) فضمه إلى من يشتغلون بالترجمة عن الإغريقية إلى العربية كتاب ديوسقيريدس فى الأدوية أو الصيدلة والنباتات. ومما يدل على شهرة صقلية حينئذ بالفلسفة وعلوم الأوائل أن نجد بعض متفلسفة الأندلس يهاجرون إليها. وكان بها علماء رياضيون متعددون ومهندسون كبار بشهادة عماراتها السامقة ومن تتردد أسماؤهم منهم فى الكتب. ورحل إليها غير لغوى من الأندلس ومن أشهر أبنائها ابن البِرّ وقد أسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكى صاحب كتاب تثقيف اللسان فى أغلاط العلماء وغيرهم، وهاجرت إلى صقلية دواوين كثيرة على يده ويد غيره كما هاجرت إليها كتب لغوية وبلاغية ونقدية كثيرة. ونلتقى بغير مقرئ للذكر الحكيم مثل محمد بن خراسان الصقلى وبغير مفسر مثل ابن ظفر وغير حافظ محدِّث مثل عتيق السمنطارى. ويتكاثر بها الفقهاء من قضاة وغير قضاة، ومن أهم فقهائها البراذعى ومحمد بن يونس التميمى وعبدالحق بن محمد القرشى.

وإذا تحولنا مع الثقافة إلى العهد النورمانى وجدنا علوم الأوائل تظل ناشطة فى صقلية ويعنى روجار الأول بترجمة الثقافة العربية ويتكفل بترجمة عيونها إلى اللاتينية القيروانية فى الطب والفلك وغيرهما قسطنطين الإفريقى، واشتهرت صقلية فى هذا العهد بفلكيين ورياضيين ومهندسين كبار من تلامذة الأساتذة فى العهد الإسلامى. وألّف الإدريسى الجغرافى المغربى لروجار الثانى كتابين جغرافيين للعالم كبير وصغير وبها خرائط جغرافية مهمة، ووضع له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان حريا بالإدريسى أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية الباهرة إلى حاكم عربى لا إلى حاكم نورمانى. وتظل العلوم اللغوية ناشطة فى العهد النورمانى وتسجل كتب التراجم أسماء غير عالم منهم سوى من بارحوا صقلية فرارا من الظلم

النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى وعثمان بن على الصقلى نزيل مصر وقد رحبت هى وأدباؤها وعلماؤها بهم أيما ترحيب. ويهاجر منها فى العهد النورمانى إمام كبير من أئمة القراءات هو ابن الفحام إلى الإسكندرية ومفسر صقلى مهم هو ابن ظفر وفقيه كبير بل إمام من أئمة الفقهاء والحفاظ هو المازرى.

ويزدهر الشعر بصقلية منذ عهد الأسرة الكلبية فى القرن الرابع الهجرى، ولو أن كتاب الدرة الخطيرة لابن القطاع الذى ترجم فيه لمائة وسبعين شاعرا فى عهد الكلبيين وصلنا لرأينا بوضوح مدى ازدهار الشعر فى أيامهم، وكأنه كان ينافس بهم شعراء الأنموذج لابن رشيق الذى ترجم فيه لمائة شاعر. وقد وصلتنا منه اختيارات مبتورة لأبى إسحق بن أغلب تشتمل على ثلاثة وأربعين شاعرا واختيارات أخرى لابن منجب الصيرفى المصرى تشتمل على تسعة عشر شاعرا وهى منشورة، وأهم من هاتين المجموعتين ما ضمنه العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة من اختيارات له من الدرة بلغت سبعة وأربعين شاعرا، وأضاف إلى مجموعته شاعرا من كتاب أمية ابن أبى الصلت من شعراء العهد الكلبى ثم ضم إليها اثنى عشر شاعرا فى العهد النورمانى اختارهم من كتاب لابن بشرون المهدوى يسمى المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر، وعرضتُ فى إجمال نشاط الشعراء فى عهد الأسرة الكلبية وأهم أمرائهم الذين التف حولهم شعراء صقلية والقيروان والجزائر. ثم تحدثت عن موضوعات الشعر الصقلى بادئا بالمديح وما نثره شعراء صقلية على الأمراء الكلبيين وعلى المعز بن باديس أمير القيروان وأمراء الطوائف من مدائح بديعة وما كان من تمجيد خلفاء هؤلاء الشعراء للملوك النورمان مكرهين إذ كانوا أسرى فى أيديهم فأشادوا بقصور روجّار الثانى: القبة والمنصورية والفوّارة، وكل ذلك - فى رأيى - على أمل أن يفكوا عنهم أغلال الأسر وقيوده، وترجمت لشاعر مهم من شعراء المديح فى عهد الكلبيين هوابن الخياط. وعرضت طائفة من غزليات بديعة لشعراء صقلية فى عهد الكلبيين والعهد النورمانى، وترجمت لشاعر بارع فى نظم الغزل هو أبوالحسن البلَّنوبى. وتحدثت عن شعر الفخر فى عهد الكلبيين مع الترجمة لأبى الحسن الطوبى، وألممت بشعر الوصف وتصوير الشعراء الصقليين للطبيعة الفاتنة وللمغنين والراقصين وترجمت لأبى عبداقه بن الطوبى مع عرض تصاويره البديعة، وعرضت روائع الشعراء فى الرثاء مع الترجمة لمحمد بن عيسى ومراثيه وما أودع فيها من لظى نار متقدة، وألممت بما لشعراء صقلية من زهد فى متاع الحياة ومناجاة لربهم مع الأمل فى عفوه ومغفرته، يوم يؤخذ العاصون بالنواصى ويسأل كل شخص عما قدمته يداه، مع الترجمة لابن مكى ودعوته إلى العمل الصالح قبل الموت والعزلة عن الناس، بل حتى عن الزواج وتكوين الأسرة وما يصاحبه من عواصف. وآخر الموضوعات التى عرضتها التفجع والحنين واللوعة التى لا تنطفئ جذوتها أبدا فى نفوس المهاجرين من صقلية الذين لم يهاجروا منها طوعا، وإنما هاجروا قسرا وفرارا من جحيم ظلم

لا يطاق. وقد ترجمت لابن حمديس الذى عاش مغتربا عن وطنه، يتفجع عليه ويتوجع له ويئن ويحنُّ حنينا ظامئا دائما إلى رؤية عشه وسكنه وكل يوم يأتيه ما يزيده يأسا من لقائه وحرمانا من رؤيته، وحاولت أن أرسم حياته منذ خرج من فردوسه فى الرابعة والعشرين من عمره سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى نهاية حياته غريبا فى بجاية، وهو فى أثناء ذلك يحاول أن يرسل إلى قومه فى صقلية شعلا من شعره تحمِّسهم وتدفعهم دفعا إلى جهاد العدو الباغى. وتسقط فى أيدى النورمان سرقوسة مسقط رأسه وقصريانة بعد نضال مستميت امتد سنوات. ويودعهما بقصيد جنائزية تسيل حزنا وألما ويأسا مريرا، وظل يبكى صقلية طويلا ويبكى معها راعيه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية حين نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات فى مراكش، وتعاوده مرارا ذكرياته فى صقلية ويذرف الدمع عليها حارا، ويلمع له شىء من الأمل حين ينتصر الحسن بن على بن تميم أمير المهدية على النورمان سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فيصوب إليهم قذيفة ملتهبة من مدحة له. وديوانه ضخم وليس فيه هجاء فقد كان أكرم على نفسه من أن يؤذى أحدًا إلى وفاته سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ويكتظ الديوان بكثير من المعانى والأخيلة المبتكرة. وهو يعد فى الذروة الرفيعة من شعراء العرب قاطبة.

وتحدثت عن النثر فى صقلية وكتَّابه البارعين، واحتفظ ابن بشرون المهدوى فيما عقد من ترجمات لبعض شعراء صقلية برسائل لهم بديعة، وترجم ابن بسام فى الذخيرة لكاتب بارع من كتابها قبل العصر النورمانى، هو ابن الصباغ، وأفردت له ترجمة، وبالمثل لابن ظفر .وعرضت له كتابين بارعين هما: أبناء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع. وألحقت بالحديث عن صقلية كلمة عن رحلة ابن قلاقس الإسكندرى إليها وأشعاره فيها ومدائحه لأعيانها ولغليوم الثانى وبعض قواده من النورمان، وربما اضطر إلى ذلك اضطرارا، وله فى راعيه هناك أبى القاسم بن الحجر كتاب سماه: «الزهر الباسم» ضمنه مدائحه فيه. والله أسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص فى القول والفكر والعمل وهو حسبى ونعم الوكيل.

شوقى ضيف

القاهرة فى ١٥ من أبريل سنة ١٩٩٢م



القسم الأول





الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

ليبيا أول أقاليم المغرب الممتد على البحر المتوسط غربًا من مصر إلى المحيط الأطلسي، وتنقسم من قديم إلى ثلاث مناطق: منطقة مجاورة لمصر هى برقة، ومنطقة مجاورة لتونس هى طرابلس، ومنطقة جنوبى طرابلس وصحرائها المتسعة خلف جبالها هى فزان أو منخفض فزان. وعلى طول البحر المتوسط سهل ساحلى يتراوح بين نحو ميل وعشرة أميال أو يزيد قليلا. ووراء طرابلس سلسلة جبال تسمى نُفوسة غربًا ويفرن فى الوسط وغريان شرقًا إلى أن تنقطع عند ترهونة فى أواسط منطقة طرابلس. وتعود الجبال إلى الظهور فى ساحل برقة من قرب بنغازى إلى درنة شرقًا وتسمى الجبل الأخضر. وتترامى وراء جبال طرابلس هضبة صحراوية متسعة بها جبال السودا، ومنذ واحة غدامس فى الغرب تصبح منطقتها ملاصقة للجزائر حتى أقصى الجنوب، ونلتقى عنده بجمهورية النيجر. والهضبة تمتد إلى ماوراء الساحل والجبال فى برقة وهى هناك رملية وترتكز على قواعد صخرية، وفى كثير من جهاتها تصبح أمواجًا متلاطمة من الرمال، وتمتد إلى شرقى مصر، وتترامى جنوبًا حتى تتصل بالسودان فى الجنوب الشرقى، وتلاصق تشاد فى أقصى الجنوب. ومنطقة فزان فى أقصى الجنوب إلى الغرب منخفض شديد الاتساع، وأعدّه ذلك من قديم لتكثر فيه الواحات والوديان. وتتميز ليبيا بكثرة الواحات، وتلقانا بكثرة فى ساحل طرابلس من زواوة فى الغرب إلى مصراته فى الشرق، ونلتقى بها فى

---

(١) انظر فى جغرافية ليبيا ومدنها كتاب المغرب فى بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبيدالبكرى، ومعجم البلدان لياقوت وكتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان وكتاب المغرب الكبير لمحمد على دبوز وكتاب محاضرات فى جغرافية ليبيا للدكتور إبراهيم أحمد رزقانه (نشر معهد الدراسات العالية بجامعة الدول العربية) وأطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس (نشر الزهراء للإعلام العربى – القاهرة).

ساحل برقة عند بنغازى ودرنة، وتكثر فى الداخل، وتلقانا على حدود مصر واحة جغبوب وغربيها واحة أوجلة وواحة جالو وإلى الجنوب واحة كفرة. والواحات كثيرة أيضا فى الصحراء المترامية بمنطقة طرابلس مثل واحة غدامس غربا وبونجيم شرقًا ومزدة إلى الشمال وغات فى أقصى الجنوب، وشماليها شرقى فزان واحة القطرون.

وإذا جاوزنا ساحل ليبيا والجبال وراءه وجدنا المادة الغذائية للأشجار والنباتات قليلة فيا عدا الواحات التى تخلع فيها الصحارى الليبية ثيابها الرملية الصفراء وترتدى حللا خضراء من حين إلى حين. ومن المؤكد أن فى الشمال وفى مناطق قريبة منه مساحات كثيرة قابلة للزراعة. غير أن المياه بصفة عامة قليلة، مما يسبب قلة الزروع، وأكثر جهات ليبيا أمطارا ساحل منطقة طرابلس والجبال وراءها وساحل برقة من بنغازى إلى درنة وماوراءهما من الجبل الأخضر. وتقل الأمطار فى خليج سرت وفى المناطق الصحراوية. ويمكن تلافى قلة الزراعة فى ليبيا بتوفير مياه كثيرة لها عن طريق ثلاث وسائل: أولاها حفر آبار ارتوازية، ومعروف أنه يمكن أن تتعمق فى الأرض إلى أكثر من مائة متر بينما الآبار العادية قلما تتعمق إلى أكثر من ثلاثة أمتار أوأربعة، وثانيتها تركيب مراوح هوائية على الآبار تديرها الرياح السريعة التى تهبّ هناك، وثالثة تلك الوسائل إصلاح السدود والصهاريج والقنوات المطمورة التى كانت مبنيَّة زمن الرومان أو محفورة للحفاظ على السيول المنحدرة من الجبال وعلى أمطار الشتاء المنهمرة حول المدن فى الشمال وفى الداخل. ومن المؤكد أن الزراعة كانت مزدهرة بليبيا أيام الرومان، إذ كانوا يعدّونها مخزنًا لغلاتهم وحاجتهم من زيت الزيتون. ومن أهم أشجارها - بجانب أشجار الزيتون - أشجار النخيل، وخاصة فى الواحات ويقال إن فى واحة غات خمسين نوعًا من البلح الليبى، ومن أشجارها اللوز، وتكثر فى الشمال كل أنواع الخضروات والفواكه والكروم، وتكثر فى طرابلس الثمار الحمضية مثل البرتقال والليمون واليوسفى. وعلى الجبال والهضاب والأجزاء الصحراوية مراع متسعة ترعى بها الإبل والبقر وقطعان الأغنام والخراف. والمعادن بليبيا كثيرة، فبجانب البترول المكتشف حديثا الكبريت ويشغل مساحة واسعة فى خليج سرت، ولذلك يسمَّى خليج الكبريت. ويوجد المرمر فى غربى طرابلس وبنغازى ويوجد فى الأخيرة الشب والفوسفات، وتشتهر فزان بالنطرون. والمظنون أن بليبيا معادن كثيرة مثل القصدير والرصاص والزنك والحديد. والمناخ فى ساحل ليبيا مناخ البحر المتوسط المعتدل فيما عدا خليج سرت، فمناخه وخيم. وأكثر اعتدالا وأقل حرارة فى الصيف مناخ الجبال وراء طرابلس وبرقة لارتفاع سفوحها ومصاطبها المختلفة، أما ما وراء الجبال من الهضاب والصحارى الداخلية فتشتد فيه الحرارة كلما توغّلنا جنوبًا حتى لتصبح بعض الأنحاء فى الصيف أشبه بحمامات عالية الحرارة، فضلا عما يهبُّ فيها من لهب متّقد محمَّل بغلالات ساخنة من التراب والرمل اللافح.

٢

التاريخ القديم[١]

تاريخ ليبيا المغرق فى القدم يختلف باختلاف منطقتيها الغربية والشرقية: منطقة طرابلس ومنطقة برقة. ومعروف أن الفينيقيين ارتادوا ساحل طرابلس فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد بقصد التبادل التجارى مع أهلها الليبيين. وكانوا شعبًا مِلاحيًّا عريقًا يحترف التجارة، مما جعلهم يجوبون سواحل إفريقيا الشمالية وإسبانيا فى القرن المذكور وبعده. وفى أول الأمر كانوا يقنعون بإقامات مؤقتة فى أثناء تبادل العروض (السِّلع) التجارية مع شعوب الأقاليم والمناطق التى نزلوا فيها، ومع الزمن آثروا أن يقيموا لهم مدنا - أشبه بمستعمرات - ليتخذوها مراكز ثابتة لما يحملون وينقلون من عروض تجارية. وفى تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أقاموا على ساحل طرابلس ثلاث مدن متقاربة، هى طرابلس، وكانوا يسمونها وايات Vaiat وحرَّفها الرومان فسمُّوها أويا Oea وأقاموا غربيها مدينة صبراته Sabrata فى موضع العجيلات الحالية وسماها العرب صبرة ومعناها بالفينيقية سوق القمح، وهو اسم يرمز إلى ما ستئول إليه المنطقة فى عهد الرومان إذ سيعدُّونها مخزن قمح لهم. وأقام الفينيقيون شرقى أويا أو طرابلس مدينة لبدة Leptis فى موضع مدينة الخمس الحالية.

وهذه المدن الثلاث سماها اليونان Tripolis أى المدن الثلاث وأطلق العرب هذا الاسم على أويا Oea فأصبح اسمها طرابلس، وسُمِّيت بها المنطقة جميعها فيما يقابل برقة فى المنطقة الشرقية من ليبيا.

وإقامة الفينيقيين لهذه المدن الثلاث الكبيرة تشير بوضوح إلى نقلهم الليبيين نقلة كبرى من

---

(١) انظر فى تاريخ ليبيا عامة فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيروانى (قطعة منه - طبع تونس) وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس لابن أبى دينار ورحلة التجانى والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان الباروفى وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ الفتح العربى للطاهر الزاوى وأعلام ليبيا له، والمنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النائب الأنصارى وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس وتاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز وتاريخ ليبيا للدكتور إحسان عباس وليبيا بين الماضى والحاضر للدكتور حسن محمود.

حياة التجوال والرعى إلى حياة الاستقرار والزراعة. ويُظَنّ أنهم أدخلوا إلى منطقة طرابلس زراعة الفواكه مثل الخوخ والتين والبرقوق والكروم. والنباتات التى تنتج الحنّاء والزعفران والشيح، وبعض الأشجار مثل أشجار اللوز وربما أشجار الزيتون أيضا. وبذلك بنوا فى مدن طرابلس نشاطًا زراعيًا بجانب نشاطهم التجارى. وخلفهم فى المنطقة بالقرن الخامس قبل الميلاد أبناء عمومتهم القرطاجيون، واتسعوا بالضربين من النشاط التجارى والزراعى فى طرابلس. وفى عهدهم أخذت تنظّم الصلة بين مدن الساحل الطرابلسى الثلاث وبين الواحات الداخلية وغدامس وغات وفزان، بل أخذت القوافل التجارية تتغلغل فى قلب إفريقيا وتنقل من تلك الأنحاء الرقيق والعاج وريش النعام، ويظن أن الواحات المذكورة آنفًا كانت تستشعر الولاء للقرطاجيين.

وتتوالى الحقب حتى إذا اصطدم القرطاجيون بالرومان وتمت الغلبة للأخيرين استولوا على طرابلس ومدنها من أيدى القرطاجيين سنة ١٤٦ قبل الميلاد. وفى عهدهم ازداد ازدهار المدن الطرابلسية الثلاث ووجهوا حملة إلى غدامس وفزان استولت عليها، واتسعوا بالنشاط التجارى إلى قلب إفريقيا، وأرسلوا لذلك ثلاث حملات استكشافية، أولاها لكشف مناطق طرابلس الجنوبية، والثانية لكشف أو اكتشاف السودان والثالثة لاكتشاف السودان الغربى. ويبدو أن أسرًا رومانية كثيرة استوطنت منطقة طرابلس يدل على ذلك مالا يزال إلى اليوم من كثرة الأطلال لمعابد وحصون وأبراج ومقابر وتماثيل ونُصب عليها كتابات لاتينية متآكلة، ولا نلتقى بها فى المدن الكبرى الثلاث: أويا وصبراته ولبدة فحسب. بل نجدها أيضا فى أماكن مختلفة على الساحل مثل ترهونة وفى مواضع مختلفة منها إلى طرابلس وأيضا فى الداخل مثل يفرن فى المنطقة الجبلية الوسطى إذ على برج بها كتابات لاتينية، ومثل بونجيم إذ فى الشمال مَبْنى رومانى كبير به كتابة لاتينية نقشت عليه سنة ٢٠١ للميلاد باسم الإمبراطور الرومانى سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكان قد ولد ونشأ فى مدينة لبدة إحدى المدن الطرابلسية الثلاث المذكورة آنفًا، ثم رحل إلى روما ليكمل تعلمه وتطورت به الظروف إلى أن أصبح إمبراطورا للدولة الرومانية، وقد أعفى أهل بلدته الطرابلسية: لبدة من الضرائب الحكومية، وتقديرًا منهم لصنيعه كانوا يهدون روما سنويًّا كمية وافرة من الزيت، ويقال إنها حين وزِّعت على سكان روما بعد وفاته سنة ٢١١ للميلاد كفتهم خمس سنوات. وحين اعتنقت روما المسيحية وعملت على نشرها فى الولايات التابعة لها نشرتها أو حاولت نشرها فى طرابلس لما كان بها من جالية رومانية كبيرة، وتدل على ذلك بعض الكنائس المطمورة فى الأماكن الأثرية الرومانية. وعُنيت روما عناية واسعة بازدهار الزراعة فى طرابلس إذ كانت تعدها – كما أشرنا – مخزنها الضخم للغلال ولزيت الزيتون وغير ذلك من الطيبات، وهو ماجعلها تكثر فيها

من القنوات لحمل مياه الأمطار من الجبال كما تكثر من الخزانات والصهاريج والسدود على الوديان لخزن مياه الأمطار وتوزيعها على الزروع. وازدهار الزراعة - حينئذ - جعل القرى والبلدان تكثر فى الأنحاء الشمالية من منطقة طرابلس، كما جعل السكان يزدادون بها زيادة كبيرة.

وإذا كان الفينيقيون والقرطاجيون نزلوا طرابلس قديما قرونا متعاقبة فإن اليونان هم الذين نزلوا برقة قديما على نحو مايحدثنا هيرودوت فى تاريخه، إذ يذكر أن السكان اليونان ازدادوا زيادة كبيرة فى إحدى جزر بحر إيجه، فأرسلوا فى سنة ٦٥٠ قبل الميلاد بعثة منهم إلى الشاطئ الإفريقى فى اتجاه برقة لعلها تجد لهم أراضى صالحة للنزوح إليها،ونزلت البعثة فى جزيرة بلاتيا بخليج بمبه شرقى درنة، وبعد سنوات قليلة نزحوا منها إلى الشاطئ الإفريقى، وأسسوا به مدينة سيرين Cyrene (شحات الحالية) غربى درنة، ثم أسسوا أربع مدن أخرى غربيها، هى على الترتيب Appollonise (سوسة الحالية) وBarca (سميت منذ القرن السادس الهجرى المرج مع أن المنطقة مسماة باسمها: برقة) وArsimoenoe (طوكره الحالية) وBerenice (بنغازى الحالية) وأطلق اليونان على هذه المدن اسم بنطابلس Pentapolis أى المدن الخمس. وغلب على المنطقة جميعها اسم برقة كما ذكرنا وبالمثل غلب على منطقة ليبيا الغربية اسم طرابلس.

وظلت سيرين تعد مدينة برقة الأولى فى عهد اليونان، ولذلك سموا أراضى الساحل حتى بنغازى باسم سيرينايكا. وعلى نحو عناية الفينيقيين والقرطاجيين والرومان بالتجارة فى طرابلس عُنى بها اليونان فى سيرينايكا أو برقة مما جعلها تنشط فى عهدهم بين مدنها الخمس وبين الواحات الداخلية من جهة، وبينها وبين السودان من جهة ثانية، فكانت القوافل التجارية تسير منحدرة وصاعدة بين بنغازى وسيرين فى أقصى الشمال وواحات كفرة وأوجلة وفزان، ويتغلغل بعضها إلى السودان وخاصة إلى دارفور ووادای حاملة من هناك الرقيق وسنّ الفيل وريش النعام والكركم. وكانت برقة على علاقة حسنة مع مصر، وتوطّدت هذه العلاقة بعد موت الإسكندر المقدونى وقيام دولة البطالسة بمصر إذ أصبحت جزءًا من دولتهم مما نشّط تجارتها مع مصر إما عن طريق شاطئ البحر المتوسط والإسكندرية، وإما عن طريق الصحراء وواحة سيوة. وتدخل برقة فى حوزة الرومان سنة ٩٦ قبل الميلاد، وبذلك تصبح ليبيا جميعها شرقًا وغربًا فى نطاق دولتهم الرومانية، ولذلك تلتقى فيها الآثار اليونانية بالآثار الرومانية، وتكثر الأولى فى سيرين (شحات الحالية) حيث تُرى بها أطلال لآلهة اليونان ومقابرهم ولمدرجات مسارحهم، وتلك المدرجات سمة دائمًا لليونان فى كل بلد أقاموا به، وحاكاهم فى ذلك الرومان. وقد ذكر بنتاءور الشاعر اليونانى فى القصيدة التاسعة من قصائده مدينة سيرين. وأخذت

مكانتها تهبط منذ قضى الإمبراطور الرومانى تراجان على ثورة اليهود بها. وما تصل إلى القرن الثالث الميلادى حتى تصبح أنقاضًا وأثرًا بعد عين. وتابعت روما فى برقة صنيعها فى طرابلس من حيث العناية بالزراعة إذ كانت تعدُّها جميعا مخزنين لما يلزمها من الغلال، فحفرت لذلك كثرة من القنوات تُرَى - إلى اليوم - وراء ساحل برقة وقد طمرتها الرمال، كما تُرَى هناك آثار السدود والخزانات والصهاريج التى أقامها الرومان واليونان بطالسة وغير بطالسة فى كل مكان شمالا، وتحجب كثرتها عن البصر اليوم الأتربة والرمال التى انهالت عليها عَبْرَ القرون.

وهذا النشاط الزراعى وما اتصل به من النشاط التجارى أَهَّل برقة قديما لرخاء جعل المدن - بجانب مدنها الخمس المارة - تكثر فيها مثل درنة وطبرق، واشتهرت الأخيرة بأن جيزيلا أحد ملوك إسبرطة المشهورين كان يتخذها دار إقامة له.

وما يوافى العقد الرابع من القرن الخامس الميلادى حتى تغزو جموع الواندال الجرمانية الشمال الإفريقى وتسقط على ليبيا - كأمواج من جراد - تعيموتفسد فى البلاد لنحو مائة عام، بل تدمِّر وتُحَطِّم كل ما شاده الفينيقيون والقرطاجيون والرومان فى طرابلس وكل ما شاده اليونان والرومان فى برقة إلى أن تجرَّد لهم القائد البيزنطى بليزير Bélisaire وكشف غُمَّتهم عن صدر ليبيا سنة ٥٣٤ للميلاد وأصبحت - من حينئذ - تابعة لبيزنطة. ولا نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع حتى نجد إمبراطور بيزنطة يُتْبع ليبيا لحاكم الإسكندرية، إذ تذكر المصادر العربية أنه حين فتح عمرو بن العاص ليبيا كانت برقة تتبع هذا الحاكم، بينما كانت طرابلس تتبع حاكم قرطاجة بإفريقية التونسية المعروف عند العرب باسم جرجير تحريفا لاسمه الحقيقى جريجوريوس، ويبدو أنه حين رأى عمرو بن العاص يستولى على مصر سارع بالاستيلاء على طرابلس ليحوز لنفسه شيئا من الغنيمة، إذ رأى الدولة البيزنطية توشك على الانهيار.

٣

من الفتح العربى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى

لما أَتَمَّ عمرو بن العاص السياسى البصير فتح مصر واستقامت له رأى أن يؤمِّن حدودها الغربية ضد الدولة البيزنطية حاكمة الشمال الإفريقى حينذاك، فأعدَّ جيشا فى أواخر سنة ٢١ للهجرة فتح به برقة، إذ استجابت له سريعا، وأرسل ابن خالته عقبة بن نافع إلى الداخل،

ففتح الديار فى الصحراء حتى وصل إلى زويلة حاضرة فزان، واستسلمت سنة ٢٢ للهجرة. وبعد أن رتب عمرو بن العاص شئون الحكم فى برقة اتجه إلى طرابلس ففتحها سنة ٢٣ للهجرة، واستعان ببعض قواده فى فتح ما بقى من بلدانها وبلدان برقة. وتمّ ذلك كله فى عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب واستتم عمرو بن العاص فى سنة ٢٣ فتح نفوسة وبذلك عمت ديار ليبيا جميعًا أضواء الإسلام. وظل عمرو طوال هذه السنة والسنة التالية أو أكثرها ينظّم شئونها، وترك لأهلها أن يجمعوا بأنفسهم الجزية والضرائب المفروضة ويؤدّوها فى الموعد المضروب. وكانت هذه سياسة رشيدة، ولم تُفرض ضرائب فادحة كما كان الشأن أيام الدولة البيزنطية، وأحسَّ البربر فى ليبيا بتعاليم الإسلام فى العدل والمساواة المثلى بين من يسلمون منهم وبين العرب، فأقبلوا على الدين الحنيف وأخذ يعتنقه كثيرون منهم. ويعود عمرو إلى مصر مخلفًا وراءه ابن خالته عقبة بن نافع. ويتولى الخلافة بعد عمر عثمان بن عفّان، فيولّى على مصر عبد الله بن أبى سرح سنة ٢٥ للهجرة وتظل ليبيا لأيامه هادئة حتى فتنة عثمان سنة ٣٥ للهجرة، فتضطرب الأمور فيها وفيا وراءها من إفريقية التونسية، ويتولّى عمرو بن العاص مصر ثانية لعهد معاوية. ويعنى معاوية ببرقة وطرابلس وإفريقية ويجعلها ولاية مستقلة ويولى عليها معاوية بن حُديج السَّكونى سنة ٤٥ للهجرة، ويولّى بدوره رويفع بن ثابت الأنصارى على طرابلس، ويترك معه كتيبة، ويدور عام وقيل بل عامان ويفتح رويفع جزيرة جربة شرقى مدينة قابس. حتى إذا كانت سنة ٥٠ للهجرة ولّى معاوية على المغرب جميعه عقبة بن نافع، فرأى بثاقب بصيرته أن يتخذ للجيش العربى قاعدة تكون معسكرا له، فيها ينزل الجيش ويسكنها ويخرج منها لمتابعة الفتوح فى المغرب، واختار موقعا فى داخل إفريقية التونسية غربى ميناء سوسة على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وشيد فيه مدينته وسماها القَيْروان أى المعسكر، وجعل حولها سورا من القرميد، وشيّد فيها جامعًا كبيرًا، وسرعان ما استحالت القيروان مدينة ضخمة واستحال جامعها جامعة كبرى، ويعيد عقبة إلى إفريقية الهدوء والاستقرار ويقضى على الحكم البيزنطى فى الشمال الإفريقى جميعه. وبمجرد إتمامه لمدينته سنة ٥٥ للهجرة عُزل، وتولّى المغرب أبو المهاجر، وقد نازل قبيلة أوربة من البرانس وزعيمها كُسَيْلة فى تلمسان ودارت عليها الدوائر، وأسر كسيلة ودخل فى الإسلام. وتولّى الخلافة يزيد بعد أبيه معاوية، فأعاد إلى المغرب عقبة بن نافع سنة ٦٢ للهجرة، فسار بجيش ضخم اخترق به الجزائر والمغرب الأقصى حتى بلغ المحيط الأطلسى، وكان قد وبّخ كُسَيْلة زعيم أوربة لما كان من حربه للمسلمين فأسرّها فى نفسه، وصمم على الانتقام، وفى عودة عقبة بالجيش تأخر عنه فى كتيبة صغيرة بجبال الأوراس جنوبى مدينة بِسْكرة فى الجزائر وكان كسيلة قد جمع من أنصاره جمعًا كبيرًا ، فانتهز الفرصة وهجم على عقبة وصحبه واستشهد البطل العظيم، وأقيم له مسجد ضمّ رفاته، وسميت المنطقة باسمه: سيدى عقبة.

ويتولى المغرب حسان بن النعمان (٧١ – ٨٥ هـ) فيثبِّت الدين الحنيف هناك ويدخل فيه البربر أفواجًا، إذ سوَّى – حسب تعاليم الإسلام – بين البربر والعرب فى كل شيء: فى الأعطيات وفى الخراج وفى الجيش فلا فرق بين جند عربى وجند بربرى لا فى المعاملة ولا فى الفَيْء وغنائم الفتوح، ولو أن الولاة فى القرن الثانى اتبعوا هذه السياسة مع البربر ما انتقضوا عليهم ولأشهروا السلاح ضدهم كما سنرى عما قليل. وأسَّس حسان مدينة تونس وبنى بها دار صناعة متخذًا منها نواة لإنشاء أسطول مغربى عربى لحماية السواحل المغربية من القراصنة والمغامرين الأوربيين، واستقدم من مصر ألف أسرة قبطية للمساعدة فى إنشائه. ونظَّم إدارة الحكم والدواوين تنظيما دقيقا. وأتمَّ هذا التنظيم بعدهُ موسى بن نصير والى المغرب الجديد (٨٥ – ٩٦ هـ) إذ جعل المغرب خمس ولايات: ولاية بَرْقة، وولاية إفريقية التونسية ومعها طرابلس، وولاية المغرب الأوسط، وولاية المغرب الأقصى، وولاية السوس أو سجلماسة. وكان يرسل لبرقة وطرابلس عمَّالا أو وُلاة كانوا يُعَدّون مستقلين فى الشئون الداخلية للمنطقتين، مع إرسالهم نصيبا من الضرائب وبعض الجنود إلى القيروان. وعمل موسى – بكل ما فى وُسْعه – على نَشْر الدين الحنيف بين البربر بإنشائه فى أنحاء المغرب لكتاتيب كثيرة تحفظ فيها الناشئة القرآن الكريم مع إحسانها لتلاوته ومع تعليمها بعض مبادئ الدين الحنيف. وتمَّ هذا الرسوخ للإسلام فى المغرب وأرجاء ليبيا لعهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) الخليفة التقىّ إذ أرسل إلى المغرب عشرة من كبار الفقهاء للعمل على نشر الدين الحنيف هناك، واختار أحدهم واليًا على المغرب جميعه هو إسماعيل بن أبى المهاجر المخزومى واستجاب إليهم آلاف من البربر حتى ليمكن القول بأننا لا نصل إلى مطلع القرن الثانى الهجرى حتى يصبح المغرب جميعه دارًا إسلامية يؤدِّى فيها الجمهور الأكبر فروض الدين الحنيف.

ولا تعود ليبيا وما وراءها من المغرب تحظى بوال من أمثال ابن أبى المهاجر وموسى بن نصير وحسان بن النعمان وعقبة بن نافع منذ وفاة عمر بن عبد العزيز، فقد أخذ يتولى المغرب ولاة ساموا البربر كثيرًا من العسف والظلم، حتى إذا تولى عبيداقه بن الحبحاب المغرب زاد الطين بِلّة، بتشدده فى جباية الأموال من البربر ورفضه رفضًا باتًّا التسوية بينهم وبين العرب. وانتهز الفرصة دعاة الخوارج من صفرية وإباضية ودعوا بقوة إلى مبادئهم فى التسوية المطلقة بين العرب والموالى من بربر وغير بربر فى جميع الحقوق والشئون المالية، وحتى فى الخلافة نفسها فلا تقتصر على قريش وأبنائها بل يتولاها أكفأ المسلمين ولو كان عبدًا حبشيًّا. واستجاب المغرب الأقصى سريعًا لمبادئ الصفرية ونشبت فيه ثورة سنة ١٢٢ للهجرة، وتهزم جيوش الدولة جيشًا من وراء جيش إلى أن يكتب لها النصر بعد سنوات. أما مذهب الإباضية فقد انتشر انتشارًا واسعًا فى طرابلس وجبل نفوسة وغربى ليبيا، وكان قد أصبح زمام الحكم فى

المغرب بيد عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع منذ سنة ١٢٦ للهجرة، فأخذ يرقبهم ويكثر من العيون عليهم، وعرف أن رئيسهم فى طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبى، فأرسل إليه أخاه إلياس فى قوة عسكرية كبيرة فقتله. ولم تنته بذلك الحركة الإباضية فى طرابلس فقد بايع الإباضيون فى طرابلس بعده بالإمامة الحارث بن تليد الحضرمى سنة ١٣٠ للهجرة واتخذ وزيرا له عبد الجبار بن قيس المرادى، والمظنون أنهما كانا من جيش أبى حمزة الخارجى الذى أرسله الإمام طالب الحق اليمنى لفتح الحجاز ومدينتيه المقدستين، ولم يكتب له النصر أخيرًا على الجيش الأموى، وتسلل من جيشه الحارث وعبد الجبار إلى طرابلس، وأخذا يدعوان للمذهب بها، ونجحت دعوتهما وبويع الحارث إماما، وأرسل إليه عبد الرحمن بن حبيب جيشًا، ويقال بل ذهب إليه بنفسه على رأس جيش، غير أن جيشه هزم شر هزيمة، وأصبح إقليم طرابلس من سرت فى ليبيا إلى قابس فى إفريقية التونسية يعترف بإمامته معتنقا لمذهب الإباضية. وفى سنة ١٣٢ للهجرة يقتال الحارث بن تليد ووزيره عبد الجبار فى ظروف غامضة، ويدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس ويفتك بكثيرين من زعماء الإباضية.

وتعيش طرابلس وإقليمها نحو ثمانى سنوات فى هدوء، حتى إذا كانت سنة ١٤٠ للهجرة ثار الإباضية بقيادة إمامهم أبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى واستولى على طرابلس وأعلن بها إمامته، وكان حازمًا مقدامًا جسورًا غيورا على الدين، وكانت قبيلة ورفجومة الصفرية استولت على القيروان منذ سنة ١٣٨ للهجرة واستباحتها واستحلت المحارم وارتكبت كثيرًا من المآثم والفظائع بها وجروحها تنزف بالدماء وأهلها يكثرون من العويل ولامغيث، وعلم أبو الخطاب بعيْث ورفجومة واستحالة أبنائها فى القيروان إلى ذئاب هائجة مسعورة، فثارت ثائرته واتقدت حميته لأهلها وأعدَّ فى سنة ١٤١ للهجرة جيشًا ضخمًا نازل به ورفجومة النفزاوية فى معركة طاحنة قتل فيها قائدها عبد الملك بن أبى الجعد وهزمت هزيمة ساحقة، ودخل أبو الخطاب القيروان وطهَّرها من رجس هذه القبيلة الباغية، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم واليا عليها من قبله، وعاد إلى طرابلس عاصمته. وكل ذلك علم به الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور، فاختار أحد قواده العظام محمد بن الأشعث وولاه على المغرب، وأرسل معه جيشًا بالغ الضخامة فى نحو سبعين ألف مقاتل يقودهم صفوة كبيرة من القواد، ونشبت بينه وبين أبى الخطاب معركة حامية الوطيس سنة ١٤٤ للهجرة قتل فيها أبو الخطاب وأكثر أنصاره بحيث لم تقم للإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة بعدها قائمة. وفرَّ عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تيهرت فى المغرب الأوسط، وبها أقام للإباضية دولة ظلتْ نحو قرن ونصف. ويتولى المغرب يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٣ للهجرة ويعود النظام والاستقرار والهدوء إلى طرابلس حتى نهاية ولايته سنة ١٧٠ وقد ضم برقة إلى مصر. وتولى المغرب بعد يزيد أخوه روح بن حاتم

ثم هرثمة بن أعين حتى سنة ١٨١ وكان عهدهما عهد أمن وطمأنينة فى طرابلس. وكان الخليفة العباسى هرون الرشيد سئم من كثرة الاضطرابات والثورات فى البلاد المغربية، فسأل عن مقدام جرئ سيوس يستطيع ضبطها ضبطًا محكمًا فأشار عليه قائده هرثمة بن أعين بإبراهيم بن الأغلب التميمى لما يعرف من كياسته ورجاحة عقله،فمنحه حكمها هو وأولاده وأحفاده طوال إقرارهم النظام فيها والأمن، وبذلك تأسست فى إفريقية التونسية دولة الأغالبة منذ سنة ١٨٤ للهجرة حتى سنة ٢٩٦ وتبعتهم طرابلس وظلوا يرسلون إليها عمالا وظلت ثوراتها لا تهدأ بسبب من كان فيها وفى جبل نفوسة من الإباضية، وكان إباضية تيهرت لا يزالون يمدون إلى إباضيتها عونًا مستمرًا. ولعل ما كان يوليها الأغالبة من الأهمية هو الذى جعلهم دائما يولّونها ولاة بارزين من الأسرة. وكثيرًا ما كانت تنتقض عليهم، على نحو ما حدث سنة ١٩٦ فى عهد واليها عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب، واستطاع القضاء على الثورة، ومن أهم ولاتها من أبناء الأسرة أبو العباس عبد الله بن محمد الأغلبى، ونقله الأمير أبو الغرانيق، ثم أعاده إلى طرابلس، ومنهم أحمد بن سوادة الأغلبى وكان شاعرًا بارعًا ومحمد بن زيادة الله الثانى وكان أديبًا وشاعرًا وخطيبًا ومؤلفًا بارعًا، ونفس عليه ذلك ابن عمه إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وغار من سمعته الطيبة عند خليفة بغداد الرشيد فتسلل إليه خفية فى طرابلس وقضى عليه. وفى عهد هذا الأمير الأغلبى شهدت برقة سنة ٢٦٥ ثورة عباس ابن والى مصر أحمد بن طولون على أبيه، واتخذها قاعدة له وجهز منها حملة كبيرة زحف بها على طرابلس، غير أن جيش عاملها الأغلبى محمد بن قرهب هزمه وردّه على أعقابه. ولم يلبث أبوه أن قضى على ثورته سنة ٢٦٨ وولى على برقة عاملا يصلح فيها ما أفسده ابنه. وثار جبل نفوسة فى سنة٢٨٣ ثورة عنيفة قضى عليها إبراهيم بن أحمد الأغلبى قضاء مبرما.

وحين قضت الدولة العبيدية الفاطمية على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ حاولت أن تبسط سيادتها على طرابلس وتم لها ذلك، وأرسل مؤسسها عبيدالله المهدى جيشًا إلى برقة، فاستولى عليها من يد واليها العباسى، وكانت برقة سُنّية وطرابلس إباضية، وكانتا ترفضان العقيدة العبيدية الإسماعيلية، ولم تلبث طرابلس فى سنتى ٢٩٩-٣٠٠ للهجرة أن حملت لواء الثورة فى وجه ماقنون واليها من قِبَل عبيدالله المهدى وفتكوا برجاله من قبيلة كتامة التى كانت تؤيد الدعوة الفاطمية وأتاحت للمهدى استيلاءه على صولجان الحكم من أيدى الأغالبة. وصمم المهدى على الانتقام من طرابلس وأهلها، فجرّد لها حملة كبيرة بحرية وبرية ولم يلبث أسطوله أن قضى على الأسطول الطرابلسى، وضُرب الحصار برًّا حول طرابلس حتى ساءت أحوال أهلها سوءًا شديدًا، فطلبوا الأمان. فأمنهم القائد أبو القاسم بن المهدى، وكان فى الجيش معه أحد أبناء طرابلس ممن كانوا قد سارعوا بالالتفاف حول المهدى، وكان ابنًا عاقًا فعذب أهل بلدته ونكل

بهم وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار، واستكانت طرابلس. وفى سنة ٣٠٤ ثارت برقة فنكل بها العبيديون تنكيلا شديدًا. وفى سنة ٣١٠ ثار الإباضيون فى جبل نفوسة ثورة عنيفة، وقضت عليها جيوش العبيديين . وتظل ليبيا غربا وشرقا خاضعة لهم إلا ثورات صغرى كثورة أبى حاتم وثورة أبى يحيى الإباضيين وقَضَى على الثورتين يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤-١٧٠ هـ). وحرى بنا أن نذكر أن من أهم قضاتهم الذين كانوا يرسلون بهم إلى طرابلس لنشر دعوتهم القاضى النعمان صاحب المؤلفات المشهورة فى الدعوة إلى العقيدة الإسماعيلية الفاطمية، وتبع المعز الفاطمى فى ارتحاله إلى عاصمته الجديدة: القاهرة سنة ٣٦١ للهجرة. وكان المعز قد ترك على بلاد إفريقية التونسية والمغربين الأوسط والأقصى بلكِّين بن زيرى زعيم قبيلة صنهاجة، وجعل جبل نفوسة تابعا له، وفصل عن ولايته طرابلس وبرقة ملحقا لها بمركز الخلافة فى القاهرة، وجعل لكل منها واليا تابعا له، ولم يدم ذلك لطرابلس طويلا، فإن بلكين ألحَّ على الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) أن يلحقها بولايته هى ومنطقتها، وأجابه إلى أمنيته سنة ٣٦٧ وولى عليها بلكِّين حتى سنة ٣٧٣ هـ ولاة من قبله، وخلفه ابنه المنصور ثم حفيده باديس سنة ٣٨٦ للهجرة وأخذ يرسل إليها بدوره ولاة مختلفين، كان آخرهم عسيلة بن بكار سنة ٣٩٠ فخانه بتسليمها إلى يانس الصقلى حاكم برقة، وأرسل إليه باديس أحد قواده على رأس جيش حاصر طرابلس. وفى هذه الأثناء تسلَّل إلى طرابلس مغامر من قبيلة زناتة يسمى فلفل بن سعيد واستولى عليها وأسَّس بها دولة بنى خزرون، وأخذت تكثر بها الاضطرابات والمنازعات بين أفراد الأسرة ومن الطريف أنه تأسس فى طرابلس حينئذ مجلس شورى يساعد الحاكم الخزرونى فى تصريف الأمور، وأول من رأسه على بن محمد بن المنمر، وقد قضى هذا المجلس على آثار المذهب الشيعى فى طرابلس وثبت المذهب المالكى السنى بها، وظلت أسرة بنى خزرون تحكم طرابلس حتى منتصف القرن الخامس الهجرى. وإذا ولينا وجوهنا نحو برقة فى تلك الفترة وجدنا أمويا أندلسيا يسمى أبا ركوة يدعو لنفسه فيها بالخلافة، ويتبعه بنو قرة البرقيون أصحاب الجبل الأخضر، ويحاربون معه الفاطميين ثم يتخلَّون عنه ويقتل. وتظل الزعامة فى برقة لبنى قُرَّة طوال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى.

٤

من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجرى

هاجرت إلى ليبيا وإفريقية التونسية والمغرب الأوسط جموع أعرابية كبيرة من قبائل بنى سليم وبنى هلال كان القرامطة فى البحرين قد ضموها من نجد إلى جيش ضخم نازلوا به الفاطميين فى الشام ومصر، وما كادت تدخل فى الديار المصرية حتى انضمت إلى الجيش الفاطمى، مما كان سببا فى اندحار الجيش القرمطى وارتداده إلى البحرين، وقد نقلها العزيز باقه الفاطمى إلى الضفة الشرقية على النيل بالصعيد الأعلى، وظلت هناك مصدر قلاقل واضطرابات لأهل الريف الصعيدى، مما جعلها تتحول إلى مشكلة كبرى للحكم الفاطمى بمصر. ودار الزمن دورات وإذا الحاكم الصنهاجى الرابع المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) فى إفريقية التونسية والمغرب الأوسط يؤثر المذهب السنى مشايعة لشعبه المغربى ويقطع الدعوة الفاطمية الإسماعيلية منضويا تحت لواء الخليفة العباسى سنة ٤٣٨ للهجرة، وامتلأ الخليفة الفاطمى المستنصر سخطا وموجدة عليه، ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك من الجند والجيوش ما يستطيع به القضاء على المعز بن باديس. وانتهز الفرصة وزيره الحسن بن على اليازورى، فأشار عليه بإقطاع مشايخ بنى سليم وبنى هلال أعمال المعز بن باديس فى المغربين الأدنى والأوسط وهجرتهم إليها مع قبيلتيهما، وقال له إنهم إن ظفروا بالمعز وقبيلته: صنهاجة تحققت أمنيته وصاروا أولياء للدولة وعمالا لها فى تلك الأنحاء القاصية مع زوال عيثهم وفسادهم عن أهل الصعيد بمصر، وإن هم لم يظفروا بالمعز نكن قد تخلصنا منهم، ودبَّرنا له ما يقضى عليه. ووقعت المشورة من نفس المستنصر موقعا حسنا، واستدعى مشايخ القبيلتين وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجى العبد الآبق فلا تفتقرون» وأغْرَى الشيوخ بجوائز كبيرة، وأمر لكل بدوى من القبيلتين ببعير ودينار. وانطلقت جموع بنى سليم وبنى هلال بفروعها (الأثبج وزغبة ورياح وجشم وعدى وربيعة والزواودة) سنة ٤٤٣ للهجرة إلى برقة وانسابوا فيها بخيلهم ورجلهم ينهبون ويسلبون واستقرت فيها بجاميع من بنى سُلَيْم، وتقدمت بقية هذه القبيلة مع بنى هلال بفروعها إلى طرابلس وإفريقية التونسية، وكان يتولى قيادتها جميعا يحيى الرياحى شيخ بنى رياح الهلاليين، ولما استقرت جموع القبيلتين فى طرابلس انعقدت له الرياسة فيها وفى انتقالهم إلى إفريقية التونسية، ولا يعرف عدد من دخل المغرب من القبيلتين، ويرى بعض المؤرخين أنهم لم يكونوا يقلون عن خمسمائة ألف ويقول ابن خلدون إنهم كانوا يسيرون فى جموعهم كجراد منتشر لا يمرون على شىء إلا أتوا عليه، فهم يطلقون

قطعانهم من الإبل والغنم على الزروع وهم يخرِّبون المنشآت والقصور ويقتلعون الأبواب ويقدمونها وقودًا للنار. وحقا قد يكون ابن خلدون مسرفا فيما وصف به القبيلتين المذكورتين من النهب والسلب وتخريب العمران ولكن من الحق أيضا أن أعراب هاتين القبيلتين لم يكونوا مثل عرب الأجيال العربية الأولى الذين فتحوا بلدان الدولتين الساسانية والبيزنطية وأقاموا دولة الإسلام الكبرى المجيدة، إذ لم يكونوا جيوشا نظامية، وكانوا بدوا لا صلة لهم بالحضارة، ولم يكن لهم فى هجرتهم إلى المغرب لا هدف دينى ولا هدف قومى، كما كان الشأن فى فتوح العرب الإسلامية الكبرى وقد نازلهم المعز بن باديس فى مكان يسمى حيدران بالقرب من قابس ودارت عليه الدوائر ودخلوا القيروان سنة ٤٤٦ ونهبوها وخرَّبوها، واضطر أن ينسحب منها إلى المهدية عاصمة الفاطميين بالقرب منها وبها توفى سنة ٤٥٤ للهجرة. وظل هؤلاء الأعراب سادة القسم الأكبر من إفريقية التونسية وسادة طرابلس إلى عهد الموحدين فى القرن السادس الهجرى.

وقد تحولت برقة منذ هجرة بنى سليم إليها فى أواسط القرن الخامس الهجرى من حياتها المستقرة فى المدن الشمالية والواحات الداخلية إلى مشيخات بدوية لبنى سليم واستحالت فى جميع أجزائها إلى مراع واسعة. وظل ذلك فترة طويلة نحو مائة عام، بل تزيد وكانت فى أثناء ذلك تدين بالولاء لمصر، وانشغل حكامها عنها بالحروب الصليبية وتزعزع هذا الولاء فى أواخر زمن الدولة الفاطمية لهذا السبب. ونرى صلاح الدين الأيوبى حين قضى على تلك الدولة يفكر فى برقة وفرض ولاء مصر عليها وعلى إفريقية التونسية، ويكلف بهذه المهمة ابن أخيه المظفر تقى الدين، فتستولى فرق أو كتائب من جيشه على أجزاء من برقة ويعهد إلى اثنين من قواده - ربما بمشورة صلاح الدين - بإتمام هذه المهمة، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش. أما ابن قراتكين فتوغل فى أوائل العقد الثامن من القرن السادس فى ليبيا، ومضى حتى بلغ قفصة فى إفريقية التونسية، واتخذها مقرا له، واستقر بها إلى أن فتكت به دولة الموحدين المغربية سنة ٥٨٣ ودخلت قفصة فى حوزتهم. وأما قراقوش فقد مضى إلى أوجلة فافتتحها، وتقدم إلى فزَّان فاستولى على عاصمتها زويلة من بنى الخطاب واتجه إلى الشمال واستولى على طرابلس سنة ٥٧٩ فترة وتقدم فاستولى على قابس، ومنه استردها الموحدون بعد استردادهم لقفصة من ابن قراتكين سنة ٥٨٣ مما اضطره إلى إعلان طاعتِه لهم، غير أنه عاد إلى العيث والإفساد واضعا يده فى يدى ابنى غانية على ويحيى حين عاثا فى إفريقية التونسية ضد الموحدين، وبعد مغامرات شتى مع من انضم إليه من بنى سليم قتل سنة ٦٠٩ للهجرة. وظلت برقة بعده موالية لمصر طوال العصر الأيوبى، واطرد ولاؤها فى زمن المماليك، ونرى الظاهر بيبرس سلطانهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) بطل موقعة عين جالوت ضد التتار الذى دفع سيولهم عن الشام إلى غير

رجعة يُولِي برقة اهتمامه منذ سنة ٦٦٢ للهجرة ويولِّي عليها شيخا حصيفا من بنى سليم هو عطاء الله بن عَزاز، ويكل إليه جباية الزكاة من الإبل والأغنام وعُشْر الزروع والثمار. وحين غزا لويس التاسع تونس سنة ٦٦٨ بعد إخفاقه المشهور فى غزو مصر وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة أمر بيبرس ابن عزاز بإرسال نجدة سريعة إلى تلك المدينة، وأخفقت غزوة لويس التاسع لها، ومات مقهورا تحت أسوارها. وكانت بعض البلدان فى برقة تثور أحيانا على ابن عزاز، فكانت مصر تسارع إلى تأييده على نحو ما حدث فى طلميثة شمالى بنغازى وعودتها سريعا إلى الطاعة. وظل بنو عزاز يتولون برقة ويصرِّفون شئونها ويشرفون على قبائلها إن لم يكن فيها جميعا ففى أكثر بلدانها وبواديها. وفى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى نازعهم فيها عُرَيف بن عمر وابنه. وتظل برقة موالية لمصر إلى أن استولى العثمانيون على القطر المصرى من أيدى المماليك سنة ٩٢٣ للهجرة، وطبيعى أن يمدوا سلطانهم إلى برقة التى ظلَّت تدين بالولاء طويلا لمصر، وظلت تستشعر هذا الولاء إلى أن ضمَّها والى طرابلس العثمانى محمد الساقلى (١٠٤٣ - ١٠٥٩ هـ). إلى ولايته.

° وتاريخ طرابلس ينفصل عن تاريخ برقة منذ انضمامها إلى إفريقية التونسية سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م فى عهد حكامها من بنى زيرى الصنهاجيين، وقد استقل بها بنو خزرون منذ أواخر القرن الرابع الهجرى إلى نحو سبعين عاما، وتكتسحها الهجرة الأعرابية الكبيرة لبنى هلال وبقايا بنى سليم، وتعانى من ذلك طويلا، وفى هذه الأثناء زالت السيادة العربية عن صقلية وسقطت فى حجر النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م نهائيا، وحينئذ أخذت تتراءى فى الأفق نذر خطر جسيم على الساحل الإفريقى، فقد استولى النورمان على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م وأعلن روجار الثانى ملك صقلية الحرب الصليبية على الساحل الإفريقى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وجهَّز أسطولا يحاصر طرابلس ويثقب سورها، غير أن أهلها ومن وراءهم من الأعراب ردوا الأسطول على أعقابه وغنموا أسلحته، ولم يلبث شيخ من شيوخ العرب هو أبو يحيى بن مطروح التميمى أن استخلص طرابلس لنفسه، ونازعه فى سيادتها وسلطانها بعض أهليها، ونشبت بينها الحرب، وكان النورمان يعلمون ما صار إليه الشمال الإفريقى من ضعف الدولة الزيرية الصنهاجية وانزواء تميم بن المعز وأبنائه فى المهدية وأنحائها وما تبعهم من شريط ساحلى ضيق، به جزيرة جربة وصفاقس وقابس، ولم يلبث الأسطول النورمانى أن استولى على المهدية وجزيرة جربة وصفاقس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨ وعاد إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها، وبدلا من أن تفقد الفئتان المتنازعتان فى طرابلس أسلحتها ويوجهاها إلى صدور أعدائها الصليبيين ظلا يتحاربان ويقتتلان، وبذلك هيأ الفرصة لأعدائها النورمان، فتسلقوا الأسوار، ودخلوا طرابلس وأمعنوا فى النهب والسلب والقتل وفرضوا على أهلها جزية يؤدونها لملك صقلية، وتركوا

حكمها فى يد أبى يحيى بن مطروح، فحكمها حكما شوريا، إذ ألّف لها مجلسا مكونا من عشرة شيوخ كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى مسجد خارج المدينة للتشاور والتداول فى تدبير أمورها. وظل النورمان الصقليون يحكمون طرابلس أكثر من عشر سنوات، ولاح لابن مطروح وأهلها نورٌ قوىّ كاسحة فى المغرب الأقصى، هو نور دولة الموحدين التى أخذت تستولى على بلدان المغرب، فعظم الأمل فى نفوس الطرابلسيين أن تمد إليهم يد العون فى التخلص من حَمَلة الصليب، وما توافى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م حتى يشتد بهم الغضب لأدائهم جزية لنصارى صقلية، وفى إحدى الليالى يهجمون على الحامية الصقلية، فيحرقون بيوتها بالنار حرقا، ويذبحونها عن آخرها ذبحا، حتى لا يفكر النورمان فى النزول بطرابلس ثانية. وينـزل خليفة الموحدين عبدالمؤمن بن على المهدية سنة٥٥٥بعد طرد النورمان من ساحل إفريقية التونسية نهائيا، ويفد عليه ابن مطروح على رأس وفد من رجالات طرابلس، ويحتفى بهم، ويولى ابن مطروح حاكما على طرابلس من قبله، وما زال يتولاها حتى أدركته الشيخوخة، فرأى فى سنة ٥٨٦ للهجرة أن يؤدى فريضة الحج فاستأذن أبا زيد بن أبى حفص والى تونس للموحدين، وأذن له واستقلّ سفينة، واضطرت فى طريقها إلى الإسكندرية أن تتوقف قبل الوصول إليها ورست فى موضع لا يزال ينسبه المصريون إليه هو: «مرسى مطروح» المدينة المعروفة الآن على الشاطئ المصرى. وتنبَّه عبد المؤمن خليفة الموحدين للانتفاع بأعراب بنى سليم وبنى هلال فى جهاده لأعداء الدين الحنيف فى الأندلس، فكلّف القاضى ابن عمران بنظم قصيدة يستحث فيها بنى سليم للجهاد فى نصرة الإسلام كما نصره آباؤهم قديما، وصنع صنيعه ابنه يوسف حين اعتزم غزو نصارى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م إذ طلب إلى صديقه ابن طفيل الفيلسوف الأندلسى المشهور أن يستنفر الأعراب بقصيدة حماسية، فنظم قصيدة تتأجج حماسة ملتهبة استهلّها بقوله:

أقيموا صدورَ الخيل نحو المغاربِ   لغزو الأعادى واقتناء الرغائبِ

وتأخر وفودهم على يوسف خليفة الموحدين، فأرسل إليهم ابن طفيل قصيدة ثانية، فلبّى يوسف كثيرون منهم انتظموا فى جيشه المتجه لغزو النصارى فى الأندلس، وأكبر الظن أن ابنه يعقوب خليفة الموحدين بعده جنّد منهم كثيرين فى جيشه المظفّر الذى جاز به إلى الأندلس، وأوقع بالقشتاليين ومن كانوا معهم من نصارى الشمال وقعة الأرَك المشهورة سنة ٥٩١ التى مُزّق فيها أعداء الدين الحنيف كل ممزّق.

ومرَّ فى حديثنا عن برقة أن المظفر تقىّ الدين ابن أخى صلاح الدين الأيوبى كان قد أرسل إلى ليبيا وإفريقية التونسية قائدين من قواده للاستيلاء عليها، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش وأن الأول استطاع الاستيلاء على قفصة بإفريقية التونسية إلى أن استولت عليها

دولة الموحدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأن الثانى استطاع الاستيلاء على أوجلة وفزان، كما استولى على طرابلس فترة محدودة سنة ٥٧٩ بعون بنى رياح وبنى دباب الهلاليين، واتجه غربا واستقر فى قابس بإفريقية التونسية، واستولى عليها منه الموحدون سنة ٥٨٣ وفى هذه الأثناء كان على بن غانية صاحب ميورقة حفيد يوسف بن تاشفين يضطغن على دولة الموحدين إزالة ملك أسرة ابن تاشفين أصحاب دولة المرابطين من المغرب والأندلس، فرأى أن يقدم على أعراب طرابلس ويكوّن منهم جيشا لحرب الموحدين واسترداد ملك المرابطين، ووجد قراقوش يحاول دفع هؤلاء الأعراب للانتقاض على الموحدين، فوضع يده فى يد قراقوش مددا متطاولة مثيرين للقلاقل والاضطرابات فى المنطقة، وحين استولى الموحدون من قراقوش على قابس أعلن طاعته لهم مداراة ومكرا، ودار العام ففتك الموحدون بعلى بن غانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وكان يرافقه أخوه يحيى، فخلفه فى الشغب على الموحدين، واشتبك مع جنودهم فى معارك مختلفة، واشترك مع قراقوش فى الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م واختار يحيى بن غانية واليا عليها تاشفين بن غازى، والته قابس وصفاقس، وفسد ما بينه وبين قراقوش، فحاصره فى ودان جنوبى مدينة سرت حتى نفد زاده واضطر إلى الاستسلام وقتله وصلبه سنة ٦٠٩ واسترد الموحدون طرابلس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وأداروا مع يحيى بن غانية بالقرب من تونس سنة ٦٢١ معركة حامية الوطيس هزم فيها هزيمة ساحقة، وفر إلى الجنوب هاربا، وظل يتنقل بين الأعراب إلى أن توفى سنة ٦٣١ للهجرة. وظلت طرابلس - منذ استولى عليها الموحدون - تتبع حاكم تونس - وتطورت الظروف سريعا وأسس بتونس أبو زكريا الحفصى الدولة الحفصية سنة ٦٢٥، وأخذ فى العمل على تأسيسها وعاشت قرونا متوالية حتى القرن العاشر الهجرى. وعاشت طرابلس فى إطار سيادتها وأخذت تسترد نشاطها الزراعى والتجارى، واشتهر من قضاتها الطرابلسيين فى أوائل هذا العصر أبو موسى عمران بن معمر الهوارى، وظل يقوم على القضاء العادل البصير بها حتى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وطارت شهرة أحكامه وفتاويه إلى تونس وسلطانها المستنصر الحفصى فاستدعاه وأسند إليه القضاء فى عاصمته: تونس. وولى إفريقية التونسية بعد المستنصر ابنه الواثق يحيى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وخُلع سنة ٦٧٨للهجرة وتولاها عمه إبراهيم. وظهر - حينئذ - دعىٌّ من بجاية يسمى ابن أبى عمارة أحمد بن مرزوق طمح إلى الملك فترك مهنة الحياكة التى كان يمتهنها فى بلدته، ونزح إلى سجلماسة، وادّعى فى الأعراب هناك أنه المهدى المنتظر، وبايعه بعضهم، غير أنه شعر أن دعوته لن تنجح هناك، فتركهم، ونزل بين أعراب طرابلس، وادّعى أنه ابن الخليفة الواثق المخلوع وأن اسمه الفضل وبايعه كثيرون من بنى سليم على نصرته، ودانت له طرابلس وبعض البلدان فى غربى ليبيا وشرقى تونس وتقدم فاستولى على تونس سنة ٦٨١ وولى على طرابلس مرغم بن صابر من بنى سليم، وأسره الصقليون فى بعض غاراتهم سنة ٦٨٢ للهجرة، وباعوه لملك أراجون البرشلونى.

ولم يلبث الخليفة الحفصي عمر بن أبي زكريا أن استرد ملك آبائه الحفصيين سنة ٦٨٣ وأرسل إليه والي طرابلس محمد بن عيسى الهنتاني رسالة مذعنا فيها لطاعته. وفي سنة ٦٨٨ أرسل ملك أراجون سنة ٦٨٨ مع أسيره مرغم بن صابر حملة إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها وباءت بالفشل الذريع. ونزل بطرابلس سنة ٧٠٨ أمير حفصي في أثناء توجهه إلى أداء فريضة الحج هو أبو يحيى زكريا بن محمد اللحياني وفي عودته سنة ٧٠٩ أقام بها فترة جعلت أهلها يجلّونه ويقدرونه. وكان الحكم في إفريقية التونسية قد ساء سوءًا شديدًا، إذ تولاه خليفتان اختلّت الدولة في عهدهما اختلالا سيِّئًا. فتحدث كثيرون من أهل طرابلس إلى الأمير المذكور محرِّضين له على تولِّي مقاليد الخلافة بتونس حتى يصلح شئون الحكم بها وتعهدوا له بتأييده ونصرته، ونجحت الخطة، واحتل اللحياني تونس سنة ٧١١هـ/١٣١١م وأخذت له فيها البيعة، وظل يلي شئونها ويصرف أمورها تصريفا حسنا لمدة ست سنوات، ونهض في آخرها لمقاومته أمير قسنطينة بالجزائر وكأنما داخله اليأس من الانتصار عليه، فلجأ إلى طرابلس آملا أن يعود منها بجموع تنصره، وترك الحكم في تونس لابنه محمد الملقب بأبي ضربة، وأخذ يكوِّن في طرابلس جيشا فتح به كثيرا من البلدان الليبية، غير أن أمير قسنطينة تغلب على ابنه أبي ضربة، وشعر أن وضعه في طرابلس لم يعد آمنا، فرحل من طرابلس بحرا إلى الإسكندرية وحلَّ بها ضيفا على السلطان قلاوون إلى أن توفِّي. أما طرابلس فقد ترك الحكم فيها إلى صهره محمد بن عمران، وظل يلي شئونها إلى أن ثار عليه أهلها سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م واختاروا بعده لحكمهم شخصا من أسرة طرابلسية نابهة هو ثابت بن محمد بن ثابت بن عمار، وبه تأسست دولة بني عمار في طرابلس من سنة ٧٢٤ للهجرة إلى سنة ٨٠٣ وظل الأميران الأولان من هذه الأسرة يسوسان طرابلس وإقليمها سياسة حسنة، ويقول ابن خلدون إن تجارا من جنوة كانوا يترددون على طرابلس ولاحظوا ضعف تحصيناتها لعهد أميرها الثالث من بني عمار ثابت بن محمد بن ثابت وأغراهم ذلك بمهاجمتها، وتجمع أسطولهم في مينائها، وانتشروا في أسواقها يتظاهرون بأن غرضهم التجارة ومبادلة السلع وفي الليل أو في إحدى الليالي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م تسلقوا أسوار طرابلس واستولوا عليها في غفلة من أهلها، وفرَّ ثابت أو حاول الفرار في أثناء حصارهم لقصره بها، ورآه بعض الأعراب ممن يعادي قبيلته فقتله. وظل الجنويون بطرابلس نحو عام، ودفعت الحمية لأهلها وللدين الحنيف أباالعباس أحمدبن مكي حاكم قابس في إفريقية التونسية إلى أن يفاوض قائد البحرية الجنوية لإخلائها والنزوح عنها فطلب لقاء ذلك خمسين ألف دينار ذهبا، فجمع ما عنده وأكمل ما بقي من أهل قابس والحامَّة وبلاد الجريد، دفعوها له متحمسين، وأداها ابن مكي، وبارح الجنويون طرابلس بعد أن تركوا لهم فيها قنصلية ومستودعًا لبيع سلعهم. وتولى شئونها ابن مكي حتى وفاته سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م وخلفه عليها ابنه عبدالرحمن. وكان أحد أبناء أسرة بني عمار: أبو بكر بن محمد بن ثابت فرَّ عنها – حين نزلها الجنويون –

إلى الإسكندرية، فعاد إليها سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م في أسطول، فحاصرها، وأعانه أهلها في استيلائه عليها، حتى يتخلصوا من عبد الرحمن لسوء سيرته. ولما استولى عليها أبو بكر استسلم له عبد الرحمن، فأرسله مكرمًا إلى بلدة قومه قابس، وظل أبو بكر يدبّر شئون طرابلس عشرين سنة. وخلفه عليها أخوه عمران حتى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وأخذ أبناء الأسرة يحملون السلاح بعضهم ضد بعض، وحاول أحدهم وهو على بن عمار الاستعانة بملك صقلية المسيحى مما جعل السلطان الحفصى أبا فارس عبدالعزيز يذهب إلى طرابلس بنفسه سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ويعزل عنها آخر ولاتها من بنى عمار: يحيى بن أبى بكر ويعيدها إلى حظيرة الدولة الحفصية ويولى عليها أحد قواده، وبذلك انتهت دولة بنى عمار فى طرابلس. وظل الولاة الحفصيون يلون شئونها فى القرن التاسع الهجرى، وكانوا يوجهون إليها أحيانا بعض حملات، وآخرها حملة أبى عمرو عثمان الحفصى سنة ٨٦٣ وبلغ فيها تاجوراء شرقى طرابلس. وحين أخذت الدولة الحفصية فى الضعف أخذت طرابلس تحكم حكما ذاتيا بمجلس شورى يرأسه أحد الشيوخ التابعين، وكان آخرهم الشيخ عبد الله الذى رأس مجلسها وحكمها منذ سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م إلى أن هاجمها الأسطول الإسبانى سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م.

وكان يتولَّى إسبانيا فرديناند الكاثوليكي الذى استولى على غرناطة من يد أبى عبدالله الصغير وأخرج العرب من الأندلس وقد سوَّل له شيطانه أن يستأنف الحرب الصليبية بتعقبهم فى الساحل الإفريقى الذى نزلوا فيه، ولم يكن للدولة الزيانية فى الجزائر ولا للدولة الحفصية فى تونس وطرابلس أسطول يحمى الساحل الإفريقى، واستطاع أسطول فرديناند الاستيلاء على المرسى الكبير فى الجزائر سنة ٩١٠هـ/١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م. وفى سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م هاجم الأسطول الإسبانى طرابلس، واحتلها بعد مقاومة عنيفة من أبنائها استشهد فيها منهم كثيرون، وخرج منها أكثر سكانها إلى تاجوراء واتخذوها مركزا لمقاومة العدو الصليبى، وبذلك توقف كل ما كان بطرابلس من نشاط وتعطلت حركتها التجارية بينها وبين الإسكندرية والشرق وأيضا بينها وبين صقلية والبندقية وجنوة فى الغرب وساءت أحوال أهلها الاقتصادية، وفى سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م سلم المدينة شارل الخامس ملك إسبانيا إلى فرسان مالطة المعروفين باسم القديس يوحنا، وظلت الأحوال فى طرابلس تزداد سوءًا على سوء، وظل كثير من سكانها يغادرونها إلى مدينة تاجوراء مركز المقاومة.

٥

فى العهد العثمانى

كانت الدولة العثمانية بالقرن العاشر الهجرى فى أوج قوتها، فانتخب أهل تاجوراء وفدًا ذهب إلى إستانبول مستغيثا بتلك الدولة طالبا منها حمايتها لطرابلس وإقليمها وطرد فرسان مالطة من ديارها، ولقيهم السلطان العثمانى: سليمان لقاء كريما، وأمر فورًا الأغا مرادا برافقتهم للتعرف على أحوال المنطقة ونزل تاجوراء سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأنشأ بها جامعًا ومدرسة، وأرسل إلى السلطان بالأحوال فى المنطقة، فأمر سنان باشا قائد الأسطول العثمانى أن ينسق كافة العمليات الحربية مع مراد أغا لإخراج فرسان مالطة من طرابلس، فأمر سنان باشا درغوث الذى كان مرابطا - حينئذ - ببعض قطع من الأسطول أمام الجزائر بمهاجمته لأولئك الفرسان بطرابلس وطردهم منها، وصدع توا لأمره وهاجم طرابلس، واستسلم له فرسان مالطة سريعا سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م، وأصبحت طرابلس ومنطقتها تابعة للدولة العثمانية، وكان مراد أغا أول من شغل منصب الوالى التركى بها، فعمل توا على ترميم القلعة وتعمير المدينة، وحوَّل الكنيسة التى بناها فرسان مالطة بالقلعة إلى مسجد، وأخذَت الحياة العامة فى طرابلس تنشط ونشطت معها التجارة، وسرعان ما أصبحت طرابلس قاعدة مهمة من قواعد البحرية العثمانية فى البحر المتوسط، وأدركته الشيخوخة سريعا، فرأى ترك طرابلس سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م إلى تاجوراء، لتمضية بقية حياته، وخلفه على البلاد من قِبَل الدولة العثمانية درغوث، وكان قائدًا بحريًا عظيمًا، فاتخذ طرابلس قاعدة كبرى لعملياته البحرية الحربية ضد قراصنة وأساطيل الأوربيين من إسبان وغير إسبان، وكثرت بها الغنائم والأسرى الأوربيون، وبذلك أعاد إلى الأذهان سيرة خير الدين (بربروس) فى الساحل الجزائرى واتخاذه الجزائر وغيرها من مدن هذا الساحل قاعدة لأعماله البحرية العظيمة التى ظلت ترتعد لها فرائص الأوربيين، وبالمثل أنزل بهم الفزع والرعب درغوث بسفنه البحرية وجنوده من الترك والطرابلسيين المغاوير. وعُنى عناية واسعة بتحصين المدينة فأنشأ بها أبراجا مختلفة وقصرًا له ودارًا للبارود وأذِنَ للأسرى المسيحيين بإنشاء مقبرة خاصة بهم مما يدل على كثرتهم فى أيامه بسبب حملات أسطوله البحرية وجهاد جنوده البحرى فى سبيل الإسلام وحماية ديار أبنائه المغاربة. وأنشأ بطرابلس جامعًا عظيمًا ضم رفاته حين توفى سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م ووليها بعده علج على ساعده الأيمن فى القيادة البحرية لفترة محدودة، وخلفه عليها جعفر باشا وولاة آخرون منهم مصطفى باشا وفى عهده استولى ثائر من أهل البلاد هو يحيى الجبالى سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م على كل ما سوى

طرابلس من المدن والأوطان وجبى خراجها، وزحف إلى المدينة وحاصرها، واستدعت الدولة العثمانية الوالى سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م لتهدئة الثائرين، وأرسلت أسطولا لفك الحصار عن طرابلس وتعقب الثائر، وسرعان ما فُكَّ الحصار وهُزِم يحيى الجبالى وتوغَّل فى الصحراء مع الأعراب، وقُتل، وانتهت ثورته.

وكانت الدولة العثمانية ترسل مع ولاتها فى الولايات المختلفة التابعة لها حاميات عسكرية من جنودها الإنكشارية، وكثرتهم كانت من أطفال البلاد الأوربية النصرانية التى كانت تحاربها أو الولايات التى كانت تدين لها بالولاء، أو من أبناء الشعب الذين رغبوا فى الانضمام إلى هؤلاء الجنود، وكانت تربِّيهم تربية عسكرية إسلامية، وتؤلف منهم عددًا ضخمًا فى جيوشها وترسل منهم مع ولاتها حرسًا أو حامية كبيرة، وكانت الحامية تنقسم إلى فرق، ولكل فرقة رئيس منها يلقب بالداى بمعنى ملازم. وما نصل إلى القرن الحادى عشر الهجرى حتى تبرز نزعة قوية فى صفوف حاميات الإنكشارية بالولايات العثمانية المختلفة للاستقلال بها وأن يتولاها داياتهم، وفى سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م نلتقى بصفر أول داى يحكم طرابلس ويدبِّر شئونها، وعُنى بالحرب البحرية أو الجهاد البحرى الطرابلسى مما جعل الأسرى المسيحيين يكثرون بطرابلس فى أيامه. وحكم طرابلس بعده الداى مصطفى الشريف سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وفى عهده نشطت البحرية، وعنى بتحسين بعض الحصون، وتولَّى طرابلس بعده الداى رمضان، وكان ضعيف الشخصية، وتخلَّى عن الحكم سريعا إلى صهره محمد الساقزلى (١٠٤٣-١٠٥٩هـ/ ١٦٣٣-١٦٤٩م) وهو ثالث ولاة طرابلس العثمانيين العظام بعد مراد أغا ودرغوت، وكانت له مثل درغوت شهرة بين أبطال البحر العثمانية، وكان الأسطول الطرابلسى فى عهده يتكوَّن من ٢٤ قطعة، وكانت برقة قد دخلت فى طاعة العثمانيين منذ استيلائهم على مصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م وضمَّها محمد الساقزلى إلى ولايته فى طرابلس ونشطت التجارة وحركة العمران فى عهده نشاطا عظيما. وتوفى سنة ١٠٥٩ للهجرة وخلفه عثمان الساقزلى وهو مثل محمد الساقزلى من أهم ولاة ليبيا، وقد طال حكمه لها إلى نحو ثلاث وعشرين سنة، وازدهرت التجارة فى عهده ازدهارًا عظيمًا، كما ازدهر النشاط البحرى، وزار طرابلس لأول عهده العياشى فى رحلته المشهورة إلى الحج، وفيها يشيد بطرابلس ومبانيها وأهلها وكرمهم الفياض وواليها عثمان الساقزلى ويقول إن له نكاية فى العدو، وله مراكب قلَّ نظيرها معدَّة للجهاد، ويذكر أنه رأى ستة من هذه المراكب أو السفن وهى تخرج لجهاد أعداء الدين، وكانت تحمل نحو ألفى مقاتل خرجت - كما يقول - مجتمعة إرهابا للعدو حين يراها. وكانت تجلب كثيرًا من الغنائم والأسرى مما جعل عثمان الساقزلى يبنى لهم سجنا كبيرًا كان به نحو تسعين غرفة أو زنزانة بجانب سجنى الداى صفر ومحمد الساقزلى، وجعل بعض القاعات فى قصر درغوت

مستشفى خاصا بالأسرى، وخصّص لرعايتهم طائفة من الأطباء. وألحق بالمستشفى صيدلية لتحضير ما يلزمهم من الأدوية. وأنشأ لنفسه قصرًا بديعًا، كما أنشأ مدرسة قرب باب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم، وبنى فى سنة ١٠٦٥ هـ/١٦٥٤م فندقًا كبيرًا كان به مائة غرفة كما كان به بئر فى ساحته، وعُنى بأسواق البلدة، وكان عهده عهد أمن واستقرار وعمران مزدهر إلى أن توفى سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧١م. وتعاقب دايات بعده ضعاف الشخصية على حكم ليبيا وكثرت تهديدات الأساطيل الأوربية إنجليزية وفرنسية، وكانوا يشفعون التهديد بقصف طرابلس حتى تضطر إلى مفاوضتهم وإرجاع أسراهم إليهم، وكانت طرابلس تردهم إليهم طلبا من داياتها للمهادنة ورغبة فى السلام. ومن خير ولاتها فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى محمد الإمام الذى أقام علاقات حسنة مع بعض الدول الأوربية وخاصة فرنسا، وبنى له مسجدًا بسوق الترك وجدَّد بناء هذا السوق وسوق الحرير. وسمح الوالى بعده خليل الأرناءوطى (١٠٩٠-١٠٩٦ هـ) لإسبانيا بإقامة قنصلية لها فى طرابلس، وكان ظلوما غشوما واتخذ بطانة له من النصارى ضعف دين وسوء سياسة.

وتتردَّى طرابلس وليبيا فى هاوية من الصراعات والانقسامات، وينقذها منها إجماع رأى الإنكشارية على تولى أحمد القرمانلى طرابلس وليبيا سنة ١١٢٣ هـ/١٧١١م وكان شخصية قوية، فأخذ يعمل على استقلاله بليبيا وطرابلس وجعلها وراثية فى أبنائه، وتلقَّب بأمير المؤمنين، وأخذ يعنى بشئون الدفاع عن طرابلس وتجديد أسوارها وأبراجها وتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة، وبنى مسجدًا كبيرًا وألحق به مدرسة، كما بنى بعض قصور له، منها قصر للأزينوبا الذى نفَّذ فيه مذبحته للإنكشارية، إذ دعاهم إليه، وقد أكمن لهم فى سقوفه ودهاليزه من اغتالوهم حتى يستطيع أن يحكم البلاد حكما نظيفا من شغبهم، وكأنما حاكاه محمد على - فيما بعد - حين اغتال المماليك بالقلعة. وكان حكمه حكمًا عادلا رشيدًا، وامتد إلى نحو خمسة وثلاثين عاما، مما أعطاه الفرصة لينهض بأعمال كثيرة، من ذلك إجراؤه الماء لطرابلس على حنايا ليسقى به أهلها وينتفعوا به، ومنها بناء سوق فسيح الفناء وبناء بيوت ومقاصير أنيقة فى القلعة، ومنها بناء فسقية بقرب البحر لينهل منها أهل السفن من أسطوله وغيرهم، وفى سنة ١١٤١ هـ/١٧٢٨م اندفع إلى طرابلس أسطول فرنسى فى مظاهرة بحرية ليرغم القرمانلى على رد بعض غنائم لأسطوله ورد الحرية إلى الأسرى الفرنسيين ودفع بعض التعويضات، فرفض مطالبه بعنف، وأخذ الأسطول الفرنسى يقذف طرابلس بالقنابل قذفا شديدًا لمدة ثلاثة أيام والقرمانلى مصر على موقفه ونفدت ذخائر الأسطول الفرنسى فانسحب إلى البحر ولم يعد ثانية إلى المياه الطرابلسية. وحمد له الطرابلسيون هذا الموقف الشجاع. وانتعشت الحركة التجارية لعهده انتعاشًا كبيرًا إلى أن توفى سنة ١١٥٨ هـ/١٧٤٥م وخلفه ابنه محمد حتى سنة

١١٦٧ هـ/١٧٥٣م وكان عهده عهد أمن ورخاء واستقرار كعهد أبيه وخلفه ابنه على الذى ظل بيده صولجان الحكم فى طرابلس وليبيا لنحو أربعين عاما إذ توفى سنة ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣م وتميزت الفترة الأولى من عهده بالأمن والرخاء ونشاط الزراعة والتجارة، حتى إذا كانت سنة ١١٩٩ هـ/١٧٨٤م حدثت كارثة خطيرة عصفت بطرابلس وإقليمها: كارثة مجاعة كبرى ظلت عامين وانتشر معها وباء الطاعون، وانهار لذلك اقتصاد طرابلس فى العهد الأخير لعلى القرمانلى، وظلت لهذا الانهيار بعده آثار غير قليلة. وفى عهده أقامت دول البحر المتوسط الأوربية قنصليات لها فى طرابلس مع مصادقته على ما مُنحته من امتيازات أجنبية، مما يدل على حمقه وهوجه وقصر نظره. وبعد وفاته حدثت انقسامات بين أبنائه على الحكم، وقتل ابنه يوسف أخاه الحسن، وشق عصا الطاعة عليه أخوه أحمد، وانتهز الفرصة مغامر عثمانى هو على برغل كان يقود بعض سفن صغيرة مسلحة فى البحر المتوسط، فنزل طرابلس واستولى عليها سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م دون مقاومة تذكر، وغضب لذلك باى تونس، إذ استغاثت به الأسرة القرمانلية، وردت إليها سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥م وتولّى مقاليد الحكم بطرابلس وليبيا يوسف القرمانلى، ومهما كانت الطرق التى سلكها مع إخوته للاستيلاء على الحكم فانه كان حاكمًا ممتازًا، ونعمت البلاد فى عهده بالأمن والرخاء والانتعاش التجارى ونشاط العلاقات بين طرابلس ومدن الشواطئ والانفتاح على الغرب والتعرف على مدنيته، مما أعدَّها لاستقبال العصر الحديث.

وكانت الأقطار العربية قد أخذت تستعد – منذ فاتحة القرن التاسع عشر الميلادى – لاستقبال هذا العصر عقب نزول الحملة الفرنسية مصر واندحارها بفضل مقاومة الشعب المصرى. وقد أيقظ هذا الحدث الخطير البلاد العربية جميعا من سبات عميق كان قد استغرقها منذ احتلال العثمانيين لأراضيها فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، وأخذت كل منها تستشعر شخصيتها وتحاول انبعاثها انبعاثا جديدًا بصور تختلف سرعتها باختلاف ظروفها الخاصة، وكانت مصر أسرعها إلى هذا الانبعاث، وهو انبعاث كان يقوم فيها – وفى جميع الأقطار العربية – على ركنين: ركن التمسك بالتراث الإسلامى العربى على نحو ما يمثله الأزهر، وتمخض هذا التمسك فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عن ظهور الشيخ محمد عبده ودعوته الإصلاحية الدينية الكبيرة، والركن الثانى ركن التعرف على ما سبقت إليه أوربا فى ميادين العلم والأدب والحضارة، مما جعل مصر تسبق شقيقاتها العربيات فى إرسال البعوث إلى الغرب وإنشاء المدارس العلمية المختلفة فى الطب وغير الطب لعهد محمد على.

وقد رأينا أن فجر العصر الحديث بليبيا أخذ ينشر أضواءه بطرابلس فيها لعهد يوسف القرمانلى وإن لم تكن أضواء مكتسحة، ولكنها أضواء على كل حال، إذ أخذ يوسف يحاول

انفتاح طرابلس على الغرب، عن طريق عنايته بأسطوله وما كان يجنى منه من اتفاقيات الحماية الكثيرة لسفن الدول الأوربية فى البحر المتوسط. وكانت الدولة تأخذ من ذلك إتاوات واسعة تفرضها على تلك الدول، وكان من بينها السويد، فطالبها يوسف بمائة ألف فرنك هدية وبدفع إتاوة سنوية قدرها ثمانية آلاف فرنك. وامتنع قنصلها فى طرابلس من أداء ما طلبه يوسف، فأمر بإغلاق قنصليته، واستولى أسطوله على بعض السفن السويدية فى البحر المتوسط، ووسَّطت السويد نابليون عند يوسف، فوافق على أن تخفَّض الهدية إلى ثمانين ألف فرنك، وتظل الإتاوة البحرية السنوية كما هى: ثمانية آلاف فرنك، وأعاد يوسف إلى السويد سفنها الأسيرة. ورأى فى سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م أن يفرض على السفن الأمريكية التى تمخر عباب البحر المتوسط إتاوة سنوية على شاكلة ما يفرض على السفن الأوربية، وأبتْ تلك السفن أن تدفع شيئًا، فصادرها، وحاصر الأسطول الأمريكى طرابلس عشرين يوما، وهزمه الأسطول الطرابلسى، فانسحب إلى مالطة – ووسَّط الأمريكيون القنصل الإنجليزى ووالى الجزائر العثمانى، وقَبِلَ يوسف وساطتهما، وردَّ إلى الأمريكيين سفنهم.

وواضح أن طرابلس احتلَّت لعهد يوسف القرمانلى مكانة كبيرة فى العلاقات الدولية لم تحظ بها فى أى عهد سابق، لا بما كانت تفرضه من إتاوات سنوية على سفن الدول الأوربية فحسب، بل أيضا بكثرة الوفود الأوربية التى كانت تقدم على طرابلس للتفاوض والتصالح أو للتهديد والوعيد أو لدفع الإتاوات المفروضة. وكل ذلك كان بشارة العصر الحديث فى ليبيا واستشعار طرابلس لشخصيتها العربية بقوة، غير أن المسيحيين الأوربيين كانوا لهذه النهضة بالمرصاد، فتجمعوا فى مؤتمر إكس لاشابيل سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م وقرروا تفويض الدول الأوربية منع الإتاوات البحرية لمدن الشمال الإفريقى: طرابلس وغيرها وما يتصل بتلك الإتاوات من جهاد رجال البحرية الإفريقية فى البحر المتوسط، وسموه قرصنة. وأخذت طرابلس تشهد مظاهرات واستعراضات لأساطيل إنجلترا ودول البحر المتوسط، وأخذت تلك الأساطيل ترغم يوسف القرمانلى على تحرير الأسرى المسيحيين والكف عن الغارات البحرية، ففقدت طرابلس موردًا كبيرًا من المال كانت تعتمد عليه فى إدارة البلاد ونهضتها، وأخذ يوسف القرمانلى يشعر بالضيق، ويزداد ضيقه سنة بعد أخرى لتراكم الديون على الدولة، مما دفعه فى النهاية إلى أن يتنازل لابنه على القرمانلى عن الحكم سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م. ولم تكد تستدير ثلاثة أعوام حتى استردت الدولة العثمانية طرابلس وليبيا، إذ أرسلت إليها حاكمًا جديدًا استسلم له على القرمانلى، وبذلك انتهى عهد الأسرة القرمانلية فى طرابلس وليبيا، وتعاقب عليها ولاة عثمانيون طوال القرن التاسع عشر، وأخذ كثيرون منهم يستجيبون لمقتضيات العصر الحديث من التطور بطرابلس وليبيا وبأسلوب الحكم.

وظلت صور التعليم القديم فى الكتاتيب والزوايا وحلقات المساجد قائمة، وعُنى العثمانيون بإنشاء مدارس تركية فى مدن طرابلس والخمس وبنغازى ودرنة، وكان يراد بها إلى تخريج موظفى الدولة، وألم الطلاب فيها ببعض العلوم العصرية مما يصلهم بالحياة العصرية بعض الاتصال، وأخذت إيطاليا تنشئ مدارس لها فى طرابلس والخمس تصل من يتعلمون بها باللغة والثقافة الإيطاليتين إعدادًا خبيثًا لما كانت تنتويه من احتلال ليبيا.وكان القرن التاسع عشر فى ليبيا يحمل كل ذلك وأهم منه الزوايا السنوسية التى بدأ إنشاءها محمد بن على السنوسى الجزائرى الأصل والمولد والأسرة وكان قد طوف بالبلاد المغربية وتغلغل فى الصحراء الجنوبية لتلك البلاد حتى السودان، وشاهد زوايا المتصوفة المنبثة فى تلك الأنحاء. وأدّى فريضة الحج سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وظل بمكة خمسة عشر عاما عرف فى أثنائها الدعوة الوهابية وما تدعو إليه من الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى من القرآن الكريم والحديث النبوى، فرأى أن يدعو نفس الدعوة، وأن يتخذ لدعوته نظام الزوايا المعروف فى البلاد المغربية، ولكن أى بلاد المغرب يختاره لزواياه. إن الطريقة الشاذلية تعم المغرب الأقصى وتونس وتعم الجزائر طريقة أبى مدين، وتزاحم الطريقتين فى تلك البلدان طرق أخرى بينما ليبيا - وخاصة برقة فيها - لاتشيع بها طريقة صوفية معينة، وكان قد زار أنحاءها البدوية ورأى أهلها غارقين فى دياجير الجهالة بمبادئ الإسلام وتعاليمه وهم لذلك فى حاجة إلى داع ودعوة تهديهم إلى سبيل الرشاد. ونزل برقة، وأقام لنفسه الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر بها، ورأى الناس يستجيبون لدعوته، فعاد إلى مكة وكان قد ترك بها أهله، ثم رجع إلى برقة ونقل مركز دعوته من الزاوية البيضاء إلى واحة جغبوب،وأخذت الدعوة السنوسية تنتشر فى عهده وعهد ابنه محمد المهدى، حتى أصبح لها نحو مائة زاوية فى بوادى برقة وحضرها فى بنغازى ودرنة. وبذلك عمت اليقظة الإسلامية العربية التى كانت أضواؤها أخذت تتفلّت إلى طرابلس وإقليمها فى عهد يوسف القرمانلى إذ أشاعتها الدعوة السنوسية فى بوادى برقة وحضرها. ولعل فى ذلك كله مايوضح كيف كان القرن التاسع عشر مبدأ تاريخ ليبيا الحديث وكل مايتصل به من أدب وغير أدب.

الفصل الثانى

المجتمع الليبى[1]

١

عناصر السكان

سكان ليبيا - منذ الأزمان السحيقة - سلالات عريقة من البربر الذين استوطنوا قديما الشمال الإفريقى من مصر إلى المحيط الأطلسى، واختلف المؤرخون فى بيان أصل منشئهم، فمن قائل إن جدودهم هاجروا إلى بلاد المغرب من فلسطين، ومن قائل إنهم عرب هاجروا من جنوب الجزيرة: من حمير، ويقال بل إن أصلهم من عرب الشمال، ويقول الطبرى إنهم أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم، ويقول ابن خلدون إنهم من ولد كنعان بن حام. وعلى هذا النحو يضطرب المؤرخون فى أصلهم وهل هم من العرب الساميين أو هم حاميون أو هم من الفلسطينيين الذين أخرجوا قديما من ديارهم. ومعروف أن قبائل منهم حين اعتنقت الدين الحنيف وتعرَّبت انتسبت إلى حمير أو إلى بعض القبائل العدنانية، وهو إحساس عميق بأنهم يرجعون إلى أصول عربية.

وليس هؤلاء السكان للشمال الإفريقى هم الذين سموا أنفسهم بربرًا، إنما سماهم بذلك الرومان أخذًا من الكلمة الإغريقية: «بربروس» ومعناها: الأجنبى الذى يتكلم لغة غير

---

(١) انظر فى المجتمع الليبى وسكانه ومعيشته كتب التاريخ قديما وحديثا وخاصة تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان (طبع جامعة محمد ابن سعود) وتاريخ المغرب الكبير لدبوز، وراجع كتب الرحلات مثل رحلة التجانى (طبع تونس) ورحلة العبدرى (طبع الرباط) وصورة الأرض لابن حوقل والمسالك والممالك للبكرى وتراجم المالكى فى رياض النفوس ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشماخى وليبيا فى كتب الجغرافيا والرحلات لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى (طبع بيروت) وتاريخ ليبيا لإحسان عباس والإباضية فى موكب التاريخ لمعمر ونفحات النسرين والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصارى وأعلام ليبيا للزاوى والنشاط الثقافى لأحمد مختار عمر وليبيا فى كتب التاريخ والسير لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم.

مفهومة، إذ كان لسان المغاربة بالقياس إلى الرومان أصواتا مبهمة لا يفهمونها. وحين فتح العرب البلاد المغربية وجدوا هذا الاسم «البربر» يطلق على سكانها، فاستخدموه، ومن الغريب أن فعل بربر فى العربية بمعنى قريب من المعنى الإغريقى، إذ يراد به التمتمة فى الكلام بحيث لا يفهم.

ويقسّم النسّابون هذه الأمة الضخمة من حيث أسلوب الحياة إلى حَضَر وبدو رحّل، ويسمون الأولين البرانس وهم سكان المدن الشمالية مثل هوارة ونفزاوة فى ليبيا وتونس وكتامة وصنهاجة فى الجزائر ومصمودة فى المغرب الأقصى. ويسمون الثانين الرحّل باسم البُتْر وهم سكان الهضاب والصحارى مثل لُواته فى برقة ونفوسة فى طرابلس. والمظنون أن أهل ليبيا كانوا يعيشون أولا على الترحال وراء المراعى، حتى قدم عليهم الفينيقيون فى طرابلس واليونان فى برقة، فأنشأوا المدن وأخذ الليبيون يستقرون فيها وفيما وراءها من السهول والوديان. ونزل القرطاجيون مع الفينيقيين فى طرابلس، واكتسح الرومان طرابلس وبرقة جميعًا. وبذلك تكاثرت العناصر التى نزلت ليبيا قديما من الفينيقيين والقرطاجيين واليونان والرومان ونزلتها – وظلت تنزلها – سلالات من الزنوج منذ زمن الفينيقيين بعامل الاتجار فى الرقيق ومن أجل الانتفاع بهم فى المزارع والمراعى، وكانوا يكثرون فى فزّان. ونزلت ليبيا فى زمن القرطاجيين – منذ القرن الثالث قبل الميلاد – جماعات من اليهود، وبالمثل بعد تخريب تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد. ونزلتها فى القرن الخامس الميلادى جماعات من الواندال الألمان. ونزلها لخدمة الكنائس المسيحية بها بعض رهبان القبط المصريين. ومعنى ذلك أن سلالات ليبيا الأصيلة من البربر وفدت عليها عناصر جنسية أجنبية كثيرة من قارات العالم الثلاث القديمة: من آسيا ممثلة فى الفينيقيين والقرطاجيين واليهود، ومن أوربا ممثلة فى الإغريق والرومان والواندال، ومن إفريقيا ممثلة فى الزنوج والقبط المصريين. وهذا كله قبل الفتح العربى، وأخذ ينزلها معه وبعده مزيد من الأجناس الوافدة وخاصة من العرب وجيوشهم الباسلة ومن كان بها من الفرس والعراق والشام ومصر. ولا ننسى هجرة العرب الكبرى إلى ليبيا وإفريقيا فى القرن الخامس الهجرى وقد استوطن بنو سليم برقة. ومنذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أخذ ينزلها أندلسيون كثيرون فى أثناء سقوط مدنهم فى حجر الإسبان، وتكاثر نزوهم فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى حين أخرج الإسبان من بقى بديارهم من المسلمين. ونزلت طرابلس بعض أسر إسبانية حين احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وبالمثل نزلتها أسر مالطية كثيرة حين احتلها بعدهم فرسان مالطة. وفى العهد العثمانى الذى ظل حقبًا متطاولة نزل طرابلس وليبيا كثير من الترك والأسر التركية بجانب من نزلوها من الإنكشارية وجنود الترك سوى عناصر الأكراد والشركس.

وقد اندمج كثير من هذه العناصر قديما فى البربر وحديثا أو بعد الفتح العربى فيهم وفى العرب فقد ظلوا دائما العناصر الأساسية فى ليبيا وأكثرها نبلا واحتراما وشعورًا بالشخصية، حتى لنستطيع أن نقول بصفة عامة، رغم كل العناصر التى نزلت ليبيا، إنها تكوّن وحدة كبيرة من عرب وبربر، بل لقد اندمج بعضهم فى بعض بحيث لا تستطيع أن تميز الوجه العربى من الوجه البربرى، بل لقد أصبحت الوجوه جميعًا ليبية لا فرق بين بربرى وغير بربرى.

٢

المعيشة

مرَّ بنا أن الفينيقيين أقاموا فى طرابلس لتكون مركزا لتجارتهم وأقاموا معها صبراتة غربيها ولبدة شرقيها، وبالمثل أقام الإغريق فى شرقى ليبيا سيرين، وأضافوا إليها أربعة مدن: مدينة مكان سوسة الحالية، وبرقة، ومدينة مكان طوكره الحالية، وبنغازى. وكل هذه المدن حول طرابلس وفى شرقى البلاد كانت مراكز تجارية فى العصور السحيقة، وظلت التجارة النشاط الأساسى لأهلها، يتخذونها معاشا لهم طوال العصور الماضية، وأخذت تقام معها على الساحل الليبى مدن أخرى مثل زواوة غربى طرابلس وإلى شرقيها لبده وزليطن ومصراته وسرت، ومثل أجدابية وطلمثية ودرنة وطبرق فى إقليم برقة. وسكان كل هذه المدن كانوا يعنون بالتجارة وما تحمل إليهم القوافل من السودان والجنوب وما تحمل إليهم السفن من عروض البحر المتوسط شرقًا وشمالاً. وكانوا يعنون - إلى جانب ذلك ببعض الصناعات اليدوية وصيد البحر، ويصف ابن حوقل - فى القرن الرابع الهجرى - طرابلس قائلا: «بها من الفواكه الطيبة اللذيذة كالخوخ والكمثرى اللذين لاشبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف والأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية السود والبيض الثمينة» ولا يلبث أن يذكر النشاط التجارى بها قائلا: «إلى مراكب ترسو ليلا ونهارًا وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء، من بلد الروم وأرض المغرب، بضروب الأمتعة والمطاعم» ويقول البكرى: «لطرابلس أسواق حافلة جامعة». ويضعف نشاط طرابلس التجارى حين اكتسحتها موجات الهجرة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى، ويعود إليها نشاطها فى التجارة مع استيلاء دولة الموحدين إليها وعودة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وظلت إلى اليوم أهم مدينة تجارية فى ليبيا.

وكانت برقة منذ نزلها اليونان وأسّسوا بها المدن الخمس المذكورة آنفًا تلعب دورًا كبيرًا فى التجارة بليبيا، وحين نزلها ابن حوقل كانت لاتزال مدينة برقة (المرج منذ أواسط القرن السابع

الهجرى) قائمة وتحدث عن نشاطها التجارى قائلا: «وجوه أموالها جمّة، وبها من التجار وكثرة الغرباء فى كل وقت مالا ينقطع، طُلّابا لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغرّبين ومشرّقين» وقال إنها تنفرد بالتجارة فى القَطْران والجلود المجلوبة للدباغة بمصر والتمور الواصلة إليها من واحة أوجله (والواحات الأخرى) ولها أسواق عدة لبيع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وذكرُ ابن حوقل للفلفل يجعلنا نذكر كيف أن ميناءى برقة وطرابلس كانا من قديم - كما مر بنا - مصبًّا للقوافل المصعدة من السودان وأواسط إفريقيا إليها والمنحدرة منها إلى تلك الأنحاء، وكانت تلك القوافل تأتى محمَّلة بسلع الرقيق وريش النعام والعاج أو سن الفيل والجلود، وتعود محمَّلة بسلع ليبيا والبحر المتوسط، بحيث ظلت ليبيا قرونا متطاولة الباب أو المنفذ الكبير بين البحر المتوسط وبلدانه الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، وكان ذلك عاملا قويا فى ازدهار التجارة بطرابلس وبرقة والموانى الساحلية بالإضافة إلى ماكان بليبيا من سلع كثيرة من مثل القمح والشعير والزيت والملح والجلود والتمور والعسل والبسط والسجاجيد والأكلمة.

وهذا النشاط التجارى لسكان ليبيا كان يرافقه نشاط زراعى حول المدن الساحلية حيث تكثر الأمطار ومن ورائها فى السهول وفى وديان الجبال وفى المنطقة شبه الصحراوية والواحات من مثل واحة فزان. وتكثر زراعة الخضر والكروم والفواكه من كل صنف، وينمو الزيتون بكثرة فى جبال طرابلس والجبل الأخضر ببرقة، وكانت روما قديما تعتمد فى الزيت على ما تستورده من معاصر طرابلس. وتنمو بليبيا أشجار الحناء والجدارى التى تستخدم جذورها فى الصبغة، كما تنمو فى المنطقة شبه الصحراوية الحلفاء البرية ذات الأوراق الخيطية الشكل، وكانوا يستخدمونها فى صنع القِفاف والحبال، وهى صالحة كل الصلاحية لصنع الورق. ويبذر الفلاحون الحبَّ ويجنون القمح والشعير. وكانت روما تعتمد قديما على ما يأتيها من حبوب طرابلس، وبالمثل الإغريق بالقياس إلى ما يأتيهم من برقة، ومما يدل - بوضوح - على أنه كان بليبيا قديما نشاط زراعى واسع ما لا يزال ماثلا فى كثير من أنحائها من مجارى المياه وقنواتها وسدودها وخزاناتها التى أنشأها الرومان والإغريق، وتحجب عنا كثرته الآن الرمال بغطائها الثقيل التى ظلت تنسجه طوال القرون الماضية، وإن ليبيا لحرية أن يعود لها هذا المجد الزراعى العريق. ولم أذكر أهم شجر يتراءى بقامته الهيفاء فى كل مكان بأنحاء ليبيا فى السهل الشمالى وفى المنطقة شبه الصحراوية وفى جميع الواحات، وأقصد النخيل وثماره من البلح، ويقال إن بطرابلس من أنواعه مايزيد عن ثلاثين نوعًا وأن فى واحة غات وواحات فزان مايبلغ خمسين نوعًا.

والزراعة لا تحتل فى ليبيا إلا الشطر الأقل فى الساحل والسهل الريفى وسفوح الجبال وبعض الوديان فى المنطقة شبه الصحراوية والواحات. والشطور الأخرى الكبيرة من ليبيا

يحتلها من قديم بدو رُحَّل يعيشون على رعى الأنعام والأغنام، وهم يربونها للحومها وألبانها وجلودها وأوبارها وشعرها وصوفها. وينوِّه البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ بكثرة السائمة فى ليبيا ونموها الواسع فى مراعيها، ويقول إن كثرة ذبائح أهل مصر من ليبيا. وكان رعاتها من قبائل البدو الليبية يقتسمون مناطق الرعى بحيث لايحق لقبيلة أن ترعى ماشيتها فى منطقة قبيلة أخرى دون استئذانها، وإلا شهرت عليها الحرب، بالضبط كما كان يحدث بين القبائل فى نجد بالجزيرة العربية. وكان الجفاف يصيب أحيانا ليبيا، فلا تنزل بها الأمطار التى تعوَّدتها، فيعانى أهلها مجاعة شديدة.وربما كان ذلك هو سبب إيقاعهم - أحيانا - بحجاج المغرب والأندلس، بالضبط كما كان يصنع أهل نجد - بسبب ما يعانون من فقر وضنك - بحجاج العراق والشام ومصر، على أنه كان من شيوخ الليبيين فى قفار طرابلس وبرقة من يحمون الحجاج، مما جعل العبدرى يشهد لهم فى رحلته إلى الحج سنة ٦٨٩ للهجرة بأنهم لا يتعرَّضون للحجاج بأذى إلا فى الندرة.

وبجانب هذا النشاط الرعوى والزراعى والتجارى الذى كان مصدر معيشة أهل ليبيا طوال الحقب والقرون الماضية كانوا ينشطون من قديم فى الصناعات اليدوية من مثل صناعة الزجاج وآنيته التى مهر فيها الفينيقيون، وصناعة عصر الزيت من الزيتون، وكانت صناعة رائجة فى عصر الرومان، إذ كانوا يعتمدون - إلى حد كبير - على مايستوردونه منه من طرابلس، وهيَّأت الملاحات الكبيرة غربى طرابلس وفى بنغازى لقيام صناعة دبغ الجلود، كما هيأت لطحن الملح وتصديره، واشتهر بأنه لا يحتوى من سلفات الكلسيوم إلا على نسبة واحد فى المائة مما يجعله نوعًا جيدًا من الملح إلى أقصى غايات الجودة. ويشتهر الجبل الأخضر فى برقة بما ينتج من عسل النحل وشمعه، ويوجد المرمر فى بعض جهات طرابلس وبنغازى وخاصة فى غات، ومنه نوع وردى اللون وآخر ناصع البياض، وقد قامت حول اقتطاعه فى عهد الإغريق والرومان صناعة نشيطة، وبدون ريب أتاحت لها كثرة هذا المرمر نحت ما شاءوا من التماثيل والمعابد والصهاريج، ولايزال أطلال كثير منها قائما بليبيا إلى اليوم. وهيأت المراعى الكثيرة فى إقليمى طرابلس وبرقة وما وراءهما من الصحارى لكثرة الأصواف والأوبار المجزوزة من الأغنام والماعز والإبل، مما أتاح لقيام صناعات واسعة من النسيج: نسيج الملابس الرجالية والنسائية والسجاجيد والبسط التى يلائمها أشد الملاءمة الصوف الليبى لخشونته الطبيعية، بينما تلائم أوبار الإبل أقمشة الخيام. ولا ننسى ماكان يتعيش عليه بعض أهل ليبيا على امتداد الساحل الشمالى من صيد الحيتان والأسماك. وعُنيت جماعة فى طرابلس وأخرى فى بنغازى بجلب الإسفنج الكثير فى مياهها. وفى كل ذلك مايوضح كيف أن ليبيا كانت - حتى العصر الحديث - كثيرة الخيرات والطيبات من الرزق.

٣

الدين

كان شأن أهل ليبيا فى العصور السحيقة شأن كل الأقاليم المغربية وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم من مثل الشمس والقمر والكواكب السيارة جميعا ويقدمون لها القرابين ويقيمون لها المعابد. ويبدو أن اليهود لما نزلوا بديارهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد أخذوا يحاولون نشر دينهم بين المغاربة، ويظن أن بعض جماعات منهم تهودت قديما وظلت جماعات منهم تعيش فى المدن المغربية، وجاءهم مدد جديد حين قوّض الإمبراطور تيتوس معبدهم فى بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد، ونلقاهم بعد إسلام أهل المغرب- بفضل تسامح الإسلام العظيم- منتشرين فى إقليم طرابلس: فى طرابلس نفسها وفى مصراته وسيرين، ويذكر المؤرخون والرحالة حارة لهم بطرابلس، ويقال إنها كانت شديدة القذارة كما يذكرون أنه كان لهم معبد خاص.

وكانت المسيحية منتشرة - قبل الفتح العربى - بالمدن الساحلية فى ليبيا وغيرها من البلدان المغربية، وكانت شائعة فيها بين سلالات الفينيقيين والإغريق والرومان، بينما ظل جمهور البربر وثنيا. وربما اعتنق المسيحية بعض جماعات منهم فى المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى العدل والمساواة، ولكن لاشك أن هؤلاء كانوا أقلية، إذ كان الشعب البربرى يعدها دين حكامه الرومان المستبدين الطاغين، وهو ما جعلهم ينفرون منها نفورا شديدا وخاصة فى الهضاب والصحارى والجبال، ومع ذلك فقد سقط إلى هذه الأنحاء بعض القسس حينما اشتد أوار الخلافات الدينية واضطر بعض القساوسة إلى الفرار نحو الجبال أو نحو الجنوب، وأكبر الظن أنهم حاولوا الدعوة هناك إلى المسيحية، غير أنها لم تجد بين البربر هناك آذانا صاغية. وبدون ريب كانت المسيحية منتشرة - كما ذكرنا - بين المدن الساحلية، وربما عملت روما على نشرها منذ أعلن الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد أنها دين الدولة الرسمى، وأخذت تعمل على نشرها فى البلاد التابعة لها. ويبدو أن القبط المصريين كانوا أسبق من هذه الحركة الرومانية فى نشر المسيحية بليبيا إذ تتحدث المصادر العربية عن مناطق بليبيا كان أهلها أقباطا، ولابد أن عملوا على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية المسيحية فيها، وبذلك عرفت ليبيا - قبل الفتح العربى - الكنيسة الأرثوذكسية المصرية كما عرفت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق روما وتشييدها لها فى طرابلس وغيرها.

وقد أخذ أبناء الكنيستين يتعايشون مع العرب فى العصور الإسلامية بالرغم من أن المسيحية

تراجعت فى ليبيا وكاد يُقضى عليها الدين الحنيف، إذ نجد أبا عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة يذكر أنه شاهد القبط فى طرابلس وبرقة لا يزالون يحتفظون بالقبطية فى زمنه ويتحدثون بها فى لغتهم اليومية مع أنها كانت قد اختفت فى ألسنة القبط بمصر وحلّت محلها العربية إلا ما كان فى بعض الأديرة المتعمقة فى الصحراء الغربية، وكان مما عمل على استمرار الكنيسة الأرثوذكسية وبقائها وجود أسر وسلالات من اليونان فى ليبيا، ومعروف أن كنيستهم مثل كنيسة القبط المصريين أرثوذكسية. ويدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد الواليين العثمانيين. محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى يرخّصان لليونانيين فى زمنها بإنشاء كنيسة أرثوذكسية قرب باب البحر وجعلاها تابعة لباترك الإسكندرية. وظلت الكنيسة الكاثوليكية - منذ أنشأها الرومان - حية فى طرابلس، وكانت تتبعها الجالية الرومانية القديمة، وظل يمدّها من تأسرهم سفن طرابلس الحربية فى البحر المتوسط من أوربا الشمالية والغربية وخاصة من إيطاليا وإسبانيا، وكانوا يعتنقون العقيدة الكاثوليكية المسيحية، ولابد أن عُنى الإسبان حين احتلوا طرابلس سنة ٩١٦هـ/١٥١٠ وظلوا بها عشرين عاما بهذه الكنيسة، وبالمثل عُنى بها فرسان مالطة حين تبعوا الإسبان فى احتلالها لنحو عشرين عاما أخرى، وقد كثر فى عهدهم نزول المالطيين بطرابلس، واستقرت بها من حينئذ بعثة الإرسالية الفرنشيسكانية للعناية بأمر المسيحيين وخاصة من كثر أسْرُهم فى البحر المتوسط من مسيحيى الغرب لعهد العثمانيين.

ويفتح عمرو بن العاص برقة سنة ٢١هـ/٦٤١م ويدور العام وتفتح طرابلس، ولم يكن العرب المسلمون غزاة فاتحين ينهبون البلاد التى يفتحونها ويسومون أهلها بالقهر والبطش كما كان الرومان والواندال يصنعون، بل كانوا - قبل كل شىء - ناشرين للإسلام وتعاليمه السمحة، دون محاولة لإكراه المغاربة عليه، ودون أى محاولة لإساءة معاملتهم، ومع إنقاذهم مما كان يفرضه عليهم البيزنطيون والرومان من الظلم والاستعباد، ومع ما يدعو إليه الدين الحنيف من عبادة إله واحد رحيم وسعت رحمته كل شىء، وهو دين الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها، ليس فيه شىء من تجسيد اليهودية ولا من تثليث المسيحية التى يعجز المغربى عن فهمها وتصورها. والمسلمون جميعا عرب ومغاربة سواسية فى الحقوق والواجبات ولا سيد ولا مسود. وأخذ الحكام: عقبة بن نافع ومن جاءوا وراءه يصدرون عن هذه السياسة، وخاصة حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) الذى سوّى بين العرب والبربر فى الفَيْء والخراج وعدَّ أرضهم مفتوحة صلحا لا قهرا فلم يسلبها منهم. وشعورا منهم بهذه المساواة الكاملة بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق انتظمت كتيبة منهم فى جيشه تبلغ اثنى عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تجاهد فى سبيل الله نصرة لدينه. ويتسع انتشار الإسلام فى عهد الوالى بعده موسى بن نصير (٨٥-٩٧هـ) من برقة إلى المحيط الأطلسى، إذ عمل - بكل جهده - على أن يعلم العرب البربر القرآن

وتعاليم الإسلام، ولم يكتف بانتظام جماعات من البربر فى جيشه، فقد رأى إشراكهم فى الحكم، وولى منهم طارق بن زياد على طنجة وإقليمها، وعهد إليه بقيادة جيش لفتح إيبيريا، وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر، كما يقول ابن عذارى - ويرسل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة بعثة مكوَّنة من عشرة فقهاء على رأسها إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر للدعوة للإسلام ونشره بين البربر.

ومنذ هذا التاريخ أصبح الإسلام دين البربر فى كل مكان: فى الحواضر والبوادى وسفوح الجبال والهضاب والصحارى، ونعمت به ليبيا وغير ليبيا من بلاد المغرب، وقوَّض الديانتين اليهودية والمسيحية، إذ انتشر بسرعة عجيبة لا فى المناطق الشمالية المحدودة التى كانا يوجدان فيها فحسب، بل أيضا بين سكان الصحارى والجبال، بحيث انضوى المغرب وجميع أرجائه تحت لوائه، وهو ما لم تستطع المسيحية أن تحققه فى عهد الرومان والبيزنطيين، بل إن من تبعها من البربر كانوا فئة أو فئات قليلة، وكأنما كان فى الإسلام سحر جذبهم إليه، وليس السحر إلا ما قدمناه من ملاءمة عقيدته للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها، وأيضا لأنه يسوِّى بين رعاياه القدماء من العرب والجدد من البربر ويرفعهم إلى أعلى المناصب.

غير أنه بمجرد أن توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز وتولَّى بعده يزيد بن عبد الملك ثم أخوه هشام، إذا هما يوليان على البربر ولاة باغين طاغين ظلموهم ظلما شديدا، كما أسلفنا فى غير هذا الموضع، وكان أشدهم بغيا وطغيانا عبيدالله بن الحبحاب هو وولاته، وبلغ من سوء سياسته أن أخذ يفرق بين العرب والبربر فى الخراج وغير الخراج، فعمَّ الاستياء فى كل مكان من سياسته، وأدهى من ذلك أن واليه على طنجة لم يكتف بالعدوان على البربر فى الخراج، فقد أعلن أنه يريد تخميس أراضيهم متناسيا أو متعاميا عما أعلنه حسان بن النعمان فى ولايته من أن أرض البلاد المغربية فتحت صلحا لا قهرا، فهى ملك لأهلها منهم ولايصح العدوان عليها بحال من الأحوال.

٤

الإباضية والشيعة

كان طبيعيا - كما ذكرنا - أن تثور البلاد المغربية وأذكى ثوراتها وأمدَّها بوقود جزل دعاة لمذهبين من مذاهب الخوارج هما مذهب الإباضية ومذهب الصفرية، عرفوهم بهما وبدعوة الخوارج عامة التى تدعو إلى الأخذ بنظرية الإسلام فى المساواة المطلقة فى الحكم وغير الحكم بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب، فليس فى الإسلام أشراف هم العرب ومشروفون هم غير العرب،

والخلافة لا تُقْصَرُ على قبيلة قريش وحدها، بل هي حق للمسلمين جميعا، يتولاها أكفؤهم سواء أكان عربيا أم غير عربي، وسواء أكان قرشيا أم بربريا أم عبدًا حبشيا.

(أ) الإباضية

اعتنق عقيدة الإباضية فى طرابلس وجبل نُفوسة كثيرون، ومرٌّ بنا إشعالهم لثورات فى طرابلس منذ سنة ١٢٦ للهجرة إلى أن أخمدتها سنة ١٤٤ الجيوش العباسية نهائيا إلا ما كان من حركات صغرى فى طرابلس وجبل نفوسة قضى عليها يزيد بن حاتم المهلبي حين ولاه المنصور سنة ١٥٤ للهجرة كثورة أبي حاتم الإباضي وثورة أبي يحيى الهوارى، وكان الحكام – وخاصة حكام الأغالبة – يستطيعون دائما قمعها، ولكن دون أن يستطيعوا القضاء على الدعوة قضاء مبرما، فقد ظلت حية هناك حياة مستمرة إلى اليوم.

وكان ينبغى أن يشيد الباحثون الغربيون بالإسلام وأنه استطاع فى نحو ثمانين عاما أن ينتشر فى ديار المغرب: فى مدنه وجباله وصحاريه وبواديه وأن يمتلك من المغاربة أو قل من البربر قلوبهم وأفئدتهم بحيث أصبحوا يخلصون له ويحملون السلاح مع أهله للدفاع عنه ونشره فى أقاصى بلادهم المغربية وفى الأندلس، كما مر بنا، واتخذوا لغته لغة قومية لهم ورسخت – أو أخذت ترسخ – بينهم فى الجبال القاصية، بينما ظل الرومان قرونا متعاقبة يحكمون بلاد المغرب ويحاولون – بكل ما وسعهم – نشر لغتهم اللاتينية فيه ونشر عقيدتهم المسيحية، وخاصة منذ عهد قسطنطين وإعلانه أنها دين الدولة الرسمى، وظل البابا وقسسه ورهبانه يجاهدون فى نشرها بين البربر دون جدوى إلا ما كان من نفر ضئيل فى المدن الساحلية الشمالية، وبدلا من أن يسجلوا ذلك ويعترفوا للإسلام بمبادئه الروحية البسيطة التى لقيت استجابة لا تماثلها استجابة لا فى البقاع المغربية وحدها بل فى كل البقاع التى فتحها العرب الأولون: بقاع العراق وإيران والشام ومصر، إذ سرعان ما دخل أهلها جميعا فى الدين الحنيف بمجرد أن وقفوا على مبادئه وتعاليمه الدينية الروحية، أقول بدلا من أن يسجل الباحثون الغربيون هذه الظاهرة الكبرى للإسلام بالقياس إلى المسيحية وما تحمل من عقيدة التثليث المعقدة نرى نفرا منهم يطيب لهم أن يزعموا زعما باطلا أن حركات الإباضية بليبيا فى القرن الثانى الهجرى وبالمثل حركات الصفرية فى المغرب الأقصى والأوسط كانت حركات استقلالية قومية[1]، وهو زعم مخطئٌ أشد الخطأ، إذ لم يحاول أحد من البربر فى تلك الحركات الردة – أو الدعوة إلى المسيحية، كما لم يحاول أحد الردة، أو الدعوة إلى العودة إلى اللاتينية التى كانت منتشرة فى المدن الساحلية

(١) انظر: E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, PP. 160 Sq.

الشمالية وأخذت تنسحب أمام العربية دون عودة. ومن أكبر الأدلة على أن الدين الحنيف ولغته احتلا قلوب المغاربة وتغلغلا إلى السويداء منها أن نجد قبائل بربرية كثيرة تصطنع لها أنسابا تصلها بالعرب الجنوبيين فى اليمن أو بالعرب الشماليين سكان نجد، ومن يرجع إلى قواد ثورات الإباضية فى طرابلس ونفوسة الذين ذكرناهم فى غير هذا الموضع يرى أنهم كانوا عربا، ولم يكونوا من البربر، إذ كانوا فعلا بين تُجيبى وحضرمى ومرادى ومعافرى، وجميعهم من العرب، مما يدل دلالة قاطعة على أن ثورات الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة - وبالمثل ثورات الصفرية فى المغرب الأقصى والأوسط - لم تكن ثورات بربرية قومية، وإنما كانت ثورات إسلامية ضد الحكام الغاشمين الذين انحرفوا عن مبادئ الإسلام فى سياسة البربر وحكمهم، فأهدروا حقوقهم وفرّقوا بينهم وبين العرب فى الشئون المالية وغيرها. هى إذن ثورات كانت تستمد من روح الإسلام ومقاصده وتعاليمه فى نشر العدل والمساواة بين شعوبه عربا وغير عرب، وأيضا فإن هذه الثورات لم تقم على مبادئ بربرية إقليمية أو قومية، إنما قامت على مبادئ فرقتين من فرق الخوارج فى عُمان والعراق، وقد تَبَنَّتا فيها سواء الإباضية أو الصفرية أغراضا وأهدافا إسلامية فى الحكم وتطبيقه وما ينبغى فيه من المساواة والعدالة المطلقة بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنعرف مبادئ الإباضية التى شاعت فى طرابلس وجبل نفوسة، وأول مبدأ لهم أن الخلافة - أو كما يسمونها الإمامة - ليست حقا لقريش ولا ميراثا لأسرة قرشية، بل هى حق لله وللمسلمين جميعا، وينبغى أن يتولاها خير المسلمين تقوى وزهدا وورعا وتطبيقا لتعاليم الإسلام فى الحكم القائمة على العدالة والمساواة، وهم يفترقون عن عامة الخوارج فى أنهم لا يعدون مرتكب الكبيرة كافرا، بل يعدونه مسلما عاصيا ولا يعدون دار المسلمين سواهم دار حرب وينبغى أن يحملوا السلاح دائما ضدهم، وأيضا فإنهم يتوارثون معهم ويحلّون الزواج منهم، وهم بذلك أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى الجماعة الإسلامية، حتى ليمكن أن يُفْصَلوا عن الخوارج ويُلْحَقوا بتلك الجماعة. ومعروف أن مؤسس العقيدة الإباضية هو عبد الله بن إباض التميمى، وعنه حملها جابر بن زيد الأزدى العمانى، وعن جابر حمل لواءها أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ولاء البصرى موطنا، وقد أرسل سلمة بن سعد أحد تلاميذه إلى جبل نفوسة ليدعو الناس للدخول فى عقيدتهم الإباضية، واستجاب له كثيرون فاختار منهم خمسة للقاء ابن أبى كريمة بالبصرة، وعادوا مملوئين حماسة للعقيدة أو الدعوة، وأخذوا ينشرونها فى جبل نفوسة وطرابلس وإقليمها، حتى إذا كثر أتباع الدعوة أخذوا يثورون على الدولة الأموية ثم على الدولة العباسية على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع.

(ب) الشيعة: الدعوة العبيدية

إذا كان الإباضية نجحوا فى أن يظل جبل نفوسة موطنا لهم إلى اليوم وبعض أنحاء من طرابلس وإقليمها فإن الدعوة العبيدية الإسماعيلية، على الرغم من أنها أسست لها دولة فى إفريقية التونسية وانضوى تحت لوائها المغرب جميعه من برقة إلى المحيط الأطلسى فترة غير قليلة فى القرن الرابع الهجرى، لم تستطع أن تبقى فى طرابلس وإفريقية التونسية إلى مابعد القرن الرابع. ومعروف أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت منذ أواسط القرن الثانى الهجرى إلى اثنى عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة الفاطميين إلى ابنه موسى الكاظم، ويدين بذلك الآن شيعة العراق وإيران، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفَّى فى حياته، لأن الإمامة تنتقل فى عقيدتهم إلى الابن الأكبر حتى لو مات فى عهد أبيه، ونظَّم هذه الدعوة عبد الله بن ميمون القدَّاح واتخذ مركزًا لها قرية سَلَمْية بقرب اللاذقية، وأخذت تنتقل الإمامة فى تلك الدعوة سرا من أب لابن، حتى إذا كنا فى آخر القرن الثالث الهجرى كان الإمام عبيد الله المهدى، وتسلَّل أحد دعاته الدهاة أبوعبدالله الصنعانى إلى الجزائر، واستطاع أن يقنع بتلك الدعوة الشيعية قبيلة كُتامة، ولم يلبث أن قضى بها على الدولة التى كوَّنتها الإباضية فى تيهرت بالجزائر، والأخرى التى كوَّنتها الصفرية فى سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى، وقاد من كتامة حملة قضى بها على دولة الأغالبة فى إفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وكان قد ظل يدعو للرضا من آل البيت، حتى إذا قضى على الأغالبة كشف القناع عن وجهه، فأعلن قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية، واستدعى من سَلَمْية الإمام المستتر بها أو المختفى عبيد الله. ووصل القيروان سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بيعة عامة، ويسمى مؤرخو إفريقية التونسية الدولة باسم الدولة العبيدية نسبة إليه، وخاصة أن بعض المؤرخين تشكك فى نسب هذه الدولة إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، غير أن ابن خلدون أكد صحة نسبتها إليها وأنها فاطمية حقًّا. وكان طبيعيا أن يحاول عبيد الله - حين بويع له بالخلافة - الاستيلاء على ليبيا ونشر الدعوة الإسماعيلية بها، لما فيها من طيبات الرزق، ولأنها طريقه إلى مصر المأمولة. وبمجرد استيلائه على القيروان تبعته طرابلس إذ كانت تتبعها فى أيام الأغالبة، وولَّى عليها كُتاميًّا سنة ٢٩٨ فسلَّط جنده الكتامىّ على أهلها من قبيلة هوارة، فغضبوا غضبا شديدًا وفتكوا بجنده، ولم يلبث جيش كتامى أن حاصرها، ولم يفك حصاره لها إلا بعد أن أغرم أهلها غرامة ضخمة: ثلاثمائة ألف دينار. وحاول عبيد الله المهدى ضَمَّ برقة إلى دولته واستعصت عليه، فأرسل إليها جيشًا كتاميًّا على رأسه قائد يسمى حباسة الكتامى، ففتك بكثيرين من أهلها واستصفى أموالهم، وغرَّم أهلها مائة ألف دينار. وعادت برقة سريعًا إلى الثورة سنة ٣٠٤ للهجرة، وردَّها أحد قادة عبيد الله إلى الطاعة. وثار الإباضية فى جبل

نفوسة سنة ٣١٠ وهزموا جيشين لعبيد الله، وأخيرًا انتصر جيش له على إباضية نُفوسة، واستكانت ليبيا – منذ هذا التاريخ – لحكم الفاطميين طوال بقائهم فى إفريقية التونسية وفترة بعد مغادرة المعز العبيدى لها إلى القاهرة ولكنها كانت استكانة على مضض غير قليل، فقد ظل مَنْ بها من الإباضية فى جبل نفوسة وأنحاء طرابلس يعادون الدعوة العُبَيْدية – أو الفاطمية – الإسماعيلية، كما ظل أهل السنة الذين تتألف منهم جماهير غفيرة فى طرابلس وبرقة يستنكرون الدعوةَ الإسماعيلية الشيعية ويرفضونها رفضًا باتًا. وبمجرد أن انسحب حكمهم من إفريقية التونسية فى عهد المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ). انسحبت معه عقيدتهم الإسماعيلية لا فى إفريقية التونسية وحدها بل أيضًا فى طرابلس وإقليمها وجبل نفوسة، وبقيت لتلك العقيدة ظلال باهتة فى برقة لأنها كانت تتبع الدولة الفاطمية فى القاهرة. أما فى طرابلس وإفريقية التونسية وما وراءهما من البلاد المغربية فإنه لم يبق لها أى ظلال لا باهتة ولا غير باهتة، ويرجع ذلك فى رأينا إلى التطرف الشديد فى انحراف مبادئها عن الدين الحنيف وتعاليمه، حتى لتنسلخ جملة عنه، إذ تحيط أئمتها بهالة من التقديس لا يقرها الإسلام حتى لتزعم عصمتهم رافعة لهم فوق المستوى الإنسانى، بل إنها لتزعم أن الإمام العبيدى الإسماعيلى هو التجسُّد الربانى للذات العليَّة على الأرض، وهو لذلك المشرِّع وصاحب الأمر العالم بالغيب وما سُجِّل فى ألواحه، وكل صفات الله – جلَّ جلاله – إنما هى صفاته، إلى غير ذلك من مبالغات بل من ترهات، سوَّلت لبعض دعاة الخليفة العبيدى الحاكم بأمر الله أن يدعو إلى عبادته، وقد عرضت مبادئ هذه الدعوة الضالة بالتفصيل فى الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة الخاصة بتاريخ الأدب العربى، موضحًا كيف أن مصر انصرفت عنها، بل رفضتها رفضا، وهو ماحدث فى طرابلس والبلاد المغربية. وكأنما دخلتها جميعا – حين كانوا يحكمونها – من باب شديد الضيق، ثم خرجت بعدهم – حين رحلوا عنها – من باب آخر ولم تترك وراءها أثرًا. وعبثا حاول أبو عبد الله الصنعانى أن يقنع بها فقهاء القيروان وردوا عليه ردودا مفحمة، وأحسَّ عبيد الله المهدى – بوضوح – نفور الناس من عقيدتهم الإسماعيلية نفورًا شديدًا، فطلب إلى دعاتها أن يخففوا من النشاط للدعوة لها، وبنى «المهدية» على رأس بارز فى الساحل على البحر المتوسط شرقى سوسة، وأحاطها بأسوار عالية قوية مع أبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد – كما يقول الحسن الوزان فى وصف إفريقيا – سنة ٣٠٥ ونقل إليها أسرته وأمواله وجنده حتى يأمن على نفسه. وظلت طرابلس وإقليمها بل أيضا برقة وإقليمها كما ظلت إفريقية التونسية مزورِّتين عن الدعوة الشيعية، وظلت الجماهير فيها جميعا مرتبطة بمذاهب أهل السنة إلى أن خرجت طرابلس وإقليمها كما خرجت إفريقية التونسية من الدعوة السيدية الاسماعيلية فى عهد المعز بن باديس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع.

٥

الزهد والتصوف

ازدهر الدين الحنيف فى جميع أنحاء ليبيا منذ القرن الأول الهجرى، وأخذت مساجده تُبْنى فى كل مكان: فى الحضر والبدو، ويرمز إلى ذلك المسجد الجامع الذى بناه فاتح ليبيا العظيم عمرو بن العاص فى طرابلس أمام باب قبيلة هوارة، وتنافس ولاة طرابلس وليبيا بعده فى بناء المساجد وخاصة ولاة الدولة الأغلبية، وخلفتها الدولة العبيدية، فعنى المهدى ببناء جامعها المتسع الأعظم، وبنى ابنه القائم جامعا حسن البناء فى مدينة أجدابية. وكان الشعب يشارك فى بناء الجوامع والمساجد فاكتظت بها ليبيا، وكانت جميعا بيوتا كبرى للعبادة والنسك، وكانت حلقات الفقهاء والعلماء فيها أشبه بمدارس للتعليم والدراسة، واشتهر كثيرون فى جميع أنحاء ليبيا بأنهم كانوا زهادًا فى المتاع الدنيوى وأنهم كانوا عبَّادا نُسَّاكا ينتظرون ما عند الله من ثواب الآخرة. ويسوق المالكى فى رياض النفوس وابن الدباغ فى معالم الإيمان والتجانى فى رحلته المشهورة وأحمد النائب فى نفحات النسرين والمنهل العذب والطاهر الزاوى فى أعلام ليبيا أسماء عشرات من زهاد ليبيا ونُسّاكها على مر القرون.

وممن نذكره من زهاد ليبيا ونُسّاكها عبد الله الشعَّاب المتوفى بعهد الأغالبة سنة٢٤٣ للهجرة ولد بطرابلس ونشأ بها، وكان نجارا لا يأكل إلا من كسب يده، وتمَّ بناء مسجد كان البناء فيه توقف، وسكنه وعاش يتعبَّد لربه فيه، ونُسب إليه إذ سمى بمسجد الشعاب ويقول مترجموه إنه كان من كبار الصوفية والنساك الورعين، ومن هؤلاء النساك عبدالجبار السُّرْتى المتوفى سنة٢٨١كان يختم القرآن مرة كل ليلة وختمه فى مسجده أكثر من ألف ختمة، ومنهم عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ وكان يختم القرآن يوميا، ومنهم سعيد بن خلفون المتوفى سنة ٣٦٢ وكان من أكابر الصوفية واقفا على المعارف اللدنِّية والقدسية وكان يسكن بمسجد منسوب إليه فى طرابلس، وكان للناس اعتقاد فيه حتى لقبوه بلقب المستجاب وأكثروا من الحديث عن كراماته، وكان يعاصره بطرابلس ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا ابن الخطيب المتوفى سنة ٣٧٠ وكان يتخذ مسجد المجاز فى بلدته مسكنا ومأوى له، وكان عابدًا ناسكًا ورعًا، وكان يعاصرهما أبو نزار خطاب البرقى المتوفى سنة ٣٧٣ وكان يعاشر الصوفية وينزع منزعهم، وكان مثل صاحبيه يسكن جامعًا إلى الشرق خارج المدينة. ومن كبار الزهاد بطرابلس فى القرن الخامس الهجرى أبو الحسن السيقاطى المتوفى سنة ٤٢٠ للهجرة وكان يتعبد لربه بمسجد سيقاطة على ساحل طرابلس. وأبو مسلم مؤمن بن فراج الهوارى المتوفى

سنة ٤٤٢ للهجرة وله مسجد كان يتعبد فيه ويدرس لطلابه منسوب إليه.

ويتكاثر زهاد ليبيا ونُسّاكها ومتصوفتها في القرون التالية، وهم أكثر من أن نحصيهم ونعدّهم عدًّا، وقد أخذ نفر منهم - منذ القرن السابع - ينتمي إلى الطرق الصوفية السنية، وطبيعي أن لا ينتسبوا إلى الطرق الصوفية الفلسفية عند أبي مدين وابن عربي وابن سبعين وأضرابهم إذ لم يكن أهل ليبيا يأخذون أنفسهم بشيء من الفلسفة أو التفلسف يفسح لهذه الطرق بينهم، ونظن ظنًّا أن بعض زهادها ونُسّاكها تبع الطريقة الشاذلية الصوفية[1] السنية التي أخذت تشيع في تونس ومصر منذ أواسط القرن السابع الهجري حين أسسها بتونس أبو الحسن الشاذلي، ثم غادرها إلى القاهرة، وكان من أهم أتباعه فيها ابن عطاء الله السكندري الذي اشتهر بحكم له بديعة. ويلقانا من كبار أتباع الطريقة الشاذلية في القرن التاسع الشيخ زروق المولود بمدينة مصراته شرقي طرابلس سنة ٨٤٦ للهجرة، وقد رحل إلى القاهرة ودرس بالأزهر وأخذ عن علمائه، ويبدو أنه اعتنق الطريقة الشاذلية حينذاك، وكان فقيها مالكيا ضليعًا وله مؤلفات مهمة في الفقه المالكي، وأكثر مؤلفاته في التصوف وبخاصة في الطريقة الشاذلية وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية بعنوان أصول الطريقة الشاذلية، ومخطوطة ثانية شرح فيها حزب الشاذلي المسمى بحزب البحر، ويقال إن له ستة عشر شرحًا لحكم ابن عطاء الله السكندري، وطبع أحد هذه الشروح بالقاهرة مرارًا، وطبع له في القاهرة كتاب بعنوان قواعد التصوف. وتوفي زروق بمصراته مسقط رأسه سنة ٨٩٩ للهجرة.

ويلقانا بعده من أتباع الطريقة الشاذلية الخروبي محمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٣، وكان أبوه من تلامذة الشيخ زروق، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية، وتوفي فرعته أمه وكانت سيدة صالحة، فلقنته كثيرًا من المدائح النبوية والتراتيل الدينية، وكان لها ابن عمة شاذليًّا، فدرس عليه الخروبي مسالك الطريقة الشاذلية وحكم ابن عطاء الله السكندري، واندمج روحيًّا في تلك الطريقة طوال حياته، وله شرح لحكم ابن عطاء الله، وفي دار الكتب المصرية له تفسير مخطوط كبير. ومن أكبر أتباع الطريقة الشاذلية في القرن العاشر الهجري عبد السلام الأسمر المولود بمدينة زليطن شرقي طرابلس وليدة سنة ٨٨٠ للهجرة، وكان صوفيا مجذوبا في حب ربه، وكانت تعتريه حالات وجد وهيام شديدة واستخدم في حلقاته ومجالسه الدف والبندير والغناء والرقص، مما جعل كثيرين من معاصريه النساك ينتقدونه نقدًا شديدًا، واضطره ذلك إلى الخروج عن بلده مرارًا إلى جهات مختلفة في ليبيا وفي إفريقية التونسية، واستقر أخيرا في زاويته بمسقط رأسه زليطن إلى أن توفي سنة ٩٨١ للهجرة، وكان يقرأ لأتباعه في الزاوية كتبا مختلفة في التوحيد

---

(١) انظر في هذه الطريقة ومؤسسها أبي الحسن الشاذلي وتابعه ابن عطاء الله السكندري كتابنا في هذه السلسلة عن مصر.

والفقه المالكي، كما كان يقرأ لهم حكم ابن عطاء الله السكندري، وله مؤلفات مختلفة في التصوف. وكان له مريدون كثيرون لزموه في حياته من بيته مثل ابنه عمران ومن غير بيته مثل إبراهيم بن على العوسجي المتوفى سنة ٩٩٨ ومثل كريم الدين البرموني المصراتي المتوفى بأخرة من القرن العاشر الهجرى وله كتاب في أستاذه. ويتكاثر الزهاد والصوفية في ليبيا طوال العصر العثماني، وتتكاثر زواياهم وتعم في البلاد الطريقة الشاذلية، وتزاحمها بعض الطرق الصوفية السنية، ولكن تظل لها الغلبة.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة[1] العلمية

(أ) فاتحون وناشرون للإسلام

منذ فتح عمرو بن العاص ليبيا ووُلاتها يُعنون بنشر الدين الحنيف وتعاليمه وثقافته فيها، فقد كان ذلك الغايةَ المُثْلى والمقصد الأسمى من الفتوح الإسلامية لا فى ليبيا وحدها، بل أيضا فى كل ما فتحه المسلمون فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان. ولذلك نرى وُلاة المغرب فى ليبيا وغير ليبيا يحثّون كثيرين من جنودهم – وخاصة من أقاموا واستوطنوا هناك – إلى تحفيظ البربر القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ العربية كى يستطيعوا تلاوته تلاوة سليمة، وحثّهم على ذلك – بقوة – عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان فى أواسط القرن الأول الهجرى، وبالمثل مؤسس مدينة تونس: حسّان بن النعمان (٧١ – ٨٥ هـ) واتسع خَلَفه: موسى بن نُصير – فى هذه الغاية من تعليم البربر القرآن وتعاليم الإسلام، ويقال إنه كلّف بذلك سبعين رجلا من جنوده بثّهم فى قبائل البربر، ويقال: بل إنه جعل ذلك فريضة على جميع جنود العرب الفاتحين.

---

(١) راجع فى ثقافة ليبيا رياض النفوس للمالكى والبيان المغرب لابن عذارى وتراجم معالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى والسير للشماخى وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى وإنباه الرواة للقفطى والديباج المذهب لابن فرحون وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وتاريخ ابن خلدون والأنساب للسمعانى وكتابى الأزمنة والأنواء وكفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابى ورحلة التجانى ورحلة العياشى والرحلة المغربية للعبدرى والتذكار لابن غلبون وحكاية مدينة لخليفة محمد التليسى وتاريخ المغرب الكبير لدبوز ونفحات النسرين والمنهل العذب لأحمد النائب وكتابى أعلام ليبيا ومعجم البلدان للزاوى وأعلام من طرابلس للمصراتى والإباضية فى موكب التاريخ لمعمر وكتاب النشاط الثقافى فى ليبيا لأحمد مختار عمر وتاريخ ليبيا لإحسان عباس وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى.

ولابد من ملاحظة أن البربر الذين اعتنقوا الدين الحنيف أخذوا يشتركون مع الجيوش العربية فى الفتوح وحرب الكفار، وكان زملاؤهم من العرب فى حمل السلاح يلقّنونهم آى الذكر الحكيم ومبادىء الإسلام وتعاليمه. ويذكر المالكي فى كتابه «رياض النفوس» أن جيش زهير بن قيس والى المغرب بعد عقبة بن نافع كان مكوّنًا - فى بعض حروبه لكسيلة الثائر المغربى - من ألفين من البربر وأربعة آلاف من العرب، كما يذكر ابن عذارى فى كتابه «البيان المغرب» أنه كان فى جيش حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥هـ) اثنا عشر ألفا من البربر، ويذكر أيضا أن جيش طارق بن زياد البربرى والى طنجة لموسى بن نصير كان مكونا - فى فتحه لإيبيريا - من سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر، ويعقّب ابن عذارى على ذلك بأن موسى بن نصير «أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقّهوهم فى الدين». ومعنى ذلك أن الجند العربى الذى كان يعايش الجند البربرى فى حرب الكفار ونشر الإسلام كان يعلّمه القرآن وتعاليم الإسلام الدينية. ويصوّر ذلك من بعض الوجوه ما رواه الشّماخى فى كتابه السِّير عن عمر بن يمّكتن أول معلم من البربر للقرآن الكريم فى جبل نفوسة بطرابلس قبيل اشتراكه فى ثورة أبى الخطاب المعافرى سنة ١٤٠ للهجرة وتوليته له على مدينة سرت، فقد رُوى عنه أنه تعلم القرآن بطريق (مُقَمْداس) كان يتلقّى فيها السّابلة والمارَّة من المشرق (يريد الجند العربى الداخل إلى إفريقية التونسية) فيكتب عنهم لَوْحا من القرآن وينصرف إلى منزله، فإذا حفظ ما فيه رجع إلى المحجَّة (الطريق) فيكتب من المارَّة والرِّفاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلّم العلم». ويقول الشّماخى إنه «كان يصنع ذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن فى أول الإسلام وقلة المعلمين فى البلدان». ونظن أنه إنما كان يصنع هذا الصنيع حتى يتلقّن بدقة أداء ألفاظ الذكر الحكيم على وجوهها الصحيحة، لأن أداءها لا يكفى فيه ما كُتب فى مصاحفه أو فى الصحف، بل لابد فى القرآن الكريم من أخذه شفاها، حتى يحكم الشخص تلاوة آياته بنطقها وأدائها الدقيق. وهو ما دفع ابن يمكتن إلى أخذه شفاها من أفواه السابلة والمارَّة من الجند العربى الداخل إلى إفريقية التونسية والبلاد المغربية. وفى هذا الخبر ما يوضح مدى ما أسداه الجند العربى الفاتح للمغرب-حتى المارَّة منهم بالطرق-فى تحفيظ القرآن وحسن أدائه للمغاربة شبابها وغير شباب، ويقول ابن يمّكتن إنه تعلم - من مارَّة الجند أيضا - العلم يريد تعاليم الإسلام والفقه بالدين الحنيف. فأينما كان الجند العربى مجاهدا فى سبيل الله مع البربر ومقيمًا بين ظهرانيهم ومارا بطرقاتهم كان يعنى بشدّ أزرهم فى حفظ القرآن الكريم والمعرفة الدقيقة بمبادئه والتفقه البصير بتعاليمه.

(ب) الكتاتيب

إيمانا من الولاة فى ليبيا وغير ليبيا من أن الدين الإسلامى العظيم جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم حتى يعلم بدقة فروض دينه وتعاليمه أخذوا يعنون ببناء كتاتيب لتحفظ فيها ناشئة البربر القرآن وتعرف مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان المعلمون فيها يبدءون بتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ العربية، لإحكام النطق السديد بألفاظ الذكر الحكيم. وكانت تلك الكتاتيب تلحق بالمساجد أو تخصص لها غرفة بداخلها ثم أخذت تشيع فى الحارات والدروب بالمدن وفى الواحات والأحياء بالوديان، وظلت تحل فى ليبيا وغير ليبيا محل التعليم الابتدائى فى عصرنا، وكانت الناشئة تزوّد فيها ببعض الأحاديث النبوية وببعض سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكانت تزوّد فيها بمبادئ الحساب، وأهم من ذلك تعلّم فروض الإسلام وخاصة الصلاة وكيفية أدائها وما ينبغى لها من الوضوء والطهارة كما تتعلم بعض إرشادات تهدى إلى الخلق المستقيم والسلوك القويم.

(جـ) المساجد

وهذا التعلّم المبكر للقرآن وتعاليم الإسلام الذى أُنشئت من أجله الكتاتيب فى كل أنحاء ليبيا كانت الناشئة تنتقل منه إلى حلقات العلماء الذين كانوا يرابطون فى المساجد ملقين على طلابهم مختلف الدروس والمحاضرات فى فنون العلوم المختلفة من لغوية ودينية. وكانت ليبيا تكتظ بهذه المساجد فى مدنها وقراها وواحاتها، ولم يكن يخلو مسجد من عالم كبير يحاضر الطلاب أو يعظ الناس. ومرّ بنا فى حديثنا عن الزهد والتصوف ذكر بعض مساجد اشتهرت فى طرابلس وساحلها، ويذكر التجانى فى رحلته أن بخارجها مساجد كثيرة، أما مساجدها فى أحيائها المختلفة ودروبها فلا تحصى كثرة، ويقول إن بساحلها مساجد كثيرة. ولا نلتقى بالمساجد فى ليبيا بالمدن فحسب، بل نلتقى بها أيضا فى القرى على شاكلة مسجد على بن عبد الحميد العوسجى المقرئ الذى بناه فى قريته «الحرشا» من قرى مدينة الزاوية، وكانت مدن جبل نفوسة وقراه تكتظ أيضا بالمساجد. وكان العلماء ينتصبون فى تلك المساجد لإلقاء دروسهم فى قراءات القرآن الكريم وفى تفسيره وفى الحديث النبوى وفى الفقه والشريعة وفى العربية وقواعدها السديدة، وقد أصبحت طرابلس وبرقة منذ عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) مركزين من مراكز العلم، وبعث فيها الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) حركة علمية خصبة، إذ عنوا بعلمائها وأسبغوا عليهم من الرواتب مايسد حاجتهم، وكان المجتمع الليبى بجميع طوائفه يجلّ هؤلاء العلماء ويعرف لهم قدرهم وأنهم منارة الدين وحملة أضوائه.

(د) الرحلة فى طلب العلم والوافدون

على نحو ما كان الشباب المغربى فى إفريقية التونسية يرحل إلى مصر والشام والحجاز والعراق للتزود من العلوم الإسلامية واللغوية كذلك كان الشباب الليبى يرحل فى طلب العلم وأخذه عن أعلامه، وسنذكر - عما قريب - بعض من حملوا عن الإمام مالك كتابه الموطأ وأذاعوه فى وطنهم. ولابد أن بعض المعلمين للعربية فى ليبيا مدّ رحلته فى المشرق إلى العراق للاختلاف إلى علماء العربية بها وحمل كتبهم إلى البلدان الليبية.

وكان موقع ليبيا فى طريق الأندلسيين والمغاربة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة ذهابًا وإيابا يتيح لبلدانها مثل طرابلس وبرقة أن ينزلها بعض العلماء ويطيب له الإقامة فيها شهرًا أو أشهرًا، ويلتف به طلابها يحاولون أن يأخذوا عنه ما عنده من العلم أو ما اشتهر به، على شاكلة محمد بن عيسى البيانى الذى مر بطرابلس وبرقة فى عامى ٣٣٢ و ٣٣٨ فالتف به طلابها يكتبون عنه، ومثل الفقيه أبى الحسين محمد بن إبراهيم الأندلسى الذى نزل طرابلس فى عودته من أداء فريضة الحج، فقرأ عليه طلبتها بعض مؤلفاته. وكثر نزول مثل هذين العالمين بها فى عهد الدولة الحفصية، ويقال إن ابن منظور العالم اللغوى المشهور المتوفى سنة ٧١١ بمصر تولى القضاء بها. ويروى عن بعض هؤلاء العلماء الوافدين - وخاصة على طرابلس - أنهم توقفوا بها للأخذ عن علمائها ونسمع بذلك منذ القرن الثالث الهجرى، مما يدل بوضوح على ازدهار الحركة العلمية بطرابلس وأن أسماء بعض علمائها أخذ فى الذيوع مما جعل بعض العلماء الوافدين يشغف بلقائه والأخذ عنه، على نحو ما نجد عند ابن الفرضى فى كتابه «تاريخ علماء الأندلس» إذ ذكر نفرًا نزلوا بطرابلس فى رحلاتهم إلى المشرق للتزود من علمائها وحمْل ما عندهم من العلم، وممن ذكرهم محمد بن قاسم بن سيار المحدث الأندلسى المشهور، إذ قال عنه إنه سمع بطرابلس عن علمائها فى رحلته سنة ٢٩٤ للهجرة وممن ذكرهم أيضا محمد بن عبد الملك بن ضيفون قائلًا عنه: إنه سمع بطرابلس فى رحلته سنة ٣٣٨ من يحيى بن دحمان، كما سمع منه مواطنه هاشم بن يحيى بن حجاج البطليوسى فى رحلته إلى المشرق، وسنذكر - فيما بعد - أن التجانى صاحب الرحلة المشهورة التى نرجع إليها حين زار طرابلس واستمع إلى محدِّث فيها هو ابن عبيد انبهر انبهارًا شديدًا والتمس منه أن يقرأ عليه صحيحى مسلم والبخارى.

(هـ) المدارس

عرف العالم الإسلامى فكرة المدارس منذ أواخر القرن الرابع الهجرى وتوسع فيها نظام

الملك وزير ألب أرسلان فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى إذ بنى طائفة من المدارس فى العراق وإيران سُمِّيت كل منها باسم المدرسة النظامية، وكانت أشبه بجامعات يحاضر بها الأساتذة فى فروع العلوم المختلفة، ولهم فيها مساكن ورواتب معلومة وللطلاب نفقات تكفيهم، ولكل مدرسة مكتبة نفيسة. وأخذت تتكاثر المدارس فى البلدان العربية منذ القرن السادس الهجرى، ويشيد التجانى وغيره من الرحالة الذين زاروا طرابلس بمدرسة بديعة قام على بنائها بين سنتى ٥٥٥ و ٥٥٨ الفقيه الطرابلسى عبد الحميد بن أبى البركات بن أبى الدنيا. وغضى إلى القرن السابع وكانت طرابلس تتبع الدولة الحفصية التى عنيت ببناء المدارس فى تونس وأرجاء دولتها، ويبدو أنه بنيت فى عهدها بطرابلس مدارس متعددة بشهادة التجانى فى رحلته إذ يذكر أن بطرابلس مدارس متعددة أو كما يقول مدارس كثيرة. ويذكر الشماخى فى كتابه السير وعلى يحيى معمر فى كتابه الإباضية فى موكب التاريخ مدارس متعددة للإباضية بنوها فى جبل نفوسة. ومع أن العثمانيين فى زمن حكمهم لطرابلس وليبيا لم يكونوا يولون الحركة العلمية العناية الواجبة نجد بعض ولاتهم يعنون ببناء بعض المدارس، يتقدمهم فى ذلك مراد أغا إذ بنى مدرسة بمدينة تاجوراء، ولابد أن هؤلاء الولاة بنوا مدارس متعددة فى البلاد، وَيُذْكَرُ أن عثمان الساقزلى بنى مدرسة بطرابلس قرب باب البحر، كما يذكر أن أحمد القرمانلى بنى مسجدًا كبيرًا وألحق به مدرسة. ولابد أن مدارس تركية متعددة أنشئت فى بلدان طرابلس وأيضا فى بلدان برقة حين انفكت عن تبعيتها للقاهرة، وكانت تتبعها منذ العصر الفاطمى إلى أن ضمها إلى ولاية طرابلس محمد الساقزلى. وبدون ريب ساعدت المدارس فى النشاط العلمى بتلك الديار، ولو أنه كان فى العصر العثمانى نشاطًا محدودًا.

(و) الزوايا

عرفت المغرب الزوايا وأخذت تستكثر منها منذ القرن السابع الهجرى، وكانت الزاوية تتكون من قاعة ومحراب للصلاة وغرفة لتحفيظ القرآن أو تلاوته وبعض غرف للضيوف والطلبة وبعض الزوار ممن ينزلون بها مع ما تحتاج إليه من المرافق. وكان بعضها يتسع فى مبانيه، حتى تصبح الزاوية كأنها مسجد يموج بطلابه وزواره، وكان يكثر أن يكون لشيخها ضريح يدفن فيه، ومن فوقه قبة كبيرة. وتحوَّل كثير من الزوايا إلى ما يشبه دور علم مع ما تتيحه من العبادة والنسك، ويتحدث التجانى الذى نزل بطرابلس فى أوائل القرن الثامن الهجرى عن زاوية أولاد سهيل وعنايتها بتحفيظ القرآن وما بها من كتب كانت موقوفة على الطلاب وما كان لهم بها من غرف للسكنى. ومن أشهر زوايا ليبيا زاوية عبد السلام الأسمر بمدينة زليطن، وكانت تعنى - مع تحفيظ القرآن الكريم - بالعلوم الدينية، وكان بها حجر كثيرة لسكنى الشيوخ والطلاب، وقد أسسها صاحبها سنة ٩٠٠هـ وظل الطلاب يؤمونها بعده من أنحاء ليبيا وغيرها، وكانت

مكتبتها تشتمل على خمسمائة مجلد من الكتب النفيسة. ولم تكد تخلو بلدة فى ليبيا من زاوية تعنى بالعبادة وبث العلم والمعرفة.

(ز) خمود فى الحركة العلمية

أصاب الحركة العلمية بليبيا غير قليل من الخمود فى فترتين أما أولاهما فحين هاجر إلى ليبيا والمغرب أعراب بنى سليم وبنى هلال منذ سنة ٤٤٣ وكانوا بدوا جفاة، فأنزلوا بليبيا دمارًا كثيرًا، وخاصة فى حضرها ومدنها، شلّ العمران فيها والحياة العلمية إلى نحو قرن من الزمان، ولم تلبث طرابلس أن مُحنت باحتلال نورمان صقلية لها ثلاث عشرة سنة طوالا، وثار أهلها عليهم ومزَّقوهم ذات ليلة شر مُمزَّق، ودانوا لدولة الموحدين المغربية، ولم يكد يمضى نحو ربع قرن حتى أصبحت ليبيا فى طرابلس وبرقة مسرحا لأطماع قراقوش وابنى غانية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، وظلوا يعيثون فى ليبيا فسادًا عشرات السنين. وكل ذلك أثر فى الحركة العلمية بليبيا واعتراها كثير من الخمود، غير أنه خلال كل هذا الرماد الثقيل الذى انهال عليها لنحو قرن ونصف من الزمان ظل بها وميض جمر علمى يلمع من حين إلى حين، مما هيأ لاستمرار الحركة العلمية ببلدانها وظهور نفر من العلماء بها حملوا مصابيح العلوم المختلفة شرعية ولغوية . وتصبح برقة - أو تظل - موالية لمصر فى عهد الأيوبيين والمماليك وتصبح طرابلس موالية للدولة الحفصية، وترعى حركتها العلمية بما أنشأت فيها من مدارس وتعيد لها غير قليل من ازدهارها القديم.

وتعود الحركة العلمية إلى الخمود بطرابلس حين ظلت نحو أربعين عامًا فريسة للإسبان ثم لفرسان مالطة فى القرن العاشر الهجرى، وتخلفها الدولة العثمانية، ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا أصحاب علم وثقافة، ولذلك انتكست البلاد الإسلامية جميعها التى ضموها إلى دولتهم سواء فى المشرق مثل العراق والشام ومصر أو فى المغرب مثل ليبيا وتونس والجزائر وتراجعت فيها الحركة العلمية وأصابها غير قليل من العطل والخمود، إذ لم يكن الولاة العثمانيون يشجعون العلماء فى طرابلس - وبالمثل فى برقة حين دانت لهم - تشجيعا ماديا بفرض رواتب لهم ثابتة بحيث تحدث بينهم غير قليل من التنافس والنشاط العلمى الخصب، كما تحدث فى مجالسهم غير قليل من الجدل فى العلوم ومسائلها الشرعية واللغوية. ويلاحظ ذلك الرحالة المغاربة فى رحلاتهم إلى الحج ومرورهم بطرابلس على نحو ماذُكِرَ عند ابن عبد السلام الناصرى فى رحلته الحجازية الكبرى حين مر بطرابلس سنة ١٢١١ هـ/١٧٩٦م إذ يقول: «إن أئمة طرابلس مع لطافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدريس، غافلين عن المنافسة فى هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعذَّرت أو عادة عندهم قد

تقررت، سوى فرد من الناس، بدا فى جُنْح ليلها كالنبراس». وعالم طرابلسى واحد فقط هو الذى لفت الناصرى، والبلد لم تكن قفرا من العلماء، ولكنها كانت قفرا ممن يشجعونهم ويثيرون فيهم الرغبة فى المنافسة العلمية، وبالتالى فى البحث والجدل والمناظرة.

٢

علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض

(أ) علوم الأوائل

لم يكن لليبيا نشاط واضح فى علوم الأوائل قبل العصر الحديث، إنما يذكر عرضا أن هذا العالم اللغوى أو الفقيه المالكى بجانب علمه الواسع بمادته كان عالما بالحساب والهندسة والكيمياء مثل عبد الله بن عبد الله البرقى الراحل إلى الأندلس زمن الخليفة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ). ويقال إنه كان عالما باللغة والنحو وإماما فيها وعالما بالحساب والهندسة، ويقال عن الجلالى الفقيه الإباضى فى القرن الرابع إنه كان مع براعته فى علمى الأصول والمنطق كان بارعا فى الحساب، ومثله معاصره ابن المنمر الفقيه المالكى، وكان عبدالرحمن بن محمد التاجورى الطرابلسى الفقيه المالكى فى القرن العاشر الهجرى علامة زمانه فى علم الميقات. وهى إشارات متباعدة زمنيا ولا تحمل لليبيا نشاطا بيِّنا فى علوم الأوائل.

(ب) علوم اللغة والنحو والعروض

طبيعى أن تعنى ليبيا وبلدانها بالعربية، وكان الليبيون على مثال عمر بن يَمْكُتن فى تلقفه للقرآن الكريم وآياته من أفواه الجند العربى يتلقفون كلهم العربية منهم وما يجرى على ألسنتهم من بعض الأشعار. ونشأت الكتاتيب، وأخذوا يتلقنون مع آيات الذكر الحكيم بعض الأمثال العربية وبعض الأحاديث النبوية، وربما ألم لهم الشيخ بشىء من خطب الرسول والخلفاء الراشدين، حتى إذا كان القرن الثانى أخذت ناشئة من العلماء من أهل ليبيا تحسن قراءة الذكر الحكيم وتروى بعض الأحاديث وتنشد بعض الأشعار، ورحل عدد منهم غير قليل لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء فى مصر والحجاز والعراق، وسمع بعضهم بوضع علماء البصرة لقواعد العربية، فرحلوا إليهم وتتلمذوا عليهم، وعادوا إلى الكتاتيب فى ليبيا يعلمون الناشئة ما سمعوه من تلك القواعد، وعلَّموها أيضا للشباب فى المساجد وأخذ يشاركهم فى هذا التعليم وافدون من المشرق: من البصرة أحيانا ومن الكوفة أحيانا أخرى، وما تلبث ليبيا أن يصبح لها لغويون ونحاة من أهلها، يتقدمهم أربعة عاشوا فى عصر الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ترجم لهم جميعا الزبيدى فى طبقاته، وأولهم محمد بن صدقة المرادى الطرابلسى، وغلب عليه التقعر فى اللغة، إذ كان لا يكتفى بالمألوف من اللغة فى محاضراته وإملاءاته، بل يطلب دائما الشواذ والنوادر والغرائب اللغوية حتى يبهر تلاميذه وسامعيه. والثانى خلف بن مختار الطرابلسى المتوفى سنة ٢٩٠ وكان صاحب نحو ولغة ويقرض الشعر ويجيد المعانى. والثالث محمد بن سالم الطرابلسى المعروف بالمقعق وكان صاحب نحو ولغة مثل سالفه مع علم بالجدل وإيمان بالاعتزال ومبادئه. والرابع عبد الله بن محمود من أهل سرت، نشأ فيها وأخذ عن علمائها، ورحل إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها وبها دوّت شهرته فى اللغة والغريب وشَرْح الدواوين الشعرية وأيام العرب. وله كتب أملاها فى اللغة والعربية والغريب والعروض، يقول الزبيدى: «وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية التونسية والمغرب، وعليه قرأ الناس المشروحات توفى سنة ٣٠٨ للهجرة». ونلتقى عند القفطى فى إنباه الرواة بأبى بكر محمد بن مؤمن الكندى البَرْقى، وفد على مصر وتوفى فيها سنة ٣٥١ وقد قارب الثمانين وكان نحويًّا كبيرا، كما نلتقى بعلى بن مضر البرنيقى أو البنغازى نزيل مصر، كان نحويا لغويا كبيرا وكتب بخطه كثيرا من الكتب اللغوية وكان الناس يتنافسون فى تحصيل ما يكتبه، ويقول القفطى إنه رأى نسخة بخطه من معجم الجمهرة لابن دريد، وقد بيعت بأربعة وعشرين دينارا مصريا، وإذا كان قد حمل إلى القاهرة نسخة من الجمهرة بخطه، فإننا سنرى ابن القطاع بعده بأكثر من قرن يحمل إلى القاهرة من صقلية نسخة من صحاح الجوهرى، وكان عليها اعتماد المصريين فى رواية معجم الجوهرى، كما كان اعتمادهم على نسخة معجم الجمهرة بخط على بن مضر البنغازى، ولعل فى حمله لها إلى القاهرة ما يدل على ما بلغه أهل ليبيا من العلم باللغة ومعاجمها الكبيرة فى القرن الرابع الهجرى، إذ توفى سنة ٣٨٤ للهجرة.

وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجرى التقينا فى طرابلس بعالم فذ من علماء اللغة العربية يحق لطرابلس -بل لليبيا عامة- أن تفاخر به، ويحسن أن نتوقف عنده قليلا لنتخذ منه رمزا قويا على مدى ما حذقته ليبيا وطرابلس حتى زمنه من علوم العربية والتعمق فيها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابى الطرابلسى اللواتى، فهو ليبى من قبيلة لواتة البربرية التى سكنت الساحل الليبى منذ العصور السحيقة، وأصل أسرته من أجدابية فى إقليم برقة، ولذلك نُسب إليها، وقد وُلد ونشأ وأمضى حياته فى طرابلس إلى أن توفى بها، ولذلك عُرِف بالطرابلسى. واختلف من ترجموا له أو ذكروه فى القرن الذى عاش فيه، فقيل عاش فى القرن السابع الهجرى، وقيل: بل فى القرن السادس، وقال التجانى فى رحلته إنه عاش فى القرن الخامس الهجرى، ويؤيده - بل يقطع به - خبر له مع قاضى بلدته ابن هانئ الذى ولى قضاءها بين سنتى ٤٤٤ و٤٧٧ فقد ذكر الرواة أنه حضر مجلس قضائه، فرآه يحكم بحكم مخطئ

فردٌه، فقال له ابن هانش: «اسكت يا أحول فيا استُدعيت، ولا استُفتيت» وانصرف من مجلسه غاضبا، فألف رسالة فى الحَوَل تدل على سعة علمه، وهى سعة شهد له بها كثيرون مثل القفطى فى ترجمته له بإنباه الرواة، إذ يقول عنه: «من أهل اللغة، وممن تصدَّر فى بلده واشتهر بالعلم.. وكانت له يد جيدة فى اللغة وتحقيقها وإفادتها». ويقال إنه سئل من أين لك كل هذا العلم ولم ترحل؟ فأجاب: اكتسبته من بابى هوارة وزناتة فى بلدق، يريد من العلماء الذين كانوا يفدون على طرابلس من الشرق والغرب، مما يدل على الأثر الواسع للوافدين على طرابلس فى ثقافة شبابها ومعارفهم العلمية على نحو ما أشرنا إلى ذلك فيا أسلفنا من حديث. ويقول التجانى فيه برحلته: «كان الفقيه أبو إسحق هذا من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوا ولغة وعروضا ونظما ونثرا». وينوه بمؤلفاته، ويذكر منها كتابه فى العروض، ويقول: «ناهيك به حسنا وترتيبا وتهذيبا، وهو نسختان: كبرى وصغرى» كما يذكر له كتابا مختصرا فى علم الأنساب، اختصر فيه أنساب قريش للزبير بن بكار، ويقول: «قد رأيت أبا إسحق قد أدخل من حفظه فى هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبَّه عليها». ومن مؤلفاته الطريفة كتاب فى الرد على ابن مكى فى كتابه: «تثقيف اللسان» وما جمعه فيه من الأخطاء اللغوية التى تدور فى أفواه الناس والعلماء، وقد راجعه فى كثير من هذه الأخطاء محاولا تصحيح بعض ما ظنه خطأً وتسويغه. وينوه التجانى بكتاب له فى شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلالها، ويقول التجانى: «استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها.. ولما استوفى ذلك استيفاء جميلا تعرَّض لشرح المقاطع (الفواصل اليائية) الواقعة فى سورة مريم لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام، فجاء هذا التأليف فى غاية الإفادة». ويبدو أنه كان فقيها كبيرا، وتشهد له بذلك مراجعته لابن هانش السالفة فى حكم قضائى له، ويقول التجانى: له تآليف جليلة وأسئلة مفيدة فى الفقه، ولكن لاشك فى أن نشاطه اللغوى كان أكبر وأخصب من نشاطه الفقهى. وقد نُشر من مؤلفاته كتابان لغويان نفيسان هما: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، والأزمنة والأنواء.

أما كتاب كفاية المتحفظ فهو على مثال كتاب فقه اللغة للثعالبى، ويتوزَّع مثله إلى عدة أبواب، فباب فى صفات الرجال المحمودة ويتلوه بصفات الرجال المذمومة، وباب فى صفات النساء المحمودة، ويتلوه بالمذموم من صفاتهن، وباب فى خَلْق الإنسان، وباب فى الخيل، وباب فى السلاح، وباب فى السباع والوحش، وباب فى الطير، وباب فى النبات إلى غير ذلك من أبواب كثيرة، ويقول فى مقدمته: «هذا كتاب مختصر فى اللغة وما يُحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنَّبناه حوشيَّ الألفاظ واللغات، وأعريناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنيا لمن اقتصد فى هذا الفن، ومعينا لمن أراد الاتساع فيه». وقد

نال هذا الكتاب شهرة واسعة فى العالم العربى من قديم شرقا وغربا وعكف عليه غير عالم يشرحه أو ينظمه شعرًا ليسهل على الطلاب حفظ ما فيه، وعدَّد بروكلمان فى ترجمته مخطوطاته ومخطوطات شروحه ونظمه، وطُبع الكتاب فى عصرنا بالقاهرة وبيروت وحلب. ونسوق مثالا من صفحاته الأولى يوضح مدى أهميته والفائدة – أو الفوائد – اللغوية منه. يقول فى باب الصفات المحمودة فى الرِّجال:

«الجواد: الرجل السخىُّ، والخِرْق: الكريم، والخِضَمّ: الكثير العطية، والخِضْرِم: الكثير الإنفاق، والأرْيَحىّ: الذى يرتاح للعطاء، والحسيب: الكريم الآباء، والماجد: الشريف، والصِّنديد: الرئيس العظيم وكذلك الهمام، والسميدع: السيد وكذلك الجَحْجَاح والأريب: العاقل، والحُلاحل: الوقور، والمنجَّذ الذى قد جرَّب الأمور، والمِدْرَه: الذى يكون رأس القوم ولسانهم، واللَّوْذَعِىّ: الذكىّ القلب، والمصقع: البليغ اللسان، والسَّرِىّ: المرتفع القدر وجمعه سَراة بفتح السين».

وتشهد هذه الألفاظ بأنه كان صاحب حسٍّ أدبى وذوق مرهف وذاكرة لاقطة، مما جعله يعرف كيف يختار فى كل باب من أبواب الكتاب من معاجم اللغة ومما حفظه من الشعر والنثر ألفاظا مصفَّاة نقية من شوائب الغرابة والإغراب كما قال فى مقدمة الكتاب ومع تفسيرها بحيث تكون معانيها واضحة تمام الوضوح للشباب والأدباء حين يستخدمونها ويتلفظون بها، وهو ما دفع الناس – كما يقول القفطى – فى مصر والمغرب إلى الاشتغال بالكتاب والعناية بحفظ ما فيه من الكلم المتخيَّر المستعذب.

وأما كتاب الأزمنة والأنواء فقد حققه ونشره الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٤ للميلاد، ويقول ابن الأجدابى الطرابلسى فى مقدمته : «هذا كتاب مختصر أودعناه أبوابا حسنة فى علم الأزمنة وأساساتها، والفصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهيآتها، بأوضح ما أمكننا من التبيين، وبأسهل ما حضرنا من التقريب». والكتاب – كما يدل عنوانه – فى علم الفلك وما يتصل به من الكواكب وأوضاع الشمس والقمر على مدار العام والأمطار والرياح وتغير الفصول. والعرب منذ الجاهلية يعنون بهذا العلم لشدة حاجتهم لمعرفة مواقع النجوم فى ظلمات لياليهم الصحراوية الطويلة، حتى لكأنها المصابيح التى تهديهم فى سراهم ليلا فلا يضلون السبل، وقد أكثروا من التأليف فى هذا العلم منذ القرن الثانى الهجرى، ونقلوا عن الأمم القديمة: اليونانية والفارسية والهندية ما كتبوه فيه ومزجوه بمعارف العرب فى صور مختلفة. وكتاب ابن الأجدابى يكتظ بمعلومات طريفة، وقد استهله بحساب الأزمنة والسنين والشهور الشمسية عند الروم وغيرهم والقمرية عند العرب ثم يذكر الكواكب المشهورة ومواقعها فى القبَّة الزرقاء والكواكب السيَّارة فى السماء، ويتحدث عن بيان أزمنة السنة وبروج الشمس ومنازلها والرياح

وأسمائها، ويختم الكتاب بتفصيل الحديث فى الشهور الشمسية وأسمائها عند الأعاجم. ويذكر مع كل موضوع الأشعار والأمثال المسجوعة المرتبطة به، مع ما يعم فى الكتاب من جمال الصياغة وحسن العبارة، وبذلك استحال علم الفلك عند ابن الأجدابى الطرابلسى إلى علم أدبى، مما يدل بوضوح على قدرته وبراعته الأدبية.

وفى كتب الطبقات بعد ابن الأجدابى الطرابلسى أسماء لبعض اللغويين والنحاة الليبيين على مدار الحقب إلى العصر الحديث، غير أن أحدًا من الليبيين لم يبلغ مبلغه فى التعمق اللغوى مع حسن العرض وجمال البيان، وممن تذكره كتب التراجم بعده معاصره خلوف بن عبد الله البرقى النحوى نزيل صقلية وأبو الحسن على البرقى المتوفى سنة ٥٢٢ للهجرة، وكان نحويا كما كان شاعرا. وتمر قرون ولا يلمع فى ليبيا اسم لغوى أو نحوى، ويلقانا فى القرن التاسع يوسف بن على الجعرانى فى القصبات عاصمة مسلاتة سنة ٨٢٠ وله شرح على متن الأجرومية، وبنى له زاوية ببلدته كان يتعبد فيها لربه ويدرس النحو وغيره لطلابه، وممن نلقاهم فى القرن العاشر الهجرى محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب الطرابلسى المتوفى سنة ٩٥٤ للهجرة، وله حاشية على كتاب قطر النَّدى لابن هشام وأخرى على كتابه التوضيح أو أوضح المسالك، وله كتاب لغوى فى المواضع التى غلط فيها الجوهرى صاحب معجم الصحاح والفيروزابادى صاحب القاموس المحيط.

٣

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

تمثِّل قرَّاءُ ليبيا للذكر الحكيم - مثل بقية قرَّاء المغرب - قراءة وَرْش المصرى التى تلقَّنها عن نافع مقرئ المدينة المشهور وأحد القرَّاء السبعة، ولا يزال القرَّاء - إلى اليوم - يدوِّنون بها فى ليبيا والبلاد المغربية دونَ النَّحْل، ومن القراء المبكرين بليبيا فى جبل نفوسة عمر بن يمكتن الذى مر بنا ذكره فى الحركة العلمية، ومن كبار القراء فى القرون التالية بعده مؤمن بن فرج الهوارى الطرابلسى المتوفى سنة ٤٤٢ للهجرة، وكان يقرئ القرآن فى مسجد عُرف باسمه بعده كما يقول التجانى فى رحلته، واشتهر عبد السلام بن عبد الغالب المسراق المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة بأنه كان يعنى بالقراءات السبع جميعا، ومثله على بن عبد الحميد الموسجى المتوفى سنة ٩٢٥ وكان يحفظ الذكر الحكيم بالقراءات السبع، وكان يحفِّظه للغلمان فى مسجد بناه فى حياته واشتهر بأنه مؤدب الصبيان. وكانت المساجد والزوايا والكتاتيب جميعا تموج بقراءة القرآن الكريم على مر الحقب.

وعلى نحو ما كانت ليبيا تعنى بقراءات الذكر الحكيم كانت تعنى بتفسيره، وكان علماؤها يتلقون ما كتبه الطبرى وغيره من علماء المشرق ويعرضونه على الطلاب والناس، ومن كبار مفسريه بطرابلس مؤمن بن فرج الهوارى المذكور آنفا بين القراء، ومنهم أيضا محمد بن محمد الحطاب المتوفى سنة ٩٥٤ وله فى التفسير حاشية على تفسير البيضاوى، ويقال إنه حاول أن يكتب تفسيرا للقرآن وأنه مضى فيه حتى سورة الأعراف، ولم يكتب له أن يتمه، ومن مؤلفاته القرآنية كتاب فى تجويد القراءات أو فى علم تجويده. وكان يعاصره مفسر طرابلسى هو محمد بن على الخروبى المتوفى سنة ٩٦٣ وله تفسير تحتفظ به رفوف دار الكتب المصرية فى ثمانى مجلدات، سماه: «رياض الأزهار وكنز الأسرار» وكان صوفيا كبيرا وربما نزع فيه منزع المتصوفة فى تفسير الذكر الحكيم.

ولم تكن تقل عناية ليبيا بالحديث النبوى عن عنايتها بالتفسير للقرآن الكريم وقراءاته، ومن محدِّثيها سعيد بن عباس من أهل مدينة سرت، توفى سنة ٢٠٠ للهجرة، وتشتهر بروايته وتدريسه بعض البيوت أو الأسر مثل أسرة أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلى فى طرابلس المتوفى سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يشبَّه بأحمد بن حنبل فى كثرة ما يروى من الأحاديث، وكان ابناه عبد الله وصالح محدثين، وظلت أسرته فى طرابلس تشتهر بروايتها للحديث النبوى وتدريسه للطلاب. وكان يعاصره فى برقة محدثان جليلان هما إبراهيم البرقى وعبد الكريم البرقى. ونلتقى فى القرن الرابع الهجرى بيحيى بن دحمان، وكان محدثا كبيرا، تسامع به أهل الحديث النبوى فى البلاد المغربية والأندلسية، ومرَّ بنا أن أندلسيين محدثين سمعا منه الحديث. ومن نابهى المحدثين فى هذا القرن ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا المار ذكره فى الفصل الماضى بين الزهاد، وهو تلميذ صالح بن أحمد العجلى، وكان يلقى دروسه فى الحديث النبوى بمسجد المجاز فى طرابلس، وإليه كانت الرحلة من بلدان إفريقية التونسية والبلدان المغربية، وممن رحل إليه للسماع عنه أبو الحسن القابسى محدث تونس المشهور، وله فى الحديث والفقه والرقائق الوعظية تآليف كثيرة. ومن كبار المحدثين بعده أحمد بن نصر الداودى المتوفى سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م كان من أئمة المالكية، أنجبته طرابلس، وألف فيها كتابه: «النامى» فى شرح الموطأ لمالك، وانتقل منها إلى تلمسان، وفيها ألف كتبا متعددة، منها: «النصيحة فى شرح كتاب البخارى» ويقال إنه أول من شرحه فى العالم الإسلامى، وألف كتاب الواعى فى الفقه وكتاب الأموال وهو فتاوى وأحكام فى غنائم وأراضى البلدان المفتوحة. ومن أهم المحدثين بعده إبراهيم بن عبد السلام المسراتى المتوفى سنة ٧٠٤ اشتهر بعنايته البالغة بغريب الحديث، وأهم منه معاصره الإمام الحافظ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم المشهور باسم ابن عبيد المولود بطرابلس سنة ٦٣٩ وينوِّه به وبعلمه التجانى فى رحلته التى تحدث فيها عن زيارته

لطرابلس سنة ٧٠٧ للهجرة بصحبة الأمير الحفصي زكريا بن اللحياني، وفيه يقول: «القائم برسم العلم فى هذه البلدة (طرابلس) فى وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبوفارس عبدالعزيز بن عبدالعظيم حضرت درسه بمسجد مجاور لداره، فرأيت رجلا متضلعا من العلم، ذاكرا بالمذهب (المالكى) ذكرا لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركا فى علوم جمّة وله اعتناء بحفظ كلام (الأئمة) القرويين (بالمغرب الأقصى) فى المذهب (المالكى) من تعليل أو تفسير أو توجيه أو تخريج، واعتماده فى الأصول الدينية والفقهية على كلام أبى المعالى (الجوينى إمام الحرمين) وكلام الشيخ أبى حامد الغزالى.. ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة فى العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هنالك (بطرابلس) وطلب مخدومنا (الأمير أبى زكريا اللحيانى) أن يكون ذلك بحضر منه، فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكناتنا، فعقدنا مجلسه لذلك بالقصبة (قصر البلدة) وفى مجلس الأمير منها، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد، فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الأنام». ويذكر التجانى أن ابتداء هذه المجالس كان فى شهر شعبان من سنة ٧٠٧ وأنه بدأ بقراءة صحيح مسلم، والشيخ يعلق ويفسر ويجيب على الأسئلة، حتى إذا أتمَّ التجانى قراءة صحيح مسلم على الشيخ أخذ يقرأ عليه صحيح البخارى، والشيخ يفسر ويعلق تعليقات علمية ويرد على الأسئلة ردودًا دقيقة غاية الدقة، وأجاز ابن عبيد التجانى بما رواه عن شيوخه من هذين الصحيحين فى صفر سنة ٧٠٨ للهجرة.

وبدون ريب يمثل ابن عبيد الذروة التى انتهى إليها علماء الحديث وحفاظه فى طرابلس وأنهم لم يكونوا يقلون علما وحفظا ودراية للحديث النبوى وتعمقا فى دراسته عن أندادهم فى البلدان العربية: فى تونس وغير تونس بل إن هذا أحد الأفذاذ المتأدبين بتونس يقطع مع أميره رحلتهما ويظلان بطرابلس أشهرًا ليحظيا بأخذ صحيحى مسلم والبخارى عن هذا الحافظ الكبير الثبت الحجة، وقد سأله التجانى عن شيوخه فأعطاه ثبتا بأهمهم، ونفر منهم كانوا طرابلسيين ونفر آخر كانوا من الوافدين على طرابلس إما لتولى منصب القضاء وإما مارّين بها فى الطريق لأداء فريضة الحج أو عائدين إلى ديارهم المغربية، ويذكر له الكتب التى أخذها عنهم، وفى مقدمتها كتاب الإرشاد لأبى المعالى إمام الحرمين الجوينى وكتاب البرهان له أيضا وكتاب المستصفى للغزالى. وفى ذلك مايؤكد ما قلناه فى غير هذا الموضع من أن الوافدين على طرابلس والمجتازين بها كان لهم تأثير واسع فى حركتها العلمية. وتظل رواية الحديث النبوى ودراسته متصلتين فى طرابلس وكل أنحاء ليبيا طوال القرون التالية.

ويُعَدّ الفقه أهم علم إسلامى استوعب نشاط العلماء الليبيين، وطبيعى أن لاينشأ فى ليبيا فقهاء يحسنون العلم بالمذاهب الفقهية المشهورة: مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب

الشافعي ومذهب ابن حنبل إلا بعد نشوء هذه المذاهب، وقد نشأت الثلاثة الأولى فى القرن الثانى الهجرى، ونشأ الرابع فى القرن الثالث الهجرى على نحو ما هو معروف، وظل بعيدًا عن أهل ليبيا لايعرفه - ولايعتنقه - أحد منهم، وكان مذهب أبى حنيفة فى العراق بعيدا عنهم، غير أن إمامه لعهد الرشيد: أبا يوسف حمله على أن يخص القضاء فى الدولة الإسلامية جميعها بأهله، فكان يشترط فى القاضى بأى بلد إسلامى أن يكون فقيها حنفيا، وكان إبراهيم بن الأغلب والى الرشيد ومؤسس الدولة الأغلبية فى إفريقية التونسية وطرابلس يصدع هو والحكام من أسرته لمشيئة الرشيد وأبى يوسف فى أن يكون القضاة بدولتهم أحنافًا ما أمكن ذلك، مما يجعلنا نظن أنه تولى القضاء فى زمنهم بطرابلس بعض القضاة الأحناف، مما جعل المذهب الحنفى يعرف فيها بعض المعرفة، وبانتهاء زمن الدولة الأغلبية تنتهى صلة طرابلس بالمذهب، حتى إذا والت ليبيا الدولة العثمانية عادت هذه الصلة. إذ كان العثمانيون يفرضون على البلدان الموالية لهم أن يكون قضاتها أحنافًا. وكان المذهب الشافعى قد انتشر بمصر وكثر فقهاؤه، ولا نسمع أن ليبيًّا اعتنقه، إذ كان قد جذبهم إليه مذهب مالك أستاذ الشافعى وإمام المدينة والحجاز. ولم يكد يبقى فى علماء ليبيا بقية لمذهب سواه، وخاصة أن نفرا منهم كانوا قد حضروا دروس مالك وحملوا عنه كتاب مذهبه: الموطأ وأخذوا يشيعون المذهب فى ليبيا على نحو مانعرف عن معاوية بن محمد الحضرمى الطرابلسى تلميذ مالك، وكان قد حمل المذهب عنه جلة من الفقهاء المصريين، فكان الليبيون يأخذون عنهم مثل إبراهيم بن أبى الفياض فقيه برقة المتوفى سنة ٢٤٥ تلميذ عبد الله بن وهب بالفسطاط حامل مذهب مالك عنه إلى مصر، أو بعبارة أدق أحد حملته عنه المصريين المهمين، وكان سحنون إمام المذهب فى المغرب وحامله عن عبد الرحمن بن القاسم فى مصر قد نزل قبل قدومه إلى القيروان فى أجدابية بليبيا سنة ١٩١ وأذاعه فيها وانتقل إلى طرابلس وظل بها ثلاث سنوات يدرس لأهلها المذهب ويشيعه، ويلقانا فقهاء ومالكية كثيرون فى بلدان ليبيا المختلفة مثل ابن أبى زرعة البرقى المتوفى سنة ٢٤٩ وله مؤلفات مختلفة فى المذهب ورجال الموطأ وزيادات على مختصر الفقيه المالكى المصرى ابن عبد الحكم ذكر فيها اختلافات فقهاء الأمصار، ونلتقى فى مدينة سرت بعبد الجبار بن خالد السرتى المتوفى سنة ٢٨١ للهجرة، وهو من تلامذة سحنون، وممن نلتقى به فى طرابلس موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان المتوفى سنة ٣٠٦ وهو تلميذ محمد بن سحنون خليفة أبيه فى حلقته بالقيروان، وتولى القضاء ببلدته فترة، ويقول ابن فرحون فى الديباج إنه كان يحسن الكلام فى الفقه على مذهب الإمام مالك، ويذكر له كتابا ضخما فى أحكام القرآن فى اثنى عشر جزءًا، ونلتقى فى برقة بالفقيه المالكى عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ ومرّ بنا ذكره مع عبد الجبار البرقى بين الزهاد، ويلقانا فى سرت الفقيه المالكى محمد بن حسن الزويلى السرتى المتوفى سنة ٣٨٣.

ونلتقى بإمام كبير من أئمة الفقه المالكى بطرابلس، هو على بن محمد بن المنمر المتوفى سنة

٤٣٢، وهو أول من انتصر لمذهب أهل السنة فى بلده ضد المذهب الفاطمى الشيعى، وأمر بمنع شارتهم فى الأذان: «حيَّ على خير العمل» ودعا الناس إلى صلاة الضحى جهارا ولم يكونوا يصلونها فى زمن الفاطميين إلا مستخفين، وأعاد صلاة القيام فى رمضان وكان الفاطميون قد محوا رسمها محوًا تامًّا فى أيامهم، وعنى فى كتاباته ومحاضراته بمناصرة أهل السنة، ومن مؤلفاته التى عُنى بها الطرابلسيون طويلًا كتابه: «الكافى فى الفرائض». ومن أئمة الفقه المالكى بطرابلس عمران بن موسى بن معمر المتوفى سنة ٦٦٠ وهو أستاذ ابن عبيد الحافظ الكبير الذى نوه به التجانى طويلا كما مرَّ بنا، وكان يدرس لطلابه من أمهات المذهب المالكى كتاب التفريع لابن الجلاب وتهذيب المدوَّنة للبرادعى. كما كان يدرس لهم كتاب المستصفى للغزالى والمحصول لابن العربى الأندلسى، وظل قاضيًا على طرابلس أكثر من ثلاثين عاما واشتهر بدقته فى أحكامه وأقضيته، فاستدعاه المستنصر الحفصى لتولى القضاء فى تونس سنة ٦٥٨ للهجرة، وتولاه لمدة عامين بها حتى توفى. وعرف شيوخ طرابلس حينئذ نظام المعيدين المعروف بمصر وغيرها فى زمانهم، وكان المعيد عنده عبد الوهاب بن محمد الهنزولى، وخلفه فى حلقته ودروسه حين بارح طرابلس إلى تونس بدعوة المستنصر الحفصى. ومن نابهى فقهاء المالكية عبد الحميد بن أبى البركات بن أبى الدنيا المتوفى سنة ٦٨٤ وهو مثل ابن معمر من أساتذة الحافظ المحدث ابن عبيد، وكان يدرس لطلابه بطرابلس كتابى الإرشاد والبرهان لأبى المعالى الجوينى وكتاب المستصفى للغزالى، وسأعود للترجمة له بين الشعراء، إذ كان شاعرًا كبيرًا. ومن فقهاء المالكية النابهين أحمد بن عبد الرحمن الزليطنى الفقيه الأصولى المتوفى بأخرة من القرن التاسع، وهو أستاذ زروق أو بعبارة أدق أحد أساتذته، وله مؤلفات كثيرة، منها شرحان على مختصر خليل فى الفقه المالكى أحدهما ضخم فى ستة مجلدات، ومنها شرحان على أصول السبكى، ومنها شرح مختصر فتاوى البرزالى، وتولى القضاء بطرابلس فترة ثم أسندت إليه بتونس مشيخة المدارس. ومرَّ بنا زروق فى حديثنا عن الصوفية، وكان فقيها مالكيا كبيرًا، ومن كتبه الفقهية شرحان لرسالة ابن أبى زيد فى الفقه، وشرح مواضع من مختصر خليل، وشرح الإرشاد فى الفقه. ويظل الفقه المالكى مزدهرا فى طرابلس – مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية، ومن فقهائها النابهين فى العصر العثمانى محمد بن شعبان الطرابلسى المتوفى سنة ١٠٢٠ وقد أسند إليه القضاء فى طرابلس والفتوى والتدريس، واشتهر بمناظرته لعلماء إستانبول. ومر العياشى بطرابلس سنة ١٠٥٩هـ/١٦٥٠م وذكر من فقهائها فى رحلته أثناء وصفه للمدينة محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعى ومحمد بن مساهل مفتيها وقد ظلت ولايته للفتوى بها نحو أربعين سنة حُمدت فيها سيرته، ونوَّه بالفقيه محمد المكى وقال إن بيته بيت علم وذكر له خزانة كتب ليس لأحد من أهل بلدته خزانة تماثلها، وذكر من مؤلفاته: «شكر المنة فى نصر السنة» وهو فى الرد على عقيدة الإباضية.

والحق أن فقهاء المذهب المالكى فى ليبيا يفوتون الحصر، مثلها فى ذلك مثل الأقاليم المغربية المختلفة، وكانت الجماهير فيها جميعا تعتنق مذاهب أهل السنة وخاصة مذهب مالك فهو المذهب الذى ذاع وشاع فى جميع البقاع المغربية، إلا ما كان من جبل نفوسة فى ليبيا وجزيرة جربة فى تونس وبلاد ميزاب فى جنوبى الجزائر، فإنها جميعا اعتنقت العقيدة الإباضية إلى اليوم، ونلتقى بفقهاء لها عديدين فى جبل نفوسة، ومن أوائلهم إسماعيل بن ضرار الغدامسى أحد الذين رحلوا إلى البصرة للتلمذة على أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة داعية العقيدة الإباضية وظل ملازما له خمس سنوات وعاد إلى موطنه فولاّه أبو الخطاب عبد الأعلى المعافرى فى ثورته بجبل نفوسة وطرابلس سنة ١٤٠ القضاء فى دولته ووكل إليه بجانبه شئون التعليم، وأخذ الفقهاء الإباضيون بعده يتكاثرون فى جبل نفوسة ومن أهمهم فى القرن الثالث الهجرى عمروس بن فتح النفوسى المتوفى سنة ٢٨٣ للهجرة وله كتب فى العقيدة الإباضية: فى الأصول والفروع، من أهمها كتاب منسوب إليه يسمى «العمروسى» ولما نزل داعية الإباضية بشر بن غانم الخراسانى جبل نفوسة استودعه مدونة فى الفقه الإباضى رواها عن تلامذة داعية الإباضية الكبير بالبصرة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، فتفرَّغ هو وأخت له ليل نهار لنسخها، وكانت تقع فى اثنى عشر جزءا، حتى أتمّا نسخها، وتصادف أن الأيام حفظتها بينما احترقت النسخة الأصلية. وعليها اعتماد الإباضية فى الفقه، وهى تقوم عندهم مقام مدوَّنة سحنون فى مذهب الإمام مالك. ومن فقهاء الإباضية فى القرن الرابع الهجرى سليمان بن ماطوس الشروسى، وتعد فتاويه مرجعًا مهما عند الإباضية، وموسى بن يونس الجلالمى، وقد برع فى الأصول والمنطق والرياضيات وأسس مدرسة كبيرة كان بها أقسام داخلية للطلاب والغرباء، ونلتقى فى القرن الخامس بالفقيه أحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة، وكانت لها هيئة عليا وفروع فى كل بلد وقرية تضم خير أهلها علما وصلاحا، ومهمتها خدمة المصلحة العامة، ولهذا الفقيه الإباضى مؤلفات كثيرة، منها أصول الأرضينَ فى ستة أجزاء والجامع فى الفروع فى جزءين والقسمة وتبيين أفعال العباد فى ثلاثة أجزاء، ونلتقى فى القرن السادس بيوسف بن إبراهيم السدراتى المتوفى سنة ٥٧٠ وله كتاب العدل فى أصول الفقه وكتاب الترتيب فى علم الحديث، ومن كبار فقهاء الإباضية فى القرن على بن يخلف التّيمجارى النفوسى، ناشر الإسلام فى مملكة مالى فقد رحل إليها سنة ٥٧٥ وأقنع ملكها ووزراءه وأهلها بالدين الحنيف فاعتنقوه، وظل فى ديارهم يعلمهم فرائض الإسلام ويحفظهم القرآن الكريم ويفقههم فى الدين، وهى يد عظيمة لإباضية نفوسة بجانب الأيادى الأخرى العظيمة لصوفية المغرب ودراويشها فى نشر الإسلام بإفريقية السوداء، غربًا ووسطًا وشرقًا. ومن كبار فقهاء الإباضية فى القرن الثامن الهجرى أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالى نسبة إلى جيطال مدينة كبيرة فى جبل نفوسة، توفى سنة ٧٥٠ للهجرة، وهو كثير التأليف، له كتاب فى الفرائض وكتاب فى الحج والمناسك

وكتاب قواعد الإسلام وكتاب قناطر الخيرات فى ثلاثة أجزاء. ونلتقى بأبى ساكن عامر الشماخى المتوفى سنة ٧٩٢ عزم على أن يؤلف مدونة كبرى فى الفقه وأخرج منها أربعة أجزاء أولها فى الصلاة، والثانى فى الزكاة والصوم والحج والنذور والأيمان والحقوق، والثالث فى البيوع والقسمة والرهن، والرابع فى الوصايا والهبات. ونلتقى فى القرن العاشر ببدر الدين أحمد الشماخى المتوفى سنة ٩٢٨ ومن أهم كتبه مقدمة فى أصول الفقه. وللإباضية مجموعتان فقهيتان: مجموعة تسمى الديوان ألفها سبعة من فقهائهم فى نفوسة، ومجموعة ثانية تسميها ديوان العزابة ألفها عشرة من فقهاء نفوسة الكبار.

وقد مر المذهب الفقهى الإسماعيلى الفاطمى على ليبيا مرورا سريعًا فقد كان الناس متصرفين عنه إلا نفرا قليلا بل أقل من القليل رأوا التعلق بدنيا الفاطميين، وربما ألجأتهم إلى ذلك الضرورة، ولا نسمع فى طرابلس عن فقيه إسماعيلى إلا مايروى عن خليل بن إسحق ولم يكن فقيها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولا كانت له مؤلفات فقهية، إنما حضر حلقات بعض الفقهاء حتى إذا دوّى طبل المهدى وابنه القائم أسرع فى الانضواء تحت لوائهما، ومثله محمد بن سيار الفقيه البرقى المتوفى سنة ٣١٠ ومثلهما محمد بن الحسن الطرابلسى الذى استدعاه يعقوب بن كلس وزير المعز الفاطمى إلى القاهرة وفوض إليه قضاء دمياط وبلبيس والفرما، وعلى شاكلتهم أبو جعفر أحمد بن خالد البرقى المتوفى سنة ٣٧٦ ومالك بن سعيد الفارقى ولى القضاء بمصر فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وأمر بضرب عنقه سنة ٤٠٥ للهجرة.

وإذا كانت ليبيا نشطت فى علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات فإن نشاطها كان محدودا فى علم الكلام، إذ لايعدو ما يقال عن اشتغالهم به وأن يذكر أن شخصا كان نحويا أو لغويا أو فقيها كبيرًا كان يعتنق الاعتزال مثل محمد بن سالم الطرابلسى، ولانعرف إلى أى حد كان يتمثل مبادئه، ويذكر أن معاصره أبا خزر النفوسى الإباضى ناظر أحد المعتزلة فى القرن الرابع وانتصر عليه، ويقال إن الفقيه المالكى الكبير أحمد بن نصر الداودى ألف رسالة فى الرد على القدرية (المعتزلة) بعنوان الإيضاح ولو أنها وصلتنا لاستطعنا أن نأخذ صورة عن مباحث علم الكلام فى ليبيا وبالأخص فى طرابلس بلدته. ويقال إن الفقيه المالكى الكبير الدوكالى كان يدرس لطلابه من أمثال عبد السلام الأسمر فى القرن العاشر الهجرى مقدمة الأشعرى فى التوحيد، ويبدو أن ليبيا أصبح مثلها مثل البلاد المشرقية والمغربية منذ القرن الخامس الهجرى وما بعده تؤثر المذهب الأشعرى الكلامى على الاعتزال وغيره من المذاهب الكلامية.

٤

التاريخ

طبيعي أن يشغف بعض العلماء في ليبيا بالكتابة في التاريخ الإسلامي، كما شغف به كثيرون في البلدان العربية، ومن أوائل مؤرخيهم عبد الرحيم بن عبد الله بن أبي زُرْعة البرقي المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة روى السيرة النبوية ومغازيها عن ابن هشام مؤرخها بالفسطاط، ويبدو أن أخاه أحمد رواها معه عن ابن هشام، ويقال إن لأحمد كتابا في التاريخ دون إشارة إلى موضوعه، ويذكر ابن ناجي في معالم الإيمان مؤرخين في أجدابية، هما أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٣٨٤ وأبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٤٣٢ ونلتقي في طرابلس بمؤرخين لها، هما الحسن بن فراج المتوفى سنة ٥٢١ وعلي بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي المتوفى سنة ٥٣٣. ومن المؤرخين المهمين في القرن العاشر الهجري كريم الدين البرموني المصراتي المتوفى سنة ٩٩٩ للهجرة، وأبوه مصري نزل مصراته مع الشيخ زروق في عودته من مصر، وقد بدأ كريم الدين تعلمه في زاوية الشيخ زروق ثم تركها إلى زاوية الشيخ المحجوب، وشغف بالتاريخ وله فيه كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار، وفيه عرَّف بطائفة كبيرة من الأتقياء الصالحين وبأنساب الأشراف في طرابلس وأنساب بعض القبائل العربية وله بجانب هذا الكتاب كتاب عن عبد السلام الأسمر الصوفي معاصره المار ذكره بين المتصوفة.

ويشتهر بين علماء نفوسة الإباضيين مؤرخان، أولهما أحمد بن سعيد الدرجيني الفقيه الإباضي في القرن السابع وله كتاب طبقات المشايخ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، وفيه عرض تراجم مفصلة لأئمة المذهب الإباضي رتَّبها في طبقات كل طبقة تضم خمسين عاما حتى نهاية القرن السادس الهجري، والثاني أبو العباس بدر الدين أحمد بن عثمان بن عامر الشماخي المذكور بين الفقهاء الإباضيين وله في تاريخ الأئمة الإباضية كتاب «السير»، وفيه يعرِّف بالمذهب الإباضي منذ نشأته ويترجم لرجاله حتى أوائل القرن العاشر الهجري.

الفصل الرابع
الشعر والنثر
١

تعرب[1] ليبيا

أخذت ليبيا والبلدان المغربية تدخل فى الإسلام منذ فتحها العرب، ومنذ اعتنقته ليبيا لم تقم فيها أى حركة ثورية ضد العرب، كما حدث أيام كسيلة والكاهنة فى إفريقية التونسية والجزائر، وحتى هما لم يعودا إلى شق عصا الطاعة منذ عهد حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥هـ). ومع ذلك فإن الإسلام عمَّها بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول الهجرى حتى يكون قد تغلغل إلى جميع البقاع فى المغرب، بين الحضر شمالا والبدو جنوبا وفى السهول وعلى سفوح الجبال وفى الهضاب وفى الصحارى، وهو ما ملأ نفوس المؤرخين الغربيين حيرة، فإن الفينيقيين أقاموا بين البربر قرونا، ولم يستطيعوا نشر دينهم ولغتهم فيهم بهذه الصورة الجماعية، وبالمثل الرومان، وظلت المسيحية التى حاولوا نشرها بين البربر غريبة ولا تُعْرَفُ إلا فى بعض البلدان الشمالية وبتأثير جاليات رومانية فيها. وأخذت تنسحب وتتقوض أمام المد الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى. ولا ريب فى أن مرجع ذلك إلى أن دين الإسلام دين الفطرة الإنسانية، ويخلو من نظرية التثليث المعقدة عند المسيحيين، وأيضا فإنه يحرر البربر وغيرهم من فكرة الاستعباد للرومان وغير الرومان ممن يستولون على الديار ويتملكون كل ما فيها من الخيرات وطيبات الرزق، ثم هو لا يظلم أهل البلاد المفتوحة أى ظلم مالى أو غير مالى، وهو يسوى بين أتباعه من العرب وبين مسلمى البلدان المفتوحة فى جميع الحقوق: فى الغنائم وفى الضرائب وفى مختلف الشئون.

ظلت ليبيا طوال القرن الأول الهجرى مركزًا مهما للجيوش العربية، وكان كل جندى فيها

---

(١) انظر فى تعرب ليبيا الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وكتاب وصف إفريقيا للوزان ورحلة العبدرى وكتاب ورقات عن الحضارة العربية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ ليبيا للدكتور إحسان عباس وكتاب النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر.

يحاول تحفيظ بعض البربر الليبيين القرآن وتعليمهم مبادئ الدين الحنيف والعربية، والفرائض المكتوبة عليهم وينبغى أن يؤدوها على خير وجه، ولم تلبث الكتاتيب أن أسست فى المدن وغير المدن، مما أسرع بأهل ليبيا إلى دخول الدين الحنيف أفواجًا بعد أفواج، ومما أسرع بهم إلى التعرب الاختلاط بالعرب والمصاهرة بينهم وبين أسرهم. وأيضًا مما أسرع بهم إلى التعرب هجرات مبكرة للقبائل والعشائر العربية نزلت ديارهم، إذ يذكر اليعقوبى المتوفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى أنه سكن جبل برقة الشرقى عشائر يمنية من الأزد ولخم وجذام والصَّدِف وغيرهم وسكن جبل برقة الغربى عشائر من غسان والأزد وتُجيب، ونزلت الرمادة عشائر من بنى مدلج وبَلِىّ وجهينة، ونزلت ودّان فى الهضبة جنوبى طرابلس عشائر سهمية وحضرمية، وكل ذلك عمل على المزج بين العرب والليبيين، ولا نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس الهجرى حتى يحدث طوفان الهجرة الأعرابية الكبرى لبنى سليم وبنى هلال من صعيد مصر إلى ليبيا والديار المغربية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، ونزلت أمواج بنى سليم – وخاصة بنى قرة منهم – فى برقة، وتغلغلت أسراب منها فى ليبيا إلى إقليم طرابلس فى الغرب، ومعها عشائر من بنى هلال. وأعد هذا الطوفان الأعرابى الكبير ليبيا ليتكامل تعربها، إذ انصهر البربر بها فى الأعراب، وأصبحوا معا شعبا عربيا كبيرًا فى تقاليده وعاداته وتناول حياته اليومية وفى أزيائه وملابسه وطعامه وفى أحزانه وأتراحه وفى أفراحه وأعراسه، وتعرَّبوا أيضا فى الأخلاق والشيم الكريمة من المروءة والنجدة والفروسية، ولم تتعرب برقة وحدها هذا التعرب الواسع فى جميع مناحى الحياة، بل تعربت أيضا طرابلس وسكان إقليميها من أفراد قبيلة هوارة البربرية، ويشهد بذلك ابن خلدون قائلا عنهم فى الجزء السادس من تاريخه: «إنهم صاروا فى عداد الناجعة من عرب بنى سُلَيم فى اللغة والزِّىّ وسُكْنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرّق بينهم» ويشهد ابن خلدون نفس الشهادة لبنى يفرن فى جبل نفوسة قائلا: «إنهم تبدَّوا مع بنى سليم، ونسوا رطانة الأعاجم وتكلّموا بلغات العرب، وتحلّوا بشعارهم فى جميع أحوالهم». واتسع هذا الشعور بالعروبة بين البربر، فإذا هم ينتسبون أنفسهم إلى القبائل العربية شمالاً وجنوبًا، وكانت هوارة تنسب نفسها إلى اليمن كما يقول اليعقوبى. وبذلك لا نبالغ إذا قلنا إن بربر ليبيا تحوَّلوا شعبا عربيًّا تامًّا منذ نزل بديارهم بنو سليم وبعض عشائر من بنى هلال، فقد أصبحوا عربا دينًا إذ اعتنقوا الدين الحنيف، وعربًا أسلوب حياة وعادات وتقاليد، وعربا زيا وملبسا ومطعمًا، وعَرَبًا لغة، كما لاحظ ابن خلدون.

ويبدو أن انتصار العربية على اللغة الوطنية المغربية فى ليبيا وغيرها من بلدان المغرب كان حاسمًا منذ اعتناق البربر للدين الحنيف، وكانوا يسمون لغتهم – كما يقول الحسن الوزان – آوال أمازيغ أى اللغة النبيلة، وسماها العرب اللغة البربرية، وكانت لهجات شتى. وفى العصر

الحديث اكتُشفت نقوش فى إقليمى تونس والجزائر وفى الصحراء الكبرى تدل على أن البربر عرفوا الكتابة، غير أنه لم يؤثر عنهم أى كتاب دينى ولا أدبى ولا عمل زراعى مثلا، ومعنى ذلك أن البربرية لم يكن لها تراث تستطيع أن تلقى به العربية، بحيث يمكن أن يحدث صراع بينها وبين العربية، ومن أجل ذلك لم تقاوم العربية أى مقاومة، بل سرعان ما قهرتها واحتلت ألسنة أهلها وأصبحت لغة الحياة فى ليبيا وغيرها من البلدان المغربية. ولكن هل حدث فيها ما حدث مثلا فى مصر من حدوث تحريفات فى الكلم العربية أهّل لظهور اللغات العامية. وكلام ابن خلدون عن هوارة سكان إقليم طرابلس وبنى يفرن سكان جبل نفوسة يدل على أنه لم تشع فى ألسنتهم عامية مستحدثة، إذ قال إنهم استبدلوا من رطانة البربر فصاحة العرب، مما يؤكد أن الفصحى شاعت فى ليبيا وظلت فى ألسنة أهلها طويلا.

وإذا كان ابن خلدون شهد لأهل طرابلس من هوارة ولبنى يفرن فى نفوسة بأنهم لم يكونوا يقلّون فصاحة عن بنى سليم فإن العبدرىّ الرحّالة المغربى يشهد لبرقة – حين مرَّ بأحيائها فى رحلته سنة ٦٨٨ – بفصاحة أهلها فصاحة تامة، إذ يقول:

«كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم الآن على عربيتهم، لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلّون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون. وقد سألت بدويا لقيته يسقى إبله فى «الحصوى» على ماء يقال له أبو شمال: هل نورد على أبو شمال، وذكرته بالواو فى موضع الخفض على عادة أهل المغرب، فقال لى: نعم تطئون أبا شمال، وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول. وليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك. ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجاج معكم شىء تبيعونه، وأثبت النون وسكّن الهاء للوقف. ورأيت أعرابيا منهم قد ألحّت عليه امرأة تسأله (شيئا) من طعام يأكله. فقال لها: واللّه ما تذوقينه، فأتى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النون وسكّن الهاء. وسمعت شخصا يُنْشِد فى الركب مكترى راحلة، ويقول: مَنْ يُكرى زاملة، فسمعه بدوى، فقال له: أعندك الزاملة؟ فقال: نعم: فلا تقل من يكرى وقل: مَنْ يستكرى. وذكر لى بعض أصحابنا ممن حجَّ معنا أن شخصا شرب من بئر، فقال: فى هذا الماء رائحةُ الحبَل، وحرّك الباء بالفتح على لغة أهل المغرب يعنى الرِّشاء المستقى به، فسمعه أعرابى، فقال له: ومن أين جاءت رائحة الحبل إلى الماء، فأشار المغربى إلى الرِّشاء، فقال له الأعرابى، قل الحَبْل ولا تقل الحبَل. وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل المغرب بتفسيره فهم – حتى الآن – يتحاورون به على سجيّتهم، فمن ذلك أن شخصًا منهم وقف علىَّ بموضع نزولى من محلّة الرَّكْب، وكانت الترعة (قناة الماء) منه بعيدة، فقال لى: يا سيدى تدعنى أظهر يعنى أخرج، وسألت

شخصًا منهم عن الطريق، فقال لي: إذا ظهرتم من الغابة فخذوا صَوْبَ (ناحية) كذا وكذا يعني إذا خرجتم منها، وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب في تفسير قول عروة بن الزبير رضي الله عنه: لقد حدثتني عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر.. وأتوا عليه بشواهد وأمثال. وسمعتُ صبيا منهم ينادي في الركب: يا حجاجُ مَنْ يَشْتري الصفيفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس، فقلت له: اللحم معك، فقال: نعم وأبرز لحم ظبي مقدَّد (مجفف) وهذا اللفظ (أي الصفيف) ذكره الإمام مالك في الموطأ وقال بإثر الحديث: الصفيف القديد. وسألتُ شخصا عن ماء هل هو مَعِين (سائل) فقال لي: هو ماءٌ عِدٌّ (جار) وهذا اللفظ فسَّره أبو عبيد في غريبه، وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى».

وإنما نقلت هذا النص بطوله من رحلة العبدري - مقارنا بصورته في كتاب ورقات للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - لأهميته، ولأنه يثبت أن أهل برقة كانوا لا يزالون يتكلمون بالفصحى حتى أواخر القرن السابع وكانت فصحاهم تتفوق على فصحى أهل الحجاز، معللا العبدري ذلك بأنهم لا يختلطون بغيرهم اختلاط أهل الحجاز بالحجاج من كل فجٍّ وطريق، ويقول إنهم لا يزالون يتمسكون بالإعراب مع سقوطه حينئذ من الألسنة في بلدان العالم الإسلامي في المغرب - كما يقول العبدري - وفي غير المغرب إلا في زبيد باليمن كما أوضحنا ذلك في حديثنا بالجزء الخامس من هذه السلسلة. ويضرب مثالا لبدوي أثبت فيه نون الرفع في المضارع ونصب المفعول وهو «أبا» في قوله للعبدري: «تطئون أبا الشمال» ويعلق العبدري على ذلك قائلا: «ليس في المغرب عربي ولا حضري يفعل ذلك» ومثل المغرب مصر في لغتها العامية. وذكر مثالاً ثانيًا أثبت الأعرابي فيه ياء المخاطبة مع نون الرفع في قوله «تذوقينه» والاثنتان يحذفان في العامية المصرية والمغربية ويورد مثالاً على دقة الحس اللغوي وأن بدويا سمع شخصًا يقول من يُكْرى زاملة أي بعيرًا راحلا، ويُكْرى معناها يؤجر، فسمعه بدوي، فقال له أعندك الزاملة؟ فقال له نعم، فنبَّهه إلى أنه يستخدم فعل يكرى وهو يريد يستأجر، فقال له لا تقل: من يكرى وقل من يستكرى أي يستأجر. وذكر العبدري أنه سمع بدويا يقول أظهر بمعنى أخرج، ويعلق على ذلك بأن لفظه ظهر بهذا المعنى ورد في حديث نبوى وعُدَّ غريبا، ولذلك أكثر أصحاب الغريب في الحديث النبوى من الإتيان له بالشواهد والأمثال، ثم يذكر أن صبيا نادى في الركب من يشترى الصَّفيف؟ ولم يفهم من معه معنى الصفيف وهو اللحم المقدد، وفهمه هو لأنه قرأه في كتاب الموطأ للإمام مالك وتفسيره له بأنه القديد، ومن ذلك أنه يسأل شخصا عن ماء هل هو معين أي سائل فقال له عِدٌّ أي جار، وقد عرف معناها لأنه قرأها عند أبي عبيد القاسم بن سلام في كتابه «غريب الحديث». ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الجزء الأول من كتابه الورقات بعد أن نقل هذا الفصل الطريف من رحلة العبدري: «إن

بما نقلناه من رحلة العبدرى وما سنذكر من أقوال أهل برقة فيها بعد يتضح لك أن لهجة هؤلاء الأعراب لم تتغير وأنها إلى الآن قريبة جدًّا من أمها الفصحى» - ويستدل على ذلك ببعض الأشعار الشعبية لأهل برقة بعد الاحتلال الإيطالى لوطنهم، ملاحظا أن اللهجة الليبية الحديثة عربية خالصة وإن اعتراها ما اعترى سائر اللهجات العربية من إهمال الإعراب. وأضاف الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى هذه الملاحظات فى الجزء الأول من كتابه الورقات ملاحظة مهمة فى الجزء الثالث منه، إذ قال إن استخدام نون النسوة مع الأفعال فى مثل: «يأكلن - يشربن - يغزلن» منتشر فى كلام الأعراب بنواحى طرابلس وبرقة، وهى مبثوثة فى أقوالهم الشعرية. ويبدو أن أهل ليبيا ظلوا يحافظون بقوة على الفصحى - بعد الهجرة الأعرابية إلى ديارهم- قرونا متطاولة ربما امتدت حقبا بعد شهادة العبدرى فى أواخر القرن السابع الهجرى.

٢

نشاط[١] الشِّعر والشعراء

لعل أول ما أنشد من الشعر فى ليبيا كان على لسان الشعراء الوافدين عليها مع الجند الفاتح لها وللبلاد المغربية، ونرمز لهم بالشاعر الهذلى المشهور أبى ذؤيب. فقد خرج مع عبدالله بن الزبير فى جند عبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى فتح إفريقيا سنة ست وعشرين وأعجب بشجاعة ابن الزبير حين فتك فى موقعة ضارية بوالى البيزنطيين: جريجوريوس وتسميه العرب جرجير. ومن قوله فى الإشادة ببطولته:

وصاحب صدقٍ كسِيد الضَّرا ءِ ينهض فى الغزو نهضا نَجيحا

والسِّيد: الذئب. والضَّراء: شجر يتوارى فيه وهو أفتك الذئاب فى الجزيرة العربية. وكثير من أمثال أبى ذؤيب الشاعر النابه استقروا فى برقة وطرابلس ينشدون أشعارهم وينشرون الإسلام ويأخذ البربر عنهم القرآن الكريم والعربية. غير أنه لم يكن يهمهم - فيما يبدو - أن تُحمل عنهم أشعارهم أو أن تذكر أخبارهم، فهم من عامة العرب المسلمين، وهم آخر من يفكر فى هذا الشرف. وممن نزل ليبيا من الشعراء النابهين دِعْبل الشاعر العباسى. نزلها فى العقد الثالث

(١) انظر الأغانى فى أبى ذؤيب ودعبل والحلة السيراء فى عبد الله بن محمد الأغلبى وابن سوادة وخليل بن إسحق وإنباه الرواة فى المكفوف وخلوف والودانى والخريدة (قسم شعراء مصر) فى ابن البرقى.

من القرن الثالث، نزلها على إثر خلاف بينه وبين والى مصر، وكان قد ولاه أسوان فتركها واتجه إلى ليبيا والبلاد المغربية، ويبدو أنه حاول الرحلة عن طريق واحة سيوه، واتجه منها إلى واحات ليبيا، وربما كان يقصد القيروان لمدح أمراء الأغالبة، غير أن الموت أدركه فى زويلة عاصمة فزّان، فلم تحظ به ليبيا ولا حظى به الأغالبة.

وكانت طرابلس قد أصبحت تابعة للأغالبة فى إفريقية التونسية، بينما تبعت برقة مصر، ويتولى طرابلس بعض شعراء الأغالبة مثل عبد الله بن محمد الأغلبى واليها لابن عمه أبى الغرانيق سنة ٢٥٩ وكان – مع اهتمامه بالشعر – يعنى بالفقه والحديث النبوى، وعزله عنها أبو الغرانيق وولاه صقلّية ثم أعاده إليها، ولم يلبث أن ولاه القيروان. ولم يذكر مترجموه له سوى قطعة أرسل بها إلى صديقه موسى بن مرزوق لما بلغه نبأ عزله عن طرابلس وله يقول:

قد أتى فى الكتاب ما قد علمنا ... من تناءٍ ورحلةٍ وفراقِ

فعليك السلام إن فراقى ... قد دنا والفراق مرُّ المذاقِ

وكان على شاكلته فى نظم الشعر ابن عمٍّ له هو محمد بن زيادة الله والى طرابلس لإبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦٢ – ٢٨٩ هـ) وكان عالما وشاعرًا خطيبا، وله كتاب راحة القلب والزهر. وأشعر منه ومن سالفه أحمد بن سفيان بن سوادة الأغلبى الذى ولى طرابلس وأعمالها سنوات كثيرة. وأنشد له ابن الأبار قصيدتين حماسيتين يقول فى إحداهما:

قـرِّبـوا الأبلق إنّى ... أعرف الخيل العِتاقا

وعليها أصرع الأبـ ... ـطال طعْنًا واعتناقا

وأروِّى من نجيع الـ ... ـهام أسيافا رِقاقا

وليس بين أيدينا ما يؤكد أن هؤلاء الولاة الأغلبيين الشعراء أحدثوا فى طرابلس حركة أدبية أغدقوا فيها الأموال على الشعراء كما كان يصنع قبلهم يزيد بن حاتم المهلبى حين ولِىَ القيروان سنة ١٥٤ فإنه أحدث فيها حركة أدبية واسعة نثر فيها على الأدباء أموالاً طائلة، ومع ذلك نظن ظنا أن تولى هؤلاء الولاة الأغالبة الشعراء لطرابلس كان له بها أثر غير قليل، إذ نجد الشعر يسيل على ألسنة بعض الليبيين من اللغويين والفقهاء وغيرهم، من ذلك أن إسحق بن خُنَيْس هجا العالم اللغوى عبد الله بن محمود المكفوف بقصيدة طويلة قال فيها:

ألا لُعِنَتْ سِرْتٌ وما جاء من سِرْتِ ... فقد حلَّ من أكنافها جبلُ المَقْتِ

فقال فيه المكفوف:

إن الخُنَيْسىَّ يهجونى لأرفعهُ ... إخْسأْ خُنَيْسُ فإنىَّ غيرُ هاجيكا

لم تبق مَشْلَبَةٌ تُحصى إذا جُمعتْ من المثالب إلا كلُّها فيكا

ويقول مترجم المكفوف السُّرْقى إن له أشعارًا فصيحة وأراجيز غريبة، وقد سقطت جميعا من يد الزمن ولم يصلنا منها شيء. وكان يعاصره خليل بن إسحق شاعر المهدى الفاطمى وابنه القائم وسنفرد له ترجمة عما قليل. ونلتقى بخلوف بن عبد الله البرقى النحوى المقرئ نزيل صقلية، وكان يعيش فى أواسط المائة الخامسة وله ترجمة فى إنباه الرواة للقفطى، ومن قوله:

كتبتُ إليك مشتاقاً كثيرَ الوجد توّاقا
سَئولا داعيا للّـ ـه آصالا وإشراقا
بأن تبقى على الأيّا م للأقران سبّاقا

والقطعة رقيقة وهى تدل على حس دقيق وذوق مرهف وقدرة على صياغة الكلام صياغة رشيقة، وله:

يا أيها المغرور دهْـ ـرَك كم تقيم على الغَرارَهْ
إذ جَمْعُ شَمْلِك للشتا تِ وربحُ مالك للخسارة

والبيتان فى الدعوة للزهد والانصراف عن حطام الدنيا والاغترار بما فى يده منها، فليس فى شمله إلا الشتات والفراق وليس فى يده إلا الضياع والخسارة. وكان يعاصره أبو الحسن على بن أبى إسحق الودّانى صديق ابن رشيق وصاحب الديوان بصقلية ومن شعره:

مَنْ يشترى منى النهار بليلةٍ لا فرق بين نجومها وصحابى
دارتْ على فلك الزمان ونحن قد دُرْنا على فَلَكٍ من الآداب
ودنا الصباحُ – ولا أتىَ – وكأنه شَيْبٌ أطل على سواد شباب

والألفاظ منتقاة والصور بديعة فلا فرق بين النجوم المتألقة ووجوه صحابه المشرقة وقد دارت الليلة على فلك الزمان ودار مع صحابه على فلك الآداب، وهى مشاكلة بديعة. وقرب الصباح ويقول: لا أَتَى فى خفّة وعذوبة، ويتصوره بأضوائه التى تتفلّت فى آخر تلك الليلة كأنه شَيْب مشتعل يطل على سواد شباب. ونلتقى بشاعر برقى أقام بالقاهرة طويلا مما جعل العماد يترجم له بين شعراء مصر فى الخريدة هو أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن البرقى المتوفى سنة ٥٢٢ ومن شعره الطريف الذى أنشده العماد:

رمانى الدَّهر منه بكل سَهْمٍ وفَـرَّق بين أحبـابى وبينى
ففى قلبى حـرارةُ كلِّ قلبٍ وفى عَيْنى مدامع كلِّ عين

والبيتان فى غاية الرقة مما يدل على شاعرية خصبة مرهفة، وهى شاعرية أتاحت له أصدقاء مصريين تبادلوا معه مثل هذين البيتين الرقيقين. وكان يعاصره شاعر نفوسى إباضى هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، وله مرثية بديعة يرثى بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل، وفيها يتحدث عن تقواه وبرِّه وذكائه:

مَنْ للصلاة بجوف ليل مظلمٍ ... والليل أسود حالك غِرْبيبُ
أو للصيام إذا تطاول يومه ... وامتدَّ طرفاهُ وهاج لهيب
أو لليتامى والأرامل بعده ... وتواترتْ فى العالمين حروبُ
أو للأمور إذا تفاقم حولها ... أهل النُّهَى والرَّأْىُ-بعد-غريب

وكأنما يفتقد بموت شيخه من يصلى آناء الليالى المظلمة الحالكة ومن يصوم فى الأيام الطويلة الملتهبة أو من يأخذ بيد اليتامى والأرامل فى الحروب الضارية ومن يحل الأمور المشكلة حين يعزُّ الرأى الصائب المحكم. وحرى أن نتوقف قليلا لنترجم لشاعر أنجبته طرابلس فى حقبها الأولى.

خليل بن إسحق

هو أبو العباس خليل بن إسحق بن وَرْد، ترجم له ابن الأبار فى كتابه الحلة السِّيَراء ترجمة ضافية افتتحها بقوله: «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها (أيام الأغالبة) وكان فى أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت فى المساجد» وما إن انتهى حكم الدولة الأغلبية سنة ٢٩٧ وتحوَّلت مقاليد الحكم إلى عبيد الله المهدى الفاطمى، حتى رحل إليه وانضوى تحت لوائه، وانتقض أهل بلدته:طرابلس سنة ٢٩٩ على واليهم الفاطمى فأرسل إليهم المهدى ابنه أبا القاسم لمحاربتهم وردِّهم إلى الطاعة، وفى ركابه خليل، فحاصرهم أبو القاسم حتى اضطروا إلى الاستسلام، وكشَّر لهم خليل عن أنيابه الغليظة التى كان يخفيها، وتولى تعذيبهم، لاتأخذه فيهم – وهم أهله – شفقة ولا رحمة، وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار. وما توالى سنة ٣٠٢ حتى يرسل المهدى ابنه أبا القاسم الملقب بالقائم فى جيش لمحاربة أهل مصر، فلحق به خليل بن إسحق فى الإسكندرية فولاه القيام على أموال الجيش، وعاد القائم بجيشه، وعاد معه خليل، فقُدِّم على خيل إفريقية، وجُعل أمر جندها إليه مع النظر فى البحر وشئون الأسطول الفاطمى. وفى سنة ٣٢٥ ولاَّه القائم الفاطمى صقلِّية، فاستحال حاكما لها باغيا طاغيا أشد ما يكون البغى والطغيان، وأهلك أهلها جوعًا وقتلا وجار فيها أشد ما يكون الجور والظلم، مما جعل كثيرين من أهلها يفرّون إلى بلاد الروم. وعزله الخليفة القائم عنها، وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية

مفتخرًا: «المكثر يقول إنى قتلت من أهل صقلية وأهلكت ألف ألف، والمقلل يقول ستمائة ألف». وكان حريا بالقائم أن ينزل به عقابًا صارما، ولكن بدلا من ذلك أخرجه إلى مدينة القيروان سنة ٣٣٣ فى ألف فارس لقتال أبى يزيد الصُّفرى فى القيروان، فحاصره أبو يزيد فيها واعتقله وسفك دمه وصلبه. وأنشد له ابن الأبار قصيدة ومقطوعتين فى مديح المهدى الفاطمى وابنه القائم، وكأنما كان يقف شعره على مديحهما زلفى وتقربًا إليهما، والقصيدة فى مديح عبيدالله المهدى نظمها على شاكلة قصيدة مشهورة لمروان ابن أبى حفصة صاغها فى مديح المهدى الخليفة العباسى، بدأها مثله بالتشبيب وبكاء الأطلال والديار قائلا:

قِفْ بالمنازل واسْأَلَنْ أطلالها	ماذا يضيرك إن أردتَ سؤالَها
هل أنت أولُ من بكى فى دِمْنَةٍ	دَرَسَتْ وغيَّرت الحوادثُ حالها[١]
يا دارَ زينبَ هل تردِّين البُكا	عن مُقْلةٍ سفحتْ عليك سِجالَها[٢]
بُدِّلْتِ بالإنْسِ الخرائدِ كالدُّمَى	وَحْشَ الفَلاةِ ظِباءَها ورئالَها[٣]
ولقد عهدتُ لآل زينبَ حَبْرةً	فيها ودُنْيا أقبلتْ إقْبالها[٤]
بيضاءَ ناعمةً يجول وِشاحُها	وتهزُّ دِقَّةُ خَصْرِها أكفالها[٥]
ولها قوامٌ كالقضيب وفوقه	جَعْدٌ تصافح كفُّه خَلْخالها[٦]
وكأنَّ فى فيها بُعَيْدَ رُقادها	عَسلاً أصاب من السماء زُلالها[٧]
ولقد عصيتُ عواذلى فى حُبِّها	والنَّفْس تعصى فى الْهَوَى عُذَّالَهَا

والأبيات تسيل عذوبة، إذ عرف خليل بن إسحق كيف يصطفى لها الألفاظ وكيف يلائم بين جرسها، مع حلاوة الصوت، ومع تشابك الكلمات فى كل بيت، وكأن كل كلمة لُبِّت قرينتها، واستجابت لصاحبتها وجارتها، وحقا الصور فى الأبيات أَلَمَّ بها الشعراء أو طالما أَلَمَّ بها الشعراء قبله، غير أنه أعاد عرضها عرضا يستهويك بصياغته وما يبث فيه من الجناسات والطباقات. ويخرج إلى المديح منشدًا:

صَلَّى الإلهُ على النبىِّ محمَّدٍ	وعلى الإمام وزاده أمثالها

---

(١) الدمنة: آثار بالدار.

(٢) السجال جمع سجل: الدلو المملوءة.

(٣) الخرائد جمع خريدة: اللؤلؤة والمرأة الجميلة. الدمى: جمع دمية: التمثال الجميل. الرئال جمع رأل: فرخ النعام.

(٤) حبرة: مسرَّة.

(٥) أكفالها جمع كفل: عَجُز الإنسان.

(٦) جعد يريد الشعر وضفائره.

(٧) الزلال: الماء العذب الصافى.

إن الإمــامَ أقــام سُنَّــة جَـدِّهِ للمسلمين كما حذوتَ نِعـالها
أحيـا شـرائعها وقـوَّم كُتْبَهـا وفـروضهـا وحـرامهـا وحـلالهـا
وهـدى به اللّهُ البَـرِيَّةَ بعـدمـا طلب الغُواةُ الظالمـون ضلالهـا
إن الخـلافةَ يـابْنَ بنتِ محمَّدٍ حَطَّتْ إليك - عن النبيِّ - رِحالها

وهو يزعم أن الله - جَلَّ جلاله - يصلى على إمامه كما يصلى على نبيه، بل يزعم أنه يزيد صلاة إلى صلاة، ويقول إنه أقام سُنَّة جَدِّه حذوك النعل بالنعل أو كما نقول مطابقا لها أشد المطابقة، ويزعم له أنه أحيا الشريعة وقوَّم كتبها وأزال عنها عوجها وانحرافها، كما قوَّم فروضها وحلالها وحرامها، وكل تلك مبالغات شائنة، وكأنه يدبِّر الدين الحنيف ويصرِّفه، وقد هدى الله به الناس كما هداهم برسوله. ولم يسق ابن الأبار مديح القصيدة تامًّا، ولعله صنع ذلك لما فى بقية القصيدة من مبالغات شديدة الإفراط فى تصوير قدسية المهدى، وحسنا صنع. وله فى القائم وقد فصده الطبيب أو بعبارة أخرى أخرج مقدارا من دم وريده للعلاج:

قُلْ للطبيب الذى أوصى ليَفْصِدَهُ رِفْقًـا ولا زلتَ بالإسعـاد تَرْتفقُ
كيف استطعتَ ترى بـالله طلعته ومن سَنا نوره مـا يشرق الأفق
أم كيف تُخْرِج من كفٍّ تقبِّلها دمًـا ومنها بحـارُ الجود تَنْدفقُ
إنى لأعجبُ من كفٍّ مَسَسْتَ بها خيرَ الوَرَى كيف لم يَنْبُتْ بها الوَرِقُ[1]

وهو يدعو فى البيت الأول للطبيب متلطفا أن يظل الإسعاد يرافقه ويجانس بين أول الشطر الثانى ونهايته جناسا سائغا، وما يلبث فى البيت الثانى أن يبالغ فى مديح القائم مبالغة مفرطة، إذ يجعل ضوء النور فى وجهه نور الأنوار الذى يعم الآفاق، وكأن نور وجهه من نور الله ومشكاته فى الكون. وحين أمر القائم أن يخرج فى ألف فارس ليحارب أبا يزيد مخلد بن كيداد الصفرى كتب إليه مودِّعًا:

ومـا ودَّعْتُ خير النـاس طُرًّا ولا فـارقتُهُ عن طِيب نَفْسِ
وكيف تطيب نَفْسِى عن حياتى أفـارقهـا وعن قمرى وشَمْسِى
ولكنى طلبتُ رضـاه جَهْـدِى وعفوَ الله يومَ حلول رَمْسِى[2]
فعـاش مُمَلَّكًا مـا لاح شمسٌ على الثَّقَلَيْن من جِنٍّ وإنْسِ

وهو يجعله فى أول الأبيات خير الناس طرا، وكان قد جعله خير الورى فى آخر الأبيات

---

(١) الورق: الفضة (٢) رمسى: قبرى.

السالفة، وهما صفتان للرسول ﷺ يتغنى بهما الشعراء فى مديحه، ويتصوره حياته، وكأنه هو الذى يدبرها، إنه نور حياته، ويقول إنه يطلب رضاه على نحو ما يطلب المسلمون رضا ربهم. وكأنى به يظن أنه هو الذى سيمنحه عفو الله يوم حلوله فى قبره. وهى مبالغات ستتضخم فيما بعد عند ابن هانئ الشاعر الأندلسى فى مديحه للمعز الفاطمى وترهاته ومبالغاته الملحدة فيه.

٣

الشعراء فى عصر[١] الدولة الحفصية

عُنيت هذه الدولة بالحركة الأدبية، وحظيت - لعهدها - بغير قليل من النشاط والانتعاش، وكان للشعر والشعراء من ذلك نصيب موفور، إذ فتحت الدولة الحفصية الأبواب للشعراء فى إفريقية التونسية وطرابلس كى يفدوا عليها مادحين، وينالوا جوائزها السنية، وكان مؤسسها أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد شاعرًا فسنَّ للحكام الحفصيين من بعده نثر الجوائز والعطايا على الشعراء، مما جعلهم يتكاثرون. وسنترجم لثلاثة منهم: إباضى وطرابلسيين. وقد ثار عليه ثائر طرابلسى هو يعقوب بن أبى يعقوب سنة ٦٣٩ وقُتل هو وأتباعه، وصُلبتْ جثتهم بباب هوّارة، ونُصبت رءوسهم فى تونس، فهنأ أبا زكريا الحفصى بالقضاء على تلك الثورة شاعر طرابلسى يسمى أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الأصولى بقصيدة طويلة صَوَّر فيها المصير المشئوم لهذا الثائر وصلبه: ملقبا له بالفاطمى:

لقد عَجَّلَتْ للفاطمىِّ قطامةَ ... وما سوَّغَتْه دَرَّها البِيضُ والسُّمْرُ
رجا رفعةً فاعتاض فيها بمنصبٍ ... نماه به للجِذْع مَنْصِبُك الحُرُّ
يرى شُرفات السور قد قمن حوله ... يَصِحْنَ لأمرٍ منه أكذبه الأمرُ
ضُحًى فَلِحَرُّ الشمس لَفْحُ إهابِه ... وللريح لا للروح فى جسمه كَرُّ[٢]
وكم رام تشييد القصور فحلَّها ... وأعظم ما يرجوه - لو أُسْعِفَ - القَبْرُ
فدونك يا يعقوب عُقْبَى منافقٍ ... إلى النار عُقْباها، إذا ضَمَّك الحَشْرُ

---

(١) انظر فى الشعراء التالين رحلة التجانى، ما عدا فتح بن نوح، وانظر فيه الجزء الثالث من كتاب الإباضية فى موكب التاريخ لمعمر، وديوانه الملحق بكتاب الدعائم، والنشاط الثقافى فى ليبيا.

(٢) لفح إهابه: حرق جلده.

والأبيات تحمل شماتة مرة بهذا الثائر، فقد عجَّل أبو زكريا بفطامه، فلم يطب له شيء من أمنيته، إذ سرعان ما قضت عليه وعلى أتباعه الرماح والسيوف، وكأنما أراد رفعة فنالها ولكن على جذع نخلة، ولكأنما الشرفات من حوله تصيح به: ياالهول ماحاولت، وتلك جثته مصلوبة وحرّ الشمس يحرق إهابه وجلده، والريح أو الرياح تَسْفِي عليه من كل جانب، وكم أمَّل أن تنجح ثورته ويسكن القصور المشيدة، وها هو أعظم مايرجوه قبر يضم جسده وأشلاءه، وتلك عاقبة ثورته فى دنياه أما فى أخراه فعاقبتها نار حامية. ونتوقف قليلا لنترجم للشعراء الثلاثة الذين أشرنا إليهم آنفا، وهم فتح بن نوح وابن أبى الدنيا وابن معمر.

(أ) فتح بن نوح الإباضى

هو أبو نصر فتح بن نوح النفوسى، من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى ولد ونشأ بجبل نفوسة، ورعاه خير رعاية علمية وأدبية خاله أبو يحيى زكريا بن إبراهيم البارونى، وكان مع شعره وأدبه عالما بالمذهب الإباضى متعمقا فيه، وكان يدرس للشباب صباحًا، وفى المساء بعد صلاة العشاء يلقى فى الناس بالمسجد فى نفوسة دروسا عامة، وأكثر أشعاره فى الموعظة بحكم أنه كان واعظًا حقيقيًّا، إذ كان مايزال يعظ الناس كل مساء، ومن قصيدة يصور فيها نفسه:

أنـا المتيَّم لا بـالـيـوسفيَّـاتِ ... مـا نَهْنَهَتْنى إليهـا قط هِمَّـاتى[1]
بل تَيَّمَتْنى فنون العلم أطلبهـا ... ما النفسُ باقيةٌ فى هيكل الذاتِ
لستُ الغداةَ بصبٍّ خاضعٍ طمعًا ... فى وصل غانيةٍ أرجو مودَّاتِ
بل فى منادمَةِ الأخيار راغبةٌ ... نفسى إلى أجلٍ يفضى بموتاتِ

فهو لا يشغل بحب يوسفيات فاتنات، ولم يحدث أن هماته وطموحاته كفَّته أو زجرته عنها، لأنه لا يفكر فيها أى تفكير إذ شغله عنها العلم ومعرفته أن كل ماعليها فان وأنه لا يبقى للإنسان إلا عمله، وإنه لذلك لا يهوى غانية ولا يتذلل لها راجيا منها المودة والعطف، فلذته فى دنياه إنما منادمة التقاة الأخيار، حتى يوافيه أجله. وتكثر فى مواعظه المخمسات على نحو ما تكثر عند الأندلسيين، وله مخمس أدواره موزعة على جميع حروف الهجاء، وفى أول كل دور حرَّف القافية على هذا النمط:

حاءٌ حذارِ – واسْمَعَنْ ياصاحِ – ... من سِحْرِ ثَغْرِ الأبرقِ الوضَّاحِ[2]

---

(١) اليوسفيات: صواحب يوسف الفاتنات. ... الجميل البسام.
(٢) الأبرق هنا: الثغر. الوضاح: صفة للثغر أى

يُلهيك تخلابا عن الأرباح عما قليل أُضْتَ صِفرَ الراح[١]
من صالح الأعمال جمّ الحاب[٢]

خمادٌ خبتْ نارُ امرئ شمّاخِ يفْخَرُ بالأنجارِ والأسْناخ[٣]
ما الفخرُ إلا للفتى النوّاخِ حيث التقى مخيّمُ الأشياخ[٤]
أولي النُّهى والعَزْم والألباب

وهو يحذر صاحبه من سحر ثغر المرأة الجميلة، إذ يخلب له ويلهيه عن أرباح الأعمال الصالحة، فيعود صفر الكف من الصالحات مملوءة بالآثام والذنوب. ويقول: خمدت نار شخص شامخ بأنفه كبرًا واستعلاء، يفخر بالأصول والأنساب، وليس ذلك بفخر، إنما الفخر للفتى المقيم حيث منزل الأشياخ من التقى والصلاح أولى العزم والعقول الراجحة. وفى مخمّس ثانٍ له ينشد:

وأوّل ما أوصى به فى مخمّسِى لباس سَرابيلِ التُّقى خيرِ ملبسِ
به ساد أقوامٌ من الجنِّ والإنسِ وليسوا ذوى مال ولا بذوى فِلْسِ
ولا نِيل ما نالوا ببيضٍ ولا سُمْرِ

بذلك أوصى اللّهُ من كان واعيا من أهل القرون السالفات الخَواليا
ونادى به أهلَ العصور البواقيا وقال: اتّقونِ اليوم حقَّ تُقاتيا
يُطاع فلا يُعْصَى وشُكْرٌ بلا كُفْرِ

وهو يقول: أول مايوصى به فى مخمسه أن يلبس الإنسان سرابيل التقوى ولا يخلعها عن جسمه ونفسه أبدا فهى خير ملبس، وطالما ساد بها أقوام من الجنّ والإنس وأصبحوا من أكبر الأثرياء وليسوا بأصحاب أموال كثيرة ولا قليلة، ولا نالوا ما نالوا من غنائم حرب بالرماح والسيوف، ومع ذلك هم أغنى الأغنياء. ويقول إن تلك وصية الله أوصى بها ذوى الألباب من أهل القرون السالفة، وبالمثل من أهل العصور الباقية، إذ قال - عزَّ من قائل - اتّقونِ اليوم حق تقاتى، وطاعته واجبة وشكره فرض بلا كفر. وقرأ مخمسته مؤسس الدولة الحفصية أبويحيى زكريا، فعشّرها بمخمس ثان. وله مرثية بديعة فى خاله مربّيه وراعيه أبى يحيى زكريا بن إبراهيم، وفيها يقول:

أحْـرَى وأجـدرُ لـلأجفـان والمُقَـلِ تَفْنَى بكـاء على الإسـلام لم تَـبِـلِ[٥]

---

(١) أضت: صرت.
(٢) الحاب يريد الآثام، جمع حوبة (أى إثم).
(٣) الأنجار والأسناخ: الأصول والأعراق.
(٤) النواخ: المقيم.
(٥) تفنى: تخمر - تبل: تذرف الدمع مدرارا.

دَعْهـا تسيـل أسـال الله مقلةَ مَنْ · يسطو عليها بِسَطْوِ العَتْب والْعَذَلِ[١]
أبعد ماغـاب بَدْرُ الـدين فى جَدَثٍ · يَهْنَـا الحياةَ بنـو الآداب بـالأمـلِ[٢]
كيف البقـاءُ لطَرْفٍ زال نـاظـرُهُ · حين اعترته بنـاتُ الدهر بـالسَّمَلِ[٣]
زُرْ ساحةَ السَّفح واشْفَعْ عندها حزنًا · دمعًا يزيـد على التسكاب والهَطَلِ
أعنى الـولىّ أبـا يحيى الـذى حَيِيَتْ · صُـوَى العلوم بمحيـاهُ ولم يَؤُلِ[٤]

وهو يبكى خاله، ويقول إنه أحرى وأجدر للأجفان والمقل أن تبكى دما على الإسلام وفقيده، ويعجب أن لاتذرف الدمع مدرارا، ويدعو على من يعاتب الناس على بكائهم عليه ويعذلهم لا ثما، حتى ليتمنى لهم حزنا موجعا كحزنه. ويقول إن بنى الآداب بعد أن غُيِّب عنهم لن يهنئوا بأمل ولا بأمنية، وإنه لم يعد يرى من حوله، إذ أصابته بنات الدهر ونكباته فى ناظره وكأنما فقأت عينه بحديدة محماة. ويطلب إلى رفاقه أن يزوروا معه القبر ويسكبوا دموعهم هناك، فقد توفى أبو يحيى زكريا الذى طالما اتَّقدت منارات العلوم وصواها فى حياته، وقد مات ولم يعد. ويمضى الشاعر فى مرثية خاله منشدا:

يـا غُرْبـةَ الـدين بعد الشيخ مفتقـدا · يـا وحشـةَ السِّيَـر الغَـرًا عن الأُوَلِ
لا عَنْ تـراضٍ جرى حكم المنون بـه · قِـدْمًـا جَـرَى فى نبىّ الله والـرُّسـلِ
قَسْرًا على الأسْد فى الأغْيَـال واغلةً · وفى الذُّرَى لـوعـولٍ صعبة السُّبـلِ[٥]
كـمثـلـه فَلْتَـلِدْ أنثـى مفـاخـرةً · أو لا فـلا وَلَـدَتْ عن آخـر الطُّوَلِ[٦]
يـا أيهـا الشـامتُ المبدى شمـاتتـه · مهـلا بفيـك تـرابُ السهـل والجبـلِ

وهو يبالغ إذ يجعل الدين بعد وفاة خاله يعود غريبًا، ويبدو من الشطر الثانى أن خاله كان يعنى بالسير التاريخية، ويعود إلى المبالغة فى البيت إذ يقرن وفاة خاله بوفاة الرسول ﷺ ووفاة الأنبياء! ويقول إن حيًّا لا يستعصى على الموت، لا الأسد فى أغيالها ولا الوعول فى ذرى الجبال وقممها العالية، وينوِّه به ويفاخر، إذ يقول مثله فلتلد الأمهات وإلا فلا تلد إلى آخر الدهر. ويدعو على الشامتين بموته. ولعل فيما أنشدناه من شعر فتح بن نوح ما يصور ملكته الشعرية الخصبة.

---

(١) يسطو: يبطش ويقهر. العذل: اللوم
(٢) جدث: قبر
(٣) بنات الدهر: نكباته. سمل العين: فقؤها بمسمار محمى.
(٤) صوى: أعلام ومنارات. يؤل: يرجع
(٥) أغيال جمع غيل: بيت الأسد. الوعول جمع وعل: تيس الجبل
(٦) عن آخر الطول: يريد إلى آخر الدهر

(ب) ابن أبي الدنيا

هو أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي المولود بطرابلس سنة ٦٠٦ وفيها نشأ ونهل من حلقات علمائها وأدبائها، وارتحل إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمع إلى كثير من العلماء، وعاد إلى تونس فى عهد مؤسس الدولة الحفصية أبى زكريا (٦٢٥ - ٦٤٧ هـ). ونال حظوة عنده، ورجع إلى بلدته: طرابلس فترة، واستُدْعى إلى تونس، فولى بها الخطط الرفيعة إذ ولى قضاء الجماعة، كما ولى الخطابة بالجامع الأعظم وغير ذلك من المناصب حتى وفاته سنة ٦٨٤ للهجرة. وله تصانيف ومؤلفات قيمة، منها: العقيدة الدينية وشرحها وجلاء الالتباس فى الرد على نُفاة القياس وكتاب مذكِّر الفؤاد فى الحض على الجهاد. ومرَّ فى حديثنا عنه بين الفقهاء أنه كان يدرس لطلابه فى بعض دروسه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان للجوينى إمام الحرمين وكتاب المستصفى للغزالى. وبجانب هذه الثقافة الدينية المتعمقة كان شاعرا، وفيه يقول التجانى فى رحلته: «من فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة فى الأدب». وقد أنشد له بعض أشعاره، وذكر أن له قصيدة طويلة افتتحها بقوله:

بحمد الله نبتدىءُ الأمورا ونختم آخرا فيه الحُبُورا

ولم يذكر التجانى سوى المطلع، ويبدو أنها كانت موعظة طويلة، وقد سقطت من يد الزمن وربما سقطت له معها أشعار أخرى له فى المواعظ والدعوة إلى الزهد، ومما أنشده له التجانى قوله:

طرقُ السلامة والفلاح قناعةٌ ولزومُ بيتٍ بالتوحُّش مُؤْنِسِ
يكفيه أنسا أن يكونَ أنيسَهُ آيُ القُران ونورُهُ فى الحِنْدسِ[1]
وإذا رأتْ عيناه إنسانًا أتى فَلْيَنْفِرَنْ نفورَ ظَبْى المَكْنِسِ[2]
ولقلَّما ينفكُّ صاحبُ مقولٍ من زَلَّةٍ أو عَثْرَةٍ فى المجلسِ

ويبدو أن الأبيات مقتطعة من قصيدة طويلة فى النصح بالقناعة فهى الطريق الذى لا يخطىء إلى السلامة والفلاح، والعاقل من اعتزل الناس ولزم بيته منقطعًا إلى الائتناس بمجالس الذكر الحكيم ومناراته الساطعة فى الليالى الشديدة الظلام. ويدعو إلى النفور من الاجتماع بأى إنسان

(١) الحندس: الليل الشديد الظلام.
(٢) المكنس: الكناس وهو مأوى الظبى فى الشجر.

خشيةً لدغاته التى يصيب بها مَنْ حوله، وكأنما يرتسم فى مخيلته قول القائل:

عَوَى الذِّئْبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عَوَى وصـوِّت إنـســانٌ فكـدتُ أطيـرُ

ويقول أخيرًا منفرا من مجالسة الناس إن الجلوس إليهم قد يؤدِّى إلى عثرات اللسان وزلاته منك أو منهم. فأولى لك أن تبتعد عنهم وعن مجالسهم، وأن تعتزلهم متصامبيتك حتى لا تغلط وحتى لا تسمع غلطا من إنسان. وولى المستنصر الحكم بعد أبيه أبى زكريا، وأحسَّ ابن أبى الدنيا بجفوة منه، وأنه ربما أُسِرَّ فى نفسه شيئا منه، فكتب إليه يستعطفه:

أمـولاىَ مـازلتُم تنيلون عبـدكم ضروبًا من النُّعماء جَلَّتْ عن المِثْلِ
ولم يبق إلا العفوُ وهْو أجلُّ ما يُنال فأكمِلْ لى بِهِ مِنْحةَ الفَضْلِ
فما العيشُ فى الدنيا بغير رضاكمُ بصافٍ ولا طعمُ الحياة بِمُحْلَوْلى
وقد كدَّر الإعراضُ صَفْوَ معيشتى فأنكرْتُ أحوالى وأنكرنى أهلى

وابن أبى الدنيا يعترف للمستنصر الحفصى بأنه مايزال يغمره بنعم لامثيل لها ولاقرين، ويتوسل إليه أن يمنَّ عليه بنعمة كبرى، هى نعمة العفو، حتى يكمل بها ما يمنحه من أفضال كثيرة، ويقول له إن الحياة بدون رضاكم تكدَّرت مياهها، ولم يعد فى طعمها شىء من الحلاوة، ولقد بدَّل إعراضكم عنى معيشتى، حتى أصبحت أنكر أحوالى، بل إن أهلى أنكرونى لما يعترينى من قلق وضيق لم يألفوه منى. ويستمر فى استعطافه منشدًا.

ولى أمــلٌ يقضى بـغفـران زَلَّـتِى وبالعفو عن جُرْمى وبالصَّفْح عن فعلى
بقيتَ تـزيـد الملك عِـزًّا وبهجـةً وتَحْيى رسومَ الفضل والدين والعدلِ
ولا يُخْـطِئَنِّى منك عفـوٌ ورحمـةٌ فـإنهمـا مـا أخطآ أحـدا قَبْلِى
وصـلَّى إلـهُ العَـرْش بـدءًا وعـودةً على المصطفى من خلقه خاتم الرُّسْلِ

وهو يسأل المستنصر ضارعا أن يغفر له زلَّته ويعفو عن جرمه ويصفح عن فعله الذى اقترفه، ويأخذ فى الدعاء له أن يظل يزيد الملك عزا وأبَّهة وبهجة ومسرة ويحيى رسوم الفضل والإحسان والدين الحنيف والعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه، وهو بهذا الدعاء وما يسوق فيه من صفاته فى رأيه يحاول أن يستدر عطفه ويسأله العفو، بل يسأله الرحمة وأن يرقَّ له قلبه، ويقول له إنك دائما تسبغها على الناس. فلا تحرمنى منها، ويختم دعاءه بالصلاة على الرسول ﷺ، وكأنما يذكره ليكون شفيعًا عنده. وأسدل عليه المستنصر عفوه، وعاد إليه رضاه. ولعل فيما أنشدت له من أشعار ما يصور شاعرية غزيرة خصبة، وأنه كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه ومعانيه فى لغة شعرية مصفاة، وبدون ريب كان معروفا بقدرته فى حَوْكِ الكلم،

مما أتاح له أن يشغل منصب الخطابة فى الجامع الأعظم، كما أتاح له هذه الأبنية الشعرية المحكمة فكرا وصياغة.

(جـ) ابن معمر

هو أبو على الحسن بن موسى بن معمر الهوَّارى الطرابلسى، كان فقيها ممتازا وشاعرا نابها مثل ابن أبى الدنيا معاصره، وفيه يقول التجانى فى رحلته: «أحد أرباب الرتب الجامعين بين رياسة الفقه ورياسة الأدب. ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ وقرأ بها يسيرا، ثم توجه إلى (مدينة) المهدية (بتونس) للقراءة بها على الفقيه أبى زكريا البرقى» ويقول أيضًا: «كان فقيها مفوَّها خطيبا لسنا» وطمحت نفسه للنزول بتونس عاصمة الدولة الحفصية لعله يأخذ مكانه بها بين فقهائها وأدبائها ونزلها. ولفت إليه الأنظار بتعمقه فى المذهب المالكى، مما أتاح له أن يتولى مناصب متعددة فى دولة الخليفة المستنصر الحفصى (٦٤٧-٦٧٥هـ) إذ أسند إليه منصب القضاء فى كثير من بلاده فى إفريقية التونسية وفى الجزائر مثل باجة التونسية وبجاية الجزائرية. وولى خطة أو منصب العلامة الكبرى فى ديوان الإنشاء، كما ولى النظر فى خزانة الكتب. ويقول التجانى: «كان فى لسانه فضول كثر امتحانه به والتعرض له بسببه» وفعلا نُقل إلى المستنصر عنه ما جعله يسخط عليه وينفيه إلى مدينة المهدية سنة ٦٦٧ ويعفو عنه، ولكن بعد عام كامل.

وتوفى المستنصر وخلفه ابنه الواثق (٦٧٥ - ٦٧٨هـ) فأسند إليه النظر فى خزانة الكتب بتونس، ويبدو أن فضول لسانه عاد إليه فغضب عليه رئيس الدولة ابن أبى مروان، فأدخله السجن تأديبا، ثم رُدَّت إليه حريته إلى أن فارق دنياه سنة ٦٨٣ للهجرة. وأنشد له التجانى بعض أشعاره، من ذلك قوله متغزلا:

لولا احورارُ جفونٍ أُودِعَتْ سَقما	ما أمطرتْ سُحْبُ أجفانى الدموعَ دَمَا
ولا وقفتُ أُصَيْـلَانـا بِـرَبْعِكمُ	ولا سقيتُ رُباه من دمى دِيَمَا[1]
ولا نثرتُ عقيقَ الدمع فى طَلَلٍ	منه أُذِيع الـذى قد كـان مُكْتَتَما
شَمْـلُ السلوِّ شتيتٌ بعـد بُعْـدكمُ	وطـالَمَا كـان قبـل اليـوم مُلْتَئِما
البَيْنُ يقـطع منـه كـل مُتَّصِـلٍ	والشوق يَنْثُرُ منه كلَّ مـا انتظما
والـوَجْدُ شـادَ بجسمى مـا يُهَدِّمـه	آهٍ على مـابنى فيـه ومـا هـدمـا

وهو يقول لولا جمال الحور وماأودع العيون مما يشبه السقم ماهطلت سحب أجفانى بدم الدموع القانى ولاوقفت فى الأصيل بربعكم وديارکم أسقى رباها أمطارا من دمى، ولا نثرت

(١) أصيلانا: أصيلا. ديما: مطر غزير.

مُحْمَرُّ الدمع في طلل ذاع مني فيه ماكنت أكتمه وأداريه، وقد فارقني السلو وكان لايبارحني وقطّع البين والفراق منه كل ما كان متصلا ونثر منه كل ما كان منتظما والوجد آخذٌ بجسمي يبني ويهدم مسببا لي التياعا شديدًا لا أكاد أطيقه، ويستمر ابن معمر في غزله:

يا مَنْ يلومُ على ما جلَّ من أسَفي	هذا اليسيرُ من الأمر الذي كُتِما
ما خطَّطَ النومُ في جَفْنَيَّ رَسْمَ كَرَى	إلا مَحَا السُّهْدُ ما قد خُطَّ أورُسِمَا
أُنَبِّيكُمُ أنَّني من يـوم بَيْنِكُمُ	مـازلتُ للسُّهْدِ والتـذكار مُلْتَزِمـا
أرتاحُ إن هبَّ ريحٌ من جنابكمُ	أولاحَ برقٌ بذاك الأفق وابتَسَمَا
أمـا ومن قَدَّر الأشيـاء مقتدرًا	وحبِّكُمْ وكفى بـالحبِّ لي قَسَمَا
ما رام قلبي أصطبارًا بعد بُعدِكمُ	ومـا تأخَّـر بي من وَجْدِهِ قَدَمَا

وهو يقولُ لمن يلومه على ما يُظهر من عظيم الوجد واللوعة إن ذلك بعض ما أكتمه من حُرْقة الحب، ويشكو من السُّهد مفكرا فيمن يحبهن حتى يقول إن ما قد يخططه النوم في جفنيَّ من أثر للنعاس يمحو السهد خطوطه ورسومه محوا، فسهده وتذكاره لمن يحبهن يلازمانه وإنه ليشعر براحة ما مثلها راحة حين تهب ريح من جهتهن أو يلوح برق من أفقهن مبتسما وكأنما يحمل أثرا من ابتسامهن، ويقسم بربه المقتدر وبحبِّه أن قلبه لم يحاول صبرا على فراقهنَّ وبعدهن، ولا يزال يلتاع وجدا وهياما. والأبيات تسيل عذوبة مع ما تشفع به من التصاوير، مما يدل على قدرة ملكته الشعرية وأنها تواتيه بما يريد من الأخيلة ومن الألفاظ السهلة التي تبدو لسهولتها وقربها من اللغة المألوفة كأنها طوع اليد، وهي لا تطاوع إلا الشاعر الأصيل الذي يعرف كيف يؤثر فيك بتصاويره وبلغته السلسة، ومن رقيق غزلياته قوله:

آهًا تردُّدُ لـو تشفي لنا كُرَبـا	وبالتِّعِلَّات نَحْيَا لو قضتْ أَرَبـا[1]
وبـالأماني ينـال القلبُ بُغيتـه	وقـد تحقَّق من معتادهـا كـذبـا
يرتاعُ إن لاح بَرْقٌ من جهامتها	ومـا تراءى لـه إلا وقـد ذهبـا[2]
يُسَرُّ إن مُدَّ يـومًا حَبْـلُ مُنْيَتِه	ومـا تـطاول إلا جُـذَّ وانْقَضَبَـا[3]
إنْ عزَّ ما يبتغيه فهو في هَرَجٍ	ويختشي الفَقْدَ إنْ ما يَبْتَغي قَرُبا[4]

---

(١) التعلات: ما يتعلَّل به الشخص ويتلهَّى. أربا: حاجة.
(٢) الجهامة: العبوس.
(٣) جُذَّ وانقضب: انقطع.
(٤) هرج: اختلاط.

وهو يقول إنه لا يزال يردِّد لفظة آه تعبيرا عن وجده الملتاع غير أنها لا تشفيه من كرب الوجد ولوعاته، ولا يزال يعلِّل نفسه وعينيها باللقاء، غير أن التعلات لا تقضي مأربا ولا حاجة وإن القلب لا يزال ظامئا متلهفا إذ لا يسعفه إلا سراب الأماني الكاذب الخادع، وقد يلوح له أمل، وسرعان ما يتوارى كالبرق يختفي بمجرد ظهوره ولمعانه – إنه يعيش بالأماني في اللقاء، فهي حسبه، على أن حَبْلها لا يُمَدّ ولا يطول إلا جُذَّ وانقطع، ولا يزال عقله في اختلاط. كلما شعر أن أمنيته لن تتحقق، وحتى إن ظن أنها اقتربت لا يزال في خوف من ابتعادها بل من فقدها فقدًا لا أوبة معه. ويستمر ابن معمر في غزله منشدا:

وارَحْمَتـاهُ لـقَلْبِي كم أُجَشِّمُـهُ	أمرا يذيبُ من الأصْلاد ما صَلُبا
وكم يُعـاني ملمَّاتٍ بـأيسرِهـا	يهوِّنُ الأمرَ من دنياه ما صَعُبا
وكم يُلَجِّـجُ في أفكاره لُجَجـا	سُودًا تؤجِّج في أحشائه لَهَبَا
وكم تهبُّ سَمـومًـا من تنفُّسِـهِ	لو استمرَّتْ لما هبَّتْ نسيمُ صَبَا
أستغفرُ اللّهَ لا أشكو الزمان ولا	أُبْدِي – إذا طرقتْ أحداثُه – رَهَبا
ولا أُبِنُّ لحظٍّ منـه أعْـوَزَنـي	ولا أُسَرُّ إذا ماءُ المنى انسكبا
أنَّى يُسَـرّ لبيبٌ أن رأى حُلُمًـا	وكيف يطرب مَنْ خَمْرَ الفَنا شَرِبا

وهو يأسى لقلبه وما يجشِّمه من متاعب حبٍّ تذيب الصخر الصلد الصلب وما يحمله من ملمات يعاني منها أشد العناء، وإن أيسرها ليهوِّن أي أمر صعب من دنياه ما ظلت صعوبته راسخة جاثمة فيه، فما بالنا بأثقال تلك الملمات وما تحمل من صعوبات لا تطاق، وما أشقى قلبه بها جميعا وما أعظم عناءه، وكم يخوض هذا القلب من أفكاره لججا شديدة السواد تؤجج نيران وجد في أحشائه ماتني تلتهب التهابا، وإنها لتقذف بسموم من تنفسه لو استمرت – كما يزعم – لمنعت نسيم الصبا اللَّيِّنَ من الهبوب. ويعود ابن معمر إلى نفسه، ويستشعر قوة عاتية، ويستغفر الله فإنه لا يشكو الزمانَ ولا يصيبه جزع من أحداثه، ولايئن لحظ فاته منه، ولا يحزن لخطوب طرقته ولا يفرح لأمانيّ طوَّقته، ويقول كيف يسر لبيب عاقل رأى حُلُما تراءى له وكيف يطرب لمسرة من مسرات الدنيا مَنْ شرب من كأس الفناء وأسكره. وله وقد أبلَّ الخليفة المنصور – ولعله المستنصر – من مرضه.

اللّهُ أنعم بعـد اليـأس بـالفَـرَجِ	يا أزمةَ الدَّهْرِ عند الشدَّةِ انْفَرِجي
شكرُ الخلائق لا يكفي لأيسر ما	كفى وسكَّن من هَرْجٍ ومن رَهَجٍ[١]

(١) هرج ورهج: شغب واختلاط.

أَبْقَى الأنــامَ بــإبقــاء الإمام فكم   بِصَوْنِهِ صانَ من مالٍ ومن مُهَجِ
إذا رعى الله لــلإســلام راعيَـــهُ   لم نَأْسَ من فَقْدِ ذى قَدْرٍ ولا همجِ

وهو يقول إن الله أنعم على الرعية بعد يأسها بنعمة الفرج وكشف الغم الذى اعتراها بمرض الخليفة، ويتجه إلى أزمات الدهر يسألها أن تنفرج وتتكشف وتنحسر عند الشدة أو الشدائد إلى غير رجعة، ويقول إن شكر الرعية لا يفى بهذه النعمة الكبرى نعمة شفاء الخليفة من مرضه وتهدئة ما كان قد حدث فيها من الاختلاط واضطراب بسببه. ويفزع ابن معمر إلى المبالغة أو قل يتمادى فيها، إذ جعل بقاءه بقاء للرعية وصونًا لأموالها ونفوسها، ويجعله راعيا للإسلام ويرفعه فوق أفراد الرعية درجات. ولعل فيما أسلفت من أشعار ما يصور شاعرية ابن معمر وأنه يعد بحق أشعر شعراء ليبيا حتى عصره لحسن صياغته وروعة تصاويره ودقة أفكاره.

٤

الشعراء فى العهد العثمانى

مرَّ بنا أن العثمانيين استولوا على طرابلس فى أواسط القرن العاشر الهجرى، وقد ضمَّ محمد الساقزلى والى طرابلس برقة إلى ولايته بعد نحو قرن، وبذلك أصبح لليبيا حاكم عثمانى واحد يتخذ طرابلس عاصمة له، وكان حكامها يتخذون التركية لغة رسمية لدواوينهم، وأخذوا مع الزمن يقيمون مدارس فى ليبيا ولكنها كانت تصب عنايتها على تعليم التركية لتخريج موظفين للدواوين يساعدون فى تصريف شئون الولاية. غير أن الثقافة الإسلامية العربية ظلت ترعاها المساجد والزوايا. وكانت ليبيا قد أخذت تشغل منذ القرن الثامن الهجرى بالتصوف وزواياه وشيوخه، واتسع انشغالها بذلك منذ حكمها العثمانيون فى أواسط القرن العاشر الهجرى أو بعبارة أدق منذ حكموا طرابلس، إذ كثر الشعر حينئذ على لسان الصوفية، غير أن الكثرة الغامرة منه عامية، وما ليس عاميا يكثر فيه اللحن، وممن يضاف إليه أشعار كثيرة من دراويشهم عبد السلام الأسمر المتوفى سنة ٩٨١ وكانت له زاوية بمدينة زليطن على نحو ما ذكرنا فى حديثنا عن الزهد والتصوف، وتكثر العامية الليبية فى أشعاره ويكثر فيها الخروج على العروض، وربما لم يكن هو نفسه السبب فى ذلك، فقد تحول كثير منها شعرا شعبيا، فربما عبث به الرواة والمنشدون من العوام، ومن أهم أشعاره قصيدة نظمها فى التسمين من عمره، ونقتطف منها بعض أبيات تستقيم فصاحة وعروضا[1]:

(١) انظر القصيدة فى كتاب الشيخ سيدى عبدالسلام الأسمر لإسحق الملهجى ص٣٠٤.

شربتُ شراب العزِّ من خَمْرةِ الصِّبا سقانيه محبوبي بسرِّ العِنايةِ
وبانَتْ لِيَ الأنوار وانكشف الغِطا وأُلهمتُ أسرارا بسرِّ الجلالةِ
ونُمّقتُ منشورا إلى كل عاشقٍ بأنهمُ حزبي وأهلُ إرادتي

وكان الشطر الأول في هذه الأبيات مضطربا وأصلحته ليستقيم الوزن. وكان للشيخ أتباع كثيرون جاءوه من كل فج في ليبيا وتونس والبلاد المغربية، وأقاموا له - حين توفى - مأتما كبيرا أنشد فيه بعض مريديه مراثى مضطربة الوزن والصياغة، وإنما ذكرت بعض أشعاره لأدلّ على تدهور التصوف لغة ووجدا ملتاعا، فالأبيات لا تحمل أي وجد، إنما هو ظاهر مما كان يردِّده الصوفية قديما من كلمات الشراب والخمرة وانكشاف الغطاء والعشق وما إلى ذلك. وقد أحالوا الزوايا في ليبيا وبلاد المغرب من دور عبادة ونسك وتجمُّع فيها لجهاد أعداء الله أو قل أحالوا كثيرا منها إلى دور شعوذة واعتقاد في شيوخها بأنهم أولياء الله يطلعون على الغيب وتجرى على أيديهم أعظم الخوارق، واستخدموا فيها حلقات الذكر مع التثنى والنشوة بالاستماع إلى أناشيد صوفية ممسوخة ومع استخدام الدفوف والبنادر ونفس زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزليطن استحالت إلى هذه الصورة، فقد كان يستخدم في زاويته الدف والبندير والأناشيد والتثنى في الذكر، مما أثار عليه حملات شعواء من فقهاء عصره، وهو لا يبالي، بل يوهم أتباعه أنه ناظر وجادل نفرا منهم وتبعوه، يقول في نفس القصيدة:

وكم من فقيه كان ينكر حالنا فصار بفضل الله من أهل حَضْرتى
فأُعْطِى له التصريفُ حَيًّا وميِّتًا وصرتُ إمامَ الوَقْت شَيْخَ الطريقةِ

وهو يزعم - زعمًا باطلا - أن من تبعه من الفقهاء أصبحوا من الأولياء، وأصبح لهم التصرف في القضاء أحياء وأمواتا مثله، وهى شعوذة ملأ بها أمثاله نفوس العامة في ليبيا والعالم العربى: أن زيارة قبور الأولياء والمتصوفة تنفعهم وينبغى أن يقدموا لها النذور، وهى لاتنفع ولاتشفع، إنما ينفع الإنسان -ويشفع له- عمله. ولكن إذا كان التصوف ساء سلوكا في العصر العثمانى بليبيا وهبط شعرا فإن المديح النبوىّ ظل له غير قليل من الرونق عند شاعر ليبى لُقّب بالبُهْلول، وهو -لغة- الجامع لخصال الخير وسنترجم له، ونتبعه بترجمة أحمدبن عبدالدائم.

(أ) البُهْلول[1] الطرابلسى

هو أحمد بن الحسين الملقب بالبُهلول، وُلد بطرابلس حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١١٣هـ/١٧٠٢ م ولما نهل من حلقات الشيوخ فى مسقط رأسه، وعبَّ منها ما شاء، رأى أن يرحل إلى القاهرة للتزود من أعلام الأزهر الشريف وظل فترة به ملازما حلقتى إمامى المالكية فيه: الشيخ محمد الخرشى والشيخ عبدالباقى الزرقانى، ولكل منهما شرح على مختصر الشيخ خليل بن إسحق فى الفقه، والشيخ خليل - بدوره - فقيه مالكى مصرى، وقد طارت شهرة مختصره فى البلاد المغربية إلى اليوم، وتفتحت موهبة البهلول - حينئذ - فأنشأ قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه طرابلس، وفيها يقول:

طـرابلُسَ الغَـرَّا تُـرَى لىَ عَـوْدَةٌ إليكِ وهل يَدْنو الذى كان قد ذَهَبْ
سَقَى الجانبَ الشرقىَّ منكِ سحابةٌ ولازال فيكِ منْ رياح الصَّبَا مهبُّ
بـديعةُ حُسْنٍ زادهـا الله بَهْجَـةً وآمَن أهليهـا من الخوف والشَّغَبْ
وكيف بـدارٍ قد حـوتْ كلَّ رُقْعَةٍ بقومٍ لهم فى العلم باعٌ وفى الأدبْ

ورجع إلى طرابلس بعلم غزير وأدب وفير وملكة شعرية خصبة، ولم يسخِّرها فى مديح حكام بلده، وإنما سخَّرها فى مديح صفوة الخلق سيد ولد آدم محمد ﷺ، ونظم فى ذلك ديوانا، قصائده مخمَّسات موزعة على الحروف الهجائية، وأضاف إلى تلك الحروف الثمانية والعشرين: «لا» فأصبحت تسعة وعشرين حرفا، ولكل حرف قصيدته وهو قافيتها وكل قصيدة تتألف من عشرين دورا، أو قل كل مخمس، وقد عُرف شعراء المغرب والأندلس بهذه المخمسات العشرينية، وعلى شاكلتهم ألف البهلول أو نظم هذا الديوان، ويقال إنه نظم مخمساته على أساس قصيدة عياضية، وهى لا توجد بين قصائد القاضى عياض إمام مدينة سبتة المشهور وربما كانت لعياض آخر، إذ يتسمى باسمه كثيرون بين مغاربة وأندلسيين، وأول دور فى المخمس الأول يجرى على هذا النمط:

أذوبُ اشتيـاقـا والفؤاد بحسـرةٍ وفى طَىِّ أحشائى توقَّد جمرةٍ
متى ترجع الأحباب من طول سَفْرَةٍ أحبَّـة قلبى علِّلونى بـنـظرةٍ
فدائى جفاكم والوصال دوائى

(١) انظر فى البهلول ديوانه ومقدمته لمحققه: لأحمد النائب الأنصارى.
الطاهر الزاوى وكتابه أعلام ليبيا، والمنهل العذب

وقافية الشطر الخامس همزية ومثلها جميع الشطور الخامسة فى أدوار المخمّس، وإلى قافية هذا الشطر يُنْسَبُ المخمّس جميعه. والأدوار العشرة الأولى فى كل مخمس تتخذ الغزل موضوعا لها بينما الأدوار العشرة الثانية فى مديح المصطفى ﷺ كما يقول محقق الديوان الأستاذ الطاهر الزاوى. ونظن ظنا أن وراء الظاهر فى العشرة الأولى نفحات من الغزل الصوفى الحسى الذى نقرؤه فى ديوان ترجمان الأشواق لابن عربى إذ يتشابه معه فى أنه يجمع فى غزله ما يختلج فى قلوب المحبين العذريين إزاء محبوباتهم من لواعج الحب والافتتان بجمالهن وسحر عيونهن وورد خدودهن، ودائما محبوباتهم فى ارتحال وفراق وبَيْن، وهم مسهَّدون يبكون بدموع غزار، ولا يبلغ المحب مراده من الوصال، وهو - لذلك موجع الفؤاد، إذ لاشفاء له بلقاء أو ما يشبه اللقاء، بل قطيعة متصلة، والحب - بل العذاب - يتجدد ألوانا. وجميع العشرينيات عند البهلول تبتدئ بهذا الغزل الملتاع، ومما يؤكد تأثره فى غزله بالغزل الصوفى ذكره فى مخمسه الخائى معروفا الكرخى الصوفى وتلميذه السرى السقطى والجنيد تلميذ السرىّ، والثلاثة من صوفية القرن الثالث الهجرى المشهورين، وهو ما يجعلنا نزعم أن شعاعات من الغزل الصوفى الحسى سقطت فى الأدوار العشرة الأولى بمخمّساته من مثل قوله فى مخمّسه السينى:

نفوسٌ عزيزاتٌ تُرَى مَنْ أذلَّها وسَفْكُ دِماها فى الهوى مَنْ أحلَّها
وبى غادةٌ كالشمس تمنع وَصْلَها سمحت بنفسى فى هواها لعلَّها
تدوم على حفظ المودَّة والأنس

تحمَّل قلبى فى هواها تحيُّةً ولم تَرْعَ بالتفريق وُدًّا وصُحْبَةْ
أنادى عَسَاها أن تفرِّجَ كُرْبَةً سقتنى كئوسًا بالمحبَّة صِرفة
ثملتُ بها سُكْرًا وغبتُ على حِسِّى

وظاهر الدَّور الأول كأنه غزل طبيعى لمحبٍّ يتذلَّل لمن تدلَّه فى حبها وأصابته بسهامها حتى كأنما سفكت دمه غير مبالية بحبه، وتمنع وصالها، وتمعن فى هجرانها، وهو لايزال يأمل أن تراجع نفسها وتذكر له أيام المودة والأنس، وهى معان يقولها الغزلون العُذْريُّون ولكن تأمَّل فى الدور الثانى وماذكر فيه من كئوس المحبة وارتوائه منها صِرْفة صافية وكأنما ارتوى من كئوس المحبة الربانية التى طالما ردَّدها الصوفية، ويقول إن نشوة السكر غلبت عليه حتى غاب عن حِسِّه، وكأنه يعنى فكرة الفناء الصوفية فى الذات العلية إذ يبلغ الصوفى من محبته لربه غيابه عن حسِّه، فقد أصبح روحا فانية فى ربه لا يشعر بشىء فى الوجود سواه وسوى محبته التى استغرقت حواسه حتى كأنما أصبح فى غيبوبة مطلقة. وحقا لا يمعن البهلول فى غزله الحسى الذى يقدم به المديح النبوى كل هذا الإمعان الصوفى، ولذلك نقول إن فى غزله بعض شعاعات من المحبة الصوفية.

والأدوار العشرة الثانية فى مخمسات البُهلول خصَّها بمديح الرسول ﷺ، ويفيض فى ذكر معجزاته التى تتحدث عنها السيرة النبوية مثل انصداع إيوان كسرى وانطفاء نار فارس عند مولده ومثل شَقّ جبريل لصدره ووضعه النور الربّانى فيه بمنازل مرضعته حليمة السعدية، وشكوى الصحابة إليه من قلة الماء فى بئر صغيرة كان يتوضأ منها، ففار الماء وتكاثر ببركته وما قيل من أن الغزالة كلمته وكذلك الذئب والضب، ومعروف أن معجزة الرسول الكبرى إنما هى القرآن الكريم ورسالته العظيمة التى وضعت أسسا قويمة لهداية البشرية . ويذكر البهلول مرارا وتكرارا إسراء الرسول على البراق إلى بيت المقدس وصلاته فيه إمامًا للرسل، ومعراجه إلى السموات السبع وما غشيه من الأنوار القدسية عند سِدْرة المنتهى ومايفى يتحدث عن محبته للرسول مصورا فضائله وشمائله المثالية السامية، ضارعا إليه دائما أن يكون شفيعه يوم المحشر، وتتراءى فى جوانب من مديحه النبوى شعاعات من فكرة الحقيقة المحمدية التى تغنى بهاالحلاج والبوصيرى لما جاء فى الأثر من قول الرسول ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من حقيقة آدم وخلقه، وكأنه المبدأ لكل النبوات والرسالات، وفى ذلك يقول البهلول فى مخمَّسة الخائى:

سما مَجْدُه بين الأنام وفخرهُ وقد جَلَّ من بين البَرِيَّة قَدْرُهُ
له المنصبُ الأعلى لقد تَمَّ نصْرُه ختامٌ وإن كان المقدَّم ذكره
أخيرٌ وإن كان المبدَّأ فى النُّسْخ

فالرسول ﷺ -مع تأخره فى الرسالة- متقدم فى الرتبة على جميع الرسل والأنبياء، بل إنه المبدأ لهم جميعا، فمن رسالته استمدَّت جميع الرسالات، وكأنما نسختها منذ الأزل، بل إن الوجود جميعه ليستمد منه، إذ هو نور الله، وكل نور فى الوجود يستمد من نوره، يقول:

نبىٌّ تسـامى فى الأنـام بمجـدِهِ لقد ضاءت الآفاقُ من نور سَعْدِهِ

وما ذكاء أو الشمس فى أضوائها الزاهية إلا فيض من نور وجهه وطلعته السنية، يقول:

لـه الشرفُ العالى بفخرٍ وسُؤْددٍ ذكاءٌ بدتْ من نورِ وَجْه محمدٍ

فالرسول ﷺ منشأ النور فى الوجود وإن نور وجهه ليشاهد فى كل نور: فى الشمس وغير الشمس، إذ هو الحقيقة الأزلية أو النور الأزلى الذى يضيئ الكون والآفاق منذ الأزل أضواء نيِّرة غامرة.

وأدوار المخمسات فى ديوان البهلول تفيض بالسلاسة والعذوبة دون أى غرابة فى كلمة أو صيغة، مما جعل أهل ليبيا - فضلا عن أهل طرابلس - يشغفون بالديوان ومخمساته لما يشيع فيه من السهولة والوضوح والصفاء الموسيقى، واعتادوا أن يقيموا لإنشاده حفلات تبدأ من

غرة شهر ربيع الأول كل عام حتى اليوم الثانى عشر يوم مولد المصطفى ﷺ، وربما صحبت الإنشاد ألحان بعض الآلات الموسيقية. وكانت للبهلول - بجانب هذا الديوان النبوى - أشعار تعليمية فى فقه مذهب مالك وفى العقائد ولم تصلنا، وكانت له مقامات على نمط مقامات الحريرى سقطت - بدورها - من يد الزمن ويكفيه فخرا ومجدا هذا الديوان النبوى الذى صوّر فيه مشاعره الصوفية ومحبته المتقدة بين جوانحه لصاحب الرسالة المحمدية.

(ب) أحمد[1] بن عبد الدائم

هو أحمد بن عبد الدائم الأنصارى، ولد بطرابلس ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات علمائها، وتفتحت موهبته الشعرية، وكان فقيها ومؤرخًا غير أن الشعر هو الذى جذبه، وكان معاصرا لأحمد القرمانلى والى طرابلس (١١٢٣ - ١١٥٨هـ) فأخذ يدبج فيه بعض المديح وحدث فى أثناء ولايته سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م أن قام أسطول فرنسى بمظاهرة أمام طرابلس وأرسل قبطانه إلى القرمانلى بشروط ينبغى أن يرضخ لها وإلا ضرب المدينة بقذائفه، ولم يرضخ القرمانلى ولا قبل الشروط، رافضا تهديد القبطان ووعيده، وضرب الأسطول طرابلس بقذائفه أربعة أيام طوالا، وأرسل القبطان أو قائد الاسطول الفرنسى بعدها خطابا يحث فيه القرمانلى على الصلح غير أنه صمم أن لا يستسلم، وكان الاسطول قد دمر أكثر من ثلث المدينة إذ ألقى عليها نحو ألفى قنبلة، واستنفد ماليديه من القذائف، فلم يجد قائده بدا من فك الحصار عن طرابلس وعودته إلى بلاده. كل ذلك حدث والخليفة العثمانى لايحرك ساكنا ولايحاول الثأر لطرابلس من الفرنسيين. فنظم ابن عبد الدائم قصيدة يستثيره فيها ضدهم محاولا أن يملأه حمية وحماسة بمثل قوله فيها:

يـا واحدا مـافى البسيطة مثله	ملك الملوك بتـاجـه المتكلّلِ
أو مايغيظُك حـالُ قَلْعتك التى	فازتْ بِفَتْحك فى الزمان الأوّلِ
إنَّا لنرجو منك أخذ الثأر من	شَعْبِ الفرنْسيسِ اللئيم الأرذلِ

وكان العبدرى المغربى قد نزل طرابلس فى رحلته إلى الحج سنة ٦٨٨ ويبدو أنه أصابه حيف من بعض أهلها، فعمَّ المدينة وأهلها جميعا بذم شديد ضمنه رحلته المغربية، ذمَّ المغيظ المحنق، ولا نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الذم، وردَّ عليه رحَّالة مغربى مواطن له زارها بعده، هو ابن عبد السلام الناصرى، إذ دافع عنها دفاعا حارًا فى رحلته الحجازية الكبرى، واستشهد على

---

(١) انظر فى أحمد بن عبد الدائم كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس من الأخيار لابن غلبون وأعلام ليبيا للطاهر الزاوى والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصارى.

مدحها بأشعار لمغاربة فى تقريظها وتقريظ أهلها، ومن قوله: «وحسن أخلاق أهلها وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها امتلأ به الخافقان، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح، وما زالت الأشراف تَهْجى وتمدح». وابن عبد الدائم أحد من امتعضوا امتعاضا شديدا من ذم العبدرى لها ولأهلها، مما جعله ينظم قصيدة فى الرد عليه، كان لها دوىّ غير قليل، وفيها يقول:

طـرابُلُسُ لاتقبـل الـذمَّ إنها ... لهـا حسناتٌ جـاوزتْ سيئـاتهـا
إذا أمَّهـا من قد نـأتْهُ بـلادهُ ... وأوحشه ذو أمرهـا من حُماتهـا
تطامن عن نفسٍ ومالٍ وعشرةٍ ... ويُضْحِى بعزٍّ مـاثَـوَى بجهـاتهـا
لهـا همَّةٌ تعلو لتـأييد سُنّـةٍ ... بحفظ مبـانيهـا وجَمْـع رُواتهـا

وهو يقول إن طرابلس لا تُذَم ولا تَهجى، فحسناتها أكثر من سيئاتها ومحامدها أكثر من أن تحصى، ويذكر أن الغريب الطريد من بلاده وحكامها الجائرين إذا نزلها أمن على نفسه وماله وأهله، ويشعر بعز مابعده عز طوال إقامته، وينوه بهمتها فى العلوم وخاصة فى تأييد السنة بحفظ نصوصها وأسانيد رواتها. والقصيدة فى تسعة وعشرين بيتا وقد شرحها مواطنه ابن غلبون المتوفى سنة ١١٧٧هـ /١٧٦٤م فى كتاب سماه: «التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخيار». وشعر القصيدة وأختها السابقة متوسط، وكأن طرابلس وليبيا جميعا استبقتا نهضتها فى الشعر إلى عصرها الحديث عند رفيق المهدوى ونظرائه.

٥

النثر

من المؤكد أن ليبيا أنتجت نثرًا كما أنتجت شعرًا غير أن نثرها لم تحتفظ به الكتب إلا قليلًا جدا إذ كثيرا مانقرأ فى كتب التراجم لهذا الطرابلسى أو لهذا البرقى رسالة أو مقامة، ويُكتفَى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر المقامة ولاتذكر الرسالة، وبالمثل نسمع عن هذا الفقيه الكبير أو ذاك أنه تولى قضاء طرابلس والخطابة أو تولّى الخطابة بالجامع الأعظم فى تونس ولا تذكر لهذا ولا لذاك خطبة. وقد يكون من أسباب عدم الاهتمام بتسجيل فنون النثر فى طرابلس وبرقة وغيرهما من مدن ليبيا أنه لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب وتحميه وتحدث بتشجيعها له وحاجتها إليه نهضة أدبية واسعة كما حدث فى تونس وغير تونس من البلدان العربية، ولو أنه نشأت فى

طرابلس أو برقة دولة وأنشأت لها ديوان إنشاء لتألق لها كتاب نابهون يدبجون رسائل سياسية بديعة تلفت معاصريهم وتجعلهم يسجلونها لهم وليث ذلك فيها نشاطا أدبيا جما في النثر لا في فن الرسائل وحده بل أيضا في مختلف الفنون النثرية. ومع ذلك فقد بقيت من النثر الليبي قطع صغيرة وشظايا متفرقة من وصايا الفقهاء والزهاد ونصائحهم من مثل قول عبد الجبار السُّرْتي المذكور بين الفقهاء الزهاد والمتوفى سنة ٢٨١. «مَنْ قَلَّ كلامه قلّت آثامه - الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام - من زمّ (صان) لسانه كثُر في الدنيا والآخرة أمانه» . وسُئل الزاهد عبد الله بن إسماعيل البرقي المار ذكره والمتوفى سنة ٣١٧ عن كثرة بكائه خشية وتقوى، فقال: «إنما جُعِلَت عيناى للبكاء، ولساني لتعظيم الله عز وجلّ وتحميده والصلاة على نبيه، وبدنى للتراب والبلى، وقلبى للخوف والرجاء. لم أخلق للعب ولا للهو، وإنما خُلِقْتُ للعمل الصالح».

وكان الإباضية أكثر احتفاظًا بأقوال أئمتهم، ونجد في كتاب السير للشماخي خطبة لأبي الخطاب المعافرى الثائر بطرابلس سنة ١٤٠ وهى فصيحة، غير أنها شديدة البساطة ولا تعنى بجمال الصياغة، إذ ارتجلها في مخاطبة الجيش الذى وجّهه لإخراج الصفرية من القيروان. ويذكر الشماخي نصًّا من أقصر الرسائل المتبادلة بين متوعد لأهل نفوسة ومجيب له، إذ كتب الأول مهددا ومنذرا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعلمون ثم كَلَّا سَوف تعلمون﴾ وهما عبارتان قرآنيتان، فأجابه محمد بن جنون الشروسى النفوسى من القرآن أيضا: ﴿أَلَم نُهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين﴾. ونرى الشاعر فتح بن نوح الإباضى الذى ترجمنا له بين شعراء الدولة الحفصية يعارض أبا العلاء المعرى في كتابه الوعظي: «ملقى السبيل» الذى جعله على الحروف الأبجدية، وفيه يذكر سجعات نثرية قليلة ويتبعها ببيتين بنفس معناهما، وهو ماتقيد به فتح بن نوح في معارضته إلى نهاية الحروف الهجائية بادئًا ببيتين بقافية الهمزة، ودائما يذكر البيتين أولا ويتلوهما بالسجعات الوعظية، ومن سجعاته قوله:

«كلُّ من غَدَا على ظهرها[1] وراح، مشغولُ البال ما استراح، حتى الأجنَّة في الأرحام، من بنى سامٍ ويافثٍ وحام، كلٌّ أهدافُ السهام، أرونى خَلْقًا خِلْوا، وسليم الخاطر سُفْلًا وعُلْوًا، وهيهات لن ترى إلا نِضْوا[2]. فإنا لله.. لم نر إلا عبد آمال، وعابد مال، وفاسد أعمال، ومتصنعا بأسمال[3]. فسد العمران والبيد، وأشرفنا على ماذكره لبيد» والسجعات تطير عن الفم بخفة لعذوبتها، وهو يعرف كيف يصطفى ألفاظه ومعانيه بحيث تلذ السامع وتمتع عقله، مضيفا إليها

---

(١) ظهرها: يريد ظهر الدنيا وسطحها الذى تعيش عليه.

(٢) نضوا: مجهدا مهزولا.

(٣) أسمال جمع سمل: ثوب خَلَقٌ بالٍ.

بعض محسنات البديع وطباقاته من مثل: «غدا – راح. وسُفْلاً – عُلْوا» وجناساته من مثل: «عبد آمال – عابد مال. والبيد – لبيد) وتصاويره من مثل: «أهداف السهام – نضوا» ولا نشعر فى شىء منها جميعا بتكلف أو تصنع فيما تميز به من حسن البيان، ويشير إلى بيت لبيد العامرى المشهور:

ذهب الـذين يُعـاش فى أكْنـافِـهم وبـقيـتُ فى خَلْفٍ كـجلدِ الأجـربِ

ومن طريف سجعاته قوله فى بعض هذا الوعظ:

«صِينَ الدِّين والعِرْض ، ومؤدِّى الواجب والفَرْض، ومطيع ديَّان السماء والأرض، وحُوشِىَ مِن اللُّوم مَنْ ليس على الدنيا بهَجوم، ولا للورى بظلوم». وقوله:

«لو علم الغابر، مصرع العابر، وفهم مضمون المقابر، ما أغْضَى جَفْنًا على سِنة (نعاس)، ولا ادَّخر شهرا لسنة. حبَّذا من اعتنى بذا، وهجر الخنا والبذا (البذاء) وأغضى على القَذَى، وآمن الناس من الأذى».

والسجعات فى غاية السلاسة والرشاقة وحسن النسق فى الجرس، بحيث تستهويك وتخلب لبَّك، وهى ملحقة بالديوان، وإنها لحرية بأن تحقق مع مايسبقها من أشعار وعظية وتنشر نشرة مستقلَّة.



القسم الثانى

تُونُس



الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

جلب هذا القطر قديما بحسن موقعه على البحر المتوسط وكثرة خيراته الفينيقيين ومن بعدهم الرومان فالواندال فالروم البيزنطيين، وهو يقع فى المنطقة الوسطى من الشمال الإفريقى بين البحر المتوسط فى الشمال والشرق وليبيا فى الجنوب الشرقى والصحراء فى الجنوب الغربى والجزائر فى الغرب. وتبلغ مساحته نحو مائة وخمسة وعشرين ألف كيلومتر مربع. وتدخل إليه جبال أطلس من الجزائر قرب مدينة تِبِسَّة فى الجنوب الغربى، وتصعد بعض فروعها إلى الشمال الشرقى مارّة بجبل زغوان شمالى القيروان وتنعطف منها مرتفعات - فى شكل تلال - إلى بنزرت. وتمتد سهول تحت أقدام جبال أطلس وخاصة فى الشمال. وليس فى الاقليم التونسى نهر كبير سوى نهر مَجْرَدة المنحدر من الغرب إلى الشمال الشرقى فى اتجاه تونس، وسهوله من أخصب السهول، وتنتج مقادير ضخمة من الحبوب سوى ما ينمو فيها من الزروع والغروس. وتمتد فى الساحل على طول البحر المتوسط أراض خصبة وافرة السكان والعمران. ووراء قابس فى الساحل الشرقى إلى شط الجريد وواحاته تترامى فى الجنوب أراض منبسطة واسعة فى وسطها مراع كثيرة وبعض المزارع، وغربيها بقاع شاسعة من الحلفاء وتوجد بعض السبخات، وشرقيها منطقة نفزاوة. ومدينة توزر هى قاعدة منطقة أو شط الجريد الذى تلتف به غابة واسعة من النخيل، ومياهها تنبع من الرمل وتتجمع خارجها، وتتشعب فى جداول عليها أرحاء صنعها ابن الشباط المهندس فى القرن السابع الهجرى، وتوزر من قديم تُعَدّ من أهم البلاد التونسية لإنتاجها الوافر من البلح والتمور فضلا عما بها من البساتين والفواكه المتنوعة وفى الشمال الشرقى من توزر مدينة قفصة، ويقول جغرافيو العرب إنها من أكثر بلاد الله فُسْتقا، وكان

---

(١) انظر فى جغرافية تونس أو الاقليم التونسى كتابات ابن رسته وابن حوقل وأبى عبيدالبكرى والشريف الإدريسى، وهذه تونس للدكتور الحبيب ثامر. وتاريخ إفريقية فى العهد الحفصى لبرنشفيك ترجمة الدكتور حمادى الساحل (نشر دار الغرب الإسلامى) ٣١٣/١ ومابعدها ومادة تونس فى دائرة المعارف الإسلامية، وما بها من مراجع.

يُحمل منها إلى سجلماسة فى المغرب الأقصى ومدن الأندلس. وكانت تمدّ القيروان بأصناف التمور والفواكه. ومدن نهر مجَرْدة هى مدن الحبوب ومن أهمها مدن الكاف وسليانة وتَبَرْسُق وباجة غربى تونس وبينها نحو مائة كيلو متر، ويقول البكرى إنها كثيرة الأنهار (لعله يريد جداول المياه) وهى على جبل فى هيئة الطيلسان، واشتهرت قديما بإنتاج الحبوب، وخاصة القمح، ولذلك سموها قديما باجة القمح. وغرْ بالساحل من الغرب ابتداء من مدينة بنزرت، وهى ثغر فى أقصى الغرب التونسى على البحر المتوسط فى موقع ممتاز، تحف بها مزارع مثمرة وغابات كثيفة. وتشتهر بإنتاجها من الحبوب والبقول والزيتون، فضلا عن أنها ميناء تجارى مهم، وفى شرقيها بحيرة ويقول عنها الإدريسى: فمها متصل بالبحر المتوسط وكلما دخلت فى البر اتسعت وكلما قربت من البحر ضاقت، ويصاد بها أنواع كثيرة من الأسماك. وكان بجانبها محارس أو رباطات ينزلها النساك المجاهدون فى سبيل الله لحماية تونس من القراصنة والغزاة. ونمضى شرقا على الساحل فى الشمال، فتلقانا تونس على خليجها، وقد بناها حسان بن النعمان والى إفريقية (٧١ – ٨٥هـ) بالقرب من قرطاجة الفينيقية، متخذا منها دار صناعة كبيرة لبناء أسطوله. واتخذها عاصمة، غير أن الولاة والحكام بعده تركوها إلى القيروان التى كان قد بناها عقبة بن نافع بين سنتى ٥٠ و٥٥ للهجرة واتخذها هو ومن بعده عاصمة لإفريقية، حتى إذا استولت الدولة الحفصية على صولجان الحكم فى الاقليم اتخذت تونس عاصمة للبلاد، ومازال هى العاصمة إلى اليوم. وإلى الشرق من خليج تونس خليج الحمامات وبينهما شبه جزيرة من أخصبَ الأراضى التونسية، وتكتظ بغابات الزيتون وبساتين الفواكه وخاصة البرتقال.

وتلقانا بعد خليج الحمامات فى الشرق مدينة سوسة، وقد اتخذتها الدولة الأغلبية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى دار صناعة لسفن أسطولها الحربى، وبواسطة هذا الأسطول استطاعت تلك الدولة الاستيلاء على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وعلى مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ويقول ابن رستة فى كتابه: «الأعلاق النفيسة»: إن ساحل سوسة كثير السواد من الزيتون والكروم والأشجار، وبه قرى كثيرة يتصل بعضها ببعض، وهى – مثل بنزرت – يصاد بها أنواع مختلفة من الأسماك، وخاصة من الحيتان. وجنوبى سوسة مدينة المنستير وكانت فى الأصل محرسا كبيرًا أو رباطا بناه هرثمة بن أعين والى الرشيد لحماية الساحل وحراسته وظلت تتسع مع الزمن إلى أن أصبحت مدينة كبيرة. وإلى الجنوب منها مدينة المهدية التى بناها المهدى مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بتونس، بناها على نتوء صخرى بالساحل لتكون حاضرة له ودار صناعة لأسطوله، ويقول البكرى إنها من أعاجيب الدنيا. وإلى الجنوب منها صفاقس وهى مدينة تجارية مهمة، وتحيط بها أشجار الزيتون والفواكه، وفى كتاب الحلل السندسية أنه يصاد بها أنواع من السمك تفوق الحصر، وببحرها صوف تصنع منه ثياب رفيعة، وقد يوجد فى بحرها صدف يشتمل

على لؤلؤ صغير الحب، وأمامها جزر قرقنة ويشتهر سكانها بصيد الإسفنج. وإذا سرنا نحو الجنوب لقيتنا مدينة قابس متوسطة خليجها ويصاد فيه الإسفنج أيضا بكثرة، ويكثر بها النخيل والعيون الجارية، ويقول البكرى إن اللوز كثير بها وبالمثل جميع الثمار، ويكثر بها التوت، وحريرها أطيب الحرير وأرقه. وإلى الجنوب الشرقى من خليجها جزيرة جِرْبة الكبيرة الخصبة. وإلى الجنوب منها منطقة نفزاوة المشهورة بواحاتها وتشتهر ناحية طرّة فيها بصنع الزجاج من قديم لوجود الكوارتز هناك بكثرة. والأشجار والزروع تحيط بالاقليم التونسى على امتداد سواحله شمالا وشرقا وفى حوض نهر مجردة غربا وفى واحات نفزاوة وشط الجريد. والمنطقة الوسطى وحدها منطقة المراعى وفيها تتنقل القبائل الرحَّل.

ومناخ القطر التونسى - فى جملته - مناخ البحر المتوسط دافئ معتدل، ونزول الأمطار بها يختلف كثرة وقلة حسب أنحائها، وهى تكثر فى الشمال شتاء، وتقل قلة شديدة فى الجنوب، وتختلف درجة الحرارة فيها باختلاف البقاع ووقوعها على الجبال وسفوحها وفى السهول الزراعية وبقرب البحر أو فى داخل الصحراء.

٢

التاريخ[١] القديم

كانت تعيش فى القطر التونسى وغيره من أقاليم المغرب - فى العصور السحيقة - قبائل لا حضارة لها سماها الرومان باسم البربر، وحوالى القرن العاشر قبل الميلاد ارتاد سواحل إفريقيا الفينيقيون بحثا عن مواقع غنية بالخيرات يُرْسون بها سفنهم للتبادل التجارى، وكانوا شعبا مِلاحيا احترف التجارة، وأعجبهم ساحل الإقليم التونسى، فاتخذوا فيه مواقع لإقامات مؤقتة يتبادلون فيها السلع التجارية مع أهله وسكانه. ومع الزمن ومرور دوراته المتعاقبة رأوا أن يقيموا لهم فى ذلك الإقليم مدينة تكون لبعض أسرهم مستقرا كما تكون مركزا ثابتا لمتاجرهم. وفى تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أسسوا لهم مدينة غربى مدينة تونس الحالية سموها قرطاجة، وأخذت تزداد قوة، وأخذ بحارتها وتجارها ينشئون لهم مراكز تجارية جديدة فى الساحل الإفريقى مثل بجاية وشرشال فى الجزائر وطنجة فى

---

(١) انظر فى تاريخ الإقليم التونسى القديم خلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب (طبع تونس) والجزء الأول من تاريخ المغرب الكبير للأستاذ محمد على دبوز (طبع مطبعة الحلبى فى القاهرة)

المغرب الأقصى ونزلوا ساحل إسبانيا فى الجنوب الشرقى والغربى وأسسوا لها مدينتين: قرطاجنة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى.

وكان الفينيقيون أصحاب حضارة، ومعروف أنهم اشتقوا لهم من حروف الهيروغليفية المصرية أبجديتهم التى نشروها فى البلاد التى نزلوها قديما كما نشروها فى العالم القديم. وقد نزل قرطاجة التونسية كثير من أسرهم، وخالطوا السكان الإفريقيين، وامتزجوا بهم مصاهرة وغير مصاهرة، بحيث أصبحت لهم فى قرطاجة دولة كبيرة، كما أصبح لهم شعب ضخم يتألف منهم ومن البربر، واتسعوا فى تجارتهم مع المراكز التجارية التى أنشئوها فى المواقع المذكورة آنفا وفى فرنسا وصقلية، وجابت قوافلهم الصحراء فى الجنوب وحملت من السودان الرقيق والعاج والتِّبْر. ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، حتى نجد روما تحاول أن تخضد من شوكة نفوذهم فى البحر المتوسط، وسرعان مانشبت الحروب بين الطرفين وظلت أكثر من مائة عام ابتداء من سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وكان ميدانها لنحو عشرين عاما جزيرة صقلية موضع النزاع بين القوتين الكبيرتين، وأذعنت قرطاجة فى نهايتها للصلح، وعادت الحرب بينهما للنشوب سنة ٢١٨ قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٢٠٢ إذ باءت حملة هانيبال الكبرى بالإخفاق، وكان قد كوَّن جيشا ضخما اقتحم به جبال البرانس وجنوبى فرنسا وشمالى إيطاليا محاولا أن يفتح روما، غير أن الأقدار لم تسعفه، وبعد ذلك بنحو خمسين عاما نشبت بين روما وقرطاجة حرب ثالثة ظلت ثلاث سنوات من سنة ١٤٩ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد انتهت بانتصار روما وتدميرها نهائيا لقرطاجة الفينيقية. وكانت حضارتها قد استقرت فى الشمال التونسى قرونا وأجيالا متعاقبة، وكانت حضارة متقدمة لا فى شئون الملاحة والتجارة فحسب فهم أساتذتها فى العالم القديم بل أيضا فى صناعة السفن والمعادن والزجاج وفى زراعة الحبوب والبقول وأشجار الفاكهة وغراسة الزيتون والمظنون أنهم نقلوه - كما نقلوا كثيرًا من أشجار الفاكهة - إلى إفريقية فى تونس وغيرها من موطنهم الأصلى فى الشام، ومن أكبر الأدلة على اهتمامهم بالشئون الزراعية فى إفريقية التونسية أن نجد عالمهم الزراعى الكبير: ماجون (Magon) يؤلف أقدم كتاب عالمى فى الزراعة وغراسة الأشجار وقد نقله الرومان إلى اللاتينية حينما قهروا القرطاجيين التونسيين واستولوا على البلاد منذ سنة ١٤٦ قبل الميلاد. كما استولوا على مافيها من كنوز العلم والعرفان وكنوز الخيرات والطيبات.

ومنافسة لقرطاجة الفينيقية وهياكلها الضخمة ومبانيها السامقة أقام الرومان لهم بجانبها قرطاجة جديدة شادوا فيها هياكل ومعابد ومبانى باسقة كما شادوا مسرحا للتمثيل وملعبا لمصارعة الحيوان وبعض الحمامات. وكانوا يحكمون قرطاجة والقسم الشمالى من الاقليم التونسى مباشرة، وما وراءه فى نفس الإقليم وفى نوميديا (القسم الشرقى من الجزائر) كان

يحكمه ولاة تابعون لهم من البربر، واشتهر من بينهم وال يسمى يوغرطة حارب الرومان وحاول الاستقلال ببلاده ووقع فى أيدى أعدائه فسجنوه بروما إلى أن قضى نحبه سنة ١٠٦ قبل الميلاد. وأخذت البلاد تستكين لروما، وأخذ بعض البربر ينشأ بها ويتعلم فيها مثل يوبا الثانى المتوفى سنة ٢٢ للميلاد. وهو جزائرى، وقبره بالقرب من شرشال، وله مؤلفات مختلفة باللاتينية فى تاريخ الرومان وفى الجغرافية والموسيقى. واندمج بعض البربر فى الحياة الرومانية واستطاعوا الوصول إلى أعلى الوظائف فى الدولة، حتى ليصبح أحد أباطرة روما ويجلس على عرشها سنة ١٩٣ للميلاد بربرى من مواليد لمطة على الساحل الإفريقى ويقال: بل من مواليد لبدة بجوار طرابلس، وهو سبتيموس سيفيروس. وتابعت روما قرطاجة فى العناية بالزراعة فى إفريقية التونسية وشق القنوات بها وإقامة السدود والخزانات والصهاريج والمواجل، مما جعل الزراعة تزدهر بها فى زمنهم الذى امتد نحو ستة قرون طوال. وتظل التجارة مزدهرة بها أيضا وتظل القوافل تنحدر إلى الجنوب لحمل السلع من السودان. وقد نزلتها – وعاشت فيها – أسر رومانية كثيرة. وحين اعتنقت روما المسيحية حاولت نشرها فيها، وابتنت لها بعض الكنائس، ويبدو أنها عملت على نشر لغتها اللاتينية، وقد ظلت حية فى بعض الألسنة بعد الفتح الإسلامى – كما سنرى – قرونا طويلة، وسنرى بعض الأمراء الأغالبة يتعلمونها، كما تعلمها المعز لدين الله الفاطمى.

وتأخذ الأحوال فى روما تسوء، حتى إذا مضينا فى القرن الخامس الميلادى زادت سوءًا على سوء، مما جعل أحد ولاتها فى إفريقية المسمى بونيفاس يخرج عليها ويستغيث بقبائل الواندال الجرمانية التى كانت قد استولت على إسبانيا، وتقدم تلك القبائل، وتعيث فى إفريقية التونسية دمارا وفسادا لمدة مائة عام من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٤ للميلاد، خرَّبت فيها كل – أو أكثر – ما كانت تزدهى به البلاد من أسباب الحضارة والعمران مما أقامه بها الفينيقيون والرومان إلى أن خلصها منهم القائد البيزنطى بليزير Bélisaire سنة ٥٣٤ للميلاد، وأصبحت إفريقية التونسية – من حينئذ – تابعة لقيصر بيزنطة (القسطنطينية) ويسمى العرب سكان هذه الدولة باسم الروم. وكانت بيزنطة تولِّى على إفريقية حاكما عامًّا يلقَّب بالبطريق Patricius مقامه بقرطاجة، وأسندت إليه إصدار الأوامر والإشراف على الموظفين وعلى أداة الحكم والشئون المالية. وكانوا يتبعون سياسة خرقاء ظالمة فى فرض الضرائب الفادحة والجبايات والإتاوات الباهظة. ولم تُعن بيزنطة – وبالتالى حكامها – بنشر لغتها اليونانية فى البلاد على نحو ما عنيت روما وحكامها – من قبل – بنشر اللغة اللاتينية، فلم تكن اليونانية تتجاوز ألسنة الموظفين والجند البيزنطيين، وظلت اللاتينية هى اللغة المسيطرة فى المدن الإفريقية: فى قرطاجة وسوسة وغيرهما بسبب ما كان فيها من جاليات رومانية كبيرة.

٣

الفتح[1] - بقية الولاة - الدولة الأغلبية

(أ) الفتح

كان يحكم قرطاجة وإفريقية قبيل الفتح العربي بطريق بيزنطي يسمى جريجوريوس وسماه العرب جرجير، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب على أكبر دُرَّتين في تاجها: الشام ومصر صمَّم على الاستقلال، فخلع طاعة بيزنطة وضرب الدنانير باسمه، وبينما هو غارق في حلمه إذا الجيش العربي الفاتح للشام ومصر يستولي على برقة وطرابلس وتوابعها في سنتي ٢٢-٢٣هـ/٦٤٢-٦٤٣م. ويتوفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويخلفه عثمان بن عفان فيولي على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويأمره بغزو إفريقية، فيسير إليها في عشرين ألفا من الصحابة والتابعين يتقدمهم نفر من الصحابة أو من أبناء كبارهم، مثل ابن أبي سرح الصحابي وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن جعفر وعبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، ولذلك سُمِّي الجيش جيش العبادلة. ووصلت طلائع الجيش إلى إفريقية التونسية في سنة ٢٧هـ/٦٤٧م واستولت على قابس، وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن سينازلونه، فانسحب من قرطاجة إلى الداخل محتميا بحصن أنشأه البيزنطيون إلى الجنوب الغربي من القيروان يسمى سُبَيْطلة وجمع إليه جيشا جرارا من البيزنطيين والبربر، يقال إنه كان مائة ألف، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون وقُتل جريجوريوس في المعركة، قتله عبدالله بن الزبير، وفتحت إفريقية التونسية أبواب مدنها لسرايا الجيش العربي الباسل، وأسرع البيزنطيون والبربر في كل مكان إلى طلب الصلح، وصالحهم القائد ابن أبي سرح على مقدار من المال، وكانت الوقعة حاسمة، فلم تقم بعدها لبيزنطة قائمة. ويقال إن ابن أبي سرح ترك بعد ذلك القطر التونسي وعاد إلى مصر دون أن يولِّي عليها أحدا وهو قول غير صحيح، لأنه لم يحدث أن العرب في فتوحهم الأولى فتحوا

---

(١) راجع في الفتح وبقية الولاة والدولة الأغلبية كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وتاريخ الطبري وابن الأثير وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني (قطعة منه طبع تونس) ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجي ورياض النفوس للمالكي والبيان المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) وتاريخ ابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار والحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب

بلدا وفرضوا عليها إتاوات وضرائب وتركوها وانصرفوا، وكأن فتحا لم يحدث، مما يجعلنا نرجح ما قاله بعض المؤرخين من أنه خلف عليها نافع بن عبدالقيس الفهرى، وكان يتخذ زويلة التى فتحها فى حملة عمرو بن العاص مقرا لحكمه فى طرابلس وبعد ضم إفريقية التونسية إليه. ولإقامته فى زويلة ظَنَّ خطأً أن ابن أبى سرح لم يترك وراءه فى إفريقية التونسية عاملا، ويبدو أن الخليفة عثمان بن عفّان ولّى عليها بأخرة من أيامه سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُدَيج السَّكونى. وتحدث فتنة عثمان فيعود، وتضطرب الأمور فى إفريقية كما اضطربت فى الولايات الأخرى.

ولما استقرت الأمور لمعاوية بن أبى سفيان أرسل إلى إفريقية جيشا عداده عشرة آلاف بقيادة معاوية بن حُدَيج سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وعلم قيصر بيزنطة بهذا الجيش فأرسل إلى قرطاجنة نجدة بحرية والتحم بها وبمن انضم إليها من البربر معاوية بن حديج وهزمهم هزيمة ساحقة لم يعد البيزنطيون بعدها يقدمون لعون قرطاجة، واستشهد فى هذه الغزوة أبو زمعة عبيد الله البلوى الصحابى، وكلف معاوية عبد الله بن الزبير بفتح سوسة ففتحها وفتح عبد الملك بن مروان بنزرت.

وولّى معاوية عقبة بن نافع الفهرى على إفريقية سنة ٥٠ هـ/٦٧٠م وبمجرد وصوله إليها رأى أن الحكم العربى لا يثبت فيها ولا يستقرّ إلا إذا أُنشئت بها مدينة عربية تكون معسكرا للجيش العربى الذى تتغلغل جنوده فى إفريقية بحيث تكون دارا لأسرهم وقاعدة لنشر الدين الحنيف ولغته العربية، واختار للمدينة موقعا على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وسماها «القَيْروان» أى المعسكر، وبدأ فيها بإنشاء الجامع المنسوب إليه فى وسطها، وبنى بجواره دار الإمارة، وأحاط بها سورا، وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى وظلت أم المدن فى إفريقية قرونا متطاولة فى العلم والثقافة وفى التجارة، واستغرقت عمارتها منه خمس سنوات حتى سنة ٥٥هـ/٦٧٤م وأصبحت مركزا لتحركات الجيش الفاتح بعد أن كان مركز تلك التحركات برقة وزويلة. وعزله معاوية وولاها أبا المهاجر فى نفس السنة المذكورة آنفا، ومن أعماله الجليلة فتحة لجزيرة شريك وإدخاله جميع بلاد الجريد فى الإسلام، وبالمثل جميع بلاد الجزائر وتغلغل فيها بجيشه إلى تلمسان حيث دارت بينه وبين قبيلة أوربة البرنسية وزعيمها كُسَيْلة معركة انتصر فيها وأسر كُسَيْلة فعامله معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام واعتنقته معه قبيلة أوربة. ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد فيعيد عقبة بن نافع ثانية واليا على إفريقية سنة ٦٢هـ/٦٨١م واستخلف زهير بن قيس البلوى على القيروان واتجه بجيشه إلى شط الجريد وأذعن له، كما أذعن الزاب فى الجزائر ومضى مجاهدا فى سبيل الله إلى أن وصل إلى البحر المحيط، فأدخل فيه قوائم فرسه ورفع يده إلى السماء قائلا بأعلى صوته: «اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية

الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك» وكرَّ راجعا بعد أن دوَّخ القبائل المغربية ودانت له، وكان قد وبَّخ كُسَيْلة زعيم قبيلة أوربة فى أول ولايته الثانية لوقوفه قديما ضد الإسلام، وأسرَّها فى نفسه هو ومن غضبوا له من البربر الذين لم ينسوا قوميتهم البربرية، وصمَّم كسيلة على الثأر، حتى إذا تقدم عقبة جيشُه بالزاب فى عودته، وبقى فى نفر قليل معه إذا كسيلة الأثيم يحاصر عقبة مع جمع من الروم ومن قومه سنة ٦٤هـ/٦٨٣م ويهجمون عليه وعلى من معه من أصحابه وكانوا نحو ثلاثمائة، وقاتلوهم قتال الأبطال، وتكاثروا عليهم فاستشهدوا جميعا، ودفنوا فى نفس المكان -نضَّر الله وجوههم- وأقيم على قبر عقبة مسجد يعرف باسمه، وهو من المزارات الكبرى فى المغرب. واتسعت ثورة كُسَيْلة، وتبعته جموع غفيرة من البربر دخل بها القيروان، وتراجع الجيش العربى بقيادة زهير بن قيس إلى برقة انتظارا لجيش عربى يقدم عليه للقضاء على تلك الثورة، وتصادف أن ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز كانت قد بدأت وشُغل بها مروان بن الحكم حتى إذا أصبحت الخلافة خالصة لعبد الملك بن مروان وهدأت الأمور فى المشرق أرسل إلى زهير سنة ٦٩هـ/٦٨٨م جيشا جرارا زحف به زهير إلى كُسَيْلة وجموعه، فمزَّقهم شر ممزق، وقُتل كسيلة وخلق كثير من البربر، واسترجع زهير القيروان وتعقب المنهزمين فى الجزائر إلى أن أخرجهم منها، وعاد إلى العاصمة ورتَّب شئونها، ورأى أن يعود بعد هذا النصر العظيم إلى المشرق، وبينما هو فى نفر قليل من صحبه عند برقة إذا هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين، أسروهم على حين غفلة، فنازلهم وكُتبت له الشهادة عند ربه، ويقول الرقيق القيروانى عنه: «كان زهير من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين».

وولَّى عبد الملك بعد زهير على إفريقية حسان بن النعمان سنة ٧١هـ/٦٩٠م وكانت لا تزال للروم جالية كبيرة فى قرطاجة تتجسَّس لبيزنطة وتعيث فسادا ضد العرب فحاصر البلدة وفتحها عنوة وأذعن من بها من النصارى، ولم يكد ينصرف عنها حتى تحصنوا بها فعاد إليهم وهدم حصون قرطاجة وأسوارها حتى لا يحميهم منه شىء، وفرَّ منها كثيرون إلى البحر المتوسط وما وراءه، وطهَّر بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم وفرض الجزية على من ظل منهم ومن البربر على دينه المسيحى، واشتعلت فى أوائل عهده فتنة فى قبيلة جراوة الزناتية بجبال الأوراس فى الجزائر تزعمتها امرأة بربرية اسمها «دهيا» وسماها العرب الكاهنة، ونازلها حسان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م ولم يكتب للمسلمين النصر، واضطر حسان إلى التراجع حتى مدينة سرْت بليبيا، وظل بها خمس سنوات منتظرا مددا من مصر أو من دمشق، وأتاه فى سنة ٨٠هـ/٦٩٩م مدد ضخم فاشتبك مع الكاهنة فى معركة عنيفة قتلت فيها سنة ٨١هـ وأسلم ابنان لها فجعلهما قائدين لجيش مكون من اثنى عشر ألفا من العرب والبربر، وبذلك دعم نظرية

الإسلام فى المساواة التامة بين العرب والموالى المسلمين بربرًا وغير بربر فلا فرق بين عربى وبربرى فى جميع الحقوق حتى فى قيادة الجيوش. وساد الأمن والنظام المغرب جميعه. واتجه إلى عمارة البلاد فجدَّد بناء الجامع الأعظم بالقيروان، ورأى بثاقب بصيرته ضرورة أن يكون لإفريقية التونسية ميناء بدلا من قرطاجة، ولم يلبث أن اختار للميناء موضعا بجوار قرية تسمى تينس أو ترشيش، وشق إلى البحر المتوسط قناة تدخل إليها السفن وتخرج منها وألحق بالميناء دار صناعة كبرى لأنشاء أسطول ضخم يحمى شواطئ الديار الإفريقية من غارات الروم، وجلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته فى إنشاء تلك الدار والأسطول. وسمَّى الميناء تونس، ولم تلبث تونس أن أصبحت أما كبيرة من أمهات المدن المغربية إلى اليوم، وبنى بها الجامع الكبير المسمى جامع الزيتونة لزيتونة كانت فيه. واستحدث حسان للولاية تنظيما إداريا وماليا عمَّمه فى جميع البلاد المغربية، ونشر العربية فى المغرب وجعلها اللغة الرسمية فى جميع الدواوين، ونظم الجبايات فى المدن ومع رؤساء القبائل، وقسم الأراضى التى كانت ملكا للدولة البيزنطية بين صغار الفلاحين من البربر، مما جعلهم يدخلون فى دين الله أفواجا نصرة للدين الحنيف. وبكل ما قدمت عن حسان بن النعمان تعد ولايته على إفريقية خاتمة الفتح الذى بدأه عمرو بن العاص سنة ٢٢هـ/٦٤٢م فقد استقر الدين الحنيف فى جميع البلدان المغربية واعتنقه المغاربة، لما تحمل تعاليمه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وبربرا وغير بربر.

(ب) بقية الولاة

وخلف حسَّان بن النعمان على المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦هـ/٧٠٥م وكان ماهرا فى الإدارة وشئون الحرب وبدأ أعماله بتوجيه حملة إلى جبل زغوان – وأتبعها بحملات أخرى عادت بغنائم وافرة، ثم قام بحملته الكبرى التى اكتسحت المغرب حتى طنجة على المحيط وإقليم السوس فى أقصى الجنوب. وأتم التنظيمات الإدارية لبلاد المغرب، إذ قسَّمه ولايات، وجعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولاته، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة، والمغرب الأوسط عاصمته تلمْسان، والمغرب الأدنى عاصمته القيروان، ومدَّه شرقا حتى شمل طرابلس وغربا حتى شمل نوميديا (قسنطينة وبجَاية) وإقليم الزاب إلى نهر شِلْف فى الجزائر، وجعل برقة ولاية قائمة بنفسها وعاصمتها برقة (المرج منذ القرن السابع الهجرى) وأضاف إلى هذه الولايات ولاية جنوبىّ المغرب الأقصى، هى ولاية السوس الداخلة فى الصحراء، وجعل عاصمتها سجلْماسة، وولَّى عليها طارق بن زياد النفزاوى البربرى، ثم نقله إلى طنجة. وفى سنة ٩١هـ/٧٠٩م عزم على غزو إيبيريا، فأرسل إليها حملة استطلاعية بقيادة طريف، وهو أيضا بربرى، فنزل بإيبيريا فى موضع يقابل مدينة طنجة، سُمِّى جزيرة طريف لنزوله فيه، وعاد يحمل إلى موسى أنباء طيبة، فأرسل فى السنة التالية طارقًا على رأس حملة كبيرة، وجاءته أنباء

فتوحاته، واستمدَّه طارق، فذهب إليه على رأس حملة جديدة أتم بها معه فتح الأندلس. والحملتان الأوليان كانتا تتكونان من العرب والبربر، ونفس قائديها: طارق وطريف كانا – كما أسلفنا – بربريين وبذلك خطا بسياسة حسان خطوات، فجعل من البربر ولاة وقوادا للجيوش. ومنذ عقبة بن نافع كان البربر يشتركون مع العرب فى حملاتهم الحربية وجهادهم فى سبيل الله، مما يدل – بوضوح – على تغلغل الإسلام فى نفوسهم، حتى أصبحوا سريعا من دعاته وحماته، وكانت كثرة جند موسى بن نصير منهم سواء فى فتوحه لبقية المغرب حتى ديار السوس أو فى فتوحه لإيبيريا.

ويعزل سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير عن إيبيريا والمغرب جميعا سنة ٩٦هـ/٧١٤م ويصبح صولجان الخلافة بيد عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ/٧١٧م فيدخل إصلاحا كبيرا على أداة الحكم فى الدولة إذ يأمر الولاة بالتسوية المطلقة بين العرب والموالى أو الشعوب المفتوحة فى الخراج وجباية الأموال أخذا بتعاليم الدين الحنيف، ويرسل إلى إفريقية عشرة من الفقهاء على رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ويقال إنه أسند إليه الولاية، وكلَّفهم أن يعملوا على نشر الإسلام، وأسلم على أيديهم أفواج بربرية لا تكاد تحصى فضلا عن أنهم بثوا فى الشباب فكرة التفقه فى الدين، مما أعد أهل إفريقية التونسية والمغرب ليشاركوا سريعا فى الدراسات الدينية.

ولا نكاد نمضى فى القرن الثانى الهجرى حتى يتوفى الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز، ويتولى بعده الخليفة الطائش يزيد بن عبد الملك، فيعزل ابن أبى المهاجر عن إفريقية ويولِّى عليها عاملا ظلوما غشوما هو يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج، فقدم إلى القيروان سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م وسرعان ما أخذ البربر بسياسة الحجاج فى ظلم موالى السواد فى العراق والتفريق بينهم وبين العرب فى الخراج، مما يتعارض تعارضا شديدا مع تعاليم الإسلام فى رفع الفروق بين المسلمين عربا وموالى، وكأنما عمِىَ يزيد ابن أبى مسلم عن رؤية الفروق الواضحة بين الموالى الفلاحين فى سواد دجلة والفرات من جهة والبربر من جهة ثانية، فإن البربر قبل ولايته كانوا قد أصبحوا مع العرب رفقاء سلاح وجهاد، وأتوا معهم فتح بقية البلاد المغربية وإيبيريا، مما جعل البربر – حين طفح الكيل – يجمعون على قتل يزيد بن أبى مسلم الباغى وقتلوه سنة ١٠٣هـ/٧٢١م وتولَّى بعده بشر بن صفوان الكلبى، ويُذكر له أنه غزا صقلية سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م وأصاب منها غنائم وافرة. وولِّى بعده هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وأساء السيرة، فعزله وولاَّها سنة ١١٤ سفيهًا كبيرًا هو عبيدالله بن الحبحاب، ويُذكر له أنه جدد جامع الزيتونة وعنى بدار الصناعة وغزا أسطوله صقلية. غير أنه كان باغيا طاغيا هو وعماله، فتعسفوا فى جمع الخراج وجباية الأموال من البربر، وبلغ من سفه

عامله على طنجة عمر بن عبيد الله المرادى أن صرَّح بأنه يريد تخميس أراضى البربر أى أخذ خُمسها للدولة زاعما أنها فَيْءٌ للعرب وغنائم حرب لهم. وكان الخوارج صفرية وإباضية قد دأبوا منذ ولاية يزيد بن أبى مسلم وما أنزل بالبربر من حيف وعسف فى شئون الخراج يدعون لعقيدتهم ومبادئها التى توجب التسوية بين العرب والموالى بربرا وغير بربر فى الشئون المالية ومناصب الدولة حتى منصب الخلافة، فهى ليست حقا لقريش وحدها دون العرب وبقية المسلمين بل هى حق لأكفأ المسلمين جميعا عربا وغير عرب حتى لو كان عبدا حبشيا، ووجد الخوارج فى بلاد المغرب تقبُّلا شديدا لمبادئهم بسبب سياسة ولاة بنى أمية الغاشمين فى القرن الثانى الهجرى، إذ رأى البربر - أو كثير منهم - فيها ما يخلصهم من ظلم الأمويين وعسف ولاتهم. وأخذ جبل نُفوسة فى ليبيا يصغى للدعوة الإباضية، وهى دعوة معتدلة إذ تدعو لإمام يحقق العدالة والمساواة المطلقة بين المسلمين عربا وغير عرب، ولا تكفر المسلمين ولا تقاتلهم إلا إذا بادروها بالقتال، واستجاب -أو أخذ يستجيب- المغرب الأقصى للصفرية، وهى دعوة متطرفة إذ تكفِّر المسلمين وتعد دارهم دار حرب، وتزعَّم دعوتهم بالقرب من طنجة بربرى من قبيلة مضغرة البُتْريَّة هو ميسرة، وبايعه البربر وكوَّن منهم جيشا احتلَّ به طنجة، وفتك بعاملها المَشئوم عمر بن عبيدالله المرادى، وهُزم ميسرة فى بعض الوقائع، فولت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ ولقيه جيش لابن الحبحاب فى الجزائر على نهر شلف، وهزمه خالد فى معركة عنيفة، سميت معركة الأشراف لكثرة من قُتل بها من أشراف العرب. وعزل هشام بن عبد الملك واليه ابن الحبحاب سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وولَّى على إفريقية كلثوم بن عياض القشيرى يعاونه ابن أخيه بلج بن بشر، ويلتقيان بخالد بن حميد والصفرية جنوبى طنجة ويهزمان ويقتل كلثوم، ويضطر بلج إلى العبور إلى الأندلس ببقية الجيش. ويولى هشام على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى، ويقدم إلى القيروان، وسرعان ما يستنفر الصُّفْرِيَّةَ لحربه قائدان صفريان: عربى هو عكاشة بن محصن وبربرى هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى، وكانا قد اجتمعا فى الزاب بالجزائر، واتفقا على أن يسير عكاشة مع جيشه فى السهول شمالى جبال الأوراس ليهاجم القيروان من الجنوب ويسير عبد الواحد من ناحية قسنطينة ليهاجم القيروان من الشمال، وعرف حنظلة خطتهما، فأسرع بلقاء عكاشة وهزمه هزيمة ساحقة، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان، فاستثار حنظلة فقهاءها، فخرجوا مع جيشه لمنازلته، وخرج معهم نساء القيروان حاملات للسلاح مستبسلات للموت مع الجيش، فامتلأ الرجال حمية ودارت الدوائر على عبد الواحد وجيشه من الصفرية، وحُمِلَ رأسه إلى حنظلة فخرَّ لله ساجدا.

وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموى سنة ١٢٦ فطمع عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع فى الاستيلاء على ولاية إفريقية وأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م ففكر حنظلة

فى حربه، وكان تقيا ورعا، فكره أن يتقاتل المسلمون، وترك القيروان عائدا إلى المشرق. وصارت الخلافة إلى مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م فأقرّ ولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية درءًا للانقسامات والفتن بها، ولأنه أعلم بشئونها إذ هى داره ودار جده عقبة بن نافع. ولم تلبث الإباضية أن ثارت بطرابلس سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م بإمامة عبداللّه بن مسعود التجيبى فأرسل إليه عبدالرحمن أخاه إلياس، فقضى على ثورته، وبايع الإباضية بعده الحارث بن تليد بالإمامة، واتخذ وزيرا له عبد الجبار بن قيس المرادى، ونازلا جيوش عبد الرحمن مرارا، واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وبذلك انتهت ثورتها. وفى نفس السنة قضى العباسيون على الدولة الأموية، فأقروا عبدالرحمن بن حبيب فى ولايته على القيروان وإفريقية، وسمع بتجمع للصُّفْرية فى تلمسان سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م ففاجأهم وهزمهم. وأرسل حملةً إلى صقلية وعادت بغنائم كثيرة، ومن أهم أعماله استيلاؤه على جزيرة قَوْصَرة التى تبعد عن تونس نحو ثلاثين ميلا، واستمرت تابعة للقيروان وإفريقية حتى تنازل عنها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية لفردريك الثانى ملك صقلية سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م. وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث وقتلاه سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م وتولى إلياس وقتله حبيب بن عبد الرحمن، وتولى مكانه، وفى سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ثارت عليه قبيلة وَرْفجومة النفزاوية الصُّفْرية واستولت على القيروان منه واستباحتها، واشتبك معها حبيب سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م وقتلته، وظلت فى القيروان تستحلّ المحارم وترتكب العظائم، فامتعض لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السَّمْح إمام الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة، فخلّص القيروان منهم سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولّى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى، وأرسل المنصور العباسى محمد بن الأشعث والى مصر بجيش جرار إلى إفريقية، فنازل أبا الخطاب فى معركة حامية الوطيس قتل فيها، ففرّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب فى الجزائر وأسس للإباضية دولة فى تيهرت استمرت حتى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م وتولّى الأغلب بن سالم التميمى على إفريقية سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وقتل سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م فى بعض حروبه، وخلفه عمر بن حفص المهلبى، وكان بطلا مغوارا وابتنى بالزاب مدينة طُبنة، وثار عليه إباضية طرابلس بزعامة أبى حاتم وحاصروا القيروان، وخرج إليهم وقتل سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م.

وولى القيروان وإفريقية بعد ابن حفص المهلبى ابن عمه يزيد بن حاتم، وفيه يقول مؤرخ القيروان الرقيق: «كان كثير الشبه بجده المهلب فى حروبه ودهائه وكرمه وسخائه، وقلم أظفار الصفرية فى الزاب، وانسحبت فلولهم إلى ديار زناتة فى الصحراء، كما قلّم أظفار الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة وفتك بأبى حاتم الإباضى وصحبه هناك وبذلك ظلت لأهل السنة المنزلة العليا فى القيروان وجميع بلاد المغرب. وقد ضبط أمور الدولة بمنتهى الحزم، ومن أعماله تجديده بناء جامع القيروان سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م وترتيبه للأسواق فيها، إذ أفرد لكل صناعة وتجارة

مكانا معينا. وكان أديبا حفيا بالشعراء يجزل لهم العطاء، وشدوا إليه الرحال من المشرق، وبذلك أحدث فى القيروان حركة أدبية، وكان يعقد لها الندوات فى دار الإمارة. ومما يروى من سيرته الزكية أنه رأى يوما بإحدى ضواحى القيروان غنما كثيرا فسأل عن صاحبه فقيل له إنه لابنه، فطلبه وعنّفه على مزاحمته الرعية فى صور التكسب وأمر بذبحها وتوزيعها على الناس. وظل واليا على إفريقية سبعة عشر عاما حتى توفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وولى بعده أخوه روح بن حاتم سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وكان عالى الهمة عادلا حسن السيرة، وفى أيامه ظهرت دولة الأدارسة بالمغرب وبويع إمامها الأول إدريس الحسنى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م وأسسوا مدينة فاس واتخذوها عاصمة لهم، وتوفى روح سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م ودفن مع أخيه فى قبر واحد. وتولاها بعده نصر بن حبيب المهلبى وكان حسن السيرة، وعزله الرشيد وولّى عليها الفضل بن روح، واضطربت عليه الأمور، فولّى الرشيد عليها سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م هَرْثَمة بن أَعْيَن وكان من كبار قواده وكان حسن السياسة والإدارة، وابتنى رباط المنستير بين سوسة والمهدية لحماية الساحل من غارات نصارى البحر المتوسط، وظلت الأبنية تتسع حوله حتى أصبح مدينة كبيرة فى القرن السادس الهجرى. ولم يلبث هرثمة أن آثر العودة إلى المشرق سنة ١٨١هـ/٧٩٧م، وولى عليها الرشيد محمد بن مقاتل العكى ولم تحمد سيرته فعزله.

(جـ) الدولة الأغلبية

كان إبراهيم بن الأغلب التميمى قد ولاه هرثمة على الزاب، فضبطه بحزمه، وأُعجب به هرثمة لقوة شخصيته، واستشار الرشيد هرثمة فى وال كفء يوليه إفريقية، فأشار عليه بإبراهيم وامتدحه له، وكانت إفريقية تكلف الدولة العباسية نفقات باهظة بما ترسل إليها من الجيوش، وكان والى مصر يرسل إلى واليها سنويا مائة ألف دينار، وكان إبراهيم يتطلع لحكم إفريقية – مثل أبيه – وكان الرشيد يأمل فى وال يريحه من نفقاتها الباهظة، ولم يجد بأسا من كثرة ثناء هرثمة على إبراهيم بن الأغلب فى أن يوليه عليها وسُرَّ إبراهيم، وقال له إننى لن أحتاج إلى ما ترسله مصر لإفريقية من أموال، وأتعهد أن أرسل سنويًا إلى بيت المال ببغداد أربعين ألف دينار، وكأنه وفّر للدولة أو تعهد أن يوفر لها مائة وأربعين ألف دينار سنويا، سوى ما كانت تكلفها الجيوش من أموال ونفقات ضخمة. وكان قد درس فى شبابه بمصر وحضر حلقات فقيهها: الليث بن سعد، مما أتاح له أن يكون فقيها مثل أستاذه، وكان الليث يعجب بتلميذه، مما جعله يهبه جارية، هى جُلاجل زوجه وأم ابنه زيادة الله، وكان شاعرًا خطيبا. واقتنع به الرشيد فكتب له العهد بولاية إفريقية سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعلها لعقبه يتوارثونها من بعده. ومن حينئذ بدأت شخصية إفريقية – وخاصة إفريقية التونسية – فى الظهور، فقد أصبحت بها دولة مستقلة وإن ظلت تدين بالولاء اسميا للعباسيين، وأخذت تعمل جاهدة على

النهوض بالبلاد نهضة حضارية قوية. وقد ساس إبراهيم إفريقية سياسة رشيدة، وصمم على أن تكون له قوة عسكرية تحميه هو وأسرته ممن كانوا لا يزالون بالقيروان من الخراسانيين وغيرهم من الجند، وكوَّنها من ثلاثة عناصر: البربر المستعربة والصقالبة الذين كان يجلبهم تجار الرقيق وزنوج السودان الذين كانت تجلبهم القوافل. وابتنى له ولأهل بيته ضاحية على بعد نحو أربعة كيلو مترات من القيروان، سماها «العباسية» ونقل إليها معسكرات جنده وخزائن السلاح والأموال كما نقل إليها حواشيه واتخذها دار إمارته. وظل يدير دفَّة هذه الدولة إدارة حازمة ويؤسس بنيانها الشامخ طوال اثنى عشر عاما إلى أن توفى سنة ١٩٦هـ/٨١١م ويخلفه ابنه أبوالعباس عبدالله، ولم يكن سيوسا ويتوفى سنة ٢٠١هـ/٨١٦م فيخلفه أخوه زيادة الله، وكان من أعلم أهل بيته فصيح اللسان بصيرا بشئون الإدارة والحكم، فثبَّت سلطان أسرته، وتغلب دائمًا على خصومه، وشجَّع العلم والعلماء. ومرَّ بنا أن ولاة إفريقية حاولوا غزو صقلية مرارًا، وكان زيادة الله عظيم الهمة، فأخذ يعد العدَّة لفتحها، بادئا ببناء سور حصين حول ثغر سوسة، وبنى بجوارها رباطا لحمايتها وحماية الساحل واتخذها مرساة لأسطوله، وبنى له فيها دار صناعة كبيرة، وأخذ يكثر من قطعه وسفنه، حتى أصبح أقوى أسطول حربى فى البحر المتوسط. ويغزو به سردانية سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م ويعود محمَّلا بالغنائم. ويرسل إلى صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جيشا بقيادة الفقيه أسد بن الفرات قاضى القيروان لفتحها، ونزل الجيش بمدينة مازر، والتقى بجموع الصقليين وهزمهم، وأخذ يستولى على حصون ومدن متعددة، وفى حصار سرقوسة شرقى صقلية توفى القائد العظيم أسد بن الفرات، ومضى الجيش فى فتوحه. وهو حدث من أعظم الأحداث فى تاريخ الأمة العربية، ولزيادة الله وقائده ابن الفرات مجده وشرفه. ويدل أكبر الدلالة على قوة هذا الأسطول الأغلبى الفاتح لصقلية أن نجد أهل مدينة نابولى فى إيطاليا يستنجدون بزيادة الله ضد أعدائهم المجاورين لهم من الفرنج سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م وينجدهم الأسطول وتظل نابولى بأيدى جنوده وبحارته زمنا غير قليل. ويجدُّ زيادة الله بناء جامع عقبة فى القيروان ولبَّى نداء ربه سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م وخلفه أخوه الأغلب، وفى عهده فتح الجيش أكثر ما بقى من صقلية سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م وتمكن الأسطول من الاستيلاء على مدينة بارى شرقى إيطاليا سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م واتخذها قاعدة حربية ومرساة لسفنه فى البحر الإدرياتى، ويتوفى سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م ويتولى مقاليد الحكم أخوه أبو العباس محمد، وفى أيامه أغارت بغتة سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م بعض سفن إيطالية على شواطىء الساحل ونهبت بعض أقوات السكان وأسرت عددًا منهم، ساقتهم إلى إيطاليا عبيدًا أرقاء وباعتهم فى الأسواق، وغضب الأمير الأغلبى محمد حمية لمواطنيه، فأمر الأسطول بخروج قطع منه لغزو إيطاليا وأرست عند مصب نهر تيبر المنحدر من جهة روما ، وانتشر جنودها فى ضواحى روما واقتحموها عنوة واستولوا على بعض ما فى كنيستها الكبرى من تحف، وظلوا يترددون عليها

وعلى أنحائها نحوا من شهرين، وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى. ويتوفى الأمير محمد سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ويتولى ابن أخيه أحمد وفى أيامه استولى المسلمون فى صقلية على مدينة قصريانة المنيعة سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وأعاد بناء جامع تونس وزيّنه بقباب ونقوش وأعمدة رخام بديعة كما زين جامع عقبة فى القيروان بقُبَّة خارجة عن البهو ومحراب رخام مزودين بالنقوش، وبنى الماجل (الصهريج) الكبير بالقيروان وماجل سوسة، وتوفى سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وخلفه ابنه زيادة الله الثانى، ودار العام، فتوفى. وتولى بعده ابن أخيه أبو الغرانيق سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م وفى عهده فتح الأسطول سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م جزيرة مالطة وظلت تابعة للقيروان نحو قرنين ونصف حتى استولى عليها روجار الأول ملك صقلية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ويتوفى أبو الغرانيق سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م ويخلفه أخوه إبراهيم وفى أيامه فُتحت سرقوسة آخر معاقل الروم فى صقلية سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م. وفى نفس السنة بنى مدينة رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبى القيروان، ونقل إليها أهل بيته ودار إمارته ورجال دولته وجنده، ويعد عهده من أزهى العهود علما وحضارة فى الدولة الأغلبية إذ بنى فى عاصمته: رقادة بيت حكمة كبيت حكمة هرون الرشيد والمأمون فى بغداد، وجلب إليه طائفة بارعة من العلماء أطباء ورياضيين وفلكيين وموسيقيين وألحق به مكتبة ضخمة، فتح أبوابها للطلاب والقصَّاد. وبعث بذلك فى إفريقية التونسية نهضة علمية وثقافية واسعة. وأنشأ إبراهيم محارس ورباطات كثيرة على الساحل واستحدث فيها نظام إشارات بالأضواء ترسل توًّا من رباط إلى رباط عند حدوث أى هجوم، بحيث إذا حدثت أى غارة بحرية للأعداء فى أى بقعة على الساحل علمت بذلك فى الحال جميع الرباطات والمحارس. وأصيب فى أواخر ولايته بمرض السوداء، مما جعله يسفك دم كثيرين من أقاربه، وعلمت بذلك الدولة العباسية فأرسلت إليه سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م أن يعفى نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه عبد الله. وصدع لهذا الأمر، وسلم صولجان الحكم لابنه، وكأنما أراد أن يكفر عما صنع من سفك الدماء فرأى أن يمضى بقية حياته فى الجهاد، وأعدَّ أسطوله إعدادًا كبيرًا لغزو إيطاليا فى نفس السنة، وعبر به مضيق مسينا قاصدًا قَلَوْرِيَّة وأرض إيطاليا الجنوبية، واستولى على عدد من الحصون الإيطالية فى الجنوب غير أن الموت باغته، فعاد به الأسطول إلى بالرم فى صقلية ودُفن بها، ونقل ابنه عبد الله رفاته إلى القيروان. وكان عبدالله على جانب كبير من التقوى والصلاح وكتب إلى عماله بالرفق فى معاملة الرعية، وتوفى سريعًا سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م. وخلفه ابنه أبو مضر زيادة الله، وكان أبو عبد الله الصنعانى داعية عبيد الله الفاطمى قد نشر دعوته الإسماعيلية الفاطمية فى كُتامة بالجزائر، ودخل فى دعوته كثيرون، فكوَّن منهم جيشا قضى به على دولة تيهرت الإباضية، وتقدم بجموعه من الجزائر قاصدًا القيروان ولقيه جيش أغلبى فى قرية الأُرْبُس، فهزمه، وأحس أبو مضر زيادة الله الأغلبى أنه لن يستطيع الصمود لأبى عبد الله الصنعانى داعية الفاطميين، فخرج عن ملكه فارًّا إلى المشرق وتردَّد بين مصر والشام فى

انتظار نجدة من العباسيين، ووافاه الأجل بمدينة الرملة فى فلسطين. وهكذا انتهت فى إفريقية التونسية دولة الأغالبة التى استطاعت فى نحو مائة عام أن تنهض بها نهضة حضارية ثقافية كبرى، كما استطاعت أن تكوِّن لإفريقية وللعرب أكبر أسطول فى البحر المتوسط لزمنها، ومن أعمالها المجيدة فتح صقلية ومالطة وتعريبها ونشر الإسلام بها آمادا طويلة إلى أن استولى عليها النورمان.

٤

الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأعرابية

(أ) الدولة[1] العبيدية

كان أبو عبد الله الصنعانى قد تعرف على جماعة من قبيلة كُتامة الجزائرية فى الحج وقدم معهم إلى ديارهم، وكان لسنا جدلا، فأعجب من اجتمعوا حوله من هذه القبيلة، ولما اطمأن لهم أخذ يعلن بينهم أن آل البيت هم الأحق بإمامة المسلمين وخلافتهم، ودعا للرِّضا المعصوم المستتر منهم صاحب الزمان، وأخذ المستجيبون له يتكاثرون ودخلت كتامة فى دعوته وطاعته فأخذ ينظمها تنظيما عسكريًّا، وزحف بها - كما أسلفنا - إلى إفريقية التونسية وهزم جيش الأغالبة فى الأُرْبس، وتقدم إلى القيروان ودخلها بجنوده واستولى على دواوينها وخزائنها، وكان قد أرسل إلى عبيد الله المهدى إمامه يستقدمه من سَلَمْيَة فى سوريا مقر الدعوة الإسماعيلية. وخوفا من ولاة العباسيين اتجه به رفاقه إلى سجلماسة مركز الصفرية فى المغرب الأقصى فسجنه صاحبها، وخلصه أبو عبد الله الصنعانى، وقدم به إلى القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وسلَّمه مقاليد الحكم. وسمى المؤرخون دولته باسم الدولة العبيدية تمييزًا لها فى إفريقية من دولة أحفاده بمصر التى لقبوها باسم الدولة الفاطمية. وبايع أهل القيروان عبيد الله وتلقب بأمير المؤمنين. ويبدو أنه أحسَّ فى أبى عبد الله الصنعانى ندمه على ما أولاه من الخلافة والملك فبادر إلى سفك دمه على نحو ما صنع قديما المنصور العباسى بأبى مسلم الخراسانى داعيتهم، وبين المؤرخين خلاف فى نسب عبيدالله المهدى إلى البيت الفاطمى وهل هو علوى حقيقة أو غير علوى، وصحح نسبه

---

(١) انظر فى الدولة العبيدية بتونس البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجى والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب وسيرة الأستاذ جوذر والحلة السيراء لابن الأبار وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب.

ابن خلدون. وأخذ يصرف الأمور فى الدولة، وقرب منه قبيلة صنهاجة الجزائرية وأرسل زعيمها مصالة على رأس جيش إلى المغربين الأوسط والأقصى واستطاع الاستيلاء على مدينة فاس من الأدارسة الحسنيين. وأخذ دعاته يحاولون إقناع فقهاء السنة بمبادئ الدعوة الفاطمية وعقدوا لذلك مجالس تجرَّد لهم فيها كبار الفقهاء فى القيروان وناظروهم مناظرات حامية مبيِّنين ما فى الدعوة العبيدية الإسماعيلية من مبادئ تخالف الإسلام من مثل تقديس الخليفة العبيدى وادِّعاء أنه الصورة المجسَّدة لله فى الأرض وأنه معصوم وأنه يعلم الغيب إلى غير ذلك مما كان يزعمه دعاة عبيد الله المهدى. وشعر أن القيروان ليست - بفقهائها وشيوخها - دار أمن له ولأسرته، فرأى أن يختار موضعا على الساحل لمدينة جديدة له، واختار رأسا بارزًا بين سوسة وصفاقس، وأخذ منذ سنة ٣٠٣ يؤسسها، وتم له تأسيسها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وسماها المهدية نسبة إليه ونقل إليها آله وجنده ودواوينه وأمواله واتخذها مقر حكمه. وكانت قد عصت عليه صقلية فردها إلى طاعته وولَّى عليها أحد عماله، كما كانت قد عصت عليه طرابلس وشبت بها ثورة إباضية، فردَّها ابنه وولىّ عهده القائم إلى الطاعة وأغرمها ثلاثمائة ألف دينار، ومضى القائم فى حملة إلى الإسكندرية والفيوم وعاد دون طائل. وفى سنة ٣١٥ خرج القائم إلى المغرب الأوسط وبنى مدينة المحمدية (المسيلة). وتوفى عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م وخلفه ابنه القائم، واهتم - مثل أبيه - بالأسطول وبعث على بعض قطعه وسفنه يعقوب بن إسحق فغزا جنوة وكرسيكا وسردانيه، وعاد بغنائم وافرة، وثار عليه سنة ٣٢٦هـ/٩٣٣م أبويزيد مخلد بن كيداد الزناتى من الصُّفرية النُّكَّاريَّة الذين يستحلون سفك الدماء، وتبعه خلق كثير، وفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م زحف إلى إفريقية التونسية، واستولى على تبسة والأربس وباجة وتونس ورَقَّادة بجوار القيروان وعلى القيروان نفسها وحاصر المهدية واستولى على سوسة، وتوفى القائم فى أثناء ذلك سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وخلفه ابنه المنصور واستنجد بقبيلة صنهاجة، فجاءته وفكت عن المهدية الحصار، وأرسل أسطوله إلى سوسة ونصرها ضد أبى يزيد واستبيح معسكره نهبا وإحراقًا واتجه إلى القيروان فمنعه أهلها من دخولها وظل المنصور يتعقبه، وظفر به فى أرض كتامة بالجزائر فى أول سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م. وأنشأ المنصور - ابتهاجًا بانتصاره عليه - مدينة بالقرب من القيروان سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م سمَّاها «المنصورية». وولَّى على صقلية ابن أبى الحسين الكلبى، وظلت إمارتها لعقبة حقبة طويلة. وتوفى سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م وخلفه ابنه المعز، وفى سنتى ٣٤٧ و ٣٤٨ دوَّخ قائده جوهر الصقلى البلاد المغربية إلى المحيط، ودان له المغرب الأوسط (الجزائر) والأقصى. وبلغ المعز اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الإخشيدى ولانشغال بغداد عنها بما كان بها من الفتن، فأرسل إليها قائده جوهرا الصقلىّ فى جيش جرار سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م فدخلها حتى الفسطاط دون مقاومة تذكر، وخطب جوهر فى الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص بالفسطاط باسم المعز، وأقام بمصر الدعوة الفاطمية وأخذ فى بناء

القاهرة، واستولى عسكره على الرملة وبعض بلدان الشام . وأرسل إلى المعز يحثه على القدوم إلى مصر فعزم المعز على المسير إليها، ورتب شئون الدولة فى إفريقية، ورحل فى موكب ضخم فى شوال سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ونزل القاهرة التى بناها له جوهر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م وظلت مقر خلافته وخلافة الفاطميين من بعده إلى نهاية دولته، وكان محظوظا إذ أظلت خلافته البلاد العربية من الشام إلى السوس الأقصى.

(ب) الدولة الصنهاجية[1]

لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر ونقل خلافتهم إليها فكر فيمن يوليه على إفريقية، وكانت قبيلة صنهاجة البربرية قد أيدت دعوتهم بزعامة شيخها زيرى فى حرب الثائر الصُّفْرى مخلد بن كيداد، وكان لزيرى اليد الكبرى فى هزيمة مخلد وإنقاذ المهدية والقيروان منه وكافأه الخليفة المنصور على ذلك بتوليته على المنطقة الغربية فى الجزائر، وفيها أسس مدينة أشير ودفع ابنه بلكين إلى تأسيس ثلاث مدن: الجزائر ومليانة جنوبى شرشال والمدية إلى الجنوب منها، وكان بلكين ذا بأس وحزم وشجاعة ونجدة مع إخلاصه للعقيدة العبيدية وتفانيه فى نصرتها، فرأى المعز أن يُنيبه عنه فى إفريقية، وأنزله القيروان وكناه أبا الفتوح يوسف، ولم يجعل له ولاية على طرابلس وصقلية، وكان حريا أن يضيف إليه صقلية خاصة لأنها بعيدة عن مصر ولن يستطيع نجدتها سريعًا لا هو ولا عقبه، وأيضا فإنها تُعَدّ امتدادًا لإفريقية التونسية فى البحر المتوسط وهى التى فتحتها وأدخلت بها سكانها والإسلام وحضارته فكان ينبغى أن يتركها لبلكين. وكان بلكين ثاقب البصيرة، فأخذ يعمل على إقامة دولة بربرية إسلامية فى الديار المغربية، وهى أول مرة فى التاريخ الإسلامى يتاح لبربرى من صميم أهل المغرب تأسيس دولة مغربية إسلامية، وكان الأمويون فى الأندلس يثيرون أهل فاس والمغرب الأقصى على العبيديين وواليهم بلكين، فقاد جيشًا سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م لتأديب الخارجين على الدولة هناك، ودخل فاسا كما دخل أصيلا على المحيط الأطلسى. وتوفى سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م وخلفه فى ولايته ابنه المنصور ونشبت حروب بينه وبين أعمامه، وانهزموا ولحق بعضهم بالأندلس واتفق لهم – فى عهد الطوائف – أن أسسوا لهم مملكة بغرناطة، واشتبك فى حروب طويلة مع قبيلة زناتة، وأنهكته الحروب معها ومع أعمامه، فرأى أن ينسحب جنوده من المغرب الأقصى حتى يضع نهاية للحروب المستمرة مع زناتة، وقصر إمارته على إفريقية التونسية والجزء الشرقى من الجزائر حتى

---

[1] راجع فى تاريخ الدولة الصنهاجية البيان المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومعالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان للدباغ وابن ناجى.

الزاب ووادى نهر شلف، وكانت جاءته هدية ثمينة من الخليفة الفاطمى بها فيلة وزرافات تبارى الشعراء القيروانيون فى وصفها، وتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وخلفه ابنه باديس أبو مناد، ولما جاء تقليد الخليفة الفاطمى له أمور إفريقية سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م أقام بالمهدية موكبا استعرض فيه الجنود وسفن الأسطول وقذف النفاطون بالنار، ولعبت بين يديه الفيلة والزرافات وإبل شديدة البياض. واستقرت له الأمور فى إفريقية التونسية، وثارت عليه قبيلة زناته فى المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م فسيَّر إليها جيشا جرارًا وجعل عمه حمادًا قائده، وله ملك ما يفتحه، وانتصر عليهم، وعاد إلى قسنطينة، وأسس لنفسه قلعة حصينة نُسبت إليه باسم قلعة بنى حماد، وجعلها قاعدة لحكمه ومركزا لجيشه، ويبدو أن باديس ندم على ما تعهد به لعمه أن يمتلك ما يفتحه، فطلب إليه التنازل عنه، وأبى حماد، ونشبت بينهما حروب كادت ترجح فيها كفة باديس، غير أن الموت عاجله - وهو يوشك على النصر - فى المحمدية بالجزائر سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م.

وتولى المعز بعد أبيه باديس وكان فى الثامنة من عمره فقام بشئون الدولة كبار رجالاتها وأعمامه ماعدا حمادا فإنه ظل مصمما على الاستقلال بقلعته عن القيروان وابن أخيه المعز، واستولى على بعض مدن فى الزاب، ونازله جيش للمعز سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م وهزمه فتقدم يطلب الصلح مع المعز حقنا للدماء على أن يظل مواليا له مع تمتعه بالاستقلال فى قلعته ومنطقته. وانقسمت بذلك دولة صنهاجة إلى إمارة شرقية عاصمتها القيروان وإمارة غربية عاصمتها قلعة بنى حماد، وبلغ المعز سن الرشد وكان يحسن تدبير الحكم فنبه ذكره وعلت شهرته وهادته الملوك على تنائى الديار، إذ جاءته هدية من السودان تحمل إليه عبيدًا وزرافات وأسودًا، وجاءته هدية من قيصر القسطنطينية، وجاءه تقليد من الخليفة الفاطمى بلقب شرف الدولة. وكان الشعب حانقا على العقيدة العبيدية لمبادئها المنحرفة عن روح الإسلام، وأخذت تنشب فى القيروان ثورات على أتباع تلك العقيدة، فتابع المعز شعبه، وخلع طاعة الفاطميين فى القاهرة، وحمل جميع رعيته على مذهب الإمام مالك الذى ارتضته المغرب وفقهاؤها منذ القرن الثانى الهجرى، حتى إذا وافت سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م كشف القناع عن وجهه وأمر بقطع اسم خلفاء القاهرة الفاطميين من خطب الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسى فى بغداد. وبذلك تطهَّر المغرب على يده من المذهب الشيعى الاسماعيلى الفاطمى. وحين جاءت هذه الأنباء الخليفة الفاطمى امتلأ غيظا وموجدة، فعرض عليه أحد وزرائه المسمى باسم اليازورى أن يتخلص من جموع نجدية بدوية نزلت بشرقى النيل فى الصعيد وأخذت تعيث فيه فسادا بدفعها إلى المغرب لضرب المعز بن باديس والقضاء على سلطانه ونفوذه، ولقى هذا العرض استحسانا من المستنصر، وأقبلت جموع هؤلاء الأعراب - وكانت تقدر بمئات الألوف - على ليبيا وإفريقية التونسية وواقعت المعز، وهزمته، واضطرته إلى إخلاء القيروان والانتقال إلى المهدية - وكان عاملها ابنه تميم - فانتقل

بأهله وحاشيته إلى تلك المدينة. وظل بها إلى وفاته سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ودفن برباط المنستير مع آبائه. وقد بلغت القيروان وإفريقيةالتونسية فى عهده كل ما كان يأمله أهلها من تقدم فى المدنية والحضارة والعلوم. وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، كما ازدهرت النهضة الأدبية وتكاثر الشعراء كثرة مفرطة مما سنعرض له فى غير هذا الموضع. واستخلف على الدولة بعده ابنه تميمًا وانكمشت الدولة إذ لم يعد يتبع تميما منها إلا جزء من ساحل البحر المتوسط بين سوسة وقابس، وكان عالما وشاعرا ومثالا للحاكم العربى الصلب وفى عهده أغار أسطول جِنْوى من ثلاثمائة سفينة على المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ولم يلبث أن انصرف لشدة مقاومته وأغارت بعده ثلاث وعشرون سفينة إيطالية فهزم بحارتها وقتل كثيرين منهم وعادوا مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه. وفى أيامه استولى النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م على جزيرة صقلية وفى السنة التالية على جزيرة مالطة. ولم يكن يشاغب تميما أساطيل الغرب وقراصنته فحسب، فقد كان يشاغبه الأعراب المهاجرون إلى إفريقية التونسية. وظل صامدا على الرغم من قلة جنده وقلة موارده إلى أن توفى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. وخلفه ابنه يحيى، وكان محبوبا من الرعية، وأنشأ أسطولا كبيرًا غزا به جِنْوة وسردانية وعاد بأموال وغنائم وافرة وتوفى سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م وولى بعده ابنه على وقد أنشأ فى عاصمته مدرسة للكيمياء عهد بها إلى الكيميائى الأندلسى أمية بن أبى الصلت ونابزه أحمد بن خراسان أمير تونس، فأرسل إليه جيشا اضطره إلى إعلان الطاعة، وتوفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م وخلفه ابنه الحسن فى الثانية عشرة من عمره، وفى أوائل عهده سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م هاجم أسطول نورمانى المهدية، ولقيهم جنود الحسن وأنزلوا بهم مقتلة عظيمة، وعادوا خاسئين مدحورين. وأعد رجار الثانى أسطولا ضخما مكونا من ثلاثمائة سفينة وهجم به على المهدية، ورأى الحسن أن لاطاقة لجنده القليلين بلقائه فانسحب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م من المهدية حقنا للدماء، واستغاث بعبد المؤمن بن على أمير دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وكان النورمان قد احتلوا المهدية فخلصها منهم سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وولى عليها الحسن بن على الصنهاجى وأشرك معه عاملًا من الموحدين، وبذلك انتهت الدولة الصنهاجية من إفريقية التونسية بعد ما أدى حكامها الأولون والأخيرون من أعمال ومآثر جليلة.

(جـ) الهجرة[1] الأعرابية

أعلن المعز بن باديس استقلاله بالقطر التونسى عن الدولة الفاطمية بمصر، وأسقط اسم الخليفة الفاطمى المستنصر من خطب الجمعة، وأمر الخطباء أن يذكروا الخليفة العباسى القائم

(١) خير مصدر فصّل القول فى هذه الهجرة ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق).

بأمر الله على المنابر، وجاءه منه تقليد يعترف له فيه بالاستقلال، وعلم بذلك كله المستنصر الفاطمى فاستشار وزراءه ماذا يصنع، وتقدم منه وزيره اليازورى. ذاكرا له أن خير تأديب للمعز يردعه أن نطلق عليه الأعراب البدو من قبائل سليم وهلال وزغبة ورياح الذين نزلوا فى قفار الصعيد بين النيل وزروعه والبحر الأحمر، والذين يشكو الفلاحون المصريون من غاراتهم، فنكون قد تخلصنا منهم، وانتقمنا بهم من المعز وصنيعه. واستصوب المستنصر رأيه ومشورته، فاستدعى شيوخ هذه القبائل وعرض عليهم الهجرة إلى بلاد المغرب، ووعدهم أن يوليهم أعمالها، ومنح الشيوخ أعطيات كبيرة، ومنح كل أعرابى من عامتهم بعيرا ودينارا، وقال لهم المستنصر: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى» وكانوا يعدون بمئات الألوف، فانصبوا على المغرب كسيل جارف، وبدأوا بأرض برقة وطرابلس فاستولوا عليها، وتقدموا فاحتلوا مدينة قابس، وحاول المعز بن باديس إيقاف هذا الطوفان المنهمر على بلاده، فالتقى بجموعهم فى موضع يسمى «حَيْدران» بين قابس وصفاقس ولكنه هزم وانسحب مع فلول جنده إلى القيروان. ورأى خطأ أن يستقدم بعض شيوخهم إلى القيروان ويزوجهم من كريماته، زُلفى لهم وقربى، ونصحه ابنه تميم أن لا يستدعيهم، ولم يستمع لنصيحته، وجاءوه وانتهبت جماعاتهم القيروان، واضطر إلى الانسحاب والالتجاء إلى المهدية لحصانة قلاعها وأسوارها وكان قد ولَّى تميا عليها، فاتخذها قاعدة لما بقى من ملكة منذ سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م. ولم يقض هؤلاء الأعراب المهاجرون على دولة المعز بن باديس وسلطانه فحسب، بل لقد قضوا على كثير من الزروع والمنشئات وأحدثوا كثيرا من الاضطراب والفوضى. ووقفوا - إلى حين - النهضة الحضارية التى كان قد بثّها الأغالبة فى البلاد ونمّتها الدولة الصنهاجية، وليس ذلك أيضا فحسب، فقد تحولوا بإفريقية التونسية من نظام الوحدة السياسية إلى نظام التفرق والتشتت، فلم تعد لها دولة واحدة منظّمة ترعى مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولا متفرقة أو قل وحدات صغرى من الدول، على نحو ما كان يعيش هؤلاء البدو فى قبائلهم من انقسامها إلى عشائر، وكما أن لكل عشيرة شيخها وحياتها المستقلة، كذلك أصبحت إفريقية التونسية إفريقيات وتحولت مدنها إقطاعيات وإمارات لنحو مائة عام ويلاحظ ذلك ابن خلدون قائلا: «لما تغلب العرب على إفريقية وانحلّ نظام الدولة الصنهاجية وارتحل المعز بن باديس من القيروان إلى المهدية انتزى الثوار فى البلاد» وكوّن كل ثائر فى بلد دولة أو إمارة صغرى وراثية. وهكذا تأسس فى البلاد - على هدى نظام العشائر المتفرقة - نظام أمراء الطوائف، ولكل أمير بلدته أو إقطاعيته، وهو غالبا أمير أعرابى ورثت عنه أسرته إمارته، ونذكر من أهمهم: بنى الورد من لخم فى بنزرت، وبنى جامع من بنى هلال فى قابس، وبجانبهم أمراء بربريون مثل بنى الرند من مغراوة الزناتية بقفصة وبنى مليل من برغواطة بصفاقس، ومن أهم هذه الامارات الصغرى إمارة تونس وكانت لبنى خراسان. وبدون ريب أضعف هذا التفتت إفريقية التونسية، مما جعل

النورمان - كما مرَّ بنا آنفا - يغزون المهدية سنة٥١٧ ويعيدون الكرة سنة٥٤٣ بقيادة روجار الثانى ويظلون بها نحو اثنى عشر عاما ويستولون على ساحل إفريقية التونسية الشرقى ومدنه: قابس وصفاقس والمنستير وسوسة، وينزل روجار فى قصور المهدية الشامخة، ويتخذ فيها دواوين لحكم تلك المدن وإدارتها إلى أن خلصتها دولة الموحدين سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م. وكل ما حدث من ذلك إنما كان بسبب هجرة الأعراب الكبيرة إلى إفريقية وما نشأ عنها من تفتت قواها فى عهد إماراتها أو دولها الصغرى، فإذا روجار الثانى ملك صقلية يغزوها ولا يجد على أسوارها من كانوا يحمونها ويسحقون أعداءها سحقا.

٥

دولة[1] الموحدين - الدولة الحفصية

(أ) دولة الموحدين

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت المصلح الدينى المغربى الذى زار المشرق وتتلمذ فيه على الأشعرية وغيرهم، ورجع إلى المغرب، فنظم فيه ثورة واسعة ضد دولة المرابطين المغربية وفقهائهم المالكية، وتبعه كثيرون، وسمَّى جمهورهم باسم الموحدين، وإليهم نُسبت الدولة. وبدأ منازلة المرابطين سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩م غير أنه توفى سريعا فخلفه عبد المؤمن بن على وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة، وقد استطاع القضاء على دولة المرابطين وأخذ يتملك الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وذكرنا - آنفا - أن الحسن بن على آخر أمراء الدولة الصنهاجية استنجد به حين استولى منه روجار الثانى على المهدية وساحل إفريقية التونسية الشرقى، وما إن علم بجلية الأمر حتى امتلأ غيظا ولباه بجيش جرار سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م ومضى يفتح مدن المغرب الأوسط. الجزائر وبجاية وقسنطينة وبعض مدن إفريقية التونسية، وكان بنو خراسان يحكمون تونس ففتحها عنوة سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩م ورافقه فى هذه الرحلة أسطول كبير، وتقدم إلى المهدية وحاصرها بجنوده برا وبأسطوله بحرا، وطال الحصار إلى ستة أشهر، واحتلها عبد المؤمن يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م وأقطعها الأمير الحسن بن على الصنهاجى وأشرك فى حكمها أحد الموحدين. ونقل عبد المؤمن عاصمة إفريقية التونسية منها إلى مدينة

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة والمعجب للمراكشى وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وأعمال الأعلام لابن الخطيب والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبدالله عنان.

تونس، وتظل عاصمة للبلاد إلى اليوم ويقيم فيها دواوين الحكم، ويطبق فيها وفى ولايتها ما اتخذه فى دولته بالمغرب من التراتيب المخزنية فى تنظيم المصالح الحكومية وظلت هذه التراتيب قائمة إلى نهاية حكم الدولة الحفصية، ويتوفى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢م ويخلفه ابنه يوسف وتظل إفريقية التونسية هادئة لعهده حتى إذا كانت سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩م ثار عليه بنو الرُّند فى قفصة بشط الجريد فخرج إليهم وتغلب سريعا عليهم، وعاد إلى عاصمته: مراكش وتوفى سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب وكان من وزرائه الشيخ عبد الواحد جد الحفصيين، وكان تقى الدين بن أخى صلاح الدين الأيوبى فكر فى الاستيلاء على ليبيا وإفريقية التونسية للاستعانة بها فى حرب الصليبيين، وكلف بهذه المهمة قراقوش وابن قراتكين، واستولى الأول على مدينة قابس واستولى الثانى على مدينة قفصة، وفى هذه الأثناء فكر بنو غانية ولاة المرابطين فى جزر ميورقة ومنورقة ويابسة أن يثأروا لدولتهم من الموحدين، وتسلّل منهم إلى إفريقية التونسية على وأخوه يحيى يريدان أن يقيا فيها دولة ويُعدّا جيشًا للانقضاض على الموحدين. وعلم يعقوب بما يحدث فى إفريقية التونسية فخرج إليها فى جيش جرار سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م وظل طوال طريقه يبنى فى سائر أعماله المارستانات للمرضى والمساجد للمصلين وانقضّ على قفصة وقتل ابن قراتكين كما انقض على قابس ولم يجد بها قراقوش واستولى على أمواله وأهله مما اضطره إلى إعلان طاعته. أما ابنا غانية فحين علما بقدم يعقوب انسحبا إلى شط الجريد وفيه لقى على مصرعه سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨م. وعاد يعقوب إلى عاصمته، وأخذ ينهمك فى الإعداد لموقعة الأرك التى سحق فيها سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥م ملك قشتالة ألفونس الثامن ومن تجمع له من حملة الصليب الهولنديين والإنجليز، وازداد حينئذ عيث يحيى بن غانية واستولى على شط الجريد والقيروان وطرابلس وقابس وصفاقس وتونس، وتوفى يعقوب سلطان الموحدين سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨م وتولى ابنه الناصر وظل يفكر فى شأن يحيى ورأى أن يرسل حملة بحرية كبرى إلى أخيه عبد الله فى جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) حتى يجتث جذور جرثومة الفساد واستولى عليها أسطوله سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣م وصمّم بعد ذلك على قطع فروع الجرثومة فى إفريقية التونسية واستئصال يحيى بن غانية، فخرج فى جيش جرار ومعه وزيره أبو محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبى حفص سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥م وأوقع بيحيى هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة قابس، واسترجع مدينة المهدية وغيرها من المدن التونسية، وعاد إلى مراكش سنة ٦٠٣ واستخلف أبا محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبى حفص على تونس (إفريقية التونسية) وطرابلس، وأخذ زمام الأمور بها يتجمع ويستقر فى يده ويد أبنائه، وكأنما كان حكمه لتونس وطرابلس تمهيدا قويًا لقيام الدولة الحفصية، وقد نازل يحيى بن غانية فى نواحى طرابلس وهزمه وفرَّ جريحا.

(ب) الدولة[1] الحفصية

استقام حكم عبد الواحد فى تونس وطرابلس وأحبه الناس وعظَّموه إلى أن توفى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وخلفه ابنه عبدالرحمن، وعزله سريعا سلطان الموحدين وولَّى أخاه عبداقه، فعهد لأخيه أبى زكريا يحيى بحكم قابس سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ولم يلبث أن غضب عليه ونهض لحربه، وخالفه بعض القواد، والتحقوا بجيش يحيى وتمت له الغلبة على أخيه، فدخل تونس سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وبايعته بمجرد دخوله، وأخذ يعمل على الاستقلال بولايته وكان مما حفزه على ذلك أن أبناء سلطان الموحدين يعقوب العظيم صاحب موقعة الأرَك وأبناء عمومتهم أخذوا يتصارعون على الملك والحكم وأخذت دولة الموحدين تضعف ضعفا شديدا وسرعان ما قطع أبوزكريا اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة وجعلها باسمه سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وبذلك أعلن قيام دولته الحفصية واستقلاله نهائيا عن دولة الموحدين. وفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وقع مع فريدريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - تفاديا لغارات أسطوله على ساحل تونس - معاهدة اعترف فيها بتملك فريدريك لجزيرة قوصرة (بنطلارية) بعد أن ظلت تابعة لإفريقية التونسية خمسة قرون وكان من شروط المعاهدة أن تظل الدولة الحفصية تأخذ نصف جبايتها وظل هذا الشرط ساريا طوال حياة أبى زكريا، وبمجرد وفاته انتقَض هذا الشرط وأجبر المسلمون فيها وفى مالطة وصقلية على الخروج منها جميعا إلى العدوة الإفريقية، ومن بقى أُجْبِر على اعتناق النصرانية. وظل أبو زكريا يتعقب يحيى بن غانية حتى توفى فى برية تلمسان سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م. وفى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م بايعت تونس أبا زكريا ثانية، ويقال إنه أعلن حينئذ قطع اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة أو خليفتهم وذكر اسمه فيها. وكأن بدء قيام الدولة الحفصية إنما كان فى سنة ٦٣٤هـ والرأى الأول أكثر سدادا.

وتعاظمت حملات نصارى الإسبان ضد عرب الأندلس وأخذت مدنهم الكبرى تسقط فى

---

(١) انظر فى الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجى والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار ورحلة التجانى ورحلة العبدرى والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ والحلل السندسية فى الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب وكتابه ورقات عن الحضارة العربية وتاريخ إفريقية فى العهد الحفصى لروبار برنشفيك وراجع فيه خاصة علاقات حكام الدولة الحفصية مع أمراء وحكام صقلية وموانىء إيطاليا وفرنسا وإسبانيا.

حجورهم فأرسل إليه زيان بن مردنيش صاحب بلنسية سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وفدا يستنجده لنصرته ضد أعداء الاسلام، كان فيه أبوعبدالله بن الأبار، وأنشده قصيدة فريدة منها قوله:

أدركْ بخيلك خَيْلَ اللّهِ أندلسا إن السبيل إلى مَنْجاتِها دَرَسَا

ولبّاهم بأسطول محمَّل بالأغذية والأسلحة، ووقعت في أيدى النصارى. وقد ابتنى جامع القصبة فى تونس وصومعته ونقش عليها اسمه، وحين تمّت أُذّن فيها بنفسه، وأنشأ فى قصره دارًا للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد فى مختلف العلوم والآداب. وكان عادلا حسن السيرة كما كان فقيها وشاعرا أديبا، وكان يأخذ نفسه بالتقشف والزهد فى متاع الحياة، وجمع للدولة بعدله وسياسته الرشيدة أموالا طائلة، وأخذت تونس (إفريقية التونسية) تستعيد مجدها وشخصيتها القوية أيام الأغالبة والصنهاجيين، ونفقت سوق العلم والأدب وكثر العلماء والشعراء وتوفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

وخلفه ابنه المستنصر محمد وكان أبوه عنى بتربيته فدبّر أمور الدولة تدبيرا محكما وانتعشت تونس فى عهده. ولما قضى التتار فى بغداد على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأصبح المسلمون بدون خلافة وخليفة جاءته فى سنة ٦٥٧ هـ بيعة أمير مكة بالخلافة بإنشاء عبد الحق بن سبعين صوفيٍّ الأندلس، وكان مجاورا هناك فقرئت على الملأ واحتفل بها احتفالا عظيما، ومن حينئذ تلقب بأمير المؤمنين، وبايعه بنو مرين بفاس. وفى ذى القعدة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م غرّت الأمانيّ لويس التاسع بعد تنكيل مصر به وبحملته المشهورة، فقاد حملة كبيرة هاجم بها تونس برا وبحرا، وحاصرها ستة أشهر، ودُفِنَ تحت أسوارها، وعادت الحملة مدحورة إلى البحر المتوسط وما وراءه بعد أن أغرمها المستنصر مالا كثيرا. ومن أعماله الجليلة بناء الحنايا التى كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجنة من زغوان فى أيام الرومان وأصلح ما أفسده الزمن منها، ومدّها فى تونس إلى السقايات المختلفة: جامع الزيتونة وغيره، وازدهرت الحياة والحضارة بتونس لعهده ازدهارا عظيما. وتوفى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وتولّى بعده ابنه يحيى الواثق وكان حسن السيرة غير أن عمه أبا إسحق إبراهيم ثار عليه سنة ٦٧٨ واستولى على أزمة الحكم، وخرج عليه فى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م ثائر يسمى أحمد بن مرزوق المسيلى ادّعى أنه الفضل ابن أمير المؤمنين الواثق بن المستنصر، وتمكن من الاستيلاء على تونس بمساعدة أعراب قابس الهلاليين، وبعد سنة ونصف من حكمه تصدّى له الأمير عمر أخو الواثق وجمع له جموعا سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وقبض عليه وقتله، وتولى شئون الحكم. وسرعان ما خرج عليه بالجزائر ابن عمه يحيى بن إبراهيم واستقل ببجاية وقسنطينة، وتوفى عممر سنة ٦٩٤هـ/١٢٠٤م وخلفه أبوعصيدة محمد بن الواثق وحاول استرجاع القسم الشرقى فى الجزائر وأخفق، وتوفى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م دون عقب واضطربت

الأمور فى تونس، واستطاع أبو يحيى زكريا بن اللحيانى أن يستولى على زمام الأمور سنة ٧١١هـ/١٣١١م وكان شيخا كبيرا، فتخلى عن الحكم لابنه أبى ضربة، وحاربه أمير قسنطينة الحفصى أبوبكر سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وهزمه وقبض على صولجان الحكم فى تونس وتلقب بالمتوكل على الله، وخرج عليه بعض الأمراء من أسرته وأمدهم بنو زيان أمراء تلمسان من بنى عبد الواد، فأصهر إلى سلطان بنى مرين فى المغرب الأقصى، وهاجم معه ديار هذه الإمارة أو المملكة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واقتسماها فيما بينهما. وصفا له الجو حتى وفاته سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأخذ يعنى بالحركتين العلمية والأدبية وازدهرت لعهده، كما عنى بشئون الزراعة والصناعة والتجارة، فازدهرت جميعا، ومما يدل على هذا الازدهار ما ذكره المؤرخون من أن عدد دكاكين العطارين وحدهم فى أيامه بلغ فى تونس سبعمائة دكان. وبويع بعده لابنه أبى حفص الثانى، وثار عليه أخوه أبوالعباس. وانتهز السلطان المرينى أبو الحسن فرصة هذه الفتن فاتجه فى جيش جرار إلى تونس سنة ٧٤٨ وفتك بسلطانها أبى حفص، واستقام له ملك المغرب الأوسط، والأدنى لمدة سنتين ونصف، غير أنه لم يحسن السياسة مع الأعراب كما كان يحسنها سلاطين تونس فثاروا عليه ونازلوه فى تونس وهزموه، وجاءه الخبر بأن ابنه أبا عنان ثار عليه فى مراكش، فعاد سريعا إلى عاصمته سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وعادت تونس للحفصيين، وتولى زمام الخلافة والحكم الفضل بن أبى بكر الحفصى، ودبَّر له الحاجب القديم الشرير ابن تافْراجِّين مؤامرة قُتل فيها، وتولى أخوه أبوإسحق إبراهيم سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م واتخذ ابن تافْراجِّين حاجباله، واضطربت عليه الأمور إلى أن توفى ابن تافْراجِّين سنة ٧٦٦ ولم يلبث أن توفى سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. واستولى على زمام الأمور فى تونس أبوالعباس أحمد الحفصى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٠م وهو من خيرة الحكام الحفصيين قمع الأعراب وأهل الفساد، واسترجع ما ضاع من الدولة فى أثناء الفتن مثل المهدية وسوسة وقابس وشط الجريد وجزيرة جربة، وساد الأمن والعدل فازدهرت البلاد. وفى أيامه غزا الجنويون والفرنسيون المهدية فى ثمانين قطعة، ودافعهم عنها جيشه وردهم على أعقابهم خاسرين، وتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٣م بعد ما أعاد لتونس ما كان لها من هيبة وقوة.

وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز، وفيه يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب: «هذا السلطان درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية، سار بعدل وتدبير وسياسة، فازدهرت إفريقية (التونسية) فى أيامه، وبلغت شأوا بعيدا فى الثروة والعمران». وقد بدأ عهده بإخضاع طرابلس وقابس وقفصة والجريد وبِسْكرة والصحراء، وكان بنوسليم قد أكثروا من الثورات فقلَّم أظفارهم، واستصرخوا سلطان فاس المرينى بالمغرب الأقصى فأرسل لهم جنودا من عنده وانضم إليهم أمير بجاية الحفصى ابن أبى زكريا، واتجهوا بجموعهم إلى تونس سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م فهزمهم وقتل الثائر الحفصى، وصمم على الثأر من السلطان المرينى،

فلما شارف عاصمته «فاس» أرسل إليه بالطاعة، فعفا عنه ونصحه أن يحكم بالعدل الذى لا تستقيم حياة الرعية بدونه. ورجع إلى عاصمته بعد أن دان له شمال إفريقية بالسمع والطاعة. وفى سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م احتلّ ملك أرجون جزيرة جربة وأنجدها ولاذ المحتلون بالفرار. وقد أنشأ طائفة من القلاع والمحارس لحماية السواحل والثغور، وبنى مارستانا للمرضى والعجزة، وأنشأ لنفسه قصرا بضاحية باردو فى تونس وأحاطه بحديقة بديعة وشيد فيه خلفاؤه الحفصيون والعثمانيون قصورا وحدائق أنيقة. ومن مآثره الجليلة تشييده مكتبة لطلاب العلم فى أحد أروقة جامع الزيتونة إلى الشمال وجمع لها آلافا من المجلدات وقفها عليها، وقد نحّى عن كاهل الشعب كثيرا من الضرائب الفادحة وبسط العدل والأمن، وتوفى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م.

وتولى بعده حفيده محمد المنتصر، وأنشأ مدرسة سميت المدرسة المنتصرية، وبنى زاوية الشيخ الصالح أحمد بن عروس وتوفى بعد عام وشهرين، وخلفه أخوه أبوعمرو عثمان سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م وظلّل العدل والأمن والاستقرار الرعية طوال حكمه الذى امتد إلى نحو أربعة وخمسين عاما إذ توفى سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م وقد قمع ثورة لعمه أبى الحسن فى قسنطينة وبجاية، وثارت عليه تلمسان وأعادها إلى طاعته، وكان أخوه المنتصر توفى ولم يكمل مدرسته المنتصرية فأكملها، وشيد لنفسه مدرسة كبيرة جعل فيها مسجدا للصلاة وغرفا للدراسة ومساكن للطلبة وسماطا يمتدّ كل يوم للفقراء، ووقف عليها ما يكفيها ويكفى مَنْ بها من العلماء والطلبة، وبنى ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن، وعُنى بإنشاء مكتبة عمومية فى أحد أروقة جامع الزيتونة، وأتمها بعده حفيده أبو عبدالله محمد، ونُسبت إليه فسميت العبدلية. ومن حسناته كتابة مصحف بخطّ يده فى عدة أسفار جعله بجانب نسخة البخارى التى وقفها أبوه فى جامع الزيتونة. وخلفه حفيده أبو زكريا، لمدة ست سنوات، ووليها بعده أخوه أبو عبدالله محمد الذى أتمّ المكتبة العمومية التى ابتدأها جده كما أسلفنا.

وكانت الدولة العثمانية قد عظم شأنها وأصبح لها أسطول ضخم ينافس الأسطول الإسبانى أقوى أساطيل أوربا حينذاك فى البحر المتوسط، وكان لها أميران من أمراء البحر هما الأخوان: عَرُّوج وخير الدين ويسميه الإفرنج بربروسة، وكانا يشتغلان بالقرصنة لحساب الدولة العثمانية، وتقدما إلى الأمير أبى عبد الله محمد الحفصى المذكور آنفا طالبين منه الموافقة على أن يتخذا من جزيرة جربة قاعدة لأعمالها البحرية ضد السفن الإسبانية لتخليص مدينة الجزائر من احتلال الإسبان على أن يكون له الخمس من غنائمهما، وقبل منهما هذا العرض، وظل ذلك مدة، وحدث أن استطاع عروج وخيرالدين تخليص مدينة الجزائر فعلا من يد الإسبان واتخذاها منذ سنة ٩١٦هـ/١٥١١م قاعدة لأعمالها البحرية واستغنيا عن جزيرة جربة التونسية. وكانت الدولة التونسية قد أخذت فى التدهور والضعف الشديد لعهد الأمير أبى عبد الله محمد، ورأى

ذلك خير الدين رأى العين. وتوفى الأمير أبو عبد الله سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م وخلفه ابنه الحسن فرأى خير الدين أن يزحف إلى تونس من الجزائر، ويضمها إلى الدولة العثمانية كما ضم إليها الجزائر، وزحف إليها فعلا واستولى عليها سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م فلجأ الأمير الحفصى الحسن إلى كارلوس الخامس ملك إسبانيا، فرآها فرصة عظيمة، وقدم معه سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م ودخل مع الحسن تونس عنوة، وفرَّ خير الدين بجنده إلى الجزائر وأذِنَ كارلوس لجنده بنهب تونس، فاستباحوا حماها، وأجلس الحسن على عرشها وأشرك معه فى الحكم أحد قواده، وعقد معاهدة معه بمقتضاها يتنازل للإسبان عن بعض المدن التونسية سوى ما اشترطه عليه من دفع أموال باهظة سنويا، وثار على الحسن ابنه أحمد حاكم عنابة (بونة) وانضم إليه كثيرون. وبعد قتال عنيف استولوا على تونس وسملوا عينى الحسن، ففقد بصره وفر إلى القيروان وتولى ابنه أحمد مكانه، واستولى الإسبان على المهدية والمنستير وجزيرة جربة والقيروان وكان أهل طرابلس قد استغاثوا بالدولة العثمانية فأزاحت عنهم فرسان مالطا كما ذكرنا فى حديثنا عن ليبيا. سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م بفضل أسطول درغوت الذى كان مرابطا أمام الجزائر، وقد استطاع أن يفتكَّ المهدية والقيروان وجربة والمنستير من أيدى الإسبان وأقام بكل منها حامية عثمانية ونائبا، وكان خيرالدين (بر باروسة) قد حرَّر الجزائر من الإسبان وأصبحت ولاية عثمانية، فأرسل الأمير أحمد الحفصى إلى واليها سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٠م أحد وزرائه يستنجد به ضد الإسبان، فانتهز الفرصة وقدم بجيش استولى به على تونس وأخذ البيعة فيها للسلطان العثمانى، فاستنجد الأمير الحفصى أحمد بالإسبان أعدائه فأعادوا الحماية وعرف الأمير أحمد خطأه، فترك الحكم لأخيه محمد سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م ورحل إلى صقلية وظل بها إلى مماته، وخضع محمد للحماية الإسبانية، وأشرك الإسبان فى الحكم الكُنْت سِرَبَلونى وازدادوا عسفا وعتوا، وتكررت استغاثة التونسيين بالدولة العثمانية، فأرسلت إليهم فى سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م قوة عثمانية كبيرة بقيادة الوزير سنان باشا، ففتك بالحامية الإسبانية فتكا ذريعا وطرد بقيتهم من البلاد إلى البحر المتوسط وما وراءه، وأرسل بالأمير الحفصى محمد إلى الأستانة فظل معتقلا بها إلى وفاته. وبذلك انتهت الدولة الحفصية بعد أن حكمت تونس نحو ثلاثمائة وخمسين عاما.

٦

العهد[1] العثمانى

كانت فاتحة أعمال سنان باشا بعد تحريره القطر التونسى أن أعلن إلحاقه بالدولة العثمانية، فأصبحت إحدى ولاياتها فى إفريقية الشمالية الممتدة من مصر إلى الجزائر، وأخذ يرسى النظام الذى سيقوم على أسسه الحكم فى تونس، فنظم الديوان الذى تجتمع فيه الهيئة الحاكمة للنظر فى شئون الجند والولاية، وقدّر الرواتب، ورتّب لجباية الأموال مشرفا باسم الباى، وجعل للبلاد حامية عسكرية عدادها أربعة آلاف جندى من الإنكشارية، وهم جند الدولة الذين كانت تربيهم تربية إسلامية عسكرية، وكانت تجلبهم من الأناضول ومن سباياها فى أوربا، وجعل على كل مائة منهم أميرا يسمى «الداى» وجعل عليهم رئيسا هو الأغا، وانتخب بعض الأعيان من البلاد لمشاركة الديوان فى الحكم، وضرب السكة باسمه. ولما أنهى كل هذه الترتيبات وخطب الخطباء فى تونس باسم السلطان العثمانى عاد إلى إستانبول دار دولته وحكومته. وعينت إستانبول لتونس واليا يلقب باشا، ولم يلبث الدايات أن شغبوا على الوالى سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م واتفق الرأى على اختيار أحدهم ليكون له الرأى النافذ فى شئون الإنكشارية، وسرعان ما أخذ هؤلاء الدايات يتسلطون على الحكم فى تونس ويعينون الوالى منهم وتضطر الدولة إلى قبول الواقع، وأول داى مهم منهم تولى شئون البلاد عثمان داى، وكان من خيرة الجند الذين رافقوا سنان باشا، وقد تولاها سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م فسنّ قوانين وطّد بها الأمن والعدل فى البلاد، وأشرف على القرصنة فى البحر المتوسط وعظم حظ تونس من غنائمها الوافرة. وفى أيامه سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م أخرج الإسبان من بقى بديارهم من الأندلسيين إلا من تنصر أو تظاهر بتنصره، فهاجر منهم آلاف إلى تونس، وأكرمهم عثمان داى، إذ أقطع ذوى اليسار منهم ما اختاروه من الأراضى ووزع على المحتاجين منهم الأموال والنفقات فانتشروا فى أرجاء البلاد وأخذوا يؤسسون فيها المدن والقرى وينشئون المصانع والمزارع والبساتين، وبذلك أحدثوا فى إقليم تونس نهضة عمرانية وصناعية وزراعية، ويقال إن

---

[1] انظر فى العهد العثمانى بتونس كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار والحلل السندسية فى الأخبار التونسية للوزير السراج وذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجه تحقيق الطاهر المعمورى (طبع تونس) ورحلتى العياشى والناصرى ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة تونس وما بها من مراجع تاريخية عن العصر التركى وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

المهاجرين منهم فى عهد عثمان داى كانوا يبلغون ثلاثين ألفا، ولم يلبث أن توفى سنة ١٠١٩هـ/١٦١١م ودفن بزاوية ابن عروس. وخلفه يوسف داى، واستمر نزول المهاجرين الأندلسيين فى البلاد وأقاموا عليها عمرانا وفيرا، وقد استرد جزيرة جربة من والى طرابلس العثمانى، واتفق على تسوية الحدود بين تونس والجزائر، ومن أعماله إنشاؤه جامعه الكبير ومدرسة سميت المدرسة اليوسفية نسبة إليه، وتنظيمه أسواق المتاجر، ونَشِط الأسطول التونسى لأيامه بقيادة قبطانه مراد، ويقال إنه غنم فى إحدى غاراته البحرية تسعين سفينة.

وتوفى يوسف داى سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م وخلفه القبطان مراد رئيس البحر، وفى أيامه تمتعت تونس بحياة رغدة آمنة فأحبه الناس، وعمل على أن تظل ولاية تونس فى بيته فتنازل عن الحكم لابنه حمودة، وأقرت الدولة العثمانية صنيعه، وبذلك أصبح حكم تونس وراثيا فى أسرته، وكان عهده وعهد ابنه حمودة عهدا هنيئا فى تونس واستطاعت كتيبة الصباحية أن تقضى على العصاة قضاء نهائيا فى عهد حمودة فأمنت السبل وعاش الناس فى اطمئنان سابغ أو غامر فى جميع أنحاء الإقليم، ومن أعماله بناء جامع بديع بجوار زاوية أحمد بن عروس وصومعة أنيقة لجامع الزيتونة ومارستان للمرضى، وعُنى بقصور الحفصيين فى باردو. واشتهرت زوجته عزيزة حفيدة الداى عثمان بأعمال بر كثيرة، من ذلك أنها حبست وقفا كبيرا على مارستان كان خاصا بمرضى الأعصاب، ولذلك سمى دار الدراويش، ومن الطريف أنها خصَّت قسما من الوقف بالعود والرباب والضاربين عليهما ترويحا لأولئك المرضى، وبذلك سبقت الطب الحديث إلى تبين تأثير الموسيقى فى مداواتهم وتهدئة أعصابهم. وتوفى حمودة المرادى سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م وخلفه ابنه مراد وكان حسن السيرة وقبض بقوة على زمام الأمور، وسمع بأن جنود الإنكشارية فى طرابلس قتلوا الوالى فذهب إليهم ونكَّل بهم، وأجلس ابنا له فى عمله. وتوفى سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٦م. وولى بعده خلف سيء شاع فى أيامهم البغى والظلم، وتنازعوا فى الاستيلاء على الحكم واستعان بعضهم بالجزائر، ودخلت جنودها تونس غير مرة، مما جعل الداى إبراهيم الشريف يفتك بآخر أمرائهم سنة ١١١٤هـ/١٧٠٣م. وبذلك انقرضت الدولة المرادية، وعاود الجزائريون الكرة على البلاد التونسية، وهزموا إبراهيم الشريف.

وجزع أهل الحل والعقد فى تونس من الشيوخ وغيرهم، واتفقت كلمتهم على إسناد الدولة للباى حسين بن على وكان قد تقلد وظائف حربيَّة وإدارية مختلفة للأسرة المرادية، ولم يجد بدا من النزول على رأيهم وإرادتهم. وفرح به أهل تونس وبايعوه فى ربيع الأول سنة ١١١٧هـ/يولية ١٧٠٥م. وبدأ أعماله بإصلاح سور تونس وتحصين قلاعها، ولم يلبث الجيش الجزائرى أن خيَّم بالقرب من تونس فدارت الحرب وثبت التونسيون، وتقهقر الجزائريون إلى بلادهم. وأخذ الإقليم التونسى يعيش فى أيامه حياة رغدة آمنة وانتعشت المزارع والمتاجر والمصانع، وأخذ يعنى بإنشاء المدارس، فأنشأ فى تونس مدرستين كما أنشأ مدرسة فى كل من

القيروان وسوسة وصفاقس ونفطة، واتخذ قصر باردو مقرا لحكومته وبنى به قصرا ومسجدا. ورضيت عنه الدولة العثمانية فجعلت ولاية تونس وراثية فى أسرته، ولم يكن له ولد فى أول أمره فتبنى ابن أخيه على بن محمد، وعُنى بتربيته وجعله وليا لعهده ثم رزق بابنيه محمد وعلى، فنقل ولاية العهد منه إلى ابنه محمد الرشيد وجلب لعلى ابن أخيه من الدولة العثمانية لقب الباشا، ولكن عليا ظل غاضبا، ووصل إلى الجزائر، فشجعه حاكمها العثمانى على مفاضبة عمه وأمده بجيش جرار، زحف به إلى الإقليم التونسى والتقى بجيش لعمه وانتصر عليه سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٥م ودخل تونس وتقلد شعار الولاية، وأصبح تابعا لوالى الجزائر العثمانى يؤدى إليه الخراج، أما عمه حسين باى فإنه نجا مع ابنيه إلى القيروان وأخذ يعد جيشا للقاء ابن أخيه حتى إذا كانت سنة ١١٥٣هـ/١٧٤١م التقى الجيشان جنوبى القيروان ودارت الدوائر على جيش حسين وقتل فى المعركة. وأصبح على واليا لتونس دون منازع. وكان البحارة الجنويون يقيمون فى مرسى طبرقة بالشمال الغربى للقطر التونسى، فبعث ابنه يونس على رأس جيش شرَّدهم كما شرد فرنسيين فى قرية بجوارهم أقاموا بها مراكز تجارية. وحدث شقاق بين الابن وأبيه، وتحاربا ودارت الدوائر على ابنه. وكان على باشا متعمقا فى الدراسات اللغوية، وله شرح كبير على كتاب التسهيل لابن مالك فى النحو، وجمع فى قصر باردو مكتبة نفيسة، وأنشأ أربع مدارس بعاصمته: الباشية نسبة إليه والسليمانية ومدرستى بير الحجاز، وكان راعيا للأدباء والشعراء من أمثال على الغراب ومحمد الورْغى. وكان ابنا عمه حسين قد فرَّا بعد مقتل أبيهما إلى الجزائر مستنجدين بواليها التركى، وظلا هناك ستة عشر عاما استطاعا فى نهايتها أن يقنعا الوالى التركى بأن يرسل معهما جيشا لنصرتهما على ابن عمهما وأخذهما بثأرهما، وأرسل معهما جيشا جرارا، حاصرا به تونس، ودافع ابن عمهما على دفاعا مستميتا سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م وخرَّ صريعا فى المعركة.

وتربَّع ابن عمه محمد الرشيد على كرسىِّ تونس، وكان مولعا بالموسيقى والتلحين والضرب على مختلف الآلات، فترك تدبير شئون الدولة لأخيه على، ولم يلبث أن توفى سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م وخلفه أخوه على واهتم بتعضيد التجارة والزراعة والصناعة، وانتشر فى القطر الأمن. وأنشأ فى تونس محكمة شرعية ومدرسة لقبت بالجديدة، كما أنشأ تكية للضعاف والعجزة من الرجال والنساء، ولما تم بناؤها وأخذت تقدم الغذاء للمحتاجين قاد إليها جماعة من العُمْى فاقدى البصر وجلس معهم وأطعمهم بيده. وحدث فى أوائل حكمه سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م أن ألحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بممتلكاتها فلم تصادق الحكومة التونسية على هذا الإلحاق ولا اعترفت بالجنسية الفرنسية لأسْرَى تلك الجزيرة ممن حملهم إلى تونس أمراء البحر المتوسط وقراصنتها، وأعلنت فرنسا الحرب على تونس وأطلق أسطولها قنابل على ثغور المنستير وسوسه وحلق الوادى وبنزرت وبعد اتصالات أُبْرِم الصلح بين فرنسا وتونس

بياردو سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. ولما تقدمت به السن ووهن منه الجسم أشرك ابنه حمودة معه فى الحكم، وكاتب الدولة العثمانية فى ذلك فوافقت، وتوفى سنة ١١٩٦هـ/١٧٨٢م. وخلفه ابنه حمودة، وكان أبوه قد عُنى بتربيته وإعداده لإدارة الحكم والدولة إدارة سديدة وفى عهده استأجر بحَّارة تونسيون من بعض بحارة البندقية سفينة لحمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقس، وعرَّج بهم البحارة على مالطة، فقبض واليها على التونسيين وزجَّ بهم فى السجن بحجة ظهور وباء فيهم وأمر بإحراق ما معهم من السِّلع. وعاد التجار التونسيون إلى العاصمة تونس، وتظلموا لحمودة، فطلب من نائب جمهورية البندقية أن تؤدى جمهوريته قيمة ما ضاع على التجار التونسيين بمقتضى القانون التجارى، وأفضى هذا النزاع إلى إعلان تونس الحرب على البندقية سنة ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م وجهزت لذلك أسطولها، ورضيت البندقية بدفع الغرامة وانعقد الصلح بين الحكومتين. وفى سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م وفد على تونس والى طرابلس على القرمانلى فرارا من ثورة لعلى برغل فيها، فأحسن استقباله حموده، وكان على برغل قد استولى أيضا على جزيرة جربة التونسية، فأرسل إليها حمودة الأسطول التونسى فاستردها بمجرد ظهوره أمامها، وأرسل أحد قواده على رأس جيش مع والى طرابلس فدحر على برغل وأقرَّ عليها على القرمانلى، وعاد الجيش ظافرا منصورا. ونشبت الحرب بينه وبين الجزائر سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٧م وكانت لهم الجولة الأولى وأعاد حمودة الكرَّة وانتصر جيشه انتصارا ساحقا. وكل ذلك يدل على أن تونس حظيت فى عهد حمودة بمكانة دولية كبيرة.

وقد عم فيها الرخاء والأمن ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة بها نشاطا كبيرا إلى نهاية حكمه سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م وكان معاصرا لنزول الحملة الفرنسية مصر وانتصار المصريين عليها انتصارا حاسما سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م وهو انتصار هز العرب فى جميع بلدانهم هزة عنيفة جعلتهم يستيقظون من سباتهم الطويل ويستشرفون عصرهم الحديث مستشعرين فيه كيانهم وهويّتهم العربية الإسلامية، ونرى الباى حمودة يستشعر - بقوة - شخصية تونس ويحاول - جادًّا - أن يعيد إليها قواها التى طمرها العثمانيون حقبا متوالية، فيأمر بتجنيد التونسيين وإشراكهم فى الجيش والحكم مع الترك أو الحامية التركية، وضرب للتونسيين بنفسه مثلا وطنيا كريما فى ملبسه ومطعمه، فلم يكن يلبس إلا من منسوجات تونس ولم يكن يطعم إلا من خيراتها وطيباتها متباهيا بذلك مفاخرا، وبذلك ابتدأ الداى حموده ببلده العصر الحديث فى القرن التاسع عشر بدءًا قويا سديدا.

الفصل الثانى

المجتمع التونسى

١

عناصر[1] السكان

البربر هم العنصر الأول الذى سكن القطر التونسى وعمر أرضه أجيالاً وقرونا قبل أن ينزله عناصر جدد، واختلف المؤرخون فى أصلهم ونسبهم، فقيل هم إفريقيون أصلا وموطنا وقيل بل هم آسيويون، فمن قائل إن أصلهم من اليمن، ومن قائل إن أصلهم من العماليق انتقلوا من ديار الشام إلى إفريقية، ومن قائل إنهم أخلاط من كنعان والعماليق، ومن قائل إنهم من عرب الشمال من ولد قيس بن عيلان، ومن قائل إن جدهم مازيغ كان أخا لفلسطين وأن أبناءه بارحوا الشام واخترقوا مصر إلى إفريقية، ومازيغ كان ابن كنعان بن حام، وهم بذلك حاميون لا ساميون، ويعلق ابن خلدون على هذه الآراء وما يماثلها فى بيان نسب البربر بأنها «أحاديث خرافة إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض (المغربية) لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ولا يُحْتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب». ويضيف ابن خلدون إلى ذلك قوله «إن نسابة البربر يزعمون فى بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة يزعمون أنها من حمير، ومثل هوارة يزعمون أنها من كندة ومثل زناتة يزعمون أنها من بقايا التبابعة.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذى شهدت به الرطانة والعجمة (فى ألسنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب». وابن خلدون محق فى وصف ذلك كله بأنه مزاعم وترهات، إذ لا حاجة للبربر بذلك كله، إذ هم شعب عريق أصيل مضاه لشعوب العالم العريقة الأصيلة مثل

---

(١) انظر فى عناصر السكان بتونس الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون، وكتاب ورقات عن الحضارة بإفريقية للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب: الجزء الثالث، والمغرب الكبير لرشيد الناضورى: الجزء الأول، كذلك تاريخ المغرب الكبير لدبوز وبرنشفيك ٣١٣/١ وما بعدها.

العرب والمصريين والفرس والروم. أما تسميتهم باسم البربر فالمظنون أن الرومان - وربما اليونان - هم الذين أطلقوه عليهم أخذا من الكلمة الإغريقية Barbarus ومعناها الأجنبي الذى يرطن بلغة غير مفهومة، إذ كانت لغة البربر - بالنسبة للرومان واليونان - أصواتاً مبهمة، والكلمة بهذا المعنى الإغريقى تلتقى بمعنى البربرة فى العربية وهو التمتمة بالكلام بحيث لا يفهمه السامع.

وظل البربر لا يتصلون بالشعوب القديمة آماداً طويلة حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد أو قبله أو بعده بقليل كان فينيقيون من سكان لبنان - وكانوا شعبًا ملاحيًا - يجوبون الساحل الإفريقى بحثًا عن مواضع يتبادلون فيها سلَعهم وعروضهم مع البربر، وأعجبتهم تونس، فنزلوا بها، ومع مرِّ عشرات السنين اتخذوا لأنفسهم فيها موطنا ومركزًا لتجارتهم، إذ أسسوا فيها مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية، واستوطنها كثير من أسرهم الفينيقية، وأنشأوا بها دولة وجيشا منهم ومن البربر، وقد امتزجوا بهم وصاهروهم وعلموهم الملاحة والتجارة وتبادل السلع وفلاحة الأرض وغرس الأشجار، ونقلت إليهم قوافلهم المتعمقة فى السودان كثيرًا من الزنوج، وفسحوا لبعض اليهود فى النزول بمدينتهم. وبذلك أصبح يوجد فيها لعهدهم أربعة عناصر من السكان: عنصر بربرى من سكانها الأولين وعنصر فينيقى وعنصر زنجى وعنصر يهودى، ويدور الزمن وتستولى روما على قرطاجة، وتبنى من أنقاضها قرطاجة جديدة، وتستوطنها أُسَرٌ رومانية كثيرة، وتضيف القوافل زنوجًا جدًّا كثيرين إلى البلاد، ويفد عليها منذ سنة ٧٠ للميلاد بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس أسر يهودية كثيرة. ويدور الزمن دورة ثانية وتستولى جموع الواندال على تونس سنة ٤٣٩ للميلاد، ويظلون بها حتى سنة ٥٣٤ مضيفين إلى البلاد عنصرًا ألمانيا جديدًا، ويخلفهم البيزنطيون حتى سنة ٦٤٧ مضيفين بدورهم العنصر البيزنطى الإغريقى.

ثم يكون الفتح العربى، وتظل تَقْدُمُ إلى القطر التونسى جيوش لإكمال الفتح أو للقضاء على بعض الثورات طوال القرن الأول الهجرى، وتخمد ثورات البربر ضد الإسلام والعرب، وتشتعل فى القرن الثانى ثورات الخوارج من البربر. وتظل الدولتان الأموية والعباسية ترسلان الجيوش لإخمادها، وكثير من جنود هذه الجيوش استقر فى إفريقية التونسية وأصبحت مستقرا له منذ أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان فى سنة ٥٠هـ/٦٧٠م فقد سكنها بعض الجنود الفاتحين وأسرهم واتخذوها موطنا لهم ومقرا. وأخذ كثير من جنود هذه الجيوش يسكن فى بعض بلدان تونس عاملا على نشر الإسلام والعربية. وكانت هذه الجيوش تضم عناصر من العرب ومن البلاد الإسلامية المفتوحة: إيران وسكان الرافدين فى العراق والشام ومصر وكل هذه العناصر أخذت تمتزج بالبربر فى تونس امتزاجا سريعًا بحكم ما يجمع بينهم من الدين واللغة،

ولم تشارك مصر فى هذا الامتزاج بمن كان ينتظم منها فى الجيوش العربية فحسب، بل شاركت أيضا فى عهد حسان بن النعمان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م بألف أسرة قبطية طلبها للمساعدة فى تأسيس دار صناعة لسفن أسطوله الذى سيحمى به سواحلها ويغزو جزر البحر المتوسط، وجاءته ووزَّعها بين تونس ورادس وقرطاجة، ومنذ إبراهيم الأغلب يستكثر الأغالبة فى الحرس من الصقالبة، وأيضا من الزنوج، وكانوا لعهد إبراهيم أكثر من خمسة آلاف. ولكثرة خيرات تونس وطيباتها وحسن معاملة الإسلام للنصارى واليهود ظل ينزلها منها كثيرون.

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى تدخل القطر التونسى جموع الهجرة الأعرابية التى تحدثنا عنها فى الفصل الماضى، والتى كانت تبلغ - فيما يقال - نحو نصف مليون، ولابد أن جماهير كبيرة منهم ألقت عصاها بتونس وبلدانها وسهولها وزروعها حتى لقد أصبحت بلدان مختلفة على الساحل وفى الداخل بأيديهم. وحقا سبَّبت هذه الهجرة الكبيرة غير قليل من الاضطراب فى البلاد والفوضى، ولكن ربُّ نقمة سببت نعمة، فإن هذه الهجرة أتمت بسرعة تعريب البربر والشمال الإفريقى المغربى جميعه، فإن من كانوا يستقرون فى البلاد المغربية من الجيوش العربية الغازية فى القرنين الأولين الهجريين كانوا قلة بالقياس إلى جموع البربر العديدة، ولذلك كان تعرب البربر بطيئا، حتى إذا حدثت هذه الهجرة تعرب البربر نهائيا وأصبحوا شعبا عربيا، إذ امتزجوا بالعرب معيشة ومصاهرة، حتى أصبح لا يوجد فرق بين عربى وبربرى، ويصور ذلك ابن خلدون فى قبيلة هوارة قائلا: إنهم صاروا فى عِداد الناجعة (الرعاة) بنى سليم فى اللغة والزىّ وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب». وهكذا الأعراب مع البربر فى كل أرجاء المغرب. وفى الحق أن هذه الهجرة الأعرابية الضخمة لم تكن عنصرًا جديدًا أضيف إلى ما كان بتونس من عناصر، بل كانت شعبا أضيف إلى شعب واندمج فيه وأصبح الشعبان شعبًا واحدًا. ويستولى النورمان على صقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م.

ويعود إلى تونس كثرة من أبنائها الصقليين ولا تكاد تؤسس الدولة الحفصية حتى تحدث نكبة الأندلس الكبرى نكبة سقوط مدنهم فى حجر الإسبان النصارى واحدة إثر أخرى، ويأخذ الأندلسيون فى الهجرة إلى المغرب الأقصى، ويتجه كثيرون منهم إلى تونس، ويرحب بهم مؤسس الدولة أبو زكريا وابنه المستنصر، ويفسحان لعلمائهم وأدبائهم فى الحركتين الأدبية والعلمية، كما يفسحان للزراع وأصحاب الصناعات منهم، وتأخذ أعدادهم فى التزايد طوال القرن السابع الهجرى، وخاصة مع سقوط البلدان الأندلسية مثل إشبيلية وبلنسية، وكان كثيرون من هؤلاء الأندلسيين المهاجرين يرجعون إلى أصول عربية وبربرية، وكان بينهم من يرجعون إلى أصول

مصرية أو شامية أو إيرانية، ممن قدم آباؤهم من آسيا مع الجيوش الفاتحة للأندلس كما كان بينهم مسلمون يرجعون إلى أصول إيبيرية وقوطية ووندالية من سكان إسبانيا القدماء، وكثر نزول هؤلاء المهاجرين الأندلسيين بتونس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويقال إنهم بلغوا حتى هذا التاريخ نحو مائة ألف أو يزيدون. وفي سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م نفى الإسبان بقية من كان بها من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بذلك، وقدم إلى تونس منهم في سنة واحدة لعهد عثمان داي نحو ثلاثين ألفا، ورحّب بهم كما مر بنا في الفصل الماضي، وهو ترحيب لا يستحق شكره من أجله وحده بل يستحقه أيضًا قبله التونسيون الذين أتاحوا لهم المعيشة الكريمة بينهم في المدن، حتى كان لميسوريهم في تونس العاصمة حيان: حومة الأندلس وزقاق الأندلس، وتأسستْ للعمال والصناع قرى ومراكز بالقرب من العاصمة زاولوا فيها صناعاتهم من المنسوجات الحريرية وغيرها، وأنزل القرويون منهم في مناطق خصبة غزيرة المياه شمالا على ضفاف نهر مجردة. ومن المؤكد أن الإسبان الذين احتلوا تونس نحو أربعين عاما (٩٤٣-٩٨١هـ) لم يخلفوا وراءهم أسرا إسبانية حين طردهم سنان باشا إلى البحر المتوسط وما وراءه.

وكان الولاة في العهد العثماني يتخذون لهم حاميات عسكرية من الإنكشارية، وكانت تضم تركا من الأناضول وأجناسًا متنوعة من مختلف أنحاء الدولة العثمانية وأسرى جيوشها من الدول الأوروبية وكانت تربيهم جميعا تربية إسلامية عسكرية، وترسل ببضعة آلاف منهم إلى تونس وبالمثل إلى بعض البلاد العربية، وكانوا يتزوجون من تونسيات فربطتهم بتونس صلات عائلية وثيقة. واتسعت حركة القرصنة حينئذ لسببين: حذق العثمانيين بالبحارة، وقد استطاع خير الدين (بربروسة) وعروج وأمثالها أن يجعلوا البحر المتوسط في القرن العاشر الهجرى بحرًا عثمانيا، والسبب الثاني غيظ الأندلسيين المهاجرين من الإسبان والأوربيين الذين كانوا يساعدونهم في الحروب، فكانوا يوغرون صدور البحارة الترك عليهم ليأسروهم ويسترقوهم، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر بالآلاف أحيانا، وكان كثيرون منهم: إسبانًا وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ونورمانا يعتنقون الإسلام وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويكوّنون أسرًا ويندمجون في أهل البلاد. وكانوا يتولون في تونس أحيانًا مناصب عليا. وهذه العناصر الإفريقية والآسيوية والأوربية المفرطة في الكثرة، منذ أيام الفينيقيين إلى هذا العصر لها دلالتان: دلالة أولى على وفرة طيبات الرزق التي عُرفت بها تونس والتي جعلت كثيرًا من الشعوب تتسابق على النزول بها وأحيانًا على المكث بها حقبة أو حقبًا من الزمن ودلالة ثانية هي ما حملته تلك الشعوب إلى تونس من حضارات كان لها غير قليل من التأثير في حياتها مع الاحتفاظ دائمًا بما لها من ذاتية وشخصية.

٢

المعيشة[1]

عُنى القطر التونسى - على مر الأزمنة بالزراعة، وقد أولاها الفينيقيون والقرطاجيون اهتمامًا كبيرًا، إذ رأوها تنتج وفرة من حبوب وبقول متنوعة، وقد حملوا إليها من موطنهم شجرة الزيتون، وربما أيضا الكروم والتين واللوز، ويدل - فى وضوح - على اهتمامهم بالزراعة أن أقدم كتاب عالمى فيها وفى غرس الأشجار ألفه عالم قرطاجى يسمى ماجن Magon وأن الرومان نقلوا عن قرطاجة هذا الكنز الزراعى النفيس إلى لغتهم حين استولوا عليها سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وعُنوا - مثل القرطاجيين - بالزراعة وحفروا لها القنوات لجلب المياه، وأقاموا بها الصهاريج والخزانات والأحواض، مما لاتزال شواهده قائمة فى إفريقية التونسية. وظل أهلها فى العهود الإسلامية يعنون بالزراعة، فهى معاشهم، ومنها قوتهم وزادهم. وقد عُنى بها الأغالبة عناية كبيرة، ومما يدل على ذلك أنهم كوَّنوا لرى الأراضى وجلب المياه وتخزينها فى الصهاريج وتوزيعها فى السقايات إدارة كبيرة، عيَّنوا لها مشرفا سموه «صاحب المياه» واستغلوا فى ذلك كل ما خلَّفه القرطاجيون والرومان والبيزنطيون فى البلاد مع ما أضافوه من قنوات ودواليب وأحواض وخزَّانات جديدة، مما جعل البلاد التونسية تلقى فى حجورهم بكل ما تستطيع من طيبات الثمار، وتزدهر فيها الزراعة وغراسة الأشجار ازدهارًا لعلها لم يبلغاه فى عصر من العصور، وأخذت البلاد تعيش فى بُلَهْنِية من العيش، وأخذ الأغالبة يجنون منها أموالا طائلة، ساعدتهم مساعدة عظيمة فى بناء أسطولهم الذى فتحوا به صقلية ومالطة، كما ساعدتهم لا فى بناء قصر أو قصور فحسب، بل فى بناء مدينة هى العباسية ومدينة ثانية هى رقادة التى زارها أبوعبيد البكرى، فقال فى كتابه المسالك: «ليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرق نسيمًا ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، ويذكرون أن من دخلها لا يزال ضاحكًا مستبشرًا من غير سبب»: مدينتان كبيرتان بنتهما دولة الأغالبة التى أظلت البلاد التونسية قرنا من الزمان بفضل ما جنت من خيراتها. وإذا تركنا شمالى تونس إلى الداخل لقيتنا مدن فى السباسب والواحات كثيرًا ما نوَّه بها جغرافيو العرب ورحَّالتهم لما بها من البساتين المثمرة والكروم والمشمش والتين

---

(١) راجع فى المعيشة المسالك لأبى عبيد البكرى ورحلة التجانى والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان والمؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس لابن أبى دينار وكتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

واللوز والفستق، ويقولون إن بها غدرانًا وآبارًا كثيرة. وبعض الجهات - وخاصة فى النواحى الشرقية - مفازات شاسعة تنمو فيها الأعشاب والحشائش وترعاها قطعان الغنم والأبقار والإبل والخيل.

وظلت الزراعة مزدهرة فى عصر الدولة الصنهاجية حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، وأصابها غير قليل من الانتكاس مع الهجرة الأعرابية، حتى إذا كانت الدولة الحفصية وأخذ يعم الأمن والاستقرار فى البلاد بعد حركات قراقوش وابنى غانية عادت الزراعة فى البلاد إلى الازدهار بفضل عناية مؤسس الدولة أبى زكريا بشئون الرى وعناية ابنه المستنصر، ويقول ابن أبى دينار إنه أكمل بناء الحنايا والقنوات التى كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجة فى الزمن الأول (الأيام القرطاجيين والرومان) وأصلح ما فسد منها، وأجرى الماء عليها من عيون جبل زغوان فى الجنوب الغربى إلى تونس وجناتها وزروعها وسقاياتها وجامعها الكبير: جامع الزيتونة. وينوه الحسن الوزان بما شاهد حول تونس فى القرن العاشر الهجرى من زروع وبساتين قائلا: «توجد فى خارج تونس مزارع غاية فى الإبداع تنتج فواكه رائعة بكميات قليلة ولكنها فى غاية الجودة، وهناك عدد لا يُحْصَى من البساتين المزروعة بالبرتقال والليمون، وبالورود وبزهور جميلة أخرى، وفى المكان الذى يُدْعَى باردو على الخصوص توجد البساتين والقصور الفخمة». وينوه ابن أبى دينار فى زمنه أوائل القرن الحادى عشر الهجرى بجنات تونس وبساتينها، ويقول إن من رأى ثمارها وفواكهها يعجزه الوصف إذ لا تدخل تحت حصر» ويقول أيضا: «يدخل إليها فى فصل الخريف أزيد من ألف حمل من العنب بخلاف ما يباع معه من تين وبطيخ وغيرهما». وبدون ريب كان للمهاجرين الأندلسيين إلى تونس فضل كبير فى هذا الازدهار منذ عصر الدولة الحفصية، وازدادت الزراعة ازدهارًا حين ازداد المهاجرون منهم زيادة مفرطة فى سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م وما بعدها لعهد الداى عثمان والداى يوسف كما مر بنا فى الفصل الماضى، ويقال إن عددهم بلغ حينذاك أكثر من مائة ألف، وقد استقر كثيرون منهم - كما أسلفنا - فى المناطق الخصبة الشمالية حول نهر مجردة، ونزل بعض منهم فى أنحاء قليلة المياه فاستخرجوها عن طريق طواحين الريح، ونزل بعضهم فى أماكن صعبة بسفوح الجبال، واستطاعوا - بجدهم - أن يحيلوا كل ما نزلوا فيه واستقروا به إلى جنات وزروع وقنوات وعيون. وتلقانا أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والفستق فى كل مكان كما تلقانا أشجار النخيل، وخاصة فى الواحات ومنطقة شط الجريد. ويبدو أن الرومان تغلغلوا مع القوافل التجارية إلى هذه المنطقة وظل كثيرون منهم فيها بعد الإسلام لا قرنا بل قرونا متطاولة، حتى لنرى التجانى الذى زارها فى أوائل القرن الثامن الهجرى يقول فى زيارته لها التى سجلها فى رحلته: «إن أهل توزر (غربى شط الجريد) وأكثر بلاد الجريد من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامى» ويقول إن بعضهم كان لا يزال يتكلم اللاتينية.

وعرف القطر التونسى مختلف الصناعات – وخاصة اليدوية – من قديم كالنجارة والحدادة وعصر الزيتون واستخراج المعادن. وكان بها معادن كثيرة مثل الرصاص والحديد والزنك والزئبق والفضة والذهب أتاحت للقطر موارد مالية غير قليلة، حتى لنرى الأغالبة يخصونها بإدارة يسندونها إلى موظف سموه: «صاحب المعادن» واشتهرت «قرطاجنة» فى غربى القطر بما كان يستخرج فيها من معدن الحديد، مما هيأ لصناعات حديدية مختلفة مثل الأقفال والمفاتيح والأبواب والنوافذ، واشتهر «طُرَّة» من إقليم نفزاوة فى الجنوب الشرقى للقطر بمعدن الكارتز، وهُيأ بدوره لصناعات زجاجية وبلورية. ومن أهم الصناعات صناعة الخزف مطليا وغير مطلى وما يتصل بها من الآنية والأباريق والكيزان والمواعين، ويقول ابن أبى دينار فى فواتح كتابه «المؤنس»: «تُصنع بتونس آنية للماء من خزف شديد البياض فى نهاية الرقة والشفافية لايُعلم له نظير فى سائر الأقطار». ومن الصناعات صناعة دبغ الجلود وكان ينتفع بها فى صناعة السروج. ومن الصناعات عصر الزيتون فى معاصر كثيرة معدة له، وتونس تشتهر بهذه الصناعة منذ عصر الرومان، وكانوا يرسلونه إلى روما فى مواعين كبيرة، ويدل على كثرة معاصره فى الحقب الاسلامية ما يذكره ابن أبى دينار وهو أن أبا يزيد مخلد بن كيداد – حين زحف على إفريقية التونسية فى عهد الخليفة العبيدى القائم بأمر الله ودخل القيروان وتونس – نهب اثنى عشر ألف جابية زيتا. ويقول الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا الذى سجَّل فيه زيارته لتونس: «على مسافة أربعة إلى ستة أميال حول تونس تنتشر مصانع عديدة لإنتاج الزيت لا لتموين مدينة تونس فحسب، بل للتصدير كذلك، ويُصنع من حطب الزيتون فحم يستخدم فى المدينة، ويستعمل جزء منه فى التدفئة».

وكانت صناعات المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والكتانية منتشرة فى تونس وغيرها من بلاد القطر التونسى، ويقول أبو عبيد البكرى فى كتابه المسالك عن النسيج بمدينة سوسة: «الحياكة بها كثيرة ويُغزَل بها غزل تباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب». وينوِّه الحسن الوزان فى القرن العاشر الهجرى بما كان من النسيج فى تونس وصناعته قائلا: «غالبية سكان تونس من الحاكة (النساجين) وتصنع فيها كمية كبيرة من الأقمشة المتقنة كل الإتقان والتى تباع فى كل إفريقية، وهى مرتفعة السعر كثيرا لأنها ناعمة ومتينة، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن النساء يتقنَّ مهنة الغزل كل الإتقان» ويرجع بنا الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى مدينة رقادة فى عهد الأغالبة قائلا: «كان بها دار الطراز وكانت مصنعا تنسج فيه الأكسية من الحرير والقطن والصوف، وكذلك العمائم والأحزمة إلى غير ذلك من الخلع التى يهبها الأمير (الأغلبى) فى الأعياد وعند تقليد المناصب لأعيان الأمة ورجالات الدولة، وكانت تُكْتَب على هذه الخلع كتابات موشية بخيوط الحرير والذهب، وهى تقوم مقام الأوسمة فى عصرنا الحديث».

ولابد أن الصناع كانوا يوشّون ثياب النساء بهذه الخيوط وبخيوط أُخْرَى فضية لتكمل زينتهن بمالها من لمعان وبريق.

وكان الصانع التونسى يعنى بزركشة ماينسج من السجاجيد وخاصة للأمراء وأعيان البلاد، وكان يرسم عليها بعض الحيوانات أو بعض البلاد، ويذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أنه صُنع للمعز الفاطمى قبل تحوله إلى القاهرة مقطع كبير رائع من الحرير الأزرق الملوّن المنسوج بالذهب وقد رُسمت فيه صورة الأرض بكل ماتشتمل عليه من الأقاليم والمدن والأنهار والجبال وصورة الحرمين الشريفين. ولعل فى عرضنا لذلك كله ما يدل على الرقى الحضارى الذى نعمت به تونس قبل العصر الحديث، وكانت الأخشاب فيها وافرة مما هيأ للتفنن فى صناعة الأثاث، كما هيأ الزجاج والخزف للتفنن فى صناعة المواعين والحريرُ والصوف والقطن والكتان للتفنن فى الرياش وكل ما يلزم القصور والمنازل من فنون الزينة والزخرف .

ومن الصناعات التى كانت مزدهرة بتونس الوراقة أو صناعة الورق والكتابة فيه، ومعروف أن بغداد لم تعرفه إلا فى عصر الرشيد، وقبل ذلك كانت الكتابة فى الرق أو الجلد المهيأ للكتابة وكذلك فى البردى الذى كانت تستخدمه مصر منذ عصور الفراعنة، وهو نبات كانت تضم أوراقه الطويلة بعضها إلى بعض بطريقة خاصة، فيصبح صالحا للكتابة فيه. وكان القطر التونسى يجلب النوعين من المشرق وكان اعتماده الغالب على الرّقّ وجَلَبَ معهما الأقلام والمداد، وتعرّف على صنعهما، حتى إذا فتحت صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٨م وكان بها بردى كثير أخذوا - كما يقول ابن حوقل - يَفْتلون أكثره حبالا للسفن» و أقله كان يُصْنع طوامير أو صحفا لدواوين الأمير الأغلبى ومَنْ تلاه من حكام القطر التونسى، وأخذ الشعب التونسى يحسن صناعة الورق من الكتان ويسمى الكاغد نفس اسمه الذى نقله العباسيون مع الورق من الصين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن صناعته انتقلت من تونس إلى صقلية وعبرت صناعته مضيق مسّينا إلى سالِرْنو فنابولى، فألمانيا حيث استطاع جوتنبرج بعد قليل اختراع الطباعة، وبدهى أنه لولا الورق ما اخترعت المطبعة. ومن الممكن أن تكون أوربا عرفت الورق ونقلت صناعته عن الأندلس، غير أن الأستاذ عبد الوهاب يرجح معرفتها به عن طريق تونس وصقلية.

ومنذ فتح العرب القطر التونسى تُبْنى فيه المنشآت العمرانية وتشاد، ولا يشاد بناء مفرد أو قصر مفرد، بل تشاد مدن، بدأ ذلك عقبة بن نافع ببناء القيروان، وبنى تونس بعده بقليل حسان ابن النعمان، وبنى الأغالبة العباسية ورقّادة، وأحالوا قرية سوسة على الساحل مدينة وثغرًا ضخما، وبنى عبيد الله المهدى مدينة المهدية وجعلها دارا لحكمه وثغرًا لأسطوله. وأحال حفيده المنصور قرية صبرة بجوار القيروان إلى مدينة وسماها «المنصورية» نسبة إليه. وكانت المدينة

من تلك المدن حين تُبنى لا يُقْتَصر فيها على قصر للحاكم، بل كانت تبنى فيها قصور ومساكن لآل بيته ولجنده وحاشيته ودواوينه، ويبنى فيها جامع كبير ويخطط شارعان متعامدان يقام عليهما حوانيت للصناع والتجار ومساكنهم، فهى مدينة كاملة. وكانت هذه المنشآت - بل المدن - العمرانية تحتاج إلى مالا يكاد يحصى من العمال والصناع، إذ لابد لها ممن يقطعون الأحجار ومَنْ يقطعون الرخام وينحتونه أعمدة للقصور وكذلك للمحارس والحصون التى كانت تشاد على طول الساحل التونسى باسم رباطات.

وكان يُبنى حول كل بلدة جديدة -وقد بُنِى حول بعض البلدان القديمة- سور ضخم لكى يحميها من الأعداء حين يهاجمونها وتقام فيه أبواب كبيرة مصفحة بالحديد. ولم يكن العمران حينئذ مدنا ومعاقل وحصونا فحسب، بل كان أيضا صهاريج وأحواضا كبرى لسقاية الزروع والمساجد والشعب. وكل ذلك استلزم صناعات كثيرة من حدادة ونجارة وغير نجارة وحدادة سوى النقاشة واستخدام الفُسَيْفساء (الموزايكو) فى حيطان الغرف والسقوف والأروقة المختلفة الرسوم بما يتراءى فيها من الأزهار والرياحين والمناظر البديعة، وزخرفوا بالفسيفساء أحيانا صهاريج الماء وأحواضه. وكان الحكام يبتون لأنفسهم قصورا شامخة على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى من تشييد أبى فارس لقصره الضخم فى إحدى ضواحى تونس المسماة باردو، وتوالت فى الضاحية قصور للحكام من الحفصيين والعثمانيين كانت تبهر من يراها فضلا عمن يزورها ويرى منحوتاتها ونقوشها البديعة. وحتى المنازل العادية للشعب كان أصحابها يتأنقون فيها، يقول الحسن الوزان عن منازل تونس: «لأكثر المنازل منظر بديع، وهى مبنية بحجارة مجهزة وجيدة النحت، وسقوفها مزدانة كثيرا بالفسيفساء وبالجصّ المجزَّع، مع فن رائع، ومزوَّقة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى.. وتبلَّط الغرف بربعات من بلاط مطلىٍّ بلون فاتح كما يبلَّط الصحن أيضا ببلاط مطلىٍّ بالدهان. وبيوتها على العموم - وحيدة الطابق - ولها مدخل بديع.. ويلجأ كل واحد إلى جعل مدخل بيته أكثر أناقة وأكثر زينة. وبجانب منازل المدينة وقصورها كانت هناك دور صناعة خاصة بالأساطيل وحاجاتها وإعدادها فى تونس وسوسة والمهدية، واستلزمت كثيرا من الخشب والحديد لصنع سفن الأسطول وأيضا من الحبال ونسيج الكتان لشراعات السفن وقلاعها، وبلغت سفن الأسطول فى عهد الأغالبة ثلاثمائة سفينة، سوى ماكان يحتاج إليه الأسطول من الأسلحة والعتاد الحربى من مثل السيوف والرماح والأقواس والسهام والمنجنيقات وآلات هدم الأسوار، سوى بناء الأحواض الواسعة فى الثغر لخدمة السفن.

وهذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى الكثير هيأ تونس - منذ عصر القرطاجيين - لأن تصبح سوقا عالية كبرى، فكانت ترسل بمنتوجاتها شمالا إلى شعوب

البحر المتوسط الأوربية وشرقا إلى مصر والشام وتركيا وغربا إلى الجزائر ومراكش وإسبانيا وغربى أوربا حتى إسكندناوة، ومنذ عصر القرطاجيين كانت قوافلها تتغلغل فى فلوات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع التونسية من الزيتون وزيته والنُّقْل ومن المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية ومن السروج واللبود وأقفال الحديد والمفاتيح والإسفنج الذى يصاد على الساحل والملح المطحون الذى يحمل من ملاحات تونس الكثيرة، وتعود محملة بالجلود وريش النعام والعاج أو ناب الفيل والتِّبْر والرقيق الأسود الكثير. وذكرنا فى الفصل الماضى أن إبراهيم بن أحمد الأغلبى استكثر من هذا الرقيق الزنجى فى حرسه حتى بلغوا عشرة آلاف عَدًّا، ومنذ الأزمنة السحيقة كان يظل كثيرون من هذا الرقيق فى القطر التونسى مما جعل لهم فيه - من قديم - بعض القرى. وطبيعى أن تنشأ فى كل بلد تونسى سوق داخلية يشترى منها أهله ما يحتاجون إليه من الحبوب والثمار والخضر والصناعات المختلفة. وأول من أمر بتنظيم هذه الأسواق فى القطر التونسى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) يقول أبو عبيد البكرى: «كان السِّماط - وهو سوق القيروان - متصلا (أى دكاكينه متلاصقة) فيه جميع المتاجر والصناعات وهو الذى أمر بترتيبه هكذا». واتبعت الأسواق فى تونس وغيرها هذا النظام، حتى إذا كان عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٦ - ١٧٠ هـ) رتب أسواق القيروان. عاصمته ترتيبا جديدا، وفى ذلك يقول ابن عذارى فى البيان المغرب: «قد مهَّد أمور لبلاد، ورتب أسواق القيروان، وأفرد لكل صناعة مكانا». ومعنى ذلك أنه جعل لكل صنعة مجموعة من الدكاكين خاصة بصناعتها وبيعها، ويحدثنا الحسن الوزان عن. سوق تونس حين زارها، ويذكر أن أهم الأمكنة فى سوق تونس مكان تجار المنسوجات، يقول: «وهناك سوق خاص فى تونس يحوى عددا كبيرا من تجار القماش، ويعد هؤلاء أكثر أهل المدينة ثراء. ويشغل تجار آخرون وصناع معهم هذا السوق كالعطارين، وباعة الأشربة والترياقات، وباعة العطور والحرير، والخياطين والسرَّاجين (باعة السروج) والفرَّائين (باعة الفراء) وباعة الفاكهة، والحلاَّبين، وصنَّاع الزلابية (حلواء) والقصَّابين (الجزارين) الذين يذبحون فى فصلى الربيع والصيف من الخراف أكثر من سائر الحيوانات الأخرى، وثمَّ مِهَنٌ كثيرة أخرى تمارَس فى هذا السوق لا يتسع المقام لذكرها».

٣

الرُّفه – المطعم والملبس – الأعياد – الموسيقى – المرأة

(أ) الرفه[١]– المطعم والملبس

مما يميز القطر التونسى كثرة الأمتعة والسلع والثمار والفواكه فيه، مما أتاح له – وخاصة فى مدنه الشمالية حياة رافهة، ويصور ابن أبى دينار ما كان فيه أهل مدينة تونس من رفاهية فى حياتهم بأن أغلبهم كانت لهم جنات وبساتين خارج المدينة، يقضون فيها الصيف والخريف مع أسرهم، فكانوا يبكرون فى الذهاب إلى المدينة كل يوم حيث يزاولون أعمالهم ويعودون فى المساء إلى بساتينهم وجناتهم ومن أجل ذلك كانت الدكاكين فى أسواق تونس لاتفتح صيفا وخريفا إلا بعد طلوع الشمس.

ويقول الحسن الوزان إن الخبز ظريف جدا فى تونس، وهو أبيض اللون ومخبوز بشكل حسن، ولايُصْنع من الدقيق فحسب بل يمزج معه السميد، وتبذل عناية كبيرة فى إعداد عجينه إذ يضرب بدقة شبيهة بتلك التى يضرب بها الأرز فى مصر. ويذكر الحسن الوزان عقب ذلك وجبتين شعبيتين أولاهما تسمى البسيس، وهى وجبة خفيفة مؤلفة من دقيق الشعير المحلول بالماء ويوضع فيه قليل من الزيت أو شىء من عصير الليمون أو البرتقال، ومن عادة الباعة والصناع وسكان المدينة تناول هذه الوجبه فى النهار، والوجبة الثانية تسمى البازين، وهى أفضل من سابقتها، وتُصْنَع من عجينة تُقْلَى فى الماء، وبعد أن تنضج تُرَصّ فى وسط وعاء، وتُسْقَى بالزيت أو بمرق اللحم. ويقول الحسن الوزان: هناك وجبات أخرى أكثر لذة فى الطعم، ومن مطاعمهم لحم يسمى المروزية نسبة إلى مدينة إيرانية تسمى مرو الروز واللحم فيها يطبخ بأبزار تفوح، ويعدون أكلها عقب الإفطار فى الصوم من التطيب. ومن طعامهم الزرير ويسمى فى بعض البلدان باسم المويس وهو خليط من الأبزار والبهارات حار الطبيعة. ويصاد السمك على طول الساحل التونسى، وهو رخيص الثمن، ويصطادون منه أنواعا كثيرة منها نوع يسمى سبارس يصاد فى صفاقس، وقد تكون الكثرة من سكان البلدة صيادين. ويشتهر سكان مدينة المهدية بصيد الحوت،ولأهلها شغف بأكله وتفنن فى طرق صيده. وكما تتنوع مطاعم سكان القطر

---

(١) انظر فى الرفه والمطعم والملبس الحديث عن مدينة تونس فى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وراجعه فى صفاقس، وكذلك كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب وبرنشفيك ٢٨١/٢ وما بعدها.

التونسى تتنوع حلواؤهم، ومنها المقروض ويقول برتشفيك إنه يصنع من السميد والتمر والعسل والبهارات ويقلى فى الزيت وينوه به ابن أبى دينار، ويقول: هو أطيب حلوائهم وليس بعده شىء، ومنها الزلابية وهى حلواء من عجين رقيق يصب فى الزيت ويقلى ثم يصب فى محلول السكر، ومر بنا - منذ قليل - أنه كان بتونس سوق خاصة للزلابية.

وإذا تركنا المطعم إلى الملبس وجدنا الحسن الوزان يقول: «أهل تونس طيبون للغاية ومحبُّبون كثيرًا، ويلبس صناعها وتجارها وأئمتها وجميع موظفيها هنداما جيلًا لائقا، ويضعون فوق رءوسهم قلنسوة مغطاة بقماشة طويلة، كما يضع العسكريون وموظفو البلاط قلنسوة على رءوسهم ولكن بدون قماشة. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب كانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء ويكتسون القشابية الصوفية. أما السيدات فيقول عنهن الحسن الوزان: إن لسيدات تونس هندامًا جيدًا، وعندما يكن فى الخارج يسترن وجوههن.. بوضع عصابة عريضة جدًا من قماش فوق الجبين، وهناك حجاب آخر يدعى سفسارى يجعل من رءوس النساء رءوسا ضخمة كبيرة، ولا تعنى النساء إلا بزينتهن وعطرهن، بدليل أن باعة العطور هم دومًا آخر من يغلق دكاكينهم» ولابد أنهن كن يعنين بجواهرهن وكانت فى تونس سوق لبيع الجواهر للنساء كى يكملن بها زينتهن. ويفصل القول فيما كان من تزين النساء فى ملابسهن لذلك العصر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب قائلا: «أهم ما ورثت النساء عن أمهاتهن بالمهدية فى ذلك العصر أنواع من الكساء والتطريز بالحرير على الثياب الداخلية مثل القمجّة وغيرها، ومنها أنواع من الوشاح والحواشى الحريرية المزركشة بألوان متغايرة، ومن هذه الحواشى تحلّى صدور بعض الثياب النسائية، وهى تحفة فنية». ويقول فى موضع آخر عن حجاب النساء فى الساحل التونسى إنهن عند خروجهن من بيوتهن يرتدين إزارًا أسود ولا يتركن ظاهرًا من وجوهن إلا العيون.

(ب) الأعياد

كتب ابن أبى دينار فى كتابه: «المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس» فصلا[١] طريفًا عن الأعياد فى تونس وأن أهلها كانوا يخرجون فيها للنزهة والتملى بمواطن الجمال فى ضواحى تونس، ويستهلها بعيد عاشوراء فى اليوم العاشر من المحرم، وفيه ينفق التونسيون أموالًا طائلة فى الأطعمة والفواكه والحلواء. وعادة فى اليوم التاسع السابق له يطعمون الدجاج ويتحلون بالدويدة وهى مثل الكنافة عند المصريين ويعبّرون عما يأكلون من ذلك بقولهم: «الفطير

(١) انظر الفصل فى أواخر كتاب المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس لابن أبى دينار.

وما يطير» وما يطير الدجاج والفطير الدويدة. ومن رأى هذا العيد فى تونس رأى العجب، فالحوانيت – وخاصة حوانيت الفواكه – تزين. وعادة يخرج الناس زكاة أموالهم فى هذا اليوم، ولذلك يتكاثر فيه الإنفاق على المآكل والمشارب، وكل ينفق بقدر استطاعته ويباع من آلات الطرب والملاهى للصبية ما يفوت الحصر.

ومن ذلك عيد المولد النبوى الشريف لسيد الكائنات ﷺ، وأول من عنى بإقامة الاحتفال به بين حكام الدولة الحفصية أبوفارس عبد العزيز فى مطلع المائة التاسعة للهجرة، وأصبح ذلك تقليدًا سنويا فى ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول كل عام إذ توقد القناديل وتضاء الشموع وتزين المكاتب ويقام احتفال عظيم بدار نقيب الأشراف يحضره القراء والفقهاء والناس من أطراف البلد ويتعالى الغناء والأشعار والأناشيد بالمدائح النبوية، ويظل الاحتفال بهذا العيد فى بعض زوايا تونس خمس عشرة ليلة متوالية تنشد فيها مدائح الرسول الكريم، ويُهْرَعُ الناس للتفرج. وتُصْنع فى أثناء ذلك الأطعمة الفاخرة احتسابًا لوجه الله تعالى وقربى لحبيبه خير البرية.

ومن ذلك عيد الربيع أو عيد النيروز فى أول مايو من كل عام، ويقول ابن أبى دينار إنهم كانوا ينفقون فيه أموالاً تفوت الإحصاء ويتفاخرون بصنع أطعمة باهظة التكاليف من مثل المرقاز، ويقول برنشفيك إنه نوع من النقانق،ويكثرون من شراء الفواكه والرياحين والبقول، ويقول إن ما يباع فى هذا اليوم من الفواكه والخضار والرياحين يبلغ مقدار ما تشتريه تونس فى عام، ويذكر أنهم يجعلون من ذلك حوانيت فى منازلهم يعلقون فيها جميع البقول والرياحين، ويقول إنهم يتجاوزون ذلك إلى الغناء وآلات الطرب فيجتمعون عند مكان يسمى بالوردة، وفيه يحتشد أهل الخلاعة والمجون من مغان ومطربين ومشعوذين، ويذهب كثيرون من أهل تونس للفرجة عليهم وشراء ما يُعْرض من فاكهة وحلوى.

ويذكر ابن أبى دينار أنه كانت تقام أعياد فى ليلة النصف من رجب والسابع والعشرين منه وليلة النصف من شعبان والسابع والعشرين منه. وكانت ليالى شهر رمضان تُعدُّ عيدا كبيرًا، وكانوا يحتفلون بها غاية الاحتفال ويقومون بواجب رمضان وواجب حقه أتم القيام، ويختم الإمام القرآن العظيم فى صلاة التراويح بأغلب المساجد. وكان يقام احتفال كبير حين يختم صحيح البخارى، ويذكر ابن أبى دينار أن المنادى كان ينادى فى سوق تونس بأن الختم لصحيح البخارى غدًا صباحًا أو عشية فيتسارع النساء والصبيان والخواص والعوام لذلك. وكان هذا نفسه يحدث فى القاهرة حين تختم قراءة صحيح البخارى فى الليالى الأخيرة من رمضان.

(جـ) الموسيقى[١]

عقد الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الثانى من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» مبحثًا طويلًا رائعًا عن الموسيقى وآلات الطرب فى القطر التونسى ذكر فيه أنه ليس لهذا القطر مأثور قديم ذو بال فى الموسيقى، وأنه يتصل فيها مباشرة بالعرب. وقد عرف عن الفاتحين الأولين طريقة الحُداء التى اشتهر بها العرب من قديم، حتى إذا تولاه المهالبة وخاصة يزيد بن حاتم (١٥٤ - ١٧٠ هـ) استحالت القيروان إلى مركز نشاط أدبى بمن استقدمهم معه من الشعراء والمغنين من بغداد، فعُرفت من حينئذ بالقطر التونسى آلات الطرب مثل الطنبور والمزاهر (الدفوف) وشبَّابات القصب. وازدادت فى القيروان المعرفة بالغناء وآلات الطرب حين نزل بها زرياب على زيادة الله الأغلبى سنة ٢٠٥ وظل لديه أشهرًا قبل رحلته المشهورة إلى قرطبة، وزيادة الله يستمع إلى ألحانه. ويُظَنُّ أنه أخذت بعض الجوارى فى القصر عنه شيئًا من تلاحينه، وما نلبث أن نسمع بأن فى القيروان حَيًّا خاصا للملاهى والطرب، يقصده أهلها للفرجة وكان مجمعا للمغنين والضاربين على الآلات الموسيقية، وكان أهل الخلاعة والمجون يختلفون إليه، ويذكرون من أسماء المغنين فيه قاسما الجوعى وأبا شرف. ونمضى إلى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١-٢٨٩هـ) فنجده يرسل سفارات متعددة إلى المشرق لتجلب إليه صفوة من العلماء والموسيقيين ليحدث فى رقَّادة - التى شادها بجوار القيروان - نهضة علمية وموسيقية، وجُلِب إليه من بغداد مغن اسمه مؤنس، لقَّن غناءه جوارى القصر فى رقادة عاصمة الأغالبة وهو يقوم فيها مقام زرياب فى قرطبة عاصمة الأمويين، وجُلبت لزيادة الله الأصغر آخر الأغالبة جوارٍ يُحسنَّ الغناء من بغداد. ويتكاثر هؤلاء الجوارى المغنيات كما يتكاثر المغنون أو قل يأخذون فى التكاثر لعهد العبيديين، وتتسع الموجة فى عهد الدولة الصَّنْهاجية وما كان فى قصورها من مجالس الأنس ويشترك فى الغناء غير تونسى يتقدمهم عبد الوهاب حاجب المنصور الأمير الصنهاجى (٣٧٤ - ٣٨٦هـ) وكان شاعرًا ويتغنى فى شعره ويلحِّنه، ويتحدث مرارًا مؤرخ القيروان إبراهيم الرقيق عن مجالس غنائه. ويفد على يحيى حفيد المعز بن باديس فى عاصمته المهدية (٥٠١ - ٥٠٨ هـ) أمية بن أبى الصلت الشاعر الأندلسى، وكان متقنا لعلم الموسيقى الأندلسية، فنقل إلى المغنين فى المهدية ألحان المغنين فى الأندلس، ولحَّن لهم - على أساسها - الأغانى الإفريقية، ومن حينئذ أخذ الغناء فى إفريقية التونسية وما يصحبه من موسيقى يزدهران، وما لبثت الهجرات الأندلسية المارة بنا - فيما أسلفنا -

---

(١) انظر فى الموسيقى الجزء الثانى من كتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية وما به من مراجع وبرنشفيك ٤٣٢/٢ وما بعدها ووصف إفريقيا للحسن الوزان ص٤٥٣-٤٥٤.

لعهد الدولة الحفصية أن زادتها ازدهارًا. ومما يدل على هذا الازدهار فى العهد الحفصى أنه كان للجيش فيه فرقة موسيقية تصحب أمير البلاد الحفصى فى حفلاته وتنقلاته تمشى وراء الأعلام السلطانية تدق الطبول وتنفخ فى البوقات. وذكر برنشفيك أن السلطان أبا فارس الحفصى (٧٩٥-٨٣٣هـ) ألفى ضريبة كانت تؤخذ من الموسيقيين والمغنيات المحترفات. وأهدى ملك نابولى آلة أورجن إلى ابن السلطان عثمان سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م ويذكر الحسن الوزان أن السلطان الحفصى أبا عبدالله بن الحسن الذى زار تونس فى عهده سنة ٩٢٢ للهجرة كان يعيش بين المطربين والمطربات فى قصره وبساتينه. ولا يعنى الولاة العثمانيون بالموسيقى إلى أن تولى رمضان باى (١١٠٨-١١١٠هـ) إذ كان خبيرًا بأنواع الموسيقى ذات الأوتار وذات المزامير، وكان عارفا للألحان ولوعا بالغناء، وجلب من بلاد النصارى الآلة الموسيقية. المعروفة باسم الأورجن وكان مغنيه «مزهود» يطربه بتلاحينه عليه.

وتزدهر الموسيقى بتونس فى العهد الحسينى العثمانى منذ عهد الباى محمد الرشيد (١١٦٩ - ١١٧٢هـ) وكان يتقن النظم بالشعر العربى، كما كان يتقن الضرب على مختلف الآلات الموسيقية مثل العود والكمنجة، وجعله ولعه بالألحان والإيقاعات يؤلف بين الأغانى الأندلسية المعروفة فى تونس باسم المألوف والألحان التركية. وقد أدخل فيها من تلك الألحان البَشْرَف وهو افتتاح اللحن واستهلاله. وكان للبايات احتفال موسيقى يقيمونه ليلة العيد فى باردو، وكان أشبه بموكب موسيقى كبير، ويحضر فيه كبار الفقهاء. فإذا صُلِّى المغرب مُدَّ سماط بأنواع الأطعمة وألوان الحلوى، ويجلس الباى فى صدر السماط وتتوالى طبقات المدعوين، وبعد بُرْهة يجلس الباى ببهوه، ويجلس عن يمينه وشماله الفقهاء والكتّاب، ويصطفُّ باقى الناس صفين عن اليمين وعن الشمال، وتوقد الشموع ويؤتى بالمجامر يفوح منها الطيب والمسك، ثم يدخل المغنون من الترك بآلاتهم فيغنون باللسان التركى برهة ثم يخرجون ويدخل بعدهم المطربون والمغنون بالغناء العربى. وظلت هذه المواكب تعقد فى مواسم الأعياد بباردو حتى نهاية هذا العصر.

وبجانب هذه الحركة الغنائية عند سكان الحضر، وخاصة فى تونس كانت هناك حركة غنائية بدوية عند أهل الوبر التونسيين حملها إليهم - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - بنو سليم وبنو هلال فى هجرتهم الكبيرة، إذ ظلوا يحافظون على أغانيهم التى ورثوها عن أسلافهم فى بوادى نجد والحجاز، وقد لقنوها فى بوادى تونس بعض عبيدهم وأرقّائهم من أصحاب الأصوات الشجيَّة، لينشدوها فى الأعراس مصحوبين بعازفى الشبابات وضاربى الطبول. ويقول الأستاذ عبد الوهاب إن لهم عزفا يسمى طَرْق الصيد أى صيد الأسد، يُعْزَف به على الشبّابة البدوية، وفيه يقصون أقاصيصهم الغرامية فى وصف رحلاتهم مع محبوباتهم

ويتخللون مقاطع الأقصوصة بطَرْق حوافر الخيل للأرض ونبح الكلاب وزئير الأسد، للدلالة على تطور الأحداث فى القصة أو فى الرحلة الغرامية فرارًا من الأهلين لعدم رضا الأب عن زواج المتحابين، وكأنهم يتمثلون فيها قصص الغرام النجدية التى كان يحرّم فيها الأب النجدى الزواج بفتاته أو ابنته على من يتغزل بها من شباب القبيلة كما هو معروف فى قصة ليلى العامرية وعاشقها ابن عمها قيس المجنون بها غراما وهياما.

(د) مكانة المرأة[1]

مرَّ بنا فى حديثنا عن الملبس فى القطر التونسى أن النساء فى تونس والمهدية كن يبالغن فى العناية بزينتهن وعطرهن وهندامهن، ولا نريد أن نعرض لذلك وما يماثله مما يتصل بظهرهن، إنما نريد أن نقف عند مدى إحساسهن بكرامتهن، ويصوِّر ذلك بوضوح ما يروى من أخبارهن، فمن ذلك ما تذكره الروايات عن أبى جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فإن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤هـ) كان قد أقام عيونا على أسرة إبراهيم بن محمد حفيد عبد الله بن العباس وإخوته لما كان يبلغه من نشاطه ويعرفه فيه من الحزم وبعد النظر أو لعله كان يتوقع من أبناء الأسرة أن يفكر أحدهم فى الثورة على خلافتهم الأموية، ولم يوعز إلى عيونه بتعقب إبراهيم بن محمد وحده بل أيضًا بتعقب أخويه السفاح وأبى جعفر المنصور ويبدو أن المنصور رأى أن يبتعد - لفترة - عن أنظار هؤلاء العيون، واختار القيروان لنزول بعض أقربائه فيها وتصادف أن رأى فى مقامه لديه فتاة تسمى «أروى» أعجب بها، فطلب يدها فاشترطت عليه أن لا يتخذ معها سرارى أو جوارى، وإن تسرَّى عليها كانت عصمتها بيدها، وانفصلت عنه، كما تجرى بذلك عادة القيروانيات من قديم، وقبل أبو جعفر شرطها، وعاد بها إلى أهله. وتطورت الظروف، وأصبح خليفة، وأنجب منها المهدى الخليفة بعده وأخاه جعفرا والد زبيدة حفيدة أروى وزوجة ابن عمها هرون الرشيد الخليفة بعد أبيه، وورثت عن جدتها حصافتها. وقد برَّ المنصور بوعده لأروى، فلم يتزوج عليها إلى أن توفيت سنة ١٤٦ للهجرة، وكان قد أقطعها ضيعة، فوقفتها - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - على ذريتها من الأرامل اللائى يموت عنهن أزواجهن، وكذلك على العوانس اللائى لم يتزوجن، حفظًا لكرامتهن وصيانة لهن، وهى مأثرة وبر رفيع بفلذات الكبد من البنات سجَّلته أروى فى تاريخ المرأة التونسية، كما سجلت شعورها بالكرامة فى صورة نبيلة.

---

(١) انظر فى الموقف الأول القسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وفى الموقف الثانى قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيروانى ص١٢٠ وما بعدها وفى الموقف الثالث ولاية خفاجة بن سفيان فى صقلية.

وموقف كريم ثان لنساء القيروان عامة حين استنفر عبد الواحد بن يزيد الهوارى وعكاشة بن محصن الصفرية فى الجزائر للهجوم على القيروان، وكان الصفرية قد اشتهروا بسفك الدماء وهتك الحريم وسبيهن، وكان عبد الواحد قد اقترب من القيروان فى ثلاثمائة ألف، وأخذ حنظلة بن صفوان والى القيروان يستعد للقائه، وما إن أخذ يعدّ صفوف جيشه لهذا اللقاء حتى فوجىء بنساء القيروان جئن للتحريض على الجهاد والاشتراك فى الحرب، يقول الرقيق القيروانى: «خرج نساء القيروان فعقدن الألوية، وأخذن معهن السلاح، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال، وحلفن لأزواجهن: لئن انهزم أحد منكم إلينا مولّيا عن العدو لنقتلنّه» وحين سمع الناس هذا الوعيد والتحريض الشديد من النساء وطنوا أنفسهم على الاستشهاد، فالموت أولى بهم من عار سباء زوجاتهم، وانتهاكهنّ وبيعهن فى الأسواق بيع الإماء، والتحم القتال وتداعى الأقران والأبطال، وانتصر حنظلة والجيش ونساء القيروان، وقُتل عبد الواحد وقتل من جموعه مائة وثمانون ألفا، وهى مفخرة باقية للمرأة التونسية لاستشعارها - إلى أقصى حد - كرامتها وحميتها للوطن استشعارًا يسجله لها التاريخ فى الأزمنة الإسلامية الماضية.

وموقف كريم ثالث للمرأة التونسية لا فى القطر التونسى بل فى صقلية، فإن واليها خفاجة بن سفيان كان قد شدد الحصار على أهل طرميس سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م وكانوا ينازلون جيشه نزالا ضاريًا ورأوا أن يقفوا الحرب وطلبوا من خفاجة وفدا للمفاوضة، فأرسل إليهم وفدا على رأسه زوجته لمفاوضتهم، وهى أول سيدة عربية تتولى السفارة بين قومها وأعدائهم، واستقبلوها بحفاوة، ونزلوا على إرادتها فيا وضعته لهم من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت سفارتها نجاحًا عظيمًا، إذ حقنت دماء المسلمين وسلمتهم مفاتيح مدينة بأكملها ودخلوها صلحًا، وابن هذه السيدة البطل محمد بن خفاجة هو فاتح مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م إذ أعد لفتحها أسطولا قضى به على حاميتها الرومية، وظلت مالطة تابعة لصقلية إلى أن استولى عليها النورمان بعد نحو مائتين وثلاثين عاما. ومعنى ذلك كله أن للمرأة التونسية تاريخًا مجيدًا فى العصور الإسلامية يصور حصافتها وكياستها وشعورها بكرامتها إلى أقصى حد.

٤

الدين(١)

كان بربر القطر التونسى - مثل بقية البربر فى الأقطار المغربية - وثنيين يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها القرابين، وكانوا يقدسون كثيرًا من الأحجار والأشجار، وكان القرطاجيون وثنيين مثلهم، ويبدو أنهم أخذوا يفسحون لليهود فى النزول بقرطاجة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يلبثوا أن عملوا على نشر اليهودية بين البربر، ولم يعتنقها إلا قليلون من البدو، وأخذ اليهود يفدون على القطر التونسى بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد حتى إذا كان الفتح العربى أخذوا يتكاثرون - مع السنين -فى القيروان حتى كان لهم فيها حارة - أو كما نقول الآن حَىٌّ - وكان لهم مقبرة خاصة بهم، وأيضا كان لهم سوق يسمى سوق اليهود، وكان لهم معبد يؤدون فيه شعائرهم الدينية، وكل ذلك بفضل الإسلام وما بثه فى المسلمين من روح التسامح مع أهل الكتب السماوية. وصدورًا عن هذه الروح كان علماؤنا المتعمقون فى علوم الأوائل يفسحون لهم فى التلمذة عليهم وفى أخذ ما عندهم من هذه العلوم وما أضافوه إليها، مما جعل نفرًا منهم فى القيروان يتزودون من معارف أطبائها المسلمين ما أتاح لهم أن يصبحوا من كبار الأطباء على نحو ما سنعرف فى فصل الثقافة.

وكانت المسيحية قد أخذت تنتشر منذ القرن الثانى للميلاد فى قرطاجة وبعض بلدان القطر التونسى عن طريق بعض القساوسة من قبط مصر الذين حاولوا الدعوة لها مبكرين، وبذلك عُرفت فيها - أو أسست - كنيسة العقيدة الأرثوذكسية المصرية. وبعد ذلك حين اعتنقت روما العقيدة المسيحية أخذت تعمل على نشرها لا فى إيطاليا وحدها بل أيضا فى الولايات التابعة لها، واتسع العمل على ذلك منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه فى روما على أزمة الأمور سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية دينا رسميا للدولة وأخذ يعمل على نشرها فى قرطاجة وإفريقيا، وبذلك أصبح للمسيحية فى القطر التونسى كنيستان: الكنيسة الأرثوذكسية القبطية السابقة،

---

(١) انظر فى اليهود والنصارى كتاب ورقات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى مواضع متفرقة وبرنشفيك ١/٤٢٩ وما بعدها وكتاب تاريخ المغرب الكبير لدبوز وراجع فى الحركة الإسلامية كتب التاريخ وخاصة البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان لابن ناجى ورياض النفوس للمالكى وتاريخ ابن خلدون وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب.

وكنيسة روما الكاثوليكية. وكان فى القطر التونسى - حين الفتح - مسيحيون كثيرون، إذ كانت الجاليات والحاميات الرومانية مسيحية، وكانت روما قد نشرتها قبل الفتح فى بقايا السلالات القرطاجية وبين البربر، واعتنقها كثيرون من الشعب البربرى فى المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى المساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه، غير أنهم عادوا فوجدوها دين حكامهم من الرومان الذين يظلمونهم ظلما فادحا فى الضرائب وغير الضرائب، فانصرفوا عنها إلا قليلا منهم، ومع ذلك ظل قساوسة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يدعون لها، وتغلغلوا بدعوتهم حتى بلاد الجريد التى كانوا يسمونها قسطيلية. وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون من هؤلاء المسيحيين يدخلون فى الدين الحنيف طواعية، وبدون أى إكراه، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية ومن كل ظلم مع محوه لجميع الحواجز الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، فهم جميعا متساوون فى كل الحقوق وكل الواجبات، وبذلك نفهم كيف أوشك الإسلام فى القرن الأول الهجرى أن يقضى على المسيحية قضاء مبرما فى القطر التونسى مع أن العرب طوال هذا القرن وبعده رخصوا للمسيحيين التونسيين تجديد كنائسهم وتركوا لهم منتهى الحرية فى إقامة طقوسهم وشعائرهم الدينية. ولولا أن عناصر مسيحية ظلت تنزل البلاد من وقت لآخر لامحت المسيحية من القطر التونسى - أمام المد الإسلامى - محوا تاما، وأول ما كان من ذلك استقدام حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) ألف أسرة قبطية للمساعدة فى إنشاء دار الصناعة بتونس، وبذلك ظلت الكنيسة الأورثوذكسية حية فى القطر التونسى. ويجلب إبراهيم بن الأغلب آلافا من الصقالبة لحرسه، وجلب حفيده إبراهيم بن أحمد رهبانا من صقلية للمساعدة فى الترجمة بدار الحكمة التى أسسها، مما أتاح للكنيسة الكاثوليكية أن تظل حية هى الأخرى، ويجلب العبيديون بدورهم صقالبة وصقليين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن المسيحيين وفدوا بكثرة فى عهد الدولة الصنهاجية، وخاصة أن أمهات بعض حكامها كن مسيحيات ويتمتعن بحريتهن الدينية. وكانت فى تونس حارة خاصة بالمسيحيين ومقبرة أيضا خاصة بهم وكنيسة يقيمون فيها شعائرهم، وأخذوا يتكاثرون حين عظم نشاط أمراء البحر العثمانيين وكانوا أسرى حقا، ولكن الدايات كانوا يساعدونهم فى أداء شعائرهم الدينية، ويدل على كثرتهم حينئذ ما يقال من أن مراد باى قبل أن يتولى الولاية سنة ١٠٢٢هـ/١٦١٤م حين كان أميرا للبحر جلب لتونس فى إحدى المرات اثنى عشر ألف أسير أوربى مسيحى.

ويأخذ البربر فى اعتناق الإسلام منذ فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح القطر التونسى سنة ٢٧ للهجرة، واستقر العرب فى بعض مدنه وأنحائه، ولم يكن العرب غزاة فاتحين فقط بل كانوا يعدون أنفسهم - قبل كل شىء - ناشرين للإسلام وهداه فى أطباق الأرض، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) حتى نجد فى جيشه كتيبة بربرية كبيرة تبلغ اثنى

عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تشترك فى فتوحه وجهاده فى سبيل الله. وهى رمز قوى لاندماج البربر فى الإسلام، فإنهم لم يسلموا فحسب بل أصبحوا من دعاة الإسلام وحماته، وقد اشتركوا بقوة فى جيش طارق بن زياد الفاتح لإيبيريا، ونفس القائد: طارق كان بربريا، وولاه موسى بن نصير والى إفريقية بعد حسان على طنجة، ثم كلفه بفتح إيبيريا سنة ٩٢هـ/٧١١م وأخذت انتصاراته تتوالى، واستمد موسى بن نصير، فلحق به على رأس جيش مزيج من العرب والبربر وتم لهما اكتمال الفتح المبين.

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى، حتى يصبح البربر لا فى القطر التونسى وحده، بل فى جميع بلاد المغرب شعبا إسلاميا لا يؤدى شعائر الإسلام وفروضه الدينية فقط، بل أيضا يعمل على نصرة الإسلام ونشره لا فى ربوع المغرب وجباله الوعرة وصحاريه المترامية فحسب، بل أيضًا فى إيبيريا بأوربا، وهو ما أذهل جماعة المؤرخين والمستشرقين الغربيين، فإن الرومان ظلوا يحتلون البربر قرونا متطاولة وظلوا يحاولون نشر المسيحية فى ديارهم، ولم يجدوا بينهم آذاناً صاغية، وما هى إلا أن يغزوهم العرب، وإذا هم يفتحون أذرعتهم وأفئدتهم للإسلام، فيصبحون فى نحو نصف قرن شعبا إسلاميا، إذ وجدوا الإسلام يحررهم من الظلم والاستعباد اللذين طالما ذاقوهما فى حكم البيزنطيين والرومان تحت ظل المسيحية سوى ما تحمله تعاليمه للشعوب من العدالة بين الناس والمساواة ومحو كل الفوارق الطبقية والجنسية. وانضافت إلى ذلك تطبيقات ولاة القرن الأول الهجرى عقبة بن نافع وابن أبى المهاجر وحسان بن النعمان وموسى بن نصير لتعاليم الإسلام ومبادئه فى حكم البربر بحيث أصبح البربرى يشعر أنه عضو عامل - كبقية الأعضاء عربا وغير عرب - فى أسرته الإسلامية الكبرى، فله ما للعرب من الحقوق، وعليه ما عليهم من الواجبات، فهو يتولى حكم هذه المدينة أو تلك، وهو يقود الجيوش الإسلامية فى المغرب وخارج المغرب، لا فرق أى فرق بين بربرى وعربى.

وتُوِّج عمل ولاة القرن الأول الهجرى فى نشر الإسلام بين البربر بالبعثة التعليمية التى أرسلها عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان سنة مائة للهجرة على رأسها إسماعيل بن عبدالله بن أبى المهاجر، وأسند إليه ولاية المغرب وكانت البعثة مكوَّنة من عشرة من صفوة الفقهاء فى الأمة أرسلهم عمر لتفقيه البربر والعمل على نشر الإسلام بينهم، وأهمهم بالإضافة إلى إسماعيل عبُدالله بن يزيد المعافرى المعروف بالحُبلى، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وسعد بن مسعود التجيبى، وكل منهم بنى فى القيروان دارا لمسكنه ومسجدا لصلاته واجتماعه بالبربر يفقههم فى الدين وكتّابا لتعليم الناشئة مبادئ العربية وتحفيظها القرآن الكريم. وبذل كل منهم أقصى ما يستطيع فى نشر الدين الحنيف، يتقدمهم فى ذلك

إسماعيل بن عبداللّه بن أبى المهاجر، وفيه يقول ابن عذارى: «مازال إسماعيل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام، حتى أسلمت بقية بربر إفريقية على يديه فى دولة عمر بن عبدالعزيز، وهو الذى علم أهل إفريقية الحلال والحرام».

وعلى هذا النحو أصبح البربر فى نهاية القرن الأول الهجرى شعبا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة فهو يتغلغل فى ذات نفوسهم، ويتعمق قلوبهم وأفئدتهم، وخلف عمر بن عبد العزيز خلفاء أمويون ضلوا السبيل فولّوا على القيروان وإفريقية ولاة طاغين باغين أخذوا يفرّقون بين العرب والبربر فى الخراج، مما جعل البربر يفكرون فى مخرج من هذا الظلم الفادح، وسرعان ما أخذ الخوارج الصفرية والإباضية ينشرون مبادئ عقيدتيهما الآخذة بتعاليم الإسلام فى التسوية بين العرب والبربر فى الخراج وغير الخراج. ونُكب البربر بتولية عبيد اللّه بن الحبحاب القيروان وإفريقية، وكان هو ونوابه فى إفريقية جميعها يتبعون الحمق والسفاهة، فجابوا فى التفرقة بين البربر والعرب، وأخذت جموع كثيرة فى المغربين الأقصى والأوسط تنضم تحت لواء الصفرية، وكانوا متطرفين تطرفا شديدا يستحلون من المسلمين سفك الدماء وسبى النساء واسترقاقهن، وانضمت جموع أخرى تحت لواء الإباضية فى جبل نفوسة ولم يكونوا يستحلون - مثل الصفرية - سفك دماء المسلمين ولا سبى نسائهم. وثار الصفرية بالمغرب الأقصى وتقدم جيشان لهم إلى القيروان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م يريدون الاستيلاء عليها وهُزما هزيمة ساحقة. ودخلت قبيلة ورفجومة الصفرية القيروان سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وأخرجها منها أبو الخطاب الإباضى سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولّى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى، وسرعان ما نازل جيش عباسى أبا الخطاب وقضى عليه، وفر عامله عبد الرحمن بن رستم إلى الجزائر وأسس فى تيهرت دولة إباضية.

وكل هذه الإلمامات للإباضية والصفرية بالقيروان لم تترك بها أى أثر، وكأنها كانت سحابات صيف لم تكد تلم حتى أقلعت، ولا نسمع عن أى أحد من القطر التونسى اعتنق إحدى هاتين العقيدتين. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت دارا كبرى للسنة، ولم تأبه بتعاليم الصفرية والإباضية، وقد امتشقت الحسام ونازلت الأولين منازلة ضارية كما مر بنا فى الفصل الماضى، بل لقد دمرت جيشين لها ومحقتهما محقا ذريعا. وأخذت القيروان فى أواخر القرن الثانى الهجرى وطوال القرن الثالث تتمذهب بمذهبين من مذاهب أهل السنة هما مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك، وكان للمذهب الثانى غير قليل من الغلبة لكثرة فقهائه. وما إن تستقر الأمور فى القيروان لبنى عبيد الفاطميين حتى يعلنوا عقيدتهم الشيعيّة، وحتى يأمر عبيداللّه المهدى أول خلفائهم بتعطيل تعليم الشريعة والفقه على مذاهب أهل السنة، ويريد مذهبى مالك وأبى حنيفة، ومنع شيوخ المذهبين من إلقاء دروسهم فى جامع عقبة فكانوا يقرئون تلاميذهم إما فى بيوتهم وإما فى حوانيتهم، وكانوا قد اضطهدوا

محمد بن اللباد رئيس المالكية، وسجنوه، وعادوا فردوا إليه حريته وألزموه الاعتكاف فى بيته، فكان تلاميذه يقصدونه خفية ويقرءون عليه فى بيته، وكان ربيع القطان يقرئ تلاميذه فى حانوته الذى يبيع فيه القطن. وظل العبيديون يحاولون القضاء على مذهبى مالك وأبى حنيفة، وعلماء السنة يقاومونهم مقاومة حادة وينازلون دعاتهم منازلات ضارية، وكان الفقيه سعيدبن الحداد يقود هذه المنازلات فى أيام عبيداللّه المهدى، وسمع به وبإسكاته الدعاة وإلزامهم الحجة، فاستدعاه – كما يقول المالكى فى كتابه «رياض النفوس» – وعرض عليه الحديث النبوى: «من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه» فقال له سعيد: هو حديث صحيح قد رواه أهل السنة، فالتفت إليه وقال له: فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له سعيد: أعزّ اللّه السيد، لم يرد (الرسول) ولاية الرِّق، إنما أراد ولاية الدين، فقال له عبيد اللّه المهدى: هل من شاهد يؤيد كلامك من كتاب اللّه عز وجل، فقال له: نعم، قال اللّه تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه اللّه الكتاب والحكم والنبوة ثم يقولَ للناس كونوا عبادًا لى من دون اللّه، ولكن كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكةَ والنبيين أربابا أيأمركُم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ ثم قال سعيد: فما لم يجعله اللّه لنبى لم يجعله لغير نبىّ، وعلى لم يكن نبيا إنما كان وزير النبى ﷺ. وبذلك أفحمه، فقال له انصرف. ولم تقف المسألة فى العقيدة العبيدية الفاطمية عند محاولة الخلفاء العبيديين استعباد الناس، فقد حاولوا إقناعهم بأنهم الصورة المجسدة للذات العلية تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا إلى غير ذلك من ضلالاتهم التى صورنا أطرافا منها فى كتابنا – بهذه السلسلة – عن مصر. وظلت القيروان تقاطع عقيدتهم إلى أن انتقلوا إلى القاهرة وعادت لمذاهب أهل السنة نشاطاتها وخاصة مذهب مالك، ولم يلبث المعز الصنهاجى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م أن حمل الناس والفقهاء على اتباعه. فظل هو المذهب السنى الأساسى فى القطر التونسى إلى اليوم، وحقا اشترك معه المذهب الحنفى أيام العثمانيين، ولكن ظل هو المذهب السنى للجماهير التونسية.

٥

الزهد والتصوف[١]

هذا القطر أو هذه الدار التونسية الكبيرة للدين الحنيف أخذت تتحول سريعا إلى دار

(١) راجع فى الزهد والتصوف كتاب رياض النفوس فى التراجم وكذلك طبقات علماء إفريقية لأبى العرب ومعالم الإيمان لابن ناجى، وبرنشفيك ٣٣٢/٢ وما بعدها. وانظر فى المنزعين الصوفيين: الفلسفى والسنى ما كتبنا عنها فى الجزء الخاص بمصر من هذا التاريخ للأدب العربى وكذلك انظر فى هذا الجزء ترجمة أبى الحسن الشاذلى.

كبرى لعبادة الله الواحد الأحد. وأخذت المساجد تُبنَى في كل بقعة وفي كل بلد. وكان الفاتحون يُقرئون البربر القرآن ويفقهونهم في الدين وينشرون فيهم تعاليم الإسلام وما يدعو إليه من العبادة والنسك. وقد تميز أفراد البعثة التي أرسل بها عمر بن عبدالعزيز سنة مائة للهجرة بالزهد في عرض الدنيا الزائل. وكان منهم إسماعيل بن عبيد الذي اشتهر في القيروان باسم تاجر الله، لأنه كان يتجر ويجعل ثلث كسبه لله، ينفقه في وجوه الخير. وهو يمثل شخصية زهاد الدين الحنيف الأولين. فهو يعبد الله ويفقّه الناس في الدين، ويحفِّظ الناشئة القرآن في كُتّاب. وهو لا يعيش كَلًّا أو عبئا على الدولة ولا عالة على الناس، بل يتجر ويكتسب من التجارة ما يقيم به أوده، ثم هو يقوم بالواجب الأكبر عليه للأمة: واجب الجهاد لأعدائها وأعداء دين الله، وبأخرة من حياته في القيروان حمل سيفه وخرج مجاهدا لإعلاء كلمة الله في صقلية وغرق في البحر المتوسط سنة ١٠٧ للهجرة. ونلتقي بعده في القيروان بزهاد كثيرين تُعنَى كتب الطبقات بالترجمة لهم والحديث عنهم ومن أهمهم في أواسط القرن الثاني الهجري رَباح بن يزيد اللخمي، وكان زاهدا وعابدا ناسكا، ونوَّه به طويلا أبو العرب في الطبقات والمالكي في رياض النفوس. وبالمثل نوَّها بالبُهْلول بن راشد وزهده وورعه، وكان يعاصرهما علي بن زياد أول من أدخل كتاب الموطأ لمالك بن أنس إلى إفريقية التونسية، توفي سنة ١٨٣ للهجرة، وله كتاب في الزهد، وبالمثل لعبد الملك بن أبي كريمة مولى إسماعيل بن عبيد تاجر الله كتاب في الزهد، وكان من أهل الفضل والورع.

ومن أهم ما سجّلته كتب الطبقات لهؤلاء الزهاد الورعين أنهم كانوا دائما يخرجون في وقت من السنة للعبادة في الرباطات والمحارس التي كانت متخذة على طول الساحل التونسي لإقامة المجاهدين المتربِّصين بالقراصنة الغربيين أعداء الله حين يغيرون فجأة في موضع على الساحل التونسي الطويل. ومعروف أن زيادة الله الأول الأغلبي حين أعدَّ حملته المشهورة لفتح صقلية في سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جعل قائدها أسد بن الفرات قاضي القيروان وكبير فقهائها في زمنه. وفي ترجمة سحنون أكبر فقهاء القيروان بعده أنه كان يرابط وقتا في السنة بالقرب من ميناء سوسة، ومع أنه كان على شيء من الثراء كان يتخشَّن في ملبسه ومطعمه مع الورع الصادق والزهادة في الدنيا، وكان ابنه محمد الذي خلفه في حلقته لإقراء الطلبة يخرج وقتا في السنة – مثل أبيه – للمرابطة وحراسة المسلمين، وتُرْوَى له مَقْتلة في قراصنة الروم، فقد تصادف أن لقيهم ذات مرة وقد أشرفوا – في غيبة الرجال – على نهب بعض الأموال وسبي الحريم فتقلد سيفه وأخذ بيده رمحه وامتطى جوادًا له، ورآه بعض المرابطين فأسرعوا إليه، وكبَّر وكبَّروا معه، واشتبكوا في حرب مع القراصنة، وأجهزوا على بعضهم، ففرت بقيتهم هاربة إلى البحر المتوسط وما وراءه. وإنما نسوق ذلك لندل على أن الزهاد والنساك في الحقب الإسلامية الأولى لم يكونوا

يعيشون للزهد وعبادة ربهم فقط، بل كانوا دائما يحملون السلاح ويتقدمون الصفوف فى حرب أعداء الله والوطن، مؤمنين بأن جهاد أعداء الله لا يقل عن عبادته نسكا وقُرْبَى إليه. ولم يكونوا يعيشون عالة على المجتمع، بل كانوا دائما يحترفون حرفا تُدِرّ عليهم أرزاقهم، على نحو ما مرّ بنا آنفا عند إسماعيل بن عبيد تاجر الله.

وأخذ هؤلاء الزهاد والعباد يتكاثرون فى القيروان أثناء القرن الثالث الهجرى، حتى لنراهم يتخذون مسجدا سموه مسجد السبت، كانوا يقصدونه يوم السبت للذكر والعبادة، وكانوا ينشدون فيه الأشعار بتطريب فرادى وجماعة، وكأن ذلك كان مقدمة لما سيصير إليه ذكر الله فى البلدان المغربية، إذ سيصبح اجتماعات دورية للذكر فى المساجد والزوايا بعد أن كان مرتبطا بجهاد أعداء الدين والوطن ومراقبتهم على الساحل التونسى الطويل فى الرباطات والمحارس الكثيرة التى كانت تُعَدّ بالعشرات. وحاول - مبكرا - يحيى بن عمر الكنانى المتوفى سنة ٢٨٩ للهجرة أن يقاوم الاجتماع المار للذكر فى مسجد السبت، فألف كتابا يردهم عن هذا الطريق الذى ابتدعوه ولم يستجيبوا إليه.

ومن يقرأ التراجم فى كتاب رياض النفوس للمالكى المتوفى سنة ٤٧٢ للهجرة وكتاب معالم الإيمان للدباغ وذيله لابن ناجى المتوفى سنة ٧٣٨ يلقاه كثير من الزهاد النساك وخاصة بين الفقهاء والتقاة، وأخذ التصوف ينشط فى الدولة الحفصية منذ مؤسسها أبى زكريا، وكان ورعا تقيا، وكان كلما بنى مسجدا نهض بأول أذان فيه قُرْبى لربه، وبنى أمراء الدولة كثيرا من المساجد فى تونس وبلدانها. وأخذ التصوف ينشط فى عهد تلك الدولة، وكان بعض أئمته الأندلسيين ينزلون القطر التونسى قبل تلك الدولة فى القرن السادس الهجرى، وممن نزل بها منهم أبو مدين شعيب، وهو من إشبيلية، أجاز البحر إلى المغرب، فاشتهر به خبره فى التصوف والنسك، وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م وله فيها زاوية كبيرة، وله أتباع كثيرون، وكان قد نزل بتونس فترة، وتبعه فى طريقته الصوفية غير تونسى، منهم أبو سعيد خلف بن يحيى التميمى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م والمدفون ببلدة جبل المنار بالقرب من قرطاجة، والبلدة مسماة باسمه وفى رأيى أن أبا مدين كان ينزع فى تصوفه المنزع الفلسفى، وهو المنزع الذى بدأه الحلاج والذى كان أصحابه يؤمنون بالاتحاد بين المخلوقات والخالق جلّ شأنه أو بعبارة أخرى بين الإنسان وربه، واقترن بذلك الإيمان بالفناء فى الذات العلية، والباحثون فى هذا المنزع، منهم من يقف عند الظاهر من عبارات أصحابه وأشعارهم فينسبونهم إلى القول بالاتحاد مع الذات الإلهية وأكثر من ذلك بالحلول وأن الله يحل فى الإنسان وجزئيات الطبيعة، ويُؤثر عن أبى مدين أنه كان يقول: «بى قُلْ، وعلىَّ دُلّ، فأنا الكلّ» والعبارات قد تفسَّر بأن أبا مدين يؤمن بالاتحاد فى الذات العلية وحلولها فيه وقد تفسَّر بأنه إنما يؤمن بالفناء فى الذات الربانية. وزار تونس بعده من أصحاب

المنزع الصوفى الفلسفى ابن عربى المرسى الأندلسى الناشئ بإشبيلية والمتوفى بدمشق سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وهو من أئمة هذا المنزع، وظل فى تونس فترة ألف فيها كتابه: «الدوائر الإحاطية فى مضاهاة الإنسان» ونظن ظنا أنه خلّف بتونس بعض مريديه المعجبين به وبمنزعه.

ومن المؤكد أن هذا المنزع الصوفى الفلسفى لم يكتب له الشيوع والانتشار فى تونس، إنما الذى كُتب له ذلك المنزع الصوفى السنى الذى لا يؤمن أصحابه بحلول الذات العلية فى جزئيات الكون ولا باتحادها معها أو مع الإنسان ولا بالفناء فى الذات الربانية، فحسبهم محبة الله وذكره وتسبيحه، وقد قام على هذا المنزع فى القرن الخامس عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م والإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية السنّية فى الظهور أثناء القرن السادس الهجرى، ومن أهمها طريقتان: القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى مولدا الحسينى نسبا نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والطريقة الأحمدية أو الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعى البغدادى المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م. ورحّبت البلاد الإسلامية بهاتين الطريقتين، وأخذت تضيف إليها طرقا صوفية سنية جديدة، وتجرّد شيخ تونسى هو الشاذلى أبو الحسن على بن عبد الله الحسينى المنسوب إلى بلدة شاذلة بالقرب من مدينة تونس المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م لإنشاء طريقة صوفية سنية، بجانب الطرق التى عمت وشاعت فى البلدان العربية، وأخذ يحاول نشرها فى تونس، وتبعه مريدون كثيرون رجالا ونساء، منهم على القرجانى وحسن السيجومى وللّا (السيدة عائشة المنوبية) المتوفاة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وهى من قرية منوبة غربىّ مدينة تونس ولها زاوية كبيرة، ولبعض النساء بيلدتها اعتقاد فيها، ولذلك يزرنها ويتوسلن بها لحاجاتهن: حَمْل وغيره. وفى تونس تعرّف بتلميذه أبى العباس المرسى، وصحبه مع جمع من مريديه إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وسرعان ما أصبحت طريقته أهم الطرق الصوفية السنية بمصر. وظلت طريقته حية بتونس مع طريقة القادرية السابقة لها، ومع طرق أخرى وفدت على تونس من المغربين الأوسط والأقصى مثل طريقة التجانى والطريقة العروسية للشيخ أحمد بن عروس المتوفى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م وله فى تونس زاوية كبيرة.

وقد تكاثرت زوايا المتصوفة فى تونس والأقطار المغربية كثرة مفرطة، وتحولت فى الحقب المتأخرة إلى ما يشبه تكايا ينزلها مع الدراويش الجوالين كثير من المشعوذين الدجالين، وكان منهم من يدعى لنفسه الكرامات وأنه من أولياء الله، والله براء منه لانحرافه عن جادة الدين والتصوف السنى الحقيقى.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية[1]

(أ) فاتحون مجاهدون معلمون

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر للخليفة عثمان فى جيش للمسلمين عداده عشرون ألفا للاستيلاء على إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/٦٤٧م والتقى بجيش والى بيزنطة الثائر عليها والمستقل بالبلاد: جريجوريوس وكان فى مائة ألف من الروم والبربر، ونصر الله المسلمين، وقُتل جريجوريوس فى المعركة وسحق جيشه سحقا، وأخذت مدن إفريقية التونسية تفتح أبوابها للمسلمين. وعادة يذكر المؤرخون هذا الفتح المبين ولايتحدثون عن جنوده وأنهم كانوا جنود الدين الحنيف خرجوا وحاربوا جهادا فى سبيل نشره، بقيادة ابن أبى سرح أحد كتاب الوحى ومعه فى المقدمة العبادلة: عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، ويقال أيضا كان معهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن مسعود، ولذلك سمى جيش العبادلة وكلهم من ثقاة الأمة الورعين. لم يخرجوا إلى إفريقية التونسية ابتغاء دنيا، إنما خرجوا للجهاد فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف فى أرجاء إفريقية، وبضربة من يد عبد الله بن الزبير قتل جريجوريوس وبضربات من أيدى زملائه العبادلة وأيدى جند الدين الحنيف المجاهدين فى سبيله انهزم الجيش الضخم ومن بقى من عساكره أصابهم رعب شديد واعتصموا بالمعاقل

---

(١) انظر فى الفاتحين المعلمين كتب التاريخ مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وقطعة من تاريخ إفريقية للرقيق القيروانى (طبع فى تونس) ومقدمات الجزء الأول من رياض النفوس وراجع فى النشأة العلمية طبقات أبى العرب والبيان المغرب لابن عذارى والحلة السيراء وأخبار النحويين البصريين للسيرافى وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى وانظر فى جامع عقبة والزيتونة معالم الايمان لابن الدباغ وابن ناجى وكتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وانظر المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس لابن أبى دينار.

والحصون، ولم يلبثوا أن جاءوا إلى ابن أبي سرح مستسلمين طالبين الصلح فصالحهم، ودانت إفريقية التونسية للدين الحنيف وجنوده.

ونجد عند الفاتحين دائما هذا الشعور بأنهم مجاهدون فى سبيل الله، فابن أبى سرح قبل منازلة جريجوريوس يخطب فى الجيش محرضا على الجهاد، إنه ليس فتحا ولا غزوًا إنما هو جهاد فى سبيل إعلاء كلمة الدين الحنيف، ودائما نجد هذا الشعور ماثلا فى أذهان الفاتحين وكان أول من تعمق فى البلاد المغربية مجاهدا فى سبيل الله حتى المحيط الأطلسى عقبة بن نافع، وقد أدخل فيه قوائم فرسه ورفع وجهه إلى السماء مناجيا ربه بقوله: «اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يعبد أحد سواك» فهو وجنوده لم يكونوا غزاة للمغرب الأقصى يجمعون منه الغنائم، إنما كانوا جنودًا لله يريدون أن ينشروا دينه إلى أقاصى الأرض المعمورة. وتوفى عقبة وثار كُسَيلة، ودخل بجموعه القيروان، وفتك زهير بن قيس القائد بعد عقبة به وبجيشه حتى إذا دان له المغرب أبى أن يظل حاكما له، وعاد إلى المشرق قائلا: «إنى ماقدمت إلا للجهاد، وأخاف أن تميل نفسى بى إلى الدنيا فأهلك». فقادة الجند الفاتحين للمغرب والجند أنفسهم لم يكونوا طلاب دنيا إنما كانوا مجاهدين يبتغون نشر الإسلام طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة، وهم لذلك لا يبالون بالموت، فقد باعوا أنفسهم لله، صفقة كُلِّلت غزواتهم فى الفتوح الإسلامية بالانتصارات الحاسمة.

وتتضح خلال ذلك صفة ثانية لهم هى أنهم ناشرون للإسلام، فليس همهم من فتوحهم تملك الأرض وماعليها من طيبات الرزق، إنما همهم تملك القلوب للدين الحنيف، وهم لذلك يحاولون –كل بقدر إمكانه– تعريف البربر به وبتعاليمه، وأخذ يستجيب لهم البربر، لما وجدوا فى عقيدته من بساطة، إذ لا تعدو الإيمان بوحدانية الله. وليس فيها فكرة التثليث المعقدة عند النصارى، والله رحيم وسعت رحمته كل شىء، وهو عالم قادر شمل علمه – وشملت قدرته – كل ما فى الكون، والمسلمون عربا وبربرا سواسية فى جميع الحقوق والواجبات مع العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه، ومع محو جميع الفروق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية. وقد أخذ هذا الجند الفاتح للمغرب المجاهد فى سبيل الله يحاول – بكل ما يستطيع – نشر هذا الدين، فهم يحفِّظون البربر شيئا من القرآن، وهم يفقهونهم على تعاليم الإسلام وهَدْيه، وبذلك كانوا معلمين للبربر كما كانوا مجاهدين. ونجح تعليمهم سريعا، وأخذت جماعات كثيرة من البربر تعتنق الدين الحنيف لا اعتناقا ظاهريا، بل اعتناقا يتعمق منها القلوب والأفئدة، فإذا هى تخلص له، وإذا هى تحمل السلاح لنشره وحرب أعدائه وأعداء الله، فمن ذلك مايقال فى ولاية أبى المهاجر الإفريقية (٥٥–٦١هـ) من أن قبيلة أوربة اتحدت مع جيشه فى الاستيلاء على الساحل الشمالى للجزائر. ويصبح البربر جزءا

لا يتجزأ من الجيش العربي لعهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ نراه يعين ابنى الكاهنة التى قادت ثورة عنيفة ضد المسلمين قائدين فى الجيش بعد إسلامها، وأدخل فيه كتيبة من البربر عدادها اثنا عشر ألفا، وبذلك لم يعد فى الجيش أى فارق بين العرب والبربر، فهم يجندون فيه ويتولون قيادة بعض فرقه الكبيرة. ويتولى بعده موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فيتخذ من البربر ولاة وقوادا مثل طارق بن زياد فقد ولاه طنجة ثم جعله قائدًا للجيش الفاتح لإيبيريا وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألف جندى عربى واثنى عشر ألف جندى بربرى، وأمر موسى الجنود العرب أن يعلموا إخوانهم جنود البربر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين كما يقول ابن عذارى، وفى رواية أخرى: أن موسى ترك سبعين رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهؤلاء السبعون فقيها لا يعدون شيئا بالقياس إلى ما حدث حتى تاريخ ولاية موسى بن نصير من اندماج المغرب فى الأمة الإسلامية. إذ أصبح يدين بدينها القويم ويتكلم كثيرون من أهله بالعربية وهو عمل ضخم لاينهض به سبعون فقيها، إنما نهضت به الجيوش العربية الفاتحة للمغرب التى خرجت إليه للجهاد فى سبيل الله، ولنشر دينه وتعاليمه، مما يجعلنا نزعم أن هؤلاء الجنود كانوا مجاهدين فى نشر الدين الحنيف بالمغرب من جهة ومعلمين لأهله القرآن وتعاليم الإسلام من جهة ثانية.

(ب) النشأة العلمية

أخذ ينشأ فى القيروان وتونس – منذ أواخر القرن الأول الهجرى – جيل من مواليد إفريقية التونسية يكبُّ على حلقات العلماء الوافدين من المشرق ينهل منها مثل عكرمة مولى ابن عباس المفسر المشهور، ويقول المالكى فى رياض النفوس إن مجلسه كان فى مؤخر جامع عقبة فى القيروان حيث كان يلقى دروسه على الناس فى التفسير والحديث ومات سنة ١٠٥ للهجرة. وذكرنا فى غير هذا الموضع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى القيروان بعثة تعليمية مكوَّنة من عشرة فقهاء اختارهم، ليفقهوا الناس فى الدين ومايتصل به من تفسير للذكر الحكيم ومن شرح لبعض الأحاديث النبوية، وهم: إسماعيل بن أبى المهاجر المخزومى، وجعيل بن عمير، وإسماعيل بن عبيدالأنصارى، وعبدالله بن يزيد المعافرى، وسعدبن مسعود التجيبى، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى، وحبان بن أبى جبلة القرشى، وبكر بن سوادة الجذامى، وموهب بن حُيَى، وطلق بن جابان الفارسى. وأسند إلى ابن أبى المهاجر – بجانب عمله الدينى – ولاية إفريقية والمغرب كما أسند إلى جعيل بن عمير قضاء الجند، وبمجرد أن نزلوا القيروان اتخذ كل منهم دارًا لسكناه ومسجدا لصلاته وتعليم الناس أمور دينهم وسنة رسولهم. وهؤلاء المعلمون الرسميون للدولة كان يشترك معهم فى تعليم الشباب علماء آخرون من أهمهم يحيى بن سعيد الأنصارى الذى أرسله عمر بن العزيز عاملا على الصدقات،

وكان محدثا كبيرا وممن روى عنه الحديث الأئمة أبو حنيفة ومالك والليث بن سعد فقيه مصر والأوزاعى فقيه الشام. وقد نزل مدينة تونس وأخذ عنه شبابها الحديث يتقدمهم خالد بن أبى عمران التجيبى قاضى القيروان وزميلاه عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد.

والثلاثة من تلامذة يحيى بن سعيد الأنصارى والمعلمين العشرة الذين أرسلهم إلى القيروان عمر بن عبد العزيز وقد رأوا أن لا يكتفوا بما أخذوا عنهم بل ينبغى أن يضيفوا إلى ذلك رحلة علمية إلى مصر والحجاز والعراق للأخذ عن كبار الفقهاء والمحدثين وحملة العلم فى تلك الديار. ولقت خالد بن أبى عمران التجيبى أنظار الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة فى مصر ومالك إمام الحجاز، ورووا عنه بعض أحاديث، وهى فى موطأ مالك مأخوذة عنه بسند يحيى بن سعيد المذكور آنفا. وعبدالرحمن بن زياد تولى القضاء بالقيروان مرتين كان أبوه من جند حسان بن النعمان ولد له سنة ٧٤ للهجرة وتوفى سنة ١٦١ وحل للقاء العلماء والمحدثين فى مصر والشام والعراق والحجاز وعنه روى الحديث الفقيهان المصريان ابن لهيعة وابن وهب كما رواه عنه سفيان الثورى العراقى. وعلى بن زياد التونسى معاصره رحل بدوره إلى المشرق وتتلمذ فى مصر لليث بن سعد وابن لهيعة وفى العراق لسفيان الثورى وحمل عنه كتابه المعروف باسم جامع سفيان وفى المدينة تتلمذ لمالك، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ فى الفقه المالكى إلى المغرب، وكان يعاصره من الشباب العلمى فى القيروان عبدالله بن فروخ الذى ثقف الفقه والحديث على شيوخ القيروان، ورحل إلى العراق ولزم أبا حنيفة فترة، ثم رحل إلى الحجاز ولقى مالك بن أنس وكان يكاتبه، وهو أول من نشر فقه أبى حنيفة فى القيروان.

وهذه النشأة للعلوم الدينية رافقتها فى إفريقية التونسية نشأة العلوم اللغوية لسبب طبيعى، وهو أن من يريد حفظ القرآن ورواية الحديث النبوى لا يمكنه أن يتقن ذلك إلا إذا وقف على سُنَن العربية وكانوا يستعينون على ذلك فى أول الأمر برواية الأشعار، وكانت مدينتا البصرة والكوفة جادَّتين فى القرن الثانى الهجرى فى وضع قواعد العربية، وولى القيروان والمغرب يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) وكان بحرا فياضا وصحب معه إلى إمارته المعمَّر بن سنان التيمى، وكان - كما يقول ابن الأبار فى ترجمته بالحلة السيراء - من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب، وممن صحبه يزيد كاتم سرِّه أبو على الحسن بن سعيد البصرى، وهو من النحاة البصريين وكتاب الدواوين. وكان يزيد غيثا مدرارا فى الجود والعطاء، كما ذكرنا، فأمَّه غير شاعر، كما أمّه أو وفد عليه غير عالم نحوى ولغوى، وممن أمَّه يونس بن حبيب إمام البصرة فى النحو واللغة، وتسامع به شباب القيروان فأكبُّوا عليه يأخذون عنه ما عنده، ووفد على يزيد من الكوفة قتيبة الجعفى وهو من نُحاتها، وقد أفاد منه الشباب القيروانى وانتفعوا به، ووفد عليه

أيضا عياض بن عَوَانة الكلبى النحوى الكوفى سنة ١٥٥ فرحَّب به، وخصَّه بتعليم أولاد أسرته وعنه أخذ أبناء القيروان النحو والعربية. وأخذ ينشأ فى القيروان سريعا جيل يعنى برواية الأشعار والأخبار كما يعنى باللغة والنحو على شاكلة أمان بن الصمصامة بن الطرماح الطائى الشاعر المشهور فى العصر الأموى، وكان الصمصامة هاجر إلى القيروان فى أوائل القرن الثانى، وولد له فيها أمان، وكان راوية للغة والشعر كما يقول ابن حزم، وتتلمذ له كثيرون من شباب القيروان فى النحو واللغة والأدب. وما نصل إلى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى يصبح للقيروان نحاة بالمعنى الدقيق لكلمة نحاة من مثل عبد الملك المهرى تلميذ أمان وعياش بن عوانة وغيرهما من النحاة والرواة، ويتكاثر النحاة فى جيله وجيل تلاميذه.

(جـ) دور العلم : الكتاتيب – المساجد – جامعا عقبة والزيتونة – بيت الحكمة – الزوايا – المدارس

منذ استقر العرب فى القيروان والبلدان بإفريقية التونسية أخذت تنشأ كتاتيب لتحفيظ الناشئة القرآن وتعليمهم مبادئ العربية – حتى يحسنوا أداء الآيات القرآنية – والأحاديث النبوية. ويبدو أنها أخذت تتكاثر منذ عهد حسان بن النعمان (٧١–٨٥هـ) وكان يتعلم فيها أبناء البربر والعرب جميعا، وظلت أساس التعلم فى البلاد، مثلها فى ذلك مثل جميع البلدان العربية، وتنبه الفقيه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة إلى أهمية التعليم فى الكتاتيب وما ينبغى أن يؤخذ به فى هذا التعليم من آداب ومن صفات فى المعلمين وطرائق معاملتهم للناشئة، مما جعله يكتب فيه كتابا بعنوان «آداب المعلمين» وفيه يرسم لهم قواعد التربية للناشئة من أبناء المسلمين، وما ينبغى أن يتصفوا به فى السلوك معهم وواجبات المعلم إزاءهم وأخذه لهم بالنهج السليم، وعُنى بنفس الموضوع بعده أبو الحسن القابسى المتوفى سنة ٤٠٣هـ إذ ألف فيه كتابا باسم «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» وهو أوسع من كتاب محمد بن سحنون وأكثر تفصيلا، وفيه تحدث عن آداب معلم الإناث وما يصلح أن يعلَّم للناشئة وما لايصلح وسياسة المعلم فى تعليم الصبية إلى غير ذلك من موضوعات طريفة.

وكانت الدار الثانية للتعليم بعد الكتَّاب المسجد، حيث كان الشيوخ يتحدثون فى التفسير والحديث النبوى والفقه واللغة العربية والناس يتحلقون حولهم كما تتحلق الناشئة والشباب للتعلم وأخذ ما لديهم من تعاليم الدين وعلوم الإسلام والعربية. وقد أخذت تبنى فى القيروان وتونس وغيرها من البلدان مساجد كثيرة، ومرَّ بنا أن جميع أعضاء البعثة التى أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القيروان لتعليم الفقه والتفسير والحديث النبوى بنى كل منهم مسجدا وألحق به كتَّابا. أما الكتاب فلتحفيظ القرآن، وتنعقد الصلاة فى المسجد، ويجلس الشيخ فى جانب منه يلقى بعض دروسه الدينية.

وهناك مسجدان بل جامعان كبيران تحولا مع السنين إلى جامعتين عظميين، وهما جامع عقبة بن نافع فى القيروان وجامع حسان بن النعمان فى تونس المسمى جامع الزيتونة، والجامع الأول بناه عقبة فى تأسيسه للقيروان بين سنتى ٥٠ و٥٥ للهجرة وجدده حسان بن النعمان فى ولايته (٧١-٨٦هـ) وازداد العمران فى القيروان وضاق بأهلها فوسعه عبيدالله بن الحبحاب فى ولايته (١١٦-١٢٢هـ). ومنذ أنشىء هذا الجامع يتخذه الشيوخ من أهل العلم لمدارسة الناس فى علوم الدين وتحول سريعا مركزًا للعلوم الدينية يؤم شيوخه الطلابُ من كل أنحاء المغرب فضلا عن أرجاء إفريقية التونسية، ولم يتأخر ذلك إلى القرن الثانى الهجرى بعد توسعة ابن الحبحاب له، كما قد يظن، إذ بدأ ذلك فيه منذ إنشائه فى القرن الأول، يدل على ذلك ما ذكره أبو العرب فى طبقاته، وأشرنا إليه فى غير هذا الموضع، من أن عكرمة مولى ابن عباس وتلميذه المتوفى فى سنة ١٠٥ كان يجلس فى مؤخره ويلقى على الناس دروسه فى التفسير والحديث النبوى، ولابد أن زَخَر الجامع بحلقات أخرى لشيوخ مماثلين فى الفقه والتشريع الإسلامى، وأيضا لشيوخ يروون الأشعار والأخبار، حتى إذا ظهرت نحل الخوارج أخذ دعاتها يدعون لها، وتكونت حلقات حول بعض هؤلاء الدعاة فى جامع القيروان وخاصة حول عقيدة الإباضية. وحين ازدهرت الدعوة لمبادئ المعتزلة فى القرن الثانى أخذت طريقها إلى جامع عقبة. وكان أهل السنة يضيقون بمناظرات الدعاة لعقائد الخوارج والمعتزلة، حتى إذا ولى سحنون إمام المذهب المالكى السنى القضاء سنة ٢٣٤ للهجرة أمر بوقف مناظراتهم وإلغاء حلقاتهم، حتى لا يفسدوا - فى رأيه - الناس والشباب. وأكبر الظن أنهم عادوا إلى الجامع بعد وفاته سنة ٢٤٠ يتحلقون فيه ويتجادلون. ونمضى إلى قيام الدولة العبيدية فى القيروان، فيحرم خلفاؤها تدريس الشريعة الإسلامية على مذاهب أهل السنة من مالكية وحنفية فى الجامع، ويضطر الشيوخ إلى تدريسها للطلاب فى بيوتهم وحوانيتهم ويظل ذلك إلى مبارحتهم إفريقية التونسية وعاصمتهم المهدية إلى القاهرة، وتعود إلى الجامع حلقات أهل السنة وخاصة المالكية وتظل له مكانته الكبيرة فى الحركة العلمية بالبلاد.

وجامع الزيتونة بتونس ظل مع جامع عقبة فى القيروان يقود الحركة العلمية منذ القرن الأول الهجرى فى إفريقية التونسية، بناه حسان بن النعمان فى ولايته (٧١-٨٥هـ) وجدَّده عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٦هـ/٧٣٤م للهجرة. وأعاد تجديده وزخرفه - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - الأمير أحمد بن محمد الأغلبى وأتم بنيانه أخوه زيادة الله سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م. وأضاف إليه بنو خراسان فى إمارتهم لتونس بعض تجديدات، منها زيادة أبوابه إلى اثنى عشر بابا بعد أن كانت ستة، ودخلت عليه تجديدات أخرى فى الحقب التالية. وهو مثل جامع عقبة أخذت الدروس الدينية تعقد فيه منذ تأسيسه، وأخذ شباب تونس يختلفون إلى حلقات شيوخه، وأخذوا يتمون دروسهم فيه ويتخرجون مثل خالد بن أبى عمران التجيبى

قاضى القيروان المتوفى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م وهو أحد من سنُّوا لزملائهم فى تونس والقيروان الرحلة إلى المشرق للتزود من حلقات علمائه، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، واقتدى به فى طلب العلم بالمشرق تلميذاه عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد، والثلاثة فى الذروة من علماء إفريقية التونسية، وأمّ الطلاب حلقاتهم بتونس من كل فج. وتكثر أسماء فقهاء تونس ومحدثيها فى القرن الثالث الهجرى حتى إذا ولى الفاطميون بأخرة من هذا القرن عطلوا فى جامع الزيتونه دراسات الفقه على أساس مذاهب أهل السنة، حتى إذا انحسر ظلهم عن المهدية وغادروها إلى القاهرة عادت إلى الجامع حلقاته الدينية، وخاصة حلقات المذهب المالكى وشيوخه النابهين، وقد تهيأ له ولجامع عقبة من قديم أئمة فى الفقه، وخاصة الفقه المالكى، وكذلك فى الحديث لايقلون فقها وعلما عن نظرائهم فى البلاد العربية. وقد نال جامع الزيتونة الحظ الأعظم أيام الدولة الحفصية إذ عنيت عناية كبيرة بمبانيه ومكتباته وشيوخه وطلابه.

ومن دور العلم المهمة فى إفريقية التونسية وإن لم تعمر طويلا بيت الحكمة الذى أنشأه إبراهيم الثانى الأغلبى محاكاة لدار الحكمة التى أسسها ببغداد هارون الرشيد ورعاها ابنه المأمون. وكان هذا البيت خاصا بعلوم الأوائل مثل دار الحكمة البغدادية، وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب مبحث قيِّم فيه بالقسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية، وفيه تحدث عن تأسيس إبراهيم الثانى الأغلبى له، ونظامه وخزائن كتبه وإمداده سنويا بالعلماء والمخطوطات، إذ كان يرسل سنويا سفارة إلى بغداد لجلب إخصائيين فى علوم الأوائل وشراء مخطوطات الكتب النفيسة فى الطب والفلك والرياضة إلى غير ذلك. ويستظهر الأستاذ عبد الوهاب أن المترجمين فيه ترجموا أحيانا من اللسان اللاتينى بعض الكتب، ويقول إن هذا البيت أوجد النواة لمدرسة الطب القيروانية التى أثرت فى الحركة العلمية بالمغرب، ويذكر أن قسطنطين القسيس المسيحى المولود بقرطاجنة سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م والناشىء بالقيروان والمتتلمذ لمشاهير أطبائها نقل كتبهم الطبية المهمة إلى اللسان اللاتينى فى جامعة ساليرنو ومنها انتقلت إلى الجامعات الإيطالية وغير الإيطالية مما كان له أثره العميق فى النهضة الثقافية بالبلاد الأوربية. ونمضى إلى عهد على بنّ يحيى الصنهاجى أمير المهدية (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) فنجده ينشىء مدرسة للكيمياء زودها بما تحتاجه من آلات لتحليل المعادن وأدوات مختلفة للتقطير.

وأخذت تونس منذ القرن السابع الهجرى تستكثر - مثل بقية بلدان المغرب- من زوايا المتصوفة،وتبعتها فى ذلك بقية بلدان الإقليم التونسى وهى أشبه بمساجد صغرى تضم مبانى للشيوخ والطلاب وتلقى فيها دروس العلوم الدينية واللغوية، مما جعلها تشارك فى نشر التعليم بمستوياته المختلفة، وكان يلحق بها عادة كتّاب لتحفيظ القرآن

الكريم . وفى عصر الدولة الحفصية تجد الحركة العلمية تزدهر بفضل رعاية الدولة لها وما أنشأت من مدارس شارك فيها المهاجرون الأندلسيون إلى تونس، وأول مدرسة أُسِّسَتْها هذه الدولة مدرسة الشماعية أسسها أبو زكريا أول حكامها، وأسست الأميرة عطف أرملته المدرسة التوفيقية، وأسس أبو زكريا بن السلطان أبى إسحق مدرسة ثالثة هى مدرسة المعرض بسوق الكتبيين، وأسست أخت السلطان أبى بكر مدرسة رابعة، وأسس الوزير ابن تافراكين مدرسة خامسة، وأسس السلطان أبى عبد الله بن أبى فارس المدرسة المنتصرية، وتوفى قبل أن تتم فأتم بناءها أخوه أبو عمرو عثمان على أكمل بناء وأتقنه ووقف عليها وقفا كافيا. ونمضى إلى العهد العثمانى، ويظل للحركة العلمية نشاطها وخاصة حين قدم إلى تونس المهاجرون الأندلسيون سنة١٠١٦هـ/١٦٠٩م ويؤسس مراد باى الثانى مدرسة عرفت بالمرادية فى سوق القماش. وأسس الباى حسين بن على ثلاث مدارس:الحسينية والنخلة والمدرسة الجديدة، وأسس مدارس أخرى بالقيروان وسوسة وصفاقس ونفطة، وأسس ابن أخيه على أربع مدارس: الباشية فى سوق الكتبيين والسليمانية ومدرسة بير الحجار ومدرسة حوانيت عاشور. وبلغت المدارس فى تونس بأخرة من هذا العهد العثمانى عشرين مدرسة.

(د) المكتبات

ومما عمل على أن تظل الحركة العلمية نشيطة فى القيروان وتونس وغيرهما من بلاد إفريقية التونسية على توالى الأزمنة تأسيس المكتبات العامة وفى الجوامع والمدارس والزوايا. وكانت دائما مفتوحة الأبواب للشيوخ والطلاب يفيدون منها، وفى مقدمتها المكتبة العتيقة بجامع عقبة فى القيروان، ولابد أن كان الشيوخ فى القرنين الثانى والثالث للهجرة يهدون إليها نسخة أو أكثر من مؤلفاتهم، واهتم الأغالبة بها ووقفوا عليها كتبا كثيرة، ومثلهم الأعيان وأصحاب اليسار، ولا تزال إلى اليوم تموج بنفائس المصاحف المزخرفة وأمهات الكتب فى الفقه والتفسير والحديث والقراءات واللغة والأدب. ولما أنشأ إبراهيم الأغلبى الثانى بيت الحكمة برقادة أسس فيه مكتبة ضخمة وأخذ يجمع إليها ذخائر الكتب وروائعها فى علوم الأوائل وغيرها من العلوم الدينية واللغوية، وحين بنى عبيد الله المهدى مدينة المهدية نقل إليها كثيرا من روائع الكتب فى هذه المكتبة، وأسس حفيده المنصور مكتبة فى مدينة المنصورية وجلب إليها آلاف المخطوطات، ونقل المعز منها ومن مكتبة جده المهدى كثيرا مما كان بها من المؤلفات معه إلى القاهرة غير أن بقية فيها من الكتب ظل ينتفع بها طلاب العلم والعرفان. ومن المؤكد أن سوق الوراقين الذين ينسخون الكتب كانت رائجة، ويروى عن حمدون بن مجاهد الكلبى أنه قال: «كتبت بيدى ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب» كما يُرْوى عن أبى العرب التميمى صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس أنه قال: «كتبت بيدى أربعة آلاف كتاب» واشتهر كثيرون بتكوينهم لأنفسهم

مكتبات خاصة مثل أحمد بن على بن حميد وكان أبوه من وزراء الأغالبة، وشغف بجمع الكتب، وبيعت مكتبته بعد وفاته بألف ومائتى دينار، وشغف عبد الله بن أبى هاشم التجيبى المتوفى سنة ٣٤٦ للهجرة بنسخ الكتب وجمعها، فلما توفى بلغ وزن ما عنده من الكتب سبعة قناطير جميعها بخطه ما عدا كتابين. وكثير من العلماء كانوا يحرصون على جمع الكتب وتكوين مكتبات لهم كبيرة، منهم الطبيب أحمد بن الجزار المتوفى بالقيروان سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م كانت له مكتبة ضخمة، إذ يقول ابن جلجل الأندلسى فى كتابه طبقات الأطباء: إن وزن كتبه التى خلفها بلغ عشرين قنطارا. ويروى أن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤هـ) أشفق على أبى بكر عتيق السوسى الفقيه الحافظ الورع حين علم بضيق ذات يده مما لا يمكنه من اقتناء الكتب، فأرسل إليه -كما فى كتاب معالم الإيمان- مجموعة كبيرة من أمهات كتب العلوم الدينية حملها إليه عشرون حمالا، ومعها رسالة رقيقة يقول له فيها: «هذه كتب فى خزائننا ضائعة. وبقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعا، وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها» فالتمس الشيخ أن يكتب على كل جزء منها أنه موقوف على طلبة العلم، وأودعت جميعا بمكتبة جامع عقبة بالقيروان لينتفع بها الشيوخ والطلاب.

ولم تلبث سيول الأعراب الجارفة من بنى سليم وهلال أن اكتسحت القيروان بأخرة من أيام المعز بن باديس سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وتوقفت بالقيروان الحركة العلمية المزدهرة، وحاول على بن يحيى حفيد المعز الصنهاجى (٥٠٩-٥١٥هـ) أن يسترد المجد العلمى لإفريقية التونسية أو شيئا منه، فأنشأ بالمهدية مدرسة للكيمياء، كما مرَّ بنا، وألحق بها مكتبة، غير أنها لم تمكث سوى نحو ربع قرن. وظلت إفريقية التونسية مضطربة نحو قرن نهب فيه-أوضاع-كثير من الكتب النفيسة التى كانت مودعة فى جامعى القيروان والزيتونة، حتى إذا كان عهد الدولة الحفصية وأخذ مؤسسها يستردّ للبلاد ما كان بها من نهضة علمية أُسِّس فى القصبة بعاصمة تونس مكتبة ضخمة جمع لها بقايا مكتبات الأغالبة والصنهاجيين، وأضاف إلى ذلك كثيرا من الكتب والمؤلفات ويقال إنها كانت تحتوى ستة وثلاثين ألف مجلد. وظل خلفاؤه يعنون بجمع الكتب لها، وظل الشيوخ والطلاب ينتفعون بكتبها طوال أيام الدولة الحفصية، وكان بها كتب نفيسة كثيرة، حتى لنرى ابن خلدون يذكر أنه بعد تأليفه لمقدمته بقلعة أبى سلامة فى الجزائر احتاج إلى مراجعة بعض أمهات الكتب، فولّى وجهه إلى تونس ليطلع على ما يريد منها فى المكتبة الحفصية. واشتهر السلطان أبو فارس عبد العزيز أنه حين صار إليه صولجان الحكم سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٤م عنى بتأسيس مكتبة تحت الصومعة بجامع الزيتونة وقف كتبها على طلبة العلم، وجعل لها وقتا محدودا للاطلاع فيها كل يوم وجعل عليها قَوَمَةً ومناولين يناولون الكتب للطلبة ويردُّونها إلى مكانها بعد فراغهم منها، واشترط فى وقفيته أن لا يعار منها كتب فى الخارج محافظة عليها وصيانة، وعُنى بعده السلطان أبوعبدالله محمد بن الحسن بتأسيسه لمكتبة بنى لها مقصورة بطرف

صحن جامع الزيتونة، ونقل إليها كتب مكتبة أبى فارس وجعل لها وقتا محددا للاطلاع وقومة ومناولين وسميت نسبة إليه باسم المكتبة العبدلية. وعبث الإسبان حين استولوا على تونس - فى القرن العاشر الهجرى - بهذه المكتبة وعاثوا فيها فسادا، وأنقذ بعضهم منها كتبا أرسل بها إلى مكتبة الفاتيكان بروما، ولا تزال بها إلى اليوم. ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا ثقافة، فلم يعنوا بمكتبات تونس العناية الواجبة، حتى إذا قامت الدولة المرادية أخذ النشاط يعود إلى جامع الزيتونة ومكتبته، واطرد هذا النشاط فى عهد الدولة الحسينية منذ استولى على مقاليد الحكم مؤسسها حسين بن على إذ عين بالجامع أربعين مدرسا فى مختلف العلوم الدينية واللغوية وأجرى لهم رواتب، وانتظم التعليم بالجامع منذ ذلك الحين.

٢

علوم[1] الأوائل

لا يُذكر أحد من أصحاب علوم الأوائل قبل أيام الدولة الأغلبية إلا ما يتردَّد فى كتب التراجم عن أشخاص يسموتهم فقهاء البدن، ولم يكونوا أطباء بالمعنى الدقيق لكلمة طب، إذ كانوا يعتمدون على بعض المعارف والخبرات البسيطة. وأول ذكر للطب بمعناه الدقيق - وبالمثل لعلوم الأوائل - نلتقى به فى عهد الدولة الأغلبية حينما أنشأ إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) فى عاصمته رقّادة بجوار القيروان بيت الحكمة الذى ألممنا به فيما أسلفنا، إذ استقدم له من بغداد الدارسين للطب ولعلوم الأوائل كى ينهضوا بالدراسة فيه، وكان ممن استجابوا له فى سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م إسحق بن عمران، وكان حاذقا بالطب وعلوم الأوائل، وفيه يقول إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان: «كان إسحق طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الأدوية المركبة بصيرا بتفرقة العلل» ويقول ابن جلجل الأندلسى فى كتابه طبقات الأطباء: «به ظهر الطب فى المغرب وعُرفت الفلسفة» ويقول صاعد الأندلسى: «ممن اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعى إسحق بن عمران، وكان مقدما فى جودة قريحته وصحة

---

(١) انظر فى علوم الأوائل بإفريقية التونسية كتاب طبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والجزء الأول من البيان المغرب لابن عذارى وأخبار الحكماء للقفطى ومقدمة ابن خلدون، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ومعالم الإيمان لابن ناجى وبرنشفيك ٢/٣٨٧ وما بعدها. والجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان والقسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية. بإفريقية التونسية والعلم عند العرب لألدوميلى وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى.

علمه، وهو الذى ألف بين الطب والفلسفة بديار المغرب». وواضح أنهم جمعوا له بين الطب والصيدلة والفلسفة وعلوم الطبيعة، زهو - بحق - مؤسس مدرسة الطب وعلوم الأوائل بإفريقية التونسية، وممن تتلمذوا له فى الطب محمد بن الجزار وزياد بن خلفون، وفى الطب والفلسفة إسحق بن سليمان الإسرائيلى، وفى الفلسفة أبو سعيد الصيقل. وألف مجموعة من الكتب فى الطب وغيره، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: الماليخوليا وفى مكتبة ميونخ مخطوطة منه، ويقول ابن جلجل فى هذا الكتاب: «لم يُسْبق إسحق بن عمران إلى مثله، توفى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م. وكان يعاصره ويعمل معه فى بيت الحكمة فلكى من مواليد القيروان هو إسماعيل بن يوسف، رحل إلى العراق ودرس هناك علم الفلك والتنجيم، ويقول الزبيدى: «كان غاية فى علم النجامة» وحذق فى بغداد صنعة الطلاء المتصلة بتجميل وجوه النساء وأبدانها وتطريتها بصنوف من الطيب والعقاقير، وهو ما يسمى عند الغربيين باسم «الماكياج»، ولعلمه بهذا الطلاء والفلك اشتهر باسم الطلاء المنجم، وكان يشتغل فى بيت الحكمة بالفلك والرياضيات، ولما غلب الفاطميون على القيروان غادرها إلى قرطبة. وهو دليل على أن بيت الحكمة فى رقادة كما كان يعنى بالطب كان يعنى بالرياضيات، ونفس المشرف عليه وهو أبو اليسر رئيس دواوين إبراهيم الثانى الأغلبى كان يعرف بلقب الرياضى مما يدل على علمه بالرياضيات، ولابد أن كان البيت يعنى أيضا بالكيمياء والطبيعيات وأيضا بالفلسفة، فقد وضع إسحق بن عمران فيه أساس الدراسات فى كل ذلك.

ومن الأطباء الذين لمع اسمهم أيام إبراهيم الثانى الأغلبى زياد بن خلفون، وكان طبيبا فى دمنة (مارستان) القيروان، وكان يذهب إليها فى أيام معينة من الأسبوع لزيارة من بها من المرضى، وكان يزور أيضا دار الجُذَماء لرؤية المصابين والكشف عليهم وتتبُّع مسيرة مرضهم، توفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م. وفى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م جلب أحد رسل زيادة الله الأصغر إليه طبيبًا يهوديًّا ناشئًا من مصر يسمى إسحق بن سليمان الإسرائيلى، تتلمذ لإسحق بن عمران فى بيت الحكمة حتى إذا توفى خلفه فيه، وسرعان ما انتهت دولة الأغالبة فخدم العبيديين منذ خليفتهم المهدى إلى المعز، ويقول فيه ابن جلجل: «كان مشهورا بالحذق والمعرفة، جيد التصنيف بالعربية بصيرا بالمنطق يُعنى بالفلسفة متصرفا فى ضروب المعارف»، وعُمِّر حتى بلغ المائة، وتوفى حول منتصف القرن الرابع، وأسند إليه يهود إفريقية رياستهم الدينية، وله مؤلفات فى الطب بالعربية وتُرجمت سريعا إلى العبرية، ومن مؤلفاته العربية كتاب الحميات وكتاب البول وكتاب النبض وكتاب الترياق وكتاب بستان الحكمة وكتاب الأغذية والأدوية. ويشتهر فى القرن الرابع الهجرى طبيبان يهوديان من تلامذة إسحق بن سليمان الإسرائيلى هما دونش وموسى بن العزار، ودونش من مواليد القيروان بأخرة من القرن الثالث الهجرى تخرَّج على يديه إسحق بن سليمان الإسرائيلى فى الطب والنجوم والحساب والفلسفة، وكان يتقن العربية،

ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن ابن البيطار ينقل فى كتابه عن الصيدلة أو الأدوية المفردة عن كتاب له يسمى التلخيص وَصْفه فيه لبعض النباتات، مما يدل على أنه كان كتابا فى الأدوية المفردة، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب أن له كتابا فى الحساب الهندى وكتابا ثانيا فى الفلك وحركة الكواكب. وموسى بن العزار طبيب إسرائيلى، توفى بعد سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م وقد خدم هو وأبناؤه الدولة العبيدية وخلفاءها فى المهدية وبعد تحولهم إلى القاهرة وله كتاب باسم الأقراباذين أى الصيدلة، مما يدل على اهتمامه بتركيب الأدوية وطرق العلاج بها. ومن أطباء العبيديين الإفريقيين أَعْيُن بن أعين، وكان يحترف فى القيروان طب العيون - ويسميه العرب - الكِحالة، ولما انتقل المعز إلى القاهرة انتقل فى جملته، وكان ماهرا فى معالجة الرمد المزمن، وممن شُفى على يديه شيخ المالكية ابن أبى زيد، وله كُناش فى الطب وكتاب فى أمراض العيون ومداواتها.

وتتوارث الطب فى القيروان -منذ عهد الأغالبة- أسرة بنى الجزار، وأول من اشتهر بالطب فيها أبو بكر بن الجزار تلميذ إسحق بن عمران طبيب بيت الحكمة كما يذكر ابن جلجل، ومثله أخوه إبراهيم وكان يُعْنى بالكحالة أو طب العيون. وابنه أحمد المولود سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م بالقيروان أبرع أطباء الأسرة وقد توفى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م ومن طريف ما يروى عنه أنه بنى عند باب داره عيادة لاستقبال المرضى، وأفرد فيها قسما خاصا لصيدلية جعل لها فتى يسمى رشيقا، تعدُّ بين يديه جميع الأدوية من معجونات وأشربة ومراهم، وكان إذا فحص المريض ووقف على دائه وصف له فى ورقة ما يناسبه من الأدوية، فيأخذها إلى رشيق ويعطيه دواءه الموصوف، بالضبط كما يحدث فى عصرنا، فللأطباء عياداتهم وللأدوية صيدلياتها. وأحمد بن الجزار يقوم فى الطب بالقيروان مقام ابن سينا فى إيران والزهراوى فى قرطبة. وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ترجمة ضافية له فى القسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية تحدث فيها عن سيرته ومؤلفاته وفى مقدمتها كتابه: «زاد المسافر وقوت الحاضر» فى علاج الأمراض بجلدان، ويقول عنه إنه «من أهم الكتب الطبية العملية التى وضعها المسلمون»، ويذكر أن قسطنطين المعروف باسم الحكيم الإفريقى عمد - حين رأس كلية ساليرنو فى جنوبى إيطاليا - إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية ونسبه - كذبا وبهتانا - إلى نفسه، ويلم بما كتب حول الكتاب من بحوث فى العصر الحديث، ويذكر مؤلفات ابن الجزار بأسمائها وقد بلغت سبعة وثلاثين كتابا فى الطب والتاريخ والجغرافيا والأحجار الكريمة، وله بجانب كتبه الطبية الكثيرة كتابان فى الصيدلة بعنوان: «البغية فى الأدوية» و«الاعتماد فى الأدوية المفردة».

وتظل حركة علوم الأوائل التى غرس الأغالبة جذورها نامية فى أرض القيروان الطيبة.

ونلتقى بأبى عبد الله محمد بن يوسف التاريخى القيروانى نزيل الأندلس المتوفى سنة ٣٦٣ فى عصر المستنصر الأموى، وله كتاب عن مسالك إفريقيا وممالكها انتفع به أبو عبيد البكرى فى كتابه «المسالك والممالك»، ويُظِل القيروان عصر الدولة الصنهاجية، وكل كتب القيروان العلمية النفيسة ترجمها القسيس قسطنطين سالف الذكر فى أثناء رياسته لكلية سالرنو ولدَيْر جبل كاسينو، ولم يكد يترك كتابا علميا مهما لعلماء القيروان من أمثال إسحق بن عمران وابن الجزار إلا ترجمه هو ورهبان هذا الدير. وانتقلت ترجماته إلى العالم الغربى منذ القرن الحادى عشر الميلادى إذ توفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وكان لتلك الترجمات، كما مرَّ بنا، أثر بعيد فى النهضة العلمية الأوربية. وكان يعاصر الرياضى الفلكى الجزائرى ابن أبى الرجال رياضىٌّ قيروانى، هو عبدالمنعم بن محمد الكندى القيروانى المتوفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م وكان إماما فى الرياضيات حاذقا فى فك الأشكال الهندسية لإقليدس. ومرَّ بنا - منذ قليل - أن الأمير على بن يحيى الصنهاجى (٥٠٩-٥١٥هـ) أنشأ مدرسة للكيمياء فى عاصمته المهدية، وقد أشرف عليها كيميائى أندلسى كبير، هو أمية بن أبى الصلت، ولم تدم بعد وفاته طويلا، غير أنها تدل على ما ظلَّ بالمهدية والقيروان من روح علمية حتى مطلع القرن السادس الهجرى.

ونلتقى فى أوائل عهد الدولة الحفصية بعالم تونسى موسوعى كبير هو التيفاشى الكيميائى أحمد بن يوسف المولود بقفصة التونسية سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وقد ولاه أبوزكريا خطة القضاء ببلدة قفصة وله رحلات كبيرة إلى الشام والعراق وإيران وأيضا مصر واستقرَّ بها حتى توفى بعد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وكان قد تعمق كل فروع الثقافة الإسلامية كما تعمق علوم الأوائل، ورأى أن يضع للدارسين فى وطنه والأوطان العربية موسوعة تضم كل العلوم والفنون والتاريخ، وجعلها فى أربعين كتابا، وأفرد منها كتبًا للطب والطبيعة ومظاهرها وكل ما فيها من نبات وحيوان ومعادن، وفى كل فرع من علم يذكر ما فيه لليونان والفرس وغيرهما من العجم والعرب، ومن كتب هذه الموسوعة كتاب أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار وهو فى علم المعادن، وقد نشر فى هولانده بالقرن الماضى مع ترجمة لاتينية، وحققه فى مصر الدكتور محمد يوسف حسن ونشره مع مقدمة تحليلية. وله كتاب عن الغناء والموسيقى وآلات الطرب سماه: «متعة الأسماع فى علم السماع»، وفيه تحدث عن تاريخ الموسيقى عند العرب وفى إفريقية التونسية وفى الأندلس على مر العصور حتى زمنه، وهو طرفة نفيسة، ونلتقى فى عهد المستنصر بطبيبه: ابن أندراس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م وكانت له مشاركة فى الرياضيات والمعقولات، ويشتهر حينئذ آل الصقلى الزيات بالطب وابن الكماد الرياضى بوضعه الجداول الفلكية قبل سنة ٦٧٩هـ/١٢٨١م. وكان يلمع من حين إلى حين عالم بعلوم الأوائل وخاصة فى مجال الطب لحاجة الناس والبيمارستانات إليه، ونضرب مثلا لهم عبدالسلام بن ابراهيم الزيات الصقلى المتوفى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٣م وقد ألف ابنه أحمد المتوفى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م للسلطان

الحفصى أبى فارس عبدالعزيز - كما فى الضوء اللامع للسخاوى - مختصرًا فى الطب بوِّبه إلى ثمانين بابا. ونضرب مثلًا ثانيا بطبيب هو عبدالرحمن بن أبى سعيد الصقلى المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ومثلا ثالثا هو أحمد الحميرى من أطباء تونس فى القرن العاشر الهجرى وله كتاب فى الطب والأطباء يسمى تحفة القادم.

ولم نعرض حتى الآن لعلم الجغرافية فى تونس، وتلقانا فى مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م فصول مختلفة فى حديثه عن العمران إذ يفرد فصلا للحديث عن العمران فى الأرض وما بها من البحار والأنهار والأقاليم، وهو يعدها كرة، نصفها يابس ونصفه فقط المسكون أو المعمور، ويتحدث عن أقاليمها السبعة وانقسام كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ويقول صراحة إنه ينقل عن بطليموس الجغرافى المصرى القديم والإدريسى فى كتابه المشهور: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق الذى ألفه فى نحو منتصف القرن السادس لروجار الثانى النورمانى ملك صقلية، ويكمل حديثه الجغرافى فى ذلك عن الربع الشمالى من الأرض الأكثر عمرانا من الربع الجنوبى ويذكر مقتطفات من كتاب الإدريسى، ويضيف بعض معلومات عن جزر المحيط الأطلسى والسودان، وينقل عن ابن سعيد الجغرافى الأندلسى. وأهم من هذا الحديث الجغرافى الذى غلب عليه فيه النقل حديثه الذى يعد سابقا فيه تأثير البيئة الجغرافية فى حياة البشر وتأثير الهواء فى ألوانهم والجوع والخصب فى أبدانهم وأخلاقهم، وبجانب هذه الجغرافيا الاجتماعية عنده جغرافيا اقتصادية يصور فيها العمران البدوى والحضرى، ونصف الحضرى والمعاش وألوانه. وهذه الوجوه من الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية تعد الجوانب الجغرافية عنده.

ومعروف أن كثيرين من جغرافيى العرب عُنوا بوضع خريطة للعالم، وكان بطليموس الجغرافى المصرى القديم قد وضع خريطة للعالم تدارسها علماء العرب فى عصر المأمون ووضعوا للعالم خريطة أكثر دقة، ومازال جغرافيو العرب يضعون خرائط على هدى خريطة المأمون حتى جاء الإدريسى المذكور آنفا ووضع خريطته الكبيرة التى تراعى درجات الطول والعرض وقد أهداها إلى روجار الثانى الملك النورمانى. ونجد جيلين فى أسرة الشرقى بصفاقس فى الاقليم التونسى يعنيان بوضع خرائط للعالم ما بين عامى ٩٥٧هـ/١٥٥٠م و١٠٠٩هـ/١٦٠٠م تعد صورًا منقحة لخريطة الإدريسى كما يقول كراتشكوفسكى فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى، وقد وضع أولهم: على بن أحمد الشرقى الصفاقسى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م أطلسا فى ثمانى ورقات يصور بها سواحل البحر المتوسط وهى محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس. وفيها خريطة للقبلة وُضّحت عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة، ويليها خريطة عامة للعالم ثم خرائط لسواحل إسبانيا وجزر البليار وسواحل إيطاليا ومعها جزيرتا كورسيكا وسردانيا والساحل

المقابل لإفريقيا ثم خرائط لسواحل البحر الأسود والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى والشام ومصر وخريطة لليونان وجزر الأرخبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها، وخريطة لبرقة وطرابلس وتونس. وفى أوكسفورد خريطة للعالم رسمها أحد أبناء الأسرة سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م. ويذكر كراتشكوفسكى خريطة للعالم لأحد أبناء الأسرة سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٩م. وكان آخرهم محمد بن على الشرفى الصفاقسى وله خريطة للعالم رسمها سنة ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م. وتدل هذه الخرائط على أن خريطة الإدريسى تحولت عند هذه الأسرة إلى أطالس وخريطة حائطية، وهو بلا ريب عمل جغرافى جليل لتونس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد[١]

مرَّ بنا حديث عن نشأة علوم اللغة والنحو بالقيروان وأنها اعتمدت على بعض رواة اللغة والشعر مثل أمان بن الصمصامة بن الطرماح، كما اعتمدت على بعض نحاة كوفيين وافدين مثل قتيبة الجعفى وعياض بن عوانة. وسرعان ما ظهر جيل قيروانى خالص يعنى باللغة والشعر مثل أبى محمد عبد الله بن محمود المكفوف المتوفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وأصله من سُرْت بليبيا، ويقول القفطى: «كان من أعلم خلق الله تعالى بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها.. وله كتب كثيرة أملاها فى اللغة والعربية والغريب، وله كتاب فى العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه لما بيَّن فيه وقرَّب، وعليه قرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب، وله أشعار فصيحة وأراجيز غريبة، وله كتاب فى شرح صفة أبى زبيد الطائى للأسد جوَّد فيه وحسَّنه. وكان يعاصره عبد الملك بن قَطَن المَهْرىّ القيروانى شيخ أهل اللغة والعربية وراوى القوم وعميدهم ورئيسهم كما يقول القفطى وكان من أحفظ الناس لأنساب العرب وأشعارهم ووقائعهم وأيامهم، وكانت الأشعار المشروحة تُقْرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها، فلما دخلت هذه الأشعار مشروحة إلى القيروان نظر طلبة العلم من العربية فيها فلم يجدوا فى شرحه خلافا لما قال أصحاب الشروح ولا وجدوا عليه فى روايته وشرحه اللغوى شيئا من الخطأ، وهو

(١) راجع فى تراجم هذه الموضوعات طبقات النحويين واللغويين للزبيدى وإنباه الرواة للقفطى ومعجم الأدباء لياقوت وانظر فى عبدالدايم بن مرزوق بغية الملتمس للضبى والصلة لابن شكوال وراجع الأنموذج لابن رشيق فى المنوه بأشعارهم منهم وكذلك ابن الأبار فى الحلة السيراء وابن عذارى فى البيان المغرب وانظر المؤلفات المذكورة للحصرى وابن شرف وابن رشيق فى تراجمهم وراجع كتابنا المدارس النحوية فى ابن عصفور ومراجعه.

تلميذ لأمان بن الصمصامة وعياض بن عوانة وقتيبة الجعفى وكثير من الأعراب مثل أبى المنيع الأعرابى وغيره، غير أنه عُمِّر عمرا طويلا، إذ توفى سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م. ومن معاصريه أحمد بن إبراهيم بن أبى عاصم أبو بكر اللؤلؤى المتوفى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م وكان من العلماء النقّاد فى العربية والغريب والنحو والقيام بأكثر دواوين العرب، وهو تلميذ أبى محمد المكفوف المذكور آنفا، وألّف كتابا فى الضاد والظاء فحسَّنه وبيَّنه. ولم تلبث القيروان أن أخرجت لغويا كبيرًا طار اسمه فى الآفاق هو القزّاز محمد بن جعفر التميمى المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م درس على شيوخ القيروان، ثم رحل إلى العراق فدرس على أئمة اللغة والنحو، ونزل فى القاهرة أيام العزيز نزار (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) وعُرِف فضله، فعين فى دواوين العزيز، وألف له - استجابة إلى طلب منه - كتابا فى الحروف التى ذكرها النحاة فى قولهم: إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريقة، فبيّن معانى الحروف مع ترتيبها على حروف المعجم، فبلغ الكتاب ألف ورقة، وقدم إلى العزيز صورة منه فأعجبه ورضيه. وتوفى العزيز فعاد إلى القيروان وشُغِف به وبمجالسه الطلاب والمتأدبون لعلمه اللغوى الغزير وحسن تذوقه للأدب، ولم يكن ذواقة للأدب والشعر فحسب، بل كان أيضا ناقدًا بصيرًا وشاعرًا مجيدًا، وتخرج على يديه ابن شرف القيروانى الشاعر المبدع وابن رشيق الشاعر والناقد الممتع. وله فى اللغة معجم سماه «جامع اللغة» وهو معجم كبير رتبه على حروف المعجم، ويقول ياقوت فى معجم الأدباء عنه إنه يقارب فى الحجم معجم التهذيب للأزهرى، وله فى الضاد والظاء وتبادلهما فى الكلمات مبحث كبير فى ثلاثة أجزاء، وله المثلث فى اللغة، وله كتاب ما أُخِذ على المتنبى من اللحن والغلط، وكتاب العشرات يذكر فيه اللفظ ومعانيه المترادفة، وفى دار الكتب المصرية منه مخطوطة، وله إعراب مقصورة ابن دريد وشرحها، وكتاب الحلى والشيات فى أوصاف الآدميين طُبِع فى صيدا بلبنان، وله شرح رسالة البلاغة فى مجلدات، ومن كتبه الطريفة ضرائر الشعر، وهو دراسة تفصيلية لما يجوز للشاعر استعماله من ضرورات الشعر، وهو مطبوع بتونس. ونلتقى بتلميذه الحسن بن محمد التميمى اللغوى النسابة، وكان القزاز قد عنى به محبة له، فبلغ به نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب، وكان شاعرًا نابها قوى الكلام خبيرًا باللغة، وكان شديد الشغف بديوان ذى الرمة، وعنه أخذه الناس كما أخذوا دواوين الجاهلية. وكان يعاصره إسماعيل بن إبراهيم القيروانى اللغوى، تقدَّم فى علم الغريب وطلبه وعلو سماعه، وكان يبحث عن الشذوذ اللغوى بحثا شديدًا، وإلى أمّهات كتبه ترجع - كما يقول القفطى - جميع النسخ وبها تُقابَل وعليها تُصلح، وهو من مدّاح المعز بن باديس وفيه يقول:

بَذَّ الملوكَ جلالةً ومهابةً   وعَلا على النُّظَراء والأشكالِ

ونلتقى بعبد الدائم بن مرزوق المتوفى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م كما فى بغية الملتمس للضبى،

درس العربية على شيوخ القيروان وارتحل إلى المشرق وتجوَّل فى حلقات شيوخه بالبصرة وبغداد، ودخل الشام والتقى بأبى العلاء المعرى، وأخذ عنه ديوانيه: سقط الزند واللزوميات، وعاد إلى بلده، ولم تلبث هجرة الأعراب أن اكتسحت القيروان فهاجر إلى الأندلس، ونزل المَرِيَّة وإشبيلية، وهناك أخذ يلقى دروسه، ويروى أشعار أبى العلاء، وممن تتلمذ عليه عالم الأندلس اللغوى ابن السِّيد البطليوسى بشهادة ما يرويه عنه فى كتابه: «الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب» كما لاحظ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويقول إنه أول من أدخل شعر أبى العلاء إلى إفريقية والأندلس، وأكبر الظن أن نسخة سقط الزند التى شرحها ابن السيد وطبعت مع شروح السقط الأخرى فى القاهرة مأخوذة عن نفس المخطوطة التى حملها ابن مرزوق عن أبى العلاء، وكأنه شرحه بمجرد أن سمعه من ابن مرزوق، وأظن نفس الظن إزاء شرح ابن السيد لطائفة كبيرة من شعر اللزوميات المطبوع فى جزءين فى القاهرة، إذ اعتمد فى هذا الشرح - فيما أظن - على رواية اللزوميات التى سمعها عن ابن مرزوق، والأبيات - فى رواية ابن السيد - تصحح كثيرًا من أبيات اللزوميات المنشورة، ولعل محققا تونسيا محظوظًا يجد فى جامع الزيتونة أوجامع عقبة مخطوطة من اللزوميات مأخوذة - أو مروية - عن نسخة ابن مرزوق قبل مبارحته القيروان إلى الأندلس، ويمكن التأكد من ذلك بمراجعتها على شرح اللزوميات لابن السيد. وله معجم فى اللغة وشرح على ديوان المتنبى.

ويلقانا فى أوائل عهد الدولة الحفصية محمدبن أبى الحسين المتوفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م حاجب أبى زكريا مؤسس الدولة ووزير ابنه المستنصر، وهو من أسرة بنى سعيد الغرناطية، وكان لغويا وشاعرًا وكان ابن سيده الأندلسى قد رتب معجمه «المحكم» على أساس مخارج الحروف طبقا لمعجم العين للخليل بن أحمد، فقلب ترتيبه إلى ترتيب معجم الصحاح للجوهرى، وسمى صنيعه «ترتيب المحكم». وكان يعاصره عالم لغوى من علماء الهجرة الأندلسية فى القرن السابع الهجرى هو أحمد بن يوسف اللَّبْلى الأندلسى المتوفى بتونس سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله على كتاب الفصيح لثعلب شرح سماه: «تحفة المجد الصريح فى شرح كتاب الفصيح» ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه ينقل فيه مرارًا عن معجم القزَّاز: «جامع اللغة» وعن كتابه: «المثلث» كما ينقل فيه أيضا عن معجم ابن مرزوق، وكأن أعمال ابن مرزوق - وفى ظننا ما رواه من شعر أبى العلاء - كان لا يزال محفوظا فى موطنه حتى نهاية القرن السابع الهجرى.

وكل من نظمناهم فى سلك اللغويين - أو كثرتهم - يوصفون فى كتب التراجم بأنهم كانوا نحاة كما كانوا لغويين غير أننا لاحظنا أنه غلبت عليهم مباحث اللغة، ومرَّ بنا فى الحديث عن النشأة اللغوية أنه كان بين اللغويين نحويان كوفيان استوطنا القيروان وقد خلف بعدهما جيل

قيروانى خالص عُنى بالنحو وتعليمه، منه حمدون محمد بن إسماعيل المتوفى بعد المائتين، وفيه يقول الزبيدى: «كان مقدما فى العربية والنحو وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة منه باللغة، لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه ويستظهره» ويقول القفطى له كتب فى النحو وأوضاع فى اللغة، وكان أحد المتشدِّقين فى كلامه والمتقعِّرين فى خطابه. وكان يعاصره أحمد بن أبى الأسود النحوى القيروانى كان يقرئ النحو واللغة بمسجد قرب داره، يقول الزبيدى عنه: «له تصانيف فى النحو والغريب ومؤلفات حسان، ويقول القفطى: كان غاية فى علم النحو واللغة. ومن معاصريه عبد الله بن أبى حسان اليحصبى المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أعلامه فى البصرة والكوفة، وعاد إلى القيروان فأفاد الطلاب بما حمل من النحو وقواعده. وينشط علماء النحو فى القرنين الثالث والرابع للهجرة بالقيروان، ومنهم السُّبخى أبو على النحوى الضرير المتوفى سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م وينوه المالكى فى كتابه: «رياض النفوس» بمعرفته الواسعة باللغة والنحو وله كتاب أقيسة الأفعال. وكان يعاصره ابن الوزّان إبراهيم بن عثمان المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م يقول الزبيدى عنه: «إمام الناس فى النحو (بالقيروان) وكبيرهم فى اللغة وعظيمهم فى العربية والعروض، وانتهى فى اللغة العربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما فى زمانه فما يشك فيه أحد، حفظ كتاب سيبويه وكتاب المصنف فى غريب الحديث لأبى عبيدالقاسم بن سلام وإصلاح المنطق لابن السِّكيت ومعجم العين للخليل بن أحمد وغير ذلك من كتب اللغة ثم كتب الفرّاء، وكان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضّل المازنى فى النحو وابن السِّكيت فى اللغة، وكان يستنبط من مسائل العربية والنحو أمورًا لم يتقدمه فيها أحد. واشتهر بعده عبد العزيز بن أبى سهل النحوى اللغوى القيروانى الضرير المتوفى بالقيروان سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م وكان شاعرًا مطبوعا، ويقول ابن رشيق فى وصفه: «كان مشهورًا بالنحو واللغة جدًّا مفتَقَرًا إليه فيهما بصيرًا بغيرهما من العلوم.. ولا غنى لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، ولم ير ضرير أطيب منه نفسا ولا أكثر حياء. وكان يعاصره عبد العزيز بن خلوف النحوى، نوّه ابن رشيق بشعره وقال له فى سائر العلوم حظوظ وافرة، وحقوق ظاهرة، وأغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلق بها، وفيه ذكاء يخرج عن الحد المحدود. ونلتقى بعلى بن فضال المتوفى ببغداد سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وهو من سلالة الفرزدق الشاعر الأموى المشهور ومن أبناء القيروان النابهين فى عصره غادرها مع الهجرة الأعرابية المشهورة إلى الشرق حتى نيسابور وغزنة، وعاد إلى بغداد، فضمّه نظام الملك إلى مدرسته النظامية بها حتى وفاته، وهو مفسر كبير للذكر الحكيم، وله مصنفات مختلفة فى الأدب والتاريخ، وكان إلى ذلك عالما كبيرًا فى النحو واللغة، ومما صنّفه فى النحو «إكسير الذهب فى صناعة الأدب» فى عدة مجلدات وكتاب العوامل والهوامل وكتاب الإشارة إلى تحسين العبارة وشرح عنوان الإعراب والمقدمة وشرح معانى الحروف وغير ذلك وله كتاب فى العروض.

ودرّس مثله فى النظامية ببغداد معاصره ومواطنه عبد الله بن مسلم القيروانى النحوى أبومحمد المتوفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ويقول القفطى: كان له معرفة بالنحو واللغة. وتكاد تتوقف الحركة العلمية فى الدراسات النحوية نحو قرن أو تزيد بسبب الهجرة الأعرابية وماحدث بعدها من حروب قراقوش وابن قراتكين وابنى غانية: على ويحيى.

وتنهض بالبلاد الدولة الحفصية ويعود إلى الحركة العلمية نشاطها، وخاصة فى مدينة تونس عاصمة تلك الدولة، ويمدُّها المهاجرون من الأندلس فى صدر تلك الدولة من كبار العلماء والأدباء بوقود أدبى وعلمى جزل، فتزداد اشتعالا وضياء ونورا. ومن صفوة من هاجر إليها من نحاة الأندلس إمام كبير من أئمة النحو هو ابن عصفور الإشبيلى أبوالحسن على بن مؤمن المولود سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م والمتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وقد رحّب به مؤسس الدولة أبو زكريا واتخذه أستاذا ومعلما لابنه وولى عهده المستنصر، وأسند إليه التدريس فى جامع الزيتونة وفى مدرسته الشمّاعية، وكان يدرس للطلاب كتاب سيبويه وكتاب الجمل للزجاجى والإيضاح لأبى على الفارسى وله عليهما شرحان، كما كان يدرس لهم مصنفيه البديعين: المقرب فى الصناعة النحوية والممتع فى الصناعة الصرفية واتُّخذت أعماله فى عصرنا موضوعات للحصول على الدرجات العلمية فى الجامعات العربية لحسن عرضه لمسائل النحو وأبوابه حدودا وترتيبا وتقسيما، وفى كتابنا المدارس النحوية ترجمة له وبيان لبعض آرائه التى انفرد بها بين النحاة. وأخذ عنه فى تونس النحو تلاميذ كثيرون بحيث أصبحت له فيها مدرسة كبيرة، وتذكر أسماء نحاة فى القرون التالية، ومن أهمهم فى العهد العثمانى محمد فتاتة الفقيه فى القرن الثانى عشر الهجرى كان يقرئ الطلاب فى جامع الزيتونة مغنى ابن هشام فى النحو ولعبد القادر الجبالى شرح على شواهد المغنى فى أربع مجلدات ولمحمد سعادة حاشية على الأشمونى سماها تنوير السالك من شرح منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ولمحمد بن على بن سعيد الحجرى المتوفى سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حاشية مطولة على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك.

ومنذ نزول العرب واستيطانهم فى إفريقية التونسية كان كثيرون منهم ينشدون الأشعار العربية ويروونها للأجيال الناشئة، وما يتقدم القرن الثانى الهجرى حتى تتردد فى كتب التراجم أسماء رواة للشعر كان يلتف حولهم الشباب فى القيروان وغير القيروان لكتابة الأشعار وتدوينها، نذكر منهم سليمان بن حُميد الغافقى، وله ترجمة فى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار، وهو ممن قدموا مع الحملات التى كان يوجهها الأمويون إلى القيروان والمغرب، وله مشاركة فى الأحداث التى مرت بنا أيام عبدالرحمن بن حبيب وقتل أخيه إلياس له وعاش إلى أيام يزيد ابن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) ويقول ابن الأبار فى التعريف به: «فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره وأحسن الناس لسانا وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها

وأشعارها.. حُملت عنه نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة، وروى له ابن الأبار شعرًا فى أحد مواقفه مع بعض ثوار البربر. ومن هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار فى القيروان الحكم بن ثابت السعدى، دخل إفريقية - كما يقول ابن عذارى - سنة ١٤٤هـ/٧٦١م مع جيش محمد بن الأشعث للقضاء على ثورة الإباضيين فى طرابلس وتونس لعهد المنصور، وكان أحد قواد الجيش وبعد القضاء على تلك الثورة سكن القيروان، حتى إذا تولى الأغلب التميمى بعد ابن الأشعث شهد معه حرب بعض الثوار من البربر سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م وهو من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلى المشهور، وكان شاعرا وراوية كبيرًا للشعر، روى عنه أبناء القيروان كثيرا من أشعار الجاهليين والمخضرمين. ومن هؤلاء الرواة للأشعار الحسن بن منصور بن نافع المَذْحِجِىّ، وفيه يقول ابن الأبار: «كان بصيرا باللغة نافذًا فى النحو عالما بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها». وحرى أن نضيف إلى هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار الجاهلية والإسلامية المعمر بن سنان التيمى القادم مع يزيد بن حاتم المهلبى فى ولايته، وقد ذكرناه فى نشأة العلوم اللغوية، وأيضا لابد أن نضيف كبار الشعراء الوافدين على يزيد بن حاتم لمديحه مثل ربيعة الرَّقِّىّ الشاعر العباسى النابه وبالمثل من وفد عليه من اللغويين والنحاة أمثال يونس بن حبيب عالم البصرة النحوى واللغوى الكبير، فهؤلاء جميعا شاركوا فى رواية الشعر الجاهلى والإسلامى لشباب القيروان.

ومر بنا أن عبد الملك بن قطن كان يشرح أشعار الجاهليين والإسلاميين ويفسِّر معانيها وأنها حين نُقلت إلى القيروان ومعها شروحها وجد طلابه أن هذه الشروح تطابق شروحه. ولم تَنْقُلْ إلى القيروان فى القرن الثالث الهجرى الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية فقط، بل أخذت تنقل أيضا دواوين الشعراء العباسيين ويشهد لذلك ما رُوى عن أبى اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء المتوفى سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م من أنه أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين (العباسيين) وأشعارهم، وهو لم يدخل دواوين أمثال بشار وأبى تمام فحسب، بل أدخل أيضا رسائل أمثال عبدالحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وغيرهم، ومثل ذلك أصبح منذ القرن الثالث الهجرى مدَّ أيدى المتأدبين فى القيروان وتلقاء أبصارهم عن طريق من كانوا يرتحلون إلى المشرق-أويفدون منه-ويحملون نفائسه من الدواوين والرسائل. ومَنْ يقرأ المنتخبات الرائعة من الشعر والنثر التى جمعها أبو إسحق إبراهيم الحصرى المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٤٢١م باسم «زهر الآداب وثمر الألباب» و«جمع الجواهر فى الملح والنوادر» يعرف أنه لم يكن فى المشرق ديوان لشاعر عباسى ولا رسائل لكاتب أموى أو عباسى ولا مجموعة فى الشعر أو فى النثر، لم يكن شىء من ذلك كله غائبا عن القيروان وأديبها الحصرى، فقد اختار فى مجموعتيه السالفتين أروع وأبدع ما للمحدثين العباسيين من شعر ونثر وأخبار ونوادر وملح كما يقول، حتى لنجد عنده قطعا من نصوص أدبية مفقودة إذ نراه مثلا يختار لسهل بن هرون قطعا

من قصصه الطريفة التى صاغها محاكاة لقصص كليلة ودمنة، والتى لايوجد منها الآن فى المشرق شيء. وقد ولد بقرية تسمى الحُصْر بجوار القيروان فنُسب إليها، وهو أستاذ علمين من أعلام الأدب فى القيروان: ابن رشيق وابن شرف، وكان ودودا ومألفا لشباب القيروان ومتأدبيها، فكانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه كما قال ابن رشيق وقال عنه أيضا: إنه كان شاعرا ناقدًا عالما بتنزيل الكلام، وقد افتتح به كتابه الأنموذج فى شعراء القيروان، وذكره مرارا فى كتابه العمدة، واستشهد فيه ببعض أشعاره. وكان بحق - كما قال ابن رشيق - ناقدًا ذواقة للأدب، فجمع - وخاصة فى زهر الآداب - فرائد بديعة من شعر المحدثين ونثرهم وأخبارهم، وكأنه أراد بذلك أن يكمل كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ رآه يشغله بكلام الإسلاميين والجاهليين، ولايعنى بالعباسيين العناية الكافية فرأى أن يكمل مختاراته الجاهلية والإسلامية بمختاراته الشعرية والنثرية للعباسيين، ولاحظ ذلك ابن بسام فى ترجمته بالقسم الرابع من كتابه الذخيرة. فقال: «عارض الحصرى أبا بحر الجاحظ بكتابه الذى وسمه بزهر الآداب فلعمرى ما قَصُر عن مداه ولا قصرتْ خُطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه بكلام أهل العصر (يريد العباسيين) دون كلام العرب لكان كتاب الأدب، لاينازعه ذلك إلا من ضيَّق عينيه الرمد، وأعمى بصيرته الحسد». وهى شهادة قيمة بروعة الكتاب وروعة ما يحمل من النصوص العباسية شعرًا ونثرًا. وربما كانت أهم مجموعة أدبية بعده فى القطر التونسى مجموعة الحماسة لأبى الحجاج يوسف بن محمد البَيَّاسى الأندلسى نزيل تونس المتوفى سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٦م وقد كتبها بتونس سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م وقرأها الطلاب عليه، ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية.

وحاول ابن شرف القيروانى الشاعر المتوفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بالأندلس أن يكون له نصيب فى عالم النقد، فكتب مبحثا يسمى تارة أعلام الكلام، وتارة رسائل الانتقاد، وطبع بالعنوانين، تناول فيه الشعر والشعراء منذ الجاهلية إلى زمنه، وهو ملاحظاتٌ مجملة أكثر منه آراءٌ نقدية، أو هو انطباعات عن الشعراء فى جمل مسجوعة، وكأنه يؤلِّف مقامة - لامبحثا نقديا - عن الشعراء، ومن قوله عن أبى نواس: «أول الناس فى خرم القياس. وذلك أنه ترك السيرة الأولى وتنكَّب عن الطريقة المُثْلى، وجعل الجد هزلا صادف الأفهام قد كلَّت.. فتهادى الناس شعره، وأغلوا سعره، وشُغفوا بأسخفه، وكلفوا بأضعفه» ويقول عن ابن الرومى: «شجرة الاختراع، وثمرة الابتداع، وله فى الهجاء ما ليس له من الاطراء، فتح فيه أبوابا، وخلع منه أثوابا، وطوق فيه رقابا، يطول عليها حسابه، ويمحق فيها ثوابه» وكأنه يقيس هجاءه بمقياس خلقى لا بمقياس فنى. ويقول فى المتنبى: «شُغلت به الألسن، وسَهِرتْ فى أشعاره العيون الأعينْ، وكثر الغائص فى بحره، والمفتش فى قعره عن جُمانه (لؤلؤه) ودُرِّه، وله شيعة تغلو فى مدحه، وعليه خوارج تتعاون فى جرحه»، وهكذا آراؤه فى الشعر انطباعات لا تحمل تعليلا ولا دليلا.

ولم تعن القيروان بالبلاغة كما عنيت بالنقد، وأكبر نقاد القيروان وبلاغييها المعدودين فى النقاد والبلاغيين الكبار ابن رشيق المتوفى بمازر فى صقلية سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م وله كتاب «قراضة الذهب فى صناعة الأدب» وهو فى السرقات الشعرية، وله كتاب «العمدة فى صناعة الشعر ونقده»، وهو يجمع فيه بين النقد والبلاغة، ويقول فيه القفطى: «اشتمل على مالم يشتمل عليه تصنيف من نوعه وأحسن فيه غاية الإحسان» وقال القاضى الفاضل: «هو تاج الكتب المصنفة فى هذا النوع» وقال فيه ابن خلدون فى مقدمته: «هو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة – يريد صناعة الشعر – وإعطائها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». وهى شهادة قيمة. وكل من يقرأ الكتاب يعرف بوضوح أن ابن رشيق وضع بين يديه كل ما أنتج المشرق من مباحث ومؤلفات فى النقد والبلاغة من مثل البيان والتبيين للجاحظ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة والبديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة ونقد النثر لابن وهب والموازنة للآمدى والصناعتين لأبى هلال العسكرى وكتابات الحاتمى فى البديع والبلاغة وأضاف إلى ذلك كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلى، وسوّى من ذلك كله – وربما اطلع على كتب أخرى – كتابه الذى ذاع وشاع فى العالم العربى غربًا وشرقًا منذ تأليفه إلى اليوم لدقة منهجه وحسن تبويبه وترتيبه، ولما يحمل من مواد طريفة تحيط بالشعر وصُنعه ونقده وفنون بلاغته. وقد بدأه بالدفاع عن الشعر والشعراء واضعا الشعر فى مرتبة بلاغية أعلى من مرتبة النثر. ويفرد بابا لبلاغة اللفظ والمعنى قائلا إنهما متلازمان، فاللفظ جسم وروحه المعنى، ويقول إن للشعر لغة خاصة به، ويعرض للمكثرين والمقلين من الشعراء وللمطبوعين والمتكلفين ولأصحاب مدرسة البديع وللوزن والقافية وعمل الشعر وشحذ القريحة له ولافتتاح الشعراء قصائدهم بالنسيب وللمبدأ والخروج من فاتحة القصيدة إلى موضوعها وللمخترع فى الشعر والبديع، ويفصِّل القول فى الاستعارة والتشبيه أهم ألوان البيان ويفيض إفاضة واسعة فى ذكر ألوان البديع ومحسناته متأثرا بأبى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين والحاتمى فى كتابه حلية المحاضرة، وقد اعتمد على الكتاب الأخير اعتمادا واسعا فى حديثه عن ألوان البديع وفنونه من مثل الجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتسهيم والترصيع وصحة التقسيم إلى غير ذلك من محسنات كثيرة. وكأن القيروانيين لم يجدوا حاجة إلى التأليف فى البلاغة وفنون البديع بعده، وبالمثل فى نقد الشعر وصناعته، وقد تحدث حديثا مستفيضا عن موضوعات الشعر بادئا بالنسيب ومفصلا القول فى كل موضوع تفصيلا دقيقا، وتحدث عن السرقات الشعرية، واتفق مع النقاد فى أن السرقة إنما هى فى البديع المخترع الذى يختص به شاعر ويسرقه أحد الشعراء، لا فى المعانى المشتركة بين الشعراء. ويذكر مايحتاج إليه الشاعر من المعارف والثقافة. والكتاب غنى بالأفكار والآراء النقدية، ومثله فى هذا الغنى كتابه: «أنموذج الزمان فى شعراء القيروان» وقد جمعه من بطون المخطوطات وغيرها من الكتب وحققه

تحقيقا علميا سديدا الأستاذان محمد العروسى المطوى وبشير البكوش وقدما له بمقدمة قيمة. وقد استطاعا بدأبهما العلمى جمعه من مخطوطات مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى والوافى بالوفيات للصفدى وغيرهما من المخطوطات والمصادر، وبذلك ردّاه إلى الحياة بصورة إن لم تكن طبق الأصل تماما، فهى مقاربة له أشد القرب. وفى الكتاب مائة ترجمة للشعراء من معاصريه، مما يدل على حدوث نهضة شعرية لعصره فى القطر التونسى. وهو يستهل كل ترجمة لشاعر بسطور عنه وعن صفته وشعره ثم يورد ما اختاره من أشعاره مع بعض أحكام نقدية. والكتاب يؤرخ بدقة للحركة الأدبية فى عصر الدولة الصنهاجية، وبعبارة أدق فى عصر المعز بن باديس. ولا يلقانا بعد ابن رشيق ناقد كبير أو بلاغى كبير فى القيروان أو تونس إلا ما كان من حازم القرطاجنى نزيل تونس فى عهد المستنصر بن أبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وعاش حتى سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٦ م وله فى النقد والبلاغة كتابه المعروف: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» وهو فيه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدهما عند اليونان وبدون ريب أفاد منه المتأدبون بتونس، وأنه أعاد لهم درسه مرارا، وقد تحدثت عنه فى الجزء الخاص من هذه السلسلة بالأندلس.

٤

علوم[1] القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

بمجرد أن أُسّستْ القيروان وتونس كان هناك مقرئون كثيرون يُقْرئون الناشئة فى الكتاتيب، ودائما أينما وُجد الفاتحون فى صدر الإسلام والعصر الأموى دَوَّوْا بالقرآن الكريم دوىَّ النَّحْل، وكان منهم دائما من يتجرَّدون لتحفيظه للداخلين فى الإسلام وإقرائهم آياته الكريمة، ومن الصعب التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم، فهم كالجندىِّ المجهول، يُرَى أثره ولا يُعْرف اسمه، غير أن كتب التراجم أحيانا تذكر بعض الأسماء ممن حَظُوا بإقراء القرآن فى الأزمنة المبكِّرة،

---

(١) راجع فى هذه العلوم طبقات أبى العرب ورياض النفوس للمالكى وطبقات القراء لابن الجزرى ورحلة العبدرى وطبقات المفسرين للسيوطى ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى ومقدمة ابن خلدون فى العلوم والديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب لابن فرحون والحلل السندسية فى الأخبار التونسية لأبى عبد الله السراج تحقيق الأستاذ محمد الحبيب الهيلة وذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجة تحقيق وتقديم الأستاذ الطاهر المعمورى وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف وعنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب وكتاب ورقات للأستاذ حسين حسنى عبد الوهاب والحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية (مقال فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

من ذلك اسم أبي منصور مولى سعد بن أبي وقّاص، وهو - كما في كتابي رياض النفوس والمعالم - ممن دخل إفريقية وسكن القيروان، وكان مقرئا للقرآن ومحدّثا وفقيها مفتيا. واجتماعُ الفقه ورواية الحديث النبوي مع إقراء القرآن الكريم لأبي منصور لا يستغرب، لأن التابعين من أمثاله كانوا يجمعون بين إقراء الناشئة والناس للقرآن وإسماعهم بعض الأحاديث النبوية وتفقيههم في الدين بمعرفة أحكامه وتعاليمه. وعلى هذه الشاكلة كان الفقهاء العشرة أعضاء وفد عمر بن عبد العزيز لسنة مائة للهجرة، فهم يقرئون الناس الذكر الحكيم ويروون لهم بعض الأحاديث النبوية ويعلمونهم أمور دينهم الحنيف. وعُنى بعض القيروانيين بحمل قراءات القرآن عن نافع قارئ المدينة. وكان ورش المصري قد حمل قراءته فأخذتها جماعة من القيروان عن تلاميذه المصريين. ومن أهمهم في القرن الثالث الهجري محمد بن عمرو بن خيرون المتوفى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م. وقد حمل قراءة ورش، وقدم بها إلى القيروان كما يقول ابن الجزري في طبقاته، وكان الغالب على قراءة الناس فيها قراءة حمزة أحد القراء السبعة، ولم يكن يقرأ قراءة نافع إلا خواص الناس. فلما قدم ابن خيرون إلى القيروان اجتمع عليه الناس ورحل إليه القرّاء من آفاق المغرب. ومن مؤلفاته كتاب الابتداء والتمام وكتاب الألف واللام. وكما أخرجت القيروان إماما لغويا هو القزاز، وإماما ناقدا بلاغيا هو ابن رشيق، أخرجت إماما في القراءات، هو مكي بن أبي طالب القيسي المولود بالقيروان سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ولما استكمل القراءات بالقيروان رحل إلى مصر سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وتتلمذ في القاهرة لشيخ قرائها ابن غلبون، وكأن يعود إلى بلده ثم يرجع إليه، حتى أخذ كل ما عنده، وهاجر إلى قرطبة سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وظل يقرئ بها الناس حتى توفي سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وله في القراءات كتاب التبصرة في خمسة أجزاء، وكتاب ثان في أصول قراءة نافع، وكتاب ثالث في المدِّ لورش، وذكر له ابن خلكان عشرات من الكتب في القراءات والتفسير والفقه والعربية. وكان يعاصره أحمد بن عمار المهدوي المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله كتاب الهداية في القراءات السبع وله عليه شرح كما يقول ابن الجزري وله كتاب الموضح في تعليل وجوه القراءات. وظلت قراءة الذكر الحكيم ناشطة في القيروان على مدار السنين، واشتهرت بها أُسَرٌ توارثتها جيلا بعد جيل، ويصور ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره العبدري في رحلته حين زار تونس في سنتي ٦٨٨هـ/١٢٩٠م و٦٩١هـ/١٢٩٢م والتقى بالرحالة التونسي أبي الحسن علي بن إبراهيم التجاني في مسجد إقرائه، ومما قال له: «أنا الثاني عشر مدرسا من آبائي على نسق كلهم قعدوا هنا» (أي في هذا المسجد) للإقراء. وهذا يعني أن بيت التجاني في تونس توارث الإقراء للقرآن طوال اثني عشر جيلا متعاقبين، وإذا حسبنا لكل جيل ثلاثين سنة على الأقل كان معنى ذلك أن الأسرة توارثت إقراء القرآن نحو ثلاثة قرون ونصف أي منذ منتصف القرن الرابع الهجري. ومن كبار القراء في العهد الحفصي أبو القاسم اللبيدي معاصر التجاني صاحب الرحلة. وكان الطلاب يقرءون

عليه بمسجد إقرائه كتاب التيسير فى القراءات السبع للدانى. وأشهر القراء بعده محمد بن بدّال المتوفى بمنتصف القرن الثامن الهجرى وكان يدرس لطلابه قصيدة الشاطبى فى القراءات: حرز الأمانى ويفسر أبياتها لهم، ولجمال ترتيله وحسن صوته كانت تُشَدّ إليه الرحال لسماعه، وكان السامعون من حوله يُرَوْن بين خاشع وباك وداع. وكان يعاصره محمد بن محمد بن حسين الأنصارى، وكان يقرئ تلاميذه بقراءة الأئمة الثمانية، ومنهم الفقيه الكبير محمد بن عرفة الوَرْغمى الآتى ذكره بين الفقهاء والمتوفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى وكان مقرئا كبيرا ومجودا عظيما للقرآن الكريم. ويكثر فى ترجمة العلماء أن يقال عنهم إنهم مجيدون فى قراءة القرآن، ونجد فى العهد العثمانى وظيفة فى جامع الزيتونة مخصَّصة لقراء القرآن العظيم على كرسى الجامع، وممن تولاها الشيخ على السويسى، وأيضا وظيفة أخرى لشيخ القراء وممن تولاها فى القرن الثانى عشر الهجرى مصطفى الأزميرلى، وكان يعاصر قاره باطاق وله كتاب فى القراءات العشر سماه: «الجواهر النضرة والرياض العطرة فى متواتر القراءات العشرة».

وطبيعى أن كانت الأجيال الأولى فى القيروان وتونس التى اعتنقت الدين الحنيف وأخذت تحفظ بعض آيات القرآن تطلبت معرفة تفسير ما تحفظه، فكان المقرئون الأولون لهم يحاولون إفهامهم ما يحفظونه، وتنشأ فى المشرق حركة واسعة فى تفسير القرآن، ويشتهر عبد الله بن العباس الصحابى الجليل ابن عم الرسول ﷺ بإتقانه لتفسيره حتى ليصبح إماما كبيرا فيه، ويحمله عنه تلاميذ مختلفون، ويتوزعون بما حملوه فى البلدان الإسلامية وتحظى القيروان بتلميذ بربرىّ له، هو عكرمة مولاه، ويقول أبو العرب فى طبقات علماء إفريقية وتونس: «كان مجلسه فى مؤخر المسجد الجامع (جامع عقبة بالقيروان) فى غربى المنارة بالموضع الذى يسمى بالركيبِيَّة». وما من ريب فى أنه كان يلقى فى مجلسه على الناس تفسير مولاه ابن عباس للقرآن الكريم، وسمعه منه خلق كثيرون من أهل القيروان وغيرهم، وقد أدخل الطبرى تفسيره الذى حمله عن ابن عباس فى تفسيره الكبير بحيث يمكن لباحث أن يستخرجه منه وينشره مستقلا، وما زال عكرمة يلقى دروسه حتى توفى سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م. ومن المفسرين للذكر الحكيم فى القرن الثانى الهجرى يحيى بن سلام وقد حرَّره بالقيروان سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وكان الطلاب يقصدونه من كل فَجّ لسماعه منه، ويذكر أبو العرب فى طبقاته أن عيسى بن مسكين سمع تفسير ابن سلام من موسى بن جرير، كما يذكر أن أسد بن الفرات قاضى القيروان وفاتح صقلية المتوفى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م كان يفسر الذكر الحكيم فى بعض مجالسه أو فى بعض دروسه بجامع القيروان، وللمقرئ الكبير مكى بن أبى طالب المار ذكره كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية فى معانى القرآن وتفسيره وأنواع علومه: سبعون جزءًا، وكتاب الإيضاح فى ناسخ القرآن ومنسوخه ثلاثة أجزاء. ويلقانا فى القرن الخامس لعهد الدولة الصنهاجية مفسر كبير هو على بن

فضّال المتوفى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وله التفسير المسمى البرهان العميدى فى عشرين مجلدا، وله تفسير ثان باسم الإكسير فى علم التفسير: خمسة وثلاثون مجلدا، وله النُّكت فى القرآن. وصنف كتابا فى شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ومرَّ بنا أن نظام الملك ألحقه بمدرسته النظامية فى بغداد يدرس لطلابها، وله كتب كثيرة فى النحو ذكرنا بعضها فى حديثنا عن النحاة فى القيروان، ولعله كان يدرس فى النظامية التفسير والنحو معا. ومن كبار المفسرين فى أوائل عصر الدولة الحفصية عبد العزيز بن محمد القرشى المعروف بابن بزيزة المتوفى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وهو من كبار الفقهاء الحفاظ وله تفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية الأندلسى وطريقة الزمخشرى وعليه تخرجت طائفة كبيرة من طلاب تونس فى العلوم الدينية. ومن كبار المفسرين فى القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد النور التونسى تلميذ ابن زيتون المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م وله اختصار تفسير الفخر الرازى. ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بمفسر من كبار الحفاظ هو محمد بن عمر الأُبِّى المتوفى سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م تلميذ ابن عرفة، وله تفسير كبير للقرآن الكريم كان يقع فى ثمان مجلدات. ولمحمد زيتونة المتوفى بالقرن الثانى عشر الهجرى فى العهد العثمانى حاشية على تفسير أبى السعود. وبدون ريب كان المفسرون للقرآن الكريم يعرضون على الطلاب أمهات كتب التفسير المشرقية للطبرى والزمخشرى والفخر الرازى وغيرهم، وظل ذلك فى العهد العثمانى، إذ نجد الشيخ محمد الفاسى يدرس لطلابه تفسير البيضاوى، ولابد أن غيره من كتب التفسير المهمة كان يعرض على الطلاب.

ويتكاثر المحدثون فى القيروان وتونس كثرة مفرطة، ومن قدمائهم فى القيروان حنش بن عبدالله الصنعانى، دخل إفريقية غازيا مع موسى بن نصير (٨٦ - ٩٦ هـ) وسكن القيروان وحدَّث بها، كما حدَّث بها عكرمة مولى ابن عباس المار ذكره بين المفسرين. ونلتقى ببعثة عمر بن عبدالعزيز التى كانت مؤلفة من عشرة فقهاء، وجميعهم كانوا محدِّثين وقرَّاء وفقهاء كما مرَّ بنا وكان يعاصرهم عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة قاضى القيروان لعمر بن عبد العزيز ويحيى بن سعيد الذى أرسله عمر بن عبد العزيز عاملا على الصدقات، وكلاهما حُمل عنه الحديث كما حمل عن معاصرهما أبى غطيف بشر المذلى، وهو يروى عن جماعة من الصحابة وخاصة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعليه اعتماده فى الرواية. ونلتقى بمحدث تونسى كبير سبقت الإشارة إليه هو عبد الرحمن بن زياد قاضى القيروان فى عهد المنصور وقلنا عنه فى النشأة العلمية إن ابن وهب وابن لهيعة الفقيهين المالكيين المصريين رويا الحديث عنه، وذكرنا معه هناك على بن زياد التونسى، وقلنا إنه أول من أدخل الموطأ لمالك وجامع سفيان الثورى فى الحديث إلى إفريقية التونسية، وكان يعاصره المحدث عبد الرحمن بن الأشرس زميله فى التلمذة على مالك. ونلتقى بالبهلول بن راشد المتوفى بالقيروان سنة ١٨٣هـ/٧٩٩ م وهو تلميذ مالك بن أنس وسفيان الثورى، وتتلمذ لليث بن سعد فقيه مصر، وكان معروفا بالتقوى

والتمسك بالسنة، وتُقُصّ عنه فى ذلك حكايات كثيرة، مما جعل أبا العرب والمالكى والدباغ يطيلون فى الترجمة له. ومن المحدثين بعده يزيد بن محمد الجُمحى المستشهد فى فتح صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان ثقة صدوقا كثير الحديث سمع من مالك بن أنس فى المدينة وغيره من كوفيين وبصريين وشاميين. وكان يعاصره موسى بن معاوية الصمادحى المتوفى سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م وأكثر مثل الجمحى من الأخذ عن مالك والكوفيين والبصريين وغيرهم، وكان يرابط بالمُنستير على الساحل قرب القيروان فى شهر رمضان، ويقول عنه سحنون إنه كان أطول رُفقتنا صلاة، وربما أمضى بعض الليالى مصليا. ومن معاصريه عون بن يوسف الخزاعى المتوفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م وكان إذا قال فى كتبه «حدَّثنا» فهو سماع، وإذا قال «أخبرنا» فهو إجازة. ويزدهر مذهب مالك فى القيروان منذ القرن الثالث الهجرى، وكان العلَم المنصوب بأعين أصحابه كتابه «الموطأ» وهو كتاب فقه وحديث، مما جعل فقهاءه جميعا محدِّثين، ولذلك من الصعب أن نفرد المحدثين من الفقهاء منذ هذا القرن.

ونكتفى بذكر ألمع المحدثين فى القرون التالية، ومن ألمعهم وأنبههم فى القرن الرابع الهجرى أبوالحسن القابسى على بن محمد بن خلف المار ذكره فى صدر حديثنا عن دور العلم، وإليه انتهى تدريس الحديث النبوى فى القيروان وكان قد رحل إلى المشرق ورجع منه بكنوز نفيسة أهمها ما حمله إلى الطلاب والشيوخ فى جامع الزيتونة من صحيح البخارى، وكان يدرسه للطلاب، وعنيت به إفريقية التونسية بعده كما عنيت بصحيح مسلم، وهما جميعا وكتب السنة الأربعة المشهورة: للترمذى والنسائى وأبى داود وابن ماجة محل إجلال وتوقير فى بلدان العالم الإسلامى جميعه. وللمازرى محمد بن على الصقلى نزيل المهدية وحامل لواء العلوم الدينية فيها وفى البلدان المغربية المدفون بالمُنستير سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م شرح نفيس على صحيح مسلم سماه المعلم بفوائد مسلم، وشرحه القاضى عياض باسم إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، وللأُبِّى التونسى المار ذكره بين المفسرين شرح على صحيح مسلم سماه: «إكمال الإكمال بفوائد مسلم» فى سبع مجلدات جمع فيه بين شرح المازرى، وشرح عياض، وشرح النووى. ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى الأصل التونسى المولد والموطن المتوفى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. وكان يقرئ تلاميذه فى جامع الزيتونة الصحيحين: صحيح البخارى وصحيح مسلم. ونلتقى فى أوائل العهد العثمانى بالشيخ إبراهيم الرياحى وكان يدرس للطلاب شرح القسطلانى على صحيح البخارى، ويذكر ابن أبى دينار فى أواخر كتابه «المؤنس» طائفة من كبار المحدثين فى القرن الحادى عشر الهجرى بتونس، منهم أبو العباس أحمد الشريف الحنفى وأبو الحسن على الغماد وسعيد المحجوز وأبو عبد الله محمد تاج العارفين العثمانى، وممَّن يضاف إلى هؤلاء المحدثين من كتاب ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان محمد برناز، ومحمد قويسم، ومحمد فتاتة ومحمد زيتونة.

وكان الفقهاء فى أول الأمر يجمعون كما ذكرنا بين إقراء القرآن ورواية الحديث النبوى والفتوى فيما يجد من أمور الدين، ولذلك من الصعب أن نميز فى القرن الأول الهجرى وغير قليل من القرن الثانى بين الفقيه والمحدث والمقرىء، ونفس بعثة عمر بن عبد العزيز فى سنة مائة للهجرة يقال عن كل منهم فى كتب التراجم إنه يجمع بين هذه الصفات الثلاث أو قل إنها تصف بذلك نفرا منهم وتترك الباقين لأنه معروف أنهم جاءوا لتحفيظ الناس والناشئة القرآن وتفقيههم فى الدين بما يلقنونهم من تعاليمه ومن أحاديث الرسول ﷺ. ونقرأ عن على بن رباح اللخمىّ أنه قدم إفريقيا غازيا فى عهد موسى بن نصير وأنه سكن القيروان واختط بها مسجدا ومنزلا لسكناه وأن أهلها تفقهوا عليه، وهو تابعى روى عن عمرو بن العاص وأبى هريرة وأبى قتادة وغيرهم من الصحابة، وبذلك نستطيع أن نعده أول فقيه قيروانى. وجاء بعده خالد بن أبى عمران التُّجيبى، قدم أبوه مع جيش حسان بن النعمان واستوطن مدينة تونس، وولد له فيها خالد وحفَّظه أبوه القرآن وروى عنه وعن بعض القيروانيين الحديث ورحل إلى المشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومن عروة بن الزبير وله كتاب كبير عنهم فى الحديث وروى له مالك فى الموطأ بعض أحاديث نبوية سمعها - كما مر بنا - من يحيى بن سعيد فى القيروان، وكان فقيها بصيرا بالفتوى وتولى قضاء تونس إلى أن توفى سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م. ونلتقى بعده بأبى كريب عبد الرحمن بن كريب قاضى القيروان وفقيهها المستشهد فى حرب الصُّفْرية سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م.

وأخذ كثيرون من القيروانيين يرحلون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولقاء مالك إمام دار الهجرة: المدينة، وسماع الموطأ منه، ولم يلبث نفر منهم أن تجردوا لحمل الكتاب، وسبق إلى ذلك على بن زياد من أبناء تونس - كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - فكان أول من جلبه إلى موطنه، وأخذ يدرسه فى جامع الزيتونة، وحمله - أو أخذه عنه - كثيرون من تونس ومن القيروان ومن غيرهما. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب توجد قطعة من روايته للموطأ فى مكتبة القيروان العتيقة، ومر بنا تعريف به فى النشأة العلمية، توفى عن سن عالية سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وذكرنا أنه كان يعاصره عبد الله بن فرّوخ، وكان أبوه خراسانيا قدم إلى القيروان فى جيوش الأمويين وسكنها وولد له فيها عبد الله، وقد حفظ القرآن ثم تتلمذ على شيوخ بلدته، حتى إذا أخذ ما عندهم اتجه إلى العراق، ونزل الكوفة وصحب الإمام أبا حنيفة مدة طويلة مكنته من أن يحمل عنه مذهبه الفقهى الحنفى، ولم يرجع إلى القيروان مباشرة بل عرَّج على المدينة وسمع من الإمام مالكا وهو يلقى الموطأ، ورجع إلى القيروان، وأخذ ينشر فى طلابه فقه أبى حنيفة، توفى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م. وكان من أنبه الطلاب فى زمنه وزمن على بن زياد شاب تونسى هو أسد بن الفرات، كان أبوه خراسانيا، دخل تونس مع جيش ابن الأشعث

سنة ١٤٤هـ/٧٦١م واستوطن تونس، وولد له فيها أسد، وفيها نشأ وحفظ القرآن، ثم اختلف إلى على بن زياد وابن فروخ، ورحل إلى الحجاز، فسمع من مالك الموطأ، ثم رحل إلى العراق فاستمع إلى أصحاب أبى حنيفة وخاصة أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى ونزل الفسطاط ولزم دروس عبد الرحمن بن القاسم إمام المذهب المالكى بعد أستاذه مالك ودوّن ما سمعه عليه فى مدوّنة له تسمى الأسدية، وأخذ أسد يدرس فى القيروان مدوّنته عن ابن القاسم لطلابه، وتولّى القضاء لزيادة الله الأغلبى، فكان تارة يأخذ فى قضائه بمذهب مالك وتارة بمذهب أبى حنيفة حسب ما يتراءى له من الوجه الصحيح فى الحكم. ومعروف أنه كان القائد فى فتح صقلية، واستشهد بعد فتحه لبعض بلدانها سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م.

ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى يكون الطلاب فى تونس والقيروان عرفوا - معرفة جيدة - مذهب مالك عن طريق على بن زياد وأسد بن الفرات، كما عرفوا مذهب أبى حنيفة عن طريق عبد الله بن فروخ وأسد بن الفرات أيضا وإن غلب عليه مذهب مالك. ومضى المذهبان يتعايشان فى القرن الثالث الهجرى. ولكل منها فقهاؤه، وكان مما مكّن للمذهب الحنفى فى القرن الثالث أن الأغالبة كانوا يختارون غالبا القاضى من الأحناف، كما كان يصنع العباسيون، وكانت كثرة الفقهاء فى القيروان تؤثر مذهب مالك. ونستطيع أن نميز بين فقهاء الأحناف المهمين حينئذ معمر بن منصور رفيق أسد بن الفرات فى تلمذته على عبد الله بن فروخ، ومثله سليمان بن عمران، وكان يلزم أسد بن الفرات، ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد زيادة الله الأغلبى الأول أبو محرز محمد بن عبد الله الكنانى، وكان هو وأسد بن الفرات شريكين فى القضاء بالقيروان، وتناظرا أمام زيادة الله فى النبيذ، فكان أسد يقول بتحريمه وأبو محرز يخالفه متابعا لرأى الأحناف وهم لا يحلّونه مُسْكِرا وإنما قبل إسكاره. ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد الدولة الأغلبية عبد الله بن محمد بن الأشج، قال الخشنى فى طبقاته: كان مذهبه مذهبَ الكوفيين، توفى سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩م. وكان يعاصره الفقيهان الحنفيان أبو العباس بن القيار، وأبو العباس بن عبدون القاضى، ويقول الخشنى عنه: «كان حافظا لمذهب أبى حنيفة، ولاه إبراهيم بن أحمد (الأغلبى) القضاء ثم عزله» توفى سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩م. ومنذ استولت الدولة العبيدية على القيروان من الأغالبة أخذ المذهب الحنفى يقل فقهاؤه ولما انتهت تلك الدولة أخذ المذهب المالكى فى الغلبة عليه حتى إذا كان المعز بن باديس وحمل الناس والفقهاء على مذهب مالك دون غيره من المذاهب إرضاء للجماهير فى رعيته قلّ فى القيروان وإفريقية التونسية من يعنى بالمذهب الحنفى، ونستطيع أن نذكر منهم فى أوائل عهد الدولة الحفصية محمد الزناقى إذ يقول صاحب الحلل السندسية إنه كان إماما فى المذهب الحنفى. ويعود المذهب الحنفى إلى ما كان له من الازدهار فى زمن الأغالبة أيام الحكم العثمانى، وبعبارة أدق منذ عهد يوسف داى (١٠٠٨هـ/١٥٩٩م - ١٠٤٧ هـ/١٦٣٧م) إذ

أصبح قاضى القضاة أو رئيسهم حنفيا، وسُمّى فيما بعد شيخ الإسلام، ولم يكن حكم للقاضى المالكى ينفذ إلا إذا وافق عليه القاضى الحنفى، وتبع ذلك أن أخذ المذهب الحنفى يدرس فى تونس بالمدرسة الشماعية وغيرها. ومن مشايخ الحنفية فى القرن الحادى عشر الهجرى بالعهد العثمانى ممن ذكرهم ابن أبى دينار فى آخر كتابه «المؤنس» محمد بن شعبان إمام جامع يوسف داى، وأبو الحسن كرباصة المدرس بالمدرسة الشماعية، ويتكاثر بتونس فقهاء الأحناف منذ هذا التاريخ، ويضيف حسين خوجة فى كتابه: بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان جعفر كرباصة. وتنقطع أخبار من ينتمون إلى مذهب الشافعى، ويُذْكَرُ عن سعيد بن الحداد الفقيه والمتكلم الكبير المارّ ذكره المتوفى فى مطلع القرن الرابع الهجرى أنه بدأ حياته مالكيا، ثم تحول إلى مذهب الشافعى ثم عاد إلى المذهب المالكى.

وكان المذهب المالكى قد أخذ فى الازدهار بالقيروان وإفريقية التونسية منذ مؤسسه أسد بن الفرات بما كان يلقى على الطلاب من مدوّنته الأسدية عن عبد الرحمن بن القاسم إمام المالكية بالفسطاط وكان يعاصره سحنون تلميذ على بن زياد، وقد أخذ عن أسد بن الفرات مدوّنته وحملها معه إلى مُمليها عليه عبد الرحمن بن القاسم، وقرأها عليه، فأصلح له جوانب فيها، وعاد بها سحنون إلى القيروان، وأخذ يلقى هذه الصورة الجديدة من المدوّنة على الطلاب وجاءوه من كل فَجٍّ حتى قالوا إنه تخرج على يديه سبعمائة فقيه. ونسبت المدوّنة إليه - وكان ينبغى أن تنسب إلى عبد الرحمن بن القاسم - إذ أصبح اسمها مدوّنة سحنون، وطارت شهرتها فى بلده والبلدان المغربية جميعا. وهو أول من أقام نظام الحسبة فى القيروان حين تولى قضاءها سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م إلى وفاته سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤م وخلفه فى حلقته ابنه محمد المتوفى سنة ٢٥٦ هـ/٨٦٩م ويذكر مترجموه له تآليف مختلفة ومرَّ بنا كتابه: «آداب المعلمين». وكان يعاصره محمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٣م وكان جيد القريحة غزير الاستنباط، وله كتاب فى شرح مسائل مدونة سحنون، ويقال إنه لما تصفّح محمد بن عبد الله بن عبد الحكم إمام المالكية فى الفسطاط بعد ابن القاسم كتابه وبعض كتب محمد بن سحنون قال فى كتاب ابن عبدوس: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقال فى كتاب لابن سحنون هذا كتاب رجل سبح فى العلم سبحا. ونلتقى بعدهما بيحيى بن عمر الكنانى المتوفى سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ م وكان فقيها، وله كتاب فى الرد على الإمام الشافعى، وكتاب ثان فى الحسبة بعنوان: «أحكام السوق» وهو منشور.

وحين استولى العبيديون على القيروان اضطهدوا فقهاء المذهب المالكى إذ حاولوا نقلهم من المذهب المالكى السنى إلى مذهبهم الإسماعيلى فعارضوهم، وناظروا دعاتهم مناظرات حادة، وكان من أهم المعارضين لهم والمناظرين المجادلين لدعاتهم محمد بن اللباد رئيس المالكية وإمامهم

بالقيروان، فسجنوه فترة، ثم ردوا إليه حريته على أن يلزم بيته ولا يُلَقّى الطلاب فى جامع عقبة، فكان يلقاهم فى بيته كما مرَّ بنا إلى أن توفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤١م وله مصنفات مختلفة منها كتاب فى الطهارة وكتاب فى فضائل مالك. وانحسرت غمة العبيديين عن القيروان سنة ٣٦١هـ/٩٧١م برحيل المعز العبيدى إلى مصر. ولمع سريعا تلميذ لابن اللباد، هو عبدالله بن أبى زيد المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وإليه انتهت رياسة المالكية بالقيروان والبلاد المغربية، وإليه رحل الطلاب من جميع آفاق المغرب، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه يعد المجِّدد للسنة ولمذهب مالك فى المغرب بعد انحسار حركة التشيع، وله الرسالة الجامعة لعقيدة أهل السنة ردٌّ بها على الشيعة ولها شروح كثيرة، وله كتاب النوادر والزيادات على مدوَّنة سحنون. ويقول ابن خلدون: «جمع فيها ابن أبى زيد جميع ما فى الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال». ومن تلاميذه أبو الحسن القابسى المار ذكره بين المحدثين. ونلتقى بعده بأبى عمران الفاسى المتوفى سنة ٤٣٠ ثم بأبى إسحق إبراهيم التونسى المتوفى بمنتصف القرن الخامس وله شرح على المدونة باسم التعليقة، كما نلتقى بأبى الحسن اللخمى المتوفى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وله كتاب التبصره. ويلقانا بعده الإمام المالكى الحافظ المازرى محمد بن على الصقلى المذكور بين المحدثين، ويقول ابن فرحون عنه: إمام أهل إفريقية والمغرب، وصار الإمام لقبا له، فلا يعرف بغير الإمام المازرى، دَرس الفقه والأصول وله فيهما كتب قيمة.

وفى أواسط القرن السادس الهجرى استولى عبدالمؤمن على الاقليم التونسى ولم يحاول -فيما يبدو- نشر المذهب الظاهرى مذهب دولته فيه، واكتفى بأن يذكر فى خطبة الجمعة اسمه أو اسم المهد ابن تومرت زعيم دولته ولذلك ظل المذهب المالكى مسيطرًا ولانسمع عمن اتبعوا المذهب الظاهرى فى عهدهم وعهد الدولة الحفصية التى خلفتهم إلا عن بعض أفراد اعتنقوا المذهب الظاهرى من حين إلى حين.

ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى الحافظ الفقية عبد العزيز القرشى المعرو بابن بزيزة المذكور بين المفسرين ومن أهم تلاميذه أبو القاسم بن أبى بكر المعروف بابن زيتون قاضى تونس فى صدر الدولة الحفصية المالكى المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م وهو محرر عقد الصلح بين المستنصر والجيش الفرنسى بعد موت لويس التاسع تحت أسوار قرطاجنة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. وفى أواخر هذا القرن السابع وصل من القاهرة كتاب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكى وشغل بشرحه علماء البلدان المغربية. ونلتقى فى القرن الثامن بمحمد بن عبد السلام الهوارى مجدد الحركة الفقهية كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وشيخ الجيل التالى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م المتولى قضاء الجماعة، له شرح لمختصر ابن الحاجب يعد من أهم شروحه، كما يقول ابن فرحون، ومن أنبغ تلاميذه ابن خلدون المؤرخ والفقيه المالكى الكبير، وسنترجم له بأخرة ن هذا الكتاب، ومن أنبغهم أيضا محمد بن عرفة الورغمى

المتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، شيخ شيوخ عصره، كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب. ويفتتح ابن فرحون ترجمته بقوله: «هو الإمام العلامة المقرئ الفروعى الأصولى البيانى المنطقى شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ، وله تآليف منها تقييده الكبير فى المذهب المالكى فى نحو عشرة أسفار، أقبل الناس على تحصيله شرقا وغربا». ومن تلاميذه فى القرن التاسع الهجرى محمد بن عمر الأُبى المذكور بين المفسرين والمحدِّثين. وله فى الفقه شرح على مدوَّنة سحنون.

طبيعى أن يتراجع ازدهار دراسات الفقه المالكى فى العهد العثمانى، وخاصة منذ عد يوسف داى فى النصف الأول من القجن لحادى عشر الهجرى، إذ أصبح رئيس القضاة حنفيا، وأصبح حكم القاضى المالكى لاينفذ إلا بعد مصادقه عليه، ويذكر ابن أبى دينار فى آخر كتابه المؤنس من فقهاء المالكية بالقرن الحادى عشر محمد فتاتة المدرس فى جامع الزيتونة، ومثله سعيد الشريف وعبد القادر الجبالى. وتظل دراسة الفقه المالكى ناشطة فى جامع الزيتونة إلى العصر الحديث. ويضيف حسين خوجه فى كتابه ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان: سعيد الشريف ومحمد الحجيّج وله حاشيتان على مختصر خليل فى الفقه.

ومن يقرأ كتب تراجم العلماء والفقهاء - منذ القرن الثانى الهجرى يشعر كأنما كانت القيروان مرآة للمذاهب الكلامية التى نشأت فى العراق. إذ كانت مبادئها ونظرياتها تثار فى القيروان، ويتحاور فيها ويتجادل كثيرون، ومن أوائل ما كان من ذلك الجدل فى مبادئ الخوارج، وخاصة مبادئ الإباضية والصُّفْرية التى اعتنقها كثيرون من أهل المغرب - منذ أوائل القرن الثانى الهجرى - وكانت قد اقترنت بها فى المشرق فكرة المسلم مرتك الكبيرة أما الصفرية فذهبت إلى الحكم عليه بالكفر وغالت فى سفك الدماء كما مر بنا فى الفصل الماضى، وقالت الاباضية إنه كافر نعمة لا كافر ملة وحكمت عليه بأنه مسلم عاص ولم تعدّ دار المسلمين - مثل الصفرية - دار حرب. وذهب أهل السنة من الماكية وغيرهم إلى أنه مسلم فاسق، وذهبت المرجئة إلى إرجاء الحكم عليه لربه يوم القيامة، كما ذهبت إلى أنه يكفى فى الإيمان القول أى التلفظ بالشهادتين، ولا ضرورة فيه للعمل، وهو أداء الفروض الدينية، بينما أهل السنة يرون أن الإيمان قول وعمل، فمن لم يؤدّ الصلاة والفروض الدينية لا يعد غسلما. ويروى أبو العرب فى ترجمة يحيى بن سلام المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة والمذكور بين المفسرين أنه كانت تجرى مناقشات بمجلسه فى الإرجاء. وكان مذهب الاعتزال والمعتزلة قد ازدهر بالمشرق فى القرن الثانى الهجرى وتجادل أهل البصرة وبغداد طويلا ى مبادئه الخمسة المشهورة وهى القول بالوحدانية وبأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالعدل على الله وأنه يعمل الأصلح لعباده، وأنه منفذ - لابد - وعده ووعيده.

وينتقل هذا المذهب إلى القيروان ويتجادل أهل السنة مع معتنقيه، وفى خبر عند أبى العرب، أنه كان للمعتزلة بالقيروان سقيفة يجتمعون فيها، وتوقف شخص بإزائهم وهم يتجادلون يستمع إليهم.

وإذا مضينا إلى القرن الثالث وجدنا محنة خلق القرآن التى امتُحن بها الفقهاء من أهل السنة فى عصور المأمون والمعتصم والواثق ينتقل الجدل والحوار فيها إلى القيروان، فمنهم من يقول إن القرآن - كما قال أهل السنة - قديم، ومنهم من يقول - كما قال المعتزلة - إنه حادث مخلوق غير قديم. ويذكر أبو العرب فى طبقاته مناظرة حدثت أيام زيادة الله الأغلبى (٢٠١-٢٢٣هـ) عن خلق القرآن كان الجعفرى يقول فيها إنه غير مخلوق، والمنبرى يقول إنه مخلوق. وفى طبقات أبى العرب أنهم كانوا يتجادلون كثيرا فى التشبيه على الذات العلية. واتسع الجدل فى ذلك كله بجامع عقبة، إذ كان لكل فرقة ممن ذكرناهم حلقة يجتمعون فيها ويتجادلون جدلا كثيرا. وكان أهل السنة يضيقون بهذا الجدل وما يحدثه من جلبة وضوضاء فى جامع عقبة حتى إذا تولّى سحنون قضاء القيروان سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م «فرّق - كما يقول مترجموه - حَلَقات أهل البدع منهم فى المسجد الجامع وشرد أهل الأهواء وكانوا فيه حلَقًا: من الخوارج: صُفْرِيّة وإباضية ومعهم معتزلة، يتناظرون ويظهرون زيفهم.. وأمرهم أن لا يجتمعوا فيه» وقد أتاح هذا الجدل الواسع للمعتزلة وغيرهم فى القيروان حركة جدلية واسعة، حتى ليصف أبوالعرب والخشنى فى طبقاتها غير واحد بأنه كان من الجدلين المناظرين الذين يعرفون كيف يدفعون الخصوم بالحجج والبراهين الساطعة، ولم يصفا بذلك المعتزلة أو كما يسميانهم أحيانا العراقيين بل يصفان بذلك كثيرين من أهل السنة. ومن كبار متكلميهم المجادلين عن عقيدتهم المفحمين لخصومهم أبو عثمان سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد رأس المدرسة الكلامية بالقيروان كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وقال الخشنى فى طبقاته: غلب عليه الكلام والجدل والمناظرة.. وله مقامات كريمة ومواقف محمودة فى الدفاع عن الاسلام والذّبّ عن السنة» ويصفه المالكى فى رياض النفوس بأنه كبير المناضلين عن السنة وكانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يريد المعتزلة) القائلين بخلق القرآن من أهل القيروان، ويسوق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب من هذه المجالس مجلسا تحاور فيه مع عبد الله بن الأشج فى خلق القرآن وأسكته وقطعه، ولما سلّط عبيد الله المهدى داعيته أبا العباس المخطوم لجدال فقهاء القيروان ومحاولته إقناعهم بمبادئ دعوتهم الإسماعيلية كان أكبر من تصدّى من أهل السنة له ولغيره من دعاتهم فى أربعين مجلسا سجل منها الخشنى فى طبقاته أربعة مجالس ونسوق مثالا من هذه المجالس، فقد سأله أبو العباس المخطوم هل يجوز تقديم المفضول (أى أبى بكر وعمر فى الخلافة) على الأفضل (أى على) فأجابه بمقال من القرآن هو قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن

اقه قد بعث لكم طالوتَ ملكا قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤتَ سَعةً من المال قال إن اقه اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم﴾ يريد أنه فضله على النبى، والنبى أفضل منه، ودليل آخر ذكره من السنة وهو أن الرسول ﷺ أمّر على جيش عمرو بنَ العاص فكان يقسم الفَيْء (الغنائم) ويأمر وينهى فيطاع ويصلى بهم الصلوات. وتحت يديه فى الجيش أبو بكر وعمر وهما جميعا أفضل منه». وعلى هذا النحو كان سعيد بن الحداد يجيب أبا العباس المخطوم ويحاوره حوارا مخرسًا بأدلة قرآنية وأحاديث نبوية، ويضيف إلى ذلك حججا منطقية دامغة مما يجعله من كبار المتكلمين المدافعين عن عقيدة السنة لافى القيروان وحدها. بل فى العالم الإسلامى جميعه. وإذا كانت القيروان عرفت المذاهب المبكرة فى العراق للمعتزلة وغيرهم فإنها عرفت مذهب الأشعرى الذى أخذ فى الانتشار منذ القرن الرابع الهجرى حمله إليها أبو الحسن القابسى المذكوريين المحدثين، والمتوفى سنة ٤٠٣ ومعروف أن للأشعرى نظرات دقيقة فى التوسط بين القائلين بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة وبين القائلين من المعتزلة بالاختيار وحرية الإنسان فى إرادته، وأيضا بين أهل السنة من مثل ابن حنبل القائلين بأن القرآن قديم والمعتزلة القائلين بأنه محدث مخلوق وقد أوضحنا مذهبه فى حديثنا عنه فى كتابنا: «العصر العباسى الثانى». ومن كبار الأشعريين القيروانيين محمد بن عتيق التميمى القيروانى أخذ علم الكلام بالقيروان عن أبى عبد اقه بن الحسين بن حاتم صاحب أبى بكر بن الباقلانى (الأشعرى) ورحل إلى بغداد ودرس بها علم الكلام بالمدرسة النظامية، وقال السلفى كان مشارًا إليه فى علم الكلام قال لى أنا أدرس علم الكلام منذ سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة توفى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨م. ولعل فى كل ما قدمت ما يدل - بوضوح - على أن علماء القيروان استوعبوا جميع المذاهب الكلامية الشرقية، وعمَّ المذهب الأشعرى هناك منذ القرن الخامس الهجرى.

٥

التاريخ[1]

منذ الحقب الأولى فى العهود الإسلامية يعنى أهل إفريقية التونسية بكتابة التاريخ، وأول

(١) راجع فى المؤرخين التالين طبقات أبى العرب ورياض النفوس للمالكى ومجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى سيرة المهدى لجعفر الحاجب ومقدمة سيرة الاستاذ جوذر المطبوعة بالقاهرة وكذلك مقدمة افتتاح الدعوة وطبقات الخشنى وقطعة الرقيق القيروانى من كتاب تاريخ إفريقيا والمغرب (طبع تونس) ومقدمة أنموذج الزمان لابن رشيق (طبع تونس) وابن خلدون ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى ورحلة التجانى والاحاطة للسان الدين بن الخطيب فى يحيى بن خلدون ومقدمة تاريخه والتعريف بابن خلدون بقلمه والأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية=

مؤرخ نلتقى به عيسى بن أبى المهاجر، حفيد أبى المهاجر والى إفريقية التونسية والمغرب (٥٥ - ٦١هـ) توفى بأواخر القرن الثانى الهجرى، وله كتاب مغازى إفريقية، وهو مفقود غير أن المؤرخين بعده ينقلون عنه نقولا مستفيضة على نحو ما نجد فى طبقات علماء إفريقيا وتونس لأبى العرب. والمؤرخ الثانى بعده عبد الله بن أبى حسان اليحصبى المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م وله كتاب فى أخبار إفريقية وحروبها ولمحمد بن زيادة الله الأغلبى المتوفى سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م كتاب فى دولتهم الأغلبية، ولأبى على بن الوكيل القيروانى المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م كتاب فى تاريخ إفريقية. وكل هذه الكتب التاريخية مفقودة. ولجعفر بن على الحاجب كتاب فى سيرة المهدى الفاطمى ومن كتب التاريخ التى يظن أنها كتبت قبل انتقال العبيديين الفاطميين إلى مصر أو بعد انتقالهم مباشرة سيرة الأستاذ جوذر وافتتاح الدعوة الفاطمية والمجالس والمسايرات للقاضى النعمان القيروانى العبيدى، ومن الكتب التاريخة العبيدية كتاب لأحمد بن الجزار الطبيب القيروانى المشهور المذكور بين الأطباء، وهو كتاب باسم تاريخ الدولة يريد الدولة العبيدية. ومن الكتب المهمة كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس لأبى العرب محمد بن تميم القيروانى المتوفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م وهو منشور بتونس، ونلتقى بعده بكتاب طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى المتوفى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وهو مكمل لسالفه ومطبوعان معا بدار الكتاب اللبنانى ببيروت، وللرقيق القيروانى صاحب ديوان الرسائل فى عهد باديس الصنهاجى وابنه المعز المتوفى حول سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م كتاب مهم فى تاريخ إفريقية والمغرب، وهو مفقود سوى قطعة منه نشرها د. منجى الكعبى بتونس تؤرخ لنحو قرن وربع من ولاية عقبة بن نافع إلى ولاية عبد الله الأغلبى وهو ابن إبراهيم مؤسس الدولة الأغلبية، ويلقانا بعده كتاب أنموذج الزمان فى شعراء القيروانى لابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ومر بنا حديث عنه بين النقاد، وكان يعاصره أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى المتوفى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وله الكتاب البديع: رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان و إفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ويقدم فى أوائله قصة الفتح العربى فى أفريقية كاملة معتمدا فى الأكثر من رواياته على المؤرخين القيروانيين السابقين له، وفى نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء يفرد فصلا لأهل العبادة والنسك، طبع القسم الأول منه فى القاهرة وطبع القسم الثانى فى تونس. ومن أهم كتب التراجم القيروانية والتونسية بعده كتاب معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بالدباغ المتوفى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وهو يعتمد

=لابن الشماع (طبع تونس) والمؤنس لابن أبى دينار والحلل السندسية للسراج، وذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ومقدمته وفيه ترجمة لمحمد السراج، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف.

على المالكي إلى حد كبير وأكمله بإضافات وتعليقات أبو الفضل بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م والكتاب وإضافات ابن ناجي مطبوعان معا. وللتجاني عبد الله بن محمد المتوفى بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م رحلة مشهورة مطبوعة بتونس تجول فيها مع أبي يحيى اللحياني قبل سلطنته فى البلاد التونسية حتى أقصى الجنوب وغربا حتى طرابلس وهو فيها يدون أخبار البلاد وأوصافها وعلماءها وعبادها بحيث أصبحت الرحلة تاريخًا علميا وأدبيا واجتماعيا للبلدان التونسية فى مطالع القرن الثامن الهجرى. ولأبي محمد عبد الله بن عبد البر التنوخي المتوفى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م تاريخ مرتب على السنين مثل الطبرى. وليحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م كتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بتلمسان حتى زمنه. ولعبد الرحمن بن خلدون أخيه المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م تاريخه المشهور «العبر» وبه جزءان عن البربر بإفريقية التونسية والبلاد المغربية وبهما معلومات تاريخية طريفة عنهم وعن شعوبهم وقبائلهم ودولهم ينفرد بها لأخذه من مصادر مغربية لم يطلع عليها سواه. ولأبي العباس أحمد بن الشماع المعروف بابن المنتاق المتوفى فى أواخر القرن التاسع الهجرى كتاب عن الدولة الحفصية باسم الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ألفه فى أواخر سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م وللزركشى كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية وينتهى به فى تاريخ الدولة الحفصية إلى سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، ولابن أبي دينار الذى كان حيا سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م كتابه النفيس: «المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس». ولحسين خوجه المتوفى سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان وهو ترجمات لعلماء البلدان الكبيرة: القيروان وصفاقس وجربة وسوسة وتوزر وباجة، وخصَّ تونس بالترجمة فيها لاثنين وأربعين عالما دينيا. ولمحمد بن السراج المتوفى سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م الحلل السندسية فى الأخبار التونسية يعنى فيه بالحديث عن المدن التونسية وعلمائها وأدبائها بادئا بمدينة سوسة.

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب القطر التونسى

كان البربر ينتشرون قديما فى جميع الأراضى الممتدة غربى مصر من واحة سيوه إلى المحيط الأطلسى، وكانوا يتكلمون لهجات بربرية شتى ردُّها علماء الأجناس واللغات القديمة إلى أصلين: ليبى فى شرقى تلك الأراضى ونوميدى فى أواسطها وغربيها، وهى لهجات تتحد جنسا وتتفاوت فيما بينها بحيث يصعب التفاهم بين سكان منطقة فى ليبيا كسكان جبل نفوسة وسكان منطقة فى الإقليم التونسى كسكان منطقة الجريد فضلا عن سكان المغرب الأوسط فى الجزائر والمغرب الأقصى فى المملكة المغربية.

ونزل الفينيقيون – كما مرَّ بنا – بساحل تونس، أو بعبارة أدق أخذوا يرودونه منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، وكوَّنوا لهم غربى مدينة تونس الحالية مدينة قرطاجة حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ولعبت تلك المدينة فى المنطقة – كما أسلفنا – دورًا حضاريا عظيمًا إلى أن دحرها الرومان واستولوا عليها فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، ونشروا بالمنطقة لغتهم اللاتينية كما نشروا بها المسيحية حين اعتنقوها، وتُهْديهم إمبراطورًا عظيما هو سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكاتبا بارعا هو أبولى Abulée كما تهديهم بعض القديسين مثل ترتوليان Tertulien. وتظل المنطقة تابعة لروماستة قرون طوال، وكانت تتبعها أيضا بقية الساحل الإفريقى من برقة إلى المحيط الأطلسى، مما جعل اللاتينية تسود فى كل تلك المناطق سواء فى شئون الحكم الرسمية أو فى شئون الدين ولذلك اضطر كثيرون من البربر فى تونس وغيرها من الأقاليم المغربية أن يتعلموا اللاتينية ويتقنوها تحدثا وكتابة. وقد نزلها الواندال الجرمانيون سنة ٤٣٩ وظلوا بها مائة عام يدمرون كل ما بها من مظاهر الحضارة والعمران إلى أن خلعتها منهم بيزنطة، وحاولت تنشر بها اليونانية غير أن اللاتينية ظلت هى اللغة المسيطرة على الألسنة وفى شئون الدين إلى أن فتحها العرب، وظلت فترة غير قليلة متداولة وخاصة فى قرطاجة وما حواليها، ونراها لا تزال حية على بعض الألسنة فى قفصة جنوبى الاقليم التونسى

فى القرنين السادس والسابع الهجريين كما يحدثنا عن ذلك الإدريسى والتجانى فى رحلته، وإن كان من المؤكد أنه أصابها حينئذ غير قليل من التحريف بسبب اختلاط المتكلمين بها بسكان تلك المنطقة البربرية ولغتها.

وعلى الرغم من القرون المتطاولة التى عاشت فيها اللغة الفينيقية المتحضرة بالإقليم التونسى والقرون الأخرى التى عاشت فيها اللاتينية المتحضرة بهذا الإقليم وأتقنها كثير من البربر تكلما وكتابة على الرغم من ذلك لم تتحوّل اللغة البربرية - لا فى تونس ولا فى أى إقليم آخر - إلى لغة متحضرة أيام الفينيقيين بحيث أصبح لها حروف استحدثها البربر يكتبونها بها، ومن ثَمّ لم يتركوا قبل الإسلام أى أثر كتابى بلغتهم البربرية يمكن منه التعرف الدقيق على تاريخهم القديم، وقد رجع العرب فى معرفته إلى الكتب والكتابات اللاتينية. ومما يؤكد ذلك أننا نجد يامبسال ملك نوميديا البربرى أيام الفينيقيين يحرر كتبه باللغة الفينيقية لغة قرطاجة، كما نجد بين ملوكها أيام الرومان من يحرر كتبه باللاتينية أوالإغريقية،فلم تكن البربرية - قبل الفتح العربى الإسلامى - إذن لغة حضارية وكان كثيرون من البربر يعرفون اللاتينية كما أسلفنا وقد أخذت اللغتان تزايل ألسنة أهلها وتحل محلها العربية فى تونس وغير تونس من أقاليم المغرب مع اعتناق السكان الإسلام واختلاطهم بالعرب عن طريق المصاهرة والمعايشة معهم، وخاصة فى المدن التى نزلوها، إذ كان سكانها - لذلك - أسرع فى التعرب من سكان القرى الريفية والجبال والنجاد والبوادى، وكانوا يعدون فى الإقليم التونسى وغيره بالآلاف، وقد بلغ عدد الجنود الفاتحين فى عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين نحو مائة وخمسين ألفا سوى من كان يرافقهم من النساء والأطفال، ومما يذكر - بالثناء الجم - للفاتحين فى العهود الإسلامية الأولى أنهم لم يكونوا غُزاة يجمعون غنائم الفتوح، كما يحاول المستشرقون أن ينعتوهم، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف، وتسلّل منهم - كثيرون من مدن الإقليم التونسى وغيره من الأقاليم المغربية - إلى القرى والجبال والبوادى يدعون إلى دين الله بحمية وحماسة بالغة.

وقد جعلت تعاليم الدين الحنيف السامية وما يدعو من إخاء وتسامح ومعاملة حسنة شعوب البربر تقبل عليه، وخاصة بعدما رأوه يرفع عن كواهلهم ظلم الأمم السالفة التى كانت تمتصر لنفسها خيرات بلادهم وترهقهم بالضرائب الفادحة، مما دفع البربر - وخاصة فى المدن - إلى الدخول فى الدين الحنيف ومرَّ بنا أن قبيلة بربرية - هى قبيلة أوربة - اعتنقت الإسلام فى عهد عقبة بن نافع حوالى سنة ٦٠ للهجرة. وكان البربر الذين أسلموا يقبلون على حفظ كثير من آى الذكر الحكيم واستظهار بعض الأحاديث النبوية، وكانوا يتلقّنون ذلك فى كتاتيب أخذت تنشأ سريعا فى المدن وبعض القرى الكبيرة، كما كانوا يتلقّنونه فى حلقات كثيرين ممن

كانوا يعتلون بالمساجد منصات محاولين أن يعلّموا الناس بعض تفسير القرآن شارحين لهم بعض الأحاديث النبوية مع التعرّض لجوانب من تعاليم الدين الحنيف. وأخذ كثيرون فى البوادى وسفوح الجبال يسعون إلى حفظ الذكر الحكيم كما مرَّ بنا فى الحديث عن الثقافة وشغف عمر بن يَمْكْتَن بحفظ القرآن ومراجعته فيه الجنود العرب المارّين بمنطقته حتى حفظه جميعه.

ومن المؤكد أن المدن التونسية - كما أسلفنا - أخذت فى التعرب سريعا عن طريق من نزلها من الجنود العرب طوال القرن الأول الهجرى بعد الفتح وشطرًا من القرن الثانى، فهى لم تنتظر طويلا حتى يتم لها التعرب. ومما لا ريب فيه أن القيروان التى أنشأها عقبة بن نافع فى منتصف القرن الأول الهجرى لتكون معسكرًا لجيشه كانت عربية خالصة منذ إنشائها، وتبعتها فى التعرب مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس، بحيث لا تمضى طويلاً فى القرن الثانى الهجرى حتى تصبح مدنا عربية خالصة. أما فى الداخل والبوادى والجبال فقد ظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة.

وما نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس للهجرة حتى يأخذ الإقليم التونسى فى إكمال تعربه، إذ اكتسحته موجات من قبائل هلال وسليم وزُغْبة ورياح بأمر الخليفة الفاطمى المستنصر بالقاهرة - كما مر - للقضاء على دولة المعز بن باديس الصنهاجى انتقامًا منه لخلعه تبعية بلاده للدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية وإعلانه استقلاله وعودة الإقليم التونسى إلى مذهب أهل السنة. واستطاعت هذه الموجات البدوية الكثيفة أن تلجئه مع أسرته للمقام بمدينة المهدية وأن تجتاح القيروان وكل الإقليم التونسى بمدنه ووديانه وجباله وبواديه، وكانوا يبلغون نحو نصف مليون نسمة وامتزجوا بالبربر وتكوّن من الشعبين شعبًا عربيًّا تام العروبة فى اللغة والدين والزى والمطعم والعادات والأخلاق والمآتم والأعراس، واجتاحوا البلاد بإبلهم وخيلهم ورَجْلهم ونهبوا خيراتها عشرات من السنين. ومع كل ذلك حملوا إلى كل أنحاء الإقليم التونسى وأطرافه النائية اللغة العربية وفرضوها على البربر فرضا عن طريق الامتزاج بهم ومصاهرتهم، حتى ليقول ابن خلدون - كما مر بنا فى الفصل الماضى - عن قبيلة هوارة البربرية التونسية إنهم «صاروا فى عداد الناجعة (بنى هلال وسليم) فى اللغة وسُكْنَى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلاهم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بها فصاحة العرب فلا يكاد يفرِّق بينهم» فهم قد أصبحوا - بفضل هذه الموجات البدوية من بنى سليم وهلال وزغبة - عربا فى العادات وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وما ينساق فى ذلك من الملبس والمطعم والأفراح والاتراح والسلوك والأخلاق. ويقول ابن خلدون إن رطانة البربر زايلت ألسنتهم وحلت مكانها الفصحى، ونراه يقول فى موضع آخر عن

هوارة إنهم «تبدَّوا - مع الأعراب - ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم فى جميع أحوالهم».

ولم تتبدَّ هوارة التونسية أو تتعرب وحدها فى الإقليم التونسى، بل تعرب الإقليم جميعه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى خلال قرن بل يزيد، إلى أن استولى على الإقليم زعيم دولة الموحدين المغربية عبد المؤمن بن على، ولكن هل العربية التى حملتها قبائل هلال وسليم وزغبة إلى الإقليم التونسى هى الفصحى أو هى عربية دارجة عامية؟ ونرجح أنها الفصحى، ويدل على صحة رأينا أن القبائل من سليم وهلال وزغبة كانت قد انضوت تحت لواء الأعصم القرمطى حين غزا الشام ومصر سنة ٣٦٠ للهجرة ورأى الخليفة الفاطمى العزيز - حين صالحه - أن ينزلها فى صعيد مصر، وحوَّلهم بعده الخليفة الفاطمى المستنصر إلى تونس لضرب المعز بن باديس كما أسلفنا، وكانت الجزيرة العربية مصدرها لا يزال سكانها يحافظون على الفصحى بشهادة الجوهرى فى مقدمة معجمه الصحاح إذ يقول إنه أخذ اللغة عن أهلها مشافهة، وإنه طوَّف فى بلاد ربيعة ومضر، ونجد الباخرزى فى كتابه دُمْيَة القصر المؤلف فى منتصف القرن الخامس الهجرى يترجم لشعراء كثيرين من قبائل نجدية شتى وينشد من أشعارهم، مما يدل على أن الفصحى كانت لا تزال حية بعد مغادرة بنى سليم وهلال للجزيرة بنحو قرن، ويبدو أنها ظلت حية فى الجزيرة العربية قرونا بعد ذلك، فإن عمارة اليمنى يشهد - كما مر بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة - بأن تهامة والبوادى وأهل الجبال فى اليمن - لعصره بالقرن السادس الهجرى - كانوا يتكلمون الفصحى ولا يلحنون فى كلامهم.

ومما لا شك فيه -إذن- أن قبائل بنى سليم وهلال التى نزلت مصر وتركتها إلى ليبيا وتونس وماوراءهما من بلاد المغرب لم تكن تنطق عربية مولَّدة أوعربية عامية، إنما كانت تنطق عربية فصيحة، ومن الخطأ أن يتشكك بعض الباحثين فى صفاء عربيتهم مستدلا على رأيه بشعر القصص الهلالية المعروفة التى تحكى مغامرات أبى زيد الهلالى فى شعر شعبى يختلف فى صياغته - قليلا أو كثيرًا - عن صياغة الشعر العربى الكامل الفصاحة فضلا عما يجرى فيه من خلل الإعراب، غير أن هذا القصص نشأ فى عصور متأخرة، حين أخذت لهجات شعبية تشيع فى ألسنة أهل تونس وغيرها، ومما يؤيد رأينا أن نجد ابن خلدون ينشد قصيدة بديعة لأحد رؤساء قبيلة عوف من بنى سليم، وكانت تستولى على ما بين قابس وسوسة، وهو عنان بن جابر، وكان أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية قد أوغر الصدور بين قبيلته وقبيلة علاق، فنشبت بينها معارك ضارية، وأغضب ذلك من أبى زكريا عنان بن جابر فرحل بقبيلته إلى صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) فكتب إليه محمد بن أبى الحسين وزير أبى زكريا قصيدة يعاتبه فيها على هجرته عن وطن آبائه، ويدعوه إلى العودة إليه، ثم كتب إليه قصيدة ثانية، فرد عليه عنان محزونا لما اضطر إليه من فراق موطنه، وفيها يتحدث عن بسالة قبيلته فى الحروب بمثل قوله:

وكُنّا إذا ما الجيشُ صُفَّتْ جنودُه ترانا على خَيْلٍ عِتاقٍ ضوامرِ
نخوض وَغَاها والقَنَا تَقْرَعُ القَنا بكـل حُسامٍ مَشْـرفيّ وبـاترِ

ونَسْجُ القصيدة جزل متين، وهى معربة إعرابا تامًّا، وترجع إلى النصف الأول من القرن السابع الهجرى مما قد يدل - من بعض الوجوه - على أن قبائل سليم - ومثلها غالبًا قبائل هلال - لم تزايل ألسنتها الفصاحة ولا أصابها خلل الإعراب فى النطق حتى عصر عنان بن جابر. وقد يسند رأينا - من بعض الوجوه - ما حكاه العبدرى فى رحلته عن أهل برقة الليبية من أن «كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، ويقول: وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيرهم، وهم الآن (فى أواخر القرن السابع الهجرى) على عربيتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلُون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون». ويسوق العبدرى أمثلة من كلامهم سمعها كما رواها وفيها يحتفظون حتى زمنه بالإعراب. ومن بقايا هذا الإعراب - فى رأيى - احتفاظ قبائل المحاميد والمرازيق وأولاد يعقوب وغيرهم فى النواحى الجنوبية من الإقليم التونسى - إلى اليوم - بنون النسوة فى كلامهم، فيقولون: «النساوين يشربن ويأكلن ويغزلن» ولا تزال هذه النون تنتشر فى نواحى طرابلس وبرقة الليبيتين كما يقول الأستاذ عبدالوهاب.

وليس معنى كل ما قدمت أن العامية العربية لم تأخذ طريقها إلى ألسنة أهل المدن فى الإقليم التونسى إلا فى وقت متأخر، فالمظنون أن هذه المدن مثلها مثل الفسطاط فى مصر وغيرها من المدن العربية استخدمت مبكرة لغة عامية بها غير قليل من الألفاظ البربرية المحلية، وخالية من الإعراب، متخففة من الحركات وملتمسة التسكين لأواخر الكلمات. ويبدو أن هذه العامية القيروانية أو التونسية أخذت تشيع فى الألسنة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى وأن فاتحى صقلية من القيروانيين والتونسيين سنة ٢١٢ للهجرة حملوها إليها، كما حملوها إلى مالطة حين فتحوها سنة ٢٥٥ للهجرة لعهد الأمير الأغلبى أبى الغرانيق، وقد ظلوا يحكمونها حتى سنة ٤٨٥ للهجرة حين انتزعها منهم روجار النورماندى صاحب صقلية، وظل المسلمون بها تحت ولاء النورماند نحو مائة وستين عاما إلى أن أجبرهم على مبارحتها فريدريك الثانى إمبراطور ألمانيا سنة ٦٤٧ لعهد المستنصر الحفصى كما مرَّ بنا، ومن حينئذ أصبحت مالطة مسيحية خالصة، وقد ظلوا إلى اليوم يتداولون فى حياتهم لهجة عربية مالطية مشتقة من اللهجة العربية التى كان يستخدمها آباؤهم وبحق يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب: «إن بقاء هذه اللهجة فى مالطة لظاهرة عجيبة، بل حجة قوية ومعجزة بالغة فى حيوية اللغة العربية ورسوخها العميق فى قرارة نفوس من يتكلم بها من الأجيال. ألا ترى هذه الجزيرة المسيحية النحلة قد تعاقبت عليها - منذ ثمانية قرون - أمم ودول متعددة، آخرهم الإنجليز وودوا لو يحملون أهلها على

التخاطب بلغتهم، فلم يتهيأ لهم ذلك، وبقى المالطيون محافظين على ما عندهم من العربية خلفا عن سلف، وإن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب».

وظلت العامية شائعة على ألسنة أهل القيروان والمدن الساحلية الشمالية إلى أن خفّفتْ من حدتها فى منتصف القرن الخامس الهجرى الزحفة الهلالية والسليمية، وقد مضى الزاحفون يعرّبون المناطق البعيدة والأطراف النائية التى لم يكن لها عهد بالعربية، وكان مما عمل على نشر العربية فى الإقليم التونسى بعد هذه الزحفة هجرة الأندلسيين إليه فى أوائل القرن السابع الهجرى إذ يقول ابن خلدون: «إن ملكة العربية صحّت فى إفريقية (تونس) بجلاء أهل شرقى الأندلس إليها» ومعروف أن هذا الجلاء كان فى أوائل القرن السابع. على أننا لا نصل إلى أوائل القرن الثامن الهجرى حتى يحدّثنا التجانى فى رحلته عن شعراء سليميين وهلاليين اشتهروا بأشعارهم الملحونة، ويسمون القوّالين. وأطال ابن خلدون فى أواخر هذا القرن فى الحديث عن هؤلاء الأعراب القوالين فى تونس والبلاد المغربية، وكأن اللحن شاع على ألسنة الأعراب جميعًا فى القرن السابع الهجرى، وربما سبق هذا التاريخ فى بعض الأنحاء وتأخر فى أنحاء أخرى مثل عرب برقة بشهادة العبدرى كما مر بنا. ويقول ابن خلدون فى الفصل الذى عقده لأشعار الأعراب وأهل الأمصار لعهده: «إنهم يقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان سلفهم المستعربون يأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء» ثم يقول: «وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم (أشعارهم) موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». وأخذت هذه العامية التونسية تتأثر بعد ابن خلدون بلغة من احتلّها من الإسبان ومن الترك على نحو ما مر بنا فى حديثنا عن تاريخها، وبذلك احتوت العامية التونسية بعض رطانات فى مقدمتها الرطانة البربرية التى امتزجت بها من قديم.

وإذا كان ابن خلدون لاحظ أن المهاجرين الأندلسيين القدامى فى القرن السابع الهجرى بثّوا روحا وانتعاشا فى ملكة العربية التونسية فإن ملاحظته تنصبُّ - فيما بعد - على المهاجرين الأندلسيين فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى، إذ بثّوا نفس الروح والانتعاش، وحالوا بينها وبين الركود الأدبى الذى رافق العثمانيين فى حكمهم للبلاد العربية المشرقية. ومن المؤكد أنه كانت هناك لغة عامية يتداولها الناس - كما مرَّ بنا - وأخذت تشيع فى البوادى والأنحاء البعيدة منذ القرن السابع الهجرى، وربما قبل ذلك فى بعض الجهات، غير أنه من المؤكد أنه كان للفصحى دائما السيادة عليها، لأنها لغة القرآن الكريم والدين الحنيف ولغة الثقافة والعلم بمختلف فروعه، ولغة الأدب وروائعه الشعرية والنثرية.

٢

كثرة[1] الشعراء

طبيعى أن يكون أول شعر ينشد فى الإقليم التونسى بالقيروان وغير القيروان هو ما كان ينشده الجند الفاتحون، ومعروف أن الشعب ظل متصلا فى هذا الإقليم وغيره من أقاليم المغرب، مما جعل الدولتين الأموية والعباسية ترسلان الجيوش إلى القيروان من حين إلى آخر حتى منتصف القرن الثانى الهجرى. وكان فى هذه الجيوش غير شاعر نابه تلقّن عنه الشباب الإفريقى فى القيروان وغيرها الشعر إما لهم مما نظموه وإما لغيرهم مما رَوَوْه وأنشدوه، ولم تُعْنَ كتب التراجم منهم إلا بمن اشتهر بينهم بقيادة أوولاية، ومن قدماء مَنْ ترجمت لهم أبو الخطّار الحُسام بن ضِرار الكلبى، وكان شاعرا مفوّها وفارسا نابها بين أقرانه فى القيروان، وولاه حنظلة بن صفوان والى إفريقية لهشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١٢٥ للهجرة وعُزل عنها سنة ١٢٨ فعاد إلى القيروان وسرعان ما توفى بها، وأنشد له ابن الأبار فى كتابه الحلّة السِّيراء أشعارا بديعة. ومن شعراء الجند الذين قدموا فى عهد بنى أمية سليمان بن حُمَيد الغافقى وفيه يقول ابن الأبار: «فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره، وأحسن الناس وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها، ورواية لوقائعها وأشعارها، ويقال إنه توفى سنة ١٦٠ للهجرة وهو القائل:

وإنا إذا ما الحربُ أُسْعِرَ نارُها ... لَنَلْقَى المنايا دارعين وحُسَّرَا

ومن شعراء الجند الذين قدموا إلى القيروان فى عهد بنى العباس الحكم بن ثابت السَّعْدى من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلى المشهور، قدم إفريقية فى جيش محمد بن الأشعث الخزاعى سنة ١٤٤ لعهد المنصور إغاثةً وعونا للأغلب التميمى والى القيروان، وأصبح من قواد جيشه، حتى إذا استشهد الأغلب سنة ١٥٠ للهجرة رثاه رثاء حارا، وكان الأغلب شاعرا، وتولى القيروان بعده عمر بن حفص المهلبى، واستشهد فى بعض المعارك، فولاها أبو جعفر

---

(١) انظر فى الشعراء التالين الحلة السيراء لابن الأبار وأنموذج الزمان فى شعراء القيروان لابن رشيق والبيان المغرب لابن عذارى والخريدة (قسم شعراء المغرب — للعماد الأصبهانى) والحلل السندسية للوزير السراج ووفيات الأعيان لابن خلكان فى تراجم حكام الدولة الصنهاجية ومقدمة ابن خلدون وتاريخه.

المنصور يزيد بن حاتم المهلبي وكان غاية في الجود ممدَّحا، وظل واليا عليها من سنة ١٥٤ إلى وفاته سنة ١٧٠ واستطاع أن يتحول بها إلى بيئة كبيرة من بيئات الشعر والأدب واللغة في زمنه، وكان شاعرا مجيدا، ومن طريف شعره قوله في وصف كرم أسرته:

ما يألف الدرهمُ المضروبُ خِرْقتنا   إلا لمامًا قليلًا ثم ينطلقُ[1]

وقد جاء القيروان وفي صحبته المعمَّر بن سنان التَّيمي، من تيم الرباب، اتخذه زميلا له في طريقة ليؤنسه بطرائف الأخبار، ويقول ابن الأبار: «كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» ويترجم ابن الأبار لابنه عامر، ويذكر بعض أشعاره، ويقول من أحفاده حمزة بن أحمد بن عامر وكان أديبا ظريفا. وتسابق غير شاعر في الوفود على يزيد كما توافدوا قديما على جده المهلب في خراسان، ومنهم ربيعة الرَّقي الشاعر العباسي المشهور، وفيه يقول:

هو البحر إن كلَّفتَ نفسَك خَوْضَهُ   تهـالكتَ في آذِيِّـه المتـلاطم

وهي قصيدة طارت شهرتها في العصر العباسي، وله فيه مدائح أخرى بديعة، ومن الشعراء الكبار الذين وفدوا عليه بالقيروان ابن المَوْلى، وفيه يقول:

وإذا تبـاع كريمـةٌ أو تُشْتَرَى   فسواك بائعهـا وأنت المُشْترى

ويقال إنه أعطاه على هذه القصيدة الرائعة كل ما كان في بيت ماله، ولابن المولى وربيعة الرقي ترجمتان مفصلتان في كتاب الأغاني، وقد أقاما عنده في القيروان طويلا والتف حولهما شبابها يروون عنهما شعرهما وشعر معاصريهما. وذكر ابن خلكان في ترجمته بين من وفد عليه من الشعراء المشهورٌ التميمي وأنه أغدق عليه مالا جزيلا.

ومرَّ بنا في الحديث عن اللغويين أن كرم يزيد بن حاتم لم يجلب إلى عاصمته الشعراء فقط بل جلب إليها جلة من النحاة المشهورين مثل يونس بن حبيب وقتيبة الجُعْفي. وكانت قد أخذت تنشأ في القيروان طائفة من المعلمين الشعراء، منهم أبان بن الصَّمْصامة بن الطرماح ويبدو أن أباه كان قد نزل القيروان في أوائل القرن الثاني الهجري واتخذ التعليم مثل أبيه حرفة له، وفيه يقول الزبيدي: «كان شاعرا عالما باللغة». وكان يعاصره معلم، يعكف شباب القيروان على أخذ اللغة والشعر منه، كما يأخذون النحو والعربية والأدب، هو عياض بن عَوَانة، ويقول الزبيدي إنه كان ينظم الشعر ويجوِّد فيه. ولا نكاد نخطو في النصف الثاني من القرن الثاني

---

(١) خرقتنا: يريد ثيابنا

الهجرى حتى نرى أعمال اللغويين المقيمين والوافدين من أمثال أمان بن الصمصامة ويونس بن حبيب والرواة من أمثال المعمر بن سنان التميمى وسليمان بن حميد الغافقى تثمر ثمارا يانعة كثيرة فى شباب ترسخ فى نفوسهم فطرة العربية ويطلب كثيرون منهم التخصص فى الفقه لاعلى أساتذته فى القيروان وتونس فحسب، بل أيضا فى الحجاز والعراق، من أمثال عبد الرحمن بن زياد وكان شاعرا وعلى بن زياد الذى أدخل لأول مرة كتاب الموطأ إلى المغرب، وقد توفى سنة ١٨٣ وكان يعاصره عبد الله بن فرّوخ وعبد الله بن غانم الرُّعَيْنى الفقيهان القيروانيان المشهوران.

وعلى الرغم من أن إبراهيم بن الأغلب استقل بالقيروان سنة ١٨٤ وكوَّن بها دولة الأغالبة التى ظلت بها أكثر من قرن وحققت لها نهضة ثقافية كما مر بنا فى الفصل الماضى، على الرغم من ذلك فإن نهضة الشعر بها لا تتراءى لنا واضحة، إذ يظل أصحاب التراجم لا يعنون غالبا طوال هذه الدولة إلا بمن سال الشعر على لسانه من حكامها أو من أفراد الأسرة ومن شاركهم فى هذه الموهبة من الفقهاء واللغويين. وكان إبراهيم بن الأغلب مؤسسها شاعرا، ويسوقون له أشعارا فى الفخر، وكان قد نشأ بمصر وتزوج بها، وكان قد فارق زوجته وسَارَ وحده إلى القيروان وحنَّ إليها فأنشد:

ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةً ... إلا وذكـرُكِ يَثْنى دائـما عُـنقى
ولا ذكـرتـكِ إلا بتُّ مُـرْتقـبًـا ... أرعى النجوم كأن الموت مُعْتنقى

وكان حفيده الأمير أبو العباس محمد شاعرا (٢٢٦ - ٢٤٢) وهو الذى استولى على رومة فترة من الزمان ثم اضطُرَّ جيشه إلى الانسحاب لتكاثر من جاءها من نجدات المسيحيين، وله أشعار يفخر فيها بنسبه وأسرته، من مثل قوله:

أنا الملك الذى أسمو بنفسى ... فـأبلغُ بالسموّ بها السَّحابـا
أظِلُّ عشيرتى بجَناح عِزِّى ... وأمنحها الكرامـةَ والثَّوابـا

ومن أفراد الأسرة الشعراء أحمد بن سوادة والى صقلية المتوفى سنة ٢٦٠ وله أشعار بديعة فى الحماسة والفخر. ومن أفراد الأسرة أيضا مهريَّة الأغلبية المتوفَّاة سنة ٢٩٥ ولها مرثية بديعة فى رثاء أخ لها مات غريبا. وممن عُرف بالشعر ونظمه فى عهد الأغالبة عيسى بن مسكين القاضى المتوفَّى سنة ٢٩٥ وشعره فى التحسر على الشباب، وكان يعاصره الفقيه أحمد الصواف وشعره فى الحكم والمواعظ. وممن اشتهر بالشعر من اللغويين فى عهد الأغالبة الحسن بن منصور المذحجى، يقول ابن الأبار: «أقل ما تصرَّف فيه الشعر وكان بصيرا باللغة نافذا فى النحو عالما

بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، ومن قوله فى رثاء ابن عم له:

لكـأنى لمـا تضمّنـك اللَّحـــ ـــدُ بينٌ قد فارقتْها الشمـالُ

وأشعر منه، بل ربما كان أشعر اللغويين عامة فى القيروان حتى نهاية عهد الأغالبة عبد الملك المهرى أستاذ أهل اللغة والنحو والرواية فى عهد الأغالبة، توفى سنة ٢٥٦ للهجرة، وله مرثية بديعة لسحنون، ومن تلاميذه الشعراء حمدون الملقب بالنعجة، وفيه يقول الزبيدى - كما مرَّ بنا - شعره عليه أثر التكلف، أما فى النحو والعربية والغريب فهو الغاية التى لا بعدها.

وننتقل إلى عصر الدولة العبيدية فى القيروان والإقليم التونسى منذ سنة ٢٩٧ إلى سنة ٣٦١ وقد تحول به عبيد الله المهدى أول خلفائها هناك إلى عصر دعاية للمذهب الإسماعيلى الذى جاء يحمله، فكان فقهاؤه ودعاته يجادلون عنه فقهاء المذهب السنى بالقيروان، وكانت القيروان سنية فكانوا يعقدون فيها المناظرات بينهم وبين أبى عثمان سعيد الحداد وغيره من فقهاء السنة القيروانيين العظام. ولأبى عثمان مع دعاتهم أربعون مجلسا حفظ لنا الخشنى فى طبقات علماء إفريقية - كما مر بنا - أربعة منها علا فيها صوته وفكره على دعاتهم. وطبيعى فى هذا الجو المشحون بالجدل فى حقائق المذهب الإسماعيلى أن يطمح خلفاء الدولة الفاطميون التونسيون أن يكون لهم أنصار من الشعراء يعتنقون دعوتهم ويدافعون عنها، وطبيعى أن ينثروا عليهم الأموال نثرا، وكما قال بشار قديما:

يَسْقطُ الطَّيْرُ حيث يَنْتَثِرُ الحَـ ـبُّ وتُغْشَى منـازلُ الكرمـاءِ

وقد أكثر عبيد الله المهدى وخلفاؤه من نثر الحب، وتكاثرت طيور الشعراء من حولهم تلتقط هذا الحب فى القيروان وفى المهدية عاصمتهم الجديدة، وتبارى الشعراء من أمثال خليل بن إسحق الطرابلسى الذى عرضنا له فى ليبيا وأمثال سعدون الورجينى القائل فى مديح المهدى:

هـذا الإمامُ الفـاطميُّ ومن به أمنتْ مغـاربُها من المَحْـذُورِ

ويمضى قائلا إن مدن الشام والعراق لابد أن تستسلم له حتى يسود فيها العدل الذى لا يستطيع الناس الحياة بدونه. وكان المهدى نفسه شاعرا، يُحْسن نظم الشعر، وتداول الكتب قطعةً طريفة تُنْسَبُ له تارة وتارة أخرى تُنسب إلى داعيته أبى عبد الله الصنعانى، وهى تمضى على هذا النحو:

مَنْ كـان مغتبطا بِلِين حَشِيَّةٍ فـحَشِيَّتى وأَرِيكتى سَـرْجِى
من كـان يُعْجِبُـهُ ويُبْهِجـه نَقْرُ الـدُّفوفِ ورنَّةُ الصَّنْـجِ
فـأنا الـذى لا شَىْءَ يُعْجِبُنى إلا اقتحـامى لُجَّـةَ الـوَهْـجِ

فهو يعيش حاملا سيفه وممتطيا سرج حصانه مزدريا حياة الترف واللهو والاستماع إلى الغناء ونقر الدفوف ورنات الصُّنوج، وكل ذلك يتركه وراءه، إذ لذته جميعها فى قيادة الجيوش واقتحام لجج الحرب ولهيبها المستعر، وهى أخلاقية مُثْلَى لمؤسس دولة. وبحق أسس دولتهم العُبَيْديَّة فى الاقليم التونسى، وكان ابنه القائم شاعرا مثله، وله قصيدة حماسية خاطب بها العباسيين، مفتتحا لها بقوله:

ألا إن حدَّ السيف أَشْفَى لذى الوَصَبْ ... وأَحْرَى بنَيْل الحق يوما إذا طُلِبْ

وخلفه ابنه المنصور وكان جوادا ممدَّحا وفارسا مقداما، وقد استطاع فى أول خلافته القضاء المبرم على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد كما مرَّ بنا فى القسم التاريخى، وفيه يقول شاعره أيوب بن إبراهيم:

يابنَ الإمامِ المرتضى وابن الوصىِّ (م) المُصْطَفَى وابن النبىِّ المرسلِ
اللّهُ أعطاك الخلافة واهبًا ... ورآك للإسلام أَمْنَعَ مَعْقِلِ

ولأبى القاسم الفزارى فيه قصيدة بديعة حين أمَّن أهل القيروان بعد ثورة مخلد بن كيداد سنعرض لها فى غير هذا الموضع، ويتولى الخلافة بعده ابنه المعز، ويأتيه الشعراء من كل فَجٍّ وفى مقدمتهم ابن هانئ الأندلسى وله فيه قصائد طنَّانة، وقد ترجمنا له فى قسم مصر، وحين فتح جوهر الصقلى مصر للمعز أنشده ابن هانئ قصيدة افتتحها بقوله:

يقول بنو العباس هل فُتحتْ مصرُ ... فقُلْ لبنى العباس قد قُضِىَ الأَمْرُ

ومن أهم شعرائه على بن الإيادى، وسنخصه بترجمة.

وينتهى عصر الخلافة العُبَيْديَّة فى الإقليم التونسى سنة ٣٦١ بانتقال المعز الفاطمى إلى القاهرة واتخاذها عاصمة للملك وملك أبنائه وأحفاده من بعده، ووقع اختياره على بُلُكِّين بن زيرى الصنهاجى ليخلفه على الإقليم التونسى، فأُسس بها دولة صنهاجية أتاحت للإقليم التونسى كل ما كان يحلم به من ازدهار فكرى وأدبى. ومع أن المعز بن باديس غُلب على أمره أمام موجات بنى هلال واضطُرَّ إلى أن ينسحب إلى المهدية سنة ٤٤٩ فإنه استطاع هو وابنه تميم ومن خَلَفَهما فيها أن يستتموا لهذا الإقليم كل ما كان ينتظره من نهضة أدبية وفكرية، وفى المعز يقول ابن خلكان: «كان محبا لأهل العلم كثير العطاء مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محط بنى الآمال» ويقول فى ابنه تميم: «كان محبا للعلماء، معظما لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصورى وأنظاره، وكان يجيز الجوائز

السنية ويعطى العطاء الجزيل» واقتدى به ابنه يحيى (٥٠١ – ٥٠٩) فى سيرته، فكانت عنده جماعة من الشعراء – كما يقول ابن خلكان – قصدوه ومدحوه وخلدوا مديحه فى دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى، وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، وله أيضا مدائح فى ولده أبى الحسن على (٥٠٩ – ٥١٥ هـ). وفى حفيده الحسن، وكان روجار صاحب صقلية قد استولى منه على المهدية سنة ٥٤٣ واستردها منه عبد المؤمن أمير الموحدين سنة ٥٥٥. وسار الحسن سيرة آبائه فى العناية بالعلماء والشعراء.

وعصر هذه الدولة الصنهاجية يعد عصر ازدهار للإقليم التونسى ولشعرائه، إذ أصبحوا يعدون بالعشرات، حتى لنجد ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ يؤلف فيهم كتابه: «أنموذج الزمان فى شعراء القيروان» يضمنه مائة ترجمة لشعراء قيروانيين فى زمنه، وبينهم شاعرة مبدعة، وكان الكتاب مفقودا، واستطاع الأستاذان محمد العروسى المطوى وبشير البكوش أن يجمعاه من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى وغيره من المخطوطات التى احتفظت بترجماته، وأن يعيداه كأنما تركه ابن رشيق بالأمس، وهو عمل علمى جليل فضلا عما قدما له من دراسة وما ملأ به هوامشه من تحقيقات قيمة، وبذلك وضعا تحت يد الدارسين للنهضة الشعرية فى القيروان أروع نص يمكنهم من تصوير هذه النهضة، ولم يَحْظَ الإقليم التونسى بنصٍّ مماثل قبل ابن رشيق ولا بعده له خطورته، ويقال إنه كان له كتاب عن شعراء المهدية سقط من يد الزمن، ولو أنه وصلنا لا تسعت تحت أعيننا صورة النهضة الشعرية فى هذا الإقليم الشقيق لذلك العهد الصنهاجى، إذ الأنموذج لا يصور كلَّ ذلك العهد، فقد كتبه ابن رشيق حوالى سنة ٤٢٥ ويغلب أن يكون كثير من المترجم لهم فيه قد عاشوا إلى منتصف القرن الخامس ورأوا موجات بنى سليم وهلال تأتى على القيروان وكثير من المدن، ومع ذلك فقد انسحب المعز بن باديس إلى المهدية، وخلفه عليها سريعا ابنه تميم من سنة ٤٥٤هـ إلى سنة ٥٠١ ومرت بنا كلمة ابن خلكان عن تميم وكيف كان يُغْدق الأموال على الشعراء والعلماء وكيف قصده الشعراء، من الأقاليم البعيدة فضلا عن إقليمه، ونهج نهجه ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن فى نثر الأموال على الشعراء، ولابن حمديس الصقلى وأمية بن أبى الصلت الأندلسى فى الثلاثة مدائح رائعة، وبالمثل لمن كان يحف بهم من شعراء القيروان، غير أنهم جميعا لم يقيِّض لهم ما قيض للمعز بن باديس من عناية ابن رشيق بالترجمة لشعراء القيروان والإقليم التونسى لزمنه.

وكان الإقليم التونسى منذ زحفة بنى هلال وسليم قد تحول إلى ما يشبه عصر الطوائف المعروف فى اليونان، ففى المهدية أسرة المعز بن باديس وأبنائه، وفى تونس بنو خراسان كانوا عمالا للدولة الصنهاجية واستقلوا عنها منذ سنة ٤٥٨ وفى قفصة والجريد بنو الرُّنْد، وفى سوسة الهلاليون، ويشتهر آخر أمرائهم جبارة بن كامل بن سرحان البعيد الصيت بالجود وإغداقه

الأموال على الشعراء، ومن يده أخذها روجار الصقلى واستردها منه عبد المؤمن مع البلاد الساحلية. واستولى الهلاليون أيضا على قابس، إذ ظلت لبنى جامع منهم حتى سنة ٥٥٤ واشتهر من أمرائهم بأخرة من أيامهم أبو الحملات مدافع، ومنها استنزله عبد المؤمن أمير الموحدين، وكان جوادا ممدحا، والتفَّ حوله كثير من الشعراء. ومن الغريب أن هذا العصر الذى توزَّع فيه الاقليم التونسى بلدانا وإمارات متعددة لم يضعف فيه الشعر بل ظل مزدهرا، وخاصة حول أمراء المهدية وقابس وسوسة، إذ كان أمراء البلدان فيه يتنافسون فى جَذْب الشعراء إليهم، وكلٌّ يحاول أن يجمع فى بلده العديد منهم، ليتحدثوا عن مناقبه ومفاخره، وكانت تحف بتميم بن المعز فى المهدية كوكبة من الشعراء، منهم – كما فى الخريدة – حميد بن سعيد، وكان من الشعراء المجيدين وهو الذى جمع شعر تميم، ومنهم – كما فى الحلل السندسية – محمد بن حبيب القلانسى وأبو الحسن بن محمد الحداد، ونلتقى بشعراء أمير قابس أبى الحملات مدافع آخر أمراء بنى هلال بها، ومنهم جعفر بن الطيب الكلبى وسلام بن فرحان القابسى وهو من الشعراء المجيدين والسكدلى القفصى ويحيى بن التيفاشى، كما نلتقى فيها بشعراء جبارة بن كامل بن سرحان أمير سوسة المارّ ذكره، ومنهم أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر الهلالى وأبو الحسين بن الصبان المهدوى والتراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين. وكان وراء هؤلاء الشعراء الذين سميناهم شعراء بارعون مثل تميم بن المعز صاحب المهدية وعلى الحُصْرى المهاجر إلى الأندلس وأبى الحسن على بن محمد الخولانى المعروف بالحداد المهدوى المهاجر إلى الاسكندرية وأبى الفضل بن النحوى التوزرى وابن بشير المهدوى وعبد الله الشقراطسى ومحمد بن شرف المهاجر مع ابنه إلى الأندلس.

ويدخل الإقليم التونسى منذ منتصف القرن السادس الهجرى فى حوزة الموحدين، غير أن ابنى غانية وقراقوش يحدثان فيه شغبا – كما مرَّ بنا – ظل فترة طويلة، ويعيد الأمن فيه إلى نصابه والى الموحدين أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، وقد اتخذها عاصمة له، وظلت عاصمة للدولة بعده حتى سنة ٩٨١ حين انتهت دولة الحفصيين، بل لقد ظلت إلى اليوم عاصمة للإقليم التونسى. وكان أبو زكريا سيوسا حليما منصفا محسنا لتدبير دولته، وكان معدودا فى العلماء وفى الشعراء وله شعر مدون مع إحسانه لاختيار الرجال الذين يديرون معه دفَّة الحكم، مما جعل أيامه خير أيام على الاقليم التونسى وأكثرها أرزاقا وجمعت دولته طائفة من كبار العلماء ونابهى الشعراء لا من الإقليم التونسى وحده، فقد نزل بديارِه كثرة غامرة من علماء الأندلس وشعرائه مثل ابن الأبار وأحمد بن عميرة وحازم القرطاجنى وتظل هذه السيول الأندلسية وافدة على تونس فى عصر ابنه المستنصر مثل ابن بُرْطلة رئيس الوفد الذى قدم إلى تونس سنة ٦٥٧ مبايعا المستنصر خليفة وأميرًا، ومثله ابن القصير شاعر المستنصر وله فيه مدائح كثيرة، وعلى شاكلتهما ابن أندراس أهم أطباء المستنصر. وهذه الأسماء

الأندلسية التى ذكرناها إنما هى رموز، فقد كان علماء الأندلس وشعراؤها الذين نزلوا بتونس وماوراءها من المدن لا يُحْصَونَ عدًّا، وقد بعثوا فيها جميعا حركة أدبية عظيمة، اقترنت بما كان فى البلاد من نشاط أدبى، فإذا هى تبدأ - منذ الأيام الأولى للدولة الحفصية - فى نهضة أدبية عظيمة، فإذا التفتنا إلى شعراء تونس وجدناهم كثيرين، مثل أبى طاهر الحميرى المتوفى سنة ٦٣٩ وعثمان بن جابر الهلالى المتوفى سنة ٦٤٥ وأحمد اللِّلْياق المتوفى سنة ٦٥٩ وابن عُرَيْبَة المتوفى مثله سنة ٦٥٩ ومحمد بن أبى الحسين وزير المستنصر المتوفى سسنة ٦٧١. ووراء هؤلاء فى القرن السابع الهجرى غير شاعر مبدع مثل ابن الشهاط التُّوزَرِىّ المتوفى سنة ٦٨١ وله شرح وتخميس لقصيدة الشُّقْراطِيسى اللامية فى المديح النبوى، وكان يعاصره ابن السِّماط البكرى المهدوى المتوفى سنة ٦٩٠ وأشعاره جميعها مدائح نبوية رائعة. وتظل هذه النهضة الشعرية أيام الحفصيين مطّردة فى القرن الثامن الهجرى، ويلقانا به شاعران من أسرة التجانى هما أبو الفضل وعبد الله صاحب الرحلة، وقد توفيا سنة ٧١٨ للهجرة، ونلتقى بإسحاق بن حُسَينة المتوفى سنة ٧٤٠ وبمحمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧، وما تلبث تونس أن تلقى بدرَّتها اليتيمة ابن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ وهو ناثرًا أكبر منه شاعرًا. وقلما نلتقى بشاعرمهم فى الحقب المتأخرة للدولة الحفصية، باستثناء الشهاب بن الخلوف المتوفى سنة ٨٩٩ وأبى الفتح بن عبدالسلام المتوفى سنة ٩٧٥. وفى رأيى أن ضعف الشعر لعهد الدولة الحفصية فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين يرجع إلى ما أخذ يسود منذ زمن ابن خلدون فى الإقليم التونسى وبجاية بعامة من اللغة العامية التى لاتحتفظ بالإعراب فى أواخر الكلمات، مما جعله يقول بمقدمته فى الفصل الخاص بأشعار العرب وأهل الأمصار لزمنه: «فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون بالخروج من فن إلى فن فى الكلام.. وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه، ماعدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». ويبدو أن هذه العامية غير المعربة اتسع استخدامها فى الاقليم التونسى، مما جعل الناطقين بالشعر الفصيح المعرب يقلون، وكان زملاؤهم من أصحاب الشعر العامى المسمون بالقوَّالين يظهرون فى العهد الأول للدولة الحفصية على استحياء غير أنهم أخذوا يتكاثرون منذ زمن ابن خلدون والقرن التاسع الهجرى.

وكانت شئون الحكم فى أواخر عصر الدولة الحفصية قد ساءت سوء شديدا واستعان بعض حكامها بالإسبان ونزلوا فى ديارها - كما مرَّ بنا - منذ سنة ٩٤٢ وأخذت البلاد تعانى من ظلم الإسبان وعسف الحفصيين ويستولى العثمانيون سنة ٩٨١ على الإقليم التونسى ويظل يعانى من

سوء الحكم العثمانى إلى أن تتولاه الدولة الحسينية منذ سنة ١١١٧ غير أن لهذا الحكم السيىء حسنة فإن الإسبان أخرجوا من ديارهم من بقى بها من المسلمين سنة ١٠١٦ فاستقبلهم الحاكم التركى للإقليم التونسى: عثمان داى استقبالا كريما، وأوسع لهم فى اقتطاع الأراضى ومزاولة الصناعات، كما أوسع للشخصيات الفكرية والأدبية اللامعة أن تزاول حياتها فى تونس، وبذلك أخذوا يردُّون لها دورها الثقافى فى العصر الصنهاجى وأوائل العهد بالدولة الحفصية غير أنه لم يتح لتونس حينئذ حكام يستطيعون أن يحققوا لتونس هذا الدور، حتى تولت الأسرة الحسينية شئون الإقليم، وكان مؤسسها مثقفا مستنيرا وكان أبناؤه يحسنون العربية، بل كان ولى عهده من بعده: محمد الرشيد شاعرًا وموسيقيًّا، وله ديوان شعر، وكما كان مولعا بالشعر كان مولعا بالغناء والموسيقى، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغانى الشعبية التونسية والأندلسية. وبحق تفتتح هذه الأسرة الحسينية عصرًا جديدًا بتونس، ظل يواكبها إلى آخر هذا العصر وفترة فى العصر الحديث، وكما أكثروا من إنشاء المدارس والاهتمام بجامعة الزيتونة وعلمائها من كل صنف أكثروا أيضا من الاهتمام بالشعراء والأدباء، وبذلك ظلت بتونس حركة أدبية ترافقها طوال عصر الدولة الحسينية، وممن نلتقى به من شعرائها فى أول العهد بها ابن أبى دينار صاحب كتاب المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس وأحمد برناز ومحمد الوزير السراج صاحب الحلل السندسية ومحمد الخضراوى ومحمد سعادة وإبراهيم بن القاسم الخراط، وأعلى منهم مرتبة فى الشعر على الغراب الصفاقسى وله ديوان منشور ومحمد الورغى والطوير القيروانى ومحمد الشافعى وحمودة ابن عبد العزيز والحجرى، ونلتقى بأخرة من العصر بمحمد ماضور القاضى وكان ينزع فى شعره نزعة صوفية كما نلتقى بمحمد الأصرم والطاهر بن عاشور، ونجد عندهم معارضات كثيرة، والطريف أنهم يعارضون بعض شعراء الأندلس فى قصائدهم مثل ابن زمرك.

٣

أغراض الشعر والشعراء

أخذت الحركة الشعرية تنهض فى القيروان والمهدية منذ عصر الفاطميين أو منذ أوائل القرن الرابع، واتسعت فى عصر الدولة الصنهاجية اتساعا كبيرا أتاح لابن رشيق أن يؤلف فيها كتابه الأنموذج الذى ترجم فيه لمائة شاعر وشاعرة، واتسعت مع تلك الحركة حركة نقدية خصبة، فألف ابن رشيق كتابه البديع: العمدة فى صناعة الشعر ونقده.

ولم تتوقف موجات الحركة الشعرية مع الزحفة الأعرابية لبنى سليم وبنى هلال، فقد ظلت منها – كما أسلفنا – أسراب فى المهدية وفى قابس وسوسة وعادت إلى الانتعاش مع الأزمنة الأولى للدولة الحفصية، وغذتها حينئذ هجرة الأندلسيين إلى تونس وما وراءها من البلدان،

وبالمثل غذتها هجرة مماثلة فى القرن الحادى عشر الهجرى انتشلت الأدب شعرًا ونثرًا مما كان قد صار إليه من الضعف الشديد وغلبة العامية عليه. ولن نستطيع أن نفصل الحديث فى الحركة الشعرية لاتساع جوانبها ومناحى القول فيها، بل سنعمد إلى غير قليل من الاجمال فى عَرْض أغراض الشعر ومن جلَّ فى كل غرض، متخذين ممن نذكرهم رموزا لمن عاصرهم – وكذلك لمن خلفهم – من الشعراء، ونستهل ذلك بالحديث عن غرض المديح والنابهين من شعرائه على مر العصور.

شعراء المديح

أخذت سوق المديح تنفق فى الاقليم التونسى مع قيام الدولة العُبَيْدِيَّة التى كان خلفاؤها يتخذون منه منشورات للدعاية لحكمهم، ومرَّ بنا ذكر بعض مادحيهم، ومن أهمهم أبو القاسم الفزارى المتوفى سنة ٣٤٥ وله مدحة بديعة فى المنصور الفاطمى حين انتصر على مخلد بن كيداد الثائر الخارجى سنة ٣٣٦هـ وفيها يذكر من اشتهروا فى الجاهلية والإسلام بالشرف والجود والبأس، ثم يأخذ فى مديح المنصور وأنه لايقل عنهم بأسا وجودا وشرفا بمثل قوله[1]:

كريمُ المساعى والأيادى سمتْ بِهِ	أُبوَّةُ صِدْقٍ من ذُؤابة هاشمِ
شَريفُ الأدانى والأقاصى مهذَّبٌ	إذا ما عَدَدْنا فَضْلَ أهل المكارمِ

وكان يعاصره على بن الإيادى، وسنخصه بكلمة. ويدور الزمن ونلتقى بحكام الدولة الصنهاجية، وكانوا بحورا فياضة، فجذبوا إليهم الشعراء من كل بلدة ومكان فى الإقليم التونسى، وتجلت مواهبهم الشعرية الخصبة فى مدائحهم، من ذلك قول ابن سفيان فى المنصور الصنهاجى المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة[2]:

ومُعْتَرَكٍ ضاقَ الفَضَا فى مُقامِهِ	من الطَّعْن والأرضُ العريضة خاتَمْ
تجلَّى لها المنصورُ فانجابَ جُنْحُها	وليِّنه فى لَثْم التراب الجماجمُ[3]
قناتهمُ فى حيث لا السيفُ يُنْتَضَى	كأن ضياء فى التراقى تمائمُ[4]
كأن الطُّلَا وسْط العَجاج خناصرٌ	وقد صيغ من بيض الفِرِنْد خواتمُ[5]

---

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى للاستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٨٦.

(٢) أنموذج الزمان فى شعراء القيروان جمع وتحقيق محمد العروسى المطوى وبشير البكوش ص١٠٠.

(٣) الجنح: الظلام.

(٤) ينتضى : يُسَلّ من غمده.

(٥) الطلا: الأعناق. الفرند: السيف.

وتصوير الفضا وأنه ضاق بالقتلى تصوير قريب، غير أنه جعل الأرض كأنها تحولت خاتما يختم على قتلى الأعداء، ويستمر فيجعل تناثر جاجمهم ورءوسهم على التراب كأنها تنفذ للمنصور أمرا بلثمها للتراب، ويتصور ضياء سيوف جيشه فى تراقيهم كأنه تمائم، ويتسع به الخيال فيجعل أعناقهم وسط غبار الملحمة كأنها خناصر وقد أحاطت بها من بيض السيوف خواتم. وهى روعات متتابعة من الخيال البديع، وقد عقب ابن رشيق على الأبيات بقوله: «هذا كلام منتقى، ليس فوقه مرتقى». ويقول قرهب الخزاعى فى باديس بن المنصور(١):

أبنى مَنَادَ سلكتمُ سَنَنَ الهُدَى ... والعَقْدُ منكم بالوفاء مُعارُ
وكأنَّ باديسَ المملّك فيكمُ ... شمسُ الضحى وكأنكم أقمارُ
راقٍ تِلاعَ العزِّ يحمى حَوْزَه ... حَدُّ البواتِرِ والقنا الخطّارُ
وحدا بمدحه جازعٌ فى مهمهٍ ... وشدا به الحضّارُ والسمّارُ

والكلمات فى الأبيات رصينة، ولكن المعانى مطروقة فى المديح، فبنو مناد أسرة باديس يسلكون طريق الهدى، وهم أهل الوفاء، وباديس شمس وهم أقمار من حوله، وهو راق تلاع العز أى أعاليه حامٍ لحوز ملكه ونواحيه بالأسلحة الفاتكة، وهو محبوب حتى ليحدو بمدحه فى القفار كل خائف وحتى ليشدو باسمه ويتغنى الحضّار والسمار. ولإبراهيم بن القاسم القيروانى مدائح متعددة فيه وسنفرده بكلمة. وكان المعز بن باديس غيثا مدرارا، حتى قيل إن الشعراء الذين مدحوه وحفّوا به بلغوا المائة عَدًّا، ومن رائع مدائحه قول عبد العزيز بن خلوف الحرورى(٢):

لو يستطيع لأدخل الأموات من ... نُعماه فيما نالتِ الأحياءُ
سوَّتْ رعاياهُ يدا إنصافِهِ ... حتى الشوامخُ والوهادُ سواءُ
متنوع العزماتِ ماءٌ مُغْدِقٌ ... فيهم وعنهم صَخْرَةٌ صمّاءُ
ما أنت بعضُ الناسِ إلا مثلما ... بعضُ الحصى الياقوتةُ الحمراءُ

فلو يستطيع المعز لنشّر الأموات كى يقاسموا الأحياء من رعيته ما ينثر عليهم من نعماء، وإن يدى إنصافه لتسوى تسوية عادلة بين الأغنياء والفقراء من رعاياه، وإنه لمتنوع العزمات فهو على رعيته غيث مدرار، وهو على أعدائه صخرة صماء، وما يلبث الشاعر أن يأتى بصورة بديعة فالمعز حقا واحد من الناس إلا أنه ينفرد عنهم كما تنفرد من بين الحصى الياقوتة الحمراء.

---

(١) الأنموذج ص ٣٢٥. (٢) الأنموذج ص ١٦٣.

وفيه يقول ابن شرف القيروان[١]:

شهابُ الحرب مهلكُ كلِّ باغٍ ومحـرقُ كـل شيطـانٍ رَجيمِ
تقـطَّعُ دونـه البيضُ المـواضى وتُجْفِـل منـه إجفـال الظليمِ[٢]
ويَجْلُو عنـه ليـلَ النَّقع وَجْهٌ كبدر التمِّ فى الليل البهيمِ[٣]

فهو لا يهلك البغاة فحسب، بل يدمرهم ويحرق شياطينهم الملعونين ، كأن لم يكونوا شيئا مذكورا، ومن دونه تقطَّع السيوف الحداد القاطعة، وتنفر منه نفور النعام فى البوادى، حتى إذا أثير بالغبار الكثيف فى الحرب تجلى وجهه كما يتجلَّى البدر فى اكتماله بالظلام المعتم الداجي. وكان يعاصر ابن شرف الحسن بن رشيق القيروانى شاعر المعز وسنفرده بكلمة. وخلف المعز فى المهدية ابنه تميم، وكان محبا للعلماء ومعظما للشعراء، وقصدوه من الآفاق البعيدة، وله أشعار جيدة. وفى عهده أغار أسطول النصارى على المهدية وعاثوا فيها فسادا سنة ٤٨٠ هـ إلى أن انسحبوا منها بعد صلحهم مع تميم، ووصف شاعره أبو الحسن الحداد هذه الحادثة فى قصيدة فائية استهلها بقوله[٤]:

أنَّى يلمُّ الخيـال أو يقـفُ وبين أجفاننـا نَوًى قُـذُفُ

وخلف تميما ابنه يحيى، وبه نزل أمية بن أبى الصلت الشاعر الأندلسى الكبير فأغدق عليه من إكرامه وكذلك ابنه على وحفيده الحسن وأغدق عليهم من مدائحه، وبنى علىٌّ أسطولا للقاء روجار وحماية المهدية فتبارى الشعراء فى مديحه بسببه من مثل محمد بن بشير المهدوى وغيره، وكان متولى قابس رافع بن جامع الهلالى مدَّ يده إلى روجار ضده وضد العرب فصمَّم على فتحها وتم له ذلك سنة ٥١١ وتبارى الشعراء فى تهنئته بهذا الفتح من مثل قول محمد بن بشير الذى يتهم رافعاً بأنه أصبح نصرانيا[٦]

سَلْ رافعًا مـا الذى أجـرى تنصّرهُ وهل يَقِى الذلُّ عنه من به وَثِقـا
لو لم يرِ الرومَ أهلاً والصَّليبَ أبًا لم يَشْكُ من عيشه فى قابسٍ رَنَقًا[٧]

يقول له إن حياته فى قابس كانت صفوا هنيئة لولا ما كدرها من تعاونه مع روجار وأعوانه

---

(١) الأنموذج ص ٣٤٢.
(٢) البيض المواضى: السيوف القاطعة. تجفل: تفر وتفزع.
(٣) النَّقع: غبار الحرب.
(٤) الحلل السندسية ٤٦٨/٢. قذف: بعيدة.
(٥) قذف: بعيدة.
(٦) الحلل ٣٥٥/٢ وقابل بتاريخ الأدب التونسى ص ١٧٦.
(٧) الرنق: الماء الكدر.

من النصارى حتى لكأنما فارق دينه وتنصر بوقوفه مع أعداء الإسلام لا يذكر عهدا ولا ذمة.

وفي أواخر عصر الطوائف يلقانا مدافع بن رشيد من بني جامع الهلاليين وكان شجاعا حتى لُقِّب بأبي الحملات، كما كان جوادا ممدَّحا، وذكر صاحب الخريدة من مداحه أبا محمد الكلبي والسكدلي القفصي ويحيى بن التيفاشي، وأهم شعرائه جميعا سلام بن فرحان القابسي جليسه ووزيره، وأنشد له العماد في مديحه ميمية بديعة يقول فيها[1]:

هَنِئْ: مُدافعَ أن الله خَـوَّلَـهُ   سَعْدا ينال به كلَّ الذى راما
قُمْ فافتحِ الأرضَ فالأملاكُ كلُّهمُ   سواك أضحوا عن العلياء نُوَّاما

وكان في نفس الحقبة أميرا على سوسة جبارة بن كامل بن سرحان العيد الصيت المشتهر بالجود، وهو هلالي مثل مدافع أمير قابس وشاعره ابن فرحان، ومن مداحه أبو الحسين بن الصبان المهدوي وفيه يقول[2]:

فتًى للعشيـرة عِـزٌّ لهـا   غدا لجميع البَرايا ثِمـالا

فهو ثمال وغياث لا للعشيرة وحدها بل لجميع الناس، وأهم منه بين شعراء جبارة التراب السوسي، وسنخصه بترجمة موجزة.

ونمضي إلى عصر الدولة الحفصية وكان مؤسسّها أبوزكريا يحيى بن عبدالواحد، وكان شاعرا محسنا، وله أشعار حماسية جيدة وفي موضوعات مختلفة، واهتم بالحركة العلمية والأدبية في عهده، وفسح فيها وفي دولته للمهاجرين الأندلسيين، ولهم فيه ولمعاصريهم من التونسيين مدائح كثيرة، وهو جدير بها لما امتاز به من بعد النظر وحسن التدبير مع سمو الهمة، وكان يتلقب بالأمير فحسب، وعرَّض له بعض الشعراء بأنه ينبغي أن يتسمى بأمير المؤمنين قائلا[3]:

ألا صِلْ بالأمير المؤمنينا   فأنتَ بها أحقُّ العالمينا

فزجره زجرا شديدا، ولم يقبل منه ذلك. حتى إذا تولى ابنه المستنصر عمل على أن تأتيه البيعة بالخلافة كما مر بنا في تاريخه، وكان ذلك من أسباب تكاثر العلماء والأدباء والشعراء في تونس، إذ أصبحت تعدُّ نفسها - من بعض الوجوه - حامية حمى الإسلام. ومن أهم شعرائها ابن عُرَيْبة وسنخصه بكلمة. وحدثت نفس لويس التاسع بعد إخفاق حملته على مصر أن يغير على تونس سنة ٦٦٨للهجرة وحاصرها نحو أربعة أشهر، وكان عداد جيشه الذى هاجم به

---

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب) طبع تونس ١٢٤/١.
(٢) الخريدة ١٣٨/١.
(٣) الحلل السندسية ١٠٢٤/٤.

مصر سبعين ألفا فأصبح لا يُرَى فيه إلا قتيل أو أسير أو جريح، وقُيِّد لويس إلى دار تعرف بدار ابن لقمان والأغلال فى يده وحارسه الطواشى صبيح، وافتك نفسه من الأسر بدية كبيرة، فقال للويس بعض التونسيين مشيرا إلى كارثته بمصر[1]:

يا فرنسيسُ هذهِ أختُ مصرٍ فتأهَّبْ لما إليه تَصِيرُ
لك فيها دارُ ابنِ لقمان قَبْرٌ وطَواشيك مُنْكَرٌ ونكيرُ

وصدَّقت الأقدار قول هذا الشاعر التونسى فإن لويس دُفن تحت سور تونس، وعاد جيشه إلى فرنسا مخذولا مدحورا. ولم يخل حكم المستنصر من عصيان بعض القبائل عليه فى الجهات النائية، وعصت عليه رياح فى جهة بسكرة، ووصلت إليه جماعة منها على غير أمان، فصلب أبدانهم ببسكرة ورءوسهم بتونس، وفى ذلك يقول أبو عبد الله بن أبى تميم الحميرى مادحا للمستنصر[2]:

ويا حُسْنَ ما قرَّت به أعينُ الوَرَى رءوسُ رياحٍ فى رءوسِ رماحِ
فهذِى دماءُ المارقين مباحةٌ وهذا حِمَى الإسلام غيرُ مباحِ
بمستنصرٍ يَرْمِى العِدا بكتائبٍ تعمُّ نواحى أرْضِهِمْ بنُواحِ

ويظل خلفاء المستنصر معنيين بالحركتين الأدبية والعلمية. ويشتهر بين كتاب دواوينهم وشعرائهم آل التجانى وتنبغ فى الشعر بين نسائهم زينب بنت إبراهيم التجانى، ولهم أثر غير قليل فى الحركة الأدبية حتى زمن الخليفتين أبى عصيدة وأبى ضربة. واشتهر بين مداح الخلفاء فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى، بل قبل ذلك بفترة عبد الله التجانى صاحب الرحلة المشهورة المتوفى بعد سنة ٧١٨ وسنخصه بكلمة، وكان يصادق كبير مشيخة الدولة أبا يحيى اللحيانى الحفصى وتولى الخلافة حينا. وممن خلفوه أبو بكر المتوكل، وكان شاعرا وفى شعره وشعر معاصريه من أهل تونس يقول ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار: «لأهل إفريقية (تونس) لطف أخلاق وشمائل بالنسبة إلى أهل بَرِّ العُدْوة (المغرب) وسائر بلاد المغرب بمجاورتهم مصر وقربهم من أهلها ومخالطتهم إياهم ومخالطة من سكن عندهم من أهل إشبيليَّة من الأندلس وهم مَنْ هم خفةَ روحٍ وحلاوة بادرة، وأهل انطباع، وكرم طباع، وناهيك من بلاد من شعر ملكها السلطان أبى بكر المتوكل قوله:

---

(١) الحلل ٤/١٠٣٢. الشاذلى النيفر وعبدالمجيد التركى ص ١٣٠.
(٢) الفارسية لابن منقذ تقديم وتحقيق محمد

مَواطِنُنا فى دهرهنَّ عجائبُ وأزمانُنا لم تَحْدهن الغرائبُ
مواطنُ لم تَحْك التواريخُ مثلَها ولا حدَّثَتْ عنها الليالى الذواهبُ

وقوله فى الحماسة:

انظرْ إلينا تجدنا ما بنا دهَشٌ وكيف يطرقُ أُسْدَ الغابة النَّعَشُ
لا تعرفُ الحادثَ المرهوبَ أنفُسُنا فإننا بارتكابِ الموتِ نَنْتَعِشُ

وقوله فى الغزل:

عَسَى اللّهُ يُدْنى للمحبِّين أوبةً فتُشْفَى قلوبٌ منهمُ وصدورُ
وكم من قَصِيٍّ الدارِ أمسى بحُزْنِهِ فأَعْقبه عند الصباحِ سرورُ

وإذا كان هذا رقةَ طبع السلطان فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء[١]». ولعل هذا الحكم الدقيق لابن فضل الله العمرى خير رد على ابن خلدون المتوفى بعده بستين عاما وما ذهب إليه فى مقدمته من عراقة العجمة فى لغات أهل الأمصار، كما هو واضح - كما يقول - فى لغات أهل إفريقية وأشعارهم، ويتسع بالتهمة فى الإقليم التونسى قائلا: «ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها، ولم تزل طبقتهم فى البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور». وابن فضل الله العمرى إنما يتكلم عن شعراء الإقليم التونسى فما بالنا بالقرون التالية لابن رشيق وابن شرف ومن بها من الشعراء التونسيين المجيدين المحسنين، من أمثال على الحصرى وعبد الله الشقراطسى من شعراء القرن الخامس بعد ابن رشيق وابن شرف وأبى الفضل بن النحوى والتراب السوسى من شعراء القرن السادس وابن عُرَيْبة والسَّماط المهدوى من شعراء القرن السابع وعبد الله التجانى وابن حسينة من شعراء القرن الثامن، وجميعهم ممن تباهى بهم تونس، وسنترجم لهم فى الصحف التالية محاولين أن نوضح براعاتهم الشعرية. ونفس ابن خلدون كان شاعرا وله مدائح فى السلطان أحمد معاصره، وهو لا يتفوق فى شعره تفوقه فى نثره، ولذلك سنترجم له بين الكتاب. وفى الحق أنه قسا فى حكمه على شعراء تونس وبالغ فى قسوته. وفى سنة ٨٣٨ تولى أبوعمرو عثمان حتى سنة ٨٩٣ وهو خاتمة خلفائهم الضابطين للحكم وإدارته، وفى الحلل

(١) صبح الأعشى ١١٥/٥ وقارن بتاريخ الأدب التونسى ص ١٨٥.

السندسية أنه ممدوح الشهاب ابن خلوف[١] الجزائرى المتوفى سنة ٨٩٩ وله فى مديحه[٢]:

تلقاه أنَّى حَلَّ يَبْسُطُ للقِرَى ... بُسُطًا يُظَلِّلُها القَنا الرَّيانُ
شَرَفٌ أتِيهِ وبَيْتُ مُلْكٍ شامخٍ ... فوق السِّماك غَدَا له إيوانُ

فهو جواد لا يزال جوده يفيض فى كل مكان يحل فيه، ولا تزال رماح شجاعته وشجاعة جيشه تظلّله وتظل من حوله من رعاياه، شرف ناله من بيت ملك سامق، إيوانه فوق السماك فى أعلى مكان. ويُختَم العصر الحفصى بأبى الفتح بن عبد السلام الذى بكى الدولة الحفصية وتاريخها بكاء حارًّا.

ويعود إلى المديح والشعر بعامة غير قليل من الانتعاش فى عصر الدولة الحسينية العثمانية كما أسلفنا إذ كان حكامها يولدون بتونس ويتربَّوْن فيها تربية عربية، وأخذوا يشعرون بأنهم تونسيون وأن واجبهم أن ينهضوا بتونس علميا وأدبيا وهو ما وضعه نصب عينيه مؤسسها حسين بن على، وبالمثل على ابن أخيه حين استولى على الحكم، ودارت الدوائر عليه لابن عمه محمد الرشيد، فاستولى على صولجان الحكم، وكان شاعرا بارعا وموسيقيا ماهرا فبث فى تونس حركة أدبية وموسيقية تخفق بالحياة، وسار سيرة أبيه وابن عمه فى تشجيع العلماء والشعراء، ولم يلبث أن توفى فخلفه أخوه على الثانى، وتعرَّض حكمه لهزات عنيفة كانت له فيها دائما الغلبة، وخلفه ابنه حمودة وكانت أيامه أيام رخاء ويسر، ونعمت فيها الرعية بالأمن والاستقرار ورخاء الأسعار وصلاح البلاد. فكان طبيعيا أن يكون القرنان الحادى عشر والثانى عشر الهجرى قرنى عمران وخصب فى الحياتين العلمية والأدبية، غير أن تونس أصابها حينئذ ما أصاب البلاد العربية من تخلف فى الحياة العلمية، فغدت تعتمد على المتون والشروح وكأن ابن خلدون لم يخلف وراءه فيها من ينهض بالحياة العلمية فى المستوى الذى كتب فيه مقدمته، وأيضا فإن الحياة الأدبية - وحياة الشعر خاصة - أصابها غير قليل من التخلف، إذ أخذ الشعراء يرتضون لأنفسهم الاكتفاء فى كثير من الأحيان بأن يعارضوا هذا الشاعر أو ذاك من شعراء الأسلاف، فإن تركوا المعارضة فإلى تمسك شديد بفنون البديع وخاصة فن التورية، وبذلك ضيَّقوا على أنفسهم القنوات التى ينبغى أن يجرى فيها الشعر وملأوها بما لا يحصى من المحسنات البديعية، وهى محسنات كانت من الكثرة بحيث كادت تخنق الشعر خنقا، ونصبح وكأننا فى حاجة إلى مصباح ديوجين لنجد شاعرا تونسيا يخلص أشعاره من هذه الأعشاب والمعوقات الضارة التى تكاد تفقدها الحياة، ومع ذلك لن نعدم أن نجد بين شعراء المديح من يخفف عن شعره عبء

---

(١) الحلل ٤/١٠٨٤. ص ١٢٧.
(٢) ديوان شهاب الدين بن الخلوف (طبع تونس)

أعباء هذه المحسنات، من مثل قول السراج صاحب الحلل السندسية مهنئا محمدًا الرشيد بجلوسه على أريكة الولاية[1]:

أميرَ السعادة يهنيكمُ ... شبابُ الولاية بعد المشيب
وأيامُ ملكك ألبستها ... على العز ثوب الجمال العجيب
مليسك يخال سَنَا وَجْهِه ... ضحى الشمس من فوق غصن رطيب

فقد رُدَّ إلى الولاية شبابها وألبسها ثوب الجمال العجيب، وكأنما سنا وجهه ضحى الشمس من فوق غصن رطيب. وهو مجرد كلام وليس فيه رصانة التعبير ولا دقة المعانى ولا دقة التصوير، إنه مجرد كلام منظوم على وزن وقافية. وبنفس الأسلوب يهنىء حمودة بن عبد العزيز محمدًا الرشيد باى حين استولى على صولجان الحكم قائلا[2]:

الآن قد وافى الأميرُ وطاب لى ... زمن الحسينى أن أبيت مسهَّرا
الأروعُ الملك الرشيدُ محمد ... أعلى الملوك ذُرًا وأطيب عنصرا
وأجلّ من جلّى الخطوب وقد دجتْ ... ليلا وأفضل من يقود العسكرا
بَذل النوال كما استهلّت ديمةٌ ... وبكفه سيفٌ يريك تسعُّرا

والأبيات ليس فيها روح وبعض ألفاظها قلق ولا يكاد يستقر فى موضعه على نحو ما يتضح فى كلمة «مسهرا» فى البيت الأول وكلمة «تسعرا» فى البيت الرابع، وبدلا من أن يبيت هانئا لاعتلاء محمد الرشيد باى منصةَ الحكم يبيت مسهدا. وخير من هذين الشاعرين الطوير القيروانى فى تهنئته لعلى باى الثانى حين انتصر على بعض خصومه وأذاقهم وبال عصيانه مستهلا تهنئته الطويلة بقوله[3]:

فَتْحٌ ونصرٌ وإسعادٌ وإقبالُ ... لمن له خضعتْ صِيدٌ وأقيالُ[4]
ومن له هِمَّةٌ شمّاءُ قد سُحِبَتْ ... لها على الفلك الدوار أذيالُ[5]
ومَنْ سريرتُه طابتْ وسيرتُه الـ ... ـغَرّاء سارت بها فى الفلك أمثال
علىُّ بن حُسَيْنٍ مَن له فخرٌ ... على الملوك وإعظامٌ وإجلالُ

والقصيدة بها شىء من الرصانة يحول بينها وبين السقوط كسابقتها، وإن كانت لا تستمر فى

---

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٤٠.
(٢) نفس المصدر ص ٤٥.
(٣) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٤٥.
(٤) صيد: جمع أصيد: السيد الشريف. أقيال: جمع قيل: ملك.
(٥) شماء: سامية.

هذه الديباجة. وأكثر من هذه القصيدة رصانة وجزالة قصيدة لخليفة المشرق فى نفس الممدوح يحمِّسه ويستثيره فيها على منازلة خصومه مستهلا لها بقوله[1]:

قاتل بِسَعْدك فالمعالى تنجدُ	واعزِمْ فجَدُّك لم يزل يتجدَّدُ
والحربُ أنت مُجيدها ومجيلها	والخَلْقُ تَعْلم والوقائع تشهدُ
سمعتْ خيولُك بالحروب فهزُّها	طربٌ وباتتْ لِلصَّهيلِ تردِّدُ
ما ذاك إلا أنها عوَّدْتَها	حُمْرَ الدِّما حيث النَّجيعُ المورِدُ[2]

ويستمر الشاعر طويلا فى وصف معارك على باى وما يخوض فيها من الدماء إلى أعدائه وما يقطف من رءوسهم. والقصيدة حماسية قوية، ولم ننشد شيئا من شعر الشاعرين الرسميين على الغراب الصفاقسى ومحمد الورغى، لأننا سنخصهما بترجمتين مجملتين. ونتوقف الآن لنترجم لبعض من مرّوا بنا من شعراء المديح، وسنحاول الإيجاز قدر المستطاع.

على[3] بن محمد الإيادى

نشأ وتربى بتونس، وهو من أهم شعراء الدولة العُبَيْديَّة بالقيروان والمهدية، وخدم الخلفاء: القائم والمنصور والمعز، وذكره محمد بن شرف فقال: «وأما على بن الإيادى التونسى فشعره المورد العذب، ولفظه اللؤلؤ الرَّطْب، وهو بُحْتُرِىُّ الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبِّب فيعشق ويحبَّب». ومن شعره فى وصف أسطول القائم بالمهدية:

اعجبْ لأسطولِ الإمام محمدٍ	ولِحُسْنِهِ وزمانِه المُسْتَغْرِبِ
لبستْ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ	يبدو لعين الناظرِ المستعجب
من كل مُشْرِفةٍ على ما قابلتْ	إشرافَ صدرِ الأجدلِ المُتَنَصِّبِ[4]
دهماءَ قد لبستْ ثيابَ تصنُّعٍ	تَسْبِى العقولَ على ثيابِ ترهُّبِ[5]

وتصويره للسفن بأنها منتصبة الصدر كالصقر ترقّب ما تنقضّ عليه تصوير بديع، ويتصور اللون الأبيض فى أعاليها كأنه ثياب ترهب، ويتحدث عن نار النفط التى تقذفها بألسنتها على الأعداء، وعما يحفّها من مجاديف مصفوفة فى الجانبين تطير بها فى عباب البحر المتوسط طيرانا. ويطيل فى وصف الأسطول متنقلا بين تصاوير رائعة وهى قصيدة بديعة، ومثلها قصيدة ثانية

---

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى، ص٤٥. للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٩٦.
(٢) النجيع: دم الجوف. (٤) الأجدل: الصقر.
(٣) انظر ترجمة الإيادى فى تاريخ الأدب التونسى (٥) دهماء: سوداء لطلائها بالقار.

وصف فيها القصر الذى أنشأه المنصور بِصَبْرة إحدى ضواحى المهدية، وفيه يقول:

بنى قُبَّةً للملك فى وسط جنةٍ ... لها منظرٌ يُزْهى به الطَّرْف مُونِقُ
لهـا جدولٌ ينصبُّ فيهـا كـأنـه ... حسامٌ جلاه القَيْنُ بالأرض مُلْصَقُ
لها مجلسٌ قد قام فى وسط مائها ... كما قام فى فَيْض الفرات الخَوَرْنَقُ
إذا بثَّ فيها الليلُ أشخاصَ نَجْمِهِ ... رأيتَ وجوه الزَّنْج بالنـار تُحْرَقُ

والصور بديعة فالجدول كأنه حسام جلاه القين أو الحداد فهو يَلمع أشد اللمعان بما فيه من مياه، وهو مُلْقًى على الأرض بل ملصق بها لا يتركها أبدا، وقد قام وسط الماء مجلسها، وكأنه قصر الخَوَرْنَق الذى بناه المنذر بن ماء السماء قديما على ضفة الفرات، حتى إذا دجا الليل وانتثرت النجوم على صفحة السماء رأيتَ وجوه الزنج تُحْرَقُ بالنار. وتتكاثر هذه الصور وما يماثلها فى شعر الإيادى مما يدلّ بوضوح على ثراء ملكته الشعرية، وقد توفى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م.

الكاتب[1] الرقيق إبراهيم بن القاسم القيروانى

نشأ وتربَّى فى القيروان وإليها نُسب، وهو شاعر باديس ورئيس الإنشاء فى الدولة الصنهاجية لمدة خمس وعشرين سنة، وهو مؤرخ إفريقية الكبير، وتاريخه فيها وفى المغرب فى عدة أجزاء، لم تنشر منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة، ويقول عنه ابن خلدون فى مقدمته: «الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلدٌ له» ويقول ابن رشيق: «هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويّه، تلوح الكتابة على ألفاظه، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أحْذَقُ الناس، وله فى باديس أشعار مختلفة منها قوله:

وما مثلُ بـاديس ظهيرُ خِلافةٍ ... إذا اختير يومًا للظهيرة موضعُ
نصيرٌ لهـا من دولـةٍ حـاتميَّـةٍ ... إذا ناب خطبٌ أو تفاقم مطمعُ
حسـامُ أميرِ المؤمنين وسَهْمُـه ... وسمٌّ زُعافٌ فى أعاديه مُنْقعُ

فباديس ظهير الخلافة وعَوْنها ونصيرها الأكبر حين تنوب كارثة أو يتفاقم خطب، إنه حسام أمير المؤمنين وسهمه وسمٌّ قاتل لأعاديه. وله قصيدة يصف فيها وقعة حربية استبسل فيها باديس بشَلْف قرب المحمَّدية (المسيلة) سنة ٤٠٥ وكُتب له فيها النصر على أعدائه، يقول:

---

(١) انظر فى الكاتب الرقيق معجم الأدباء ٢١٦/١ وفوات الوفيات ٤١/١ وابن رشيق فى الأنموذج ص ٥٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٢١.

لم أَنْسَ يومًا بشَلْفٍ راع منظرُهُ وقد تضايق فيه ملتقى الحَدَقِ
والبيضُ فى ظلمات النَّقع بارقةٌ مثلُ النجوم تهاوتْ فى دُجى الغَسَقِ
وقد بدا مُعْلِمًا باديسُ مُشتهرًا كالشمس فى الجوِّ لا تخفى عن الحَدقِ
وأىُّ راحته لو فاضَ نائلُها وبأسُها فى الوَرى أشْفَوْا على الغرق
لو صُوِّر الموتُ شخصًا ثم قِيلَ له أبو مناد تبدَّى ماتَ من فَرَقِ

وهو يصور فى البيت الأول ما أخذ الناس من الفزع فى أول المعركة، ويقول إن السيوف كانت تلمع وتبرق فى ظلمات الغبار وكأنها نجوم تتهاوى فى دجى الليل، ولم يلبث أن بدا باديس وسط ظلام المعركة وكأنه الشمس لا تخفى عن الأبصار، ويتجسَّد له الجود والبأس فى راحته، فلو فاضت على الورى لأشفقوا على أنفسهم من الغرق فى جوده وبأسه، وما يلبث أن ينفذ فى مديحه لباديس إلى صورة طريفة، فلو تجسد الموت شخصا، ثم قيل له هذا أبو مناد باديس لمات من الفَرق والفزع. وقد علق ابن رشيق على بعض أبيات القصيدة بقوله إنها بديعة «حسنا وملاحة وإيجازًا وفصاحة وليس فى ألفاظ الكتابة العذبة مثل ما أتى به ولا مستزاد عليه، ألا ترى كيف تأنق فأغرب، ودقق فأعجب». وله مدائح رائعة فى محمد بن أبى العرب قائد باديس. وزار القاهرة وله قصيدة يتشوق فيها إلى أهلها ومتنزَّهاتها البديعة، وقد توفى حوالى سنة ٤٢٠هـ/١٠٣٠م.

ابن[1] رشيق

هو أبو على الحسن بن رشيق، ولد بمدينة المحمدية المعروفة الآن باسم المسيلة لأب رومى من موالى الأزد سنة ٣٩٠ وكان أبوه يحترف الصياغة فعلَّمه صنعته، وأحسَّ الغلام بنزعة فيه إلى الأدب، فهاجر إلى عاصمة القيروان المشهورة به حينئذ سنة ٤٠٦ وأخذ ينهل من حلقات شيوخها ويختلط بالأدباء والشعراء القيروانيين، وأخذت ملكته الشعرية تتفتَّح، واشتهر بجودة الخاطر وحسن القريحة، حتى إذا كانت سنة ٤١٧ وكان المعز بن باديس قد بنى لنفسه بناء فى صَبْرة: إحدى ضواحى المهدية، رأى أن ينشده قصيدة، ومما قاله فيها:

يا بن الأعزَّة من أكابر حميرٍ وسُلالة الأملاك من قَحْطانِ

(١) انظر فى ترجمة ابن رشيق آخر كتابه: أنموذج الزمان فى شعراء القيروان والخريدة للعماد الأصبهانى (قسم المغرب - طبع تونس) ٢/٢٣٠ وإنباه الرواة ١/ ٢٩٨ ومعجم الأدباء ٨/١٩٠ وابن خلكان ٢/٨٥ وشذرات الذهب ٣/٢٩٧ والنتف من أشعار ابن رشيق وابن شرف للميمنى ومجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ١٨٣ وديوانه بتحقيق د. عبد الرحمن ياغى.

من كُلِّ أَبْلَجَ آمرٍ بلسانهِ ... يضع السيوف مواضع التيجان

وأعجب المعز بالقصيدة، وشعر ابن رشيق باستحسانه لها، فحاول أن يتقرب منه بقصيدة لامية أكثر من القصيدة الأولى إبداعًا وافتنانا، فقُيِّد فى ديوانه وأخذ الصلة منه، وحُمل على مركب تمييزًا له بين أقرانه، وفى مديحها يقول:

لُدْنُ الرماح لما تُسْقَى أسنَّتها ... من مهجة القَيْل أو من مهجة البطلِ

لو أورقت من دم الأبطال سُمْرُقَنًا ... لأورقتْ عنده سُمْرُ القنا الذُّبُلِ

إذا توجَّه فى أولى كتائبهِ ... لم تفرق العين بين السَّهْلِ والجبل

فالجيشُ يَنْفضُ حوليه أسنَّته ... نَفْضَ العُقاب جناحيها من البلل

فرماح المعز لُدْنة لما يسقيها من مهج الملوك والأبطال، ولو أن الرماح تورق من دم الأبطال لأورقت رماحه الدقيقة، وما أعظم كتائبه إنه حين يتوجه فى أولاها لا تستطيع التفرقة بين السهل والجبل وما يلبث ابن رشيق أن ينفذ إلى صورة بديعة، فالجيش ينفض من حول المعز أسنته نفض العقاب جناحيه من البلل ويقول ابن خلكان: هذا البيت من فرائده، وكان كثيرًا ما ينفذ إلى مثل هذه الفرائد، فقد غاب المعز عن حضرته وكان العيد ماطرا، فأنشد:

تجهَّم العيدُ وانهلَّت بوادرُه ... وكنت أعهدُ منه البشرَ والضحكا

كأنه جاء يطوى الأرضَ من بُعُدٍ ... شوقا إليك فلما لم يجدك بكى

وكان يعرف كيف ينفذ إلى هذه الصور البديعة، وبِدْعُها إنما يرجع إلى ما تحمل من عنصر المفاجأة، ومن ذلك قوله فى تميم بن المعز:

أصحُّ وأعْلَى ما سمعناه فى النَّدَى ... من الخَبَرِ المأثور منذ قديمِ

أحاديثُ تَرْويها السيولُ عن الحَيَا ... عن البَحْرِ عن كفِّ الأمير تميمِ

وقد ظل مع المعز يؤلِّف كتبه الرائعة: العمدة وغيره، حتى إذا كانت الهجرة الهلالية وتراجع أمر المعز بكى القيروان طويلا، ورحل إلى جزيرة صقلية واستقرّ بمدينة مازر إلى أن وافاه أجله سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وله فى بكاء القيروان وما صارت إليه أشعار كثيرة بديعة.

التراب[1] السوسى

هو من شعراء عصر الطوائف ومن أهل سوسة. الثغر المعروف على المتوسط إلى الجنوب

---

(١) انظر فى التراب السوسى الخريدة ١٣٠/١ والحلل السندسية ٣١٠/٢.

الشرقى من تونس ومثلها مثل قابس دخلت فى حوزة العرب الهلالية بعد زحفتهم إلى الإقليم التونسى. وما زال يتوالى أمراء من عرب الهلالية منذ عهد تميم بن المعز انتزعوها من أيدى الدولة الصنهاجية، وتملكها أخيرًا جبارة بن كامل بن سرحان الهلالى الذى اشتهر بجوده، فأقبل عليه الشعراء يقدمون إليه مدائحهم وفى مقدمتهم شاعره التراب السوسى، وهو سوسى المولد والمربى والحياة والوفاة، وله فيه قصائد بديعة طوال إمارته لسوسه إلى أن استولى عليها روجار صاحب صقلية حين أخذ المهدية من يد الحسن بن على بن يحيى بن تميم الصنهاجى سنة ٥٤٣ واستولى معها على بقية بلاد الساحل التونسى إلى أن خلص عبد المؤمن سوسة والمهدية وبلاد الساحل جميعا من أيدى النورمان النصارى سنة ٥٥٥ ودخل جبارة فى طاعته. وللتراب السوسى قصيدة بديعة فى جبارة على نهج قصيدة مهيار الديلمى: (بكر العارض تحدوه النعامى) ومقدمتها لا تقل عنها وجدا واضطرام الحُبِّ شوقا وغرامًا، كما لا تقل عنها نسقا موسيقيا بديعا، وفى مديحه لجبارة يقول:

مُقْبِلُ القَلْبِ على سُبْلِ الهُدَى   معرضٌ عن كلِّ ماجرٍ الأثاما

ليس يَدْرِى ما المزاميرُ ولا   يسمع الصُّنْجَ ولا ذاقَ المُداما[1]

وإذا استصرختَه فى حادثٍ   فعلى الحادثِ جَرَّدْتَ حُساما

بيتُه كعبةُ بِشْرٍ نُصِبَتْ   تَفْصِمُ الغَمَّ عن الناس انفصاما

لذوى الحاجِ زِحامٌ حولها   زحمةَ الحجاجِ قد زاروا المقاما[2]

وجبارة، – فى الأبيات – يقبل على طرق الهدى ويعرض عن كل ما يجر إثما، كما يعرض عن كل لهو من مزامير وخمر وضرب للصنج، وإنه ليغيثك غوث السيف القاطع فى أى حادث يعتريك. وما يلبث التراب السوسى أن ينفذ إلى صورة بديعة، فبيت جبارة كأنه كعبة تفصم الغم عن قاصديه من ذوى الحاجات. ويتخيل أنهم يزدحمون حول منزله ازدحام الحجاج حول الكعبة، وله فى جبارة قصيدة ثانية وقف فيها طويلا عند أطلال صاحبته وتحدث عن أيامها الخوالى ومن كان بها من الغانيات الفاتنات وأطال فى وصفهن، وخرج إلى مديح جبارة بمثل قوله:

جبارةُ ابنُ كاملٍ   كهفُ النَّدَى والكرمِ

العارضُ الذى إذا   أَخْلَفَ صوبُ الدِّيَمِ

سرتْ سحابُ جودهِ   من غَيْثِهِ المُنْسَجِمِ

وأمطرتْ من الحَيَا   نَهْرًا لكل مُعْدِمِ[3]

---

(١) المدام: الخمر.

(٢) المقام: مقام إبراهيم فى الكعبة.

(٣) الحيا: الغيث.

الفارسُ الذى إذا	أسرج كلَّ شَيْظم[١]
وسُلَّ كلُّ مُرْهَفٍ	وسُلَّ كل لَهْذَمِ[٢]
تراه إن صاح بهم	تحت وطيس قد حَمِى
تراكبوا من خوفه	بَعْضًا على بعضهم

والأبيات تسيل عذوبة مع صور بديعة، فالعارض أو السحاب الذى يخلف صوب الديم والأمطار لا يزال يهطل بجانبه عارض جوده بغيثه المدرار، حتى ليفيض أنهارًا من الحيا والغيث المتدافع لكل معدم، وحين يسرج كل فرس كأنه أسد ضخم، ويسل كل سيف حاد ولهذم قاطع ترى الأعداء حين يحمى وطيس الحرب ويصيح بهم يتراكبون بعضا على بعض فزعا منه ورعبا ما بعده رعب. والقصيدة تموج بمثل هذه الصور البديعة، مع ما تموج به من خفة فى الموسيقى حتى لكأنما تطير عن الفم طيرانا، مما يرتفع بالتراب السوسى إلى منزلة عليا فى عالم الشعر. وقد ظل الناس فى الإقليم التونسى يغرمون بإنشادها حتى أوائل القرن الثامن الهجرى، إذ يشهد التجانى بذلك فى رحلته قائلا إن أعراب زماننا قد أولعوا بإنشادها وكثرة تردادها حتى عصره. ولعل فى ذلك ما يدل -من بعض الوجوه- على صحة ما زعمناه فى غير هذا الموضع من أن الفصحى كانت لا تزال تجرى فى ألسنة الناس - وخاصة من الأعراب - حتى هذا التاريخ.

ابن[٣] عُرَيْبة

هو أبو عمرو عثمان بن عتيق المهدوى، من شعراء المهدية وفقهائها ومحدِّثيها الأعلام، ولد سنة ٦٠٠ وبها منشؤه ومرباه، وله كثير من المصنفات منها كتاب جوامع الكلم النبوية، وآثار السحابة فى أشعار الصحابة، وله ديوان سماه قصائد المدح ومصائد المنح، وكانت له فى أبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية مدائح كثيرة، وقد استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزهة فى روضه المسمى بأبى فهر، فنظموا فى وصفه قصائد وقدموها إليه، وأجابهم عنها بأبيات تتضمن تفضيل قصيدة ابن عريبة على قصائد من حضره من الشعراء قائلا:

ألا إنَّ مضمارَ القريض لممتدُّ	بـه شُعَراءُ السَّبْق أربعـةٌ لُدُّ
فأما المجلِّى فَهْو شاعر جمَّةٍ	أتى أوَّلًا والنـاسُ كلُّهُمْ بَعْـدُ

وجمَّة من قرى المهدية، وواضح أنه يريد بشاعرها ابن عريبة، وله شعر طريف فى

(١) الشيظم الطويل الضخم ويعنى به الفرس.
(٢) لهذم: سيف قاطع.
(٣) انظر فى ترجمة ابن عريبة الحلل السندسية ٥٠٣/٢ وما بعدها وكتاب الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ص١١٣ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٩٧.

التشوق إلى بلده، وهو ما جعله فى أثناء مدحه لأبى زكريا يطلب إليه أن يوليه قضاء بلدته جمة قائلا:

ذكرت جُمَّةَ والذِّكْرَى تَهيج أَسًى وأين جُمَّـةُ مِنِّى والمُنَسْتِيرُ
وما مناىَ ليـاليها التى سلفتْ وما هواىَ محَـانيها المعاطيرُ[1]
لكن بهـا رجِمٌ مجفوَّةٌ يَئِسَتْ من أن تقرِّبنى منها المقادير
فـإن رأى مَنْ أدام اللهُ نعمتَه عليه لى خطَّةً فيها فمأجور

وكأن ابن عربية خيَّر أبا زكريا بين قضاء جمة أو قضاء المنستير بالقرب منها، وعيَّنه قاضيا بتبرسق وظل بها إلى وفاته سنة ٦٥٩. ولما توفى أبو زكريا وتولى ابنه المستنصر نظم قصيدة رائعة جعل شطرها الأول عزاء فى أبى زكريا وشطرها الثانى تهنئةً للمستنصر، وتمضى على هذه الشاكلة:

ولئنْ طَوَى بَدْرَ الإمـارةِ مغربٌ فلقد جَلا شمسَ الخلافة مَطْلَعُ
فـأضاء بـالمرحوم ذلكمُ الثَّرَى وأنـارَ بـالمنصـور ذاك المَرْبَـعُ
بَسَطُوا لسانَ الشكرِ فيمن بايعوا وثَنَوْا عِنانَ الصَّبْرِ عَمَّنْ ودَّعوا
ورأَوْا خـلالَ محمـدٍ فتبـاشـروا وتذكَّروا يَحْيَى الرِّضـا فتفجَّعوا

ويقول الرواة إنها قصيدة طويلة، ويدل ما ذكروه من أبياتها السالفة على مهارة ابن عربية فى الجمع بين التعزية والتهنئة فى كل بيت من أبياتها. ولو وصلتنا القصيدة أو بعبارة أدق لو وصلنا ديوان ابن عربية لاستطعنا أن نحكم على إبداعه الشعرى بصورة أكثر دقة، ومع ذلك فالأشعار التى أنشدها له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب تدل على موهبة شعرية فذَّة، وإذا كان التُّراب السُّوسى يدل على خطأ حكم ابن خلدون فى أن الشعر التونسى توقف بعد ابن رشيق وابن شرف، فابنُ عُرَيْبة يدل بدوره على خطأ هذا الحكم.

عبد[2] الله التجانى

هو عبد الله بن محمد التجانى، من أسرة ظلت راعية للأدب والثقافة منذ عهد مؤسس الدولة الحفصية أبى زكريا إلى عهد أبى يحيى زكريا الذى اشتهر باسم ابن اللحيانى (٧١١-٧١٧هـ)

---

(١) محانيها: منعطفاتها.

(٢) انظر فى التجانى الحلل السندسية (راجع الفهرس) والقسم الثالث من كتاب الورقات للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص١٦٢ وكتابه المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص٢١٢ وراجع الرحلة طبع تونس.

وقد ولد عبد الله حوالى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م ورعاه أبوه محمد خير رعاية، فأخذ ما عند أبيه وأسرته من الأدب والفقه، وانتظم مبكرًا مثله فى ديوان الإنشاء وعُرف بالبراعة فى الشعر والترسل، وكان طموحه أوسع من ذلك، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين من أهل تونس والطارئين عليها. وانعقدت صداقة وثقى بينه وبين أبى يحيى زكريا المشهور بابن اللحيانى كبير أمراء الدولة الحفصية، حتى إذا رأى هذا الأمير أن يقوم برحلة واسعة فى شرقى الإقليم التونسى وجنوبيه سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م اصطحبه معه فى تلك الرحلة التى ظلت سنتين ونصفا، وفى نهايتها تجوَّل معه فى الإقليم الطرابلسى، وأقام به التجانى مدة تحدثنا عنها فى طرابلس وعمن أخذ عنه صحيح البخارى ومسلم، وعاد إلى تونس وأخذ فى تأليف رحلته الطريفة، وفيها يتحدث عن البلدان التى زارها مع ابن اللحيانى جغرافيا ونباتيا وتاريخيا مع عرض أعلامها من الفقهاء والمحدثين وأصحاب العربية والشعراء الأفذاذ على مر العصور حتى عصره، ويذكر أن الأمير ابن اللحيانى فكر سنة فى الحج فجاءتهم الأنباء بمجاعة شديدة فى برقة، ويذكر أن ابن حُسَيْنة نظم قصيدة ينهاه فيها عن الحج حينئذ، وينشد مطلعها، ويقول إنها سقطت من ذاكرته، غير أن له قصيدة جعلها معارضة لقصيدته، وينشدها، وفيها يقول مادحا ابن اللحيانى:

مـولىً زهتِ الأيـامُ بـهِ	وتحلَّتْ من بعـد العَطَلِ
شـرفٌ بـالإرث تـملَّكـه	فـتنقَّـل أحسن منتقـل
بأسٌ كالنـار إذا اضطرمتْ	ونَـدًى كـالغَيْث المُنْهَـل
يُـمْـضـى الآراء مـسـدَّدة	فى قـول أنفذ أو عمل
فـأقِمْ لـلديـن تُـجـدِّدُه	فى عـزٍّ بـاقٍ متَّصِـل
فشروط الحج قـد ارتفعتْ	لـزوال القُـدْرة والسُّـبـل

والقصيدة طويلة، وهى تدل على قدرة ملكته الشعرية إذ يندفع فيها ولايكاد يتوقف، ويقول لابن اللحيانى أقم فيكفى ما تقدمه للدين من خدمات، وقد ارتفع عنك الحج لفقد شرط الاستطاعة وأمن السبل. وتكتظ الرحلة بأشعار يتبادلها مع أصدقائه وأبيه وأفراد أسرته، من ذلك محاولة الشاعر ابن حسينة أن يتبادل معه الشعر، فأجابه مادحا:

أمحـرزَ كـلِّ مَنْقَبـةٍ حَمِيـدهْ	ومن لم تُلْفِ فى الدنيا نَدِيدَهْ
أعنتَ على النِّظام بُحْسن طبعٍ	وأفـكـارٍ مـؤيَّـدةٍ سـديـدهْ
وتسألنى الجوابَ وإنَّ فكرى	ليَقْصُرُ عن مَجاريك المديدهْ
فمهِّدْ لى على التقصير عُـذرًا	وهوِّنْ من مطالبك الشـديدهْ
ودُمْ فى عِـزَّةٍ وبلوغ قَـصْـدٍ	وسَعْـدٍ دائمٍ وعُـلًا جـديـدهْ

وهو يعلى من شاعرية ابن حسينة ويجعله أكثر منه تفوقا فى عالم الشعر، ولم يكن ابن حسينة يقلّ عنه شاعرية وبراعة فيما يورد من أشعار له.

على[1] الغراب الصفاقسى

منشؤه ومرباه مدينة صفاقس فى القرن الثانى عشر الهجرى، وكان أبوه محمد فى ثراء ونعمة مما أتاح له الاختلاف إلى حلقات العلماء والأدباء فى بلدته والنَّهل من ينابيع علمهم وأدبهم وانتقل إلى تونس، فحضر دروس علمائها المختلفين فى المنطق والفلك وأصول الفقه والفقه المالكى والحديث النبوى والبلاغة والعربية، ويقال إن أصل مجيئه إلى تونس قضية شرعية فى إرث أبيه وتعرف على رجالاتها:رجال الدواوين وساستها وقد وضع بين يدى ديوانه مقدمة طريفة ذكر فيها أنه كان فى بدء حياته (بصفاقس على مايظن) لايزال حين تفتحت موهبته الشعرية يتنقل بين الجد والمجون إظهارا لمقدرته، وكثير منها لم يكن مطابقا للواقع بل على حسب مايقتضيه المقام من المفاكهات أو محاكاة للبلغاء فى بعض المطارحات. ويعود الغراب إلى ذكر ذلك فى مقدمته لديوانه لعلى الثانى بن الحسين وقد سماه «ديوان بهجة النفس والعين فى صفات الأمير على بن الحسين». وكان اتصاله برجالات العصر من الساسة وكتبة الدواوين سلما طبيعيا لاتصاله بعلى الأول ابن الأمير محمد الذى استلب أولاد أخيه الحسين الحكم إلى أن استرده محمد الرشيد وإخوته بعد عشرين عاما بفضل جيش جزائرى نصرهم على عمهم، واستقر الحكم من حينئذ فى يد الأسرة الحسينية. وقد أسند على الأول إلى الشاعر خطة العدالة التى كان يرنو إليها، وله فيه ثلاث مدائح، أهمها مدحة رائية، وفيها يقول:

مليك له فضلٌ ومجدٌ وسؤددٌ	وكلُّ مليكٍ عن معاليه يقصُر
لـه عِفَّةٌ مقـرونـةٌ بصيـانـةٍ	عن الفحْش فى أفعاله وتطهُّرُ
إذا وقعتْ أسيـافُه فى عِـداته	رأيتَ رءوس المعتـدين تطيَّـرُ
إذا رفعَ الأعلام فاجزمْ بفتحه	لما أمْ والجمعُ الصحيحُ يكسَّر

---

(١) انظر فى ترجمة الغراب مقدمته العامة لديوانه والخاصة التى وضعها بين يدى ديوانه الثانى فى مدائح على باى بن الحسين وهو مضمَّن فى ديوانه بتحقيق وتقديم محمد الهادى الطاهر المطوى وعمر ابن سالم (طبع تونس) وقد ضُمِّن الديوان رسائله ومقاماته، ومن الكتب التى اهتمت بالترجمة له كتاب عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب (طبع تونس) ٣٢/٢ وشجرة النور الزكية فى طبقات المالكية لمحمد مخلوف (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٢٣٩ وكتاب الأدب التونسى فى العهد الحسينى للهادى الغزى (طبع تونس) ص٩١.

وإنما ذكرت البيت الأخير لأنه كان يتصنع أحيانا لقواعد النحو، فقد ذكر فيه الرفع والجزم والفتح والجمع الصحيح السالم والجمع المكسر، ولكن ذلك كله لم يفسد البيت عنده. وهو لا يكثر من مثل ذلك في شعره، فقول من قال إنه كان يكثر من التورية في شعره يريد مثل ذلك من التصنع لبعض مصطلحات العلوم وخاصة النحو وأنه يخرج بذلك عن الحد المحدود فيه مبالغة. إذ تتضح في شعره قوة شاعريته وأنه يتدفق فيه رغم ما قد يتصنع له من المحسنات وخاصة الجناس. وله مدحة لم يُخْل منه بيتا من أبياتها وقد ذكر في فاتحتها أن ذلك طُلب منه. والحق أنه يتميز بشاعرية خصبة، وديوانه الثاني أنشأه في علي بن الحسين وقد استولى على صولجان الحكم بعد أخيه الرشيد من سنة ١١٧٢ حتى سنة ١١٩٦ وكان سياسيا محنّكا وقرب الشاعر منه وعاش في زمنه حتى توفي سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م وأهداه أكثر من ثلاثين مدحة مكونا بذلك هذا الديوان الثاني الذي قلنا آنفا إنه سماه: «ديوان بهجة النفس والعين في صفات الأمير علي بن الحسين» وله يقول في بعض مديحه:

مليكٌ إذا الآمال منك توجّهت	إليه فثِقْ أنَّ الإياب مغانمُ
بحلم وعدلٍ خُصَّ، هذا لمن جنَى	وهذا لجُرْح النائبات مراهم
له وثباتٌ في وَغَى الحرب تنثنى	- وتجبن عنهن - الكُماةُ الضَّراغم[1]
له عفَّةٌ لو أنها في الورى سرتْ	لما علقتْ بالعالمين مآثمُ
إذا انبجسَتْ مُزْنُ السماء وكفُّه	فذاك له كفٌّ وذلك ساجمُ
نَعِمْنا به في ظلِّ عيش كأنما	بنا من جنان الخُلْد حُفَّتْ تمائمُ[2]

والقصيدة تتدفق برنات موسيقية بديعة، والألفاظ سلسة عذبة، والتقسيم في البيت الثاني دقيق، فالعدل لمن جنى والحلم مرهم لجرح النائبات. وله وثباتٌ في وغى الحرب يتحاشاها ويحيد عنها الشجعان شجاعةً ضارية. ويبالغ في وصف عفته وأنها لو وزعت على العالمين ما كان في الدنيا مأثم. ويقول إذا انفجر مزن السماء بالغيث وكفُّهُ بالجود وتوقف المزن وكفُّ فكفُّه تظل هاطلة ولا تتوقف أبدا. ويذكر أنهم نعموا بالأمير على الثاني في ظل عيش ناعم رافه، حتى لكأنما يعيشون معه في جنان الخلد. وقد حفت معيشتهم بتمائم وتعويذات حتى لا تتبدل أبدا. ولعل صوت على الغراب الصفاقسي اتضح لنا الآن، وهو صوت فيه غير قليل من جمال العبارة وحسن الصياغة وأحيانا مع المبالغةُ الشديدة.

---

(١) الكماة الضراغم: الشجعان الأسود. (٢) تمائم: تعاويذ.

محمد[١] الوَرْغيّ

هو محمد بن أحمد الوَرْغى، نسبة إلى قبيلة وَرْغة التى كانت تنزل قرب مدينة الكاف فى الجنوب وقيل بل كانت تنزل على الحدود التونسية الجزائرية، ولا نعرف شيئا عن ميلاده ولا عن نشأته، ويبدو أنه التحق أولا بالكتاتيب، وحفظ فيها القرآن الكريم، ونفاجأ به فى جامع الزيتونة بتونس يدرس على شيوخه الفقه والتاريخ وعلوم الحديث والتفسير والكلام والمنطق وعلوم العربية والبلاغة. ويُبْدى من الذكاء ماجعله يجلس للتدريس بجامع الزيتونة. وجعلته نزعته الأدبية يختار العمل كاتبا فى ديوان الإنشاء لمهد الأمير على الأول، ونال فى عهده من الشهرة والجاه ماجعله كاتبه وشاعره الأول فلا يترك حادثا ولا عيدا إلا ويدبج فيه مدحة. وتدور الدنيا دورات وإذ أولاد أخيه حسين يستردون السلطان المفقود، ويجلس على أريكة الحكم محمد الرشيد لمدة ثلاث سنوات ثم أخوه الأمير على الثانى حتى سنة ١١٩٦ ويوشك نجمه أن يأفل منذ ولاية الرشيد سنة ١١٦٩ فيسجن ويعذب، ومايزال يبعث بمدائحه إلى أخيه الأمير على الثانى، ويتوسط له عند أخيه وترد إليه حريته، حتى إذا أصبح صولجان الحكم بيده قرَّبه منه، ونظن ظنا أن لزوجته ابنة على الأول أثرا فى قربه منه وقرب على الغراب الصفاقسى كما مر بنا، مما جعله ينظمهما بين كتابه وشعرائه. وظل الورغى يحظى بجوائز على الثانى حتى وفاته سنة ١١٩٠ للهجرة. ومدائحه منقسمة بين على الأول وعلى الثانى، ومن بديع ما له من مديح فى على الأول قصيدته فى إيقاعه بقبيلة النمامشة حين نهبت ركب حجيج من فاس وألزمها برد كل مانهبته، وله يقول:

هو العزُّ فى سُمْرِ القَنَا والقَواضبِ ... وإلا فما تُغْنِى صدورُ المراتبِ
وسيَّانِ أغمارُ الرجالِ وصِيدُها ... إذا لم يميِّز فَضْلَها بالتجارب[٢]
هو الملك الداعى إلى الحق وحده ... وإن كثرتْ أهلُ الدواعى الكواذب
ومَنْ عَرف الأيام قصَّ غريبها ... وفى قصص الباشا عيون الغرائب
ومن مثله يُدْعَى لكشف ملمَّة ... إذا قال: واغوثاهُ أهلُ المصائب

---

(١) انظر فى الورغى شجرة النور الزكية لمخلوف وعنوان الأريب لمحمد النيفر والجزء الثانى من تاريخ ابن أبى الضياف والورغى للحبيب ابن الخوجة ومجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٢٤٧ والأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٤٩ وديوانه مطبوع بتونس.

(٢) أغمار الرجال: من ليس لهم خبرة من العامة. الصيد: السادة.

ترى الخيل فى آثارهم مستطيرةً سحائبُ حَتْفٍ أُرْدِفَتْ بسحائب
وما ارتفعت شمسُ الضحى قِيدَ رمحهم عن الأفق حتى أُنشبوا فى المخالب[١]

والأبيات حماسية والورغى يقول فيها إن العز فى الرماح والسيوف ولا فضل بين شجاع وجبان إذا لم تميزهما التجارب فى وطيس الحرب، ويصف عليًا الأول بأنه يعيش للدفاع عن الحق وكشف الملمات عند أهل المصائب، ويقول إن خيل على الأول عصفت بأعدائه، ومازالت سحائب حتفها تعقبها سحائب حتف حتى دمرتهم، وما ارتفعت شمس الضحى قدر رمح حتى أنشبوا فى مخالب فرسانه كأن لم يكونوا شيئًا مذكورا. وتختلف مدائحه فى على الثانى عنها فى على الأول فأكثرها استعطافات واعتذارات على شاكلة قوله:

يا أيُّها الملكُ الذى نَظَرَ السَّنا فى وجهه الأسْنَى فقالَ موفَّقُ
أنت الذى يَنْسَى الغريبُ بقربه أوطانه ويجودُ منه المُمْلِقُ
مالى أحاول شَرْبةً من عفوكم فأُذَادُ وهْو على الوَرَى يتدفق
إن كان لى الذَّنْبُ العظيمُ فحلمكم يَبْلَى به ذاك العظيمُ ويُمْحَقُ
قالت قُتَيْلَةُ للرسول «وربما مَنَّ الفتى وهْو المَغِيظُ المُحْنَقُ»

والقصيدة من نفس الوزن والقافية اللذين اختارتها قتيلة لبكاء أبيها النضر بن الحارث ومقتل رسول الله له بعد غزوة بدر بالصفراء، ويقال إن رسول الله ﷺ حين سمع شعرها قال: أما إنى لو سمعت هذا قبل مقتله لم أقتله، وتمثل الورغى فى البيت الأخير بجزء مؤثر من بيت لقتيلة، وكماله:

ما كان ضرَّك لو مننتَ وربَّما مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

وكأنه يلفت عليا الثانى إلى مدى تأثر الرسول باستعطاف قُتَيْلة، وهو يتخذ وزن قصيدتها وقافيتها وسيلة إلى قلبه، ويتأثر ببعض معانيها، وله قصيدة فى مديح على الثانى تسيل عذوبة وسلاسة بدأها بقوله:

حاجة المدح لحُلْو الغَزَلِ حاجةُ الصبِّ لأولى القُبَلِ

حتى إذا استوفى الغزل فيها أخذ يمدحه بانتصاره على بعض الثائرين مُسْبِغًا عليه كثيرًا من الشمائل مبالغا مبالغات مفرطة. وكان لا يقل عن على الغراب الصفاقسى متانة أسلوب ورصانة صياغة وجزالة ألفاظ، ولم يستكثر مثله فى شعره من مصطلحات العلوم ومحسنات البديع.

(١) قيد: قدر.

٤

شعراء الفخر والهجاء

الفخر وما يتصل به من الحماسة من موضوعات الشعر القديمة، حتى لقد سمى أبو تمام مختاراته من الشعر حتى عصره باسم ديوان الحماسة إشارة إلى أنه الموضوع الغالب على الشعراء قديما، ومدَّ مختاراته إلى عصره، ودائما يزدهر فى البيئات الحربية التى تكثر فيها الحروب، ولا نغلو إذا قلنا إن القيروان ظلت تشهد حروبا كثيرة فى القرنين الأول والثانى للهجرة، واتصل شىء من ذلك فى فتح صقلية سنة ٢١٢ ثم فى فتح مالطة سنة ٢٥٥ وهاجمها مخلد بن كيداد الصفرى فى عصر القائم الفاطمى ثم كانت زحفة بنى سليم وهلال فى القرن الخامس، ومنذ غلب روجار النورماندى على صقلية سنة ٤٨٤ كانوا ينازلون الساحل الشمالى للإقليم التونسى واستولوا على المهدية مرارا. وفى القرن السادس الهجرى صَلِىَ الإقليم نار الحرب التى أشعلها فيه قراقوش وابنا غانية، واستولى عليه الموحدون، ثم قامت الدولة الحفصية وكانت القبائل فى الجنوب والجزائر ماتنى تناوئها، ونزلها الإسبان بأخرة من الدولة ثم العثمانيون. وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن الإقليم التونسى كان معدا دائما ليزدهر فيه شعر الفخر والحماسة، وأول عصر ازدهر فيه هذا الشعر عصر الدولة الأغلبية إذ نجده على لسان مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب وحفيده أبى العباس بن الأغلب إذ يقول فى قصيدة بناها على الفخر بالنسب والحسب[١]:

أنا الملكُ الذى أَسْمُو بنفسى ... فأبلُغُ بالسموِّ بها السَّحابا
إذا نُقِّبْتَ عنْ كرمى ومَجْدى ... وجدْتَنِىَ المُصَاصةَ واللُّبابا

فهو يسمو بنفسه مصعدًا فى السماء حتى يبلغ بها السحاب، وهو المصاصة أو الجوهر واللباب من المجد والكرم، ويمضى متحدثا عن سياسته وحسن تدبيره وشجاعته. وكان من بيته أحمد بن سوادة الأغلبى المتوفى سنة ٢٦٠ والى الزاب وطرابلس وصقلية، وكان بطلا فى الحروب وله فى جميعها وقائع مشهورة، وله شعر كثير يفخر فيه ببأسه وبطولته وبلائه فى الحروب من مثل قوله[٢]:

أنا مَنْ قد جال ذكرى ... وجَرَى بين الأنامِ

(١) مجمل تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٩. (٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٣.

أركب الهَولَ بكَرًّا   تى على الجيش اللُّهامِ[١]
تعرف الأنسر بأسى   فَهْيَ من فوقى حَوَامِى

فقد طار اسمه وطار صيت شجاعته بين الناس بركوبه أهوال الحرب، وإن النسور لتعرف بأسه فهى ما تزال حائمة حول راياته، ولاتزال خلفه وأمامه تنتظر غذاءها من أشلاء أعدائه ممن يذيقهم كأس المنون. وكان القائم بأمر الله، الفاطمى شاعرا مثل أبيه وله مثله شعر يفتخر فيه، من ذلك قوله، وقد غزا مصر مرارا ولم يكتب له النصر كما كتب فيها بعد لجوهر الصقلى، ومن قوله يذكر هذا الغزو آملا فى النصر[٢]:

فسرتُ بخيل الله تلقاء أرضكم   وقد لاح وَجْهُ الموتِ من خَلَلِ الحجُبْ
وأردفتها خيلا عتاقا يقودها   رجالٌ كأمثال الليوث لها خَببْ[٣]
فكان بحمْد الله ما قد عَرَفْتُم   وفزتُ بِسَهْمِ الفَلْجِ والنصر والغَلَبْ[٤]
وذلك دَأْبى مابقيتُ ودَأْبُكم   فدونكمُ حَرْبًا تضرمُ كالَّلهَبْ

وهو يصور سيره بجيشه تلقاء مصر وقد تراءى الموت له ولرجاله، ولم ينكص، بل أردف خيله خيولا أخرى عليها رجال شجعان كأنهم الأسود، يثبون ويسرعون حتى تم له النصر، غير أنه اضطر إلى العودة بجيشه إلى المهدية، وهو يتوعد خصومه بأنه سيظل يعاود الكرة عليهم وسيظل يشعل حربا تضطرم باللهب حتى يحقق مايريد من النصر النهائى. وشاعر الفخر فى الدولة الصنهاجية تميم بن المعز وسنخصه بكلمة، وممن نلتقى بهم فى العصر أبو طاهر التجيبى، ومن طريف ما له فى عزة النفس[٥]:

إلى كم أُقِرُّ النفس فى المَرْتَعِ المَحْلِ   وأقنع من جِدِّ المكاسب بالهزل[٦]
أكلِّف أقلامى مدًى مُتماحِلًا   ولم أُعملْ مُهْرى ورُمْحى ولا نَصْلِى
ومن كلَّف الأقلامَ لا البِيضَ همَّه   أقَمنَ به بين المذلَّةِ والقُلِّ

فهو يرى نفسه بكتاباته وأدبه قد أقام فى المرتع المجدب، إذ الأقلام لا تعود على صاحبها بحياة رافهة إنما الذى يعود عليه بذلك سلاحه، ويقول إن من كانت الأقلام لا السيوف مدى همه فى الحياة أقام فيها بين الذل والفقر، وإنه حرى به أن يحمل سيفه حتى يُعَدَّ بين الأبطال

---

(١) اللهام: العظيم.
(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٨٣.
(٣) خبب: عَدْوٌ سريع.
(٤) الفلج: النصر.
(٥) نفس المصدر ص ١٣٨.
(٦) المحل: المجدب.

الشجعان ويعيش معيشة جديرة به. ويلقانا فى أول الدولة الحفصية مؤسسها أبو زكريا، وله قصيدة حماسية طويلة يقول فى فاتحتها[1]:

أجِبْ داعِيَيْهــا فــالتجيبُ يُجيبُ ... وشِبَّ لظاها فــالنَّخِيبُ يَخيبُ[2]
وشِمْ عزمةً لا يَغْمز العجز مَتْنها ... فذو العَزْم فى اليوم العَصِيب يُصيبُ
ولا تَتْبَــع العَلْيَــاء إلا بــأبيض ... لِغَرْبَيْهِ فى هام الكُماة غروب[3]

وهو يدعو كل شخص إلى أن يخوض غمار الحرب، إذ لا يُنْكل عنها إلا الجبان. ويتدرَّع بعزم قوى فصاحب العزم هو اللذى يصيب الهدف المأمول، ودائما تتسلح للعلياء بسيف حاد يقطع رءوس شجعان الأعداء قطعا ولا يبقى منها بقية. وتلقانا عند شعراء هذه الدولة الحفصية أشعار حماسية كثيرة، ونجد ابن خلدون يشارك فيها واصفا شجاعة البدو وبطولة فرسانهم، وبالمثل نجد طائفة من هذه الأشعار عند شعراء العصر الحسينى، وما يمثلها فيه قصيدة على الغراب الصفاقسى فى الأسطول الذى أنشأه على الثانى الحسينى، وفيها يقول[4]:

بشائرُ فى الإسلام زادَ بها عِزًّا ... وآياتُ نصرٍ نورُها يُذْهب العَجْزا
ســوابــحُ فُلْكٍ للمغــانم أنشئتْ ... يسابقُ أفلاكَ السَّما جَرْيُها وَخْزا
يفــوزُ بأجــرٍ مَنْ علاهــا ومَغْنمٍ ... إذا ضربوا فى البحر أو ركبوا غُزَّا[5]
إذا لَقِىَ الإسلامَ كُفْرًا ترى بها ... جميعَ العِدَا أَسْرَى وأعناقَهم حَزًّا

والقصيدة تموج بحماسة ملتهبة، فالأسطول وسفنه بشرى للإسلام وآيات نصر مجيدله، وإن السفن لتسابق أفلاك السماء فى جريها حتى لا يمكن أن يفلت منها العدو، وحتى إذا لقيته أصبح كل أفراده إما أسرى وإما مذبوحين ذبحا، فهم بين أسير وقتيل، وكان يعاصر على الغراب الأمير على الثانى الحسينى وله فى الفخر شعر بديع وسنخصه بكلمة، وممن أنشد لهم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أشعارا فى الفخر ابن سعيد الحجرى وحمودة بن عبدالعزيز.

وإذا تركنا الفخر إلى الهجاء لم نجد ابن رشيق ولا من جاءوا بعده يتوسعون فى الكتابة عن هذا الفن، إما لأن أهل الإقليم لم يكونوا يعجبون به، وإما لأن الشعراء أنفسهم لم يكونوا يعيشون له كما كان يعيش بعض الشعراء فى العراق وفى الشام ومصر، ومع ذلك فقد توقف ابن

---

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٨٨.
(٢) النخيب: الجبان.
(٣) لغربيه: لجانبيه. هام الكماة: رءوس الشجعان.
(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٤١. الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٠٢.
(٥) غزًّا: غزاة.

رشيق عند شاعر يسمى بكر بن علي الصابونى، وقال إنه كان صاحب نوادر وهجاء خبيث، ولم يكد يلمّ من هجائه إلا بأمثلة قليلة كان يسف فيها إسفافا شديدا، ونجد عند بعض هجّائيهم هجاء للفقهاء، كالشأن فى الأندلس من مثل قول أبى طالب الدّلائى[١]:

لا تكنْ مثلَ معشرٍ فقهاءٍ جعلوا العِلْمَ للدراهم صَيْدَا
طَلَبُوه فصَيَّروه مَعَاشًا ثُمَّ كادوا به البَرِيَّة كَيْدَا

وفى ظننا أنّ أحد الأسباب فى انصراف الناس بتونس وغيرها من البلاد المغربية إلى المتصوفة أنْ وجدوهم زهادا فى كل ما بيد الحكام من أموال فاطمأنوا إليهم، ومما ساقه ابن رشيق فى أنموذجه قول بعض المجانين فى أحد الكتاب[٢]:

وكاتبٍ يَمْسَخُ ما يَنْسَخُ جميعُ ما يكتبه يَفْسَخُ
حِبْرُتُ فلا أدرى أأثوابهُ أم عِرْضُه أم حِبْرُهُ أوسَخُ

وقد عمم الوساخة فى حبر الكاتب وعِرْضه وأثوابه، وبذلك لسعه لسعا شديدا، وأكثر منه لسعا وإيلاما ما قيل فى مصلوب، وهو قول قرهب الخزاعى، ويبدو أنه صلب معه آخرون بنفس تهمة المروق عن الدين[٣]:

ما راقبَ اللّهَ فى عِرْضِ النَّبِيِّ ولا خافَ العقابَ ولا صَلَّى ولا سَجَدا
مُرِّدْتُمْ فلقيتمْ بَسطْشَ مُقْتَدِرٍ وتلك سُنَّتُه فى كلِّ من مَرَدا

فهو - وأصحابه - مارقون ملحدون، يستحقون ما نزل بهم من عقاب أليم. وتخف حدة الهجاء فى زمن الدولة الحفصية ويعود إلى الاشتعال فى عصر الدولة الحسينية، وخير من يمثله محمد الرشيد الحسينى فى هجاء ابن عمه على الأول وبيان عقوقه لعمه ونهبه للحكم منه ومن إخوته، وظل يكرر ذلك طويلا فى مثل قوله[٤]:

اسْتأْصَلَ الناسَ نهبًا واستباحَ دَمًا وما نجا غيرُ من نَجَّتْه رِجْلاهُ
بَغَى علينا وأَهْلِينا وشتَّتنا وعمَّ بالجَوْرِ، والخُسرانُ أعماهُ
قد عقَّ والدَه والعمَّ يا عجبًا حتى ابنه بسهام الحرب أصلاهُ

---

(١) الأنموذج لابن رشيق ص ١١٨.
(٢) الأنموذج ص ٢٤٩.
(٣) الأنموذج ص ٣٢٩.
(٤) ديوان محمد الرشيد ص٦٤ وانظر الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٦٩.

وهو يهجوه بظلمه وعسفه واستباحة أموال الناس ودمائهم وتشتيته له ولأخوته وفرارهم منه إلى الجزائر، مع عقوق ضخم لأبيه ولعمه الحسين وابن عمه، بل لقد ظل يوقد الحرب حتى نصر الله الشاعر وعاد إلى صولجان حكمه. وحرى أن نتوقف الآن قليلا لنخصه ونخص تميم بن المعز بكلمة.

تميم[1] بن المعز الصنهاجي

كانت الدولة الصنهاجية تنسب نفسها وقبيلتها إلى حمير، وهو أثر من آثار التعرب الذى أحدثته الزحفة الهلالية فى قبائل البربر، إذ انتسبت كل قبيلة إلى قبيلة عربية وخاصة القبائل العربية الجنوبية، وولد تميم لأبيه المعز بصبرة (المنصورية) سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وعنى بتربيته وتثقيفه عناية واسعة، ولما بلغ سن الثالثة والعشرين فوّض إليه حكم المهدية، ولم تلبث الزحفة الهلالية أن قدمت إلى القيروان بدعوة من المعز لاستعانته بهم فى حرب أبناء عمه بنى حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم فى الجزائر، ونصحه تميم أن لا يفعل ذلك ولكنه لم يستمع إلى نصحه فقدموا القيروان والإقليم التونسى وخرّبوا كل ما نزلوا به، ولم يجد المعز بدا من أن يلجأ إلى تميم فى المهدية سنة ٤٤٩ وظل بها إلى أن توفى سنة ٤٥٤ وطالت إمارة تميم فيها وتمهّد سلطانه بها وظل ينازل بنى هلال مرارًا إلى أن توفى سنة ٥٠١ عن تسع وسبعين سنة. وانتجعه شعراء الأندلس والمغرب والشام فأجزل لهم العطاء سوى من كان ينتجعه من شعراء الإقليم التونسى أمثال أبى الحسين بن خصيب وأبى عبد الله محمد بن على القفصى وأبى الحسن على بن محمد الحداد، وممن مدحه من شعراء أبيه ابن شرف وعبد الكريم بن فضال وابن رشيق ومرَّ بنا مدحه له. وكان مع شاعريته الفذة ناقدا مجيدا للشعر، قال ابن الأبار: كان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظهم، ويذكر أن شاعرا أنشده فى وقت هرج:

تَبَيَّتْ لا يُخَامِرْكَ اضْطِرابُ إليكَ تمدُّ أعينَها الرِّقابُ

فقال له: أرأيتنى - ويحك - طرت خِفَّةً ورميت بنفسى من علو هذا القصر قلقا واضطرابا، وسكّته ولم يسمع من قصيدته سوى هذا البيت. ورُوى له شعر كثير، من ذلك قوله يحمِّس بعض القبائل لمنازلة الأعداء:

متى كانتْ دماؤكمُ تُطَلُّ أما فيكم بِثَأْرٍ مُسْتقِلُّ
أغانِمُ ثم سالمُ إن فشلتم فما كانت أوائلكم تُذَلُّ

---

(١) انظر فى ترجمة تميم الحلة السيراء ٢١/٢ وابن خلدون ١٥٩/٦ وابن خلكان ٣٠٤/١ وأعمال الأعلام ٧٣/٣ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٦٨.

وبِتُّمْ عن طِلاب المجد حتى كأنَّ العِزَّ فيكم مُضْمَحِلُّ
وما كُسِرتْ فيه العَوالِي ولا بِيضٌ تُفَلُّ ولاتُسَلُّ[١]

وتميم يستثير حمية القبيلة بذكر الثأر الذي يشتعل له الغضب في صدر كل عربي، فالعار كل العار عند العرب أن لا يأخذوا بثأرهم وأن تَظَلَّ دماؤهم وتذهب هدرا دون مناضل عنها يقتحم لها الموت اقتحاما. ويضرب للقبيلة على وترتان هو الذل، فالعربي الكريم لا يمكن أن يقبل الذل ولا الضيم، فقبل كل شيء عزة النفس، ومن أجلها تحطَّم الرماح وتفل السيوف. ولابد أن القبيلة امتلأت غيظا وحقدا على أعدائها، واندفعت تطلب ثأرها وتحامي عن كرامتها وعزتها باذلة المهج والأرواح. وينشد متحمسا غاية التحمس:

بكرِّ الخيل داميةِ النُّحور وقَرْعِ الهام بالقُضْب الذُّكور[٢]
لأقتحمنَّها حَرْبًا عَوَانًا يشيب لهولها رأسُ الكبير[٣]
فإما المُلْكُ في شرفٍ وعزٍّ علىَّ التاجُ في أعلى السَّرير
وإما الموتُ بين ظُبا العَوالي فلست بخالدٍ أبدَ الدهور[٤]

فسيظل تميم يدفع الخيل في موقعة بعد موقعة وقد تلطخت نحورها وصدورها بدماء الأعداء، وسيظل يضرب في رءوسهم وأعناقهم بسيوفها الحادة مشعلا مع أعدائه حروبا ضارية يشيب لهولها كل من يراها، ويقول إنه لن يغادر ساحة هذا الشرف والعز، فإما يحمى التاج على رأسه ويصونه، وإما الموت الزؤام بين الرماح والسيوف، أو بعبارة أخرى إما حياة شريفة عزيزة، وإما موت أيضا شريف عزيز، موت الأبطال الكرام. ومن طريف ما لتميم في هجاء منافق:

رأيتك قاعدا عن كل خَيْرٍ وأنت الشهم في قالوا وقلتُ
وأطوارٍ لها لطفٌ وحِذْقٌ وألفاظٍ تنمِّقها وسَمْتُ
وقد يَعِدُ الوعودَ وليس يُوفي وليس بقائلٍ يومًا فعلتُ
كخَزِّ الماء فوق الماء طافٍ يروقُ وماله أصلٌ ونَبْتُ[٥]
كذلك زَهْرَةُ الدِّفْلَى تراها تشوق العَيْنَ حسنا وهي سُحْتُ[٦]

---

(١) العوالي: الرماح. بيض: سيوف.
(٢) القضب الذكور: السيوف الحادة القاطعة.
(٣) الحرب العوان: الحرب المكررة مرة بعد أخرى.
(٤) ظبا: جمع ظبة: حد الرمح القاطع.
(٥) خز الماء: الطحلب.
(٦) الدِّفلى: نبت مر زهره أحمر. السحت: الخبيث الكريه.

وهو يصوره يقعد عن كل خير، ويبادر بكلام فيه حذق ولطف وتنميق دون أن تكون فيه فائدة وإذا وعد أخلف ولم يوف بوعده، ولا خير عنده ولا غناء فيه كالخز الذى ينسجه الماء أحيانا على سطحه يروق النظر ولا أصل له، بل كزهرة الدفلى الحمراء تشوق العين ولا رائحة لها ولا عطر تنشره حولها

محمد[1] الرشيد الحسينى

من أهم ما يميز الحكم العثمانى فى عهد الدولة الحسينية التى امتد حكمها منذ سنة ١١١٧ للهجرة/ ١٧٠٥ للميلاد أن حسين بن على مؤسسها مع أنه كان تركى الأصل كان تونسى المولد والنشأة واللغة فأخذ يعنى بتقاليد التونسيين هو وجميع أفراد أسرته كما عنوا بالحركة العلمية فى جامع الزيتونة وفيها أنشئوا من مدارس كثيرة، وعنوا أيضا بالحركة الأدبية فضموا إليهم كثيرا من الشعراء، وأغدقوا عليهم الأموال والرواتب، وشاركوا بأنفسهم فى الحركتين العلمية والأدبية، وقد اشتهر علىٌّ الأول بشرح له على كتاب التسهيل لابن مالك كما اشتهر على الثانى بمدارسته صحيح البخارى غير تعمقه فى النحو والفقه وأصول الدين والبيان كما تشهد مدائح الغراب الصفاقسى. واشتهر محمد الرشيد الذى استرد حكم تونس له ولإخوته بأنه كان شاعرا فذا كما كان موسيقارا كبيرا، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغانى الشعبية التونسية والأندلسية المسماة باسم المألوف، وله ديوان شعر، ونراه فيه أيام غربته بالجزائر يفتخر بتونس وما نشر فيها أبوه من العلوم والآداب بمثل قوله عن تونس ويسميها باسمها القديم: ترشيش:

أَقَمْنا بِقَدْرِ الجُهْدِ قائمَ شَرْعِنا ... فترشيشُ أضحى عِلْمُها يتدفَّقُ

وجرَّتْ ذيولَ الفخر عن نُظَرَائها ... فلا الشامُ يحكيها وما هىَ جِلَّق

وما فى جميع الأرض مصرٌ يفوقها ... وليس لنا نهلٌ عليهـا محلِّقُ

أبى اللّهُ أن تُمْحَى ديارٌ أعِزَّةٌ ... وتَدْرُسَ آثارُ المعانى وتُمْحَقُ[2]

فهو يفخر بأن أباه أقام فى تونس الشريعة وأحيا بها الآداب حتى غدت تفاخر الشام وعاصمتها جلق أو دمشق، ويرفعها فوق جميع البلدان العربية، رغم أن ليس فيها كمصر نيل يتدفق، ويقول إن الله حفظها وصانها عن أن تعفى ديارها ورسومها. وتبتسم له الدنيا ويعود إلى تونس ويجلس على أريكتها ويشعر بفخر لايضاهية فخر وينشد:

---

(١) انظر فى ترجمة محمد الرشيد المشرع الملكى ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٣٦. والتاريخ الباشى والخلاصة النقية للباجى المسعودى

(٢) تدرس: تمحى.

أَيُشْبِهُنَـا فى العـالمين قَبيـلُ ... ونَيْلُ عُلانا ما إليـه سبيـلُ
أرى العِزَّ لا يأوِى سوى بيتِ مجدنا ... ولا فى حِمـانـا يستـذلُّ ذليـل
وإن نَحْنُ سِرْنا فى كُماة جيوشنا ... فللخيل وقْعٌ فى الثَّرى وصهيلُ
تكاد جبال الأرض من عظم بأسنا ... تذوب على سطح الثَّرَى وتميل

وهو يرفع نفسه وأسرته فوق العالمين، فلم ينل أحد مانالوا من العلاء والمجد والعز، حتى إن أحدا فى حماهم لا يمكن أن يصيبه أى أذى أو أى ذل. ثم يتحدث عن شجاعته وشجاعة جيوشه وكيف إذا سارت هزت الأرض خيولهم وزلزلتها زلزالا، بل إن الجبال لتكاد تميل أمام بأسهم وتذوب ذوبانا. وهو فخر لا يستغرب ممن دحر جيوش ابن عمه واسترد حكم أبيه لأسرته سنة ١١٦٩ للهجرة ولم يتمتع بنصره وحكمه طويلا فقد توفى بعد ثلاث سنين سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م.

٥

شعراء الغزل

لا يكاد شاعر ينظم الشعر إلا وينظم فى الغزل بعض أبيات له مصورا فيها حبه إزاء المرأة ومعبرا عن هذه العلاقة الإنسانية الخالدة. ويموج كتاب الأنموذج لابن رشيق بأشعار الغزل والحب، منها الطبيعى الذى يتدفق عن نفس صاحبه فى سهولة وطواعية، ومنها المتكلف الذى يصنعه صاحبه صناعة. وأيضا منه المستقل بقطع مفردة، ومنه الذى يوضع تمهيدا لما وراءه من مديح وغير مديح. ولن نستطيع أن نعرض ما فى الأنموذج من طرائف الغزل الكثيرة، ولكننا سنكتفى ببعض ما أنشده لكبار العلماء والشعراء، ممن أعجب بهم ابن رشيق مثل أبى عبدالله بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز المتوفى سنة ٤١٢ وكان لا يبارى فى علوم اللغة والنحو والقراءات، ويشيد بجيد شعره وبلوغه فيه بالرقة والدعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعانى وتوكيد المبانى، ويذكر من بديع غزله[1]:

أمـا ومحل حبِّـكِ من فؤادى ... وقَـدْرِ مكـانِـه فيـه المَكِينِ
لـو انبسطتْ لِىَ الآمـالُ حتى ... تصيِّـر لى عِنانـكِ فى يمينى
لصُنْتكِ فى مكانِ سواد عَيْنى ... وخِطتُ عليكِ من حذرٍ جفونى
فـأبلُغَ منكِ غـايـاتِ الأمـانى ... وآمَنُ فيـك آفـاتِ الـظنونِ

(١) الأنموذج ص٣٦٦ وإنباه الرواة ٨٤/٣ ومعجم الأدباء ١٧/ وابن خلكان ٣٧٤/٤.

والقطعة طريفة، فهو يريد أن يضع صاحبته فى سواد عينه ويخيط عليها جفونه، حتى يحفظها ويصونها ويبلغ منها كل أمانيه، ويمضى فى القطعة قائلا إنها يخاف عليها من الخفىّ وراء ألحاظ العيون، وإنها كل دنياه. ويشيد ابن رشيق بابن البقال عبد العزيز بن أبى سهل الخشنى النحوى اللغوى المتوفى سنة ٤٠٦ ويقول عنه: «كان شاعرا مطبوعا يلقى الكلام إلقاء ويسلك طريق أبى العتاهية فى سهولة الطبع ولطف التركيب وقرب مأخذ الكلام، وينشد من غزله قوله[١]:

يا غُصْنًا غضًّا من الآسِ ... ودرَّةً وهْىَ من النـاسِ
صـوَّركِ اللهُ عـلى صورةٍ ... كـانتْ بها أسباب وَسْواسى
ترديدُ ذكرى لكِ فى خاطرى ... أكثرُ من تَرْديـد أنفـاسى
نسيتِ وُدّى وتنـاسَيْتِنى ... وليس قلبى لك بـالنّـاسى
وليس لى منكِ سوى حَسْرَةٍ ... تجولُ بين الشوق والياسِ

فغصن صاحبته كغصن الآس يتثنى لينا ونعومة، ويعجب أن تكون درة متلألئة وهى من الناس، وقد صورت صورة جميلة كانت أسباب وسواسه واختلاط عقله، وإن ذكراها لتتردد فى خاطره أكثر من تردد أنفاسه، وقد نسيت وده وتناسته وليس قلبه لها بالناسى، فقد حفرت صورتها فيه حفرا، ولم يبق له منها سوى حسرة تتردد بين الطمع فى اللقاء واليأس. ويقول[٢] محمد بن على الأزدى:

ترنو بأجفانٍ سُكـارى بلا ... سُكْرٍ من الحسنِ مِراضٍ صِحاحْ
احمرَّ - لما استضحكتْ - خدُّها ... فلاحَ ما بين الشقيق الأقاحْ
بمهجتى أَفْـدِى التى صيَّرتْ ... جسمىَ للأسْقام منهـا مُباحْ
ومَنْ إذا رُمْتُ سُلوًّا دَعَـا ... قلبى ولُبِّى: حبُّهـا لابـراحْ

فهى ترنو بأجفان كأنها سكرى عليلة من الحسن وهى صحاح غاية الصحة، وضحكت واحمرَّ خداها، وكأنما ومض ثغرها المشبه للأقاح فى نصاعة بياضه بين ورد الشقيق المتوهج حمرة على خدودها. وإنه ليفديها بمهجته رغم ما أصابت به جسمه من الأسقام، ويقول إذا أراد سلوا عنها نادى قلبه وعقله حبها لا تبرح أبدا. ويقول الأقلامى محمد بن سلطان شاكيا حبه وآلامه فيه[٣]:

---

(١) الأنموذج ص١٦٠ وإنباه الرواة ٨٤/٢.
(٢) الأنموذج ص٤٠١.
(٣) الأنموذج ص٣٨٤.

مُقْلةٌ إنسانُها غَرِقٌ حَشْوُها التَّسهيدُ والأرَقُ
وصَباباتٌ مضاعفةٌ ودموعٌ ثَرَّةٌ دُفُقُ
وحَشًا يَسْطُو به لَهَبٌ عن قليلٍ سوف يحترق
وفتًى أَشْفَى على جُرُفٍ من هلاكٍ مابه رَمَقُ
وَيْحَ أهلِ الحبِّ ويحهمُ ليتَ أهلَ الحبِّ ما خلقوا

والشكوى بديعة، ومن شأنها أن تحنو صاحبته عليه لو سمعتها، ويقول ابن رشيق: «هذه هى الألفاظ العذبة الغزلة الرائقة التى تلصق بالقلب وتعلق بالنفس، وتجرى مجرى النفس، وهذه هى طريق الحذاق فى التغزل خاصة لأن المراد منه استدعاء المحبوب واستعطافه برقة الشكوى ولطف العتاب وإظهار الألم والإقرار بالغلبة.

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الغزل بالجزء الخاص من الأندلس أن أديبة متظرفة عفيفة تسمى حمدة من مدينة وادى آش كانت تهوى صديقة لها وأنها نظمت فيها مقطوعة غزلية بديعة تصف فيها فتنتها بحسنها وجمالها، وكانت لها أخت تسمى زينب شاعرة مبدعة. ومن الطريف أننا نجد فى أوائل الدولة الحفصية شاعرة من بيت التجانى تسمى زينب بنت إبراهيم التجانى تَفْتَنُّ بشِعْر إحدى صواحبها فتقول فى وصف حسنه وجماله[1]:

إذا انْسَدَلَتْ منه عليها ذُؤابةٌ كغُصنِ أراكٍ عانقتْهُ أراقمُ[2]
أثيثٍ طويلٍ فَهوَ يَسْتُرُ جِسْمَها إذا نزعتْ عنه الملابسَ أسْحَمُ[3]
كأنَّ الصباحَ ارتاع من خوف طالبٍ بثأرٍ فألْوَى بالدُّجَى يتكتَّمُ

وهى تتصور ذوائب صاحبتها أو ضفائرها كأنها أراقم أو حيات تعانق غصن أراك أو بعبارة أخرى تعانق قامتها الهيفاء الرشيقة، وتقول إن شعرها أثيث أو كثيف ملتف، وإذا نزعت عنه ثيابها بدا سواده على جسدها الأبيض الناصع، حتى لكأنه صباح أخذه الفزع من مطالب بثأر، فاختبأ فى دُجى هذا الشعر، متخفيا ومتسترا ما استطاع.

ونختار ثلاثة من الشعراء الغزلين من العصور المختلفة غلب عليهم الغزل واشتهروا فيه، وهم على الحصرى فى زمن الطوائف وأحمد اللُّليانى فى زمن الحفصيين ومحمد ماضور فى زمن الحسينيين.

---

(١) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ١٥٦/٢.
(٢) أراقم: حيات.
(٣) أسحم: أسود.

علي[1] الحصري

هو علي بن عبد الغني الفهري الحصري ابن أخت الحصري صاحب زهر الآداب كان كفيفا، وخلّف فيه عُدْوان الزحفة الهلالية على القيروان مرارة شديدة، فولى وجهه نحو الأندلس، وتهاداه أمراء الطوائف وخاصة المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وفيه يقول ابن بسام في كتابه الذخيرة: «كان بحر براعة ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقيروان، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادته ملوك طوائفها تهادى الرياض النسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم».ولما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف استقر في طنجة يقرئ بها القرآن إلى وفاته سنة ٤٨٨ وكان عالما فذا بالقراءات وطرقها، وله منظومة في قراءة نافع، وكان شاعرًا مبدعا، وله في الشعر ديوان لم يصلنا، ومن رائع غزله قصيدته المرقصة:

يـا ليلَ الصَّبِّ متى غَـدُهُ	أقيـامُ السـاعـة مَـوْعِـدُهُ
رَقَـدَ السُّـمَّـارُ فـأرَّقَـهُ	أسـفٌ لـلْبَـيْـن يُـرَدِّده
فبكـاه النَّجْم وَرَقَّ لـه	ممـا يَرْعـاه ويَـرْصُـدُهُ
نصبتْ عَيْنايَ له شَـرَكًا	في النَّـوْمِ فعزَّ تَصيُّـدهُ
يـا مَنْ سفكتْ عَيْناه دَمِي	وعـلى خَـدَّيْـهِ تـورُّده
خَـدَّاك قـد اعترفـا بـدمي	فعـلامَ جفـونُـك تَجْحَـدُهُ
بـاللّهِ هَبِ المشتـاق كَـرًى	فـلعـلّ خيـالـك يُسْعِـدُهُ

والقصيدة طويلة، وبلغ من روعتها أنه عارضها من شعراء العرب كثيرون آخرهم شوقي محاولين أن يقتبسوا منها شيئا من حسنها الموسيقي ومن معانيها البديعة، وهو يسأل ليل المحبوب عن غده، وهل سيستمر حتى قيام الساعة. وقد نام السمار، أما هو فيُسهده أسفه على الفراق وإنه ليبكي بدموع غزار، حتى ليبكي النجم له، وينام لمامًا آملا في رؤيته حلما فلا يراه. ويقول إن عينيها سفكت دمه، وشاهده تورد خديها المعترفين به ففيم جحود جفونها، ويسألها أن تهبه نوما لعل طيفها يسعده. والقصيدة تكتظ برقة بالغة، وهي رقة تشهد له بشاعرية فذة، ومما أنشده له ابن بسام:

---

(١) انظر في ترجمة علي الحصري معجم الأدباء ٣٩/١٤ وابن خلكان ٣٣١/٣ وجذوة الحميدي: ٢٩٦ وابن بشكوال في الصلة والذخيرة القسم الرابع ص٢٤٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص١٥٨.

رُدِّی حُشاشَةَ عاشقٍ مهجورِ بينَ الملومِ عليك والمعذورِ
ذكر الفراقَ فماتَ إلا شوقَه وأولو الهَوَى مَوْتَى بغير قبور
ودَّعتُ مَنْ أهْوى بل استودعتُها قَلْبى وسِرٌّ مدامعى وزَفِيرى
فبكتْ بِنَرْجِسَتَيْنِ خِفْتُ عليهما نَفْسى فلم أَلْثَمْ بغير ضميرى

وهو يسأل صاحبته أن ترد عليه مهجته، بعد أن هجرته وفارقته، ويحس كأنه مات، وما أهل الهوى إلا موتى بغير قبور، ويقول إنه ودَّعها بل لقد استودعها قلبه ودموعه وزفيره وحنت عليه فبكت، وهمّ أن يقبلها وتراجع خوفا عليها من نفسه الحار فاكتفى بأن يقبلها سرا فى ضميره، وكان يميل إلى الجناس والتلاعب به حتى فى الحب وفى القوافى كقوله:

إن كتمتُ الهوى فقد صار سِرِّى علانيَه
لسقامٍ أذابنى وشحوبٍ علا نيَه

فلم تعد هناك فائدة من كتمانه، فقد أصبح سره فيه ذائعا ومعروفا لسقامه وشحوبه الذى علاه، وكان يعرف كيف ينفذ إلى مثل هذا الجناس فى قافية البيتين بخفة، مما يدل على قدرة شاعرية بديعة، مع ما يمتاز به شعره من طرافة الأخيلة وحلاوة الموسيقى.

أحمد[1] اللُّليانىّ

هو أحمد بن إبراهيم القيسى المشهور باسم اللُّليانى نسبة إلى قرية تسمى لليانة بالقرب من المهدية، وقد نهل من حلقات شيوخها وأعلام أدبائها. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فغادر المهدية إلى تونس، واختلط برجالات الدولة، وطمحت نفسه إلى الثراء، فعمل فى التجارة وكون بينه وبين تجار جنوة ومرسيلية علاقات تجارية أثرى منها ثراء طائلا، وأوغر حساده صدر المستنصر عليه، فكان ذلك سببا فى مصادرته وإهدار دمه سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وله أشعار غزلية بديعة، منها قوله:

هذا العُذَيْبُ وهذه نَجْدُ أين الذى يَقْضِى به الوَجْدُ
ما هكذا حالُ المحبِّ إذا أعلامُ رَبْعِ حبيبه تَبْدُو
سرَّحْ دموعَ العينِ مُبْتَدِرًا وبذكرِ ماضى عهدهم فاشْدُ
والثَّمْ على شَغَفٍ مواطنَهم إن عاقَ عن مَقْصودك البُعْدُ

---

(١) انظر فى ترجمة اللُّليانى الحلل السندسية ٥٠١٢ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٩٥.

ولعلَّ مـا نرجـو تجـودُ بـه   كفُّ الزمـانِ ويُسْعِـدُ الجَدُّ

وهو يعجب فهذه ديار المحبوبة: المذيب ونجد، وهو لايزال يبكى، وآن له أن يكف عن بكائه، فتلك أعلام ربع محبوبته تبدو، فحق له أن يسرح دموع العين ويشدو بذكر الماضى من عهد الأحبة، بل إنه ليدعو المحب إلى لثم مواطئ أقدامهم إن عاقه عنهم البعد ولم يستطع سريعا لقاءهم، ويأمل أن تجود له كف الزمان بأمنيته ويساعده الحظ فى نَيْلها. ويقول متغزلا:

خلِّيـانى يـا صـاحبىَّ ونَجْـدَا   هِجْتُمـا بـالسلام شَـوقًـا ووَجْـدا
فـلِنَجْـدٍ بيـن الجـوانـح وُدٌّ   مستجـدٌّ مـادام رَبْعُـا لسُعْدَى
لا تقـولـوا مـرامُ سُعْـدَى بعيـدٌ   ربَّ سَعْـدٍ أتى فقـرَّب بُعْـدَا
أهلَ وُدِّى ما حُلْتُ عن حِفْظِ عَهدِى   وهـوَاكُمْ ماغيَّـر النَّـأْىُ عهـدا[1]

وهو يطلب إلى صاحبيه أن يدعاه ونجدا ويكفَّا عن لومهما فإنه كالريح تزيد نار وده المستكنة بين جوانحه اشتعالا بتعلقه بسعدى، ولا تقولا إن ربع سعدى بعيد، فرب سعد حدث فقرَّب الربع والديار، ويلتفت إلى سعدى قائلا لها إنه لا يزال على العهد ويقسم لها بحبها ما غيرَّ العباد له عهدا ولاحبا. ويلومه عذول فى تعلقه بمحبوبته تعلقا مسرفا، فيقول له:

رُدَّ لى قلبى لتعـذله   فهو فى كفَّيْه أجْمَعُهُ
لفـظه دُرٌّ يُسـاقـطُه   ونطاق السَّمع يجمعـه

فقلبه ليس معه ليعذله، بل هو مع صاحبته، وإنه ليتراءى له جمال لفظها وهى تنثره دررا ونطاق سمعه يجمعها دررا وراء درر. ولعل فى ذلك كله ما يصور افتتانه فى غزله ورقته.

محمد[2] ماضور

من أسرة فاضلة من الأسر الأندلسية التى نزلت الإقليم التونسى فى القرن الحادى عشر الهجرى واستقرت ببلدة سليمان، منشئة فيها كثيرا من البساتين وحقول الحبوب المتنوعة، وولد بتلك البلدة محمد لأبيه محمد ماضور أحد علمائها الأفاضل سنة ١١٥٠ هـ/١٧٣٧م وفيها منشؤه ومرباه على أبيه وعلمائها حتى إذا أصبح شابا تحول إلى تونس وجامعتها الزيتونة، فنهل من حلقات علمائها، وأعجبهم فيه ذكاؤه، فأسندوا إليه - حين استكمل دراسته - الدرس للطلاب بتلك الجامعة، وعاد إلى بلدته «سليمان» إماما وخطيبا بجامعها، حتى إذا توفى أبوه حلَّ محله فى

---

(١) حلت: تغيرت. النأى: البعد.
(٢) انظر فى ترجمة محمد ماضور مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٦١ والأدب التونسى فى العهد الحسينى للهادى الغزى ص١٠٤.

منصب القضاء ببلدته، وظل يليه إلى وفاته سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م.

وكانت موهبة محمد ماضور الشعرية قد تفتحت مبكرة، فعُرف بين الشعراء والأدباء برقة أشعاره، وقد خلف ديوانا لا يزال مخطوطا، ومعظمه غزل ينبئ عن حس مرهف، من مثل قوله:

إلى كم تجـورُ ولا تنـصفُ	وتهجُـر تيهًـا ولا تـعـطفُ
وحتى متى الهجرُ لا ينقضى	وإخـلافُ وعـدك لا يُخـلَفُ
وقد عِيلَ صَبْرِى وشقَّ الهوَى	علىَّ وبى ريحُـه تَـعْـصِـفُ
وأسْرُ الهوى لجٌّ بى للتَّوَى	وقلبى بنيـرانـه يـرجـف[1]
ولبٌّ سَهَـا واصـطبـارٌ وَهَى	وشـوْقٌ دَهَى القلبَ لا يُصْرَفُ

وهو يقول إن صاحبته تظلمه ولاتنصفه فدائما تهجره ودائما تخلف وعدها له، حتى نفد صبره، وشوقه يتقد فى فؤاده وإنه لأسير الهوى ويكاد يتلفه، بينما قلبه يتلظى بنيرانه، وقد سها لبّه ووهى منه اصطباره، وشوقه لايريم. ويقول:

يـاظبيةً أشعلتْ فى القلب نيـرانا	وخَلَّفتْنى مـع الأشـواق حَيْـرانـا
صَبْرِى ودمعى لما حملتُ من شغفى	هـذا تلاشَى وهـذا صار غُـدْرانا
ياشمسَ حُسْنٍ تبدَّتْ فى ملاحتها	هلا قَرَنْتِ بـذاك الحُسْنِ إحسانا
ما إن ذكرتُكِ إلا صرتُ من طَرَبٍ	من طيب ذكراكِ ولهانًا ونشوانا

فصاحبته أشعلت فى قلبه نيرانا لاتنطفئ أبدًا، وقد تلاشى صَبره وذرف الدمع مدرارا حتى ليستحيل غدرانا، ويستعطفها بحسنها الفاتن أن تقرن به إحسانا إليه ومودة، ويعترف بأنه أصبح من طيب ذكراها مولّها منتشيا. ويقول:

شوقى يزيد على طول المدى حُرقًا	يـاظبية الإنسِ رفقًا بالـذى عَشِقا
لله ذاك المُحيَّـا نـورُ بهجتـه	يَغْشَى سَنَا القمر السارى إذا اتسقا
يهـواك لُبِّى وقلبى مَعْ جـوانحـه	كـذاك سمعى وطرفى كلما رَمَقا

وهو يقول لصاحبته إن قلبه يزداد مع الزمن حرقا ولوعات مضنية، ويتوسل إليها أن ترفق بعاشقها، ويتولاه العجب لجمال وجهها ويتخيل كأنما القمر يستمد سناه وضوءه فى ليلة اكتماله من نوره البهيج. ويقول لها إن كل ما فيه يهواها، يهواها لبه وقلبه وجوانحه وسمعه وبصره.

---

(١) التوى: الهلاك.

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغربة والشكوى والعتاب

كان كثير من سكان الإقليم التونسى يرحلون عن ديارهم إما طلبا للكسب وابتغاء الرزق وإما طلبا للعلم وابتغاء التعمق فيه وإما طلبا للجهاد فى صقلية أو فى الأندلس وابتغاء الاستشهاد فى سبيل الله، وممن غادر القيروان إلى مجاهد صاحب دانية فى شرقى الأندلس (٤٠٥-٤٣٦هـ) للجهاد ضد نصارى الشمال، ابن الصفار السوسى، وحين دخل عليه مدحه بقصيدة يائية حكى فى فاتحتها حوار زوجته معه وقولها له: لمن تتركنى وتترك أطفالك يقول[1]:

بكتْ وشكتْ واسْتَرْجعتْ وتوجَّعتْ	فَـظَلْتُ لهـا مسترجعًـا متبـاكيـا
وقالتْ أما تنهاك أن تذكر النَّوَى	نُهىً قد نَهَتْ عنك الصِّبا والتصابيا
ومَنْ لصغـارٍ من عيالٍ تـركتهم	كزُغْبِ القَطَا يبغون طُعْمًا وساقيا
ولن يجـدوا للعيْش بعـدك لـذَّةً	ولن يَشْربوا من بعدك الماء صافيا
فقلتُ لها إن الذى ليس غيره	إلهٌ كفـاهم حـافـظًا ومُـراعيـا

وهو يصور ساعة الوداع لزوجته وصغاره وهى تبكى وتتوجع، وهو يبكى، وتقول له ألم ينهك عقلك الذى طالما نهاك عن الصبا والتصابى. وتستعطفه بصغار فى المهد كزُغْب القطا لم ينبت بعدُ ريشهم، ولن يطيب لهم عيش بدونه. غير أن نداء الجهاد كان أقوى من نداء الأطفال فقال لها إنى تركتهم لربى الكافى الحافظ الراعى. وكان شباب القيروان وغيرها من مدن تونس لا يزال يعدّ حقائبه للارتحال إلى المشرق للنهل من أساتذته فى مصر والحجاز والشام والعراق ولم يكن آباؤهم يقفون حجر عثرة فى طريقهم بل كانوا يشجعونهم للنهوض بهذه الرحلات العلمية، رغم ما يشعرون به من فقدهم وما يُطْوى فى ذلك من شوق وحنين، ومن خير مايصور ذلك قول على الناسخ يخاطب ابنه وقد سافر إلى مصر وهو صغير السن ابتغاء العلم[2]:

---

(١) الأنموذج ص ٢٦٦.

(٢) الأنموذج ص ٢٦٢.

يا دهرُ مالك لا تَرثي لمكتئبٍ ... ما باتَ منك خَلِيًّا قطُّ من كُرَبِ
لم يكف صَرْفَكَ صَرْفي عن ذوى ثقتي ... حتى تعقَّبَ بالتفريق في عَقِبي[1]
ابنٌ وكان أبًا لي في محبَّتِهِ ... أمسى بأرض الفَلا فَرْدًا بغيرأبِ
أمسيتُ في وطني في مثل غُرْبتِهِ ... يا مَنْ لمغتربٍ باكٍ لمُغترِبِ
واقه ياولدى المجذوبَ من كبدى ... للرَّأْيُ ذاك وإن أمسى به عَطَبى
فما الحياةُ إلى نفسى بمُعْجِبَةٍ ... إن لم تَجُزْ بِيَ أعلى السبعة الشُّهُبِ

وهو يعتب على الدهر أنه لا يبيت يوما خاليا من إحدى كربه وأنه لم يكف نوائبَه صرفهُ عن ثقاته حتى تعقبته فى ابنه البار به فحرمته منه وكأنما ألقت به فى فلاة دون أب يرعاه، ويشعر بفراق ابنه له كأنه أمسى غريبا فى وطنه، وكأن مغتربا يبكى بدموع غزار مغتربا، ويتماسك الأب، أمام فلذة كبده، فيقول له إن رأيك فى الرحلة هو الصواب وإن كان فيه عطبى وتلفى، ويضع نصب عينيه طموحه الهائل، فالحياة لا تعجبه ولا ترضيه إلا إذا تعدَّت به أعلى الشهب السيارة الساطعة. ويعلق ابن رشيق على أبيات هذا الشاعر فيقول: «هذا كلام يظهر عليه التوجع والتفجع، وتشوبه رأفة الإشفاق، ورقة الاشتياق، حتى تدرَّ عليه الجفون بحلب الشئون (الدموع). وليس يخفى على أحد ممن يعرف الكلام حسنُ هذا التخريج والتلطف فى الاعتذار عما فعل الفلام. وإن هذا الشعر ليهوِّن رزيَّة من أصابه مثلُ هذا المصاب فى ولده، حتى يسهل على الآباء فقد الأبناء ويجسِّر الغلمان على مفارقة الأوطان». وممن تلهفوا على وطنهم تلهفا شديدا زمن الدولة الصنهاجية ابن عبدون الوراق السوسى، وسنخصه بكلمة. ولعلى الحصرى الشاعر المبدع قطعة يتشوق فيها إلى القيروان وتونس حين إقامته بالأندلس، وهو فيها محزون حزنا شديدا وفيها يقول[2]:

على العُدْوَة القُصْوَى وإنْ عَفَتِ الدارُ ... سلامُ غريبٍ لا يئوبُ فيُزْدارُ
وحقٌّ بكاءُ العين والقلبُ مُسْعِدٌ ... لمن باتَ مثلى لا حبيبٌ ولا جارُ
سَقَى اللَّهُ داءَ القَيْرَوانيِّين بعدنا ... فقد مَرِضَتْ للقيروانيين أبصارُ
وكيف غناءُ الطَّيْرِ فى غير أَيْكها ... وقد بَعُدت منها فِرَاخٌ وأَوْكارُ
ألا يا بروقًا لُحْنَ من نحو صَبْرَةٍ ... وليس لها إلا دموعىَ أمطارُ
عَسَى فيك من ماء الحنيَّات شَرْبَةٌ ... ولو مثلَ ما يُوعى من الماء مِنْقارُ

وهو يحيىِّ العدوة القصوى: القيروان وديارها ويصرِّح بأنه يائس من العودة بعد أن أنزل بها

(١) صرفك: نوائبك وحدثانك.

(٢) الذخيرة ٤/٢٦٠.

أعراب سليم وهلال الدمار، وإنه ليبكى بكاء لا ينقطع للوطن وما صار إليه من الوحدة الموحشة فلا حبيب ولا جار، ويدعو للقيروانين: القيروان وتونس أو القيروان وصبرة المذكورة فى الأبيات وكانت بلدة كبيرة قريبة منها، يدعو لها أن يزايلها ما غشى الأبصار فيها من مرض الهدم والتخريب. ويعجب أن تغنى الطير فى غير أيكها وقد بعدت عنها أوكارها وفراخها الصغار، إنه وأمثاله من شعراء العدوة القصوى لا يستطيعون الغناء إلا أن يكون بكاء وأنينا. وتلوح له بروق من نحو صبرة وهى بروق خلب، ليس فيها أمطار إلا دموعه، ويتمنى جرعة ماء من حنيات تونس ولو قدر ما يحمل منقار طير من الماء حتى يشفى به أو صاب نفسه وفؤاده. ويقول الشاعر الحفصى ابن عُرَيْبَة يتشوق إلى المهدية وأهله بها[1]:

أقولُ لركبٍ قافلٍ عن معرَّسٍ	بجَمَّةَ تَرْدِى بالحمول مشاحِجُهْ[2]
لك اللّهُ أَمْتِعْنا عن البلد الذى	أكابرُه أسلافنا وأبالجُه[3]
وعن وطنٍ لولا العُلا وطِلابُها	لعزَّ على مثواىَ أَنّى خارجُه
وشاطِئه أَنّى تنوَّع حسنُه	وخِضْرِمِهِ أنّى تدفَّع مائجُه
سلامٌ على المَهْدِيَّتَيْن ففيهما	أبٌ بِتُّ عنه قاصرُ الخطو هادجه[4]

وهو يقول لركب راجع من منزله آخر الليل بجمة جارة المهدية، وبغاله تضرب الأرض بحوافرها لثقل ما تحمله: لك الله أخبرنا وأمتعنا عن البلد الذى يتميز رجاله ببلج وجوههم وطلاقتها وبشرها، وحدثنا عن هذا الوطن الذى اضطررنا إلى تركه فى طلب العلا وعن شاطئه المتنوع الحسن وخضرمه أو بحره الذى تتدافع أمواجه. ويهدى المهدية وأختها (صبرة) سلامه، ففيهما أبوه الذى تركه واهن العظم قاصر الخطو يتهدج فى مشيه مرتعشا، وإنه ليمتلئ عليه برا وشفقة. ويقول حمودة بن عبد العزيز أحد رجالات الدولة الحسينية المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٨م متشوقا فى الغربة إلى أهله بتونس[5]:

مللتُ دهرى وملَّتنى حوادثُهُ	فبعدكم ليس لى فى العَيْشِ من أَرَبِ
لهفى على زَمَنٍ لابل على سَكَنٍ	عهدتُهمْ منتهى الآمالِ والطَّلَبِ
كم ليلةٍ بعدهم قد بِتُّ أُسْهِرُها	أشابتِ الرأسَ منى وهْىَ لم تَشِبِ
كأنَّ أفلاكَها من طول ما انقلبتْ	ألقتْ عَصَاها لِمَا لاقتْ من التعبِ

---

(١) الحلل السندسية ٢/٥٠٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٩٧.

(٢) تردى: تضرب الأرض بالحوافر. المشاحج: البغال

(٣) أبالجه جمع أبلج: الناضر وجهه بشرا.

(٤) الهادج: الماشى متثاقلا فى ضعف وارتعاش.

(٥) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٥٨.

وهو يقول إنه ملَّ دهره وما تقلب فيه من أحداث السياسة حتى لم يعد له بعد أهله فى العيش من أرب. ويذكر أيام أن كان يقضى زمنه مع أهله وهم كل مناه من دنياه، وقد أصبح بعدهم يعيش مسهدا مفكرا فيما بلته به الليالى، ويتخيل كأن أفلاكها من طول ما سارت ألقت عصاها واستراحت لا تبرح ولا تريم لشدة ما عانت من التعب والمشقة. وحرى بى فى ختام حديثى عن الغربة وتشوق القيروانيين والتونسيين فيها إلى ديارهم أن أشير إلى أنهم كثيرا ما تشوقوا إلى الديار التى بارحوها إلى وطنهم، ومن أهم الأقطار التى كانت تملأ نفوسهم بها صبابة بما تمتعوا به فيها وبمناظرها الطبيعية الفاتنة مصر، وكان الكاتب الرقيق الذى مرت ترجمته كثيرا ما يكلفه حكام الدولة الصنهاجية بسفارات إليها، وله رائية يتشوق فيها إليها وإلى ساكنيها أشاد بها ياقوت فى ترجمته، وأهم منها قصيدة لأبى الفضل يوسف بن محمد المعروف باسم ابن النحوى، وكان قد حج، وفى رجوعه افتتن بمصر وبنيلها وطبيعتها فنظم تلك القصيدة يصور تشوقه إلى ديارها ومشاهدها الفاتنة وفيها يقول[1]:

حَدَّثانى عن نيلِ مصرَ فإنى	منذ فارقتهُ إلى الماء صَادِى
والرياضِ التى على جانبيه	واجعلاه من الأحاديث زادى
إن مصرًا لها معانٍ لعمرى	قد تأبَّت على جميع البلاد
هذه الأرضُ إنما هى نادٍ	مصرُ من بينها سِراجُ النادى

وهو منذ فارق مصر ونيلها الكوثر - كما يقول شوقى - ظامىء إلى جرعة ماء منها، وقد خلبته رياضها وورودها ورياحينها، ويقول إن مصر حظيت بمعان ومشاهد لم تحظ بها سائر البلاد، ويتصور المعمورة جميعها ناديا ومصر سراج النادى. وهى تحية كريمة لمصر من تونسى يوثق العلاقة بين الشعبين من قديم.

وتكثر الشكوى على ألسنة القيروانيين والتونسيين، مثلهم فى ذلك مثل لِداتهم من شعراء الأقاليم العربية، فهم يشكون مثلهم من الدهر وما يصيبهم من بلائه وأرزائه، ويشكون من الإخوان أنانيتهم وعدم وفائهم، ومن طريف شكواهم من الدهر وصروفه ونوائبه قول إبراهيم الحصرى صاحب «زهر الآداب» وغيره من التآليف الرائعة والتصانيف الفائقة كما يقول ابن[2] بسام:

تلاحظنى صُروفُ الدَّهْر شزْرًا	كأنَّ علىَّ للأيام وِتْرا
وفى عينى دموعٌ ليس تَرْقَا[3]	وفى قلبى صُدوعٌ ليس تُبْرا

---

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب - طبع تونس) ٣٢٥/١.

(٢) الذخيرة القسم الرابع ص٥٩٤

(٣) رقأ الدمع: جف بعد جريانه.

أقلِّبُ في الدُّجى طَرْفًا كليلا ... إذا جَيْبُ الظلام علىَّ زُرَّا
ولو نُشِر الذى أُطْوَى عليهِ ... على من تحتويه الأرضُ طُرًّا
أصمَّ مسامعَ الدنيا عويلا ... وهزَّ جوانحَ الأيام ذُعْرا

وهو يشكو شكوى مرة من صروف الدهر وكيف أنها تنظر إليه غاضبة كأن لها عنده ثأرا وما تزال النوائب تنزل به وما تزال دموعه لا تجفّ أبدا، وقد تصدَّع قلبه، ولا يبرأ من صدوعه أبدا، وأفّ لليل، فإنه لا يزال مسهدا فيه كلما زُرّ عليه رداء الظلام، ويقول إن ما يطوى عليه من الهموم لو وزع على جميع من تحتويهم الأرض من الأنام لأصموا مسامع الدنيا عويلا وأنينًا ولهزّوا ضلوع الأيام ذعرا وفزعا ما بعده فزع. ويقول تميم بن المعز شاكيا من الزمان وأرزائه[١]:

وذى عجبٍ من طول صَبْرى على الذى ... ألاقى من الأَرْزاء وهْوَ جليلُ
يقولون ما تشكو فقلتُ متى شَكَا ... شَبَا السَّيْف عَضْبُ الشَّفْرتين صَقيلُ[٢]
وإن امرءًا يَشْكو إلى غير نافعٍ ... ويَشْكُو بما فى نفسه لجهولُ
عَذابِىَ أن أشكو إلى الناس أنّنى ... عليلٌ ومَنْ أَشْكو إليه عليلُ

وهو يقول إن الناس يتعجبون من طول صبرى على ما يصيبنى من الرزايا والمصائب العظيمة، ويسألوننى مِمَّ تشكو، وأجيبهم هل يشكو حد السيف القاطع، ولمن أشكو؟ إن من يشكو إلى من لا يستطيع نفعه ويُسِرّ إليه بما فى نفسه دون فائدة لجهول بالناس وحقائقهم، وإنه ليعذبنى أن أشكو إلى الناس أننى عليل ومَنْ أشكو إليه مثل عليل ويقول ابن خلدون فى شكوى الزمان[٣]:

إلى مَ مقامى حيث لم تَرِدِ العُلا ... مُرَادى ولم تُعْطِ القيادَ ذلولُ
ويذهبُ لى ما بين يأسٍ ومطمعٍ ... زمانٌ بنَيْل المَعْلُواتِ بخيلُ[٤]
أمَا لِلّيالى أن تَردَّ خطوبها ... ففى كبدى من وَقْعِهنَّ فُلولُ
يروعنى عن صرفها كلُّ حادثٍ ... تكاد له صُمُّ الصِّلاد تزولُ[٥]

وحتى ابن خلدون يشكو من أن العلا لا تعطيه ما يريد وأنه لا يجد فى دنياه ذلولا تعطيه القيادة، ولا يزال بين يأس وطمع أو أمل، والزمان بخيل عليه بنيل المعالى، ويقول أما آن لليالى

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٦٩.
(٢) شبا السيف: حدّ طرفه. عضب: قاطع.
(٣) نفس المصدر ص ٢١٨.
(٤) المعلوات: المعالى.
(٥) الصلاد جمع صلد: الصخرة الصلبة.

أن تردّ خطوبها وكوارثها عنه وإن فلولها وشررها ليتضحان فى كبده، وإن كثيرا من الأحداث لينزل به مما تكاد يتشقق له الصخر الصلب. ويقول ابن سعيد المَجْرىّ فى العهد الحسينى المتوفى سنة ١٧٨٥ للميلاد[١]:

يطول علىَّ الليلُ حتى كأنما ... ليالىَّ من فَرْط الجَوَى ليلةُ الحَشْر
ويُزْعجنى الإصباحُ حتى كأنما ... نهارىَ سيفٌ سُلَّ من حيث لا أدرى
خليلىَّ إن الدهر أبدى إساءتى ... وأظهرَ ما قد كان أضْمَرَ من مكْرِ
وماضرٌّ مثلى أن تلظَّى بنارِه ... وهل ضرَّ إبريزًا تلظِّيه بالجَمْرِ

فليله يطول عليه من فرط الوجد حتى كأنه ليلة الحشر، ويزعجه الصباح حتى كأنما سيف نهاره سُلّ عليه من حيث لا يدرى. ويخاطب صاحبيه، فالدهر قد أظهر ما كان يضمر من مكر وأساء إليه إساءة بالغة، ويتماسك، ويجمع إرادته، ويعلن أنه لن يضره التلظى بناره، وهل يضر الذهب الخالص التلظى بالجمر ولهيبه؟!

وعلى نحو ما أكثر القيروانيون والتونسيون من الشكوى سواء من الدهر أو من الناس أكثروا من العتاب وما قد يجر إليه من الاستعطاف، وهما بابان قديمان فى الشعر العربى، ومن طريف ما للقزاز من عتاب لأحد أصدقائه وكان قد أولم وليمة فى ختان لابنه وابن أخيه ولم يَدْعه سهوًا[٢]:

واحسْرتا مات أتْرابى وأقرانى ... وشَتَّت الدهرُ أصحابى وأخْدانى
وغيَّرتْ غِيَرُ الأيام خالِصَتى ... والمنتضى الحرُّ من أهلى وإخوانى
وصار مَنْ كنت فى السَّراء أذكرهُ ... بل لست أنساه فى الضَّرَّاء ينسانى

وهو يتحسر على أصدقائه جميعا، إذ غيَّرت الحوادث أخلصهم وأصفاهم وأعزهم، وصار من كان يذكره فى السراء ولا ينساه فى الضَّرَّاء ينساه كأن لم يكن بينهم ودّ ولا صداقة. ومن طريف ما نقرؤه من عتاب فى عصر الدولة الصنهاجية عتاب خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافرى لأخيها، وكانت شاعرة مجيدة وأعجبت بشاعر أندلسى نزل بديارها، وشبَّب بها، فغار لذلك إخوتها فكتبت إلى كبيرهم[٣]:

أأخى الكبيرَ وسيدى ورئيسى ... ما بالُ حظِّى منك حظُّ نَحِيسِ

---

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص٢٥٦.
(٢) الأنموذج ص ٣٦٨.
(٣) الأنموذج ص ١٢٤ والخريدة ٣٢٧/١.

أبغى رضاك بطاعة مقرونة   عندى بطاعة ربِّىَ القُدُّوسِ
فإذا زَلَلْتُ وجدت حلمك ضيِّقًا   عن زَلَّتى أبدًا لِفَرْط نُحوسى
يا سَيِّدى ما هكذا حُكْمُ النُّهَى   حقُّ الرئيس الرفقُ بالمرءوسِ
وإذا رضيتَ لىَ الهوانَ رضيتُه   وجعلتُ ثوبَ الذل خير لَبوسِ

وخديجة تعاتب أخاها عتابا رقيقا فهو أخوها وسيدها ورئيسها وتشكو من حظها السيء معه، مع أنها تبغى رضاه، وتطيعه طاعتها لربها القدوس. فإذا ودَّت شاعرا وجدت حلمه لا يسع ودَّها ولايغفرهُ لها لفرط نحوسها، وتستعطفه فليس هذا حكم العقل ولا حق المرءوس على الرئيس من الرفق، وتحاول أن تميل قلبه إليها، فإذا كان قد رضى لها الهوان رضيته ولم تخلع عنها ثوب الذل يوما. والقطعة رقيقة منتهى الرقة. وخديجة بجانب زينب التيجانية الشاعرة التى مر ذكرها فى الحديث عن الغزل رمزان قويان لمشاركة نساء القيروان وتونس فى الحركة الأدبية بالعصور الماضية. ويقول ابن رشيق معاتبا[1]:

أجِدَّكَ لم أجد للصبر بابًا   فتدخله على سعةٍ وضيقِ
وإن أَصْبِرْ فمن إفراط جُهْدٍ   وإن أَقْلَق فحَسْبُك من قَلوقِ
سأُعْرِض عنك إعراضا جميلا   وأُبْدى صفحةَ الوجه الطَّليقِ
ولا ألقاك إلا عن تلاقٍ   بعيدِ العهد بالذكرى سَحيقِ

فقد أعنته صديقه حتى لم يعد يجد للصبر بابا، ومع ذلك إن استطاع يوما الصبر فمن فرط جهد، وحرى به أن يقلق أشد القلق، ويقول له سأعرض عنك إعراضا جميلا، وسألقاك بوجه بشوش حين يتصادف اللقاء، وقد بَعُد العهد بالذكرى بعدا شديدا. ويقول على الحُصْرى معاتبا بعض خلَّانه[2]:

بَرِمتُ بما ألقاه ممن أوامقُ   وأُوذيتُ حتى لاأرى من أُصادقُ[3]
إذا ما امرؤٌ أصفيتُه الودَّ واثقا   بخُلَّته لم تَصْفُ منه الخلائقُ[4]
فيا ليتَ شعرى هل إلى الناس كلهم   أنا مذنبٌ أم ليس فيهم موافقُ
فلا أنا مسرورٌ بمن هو واصلى   جذارا ولا آسَى على من أفارق
وإنى لمن يَبْغى انتقاصِى لقامعٌ   وإنى لمن يبغى ودادى لوامقُ

(١) الأنموذج ص ٤٤١.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٦٠.
(٣) أوامق: أتبادل معه الود.
(٤) خلته: صداقته.

وعلى الحصرى متبرم بأصدقائه لما يلقى من أذاهم، وقد يظن بشخص خيرا فيصفيه الود لما رأى من بعض صفاته، حتى إذا اختبره وجد أخلاقه كدرة غير صافية، ويعجب هل أساء إلى الناس جميعا حتى لا يجد بينهم صديقا موافقا، وجعله ذلك لا يُسَرّ بمن يحاول صداقته ولا يأسى على من ينقضها نقضا، ويعود فيقول إنه يقمع ويقهر كل من يحاول انتقاصه، وأما من يمد له يد الوداد فإنه يصبح وامقا له ومحبا. ويلقانا عتاب عنيف بين وزير المستنصر الحفصى محمد بن أبى الحسين وشيخ قبيلة سليم: عنان بن جابر، وسنخصه بكلمة، ويرسل شاعر العصر الحسينى الأول على الغراب الصفاقسى بمقطوعة شعرية لمحمد بن كمون يعاتبه لإبطائه فى كتابة عقد له[1]:

يا أبا عبد اللّهِ حَتَّامَ أسعى ... لَكَ فيما أرومُ شهرا فشهرًا
هل لهذا الوقوفِ منك وجرْيِى ... غايةٌ ينتهى لها الجَرْيُ أُخْرَى
ما أرى فى قضاءِ ما رُمْتَ عُسْرا ... ولئن كـان، إن للعُسْر يُسْـرَا
ليت شعرى أفِى وقوفك هذا ... طولَ جَرْىٍ تروم أم رُمْتَ أجرا

وهو يعتب على الكمونى أنه دائم السعى له والإلحاح عليه لا يوما بعد يوم بل شهرًا بعد شهر ليكتب له العقد، والكمونى يسوِّف ويماطل، ويقول له ليس فيما أريده عسر، وإن كان فإن للعسر يسرا، ويسأله هل تريد منى طول جرى لمزيد من الإلحاح أو تريد منى مزيدًا من الأجر. وحرى بنا الآن أن نتوقف لنخص شاعر الغربة ابن عبدون بكلمة، وبالمثل شاعر العتاب الغاضب: ابن أبى الحسين.

ابن[2] عبدون

هو محمد بن عبدون الوراق من أهل مدينة سوسة على ساحل البحر، وينوِّه ابن رشيق بشعره قائلا إنه «شاعر وطىء الكلام، كلف بعذوبة اللفظ والتسلّل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جأش». وحدث أن توفيت زوجته وابنه فى آن واحد، ففارق بلدته «سوسة» فى سنة ٣٩٣ للهجرة ورحل إلى جزيرة صقلية ونزل على أميرها ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ومدحه، وكان قد أناب عنه فى الحكم ابنه جعفرًا منذ سنة ٣٨٨ لإصابته بالفالج، فألحقه بابنه، فأدناه وقربه، غير أنه سرعان ما حنَّ إلى بلده، فرفع إلى جعفر قصيدة يسأله فيها الرجوع إلى وطنه، وصوَّر مدى رغبته فى ذلك من خلال تشوقه إلى رؤية قصر طارق وكان رباطا بقرب سوسة، له

(١) الديوان ص ٣١٠.

(٢) انظر فى ترجمة ابن عبدون الأنموذج ص٣٩٠ والحلل السندسية ٣٠٧/٢ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٠٨.

برج شديد العلو، ويصور حنينا متأججا فى صدره إلى سكانه قائلا:

يا قَصْرَ طارقٍ الذى طرقتْ	أحْشاىَ فيه بلابلُ الصَّدْرِ
واللهِ ما قَصَّرتُ عن تلفٍ	لكننى قَصَّرتُ بالْقَسْرِ
فسقاك مُنْهَلُ الحيا وسَقَى	عَصْرًا تقضَّى فيك من عصر
أُعطى عهودَ الله صَفْقَةَ مَنْ	أعطى العهودَ بجانب الحِجْرِ
لو أستطيع سَبَحْتُ من طربٍ	شوقا إليك سوادَ ذا البحر

وهو يهتف بقصر طارق المجاور لمدينته سوسة وما يثير فى صدره من شجون، ويقول إنه لم يُقَصِّر إزاءه عن تلف وإنما قَصَّر قَسْرًا وجبرا، ويدعو له ولأيامه الخوالى فيه بالسقيا، ويعاهده عَهد حجاج بيت الله الحرام عند الحجر أو الحطيم بجانب الكعبة المقدسة أنه لو استطاع لسبح إليه سواد البحر المتلاطم بين صقلية سوسة. ويقول ابن رشيق تعليقا على هذه المقطوعة: «رقة الشوق ظاهرة على هذا الشعر ولطف الحضارة مع مياه تكاد تنبع من جانبه، فهو أندى من الزهر، غِبَّ القطر، وأحلى من الوصل بعد الهجر». ولما سمع جعفر بن ثقة الدولة هذه الأبيات ازداد به إعجابا وفيه ضنانة، فمنعه من السفر، فكتب ابن عبدون إلى أبيه ثقة الدولة يسأله فيما سأل فيه ولده، ويشكر لما ناله لديهما من الجود، ويتشوق إلى وطنه مجسدًا شوقه فى قصر طارق قائلا:

يا قصرَ طارقَ همِّى فيك مقصورُ	شوقى طليقٌ وخَطْوى عنك مأسورُ
إن نام جارُك إنى ساهرٌ أبدًا	أبكى عليك وباكى البَيْن معذورُ
عندى من الوَجْدِ ما لو فاض من كبدى	إليك لاحترقتْ من حولك الدُّورُ
لا هَمَّ إنَّ الجَوَى والوجد قد غلبا	صَبْرِى فكلُّ اصطبارى فيهما زورُ

وهو يبث قصر طارق همه ويقول له إن شوقى لك حر طليق وخطوى إليك مقيد مأسور، وإن نام جارك نوما هنيئا فإنى أتجرع سهرًا مريرًا أبكى فيه عليك بكاء لا ينقطع. ويذكر أن فى كبده من لواعج الوجد ولهيبه ما لو فاض على ما حول القصر من الدور لاحترقت جميعا، ويفزع إلى ربه فإن ما يحمل من الجوى والوجد المتاع قد غلبا صبره، ولم يعد يستطيع احتمالاً لها. ومضى فى القصيدة يمدح ثقة الدولة.ولم يجد عنده - كما لم يجد عند ابنه جعفر - مأموله، فاضطر إلى أن يخرج من صقلية خفية دون علمهما. وعاد إلى سوسة، وبها توفى حوالى سنة ٤٠٠ هـ/١٠١٠م. وينشد له ابن رشيق مقطوعة بديعة فى ملعب سوسة الرومانى وفيها يتحدث عمن شادوه وملكهم وجيوشهم، ويقول إن الأرض ضمنهم جميعًا:

طحنتْهم طَحْنَ الرَّحا فإذا الإنـ ـسانُ والدهرُ صخرةٌ وزجاجُ

فالناس جميعا يطحنون طحن الرحا، بل لكأن الدهر صخرة، وهو يطحنهم بل يفتتهم كأنهم زجاج لا يعاد له سبك.

محمد[1] بن أبي الحسين

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين العنسي كان أحد الرجالات دهاء وذكاء، وقربه منه أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية وابنه المستنصر. حتى كان كبير رجالاتهم ووزرائهم، وكان متفننا في ضروب العلوم ومتعمقا في اللغة، وله معجم رتب فيه محكم ابن سيدة على نهج الصحاح للجوهري بحسب أواخر الكلم، واختصره في معجم سماه الخلاصة. وكان مع ذلك سيوسا يحسن تدبير الدولة الحفصية ويقود جيوشها في المعارك الحربية، وما زال المستنصر حفيًّا به إلى أن توفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م. وكان شاعرًا مجيدًا. وكان أبو زكريا يقرِّب منه شيوخ القبائل ومن بينهم عنان بن جابر زعيم عشائر مرداس من قبيلة بني سليم النازلين في قابس، وكانت له مكانة كبيرة عند أبي زكريا وصلات وعوائد. ويبدو أنه ظن به وبعشائر المرداسية بعض الظنون فأوقع بينها وبين قبيلة علاق ونشبت بينهما معارك. وتنبَّه عنان بن جابر لصنيعه، فغضب غضبا شديدًا، ورحل مع عشائره إلى بني هلال في الجزائر أو المغرب الأوسط. وعرف أبو زكريا خطأه، فسأل وزيره ابن أبي لح ن أن يكتب إليه مسترضيا، وكان مما تبادل معه ابن أبي الحسين قصيدتان رائيتان، وابن أبي الحسين في قصيدته يعاتبه في شيء من اللين حينا وفي شيء من الجفاء حينا آخر، لعله يعود إلى صوابه ويرجع إلى موطنه، وله يقول مستطردًا من التشبيب إلى عتابه عتابا رفيقا:

فــدونكمُ يــا لـلرِّجــال تحيَّــةً يُخَصّ بها عنيٌ عِنانُ بنُ جـابرِ

فتيٌ مـا دعتْـه زلَّـةٌ فـأجـابهـا فكيف طَوَى كَشْحًا على نفس غادرِ[2]

وقد كان بيني – يا عِنانُ – وبينكم بـواطنُ صُنَّاها بحِفْظ الـظواهـرِ

وفي كل عام كان للجيش وقعةٌ نجـرُّ بها أذيالَنا جرَّ سـادرِ[3]

تـظلِّلنا الـرايـاتُ وهي خـوافقٌ على كلِّ رِئْبالٍ بِخَفَّانَ خـادرِ[4]

---

(١) انظر في ترجمة محمد بن أبي الحسين القسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ص٧٥ وكذلك كتاب المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص١٩٩ ومنها نقتطف بعض أشعار ابن أبي الحسين.

(٢) طوى كشحا: أضمر نية.

(٣) سادر: لايبالي بشيء.

(٤) الرئبال: الأسد والشجاع الجريء. خفان: مأسدة. خادر: مقيم.

وهو يخص عنان بن جابر بتحية يستحقها. إذ هو فتى عزيز شريف لم يستجب يوما إلى أي زلة تدعوه، ويعجب إذن كيف ولى مغاضبا مطويا على الغدر بدولته، ويحاول أن يجذبه إليه، بما كان بينهما من صداقة ومن اشتراك في حرب أعداء الدولة سنويا جارين أذيال الخيلاء بانتصاراتهم غير مبالين بشيء، والرايات تظلل متحركة أبطال جيشهم بل ليوثه التي اندفعت من مأسدة خفان المقيمة بها تريد أن تلتهم الأعداء التهاما، ويمضي ابن أبي الحسين معاتبًا لعنان:

أذكِّرك العَهْدَ الذى كان بيننا ... وإن كنتَ عنه ساليا غيرَ ذاكرِ
وكنتَ تُجير الناس فى خَيْر دولةٍ ... فأصبحتَ جارا فى هلال بن عامرِ
وكنتَ كلَيْثِ الغاب عزًّا ومَنْعَةً ... فصرتَ كأمثال الرِّئال النَّوافرِ[1]
وكنتَ نزيل المُلْك تجنى ثمارهُ ... أفانينَ من أَفْنان ريَّانَ ناضرِ
وقد كُنْتَ تَلْقَى العزَّ تحت ظلاله ... فها أنتَ تَلْقَى الذلَّ تحت الهواجرِ

وهو يذكره بما كان بينه وبين رجال الدولة الحفصية من عهد وميثاق، وكأنه نسيهما نسيانًا تاما، ويقرن حال العز القديمة لجابر بما صار إليه، فقد كان يجير الناس وأصبحت قبيلة هلال تجيره، وكان كالأسد عزا ومنعة فصار مثل النعام المتناثر في البوادي وكان يجني ألوانا من ثمار ملك وطيد ناضر، وكأنما يحاول أن يؤنبه، فيقول له إنك طالما تمتعت بالعز في ظلال الملك الحفصي وها أنت تصطلي بالذل في هواجر المغرب الأوسط. ويعود إلى اللين مع عنان فيقول:

عزيزٌ علينا – يا عِنانُ – ضَلالةٌ ... حدتْ بك لا تَلْوى على زَجْر زاجرِ
فديتُك لا تَشْرِ الضَّلالةَ بالهُدَى ... فديتُك لا تَشْرِ العَمى بالبصائرِ
وما العَرَبُ العَرْباءُ إلا بعهدها ... فمن كان أَوْفَى كان أولَ فاخرِ
هَدَتْكَ الهَوادِى – يا عنانُ – وأَمْطَرتْ ... ذُراك الغَوادى بين بادٍ وحاضرِ[2]

وهو يتلطف له ذاكرًا أن هجرته بعشائره كانت ضلالة لم يستمع فيها إلى نصح ناصح ولا إلى زجر زاجر، ويفديه بنفسه أن لا يشترى الضلالة بالهدى ولا العمى بالبصر وأن يتبع سنن آبائه بالوفاء بالعهد. ويدعو الله له أن يهديه وأن تمطر السحب الغادية أكناف دياره بادية وحاضرة. وقد رد عنان بن جابر عليه عنيفًا بقصيدة تُعَدّ من درر الشعر التونسي، وفيها يذكر أنه لم يبرح موطنه إلا بعد أن ضاقت به الأرض كحلقة خاتم، وبعد أن تبين من أبي زكريا حالا، لا يطيق احتمالها، فهاجر إلى بلد من بلدان بني هلال بن عامر لا يعرف أهلها الذل، ويذكر أنه إنما غادر

(١) الرئال: النعام. النوافر: السحب. الذرا: الكنف والحمى.
(٢) هدتك الهوادي: يدعو له بالهدى. الغوادي:

موطنه صيانة لنفسه ولقومه من الأذى، ويفتخر بأنه ما من أحد من قومه إلا نال عزا ورفعة ويتحدّى من يعاديهم، إذ يطئون أرضه بحوافر خيلهم ويقضون عليه قضاء مبرما. والقصيدة على لسان هذا البدوى عنان بن جابر السلمى تُعَدّ أحد البراهين القوية - كما مرَّ بنا - على خطأ ابن خلدون فيما زعمه من أن أعراب بنى سليم وهلال زايلت ألسنتهم الفصحى فى أرجاء الإقليم التونسى منذ القرن السابع الهجرى بل ربما قبله بفترة غير قليلة.

٢

شعراء الطبيعة

من قديم يتغنى الشاعر العربى بالطبيعة، ومعروف أن الشاعر الجاهلى لم يترك فى بيئته الصحراوية زهرة ولا شجرة ولا سحابا ولا نجما ولا طائرا ولا حيوانا أليفا ولا وحشيا إلا تغنى به واصفا لجماله أو لسرعته أو لقوته، وتبعه الشعراء فى العصور التالية يصفون الرياض والأنهار وما أودع على ضفافها من جمال، كما يصفون الحيوانات والطير من كل نوع، ويصف إبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب الياسمين قبيل تفتحه قائلا[1]:

لقد راعَ رأسُ الياسمينِ منوَّرًا ... كأقراط دُرٍّ قُمِّعَتْ بعَقِيقِ[2]
يميلُ على ضعف الغصون كأنما ... له حالتا ذى غَشْيَةٍ ومُفيق
إذا الريحُ أدنتْه إلى الأرض خِلْتَهُ ... نسيمَ جَنُوبٍ ضُمِّخَتْ بخَلُوقِ[3]

فالياسمين وهو يوشك على التفتح وقد انبثقت فى أعلاه زهرة حمراء يروعك منظره، وكأنه أقراط ذهبية خُضِبَتْ بعقيق أو ياقوت، ومنه ما يميل منحنيا لضعف غصونه، ومنه ما يظل ثابتا فى وقوفه، وكأنما له حالتا مغشىّ عليه ومفيق، وإذا مر به النسيم ظننته تعطر بخلوق أو طيب ذكى الرائحة. ويقول إبراهيم بن غانم الكاتب القيروانى واصفا النيل[4] وكان قد أقام بمصر فترة وعاد إلى القيروان وتوفى بها سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.

النيلُ بين الجانبين كأنما ... صُبَّتْ بصفحته صفيحةُ صَيْقَلِ
يأتيك من كَدَرِ الزَّواخر مَدُّهُ ... بممسَّك من مائه ومُصَنْدَلِ[5]

---

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١١٩.
(٢) المقيق: حجر كريم أحمر.
(٣) ضمخ: لُطِّخ. خلوق: ضرب من الطيب.
(٤) الأنموذج ص ٥٠.
(٥) ممسك: مطيب بطيب المسك. مصندل: مطيب بطيب الصندل.

وكأنَّ ضوءَ البدر فى تمويجهِ ... برقٌ تموَّج فى سحابٍ مُسْبَلِ
وكأن نورَ السُّرْجِ فى جنباتِه ... زُهْرُ الكواكب تحت ليلٍ أَلْيَلِ[1]

وهو يصور النيل بين شاطئيه كأنه سيف حدَّاد بالغ فى جلائه لشدة لمعانه، ويقول إن فيضانه يأتيك بلون كدر كأنه اختلط بمسك أو بشجر الصندل الأحمر، يشير بذلك إلى ما كان يختلط به فى فيضانه من الطمى المائل إلى الحمرة، وكأن ضوء البدر على صفحة أمواجه برق يموج فى سحاب يهطل مدرارًا، وكأن نور المصابيح فى جنباته كواكب مشرقة لامعة فى ليل شديد الظلام.
ويقول عبد العزيز بن خلوف المتوفى حوالى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩م فى وصف سحابة[2]:

مرتجَّةُ الأرجاء يَحْبِسُ سَيْرَها ... ثِقَلٌ فتطلِقُه الرياحُ سَراحا
أخفى مسالكها الظَّلامُ فأوقدتْ ... من بَرْقها - كى تهتدى - مِصْباحا
وكأنَّ صوتَ الرَّعْدِ خلفَ سحابِها ... حادٍ إذا وَنَتِ الركائبُ صاحا

وهو يقول إنها سحابة مثقلة بمطر غزير، وكأن ثقل ما تحمله يحبس سيرها، وتطلقه الرياح، فتسير وئيدة فى ليلة داجية وكأن الظلام أخفى مسالكها، فأوقدت من برقها مصباحا كى تهتدى به فى سيرها، ويتصور كأن صوت الرعد فيها حادٍ خلفها إذا توانت الركائب وتباطأت صاح بها كى تمضى فى سيرها مسرعة. وكان يعاصر هذا الشاعر ابن أبى حديدة وكان يعنى بوصفه للسحب والنجوم، وسنخصه بكلمة. ومعروف أن البحر المتوسط يمتد طويلا على شواطئ الإقليم التونسى شرقيه وشماليه من قابس إلى بنزرت، فكان طبيعيًا أن يتعرض الشعراء فى ثغوره المختلفة لوصفه، من مثل الشاعر أبى الحسين الكاتب، وكان حسن البصر بصناعة الشعر- كما يقول ابن رشيق - سالكا لجميع شعابها، داخلاً من جميع أبوابها متقنا لها فى لطافة وحلاوة، وقد توفى سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م وفى البحر يقول[3]:

انْظُرْ إلى البحر وأمواجِهِ ... فقد علاها زَبَدٌ مُتَّسِقْ
تخالُها العينُ إذا أقبلتْ ... خَيْلًا بدتْ فى حَلْبَةٍ تستبقْ
حُمْرًا ودُهْمًا فإذا ما دنتْ ... من شاطئ البحر علاها بَلَقْ
ظهورها درٌّ وأكفالُها ... ألبسها الجرىُ صَبِيبَ العَرَقْ

وهو يصور أمواج البحر حين تعانق رمال الشاطئ وما يعلوها من زبد، ويخالها خيلا تستبق

(١) ليل أليل: ليل شديد الظلام.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٣٣.
(٣) الأنموذج ص ٣٦٣.

فى حلبة، ويراها حين تعانق الرمال يعلوها لونان أسود منها وأبيض من الزبد مما يجعلها بلقاء فى مرأى العين، وكأنما الرمال تحيلها درا سائلا بينما أواخرها يتصبب عرقا أو زبدا. وكان على بن حبيب التنوخى شاعرًا عذب اللفظ - كما يقول ابن رشيق - لطيف المعنى قليل التكلف، وقد توفى حوالى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م وله فى تصوير المد والجزر عند صفاقس[1]:

بلدٌ يكاد يقول حيـ ... ـن تزوره أهلا وسَهْلا
وكأنه والبَحْرُ يَحْـ ... ـسِرُ تارةً عنه ويَمْلا
صَبٌّ يُريد زيارةً ... فإذا رأى الرُّقباءَ ولَّى

وهو تعليل طريف للمد والجزر أمام صفاقس التى ترحب دائما بضيوفها، وكأنما أمواج البحر، حين تمتد أمامها وتقترب منها وسرعان ما تتراجع، عاشقٌ يريد زيارتها، ويرى الرقباء فيولِّى راجعا من حيث أتى.

ونلتقى بأبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وكان شاعرًا مجيدًا وناقدًا بصيرًا بالشعر، وله أشعار مختلفة فى الحماسة ووصف آلات الحرب وغير ذلك. ومن شعره يصف حديقة ونهرها وأزهارها من الرياض التى أنشأها قرب عاصمته تونس باسم أبى فهر[2]:

وسال نميرُ الماء بين اخضرارها ... فجاءَ كمثل الفَرْق بين الذَّوائب
وإلا كما شقَّ الكَنَهْوَرَ بارقٌ ... وإلا كمثل الصُّبح بين الغياهب[3]
وللنَّرجسِ النَّضْرِ اصفرارٌ تخالُه ... كشمسِ أصيلٍ بين بيض السحائب
وللياسمين الغَضِّ فى خُضْرِ بُسْطِها ... نَثائِرُ درٍّ أو سبائكُ ساكب
معطرةُ الأَرْدانِ يَنْفَغِمُ نَفْحُها ... يحيِّيك عَرْفَ الطِّيب من كل جانب[4]

فماؤها العذب ينساب بين خُضْرتها المائلة إلى السواد وكأنه فَرْق شعر فى أعلى ضفائر أو كأنه برق فى كنهور أو سحاب متراكم أو كأنه ضوء صبح يشق غياهب الليل وظلماته. ويقول إن النرجس النضر المصفر يتهدل بين الأزهار البيضاء كشمس أصيل تنسدل على الطبيعة من خلال سحب بيضاء، وزهر الياسمين يتناثر على بسطها وكأنه نثار درٍّ أو سبائك صانع حاذق، والحديقة جميعها معطرة الجوانب، ونفحها يحمل أفاويه ذكية، ويحيِّيك شذا طيبها من كل منعطف وركن. ويستمر أبو زكريا فى مثل هذا الوصف بقصيدته. ومن وصف جنات «تَوْزر» وحدائقها شاعرها

(١) الأنموذج ص٢٨١ والحلل السندسية ٣٢٦/٢.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٨٩.
(٣) الكنهور: قطع السحاب الضخمة.
(٤) الأردان: الأكمام يريد أكمام الزهر. ينغم نفحها: تملأ المكان بأفاويه الطيب. عرف: شذا ورائحة.

أبو علي بن إبراهيم، وسنفرده بكلمة. وبالقرب من تَوْزر شطّ الجريد وبه سَبخة إذا حاد سالكها عن طريقه غاص في رمالها ولم يُرَ له أثر، وتسمّى التاكمرت وماؤها ملح أجاج، وهواؤها شديد الحرارة ملىء بالرمال العاصفة، وقد وصفها ابن حُسينة المتوفى حوالي سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م قائلا[1]:

قطعنا التاكَمُرْتَ سُرًى وسِرْنا	صبيحة يومنا حتى الزَّوال
فلا تسألْ لما قاسيتُ فيه	من الأهوال والكُرَب الثِّقال
فليلٌ لاتسير به نجومٌ	كأنْ نِيطَتْ إلى بَعْض الجبال
وأرياحٌ تَصُمُّ الأذْنَ منها	تهبُّ عن اليمين مع الشمال
تصدُّ عن الطريق القَصْدِ قَصْدِي	وتضربُ حُرَّ وجهى بالرِّمال
ولا أسْطيع فَتْحَ العَيْنِ فيها	لبعض الأمر إلا باحْتيال

يقول ابن حُسَيْنة إنه قطع التاكمرت في ليلة وصبيحة يوم حتى الظهر وقد قاسى من الأهوال والكرب الثقيلة مايعزّ وصفه، فالليل طويل حتى كأنما علقت نجومه ببعض الجبال فهي لا تتحرك، والرياح تهب ذات اليمين وذات الشمال محملة برمال تصكّ الآذان ضاربة الوجوه بحصبانها وملقية ستارة كثيفة على الأعين حتى لا يمكن فتحها إلا بضروب من الاحتيال. ويقول محمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م في وصف روض[2]:

الروضُ أصبحَ يُجْلَى في غلائله	وأنشدَ الطيرُ فوق الغصن وارْتَجلا
وألقت القُضُبُ من أوراقها بُسُطًا	وأُلبِس الرَّوْضُ من أنواره حُلَلا
وقبَّل الطَّلُّ خَدَّ الأرض فابتسمتْ	أزهارُها فغدتْ تزهو بحسنِ حُلَى
والوردُ لما اعْتَلى من فوق وَجْنَتِه	ماءُ الحياء بدا في خدِّه خجَلا

فالروض يُجْلَى في أجمل ثيابه البديعة، والطير يتغنى فوق الغصون، وألقت الأغصان على الثرى بسطا خضراء من أوراقها، ولبس الروض حللا من أنواره وأزهاره وقبّل الطّل خدود الأغصان فابتسمت أزهارها وافتخرت بأجمل حلى، أما الورد فقد اعتلى فوق وجنته ماء الخفر، فبدت حمرة الخجل في خدّه، ويقول الأمير محمد الرشيد الحسيني في وصف الربيع[3]:

قَدِمَ الرَّبيعُ ووجْهُه يَتَهلَّلُ	والطَّلُّ يَلْثِمُ خَدَّهُ ويقبِّلُ
فتدفقت أنهارُه وتفتّقتْ	أزهارُه والدَّوح خُودٌ تَرْفُلُ

---

(١) الحلل السندسية ٢/٣٩٢.

(٢) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٦.

(٣) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٨.

بقلائدٍ موشيّةٍ بزبرجد   تيجانُها بيدِ الرّذاذِ تكلَّلُ
والرَّعْدُ يضربُ بالطبول وبَرْقُها   كالشّمْعِ تُطفيه الرياح فيُشْعَلُ

فالربيع وَفَد بوجهه المتهلل يعانق الطَّلُّ ويقبله مرارا وتكرارا، والأنهار تدفقت والأزهار تفتّحتْ والأشجار تتبختر بقلائد مزينة بزبرجد، بينما يتوّجها المطر بالأزهار، وكأنما الرعد يضرب بطبول ابتهاجا بالربيع، وأمامه شموع البرق فرحة به، وكلما أطفأتها الرياح عادت أكثر اشتعالا وأوفر ضياء.

وإذا تركنا الطبيعة الصامتة إلى الطبيعة الحية وجدنا الشاعر التونسى يكثر – كما أكثر سلفه المشرقى من قديم – من وصف الحمام والديكة والفرس، وينشد ابن رشيق فيها جميعا أشعارا كثيرة، من ذلك ما أنشده لعنترة التميمى الذى كان مفتونا بالحمام الداجن، وفى صفات أحدها يقول[1]:

وأصْفرَ فاقعٍ لا عيب فيه   يفوت – إذا وَنَى – عَصْفَ الجنوبِ
كأن الشمسَ يوم الصَّحْوِ ألقت   عليه رداءَها عند الغروبِ
وتنظر شخصَه الألحاظُ عشقا   كما نظر المحبُّ إلى الحبيبِ

فهو أصفر فاقع لونه لا عيب فيه، يفوت الريح حين يطير حتى لتعجز عن مداه، وكأنما الشمس ألقت عليه رداء أصيلها الذهبى، وإنه ليفتن الأبصار حين تنظر إليه ويخلب لبها كما يخلب المحبوب لب محبّه. ويقول ابن الفطاس فى وصف طائفة من الحمام[2]:

تـوسَّدْنَ مَطْوِىَّ الجناح كـأنما   لهنَّ حشايا فوقه وَدَرانِكُ[3]
ومِلْنَ على خُضْرِ الغُصونِ كأنما   لهنَّ على قُضْبِ الأراكِ أرائكُ[4]
ولا شَدْوَ إلا ما تصوغ لحونُها   ولا دَمْعَ إلا من جفونىَ سافكُ

فقد اتخذن من أجنحتهن وسائد، وكأنها لهن كالحشايا والطنافس للإنسان، وقد اتخذن من غصون الأراك أرائك ومقاعد ينزلن عليها للراحة، وما أجمل شدوها وغناءها وما تصوغ منها من لحون تثير فيه الشجن، وإن دموعه لتنزل مدرارا. ويلتفت عبد الرازق بن على النحوى إلى قمرىٍّ من الحمام على غصن شجرة ينوح فيخاطبه قائلا[5]:

---

(١) الأنموذج ص ٣١٧.
(٢) الأنموذج ص ٢٣٤.
(٣) درانك: بسط وطنافس.
(٤) الأراك: شجر. أرائك: مقاعد.
(٥) الأنموذج ص١٥٦.

أقمريٌّ أَيْكٍ الجزع هل أنت جازع	وهل لك إلفٌ نازحٌ عنك نازعُ
وفى لحنك المسجوع فى رَوْنق الضُّحى	دليلٌ أسىً لو أنَّ جفنك دامعُ
أثار كمينَ الشوق أنك صادحٌ	وإن كان لايدرى مرادَك سامع
كأن نسيمًا للشمال وللصَّبا	نَسيبُ الصَّبا طيبًا إذ الشَّمْلُ جامع
وإذْ ليس سِرٌّ للمسرَّة ذائعٌ	وليس نِمامٌ بالمنمَّة ضائع

وهو يخاطب قمرى أيك الجزع متعجبا ومتسائلا إذ يراه ينوح هل هو جزع لايستطيع صبرا على فراق أليفته وصاحبته التى نزحت بعيدا عنه مثله. ويقول له إن فى نبرات صوتك أسى وحزنا عميقا وإن جفونه لاتريحه بدموع تخففه عنه. ويذكر أنه أثار فى نفسه بصراحة كوامن حبه ولواعجه، وإن كان أحد لايدرى مقصدك من نواحك فقد استعدت لى ذكرى محببة، حتى كأنما تهب علىَّ صَبًا كنسيب الصَّبا طيبا حين كان الشمل ملتئما بالمحبوبة، ونعيش فى سرور دائم وعهد وثيق.

وسنخص عبد الواحد بن فتوح المتغنى بالديكة والحمام بكلمة. وأكثر شعراء القيروان وتونس من وصف الخيل وخاصة الفرس، إذ كانت أمتهما أمة حرب ونزال، ومن ذلك أن أبا الحسين الكاتب الذى مرت بنا مقطوعة له فى وصف أمواج البحر يصف فرسا أشقر له قائلا[1]:

لى فرسٌ قد حسنتْ حالُهُ	واستكملَ الإعجابَ إكمالُهُ
أشقرُ كالتِّبْر جَلا لونَه	عن مَحْضِه بالسَّبْك صَقَّالُه
كأنما البدرُ إذا ما بدا	غُرّتُه والشمسُ سِرْبالُه
كأنَّ فى حُلْقُومِه جُلْجُلاً	حرّكه للسَّمْع تَصْهالُه

وهو فرس بلغ الغاية من الحسن حتى ليعجب به كل من يراه، فرس أشقر شُقْرة ناصعة، جلاه فيها صانعه أتمَّ جلاء، وكأنما البدر غرته البيضاء المشرقة وكأن الشمس رداؤه الذهبى الدرِّىّ، وكأن فى حلقومه جرسا ما يزال يرنُّ بصهيله، ومع هذه الأبيات أبيات أخرى بديعة، ويعلق عليها جميعا ابن رشيق بقوله: «هذا شعر جمع شذور الحسن واشتمل على فنون الملاحة، حتى خُلطت حقيقته بمجازه، وطُوى إسهابه فى إيجازه، واشتبه حَوْكُه بطرازه، ونهضت صدوره بأعجازه، وأما التجنيس والطباق، والمقابلة والاتفاق، فمن حلاه المشهورة، وصفاته المذكورة».

وكان الخليفة الفاطمى بالقاهرة: نزار رأى أن يرسل إلى المنصور بن بلكين الصنهاجى واليه

(١) الأنموذج ص ٣٦١.

على الإقليم التونسى وإفريقية سنة ٣٨٤ هدية سنية ومعها فيل وطائفة من الخيل وحمار مخطط بديع الشكل، فكان يخرج بها جميعا فى مواكبه، ومثله ابنه باديس، وحفيده المعز،ومنذ المنصور يتبارى الشعراء فى وصفها نافذين إلى تصاوير لها رائعة، من ذلك قول التونسى على بن يونس المتوفى سنة ٤١٠ فى قصيدة يمدح بها المنصور واصفا هدية نزار وما كان بها من الخيل والإبل والفيل[١]:

جُرْدٌ سَبَقْنَ البرقَ غيرَ حوافل	وجَـرَيْن أبعدَ شَأْوِهِ والأقربا
يَرْفُلْنَ فى حُلَلِ العراق وحَلْيِه	زَهْوًا فتحسبُهنَّ روضا مُعْشِبا
ونجائبٍ مثل السُّفينِ تَرَى لها	تَحْتَ القِباب تَغَطْمُطًا وتغضبا[٢]
يحملن من زِيِّ الملوك هوادجًا	مثل القصور مُفَضَّضًا ومذهَّبا
والفيلُ يَخْطِرُ بينها وكأنه	وكأنها طودٌ أناف على رُبَى
شَرِسٌ إذا أحْفَظْتَه سهلٌ إذا	لاطَفْتَه صعبٌ إذا ما صُوعِبا

وهو يقول عن الخيل إنها جُرْدٌ قصيرة الشعر، وهى صفة من صفات الخيل الكريمة، ويقول إنها تسبق البرق غير حافلة به وتجرى شوطيه الأبعد والأقرب، وإنها لتتبختر فى سروج مزركشة ولجم محلاة بالجواهر، حتى لكأنك تنظر منها إلى روض زاهٍ بأزهاره. ويصف الإبل بأنها كالسفن ضخامة، وإنك لترى لها تحت الهوادج هدير الغاضب وزمجرته، وإن هوادجها الضخمة لتزدان بفاخر الرياش المفضض والمذهب، والفيل يَخْطِرُ متهاديا بين تلك الإبل والخيل وكأنه جبل أشرف على رُبًى وتلال، ويصفه بأنه شرس إذا أغضبته، سهل إذا لاطفته صعبٌ إذا ما أثرته. وأهديت من السودان فى الجنوب زرافة إلى المعز بن باديس، فصوَّرها شاعره ابن رشيق تصويرا بديعا فى قصيدة مديح له جاء فيها[٣]:

واتتْك من كَسْبِ الملوك زرافةٌ	شَتَّى الصِّفات للونها أثناءُ[٤]
تحتثُّها بين الخوافقِ مِشْيةٌ	بادٍ عليها الكِبْرُ والخُيَلاءُ
وتمدُّ جِيدًا فى الهواء يزينها	فكأنَّه تحت اللواء لـواءُ
حُطَّتْ مآخِرُها وأشرفَ صَدْرُها	حتى كأن وقوفها إقْعاءُ[٥]

وهو يقول للمعز أتتك زرافة ذات صفات شتى فى لونها انعطافات أو بقع كثيرة حمراء

---

(١) الأنموذج ص ٣٠٠.

(٢) تغطمطا:

(٣) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٤٦.

(٤) أثناء: يريد أنها ثنائية اللون.

(٥) الإقعاء: جلوس الرجل على مؤخرته ونصب ساقيه وفخذيه.

وصفراء ودكناء ويميزها بين الخوافق أى الخيل المسرعة مشية خاصة يبدو عليها فيها الكبر والخيلاء والعجب الشديد، كما يميزها جيد طويل جدا ترفعه إلى أعلى، وكأنه لواءان ممتدان، وتُرَى لطول يديها وقصر رجليها وإقبالها عليك بصدرها كأن وقوفها ضرب من الإقعاء أو الجلوس على المآخر مع نصب اليدين وهو تصوير بديع، ومثله تصويره لفحل الإوز، إذ يقول[1]:

نظرتُ إلى فحل الإوزّ فخِلْتُهُ	مِن الثِّقل فى وَحْلٍ وما هُوَ فى وَحْلِ
ينقّل رِجْليْه على حين فَتْرةٍ	كمنتعل لا يحسن المشى فى النَّعْل
له عنُقٌ كالصَّولجانِ ومَحْطِمٌ	حكى طرَف العُرْجون من يانع النَّخْل[2]
يداخله زَهْوٌ فيلحظُ من عَلٍ	جوانبَهُ ألحاظَ متَّهَمِ العقل

وهو يجسِّد ذكر الإوز فى مشيته المتثاقلة كأنه يخطو فى وحل، فينقّل رجليه، أو كأنه لابس نعلا لا يحسن المشى فيه. وبعد أن جسَّد مشيته هذا التجسيد الرائع، أخذ يصور خلقته فله عنق طويلة طول عصا الملوك المسماة بالصولجان، وله محطم أو منقار معقوف كعرجون النَّخْل الذى يحمل شماريخه وتمره، ثم صوَّر شموخه فى وقفته فقال: كأنما يداخله زهو فينظر من أعلى إلى جوانبه نظر المشدوه الذى يَظُنُّ أنه متهم العقل لطول نظره وإمعانه فيه. وحرى بنا أن نلم ببعض شعراء الطبيعة ممن ذكرنا أننا سنخص كلا منهم بكلمة مع ترتيبهم ترتيبا تاريخيا وهم عبدالواحد بن فتوح وصَّاف الديكة والحمام وابن أبى حديدة وصَّاف السحب والنجوم وأبو على بن إبراهيم وصَّاف البساتين.

عبد الواحد[3] بن فتوح الزَّوَّاق

نشأته ومرباه بتونس وبها تأدب، ثم استوطن القيروان، وانتظم فى سلك كتاب الدواوين، وفيه يقول ابن رشيق: «شاعر مفلق قوىّ أساس الشعر وأركانه وثيق دعائمه وبنيانه، كأنه أعرابى بدوى يركب ظهر الشعر ويخوض بحر الفكر، يتكلف بعض التكلف، وفى قصائده طول، ويُعَدّ من خيار طبقته» توفى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م. ومن شعره فى وصف الديك:

وهبْ للأطيار ذو خِبْرةٍ	منه بما يَعْرفُ من خُبْرِها
فنَصَّ جيدًا ورَقَى منْبرًا	دارَ الذى عُوِّدَ مِنْ خِدْرِها[4]

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٤٧.

(٢) الصولجان: عصا الملك الرامزة لسلطانه: محطم: منقار. العرجون مايحمل التمر. العنق.

(٣) انظر فى عبدالواحد بن فتوح الأنموذج ص٢٢٦ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٣٥.

(٤) نَصّ: رفع.

واستفتحَ الصوتَ بتصفيقه اسـ ـتفتاحَ ذات الطَّار فى شِعْرِها[١]
فبَلْبَـلَ البُلْبُـلَ فى غُـصنـه وأرَّق الـوَرْقـاء فى وَكْـرِهـا[٢]
كـأنمـا تُـوِّج يـا قـوتـةً واتخـذ الشُّنْفَيْن من شَـطرها[٣]
كـأنمـا يخْـطِرُ فى حُـلَّةٍ من عَـدَنِيِّ الوَشْى لم يَشْـرِها

وهو يقول إن الديك هبَّ للطير يريد أن ينافسه بما يعرف من خيره وتجربته فَنَصَّ جيده ورفعه ورقى منبرا فى دار صاحبته وماعُوِّد من مسكنها، واستفتح الصوت بتصفيق جناحيه وتحريكها كما تستفتح صاحبة الطار الضرب عليه تقدمة لما توقع عليه من أشعار. وما إن رفع الديك صوته وصياحه حتى اضطرب البلبل فى غصنه وألمت به الوساوس، وحتى أرَّق الحمامة فى وكرها، لحسن مايسمعان من صياحه، ويخيَّل لمن يراه كأنما تُوِّج ياقوتة ناصعة الأحمرار. وسقط منها لأذنيه قرطين بديعين، وإنه ليخطر ويتبختر فى حلة مزركشة كأنها صنعت من وَشْى عدن، غير أنه لم يشرها، إذ هى منحة إلهية مُنحها فى خلقه. ويقول فى وصف حمام:

يجتـابُ أَرْديـةَ السَّحـاب بخـافقٍ كالبرق أَوْمَضَ فى السحاب فأبرقا
لو سابق الـريحَ الجنـوبَ لغايـةٍ يـومًـا لجـاءك مثلَها أو أسبقـا
يَسْتقـرب الأرضَ البسيطةَ مـذهبا والأُفْقَ والسُّقُفَ الـرفيعةَ مُرْتَقَى
ويـظلُّ يَسْتَرْقى السمـاءَ بخـافقٍ فى الجوِّ تحسبهُ الشهابَ المُحْرِقا
يبـدو فيُعْجب من يـراه لحسنـهِ وتكـاد آيـةُ عِتْقِـهِ أن تنـطقـا
مُتَـرَقْرِقٌ من حيث دُرْتَ كـأنما لبس الـزجاجـة أو تَجَلْبَبَ زِئْبَقَا

وهو يقول إن الحمام لا يزال يقطع بخافقه أو جناحه أردية السحاب رداء وراء رداء، وكأنه برق يومض ويبرق ويلمع للناظرين، ولو سابق الريح لغاية أو مقصد ما تأخر عنها بل ربما سبقها، وهو يعيش فى الأرض ويتخذها مسكنا ومأوى ومع ذلك يرتقى ويصعد إلى الآفاق والسقف العليا، ويظل مصعدا بجناحه فى السماء حتى لَيُظَنُّ أنه شهاب فيها سيسقط على الأرض، ويقترب ممن يراه فيعجب بحسنه وتكاد آية عتقه أن تنطق بجمال منظره، ويقول إنه مترقرق متلألئ أينما درت ببصرك حوله ظننت كأنما تدور حول زجاج دُرِّىٍّ أو حول زئبق رجراج بهىّ. ويعلق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله: «لا أعرف أحدا وصف الحمام بمثل هذه الصفة».

(١) تصفيقه: تحريك جناحيه.
(٢) بلبل: حيَّر.
(٣) الشنفين: القرطين.

ابن[1] أبي حديدة

هو أبو العباس أحمد بن القاسم اللخمي، أحد الكتاب النابهين فى الدولة الصنهاجية وظل يعمل فيها بديوان الرسائل بجانب ابن رشيق وابن شرف إلى أن توفى حوالى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ويبدو أن منشأه ومرباه فى القيروان، ويقول فيه ابن رشيق: «شاعر فكه الشعر رائق التشبيه مولع به قليل التكلف قوى المنهج والظرف، ممن رفض الم والهجاء، وكان يَخْبر التصنيع خبرة جيدة ولا يركبه إلا فى الأماكن التى تصلح له كما شرط حذاق المتقدمين، وله بديهة مرضية. وله فى وصف سحاب:

يـارُبَّ مُتْـأقَـةٍ تنوءُ بِثِقْلِهـا	تَسْقِى البلادَ بوابلٍ غَيْداقِ[2]
مرَّتْ فُوَيْقَ الأرضِ تسحبُ ذَيْلَهَا	والريحُ تَحْمِلُها علـى الأعنـاقِ
ودَنَتْ فكاد التُّربُ يَنْهَضُ نحوها	كنُهوضِ مشتـاقٍ إلى مشتـاقِ
فكـأنما جـاءتْ تقبِّـل تِـرْبَـها	أو حـاولتْ منه لـذيذَ عِنـاقِ

وهو يقول: رب سحابة ملأنة مطرا تنوء بثقلها منه تسقى البلاد منه بوابل غزير، ويتخيلها كأنها امرأة جميلة تمر على الأرض تسحب ذيلها من المطر المتدفق والريح يحملها على الأعناق إجلالا لها، ويقول إنها دنت من الأرض فنهض الترب لها نهوض مشتاق إلى مشتاق، وكأنما جاءت محمولة على الريح لتقبِّل تربها، بل لكأنما تحاول منه عناق محب لمحبوبة غابت عنه طويلا. وله فى النجوم:

ولقـد حَمَى عن مُقْلتىَّ كَـراهـا	وُرْقٌ لـهـنَّ عـلى الأراكِ حَنِـيـنُ
فـى ليلةٍ لبس الـحـدادَ هـواؤُهـا	فـكـأنـمـا هـو راهـبٌ محـزونُ
قـد رصَّعتْ زُهْـرُ النجـوم سمـاءهـا	فـكـأنـمـا هى لؤلؤٌ مَـوْضـونُ[3]
وكـأنـهـا خَـلَلَ الـظلام رَوَانِـيًـا	أحـداقُ رومٍ مـا لـهنَّ جفـونُ[4]
وكـأنمـا الفَلَكُ الـمُـدَارُ على الـدُّجَى	بـحـرٌ أحـاط بهـا وهـنَّ سفـيـنُ

وهو يقول إن حنين حمامات على الأراك ملتاعة نحّى النوم عن عينيه فى ليلة لبس الهواء فيها ثياب الحداد فى دجاها فكأنما هو راهب محزون أشد الحزن، وقد رصّعت النجوم المضيئة

---

(١) انظر فى ابن أبى حديدة الأنموذج ص ٧١ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٤١.

(٢) متأقة: ممتلئة. غيداق: كثير.

(٣) موضون: متراكم.

(٤) روانيا: ناظرات.

المشرقة السماء وكأنما هى لآلئ تتداخل فى نسيجها المحكم، ولكأنها وهى ترنو خلال الظلام أحداقُ روم ليس لهن جفون فهى ما تنى رانية مديمة نظرها، ولكأنها الفلك المستدير على الدجى بحر أحاط بتلك النجوم وهن سفنه. كأن لا فارقَ كونيٌّ بين البر والبحر والسماء عند ابن أبى حديدة وغيره من الشعراء التونسيين، فهم يتغنون بسفن البر من الإبل، ويتغنى ابن أبى حديدة بسفن السماء من النجوم.

أبو على بن إبراهيم[1]

لم يزد صاحب الحلل السندسية فى التعريف به عن قوله إنه كان كاتبا، وأكبر الظن أنه توزرى الأصل، والتحق بدواوين الدولة الحفصية فى القرن السابع الهجرى. وتوزر هى عاصمة واحات الجنوب التونسى، وكان لها نهر ينقسم إلى ثلاثة أنهار كبار، وكل نهر من الثلاثة ينقسم إلى ستة جداول، وأتاح لها ذلك أن يكثر بها النخيل والبساتين. ولأبى على بن إبراهيم وصف رائع لها ولنخيلها وبساتينها وجداول مياهها ضمَّنه قصيدة له رائعة، ومن قوله فى نخيلها:

النَّخْـلُ مثلُ عـرائسٍ مجلوّةٍ … فى سُنْدُسيَّاتِ اللباس تَبَخْتَرُ[2]
وكـأنما نُـظِم الحُلِىُّ لنَحْـرِها … من لؤلؤ وزَبَـرْجَـدٍ يَتَخَيَّـرُ
وترى الزَّبَرْجد عَسْجَدًا ويَوَاقِتًا … ذا أحمرٌ قانٍ وهـذا أصْفَرُ[3]
أحْلَى من العَسلِ المصفَّى طَعْمُهُ … ومَـذاقُه لا يـدَّعيـه السُّكَـرُ

وهو يقول كأن حدائق النخل بتوزر فرح كبير يضم ما لا يكاد يحصى من عرائس تُجْلَى فى ثياب سندسية اللون تتبختر فيها، وقد استدارت حول نحورها عقود متخيرة من اللؤلؤ المضىء فى أول نشأة البلح وإنها لتستحيل إلى زبرجد أخضر، ويستحيل الزبرجد إما عسجدا ذهبيا وإما ياقوتا قانيا، ومنه الرطب وغير الرطب، وإن طعمه لأحلى من العسل، مع مذاق بديع لا يستطيع السكر أن يدَّعيه لنفسه لجماله وحسنه. ويصف بساتين توزر وأشجارها وأزهارها، فيقول:

الدَّوحُ قد لبستْ غلائلَ سُنْدُسٍ … تَخْتَالُ فى أيدى النسيم وتَخْطِرُ[4]
حَلَّتْ هَـواديهـا عقـودُ أزاهـرٍ … فتبرَّجتْ عُجْبًا لمن يتبصَّـرُ[5]
والطيرُ قد رقيتْ منابرَ قُضْبِهَا … خطباؤُها تَشْدُو بلحنٍ يَسْحرُ

---

(١) انظر فى أبى على بن إبراهيم وقصيدته الحلل السندسية ٤٣٥/٢.
(٢) سندسيات: نسبة إلى السندس وهو الديباج.
(٣) العسجد: الذهب.
(٤) غلائل: جمع غلالة: ثوب رقيق. تخطر: تتبختر.
(٥) هواديها: مقدماتها.

والقضبُ يُثنيها النَّسيمُ فتنثنى بعضٌ يقبِّل بعضها ويُقَهْقِـرُ
كعقائلٍ تبغى السِّرار فتلتقى لِصَفَا الحديث وتارة تتأخَّر[١]

فالشجر الملتف قد لبس ثيابا رقيقة من السندس الأخضر، وهو يختال فى أيدى النسيم ويتبختر، وقد حلَّتْ مقدماته عقود زهر منمقة تبرَّج فيها لناظريه أيما تبرُّج، والطير قد صعدت إلى منابر غصونها، وخطباؤها تتغنى بلحن ساحر يخلب الألباب، والغصون يثنيها النسيم فتنثنى وكأنما يقبل بعضها بعضا ثم يتقهقر أو كأنهن سيدات يردن المسارَّة ببعض الحديث فتلتقى مصغية إلى الحديث تارة، وتارة تتأخر، ويستمر أبو على قائلا:

الأرضُ عاطرةٌ تُزَفّ كأنما غُشّى نواحيَها عبيرٌ يُنْشَرُ
وتأرَّجتْ أرجاؤُهـا فكأنمـا مِسْكٌ يَضُوعُ خلالها أو عَنْبَرُ[٢]
وكأنَّ ريحان الحياة ورَوْحَها مُسْتَنْشَقٌ من عَرْفِها ومعطَّرُ[٣]
وكأنما كُسِيَتْ بساطَ زَبَرْجَدٍ نُثِرَتْ يواقيتٌ عليه وجَوْهَرُ

فالأرض جميعها عاطرة وكأنما تُزَفّ فى عُرْس لها، وكل نواحيها ينتشر فيها عبير ذكى، وكل أرجائها تفوح بصنوف من الطيب والمسك والعنبر، وكأن أريج الحياة ونسيمها العطر مستنشق من شذاها العطر، وكأنما اكتست ببساط من الزبرجد تناثرت عليه جواهر ويواقيت من كل صنف، ويمضى أبو على واصفا جداولها بمثل قوله:

المـاء تَشْعَبُه إليـك جـداولٌ قد مدَّها النهر الزُّلال الأكبرُ[٤]
صافٍ على صفة المَهَا يجرى على رَمْل النَّقا عذبٌ قَراحٌ كَوْثَرُ[٥]
وكأنما حَصْباؤه فى رَوْنَقِ الْـ ـماءِ الذى يَجْرِى عليه جَوْهَرُ

والماء تشعبه وتتوزعه جداول: ثمانية عشر كما أسلفنا، وقد أمدها النهر الكبير بمائه الزلال العذب البارد السلس، والماء فى منتهى الصفاء، كأنه مَهًا أو بلَّور ناصع، وهو يجرى على رمل يشبه رمل النقا الذى يذكره العشاق النجديون، وهو عذب قراح أو خالص، بل هو كوثر كنهر الفردوس وكأنما حصباؤه جوهر تناثر من عقود كثيرة. وأبو على بدون ريب شاعر بارع براعة فائقة.

---

(١) عقائل: جمع عقيلة: السيدة الكريمة. السرار: المناجاة وكتمان الحديث. صفا الحديث: سماعه.
(٢) تأرجت: فاحت. يضوع: يفوح.
(٣) عرفها: شذاها.
(٤) تشعبه: تفرقه. الزلال: العذب الصافى.
(٥) المها: البلَّور. قراح: سائغ. كوثر: حلو والكوثر: من أنهار الفردوس.

٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

للعرب – منذ الجاهلية – فى رثاء الأفراد تراث ضخم، وهو يتخذ عندهم ثلاثة ألوان هى الندب والتأبين والعزاء ، والندب هو البكاء على ذوى الرحم من الأهلين والأقارب ممن لبُّوا نداء ربهم وغادروا الفانية إلى الباقية، والتأبين هو بكاء الشخصيات الفذة الحربية أو السياسية أو العلمية أو الأدبية بذكر فضائلهم وخسارة المجتمع والأمة فيهم، والعزاء استرسال فى الحديث عن الحياة والموت وبيان أن الحياة ظل متنقل سرعان ما ينحسر عن صاحبه، فالجميع إلى فناء وعدم، وكثيرا ما يختلط العزاء بالتأبين والندب. وكل هذه الألوان الثلاثة مبثوثة فى مراثى القيروانيين والتونسيين، وتأخذ فى الكثرة منذ عصر الأغالبة، ويتوفى فيه سحنون إمام المذهب المالكى ويؤبنه تلميذه عبد الملك المهرى بمثل قوله[1]:

وَلِّى – لعمرى – بأرض الغَرْبِ قاطبةً ... مَيْتٌ له البَدْوُ والحُضَّارُ قد خَشعا

لِلّهِ أنت إذا مـا هـابَ فـاصِلَةً ... من القضاء كليلُ الحدِّ فارتدعا

هنـاك بَرَّزْتَ يـا سَحْنونُ منفردًا ... كسابِق الخَيْلِ لمـا بان فـانقطعا

فـاذهبْ فَقِيدًا حَبـاكَ اللّهُ جَنَّتَهُ ... واحْصُدْ من الخير ما قد كنتَ مُزْدرعا

وهو يقول إن أهل البدو والحضر جميعا قد خشعوا حين سمعوا بوفاة فقيه الغرب قاطبة، ويقول ما أعظمك حين كنت قاضيا تقضى بالحق على كل متهم فيرتدع ويزدجر، وينوه بقضائه وأنه سبق فيه مجلِّيا كل عالم فى عصره، وما أعظم الخسارة فى فقده ويدعو الله أن يفسح له فى فراديسه وأن يجزيه الجزاء الأوفى عما غرس وقدم بين يديه. ولما توفى ابنه محمد رثاه أحمد بن أبى سليمان داود الصواف بمرثية بلغت ثلاثمائة بيت، وفيها يقول[2]:

ألا أيُّها النَّاعى الذى جَلَبَ الأسى ... وأورثنا الأحزانَ لا كنتَ نـاعيـا

نعيتَ إمـام العـالمين محمَّـدًا ... وقلتَ مضَى من كان للدين راعيا

ومن كان حَبْرًا عالمًا ذا فضيلةٍ ... نقيًّا رَضيًّا طـاهرَ القلب زاكيـا

والشاعر يبكى فى محمد بن سحنون إمامته الدينية وفقهه وعلمه ونقاء صدره وطهارة قلبه

---

(١) رياض النفوس للمالكى ١/٢٩٠.

(٢) رياض النفوس ١/٣٥٧.

وفضيلته أو فضائله. ويتوفّى يحيى بن عمر إمام المذهب المالكى فى سوسة سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ويرثيه سعدون الورجينى بمثل قوله[١]:

عينٌ ألمّ بهـا وَجْدٌ فلم تَنَم ... تبكى بِدَمْعٍ كقَطْرِ الدُّرِّ مُنْسَجِم
عجبتُ أن لم أَمُتْ حزنًا وقد دَفَنَتْ ... كفّاكَ فى التُّرْبِ أنْقى العُرْبِ والعَجَم
يا موتُ أثْكَلْتنا يَحْيَى وكان فَتًى ... فى بُلْدةِ الغَرْبِ مثلَ البدر فى الظُّلَم
منْ كان من بعد سَحْنونٍ لنا خَلَفًا ... من كان فى الحقِّ مثلَ الصارم الخَذِم[٢]

وهو يقول إنه بات مسهدا محزونا يبكى بدمع لا ينقطع، ويعجب أن لم يمت حزنا وقد دفنت كفاه فى التراب يحيى بن عمر أنقى العرب والعجم، ويلتفت إلى الموت لائما، فقد أفقدهم يحيى وكان فقيها لا نظير له، وكان مثل البدر يحسر الظلمات عن الناس، إذ كان خلفا لأستاذه سحنون، وكان فى إحقاق الحق وإبطال الباطل مثل السيف الحاد القاطع. وحظيت الأسرة الأغلبية الحاكمة حينذاك بشاعرة تسمى مهرية الأغلبية، توفيت حوالى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م وكان لها أخ ناسك يسمى أبا عقال هاجر إلى مكة ومات بها غريبا عن وطنه ودياره، وله مواعظ كثيرة أنشدها المالكى فى الرياض وقالت أخته نادبة له باكية[٣]:

ليت شِعْرِى ما الذى عـايَنْتَـهُ ... بعد طول الصَّوْمِ مَعْ نَفْىِ الوَسَنْ
مَعْ نُزُوحِ النَّفْسِ عن أوطانها ... والتخـلِّى عـن حبيبٍ وسَـكَنْ
يـا شقيقًا ليس فى وَجْـدِى بـه ... عِلَّةٌ تمنـعنى مِـنْ أنْ أُجَـنّ
وكـما تَبْـلَى وجـوهٌ فى الثَّرَى ... فكـذا يَبْـلَى علـيهنَّ الحـزَنْ

وهى تتجه بالسؤال إلى شقيقها ماذا رأى فى بلاد الغربة بعد ما عانى من طول الصوم والسهاد ومع حرمانه من وطنه وتخليه عن سكنه وأحبابه، وتحزن عليه حزنا عميقا فلن تراه، وتظل مواجدها معلقة به حتى لتشعر أنها ستُجَنّ، وتعود إلى نفسها، فكما تبلى وجوه فى الثرى يبلى الحزن وتبلى لوعته.

ولكراهية أهل السنة فى القيروان للعبيديين ومذهبهم الإسماعيلى انضموا إلى مخلد بن كيداد الثائر البربرى الصفرى على القائم بأمر الله العبيدى فى حصاره للمهدية سنة ٣٣٣ وقُتل فى هذا الحصار شيخ كبير ن شيوخ أهل السنة هو أبو الفضل المُمّسى، فرثاه تلميذه أبو القاسم الفزارى، بمثل قوله[٤]:

---

(١) رياض النفوس ١/٤٠٥.
(٢) الصارم الخذم: السيف القاطع.
(٣) رياض النفوس للمالكى ١/٤٣٦ والمجمل ص ٧١.
(٤) المجمل ص ٨٧.

بنفسى صريعٌ جالتِ الخيلُ حوله ... بمُعْتَـركِ الأبطال أىُّ صـريـعِ
ولستُ لـه أبكى ولكنْ لمعشـرٍ ... أُصِيبُوا بـه من فُـرَّدٍ وجميـعِ
وللعلمِ والإسـلامِ والدِّينِ والتُّقَى ... وطولِ احتمالٍ واصْطناعِ صَنِيعِ
مضى عَلَمُ العِلْمِ الرفيعِ وطالما ... أصـابتْ قناةُ المـوت كلَّ رفيـعِ

وهو يتمنى لو استطاع أن يفدى هذا الشيخ الصريع بروحه، ويتصوره والخيل تجول حوله فى معركة الأبطال، ويقول إنه لا يبكى له ولكن يبكى لخسارة معشر فجعوا فيه، كما يبكيه للعلم والإسلام والدين والتقى وطول ما أدَّىَ واحتمل فى سبيل طلابه وأهل القيروان، وإن كان قد فُقد علم العلم الرفيع فطالما أصابت رماح الموت العلماء من أمثاله. ويؤبّن ابن الخوَّاص الكفيف أبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى إمامَ المالكية ورياستها بالمغرب فى زمنه أبا محمد عبدالله بن أبى زيد القيروانى المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م وفى تأبينه يقول[١]:

كادتْ تميدُ الأرضُ خاشعةَ الرُّبَى ... وتمورُ أفلاكُ النجومِ الطُّلَّعِ[٢]
عجبًا أَيَدْرِى الحـاملون لنَعْشِهِ ... كيف استطاعوا حملَ بَحْرٍ مُتْرَعِ[٣]
عِلْمًا وحلمـا كـاملا وبـراعـةً ... وتُقًى وحُسْنَ سكينـةٍ وتـورُّعِ
وسَعَتْ فِجاجُ الأرض سَعْيًا حوله ... من راغبٍ فى سَعْيِـه متبـرِّعِ
يبكـونـه ولكـل بـاكٍ منهمُ ... ذلُّ الأسيـرِ وحُرْقَـةُ المتوجِّـعِ

فالأرض تكاد تضطّرب وتموج خاشعة الرُّبى لهول موته، وبالمثل أفلاك النجوم الساطعة، ويعجب الشاعر متسائلا أيعرف الحاملون لنعشه أنهم استطاعوا حمل بحر ممتلئ علما وحلما وبراعة وتقى وحسن سكينة وجمال تورع، وقد اكتظت فجاج الأرض وطرقها الواسعة بالمشيعين الذين جاءوه محزونين عليه يبكونه خاشعين متوجعين ملتاعين. ويحكى غير واحد عن أبى طالب الدلائى الشاعر فى الدولة الصنهاجية أنه فقد من أحبَّته نيفا وأربعين غريقا فى البحر - ربما كانوا ذاهبين إلى صقلية - فصار شعره رثاء كله تفجعا عليهم ووفاء لهم[٤]، من ذلك قوله فى أحدهم:

نـأى بِسُرورى وصَبْـرى معًا ... وأَبْقَى فؤادى عليـه صَـديـا

(١) الأنموذج ص١٥٣.
(٢) تمور: تموج.
(٣) مترع: ممتلىء.
(٤) انظر فى هذا الخبر وأبيات الدلائى الأنموذج ص١١٨.

ومـات فمـاتَ سُـروري بـه   وصُنْتُ حيـاتي فمتنا جميعـا
أصـابتـه عـينٌ من الحـادثـات   أصاب العَمَى ناظِرَيْها سريعا

وهو يقول إنه حين فارقه أخذ سروره وصبره على بعده معه، وكأنما ترك جرحا بفؤاده، ولم يلبث أن مات غريقا فمات سرور الشاعر، وكان قد صان حياته من الرحيل معه، وشعر كأنه مات معه. ويقول كأن عينا من الحادثات أصابته، ويدعو عليها بالعمى جزاء وفاقا لها. ويقول ابن رشيق تعليقا على الأبيات: «هذا هو التفجع والتوجع الذى يقطع القلوب حسرات، ويذهب العيون عبرات». وينشد من مراثيه بيتين، هما:

أوْدَعْتُه بَطْنَ الثَّرَى وتركته   فى رَمْسِهِ والموْتُ ما لا يُنْكَرُ
قـدَّمتُـه ولـو أننى أنْصَفْتُـهُ   ماكنتُ عنه سـاعةً أتـأخَّر

فهو قد أودعه فى رمسه أو قبره ببطن الأرض. والموت حق لا أحد ينكره، ويقول كأنه قدَّمه إلى الموت ولو أنه أنصفه لرافقه ولم يتأخر عنه ساعة. ويقول ابن رشيق: «هذه أنفاس مشتعلة عن نفس مشتعلة قد دلَّت على مافى الصدر دلالة الشواظ على الجمر». ويموت لابن عبدون الذى مرت ترجمته بين شعراء الغربة ابن وكانت قد ماتت قبله زوجته ويبكيهما بمثل قوله[1]:

قبرٌ بسوسةَ قد قَبَرْتُ به النُّهَى   أدرجتُ قلبى فى مَـدَارِجِ لحـده
صمَّتْ عـلَّ مسـامعى فى رَجَّـةٍ   وصُعِقْتُ من صَعْقِ الصُّراخ وَرَعْدِه
وجهدتُ أن أبكى فلم أجِدِ البُكا   فسكَتُّ سَكْتَةَ صارمٍ فى غِمْدِه
هَبْنِى بكيت له وما يُجْدِى البُكا   مـاءٌ بخـدِّى والتـرابُ بخـدِّه
هيهـاتَ قد مَنَـعَ الهُدُوَّ لناظرى   قبـران ذا ولـدٌ وذاك لـودِّه[2]

وهو يقول إنه دفن النُّهى والعقل السديد فى قبر بسوسة، وكأنما أدخل قلبه فى ثنايا لحده، ويقول كأنما سُدَّت أذناه حين سمع رجَّة موت زوجه وابنه، بل لكأنما أصابته صاعقة من صعق الصراخ ورعده، وكأنما غُشِى عليه فلم يستطع بكاء، وأخلد إلى الصمت إخلاد سيف فى غمده، وماذا يجدى سَلّ سيف فى الموت؟ وماذا يجدى البكا وعلى خده دموعه والتراب بخد ابنه، ويقول لقد منع النوم لعينى قبران: قبر ابنى الحبيب، وقبر زوجتى المحبوبة. وقال على الحصرى الذى

(١) انظر الأنموذج ص ٣٩٤

(٢) الهدوّ بتشديد الواو: النوم.

مرت ترجمته بين شعراء الغزل يبكي أباه حين ودّع قبره عند رحيله إلى الأندلس[1]:

أبي! نَـيِّرُ الأيامِ بعـدك أظلما ... وبُنيانُ مَجْدِى يومَ مِتَّ تهـدَّما
وجِسْمِى الذى أبلاه فَقْدُك إن أكنْ ... رحلتُ بـه فالقلب عندك خيَّما
وقَى الله عَيْنَىْ مَنْ تعمَّد وقفةً ... بقبرك فاسْتَسْقَى لـه وترحَّما
وقـال سلامٌ، والثـواب جزاء مَنْ ... أَلَمَّ عـلى قَـبْرِ الغـريب فسلَّما

وهو يخاطب أباه محزونا قائلا إن الأيام النيرة بعد فقده أظلمت وتهدم بنيان مجده وعزه يوم موته، وإن كنت راحلا عنك بجسمي الذى أضناه فقدك فإن قلبي عندك مخيم مقيم، ويدعو لمن يقف على قبره مستسقيا مترحِّما مسلما راجيا أن يجزيه الله خير الجزاء. ويقول ابن بسام منشد الأبيات السالفة إن الحصرىّ لم يكتف بها فى وداعه لقبر أبيه، فقد طأطأ رأسه ومدَّ يده إلى التراب حول القبر، قائلا:

رحلتُ وههنـا مَثْـوَى الحبيبِ ... فمن يبكيك يا قبرَ الغـريبِ
سأحملُ من تُرابك فى رِحـالى ... لكى أُغْنَى به عن كلِّ طِيبِ

والبيتان مؤثران - كالأبيات السابقة - تأثيرا عميقا لكل من فقد أباه واضطر إلى فراق قبره بعد موته. وكان على الحصرى فى الذروة من شعراء القيروان المبدعين. ومات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا، ونظم فيه ديوانا على حروف المعجم سماه «اقتراح القريح واجتراح الجريح» ومن قوله فيه وقد بلغ به الحزن أقصى غايته[2]:

ذَوَى ريحـانىَ الأرِجُ ... وضـاقَ بخِـلِّىَ الفَـرَجُ[3]
ذبيـحٌ طُـلَّ منـه دمٌ ... ولم يُـقْـطَع لـه وَدَجُ[4]
عـروقُ النـاس كلِّهـمِ ... إلى عِـرْق الثَّرَى تَشِجُ[5]
بنـو الدنيـا كـأنهمُ ... لـقـلـة همِّهـم هَمَجُ
وهل هىَ غَيْرُ دارٍ أذًى ... إذا دَخلوا بهـا خـرجـوا
تـأمَّـلْ كيف تـأكلُهـم ... وهـم ولـدٌ لهـا نُتِجوا

(١) انظر فى رثاء على الحصرى لأبيه الذخيرة لابن بسام ٤/ ٢٧٠
(٢) انظر فى الأبيات التالية الذخيرة ٤/ ٢٧٤
(٣) الأرج: العَطِر.
(٤) الودج: عرق فى العنق إذا قطع الذابح انتهت الحياة
(٥) تشج: تلتف وتعود.

يقول إن ريحانه العطر ذوى فجأة، وضاق بابنه الفرج من سقمه ومرضه، ولا يلبث أن يصرخ، فهو لم يمت حتف أنفه، بل مات ذبيحا وطلّ دمه وأهدر دون أن يُقْطَع منه عرق العنق الذى لاتبقى مع قطعه حياة، ويعود الحصرى إلى نفسه، فالناس جميعا ميتون وكلهم راجعون إلى عرق الثَّرى الذى يتشابك مع عروقهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى خلق آدم إذ قال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون﴾. ويعجب لأبناء الدنيا وقلة همهم كأنهم همج لايعون حياتهم، ويقول إنها دار أذى وإنهم لايلبثون حين يدخلون بها أن يخرجوا منها. بل تأمل كيف تأكلهم مع أنهم أبناؤها وكأنها هرة تلد أبناءها وتقضمهم.

ونمضى إلى العاص الحسينى ويتوفى الشيخ محمد زيتونة العالم الجليل سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م ويرثيه الشاعر محمد الخضراوى بمثل قوله[1]:

قلب يـذوبُ ومهجة تتقطَّعُ	وأسًى يـزيدُ ومقلةٌ لاتَهْجَـعُ
ولهيبُ نيرانٍ تضرَّمُ وقْـدُها	يَصْلَى بجَمْرتها الحشا والأَضْلُعُ
وتلهُّفٌ وبُكـا وَفَرْطُ كـآبةٍ	ومـدامـعٌ مَسْفُـوحـةٌ لاتُقْلِعُ
فعليه فَلْتَبْكِ الأنـامُ جميعهم	وعليـه فَلْيتوجَّـعِ المتـوجِّـعُ

وقلب الشاعر يذوب حزنا لموت العالم الكبير ومهجته تتقطع حسرات ويزداد أسًى وحزنا ويبيت مسهَّدا، وكأنما اضطرم لهيب نار فى دخائله احترق حشاه وأضلعه بجمرته الموقدة، ويزيد به التلهف والبكا والكآبه ولاتقلع الدموع بل تنهمر انهمارا لما نعى الناعى إمام العلماء وشيخ الأنام ومفزعهم فى الفتوى ومسائل الدين، وعليه فليبك الناس جميعا ويتوجعوا لفقده ويتفجعوا مرارا وتكرارا.

ويرثى محمد الوَرْغى فى العصر الحسينى الأمير محمد الرشيد، ويجمع فى مرثيته بين التعزية فيه وتهنئة أخيه على خَلَفِه بمثل قوله[2]:

من أين أدركه الحِمامُ ودونـه	حَزْمُ السِّلاح وحَوْمَةُ الحُـرَّاسِ
أتغافل البَـوَّابُ أم سبقتْ له	قبل الهجوم يدٌ مع العُسَّاسِ
جَهِدَ الزمانُ ولو دَرَى بمقامه	ما ساقه قَسْرًا إلى الأرْماسِ[3]
كادتْ عُرَا الإسلام تُنْقَضُ بعده	لولا مقيم الدين بـالقِسْطاسِ
ما أخلق الملك العلىَّ عمـادُهُ	بعلىِّ الشهم النـزيـه البـاسِ

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٥٧

(٢) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٧٠

(٣) الأرماس: جمع رمس: القبر.

وهو يعجب من أن الموت أدرك محمدًا الرشيد وسلاحُه وحرسه من حوله لحمايته، ويتساءل هل تغافل الحِمام أو الموت البوابَ أو سبقت له يد عند الحراس. ويقول إن الزمان لودرى بمقامه ما ساقه قهرًا إلى القبور، وإن عُرَا الإسلام الوثقى لتكاد تنقض بعده لولا قُيِّض لها مقيم الدين بالعدل والقسطاس، عَلِيٌّ أخوه، وما أجدر الملك الرفيع عماده به لخلقه الكريم.

(ب) رثاء المدن والدول

هذا الضرب من الرثاء قديم فى الشعر العربى منذ الجاهلية على نحو ما هو معروف عن الأسود بن يعفر ورثائه لدولة المناذرة فى الحيرة ولما قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاها أبو العباس الأعمى المكى. وحين حاصر طاهر بن الحسين قائد المأمون بغداد فى حرب الأمين ورماها بالمجانيق وكثر فيها الحرق والهدم بكاها غير شاعر عباسى بكاء مرًّا وننقدم مع الزمن إلى سنة ٢٥٧ ويهاجم البصرة الزنج ويحرقون مسجدها الجامع ويحيلونها أنقاضا، وبكاها الشعراء وفى مقدمتهم ابن الرومى الذى تفجع لها وتوجع مستصرخا لها الخليفة وجيوشه والأمة، ولبَّاه الموفق أخو الخليفة، وظل ينازل الزنج نزالا عنيفا حتى قضى نهائيا على ثورتهم سنة ٢٧٠. ويدور الزمن دورات، وإذا أعراب بنى سليم وهلال يزحفون إلى القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وينازلهم صاحبها المعز بن باديس الصنهاجى، ويلحقون به هزيمة شديدة، ويضطر إلى ترك القيروان لهم وينحاز إلى المهدية عند ابنه حاكمها تميم، ويدخلون القيروان فيحيلونها أنقاضا، ويقضون على حضارتها، ويفرّ منها كثير من علمائها ونابهى شعرائها، وممن غادرها ابن رشيق، ونراه يصف تلك النكبة فى قصيدة طويلة، ومن قوله الحزين فيها[1]:

المُسْلمـون مقسَّمـون تنـالُهـم	أيدى العُصاة بـذلَّـةٍ وهـوانِ
يَسْتصرخون فلا يُغاثُ صَرِيخهم	حتى إذا سَئِموا من الإرنانِ[2]
خـرجوا حُفـاةً عائـذينَ بـربِّهم	من خَوْفهم ومصائب المَلَوانِ[3]
هـربـوا بكـلِّ وليـدةٍ وفَـطيمـةٍ	وبكـل أرْملةٍ وكـل حَصـانِ[4]
فتفـرَّقـوا أيـدى سَبـا وتشتَّـتـوا	بعد اجتماعهم على الأوطانِ[5]

وهو يقول إن المسلمين تقسموا فرقا بينما أيدى العصاة للرحمن تنالهم بغير قليل من الذل والهوان، وهاهم أهل القيروان يستصرخون فلا يغاث صريخهم حتى إذا بُحّت أصواتهم من

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٤٥
(٢) الإرنان: الصياح والصُّراخ.
(٣) الملوان: الليل والنهار
(٤) حصان: سيدة عفيفة
(٥) يقال: تفرقوا أيدى سبأ إذا تشتتوا فى أرجاء الأرض

الصراخ ولا مغيث ولا مستجيب خرجوا على وجوههم يَعْدُون حفاة عائذين بربهم من القتل والأسر وما يأتى به الملوان أو الليل والنهار من مصائب ونكبات، ويقول إنهم فروا من الأعراب بكل مولودة ومفطومة وبكل أرملة وكل عفيفة رجاء أن يحموهن من السبى والهوان، وتفرقوا وتشتتوا فى البلاد وتشتت معهم العلماء والشعراء. وكان يعاصره ابن شرف، وله بدوره فى القيروان حينئذ بكاء وتفجع مرير، وسنخصه بكلمة. وممن ندبها وتذكر إخوانه بها وقد رحل عنها إلى الأندلس على الحصرى، وفيها يقول[1]:

ألا سَقَى اللّهُ أرضَ القيروانِ حَيًا	كـأنّـهُ عَـبَـراتى المستهِـلّاتُ
فـإنها لِـدَةُ الجِنّـاتِ تُـرْبَتُهـا	مِسْكيّةٌ وحَصَاها جَوْهـرِيّـاتُ
إلا تكن فى رُباها روضةٌ أُنُفٌ	فإنما أوجهُ الأحباب رَوْضـاتُ[2]
لايَشْمتنَّ بها الأعداءُ أنْ رُزِئتْ	إن الكسوف له فى الشمس أوقاتُ[3]
هل مطمعٌ أن تُرَدَّ القيروانُ لنا	وصبـرةٌ والمُعـلَّى فـالجَنِيُّـاتُ

وهو يدعو للقيروان بالسقيا الوافرة كدموعه الغزيرة التى لاتزال كلما ذكرها استهلت فإنها رفيقة الجنّات، تربتها مسك وحصاها جواهر لامعة، وإلا يكن فى رباها الآن بعد أن خربها بنوسليم وهلال روضة جديدة بديعة فأوجه الأحباب بها روضات فاتنة. ويذكر ما أصاب القيروان من خراب فيقول: لا يشمت بها الأعداء لأن رُزئت ونُكبت فإن الشمس الساطعة يلم بها الكسوف أحيانا، فهو رزء إلى أجل، وتعود بعده القيروان إلى حضارتها وازدهارها المعهود. ويتمنى أن تعود سريعا إلى أهلها هى وصبرة وغيرهما من المواضع والمدن.

ومرَّ بنا أن عبدالمؤمن بن على أمير الموحدين استولى على مدينة قابس من يد مدافع بن رشيد الهلالى بعد موقعة هُزم فيها مدافع وفر إلى أعراب طرابلس ثم لحق بعبد المؤمن فى مدينة فاس فأكرمه وأسكنه بها، وكان ممن فرَّ بعد الموقعة أبو ساكن عامر بن محمد من عشيرة مدافع وأبعد فى فراره حتى دمشق وهناك بكى قابس وأيام حكم عشيرته لها. ومن قوله[4]:

يا حارِ طَرْفى غيرُ هاجعْ	والدَّمْعُ من عينىْ هامِعْ[5]
إنى من الشُّمِّ الأُلَى	شادوا العُلا أبناءِ جامع
ولقـد مَلَكنا قـابسًـا	بـالمَشْـرفيَّات القـواطـع

---

(١) الذخيرة ٢٧٧/٤

(٢) أنف: مزدهرة جديدة

(٣) رزئت: نزل بها رزء: مصيبة

(٤) الخريدة ١٣٩/١ وما بعدها والحلل السندسية ٣٥٧/٢ ومابعدها.

(٥) هامع: سائل

تسعين عامـا لم يكن   فيهـا لنا أحدٌ منازعْ
عَبثتْ بنـا أيدى الـزما   ن وأحدثتْ فينا البدائع

وحارِ مرخَّة أى ياحارث، وهو يشكو من أنه يبيت مسهدا ودموعه تهمى لاتتوقف لسقوط قابس فى أيدى الموحدين وانتهاء حكم دولتهم من بنى جامع الهلاليين، ويقول إنه من الشم العظام الذين شادوا العلا ورفعوها إلى السماء أبناء جامع الهلاليين الذين ملكوا مدينة قابس بسيوفهم الحادة القاطعة تسعين عاما متصلة لم ينازعهم فيها أحد، وأخيرا عبثت بهم أيدى الزمان فأخرجتهم من قابس وتركوها إلى الأبد. ويبكى الدولة الحفصية فى أواخر أيامها وحاضرتها تونس محمد بن عبد السلام وسنخصه بكلمة بعد ابن شرف.

ابن[1] شرف القيروانى

هو أبو عبدالله محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامى الأجدابى المولود بالقيروان حوالى سنة ٣٩٠ ويبدو من نسبته إلى قبيلة جذام أنه من أبنائها إما صلبية وإما ولاء، كما يبدو من تلقيبه بالأجدابى أن أصل أسرته من أجدابية بليبيا ونزلت القيروان وعلى كل حال هو قيروانى المولد والمنشأ والمربى، ويذكر ياقوت فى صدر ترجمته له أنه درس على أبى الحسن القابسى وأبى عمران الفاسى. وكان القابسى شيخا جليلا من شيوخ القيروان فى الفقه والتفسير والحديث، وتوفى سنة٤٠٣ فلزم تلميذه أبا عمران الفاسى يأخذ عنه ما عنده كما لزم القزاز عالم النحو واللغة بالقيروان فى زمنه وأيضا لزم أبا إسحق إبراهيم الحصرى المتوفى سنة ٤١٣ صاحب زهر الآداب، وكان حبيبا إلى نفوس شباب القيروان قريبا إلى قلوبهم، فكان يجتمع معهم عنده وينهل من معارفه الأدبية الكثيرة. وتفتحت ملكته الأدبية مبكرة، وألف فى نقد الشعراء منذ الجاهلية مصنفا موجزا وصف كثيرين فيه وصفا مجملا سماه «رسائل الانتقاد» وهو أشبه بمقامة.

ويبدو أنه أخذ يحظى بمكانة مرموقة فى الشعر مما جعله يتعرف على رئيس ديوان الإنشاء للمعز بن باديس الصنهاجى على بن أبى الرجال المتوفى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م وأعجب بدائعه فيه، فرأى أن يقدمه إلى المعز، ونال استحسانه، وأصبح من شعراء الدولة يتغنى بانتصاراتها على

---

(١) انظر ترجمة ابن شرف فى الذخيرة ١٦٩/٤ وما بعدها والخريدة ٢٢٤/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ٩٤/٢ والأنموذج ص٣٤٦ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٥٠ وابن شرف القيروانى للدكتور طه الحاجرى (طبع بيروت).

قبائل زناتة ولواتة، ويغدو على المعز فى المناسبات المختلفة بمدائحه مع قرينه ورفيقه ابن رشيق، وكان المعز أديبا ويعقد ندوات يحضرانها ويحضرها بعض العلماء والأدباء، وأصبحا شاعرية المقربين، وجرَّ ما ينظمانه فى مديحه إلى شىء من المنافسة بينهما، وجرَّت المنافسة إلى شىء من الجفوة ثم الخصومة، وفزعا أحيانا إلى التهاجى وأخذ كل منهما يتعقب سقطات صاحبه، ويكتب فى ذلك رسائل وخاصة ابن رشيق. وكثيرا ما كانا يعودان إلى التصافى والمودة - وبينما هم فى ذلك إذا بالزحفة الهلالية تدمر القيروان فيتركها الشاعران مع المعز إلى المهدية، وسرعان ما ينزلان صقلية، ويظل بها ابن رشيق، أما ابن شرف فيرحل عنها مع أسرته إلى الأندلس، ويبدو أنه لقى مع أطفاله الصغار عنتا فى رحلته بحرا وبرًّا، ويصورهم فى بعض شعره حماما ضلّ أوكاره وكلما أفزعهم شىء تزاحموا على ضلوعه، وحِضْنه لا يسعهم - إذ كانوا تسعة، فهذا يثبت عليه وذاك يُزْلق عنه، وهو حان مشفق عليهم. وينزل المرية فى الأندلس برحاب المعتصم بن صمادح ويمتدحه وينال عطاياه، ويرسل ببعض قصائده إلى المعتضد أمير إشبيلية، وظل بين يتنقل بين أمراء المدن الأندلسية ببلنسية ومرسية وبطليوس وطليطلة والوزير ابن السقاء بقرطبة وينال عطاياهم إلى أن توفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. ولم يكن ابن شرف شاعرا فحسب، بل كان أيضا صاحب شعور رقيق رقة مفرطة، كما كان صاحب حس مرهف إلى أبعد حد، ويتضح ذلك فى وصفه لنكبة القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م حين نزل بها الأعراب الهلاليون، وأخذوا يَفْتكون برجالها ويسبون نساءها ويهدمون دورها ويأتون على كل ما كان بها من مظاهر الحضارة والعمران، وله فيها وفيما نزل بها وداهمها من الخراب قصائد رائعة، يقول فى إحداها - وهى رائية - إنه لم يبق بها سراج مضىء سوى النجوم ولم يعد ينطق فيها خليط معاشر ولا عادٍ يُرَى فيها أحد من نسائها الجميلات فقد رحلن عنها وأصبحن يبتن على فَرْش الحصا يتغطين بأسمال بالية. ومن رائع تصويره لما حلَّ بالقيروان من عدوان هؤلاء الأعراب الجفاة يوم غزوهم لها ويصور هذا اليوم الأسود قائلا:

بعد يومٍ كأنما حُشِرَ الخلـ	ـقُ حُفَاةً به عَوارِىَ رَجْلَى
ولهم زحمةٌ هنالك تَحْكِى	زَحْمَةَ الحَشْر والصحائفُ تُتْلَى
وعجيجٌ وضجّةٌ كضجيج الـ	ـخَلْقِ يبكون والسرائرُ تُبْلَى[1]
من أَيامَى وراءهن يتامى	مُلِئوا حسرةً وشَجْوًا وثُكْلَا[2]

(١) فى القرآن فى وصف يوم القيامة أنه ﴿يوم تُبْلَى السرائر﴾ وتختبر.

(٢) أيامى: جمع أيِّم: العزب من الرجال والنساء. ثكلا: فقدا للولد

وثكالى أراملا حاملات   طفلة تحمل الرضاع وطفلا[1]

لقد كان يوما عصيبا لا كمثله يوم، يوما حُشر فيه أهل القيروان حفاة عراة راجلين، يتدافعون فى زحام رهيب كزحام الحشر يوم البعث حين تُتلى الصحائف، وصياح وضجيج وبكاء من كل جانب كأنه يوم الحشر حقا يوم تُبلى وتبدو السرائر، ونساء أيامى غير متزوجات اكتظوا حسرة وحزنا وثكالى فاقدات لأزواجهن أرامل مرضعات يحملن طفلات أو أطفالا. ويستمر ابن شرف باكيا ما نزل بالقيروان قائلا:

نادباتٍ، عَفْراءُ تُسْعِدُ سُعْدَى   وسعادٌ تجيب بالنَّوْحِ جُمْلا[2]

ليس منهن من تــودِّع جارا   لا، ولا حُــرْمـةٌ تشيِّـع أهـلا

فإذا القَفْرُ ضمَّهم فوْق الدَّهْـ   ـرُ لهم غير ذلك النبل نَبْلا[3]

من ثعـابينَ حاملين نيـوبًـا   عُصُلا: ذابلًا ونَبْلًا ونَصْلا[4]

وشيـاطينَ رامحين يُـلاقــو   ن بجُونِ الفَلَا مساكين عُزْلا[5]

وهن نادبات، عفراء تساعد سعدى فى الندب والبكاء، وسعاد تجيب جملا بالنواح والعويل، وليس منهن من تقف لتودع جارا ولا سيدة تودِّع أهلا، وإذا الخلاء ضمهم صوَّب الدهر لهم نبلا غير ذلك النبل من ثعابين حاملين نيوبا صلبة: رماحا ونبالا ونصالا، وشياطين تطعن بالرماح فى سود الفلوات، مساكينَ عزْلًا دون سلاح. ويبكى ابن شرف رجال القيروان الذين ولوا منها فرارا، قائلا:

وإذا نجَّت المقـاديـرُ منهم   راحلا بالخلاص يحمل رَحْلا[6]

لقِىَ الهُـونَ والمـذلَّـة أنىَّ   كان من سائر البلاد وحَلَّا

وترى أشرفَ البريَّـةِ نَفْسًـا   نـاكسًا رأسَـهُ يـلاطِفُ نَـذْلا

مُزِّقوا فى البلاد شرقا وغَرْبا   يَسْكبون الدموع هَطْلًا وَوَبْلا[7]

والرجال إن نجت المقادير منهم راحلا ومعه رحله وما استصحبه فيه من الأوعية لقى الهوان والذل أنى كان وأين حل، وترى أشرف البرية وأعزها نفسا ناكسا رأسه يلاطف أحد هؤلاء

(١) ثكالى جمع ثاكلة: فاقدة الولد.

(٢) عفراء وسعدى وسعاد وجمل أسماء نساء.

(٣) فوَّق: سدَّد.

(٤) عصلا معوجَّة يريد صلبة. ذابلا: رمحا دقيقا.

(٥) رامحين: يحملون الرماح، جون: سود من كثرة الغبار.

(٦) الرحل: ما يحمل على الدابة للركوب أو من متاع وأثاث.

(٧) مزِّقوا: تفرقوا. هطلا: متتابعة، وبلا: منهمرة.

الأنذال، ويا للحسرة لقد مُزّق وفُرّق أهل القيروان فى البلاد شرقا وغربا، وإنهم ليسكبون الدموع متتابعة ومدرارا. ولا ريب فى أن ابن شرف استطاع أن يثأر لقومه وأهله من سكان القيروان من هؤلاء الأعراب الجفاة الغلاظ ثأرا خالدا على مر الزمن بفضل شاعريته الفذة النادرة.

محمد[1] بن عبد السلام

هو أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام مولده ومنشؤه ومرباه بتونس فى القرن العاشر الهجرى اختلف فى شبابه إلى حلقات العلماء بجامع الزيتونة، وكان ذكيا فحمل عنهم معارفهم وأخذوا يتوّهون به وبخاصة فى الأدب، ولمع اسمه بين أدباء تونس وشعرائها، ولما احتل الإسبان مدينة تونس وأخذت تصدر منهم المظالم التى سجّلها التاريخ غضب ابن عبد السلام لمدينته وقومه وصمّم على مغادرة البلاد واتجه إلى الشام واتخذ دمشق مقرا له، وأخذ يقرئ بها للطلاب العلوم المختلفة ونصوصا جيدة من الأدب إلى أن توفى سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م ودُفن بباب الفراديس، وله قصيدة طويلة أرسل بها من دمشق إلى أهله يتشوق فيها إلى وطنه، ويبكى تونس ودولتها الحفصية، وهو يستهلها ببث أشواقه قائلا:

سلوا البارق النجدىَّ عن سُحْب أجْفانى ... وعمـا بقلبى من لـواعـج نيـرانِ
ولا تسألوا غير الصَّبا عن صبابتى ... وشـدَّة أشـواقى إليكم وأشجـانى
وكم نحوكم حَمَّلتُهـا من رسـالـةٍ ... مدوَّنةٍ فى شَرْح حالى ووجْدانى
ونـاشـدتُـهـا بـالله إلَّا تـفـضَّـلتْ ... بتبليـغ أحْبابى السـلامَ وجيرانى
تحيةَ مشتـاقٍ إلى ذلـك الحِمَى ... وسُكَّـانـه والنـازحين بـأظْعـانِ[2]

وهو يطلب إلى أهل بلدته تونس الحبيبة أن يسألوا البرق المقبل من نجد مثوى الحب عما يذرف من دموع حنينا إليهم وعما يضطرم فى قلبه من نيران الشوق ولواعجه، ويقول لهم: لا تسألوا غير الصَّبا - التى طالما ذكرها النجديون المحبّون - عن أشواقى وصبابتى وأشجانى، وكم حملتها إليكم من رسالة مفعمة بمشاعرى الوجدانية، وقد ناشدتها الله واستحلفتها به أن تتفضّل بتبليغ أحبابى وجيرانى التونسيين سلامى وإنها لتحية مشتاق إلى ذلك الحمى وسكانه وإلى النازحين عنه فى الأظعان والهوادج ويقول.

---

(١) انظر فى ترجمته وشعره المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٢٣٠.

(٢) أظعان جمع ظعينة: الراحلة يرحل عليها، والهودج.

سقى الله هاتيك الديارَ وأهْلَها ... سحائبَ تحكي صَوْبَ مدمعيَ القاني[1]
وحيًّا ربوعَ الحيِّ من خير بلدةٍ ... تخيَّرها قِدْمًا أفاضلُ يونانِ
هي الحضرةُ العُليا مدينةُ تونسٍ ... أنيسةُ إنسانٍ رآها بإنسانِ[2]
لها الفخرُ والفضلُ المبينُ بما حوتْ ... من الإنس والحُسْنِ المنوطِ بإحسانِ

وهو يدعو الله أن يسقى تلك الديار وسكانها بسحائب تحكى ما ينهلُّ من مدمعه القانى، ويسأل الله أن يحيى تلك البلدة العظيمة التى تخيرها قديما فضلاء اليونان، إنها المدينة العليا تونس مؤنسة كل إنسان يراها بعينه، وإن لها الفخر والفضل البيِّن بما حوت من رجال الإنس ومن الحسن البارع. ويسترسل باكيا الدولة الحفصية بها قائلا:

لقد حَلَّ منها آلُ حَفْصٍ ملُوكُها ... مراتبَ تسمو فوق هامَةِ كيوانِ[3]
وسادوا بها عُظْمَ الملوك وشيَّدوا ... بها من مبانى العز أفخرَ بُنْيانِ
وكان لهم فيها بهاءٌ وبهجةٌ ... وحسنُ نظامٍ لا يُعابُ بِنُقْصانِ
وكان لهم فيها عساكرُ جمَّةٌ ... تصولُ بأسيافٍ وتَسْطُو بُمرَّانِ[4]
وكانتْ على الأعداء فى حَوْمَةِ الوَغَى ... تصولُ بأبطالٍ وتَسْطُو بشجعانِ

وهو يبكى الدولة الحفصية مشيدا بملوكها الذين سمت مراتبهم فوق رأس كوكب كيوان أو زُحَل، وسادوا أكثر الملوك وشادوا بها من قصور العز أفخر القصور وكان لهم فيها حسن وبهجة وجمال، وكانت لهم جيوش كثيرة تصول وتقهر بسيوفٍ ورماح صلبة، وكانت تسطو على الأعداء فى ساح الوغى والحرب بأبطال لا يماثلهم أبطال، ويبكى ما كان بتونس من علم وعلماء وأدب وأدباء قائلا:

وكانتْ لطلاَّب المعارف قِبْلَةً ... لما فى حِماها من أئمة عِرْفانِ
وكان لأهل العلم فيها وجاهةٌ ... وجاهٌ وعزٌّ مجدُه ليس بالفانى
ومن أدباء النُّظْم والنثر معشرٌ ... يفوقُ بناديها بلاغةَ سَحْبانِ
وما برحتْ فيها محاسنُ جَمَّةٌ ... وفى كل نوعٍ أهلُ حِذْقٍ وإتقانِ

وهو يبكى حركتها العلمية والأدبية، ويذكر كيف كان الطلاب يؤمون أئمتها من كل فج كما يذكر ما كان لعلمائها عند حكَّامها وأهلها من جاهٍ وعزٍّ مجده لا يفنى، ويشيد بأدبائها من

---

(١) صوب هنا: سيل.
(٢) إنسان الثانية: إنسان العين وهو الحدقة.
(٣) كيوان: زحل.
(٤) المران: الرماح.

الشعراء والكتَّاب وبلاغتهم التى تفوق بلاغة سحبان المشهور بحسن بيانه فى أوائل العصر الأموى، وينوِّه بما كان بها من محاسن حضاريَّة وصناعات بديعة قام عليها أهل حذق وافتنان وإتقان. ويأسى لهذا المصير المحزن الذى أصاب مدينة تونس قائلا:

فَشُتِّتَ ذاك الأُنْسُ من بعد جَمْعِهِ كما انتثرتْ يوما قلائدُ عِقْيانِ
فأعظِمْ برُزْءٍ خَصَّ خَيْرَ مدينةٍ وخيرَ أُناسٍ بين عُجْمٍ وعُرْبانِ
لعمرى لقد كادتْ عليها قلوبُنا تَضَرَّمُ من خَطْبٍ عليها بنيرانِ
وما الدَّهْرُ إلا هكذا فاصطبرْ له رزيَّةُ مالٍ أو تفرّقُ خِلَّانِ

وهو يقول إن كل هذا الأنس الذى كانت تحظى به مدينة تونس وكل هذا الجاه والمجد تفرّق وتشتّت كما تتشتت وتنتثر قلائد أو عقود ذهبية بديعة، وما أعظمه من رزء فادح نزل على خير مدينة وخير أناس بين الأعاجم والعرب، وإن قلوبنا لتضطرم عليها نيرانًا ملتهبة. ويعود إلى نفسه فيقول إنه ليس أمامنا إلا الصبر حتى تنجلى عن مدينتنا تلك الغمرة. وهى حقيقة الدهر، فهو دائما يرزأ المدن كما يرزأ الناس إما فى مال وإما فى فراق إخوان وخلان.

٤

شعراء الوعظ والتصوف

(أ) شعراء الوعظ

القرآن الكريم دائمًا يعظ ويدعو الإنسان إلى التفكير المتصل فى ملكوت السموات والأرض ليعلم أن له خالقا أحكم صنعه، ودائما ينبه إلى أعمال وأقوال من العبادات التى تطهر نفسه كما ينبه إلى أنه حرَّم الفواحش ما كبر منها وما صغر وأنه ينبغى أن يسلك طريق الفضيلة والتحلى بالخلق الحسن حتى ينال رضا ربه نابذا كل الرذائل ومراقبا ربه فى كل ما يأتى من قول أو فعل. ويبدئ القرآن ويعيد فى عقيدة المعاد وأن الناس سيبعثون جميعا يوم القيامة وكلٌّ يحاسب على أعماله ويُجْزَى عليها فإما إلى نعيم الله ورضوانه وإما إلى جحيمه وعذابه. وشرَعَ الله الخطابةَ الواعظة فى صلاة يوم الجمعة كل أسبوع وصلاة العيدين. وواعظ الأمة الأول الرسول ﷺ وتلاه الخلفاء الراشدون يعظون الناس، وبالمثل خطباء الأمة فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه، وتكاثر الوعاظ – مع مر الزمن – يعظون الناس فى المساجد. وللإقليم التونسى مثل غيره من الأقاليم الإسلامية نشاط واسع فى هذا الجانب، ويكتظ كتاب رياض النفوس للمالكى بأسماء وعاظ كثيرين كانوا يعيشون معيشه تقشف وزهد، رافضين متاع الدنيا

طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة. وساعد على انتشار هذه الروح الدينية هناك كثرة المحارس أو الرباطات التى أقيمت على طول الساحل التونسى للعبادة والنسك وحراسة البلاد من القراصنة وأعداء الله الروم وغيرهم. ولم يكن هناك فقيه كبير إلا ويقيم بها بعض أشهر سنويا للدفاع عن الوطن حين يباغته عدوٌّ أو قراصنة، واشتهر سحنون إمام المذهب المالكى فى المغرب جميعه بأنه كان يرابط وقتا فى السنة بالمنستير قرب مدينة سوسة، وكان واعظا وزاهدا كبيرا وكثير من تلاميذه كانوا وعاظا زهادًا واشتهر منهم شاعران فقيهان واعظان، هما أبو العباس بن زرزر وأحمد الصواف، أما ابن زرزر فأكثر من الشعر فى توحيد الله والرد على المارقين والملحدين، وأما أحمد الصواف فله شعر كثير فى المواعظ وسنخصه بترجمة. ويلقانا بعده ابن الرايس الفضل بن نصر المتوفى سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م وهو من أفذاذ الشعراء والعلماء، وله يعظ من قصيدة[١]:

ماذا تريك حوادثُ الأزمانِ ... وصروفُها وطوارقُ الحَدَثانِ[٢]

والجارياتُ السَّبْعُ فى الفَلَكِ الذى ... يجرى بتقدير العظيم الشانِ

من خَفْضِ أعْلامٍ وَرفْعِ معاشرٍ ... وزوالِ سلطانٍ إلى سلطانِ

أمّا الزمانُ فواعظ لك صَرْفُهُ ... لو كنت متَّعظًا بصَرْفِ زمان

وهو يقول: ها هى حوادث الأزمان ونوائبها وحوادث الليل والنهار وما تجرى به الكواكب السيارة فى الفلك بتقدير الله وما يتصل بذلك من الهبوط بأناس والارتفاع بآخرين وزوال سلطان إلى سلطان، كل ذلك هو الزمان، وحرى بك أن تتعظ بصرفه وبما يجرى به من محن وخطوب. ولا ريب فى أن حلقات الوعظ الكثيرة التى كانت منبثة فى القيروان وغيرها منذ القرن الثالث بل قبله هى التى أعدت لكثرة الوعظ على ألسنة الشعراء. ويقول عبد الله بن رشيق المتوفى سنة ٤١٩/١٠٢٩م[٣]:

خيرُ أعمالك الرِّضا ... بالمقادير والقَضا

بينما المرءُ ناطقٌ ... قِيلَ قد كان فانْقَضَى

وهو يدعو إلى الرضا بالقضاء فلن يستطيع أحد أن يبدل حكما له، وإذن لابد أن يقبل كل ما ينزله به، فذلك هو عين العقل والصواب. ويخوِّف عبدالله بن رشيق من الموت إذ ما يلبث أن ينزل بالإنسان، فيقال: قد كان حيا وانقضى أجله وانتهى. ويقول على بن أبى الرجال رئيس

---

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٨٨.

(٢) صروف جمع صرف: نوائب الحدثان: الليل والنهار.

(٣) الأنموذج ص ١٩٢.

ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية المتوفى سنة ٤٢٦ للهجرة[1]:

أَمِنَ الزمانِ زمانةُ العَقْلِ ... فَاخْشَ الإلهَ وحُلَّ عن الجهلِ[2]

واعلمْ بأنك في الحساب غَدًا ... تُجْزى بما قَدَّمْتَ من فِعْلِ

وهو يقول إن من يأمن الزمان لا يُعَدّ صحيح العقل، بل لكأنما عقله به آفة، وأى زمان إننا نحيى فيه حياة قصيرة أو طويلة ثم نلقى الله فحرى بكل شخص أن يخشاه وأن يتخلص مما على عقله من غشاوة الجهل فإنه معروض على ربه فى الحساب غدا ويجزى بما قدمت يداه من عمل طيب أو سيئ. ويقول على بن حبيب التنوخى المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م واعظا[3]:

للمرءِ فى أيامِهِ واعظٌ ... لو فكَّر المغرورُ فى رَمْسِهِ[4]

كم من قريرِ العين فى غِبْطَةٍ ... أعراه صَرْفُ الدهر من لِبْسِهِ

ففارقَ الأحباب عن كُرْهِهِ ... واستبدلَ الوَحْشَةَ من أُنْسِهِ

ياربِّ غُفْرَانَك يَرْجُو الذى ... أسرف فى الدنيا على نفسه

وهو يعظ المغرور بأنه لو فكر فى رمسه أو قبره وأنه مدفون به غدا لطأطأ من غروره، وتذكَّر كم من شخص كان مسرورا فى نعمة وحياة رغدة طيبة جرَّده حادث الدهر من ذلك كله، ففارق الأحباب مكرها مرغما وأصبح فى حفرة مظلمة لا أنيس ولا رفيق . ويتجه الشاعر إلى ربه معترفا بما أسرف على نفسه من الذنوب راجيا منه الغفران. ويقول عبد الله التجانى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح من قصيدة وعظية طويلة[5]:

بادرْ إلى التقوى بِدارَ مُسارِعٍ ... وانهضْ إلى الطاعات نَهْضَ سِباقِ

واغْنَمْ من الأيام مهلة ساعةٍ ... قبل التفاف السَّاق منك بساقِ

يا أيُّها الإنسان إنك كادحٌ ... كَدْحًا وأنت لما كدحت مُلاقى

والمرءُ مجزىٌّ بما هو فاعلٌ ... وجزاؤُهُ جارٍ على استحقاقِ

وهو ينصح من يخاطبه بالمبادرة إلى التقوى وعبادة الله بدارَ مسارعٍ عجل، وبالنهوض إلى

---

(١) المجمل ص ١٢٩.

(٢) زمانة: مرض. حُلْ: تحول.

(٣) الأنموذج ص ٢٨١ والحلل السندسية ٣٣٤/٢ والمجمل ص ١٣٤.

(٤) رمس: قبر.

(٥) الحلل السندسية ٥١٦/٢ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٢١٣.

أداء الطاعات نهوض من يريد الحصول على قصب السبق، وينصحه كذلك أن لاتفلت منه مهلة ساعة أو لحظة دون أن يعبد الله حق عبادته قبل أن يوافيه القدر ويبعث يوم القيامة يوم الهول الأكبر والتفاف الساق بالساق كما جاء في وصف يوم البعث بسورة القيامة. ويستعين عبد الله في البيت الثالث بالآية القرآنية في سورة الانشقاق: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ فالإنسان عامل في دنياه وسيلقى جزاء ما عمل من خير أو شر في أخراه، إذ كلٌ يُجزَى بعمله وينال ما يستحقه من ثواب أو عقاب. وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الصواف ومواعظه.

أحمد[1] الصواف

هو أحمد بن أبي سليمان داود الصواف، ولد سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ودخل الكتاب مثل لداته وحفظ فيه القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات المحدثين والفقهاء، ولزم حلقة سحنون وكان من أقرب تلاميذه إليه لما عهد فيه من ذكاء، وفي كتاب الحلل السندسية روايات مختلفة له عن أستاذه تتصل ببعض أخباره وببعض الأحاديث النبوية. وكان ثقة في الفقه والعلوم الإسلامية، وروى كثيرا من الشعر غذّى به ملكته الشعرية، وكان يوصى طلبته بالوقار والتعفف ومجالسة العلماء ومجانبة الأشرار، وكان كثير التأمل في ملكوت السموات والأرض، ونقش على خاتمه: «أحمد تفكر تعتبر» ويؤثر عنه أنه كان يقول: أنا حُبُسٌ (موقوف) وكتبى حبس على طلبة العلم، فهو محبوس على عبادة ربه ونسكه وكتبه محبوسة على طلاب العلم والمعرفة، وكان شاعرا جيدا وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره في الحكمة والعظة الحسنة، وعاش طويلا حتى وافاه الأجل سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م ومن وعظه:

تركتُ تكاليف الحياة لأهلها	وجَانَبْتُها طوْعًا فجانبني الرَّدَى
أراني بحمد الله في المال زاهدًا	وفي شَرف الدُّنيا وفي العزِّ أزهدا
تخليتُ عن دُنْيايَ إلا ثلاثةً	دفاترَ علمٍ ثم بَيْتًا ومَسْجدا

وهو يقول إنه لم يتعلق بشيء من تكاليف الحياة ومتاعها، ولذلك بارك الله في حياته وجانبه الموت، ويصرح بأنه زاهد في كل ما يطمع فيه الناس من المال ومن الشرف والعز والمجد فكل ذلك لا يعتد به إنما يعتد بثلاثة لا غير: بدفاتر العلم ومدارسته وبالمسجد يتبتل فيه إلى ربِّه وبيت يأوى إليه. فتلك الثلاثة هي غناه وسعادته وكل ما يقتنيه من دنياه. ثم يقول:

(١) انظر في أحمد الصواف رياض النفوس للمالكي ٤٠٧/١ وما بعدها والمجمل ص٦٩ والحلل السندسية (انظر الفهرس).

ألم تر أنّ الدهر يَقْرِى أُهَيْلَهُ　　هموما وأن العيش صار منكّدا[1]
فما حلّ قومٌ فيه إلا بِفَجعةٍ　　وأنتَ لأخرى فيه منتظرٌ غدا
وكم قد رأينا من عزيزٍ مشرَّفٍ　　يبيت مُقَرًا فى القباب مُمَهَّدا
أتته المنايا وهْوَ فى حين غَفْلةٍ　　فأضْحَى ذليلا فى التُّراب موسَّدا

وفيم تعلق الناس بالدنيا؟ إن الدهر لايزال فيها يَقْرِى الناس - ويطعمهم - هموما هما من بعد همٍّ، وقد صار العيش فيها نكدا كله، وهل أحد فيها إلا أصابته فجعة أو مصيبة موجعة من موت صديق أوقريب، وإن الكأس التى ذاقوها ليذوقها كل شخص بدوره، وكم قد رأينا من عزيز له شرف لايدانيه شرف يترك ذلك كله حين يوافيه القدر إلى قبر ممهد بين القبور، وإنه ليموت على حين غفلة من أهله وأصفيائه، ويدفن فى التراب ويتوسّده ويصبح فيه أسيرا ذليلا لا شرف ولا طنافس، ولكن تراب بجانبه تراب. وقال مبتهلا إلى ربه فى ختام قصيدة له طويلة:

أجِرْنى من عذابك واعفُ عنِّى　　وكُن لى منك يا أملى مجيرًا
فإنى قد كبرتُ ورقَّ عَظْمى　　وجئتُ إلى فِنائك مُسْتجيرا

فهو لا يخاف الموت ولا يرهبه، ولذلك لا يعد المشيب نذيرا له بل بشيرا، إذ سيلقى ربه، وعاش حتى توفى فى السابعة والثمانين من عمره.

(ب) شعراء التصوف

مر بنا فى الفصل الأول كيف أخذت تنشط حركة الزهاد والنساك فى القيروان وتونس وغيرهما من بلدان الثغور على الساحل التونسى منذ أواخر القرن الثانى للهجرة، إذ بُنى بجوار هذه الثغور رباطات - وتسمى هناك محارس - للمجاهدين فى سبيل الله ضد القراصنة وكانت أشبه بحصون كبيرة إذ كان بعضها يبلغ نحو ثلاثين غرفة ومعها مسجد وحمامات وأحواض مياه، وكثيرا ما كان يُلْحَقُ بها إسطبل للخيل حتى يتمرن العبَّاد فيها والناسكون على الفروسية ولقاء العدو، وطبيعى أن كان بها بعض الأسلحة. وأعطت هذه المحارس أو الرباطات الفرصة لكى تتكون طبقات من النساك الذين وهبوا نفوسهم للنسك ولجهاد أعداء الله، وكان الفقهاء - حتى كبارهم من أمثال سحنون إمام المذهب المالكى فى الفقه - ينزلونها فترات ويلقون بها محاضرات ودروسا من شأنها أن تزيد النساك نسكا وأن تدلع الحماسة فى قلوبهم لحماية الإقليم التونسى.

---

(١) يقرى: يطعم.

ويهمنا الآن جانب النسك والعبادة، وقد أخذ كثيرون فى تلك المحارس يعيشون للنسك الخالص وحاكاهم فى ذلك بعض سكان القيروان وغيرها من المدن. وكان التصوف قد أخذ يشيع فى المشرق وانبثق عنه ضرب فلسفى آمن بالحلول على نحو ما هو معروف عن الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ للهجرة، وظلت القيروان ومحارس الساحل التونسى بعيدة عن هذا التصوف الفلسفى، غير أنه مع الزمن أخذ يظهر فيها من استغرقوا فى الزهد والنسك، حتى ليمكن أن نسميهم متصوفة، غير أنهم متصوفة سنيون، وهو تصوف فردى فلا طريقة صوفية للمتصوف ولا مبادئ خاصة يتخذها لطريقته الصوفية مثل أبى عقال المار ذكره غلبون بن الحسن بن غلبون من أسرة الدولة الأغلبية من أبناء مدينة رقادة بالقرب من القيروان، وكان عابدا ناسكا، وهاجر إلى مكة واختارها دار مقام له إلى أن توفى. وله أشعار زاهدة كثيرة عليها مسحة من التصوف أنشد منها المالكى فى رياض النفوس مقطوعات متعددة[1].

ومن متصوفة هذا الدور محرز بن خلف المتوفى سنة ٤١٣ وأبو الفضل بن النحوى المتوفى بعده بقرن. وسنخص كلا منهما بكلمة. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت لا تعرف التصوف الفلسفى ولا الطرق الصوفية حتى منتصف القرن السادس الهجرى إلا ما كانت تقرؤه فى الكتابات المشرقية، وتنتشر موجة التصوف الفلسفى غربى الاقليم التونسى بمدينة بجاية إذ ينزلها أبومدين شعيب المتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م وكان يشوب تصوفه شىء من النزعة الفلسفية، وتبعه كثيرون فى الجزائر والمغرب وزار تونس، وتبعه فيها غير تلميذ مثل أبى سعيد خلف بن يحيى التميمى المولود سنة ٥٥١ والمتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. ويبدو أن عقيدته الصوفية لم ترسخ فى القيروان، وزار تونس - بعده - محيى الدين بن عربى المتصوف الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ وأقام بها مدة التف فيها حوله بعض الأتباع، وأهم منه ومن أبى مدين تأثيرا فى الإقليم التونسى أبوالحسن الشاذلى المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م والناشئ فيه بشاذلة إحدى بلدانه واتجه إلى التصوف مبكرا، ورحل إلى المشرق وتعرف فيه على أحد معتنقى الطريقة الرفاعية، وهى إحدى الطرق الصوفية السنية التى ظهرت بالمشرق فى القرن السادس الهجرى، وعاد إلى المغرب واتجه غربا إلى فاس ولقى فيها عبد السلام بن مشيش أحد أتباع طريقة أبى مدين، فلزمه مدة، ثم تركه إلى شاذلة وعاش بها فترة، وكان يتركها، أحيانا إلى تونس وينشر فيها دعوته، وتبعه فيها أصحاب كثيرون وكان يهاجم الخانقاهات والتسول بقوة، وتعرف على تلميذه أبى العباس المرسى وأعجب كل منهما بصاحبه. ويبدو أنه رأى أن يتسع بدعوته إلى طريقته، فصمم على مغادرة تونس إلى الاسكندرية وصحب معه

---

(١) رياض النفوس للمالكى ٤٣٧/١ - ٤٤٢

أبا العباس المرسى وجما من مريديه ونزلها سنة ٦٤٢هـ، ويقال إنه ترك فى تونس خمسين تلميذا متصوفا من أتباعه مثل على القرجانى وعائشة المنوبية[1] وطريقته أقرب إلى الطرق الصوفية السنية منها إلى الطرق الصوفية الفلسفية، وشاعت طريقته لا فى الاسكندرية وحدها، بل أيضا فى القاهرة والمدن المصرية المختلفة، بفضل تلميذه السكندرى ابن عطاء الله، وقد تولى مشيخة الطريقة بعد وفاة أبى العباس المرسى سنة ٦٨٥هـ وله فيه وفى الشاذلى كتابه الرائع لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن» وقد ساق فيه أربعة أوراد للشاذلى، وأخذت تتولد من هذه الطريقة بمصر طرق جديدة مثل الطريقة الوفائية، وكلها تنزع منزعا سنيا. وظلت الطريقة الشاذلية تشيع فى عصر الدولة الحفصية، وأخذت تشيع معها طرق صوفية مختلفة. ولابد أن نشير إلى اهتمام هذه الدولة ببناء الزوايا فى تونس لكبار المتصوفة، حتى اكتظت بها المدينة كما لابد أن نشير إلى ماذكرناه فى الفصل الأول من أن المتصوفة فى العهد الحفصى انحرفوا عن واجبهم من الجهاد ضد أعداء الله وعاشوا عالة على الدولة والأمة مرددين للعامة كلمات القطب والأبدال والكرامات. ونتوقف قليلا لنتحدث عن صوفيين سنيين مبكرين هما محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى.

محرز[2] بن خلف

هو محرز بن خلف بن رزين من ذرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه، نشأته ومرباه بتونس، ولابد أن كان والده من فضلائها، وقد عكف على حلقات الشيوخ بها ينهل من معينهم فى الفقه والتفسير والحديث النبوى، وأيضا فى علوم العربية. ولم يحاول بعد أن فرغ من تعلمه وأخذ ماعند الشيوخ أن يجلس إلى حلقة يعلم فيها الطلاب الناضجين من الشباب، بل رأى أن يعنى بتعليم الناشئة العربية وأصول الدين الحنيف وتعاليمه، وكان يسلك فى ذلك طرقا تعليمية حميدة مما جعل الناس يطلقون عليه اسم المربى محرز. وكانت مدرسته فى مدينة تونس معروفه باسمه، دفن فيها، وكان تقيا صالحا يتوفر على عبادة ربه والنسك له، مما لفت إليه أنظار مواطنيه، وجعلهم يحسنون الاعتقاد فيه، حتى أطلقوا عليه اسم الولى الصالح، وظل هذا الاعتقاد يلازم التونسيين بعد وفاته عن سبعين عاما ونيف سنة ٤١٣ حتى لقبوه بسلطان المدينة، لقب خصوه به دون غيره من الصوفية أصحاب الزوايا الكثيرين فى البلدة. ونسوق بعضا من كلام صاحب الحلل السندسية فى ترجمته له إذ يقول عنه: «الشيخ الأستاذ الذى شحن بنفحات عوارفه الألباب، وتغذَّى من الإخلاص بخالص اللباب، وفُتح له بحضرة اللطائف أعرضُ باب.. ألا وهو الحجاب الإحاطى بقصور العرفان والكوكب الذى قصُر عن مشاهدته العيان، والكهف

(١) من قرية منوبة بالقرب من تونس. والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١١٦.

(٢) انظر فى محرز الحلل السندسية ٨٧٤/٤.

الذى استظل تحت جناح مدده الملوان (الليل والنهار).. المالكى مذهبا الصوفى دأبا البكرى (نسبة إلى جده) نسبا». وهى مبالغة واضحة. غير أنها تدل - من بعض الوجوه - على مدى اعتقاد التونسيين فيه. ومن قوله فى الدنيا وتصاريفها وتقلباتها:

أبدتْ لنا الدنيا زخارف حُسْنها ... مكرًا بنا وخديعةً ما فتّرتْ
وهى التى لم تَخْلُ قطُّ لذائق ... إلا تكدَّر طَعْمُها فتَمَرَّرَتْ
خدَّاعةٌ بجمالها إن أقبلتْ ... فجاعةٌ بزوالها إن أدْبرتْ
وهَّابةٌ سلَّابةٌ لِهِباتها ... طلاَّبةٌ لخراب ما قد عُمِّرتْ
فإذا بنَتْ أمرا وتمَّ بناؤها ... نصبتْ مجانقَها عليه فدمَّرتْ

وهى عظة بديعة، يقول: لاتغتر بما تبديه لك الدنيا من زخارفها وزينتها، فذلك مكر منها وخديعة لا تقصِّر فيها، إنها لم تَصْفُ وتَخْلُ قط لذائق إلا تغير طعمها وتَمرَّر مرا شديدا، وحذار من إقبالها بحسنها عليك فإنها لاتلبث أن تدبر عنك وتفجعك فيما أعطتك، إنها وهابة غير أنها سرعان ماتسلب ماوهبتك، وإنها لتخرّب ما عمرته لك، وإذا شادت أمرا ورفعته عاليا سرعان ما تنصب مجانيقها عليه وتدمره تدميرا كأن لم يكن شيئا مذكورا. ويحاول أن يعزى المظلومين قائلا:

إذا ظالِمٌ قد عاهد الظُّلْمَ مذهبًا ... وجار غُلُوًّا فى عُلُوِّ اكتسابِهِ
فكِلْهُ إلى ريْبِ الزمان وجَوْرِه ... سيُبْدى له ما لم يكن فى حِسابِهِ
فكم ذا رأينا ظالمًا متجبِّراً ... يَرَى النَّجم تِيهًا تحت ظِلِّ ركابه
فلما تمادى واستطال بجوْرِهِ ... أناختْ صروفُ الحادثات ببابِهِ
وعوقب بالذنب الذى كان يَجْتَنِى ... وصبَّ عليه اللّهُ سَوْطَ عذابه

وهو يقول للمظلوم إذا رأيت ظالما باغيا غلا وجار فى بغيه وعدوانه فاصبر ودعه إلى صرف الزمان وتقلبه فإنه سيريه مالم يكن يخطر على باله، وكم رأينا ظالما عاتيا بلغ من عتوه وتجبره أن كان يرى النجم كأنه يمشى فى ركابه، ولما تمادى فى عتوه وبغيه وظلمه نزلت النكبات ببابه وأقامت به لا تبرحه فعوقب عقابا أليما بذنبه الذى جناه بعمى بصيرته وصبَّ الله عليه سوط عذابه جزاء وفاقا لظلمه وبغيه. وله موعظة جعل موضوعها مدينة قرطاجة عاصمة الفينيقيين، ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون، وتحدث عن عظمة الأولين البحرية وبناء الثانين للطياطرو (للتياترو) وبناء حناياها لتوصيل مياهها وتشييدهم للقصور، ويقول إن كل ما عاشت فيه كل تلك الدول المختلفة أصبح أطلالا دوارس، ويختمها بقوله عن حكامها جميعا واعظا ومنبها إلى أنه لابقاء لشىء فى الحياة:

لقد وُسِّدوا بعد الحريـر جَنَادِلاً ... ولم يستـطيعوا للحوادث مـدْفعَا
ولم يُغْنِ عنهم مـا بَنَوْهُ وشيَّـدُوا ... ومامُتِّعوا فى الدهر مَعْ من تمتّعًا
ولنْ تَسْمعوا إلا الصَّدى بعد هاتفٍ ... مجيبًا له ثُمَّ الرياحَ الزَّعازعا[1]

وهو يقول إن حكامها بعد معيشتهم فى القصور الباذخة وما كانوا يتوسدونه من الحرير والإستبرق والطنافس أصبحوا يتوسدون الصخور والتراب، وعبثا حاولوا أن يدفعوا عنهم حوادث الدهر إذ خَرُّوا صرعى جميعا، ويلتفت الشيخ محرز إلى صاحبيه هاتفا إن جزتما بربوعها الدارسة ناديانى وتسمَّعا فإنكما لن تسمعا إلا صدى ندائكما ورياحا عاصفة، إذ أصبحت تلك المدينة ذات التاريخ العريق والأبنية الشامخة أطلالا عافية ورسوما دائرة، وهذه هى الدنيا كل شىء فيها إلى بِلًى وفناء.

أبو الفضل[2] بن النحوى

هو أبو الفضل يوسف بن محمد الذى عُرف باسم ابن النحوى، مولده ومرباه بمدينة توزر قاعدة بلاد الجريد فى الإقليم التونسى وتركها شابا إلى القيروان لينهل من حلقات شيوخها وصحب اللخمى وأخذ عنه صحيح البخارى، ولما توفى لزم تلميذه المازرى حامل لواء الفقه المالكى، وحمل عنه مصنفاته الفقهية وأماليه فى الحديث النبوى، ونزل قلعة بنى حماد وأقرأ أو درس بها للطلاب وجال فى أنحاء المغرب، وأقرأ فى سجلماسة وفى فاس، وعاد إلى قلعة بنى حماد وتصدر فيها للتدريس بقية حياته إلى أن توفى عن ثمانين عاما سنة ٥١٣هـ/١١٢٠م، وكان لا يقبل من أحد عطاء ولا من حاكم راتبا، وظل يعيش طوال حياته من دخل مزرعة له بتوزر. وكان مثالا رفيعا للعلماء وعلى سنن الصالحين، قال عياض: «كان من أهل العلم والفضل، شديد الخوف من الله، غالب حاله الحضور معه تعالى». وله قصيدة استغاثية بديعة تسمى «المنفرجة» طارت شهرتها فى الآفاق وفيها يقول:

اشتـدِّى أزمـةُ تَنْفَـرِجى ... قـد آذنَ ليلُكِ بـالبَلَجِ[3]

---

(١) الزعازع: الشديدة

(٢) انظر فى أبى الفضل بن النحوى الخريدة ٣٢٥/١ وعنوان الدراية للغبرينى ص١٩٤ والفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية لابن منقذ ص٢٦٨ وكتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ١٩٥/١ وما به من مصادر والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٧٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٠٩/٥ وذكر لقصيدته المنفرجة شروحا كثيرة منها شرح للتقاوسى البجائى وشرح لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى كما ذكر لها تشطيرات وتخميسات مختلفة.

(٣) البلج: ضوء الصباح.

وظـلامُ الليـل لـه سُـرُجٌ حتى يغشاه أبو السُّرُجِ[١]
وسحابُ الخير لـه مطرٌ فـإذا جـاء الإبَّـان يجي[٢]
وفـوائـدُ مـولانـا جُمَـلٌ لسـرور الأنفس والمهـج
ولهـا أرجٌ مُحْيٍ أبـدا فـاقصد مَحْيا ذاك الأرَجِ[٣]
والخلق جميعـا فى يَـدهِ فـذوُو سَعةٍ وذوُو حَرَجِ[٤]

وهو يسلم أمره إلى ربه مؤمنا بأن أى أزمة أو كارثة مهما اشتدت لابد أن تنفرج، وأن ليلها ليوشك أن يتلوه البلج أو ضوء الصباح، ونفس ظلام الليل الداجى له سرج من النجوم حتى يغمره ضوء الشمس أبو السرج، وإن كل شىء له أوان، وما أسرع أن يهطل سحاب الخير حين يأتى إبَّانه وأوانه، وإن نعم الله لتأتى جُمَلا تترى لتضىء النفوس والأرواح ولها شذّى عطر محي دائمًا فاقصده واحرص عليه حتى تحيا حياة هنيئة، وارض بقضاء الله فى قسمته الخلق بين موسَّع - ومضيَّق - عليه فى الرزق، فلذلك حكمته. وفيها أيضا يقول:

وإذا انفتحتْ أبـوابُ هُـدًى فـاعجـلْ لخـزائنها وَلِـجِ[٥]
ولـطاعتـه وصَبَـاحَـتـهـا أنـوارُ صبـاحٍ مُنْبَلِجِ[٦]
من يخطبْ حورَ العِين بها يظفرْ بـالحـور وبـالغَنَجِ[٧]
وكن المـرضيَّ لهـا بتُقًـى تـرضـاه غَـدًا وتكـون نَجِى

وهو ينصح مخاطبه إذا انفتحت أمامه أبواب الهدى أن يسارع إلى ولوجها ودخولها ليهنأ بطاعة ربه وأنوارها المضيئة المشرقة، وليكون من أهل الجنة ويحظى بالحور ودلالهن وجمالهن، وهولن ينالهن إلا بتقى الله حق تقاته وعبادته له حق عبادته. ويوصيه بتلاوة القرآن الكريم والتهجد قربى لرضوان ربه. والمنفرجة فى أربعين بيتا،كلها بهذه اللغة السلسة العذبة وهذه الموسيقى ذات الألحان البديعة. وكان أبو الفضل صوفيا بحق، يأخذ نفسه بالتقشف ويلبس خشن الصوف، ويعبد الله كأنه يراه أو كما قال عياض كأنه حاضر معه. وله يضرع إلى الله تعالى فى بعض تهجده:

---

(١) سرج: يقصد النجوم. أبوالسرج: ضوء الشمس.
(٢) الإبان: الأوان.
(٣) أرج: عطر.
(٤) حرج: ضيق.
(٥) ولج: ادخل.
(٦) صباحة: إشراق. منبلج: مضىء.
(٧) الحور العين: نساء الجنان كما فى القرآن. الغنج: الدلال.

لبستُ ثوبَ الرَّجا والناسُ قد رقدوا ... وقمتُ أشكو إلى مولايَ ما أجِدُ
وقلتُ يـا سيِّدى يـاَمُنْتَهى أملى ... يا مَنْ عليه بكشف الضرِّ أعتمدُ
أشكـو إليك أمـورًا أنت تعلمها ... مالى على حَمْلها صَبْرٌ ولا جَلَدُ
وقد مددت يـدى للضُّرِّ مُشْتكيًـا ... إليك يا خير من مُدَّتْ إليه يَدُ

وهو يضرع إلى ربه لابسا ثوب الرجاء والأمل والناس نيام قائما بين يديه يشكو متضرعا متذللا إلى سيد الكون ومنتهى أمله فى دنياه أن يكشف عنه الضر وكل ما يعلمه مما لا طاقة له ولا صبر ولا جلد على حمله، ويقول ضارعا شاكيا لقد مددت يدى إلى خير من تمد له الأيدى فلا تردنى عن بابك خائبًا. واكشف عنى ما أصابنى من ضر بفضلك وإحسانك وإنعامك.

٥

شعراء المدائح النبوية

الرسول ﷺ المثل الأعلى الكامل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وهم حين يحجون يقصدون إليه فى المدينة لزيارة قبره العطر، وما من مسلم إلا وهو يتمنى هذه الزيارة الشريفة، فإن أقعدته -أو منعته- الضرورة وكان شاعرًا دبج قصيدة يتشوق فيها إلى اكتحال عينيه برؤية قبر حبيب الله وصفيه: الرحمة المهداة والنعمة المسداة إلى أمته المخصوص بالإسراء ليلا إلى بيت المقدس ومعراجه أو رقيه إلى السموات السبع، الذى خُصَّ بالقرآن الكريم معجزته الكبرى التى ليس لها سابقة مماثلة ولا لاحقة، مع ما اتصف به من خلق رفيع يعجز البيان عن وصفه، ومع رسالته الإلـهية الهادية التى تحقق للناس السعادة فى الدارين. وقد دبج حسان وكعب بن زهير وغيرهما فى حياته قصائد بديعة فى مديحه، وتكاثرت سيول هذا المديح بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلى اليوم على ألسنة شعراء العالم الإسلامى شرقا وغربًا بحيث تكوَّن نهرًا عظيمًا لكل بلد أو قطر إسلامى جدوله المتدفق فيه. والإقليم التونسى كغيره من الأقطار الإسلامية له جدول تترقرق فيه المدائح النبوية. ولن نستطيع أن نعرض ما فاض على ألسنة شعراء القيروان وتونس من هذه المدائح، وخاصة فى العصر الحسينى - لكثرتها، ولذلك سنكتفى باثنين من العصور المختلفة اشتهرت مدائحها النبوية، وهما عبدالله الشقراطسى وابن السِّماط المهدوى.

عبد[1] الله الشَّقْراطِيسى

هو عبد الله بن يحيى بن على الشَّقْراطيسى نسبة إلى قلعة رومية أقيمت قديما بالقرب من قفصة تسمى «شَقْراطس». ومولده ومرباه فى «توزر» مثل أبى الفضل بن النحوى، وهو يسبقه بنحو خمسين عاما إذ توفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. ولما بلغ مبلغ الشباب رأى أن يكمل دراسته فى القيروان، فاختلف إلى شيوخها، وأخذ ما استطاع منهم حتى غدا فقيها محدثا، وحجَّ، وعاد فعين قاضيا فى بلده توزر إلى وفاته، وكان مع قيامه فيها بالقضاء يدرس للطلاب وينشر العلم ما استطاع، ويقال إن ابن النحوى درس عليه. وقد طار صيته فى أنحاء العالم العربى بقصيدة فريدة فى ١٣٣ بيتا نظمها فى مديح الرسول ﷺ، استهلها بقوله:

الحمدُ لله منا باعثِ الرُّسُلِ	هَدَى بأحمدَ منا أحمدَ السُّبُلِ
خَيْرِ البريَّةِ من بدوٍ ومن حَضَرٍ	وأكرمِ الخَلْقِ من حافٍ ومُنْتَعِلِ
تَوْراةُ موسى أتتْ عنه فصدَّقها	إنجيلُ عيسى بحقٍّ غيرِ مفتَعَلِ
ضاءت لمولده الآفاقُ واتَّصلتْ	بُشْرَى الهَوَاتِفِ فى الإشراقِ والطَّفَلِ[2]

وهو يحمد الله باعث الرسل إلى الأمم أن بعث الرسول إلى أمته المحمدية هاديا لها إلى خير السُّبل أو الطرق وإنه لأفضل البرية جمعاء متبدية ومتحضرة وأكرم الخلق جميعا حفاة ومنتعلين، ويقول إن توراة موسى بشرت به وصدقها الإنجيل، مشيرًا بذلك إلى آية سورة الأعراف وأنه ممن تشملهم رحمة الله ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ ويقول إن الآفاق أضاءت لمولده ودُقت البشائر فى الإشراق والظلام. ويمضى فى ذكر معجزات مولده ومعجزاته فى حياته وفى الهجرة وما خصه الله به من عروجه إلى السماء. ويعود إلى تفصيل القول فى معجزاته ومعجزته الكبرى القرآن، ويلم بأذى قريش لمن اتبعوه وهو لا يزال بمكة وخاصة بلالا، ويذكر انتصاره على قريش ببدر إذ حطم جيشهم حطما، وأسر نفرًا من أشرافهم، وبكى أهل مكة من رجال ونساء بدموع غزار، ويذكر يوم فتح مكة، وقد جاءها الرسول فى عديد من الجنود من يثرب

---

(١) انظر فى الشقراطيسى الوفيات لابن منقذ طبع بيروت) ص٢٥٢ وعنوان الأريب ١/٤٢، ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٦٣ وبروكلمان ١٠٨/٥ وذكر أن للشقراطسية شرحا لابن الشباط التوزرى مواطنه المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، كما ذكر لها تخميسات لابن الشباط وغيره.

(٢) الطفل: الظلام.

ومختلف القبائل، ورأت قريش أن لا قبل لها بلقائه، فاستسلمت ودخلت فى دين الله، يقول:

ويومَ مكةَ إذ أشرفتَ فى أُمَمٍ	يضيقُ عنها فِجاجُ الوَعْثِ والسَّهَلِ [١]
خوافقٌ ضاق نَزْعُ الخافقين بها	فى قاتمٍ من عَجاجِ الخَيْلِ والإبلِ [٢]
وجَحْفَلٍ قُذُفِ الأرجاء ذى لَجَبٍ	عَرَمْرَمٍ كزُهاء الليـل مُنْسجِلِ [٣]
وأنت صلَّى عليك الله تَقْـدُمهم	فى بهوِ إشراقِ نورٍ منك مكتملِ
والخَيْلُ تختال زَهْـوًا فى أعِنَّتها	والعِيسُ تنتال رَهْوًا فى ثُنَى الجُدُلِ [٤]
أهلَّ ثهلان بالتهليل من طـربٍ	وذاب يذبل تهليلا من الذُّبُلِ [٥]
الملك لله هذا عزُّ من عُقِـدتْ	له النبوة قبل العرش فى الأزل

وهو يتحدث عن يوم فتح مكة ومع الرسول أمم من يثرب والقبائل تضيق عنها فجاج الأرض العَسِرة والمهدة السهلة، خوافق متحركة ضاقت بها لكثرتها طاقة المشرق والمغرب، وقد عقدت حركة الخيل والإبل عليها غبارًا كثيفًا، وإنه لجيش ضخم متسع الأرجاء له لجب وصخب عرمرم أو شديد، كزهاء الليل ومقداره، تنصب قطعه انصبابا، والرسول - ﷺ - على رأس هذا الجحفل، يحفُّ به بهاء ونور منه مكتملان والخيل تختال فى أعنتها ومسيرتها زهوا، والعيس أو الإبل تتابع سائرة فى مضاعف من جُدلها أو أزمتها، وأهلَّ ثهلان رافعا صوته بذكر الله من طرب وفرح، وذاب يذبل خوفا من الرماح وكثرة السلاح، وهذا عز لا يماثله عز، عز من كتبت له النبوة فى الأزل البعيد قبل خلق العرش وتكوينه. ويتحدث عن الانتصارات فى الفتوح الإسلامية فى أنحاء المعمورة فى العراق وديار الفرس والترك والصين وبلاد النوبة والزنج ومصر والمغرب، كما يتحدث عن منزلة الرسول ﷺ عند الله واختصاصه بالشفاعة للعباد خلاصا من هول المحشر، ويطلب منه الشفاعة ومن الله الغفران.

(١) فجاج الوعث: الطرق العسرة.

(٢) ضاق نزع الخافقين: ضاق وسع المشرق والمغرب. عجاج الحرب: غبارها.

(٣) جحفل: جيش ضخم. قذف: بعيد. لجب: صياح. عرمرم: شديد. زهاء الليل: مقداره. منسجل: منصبّ ومصبوب.

(٤) العيس: الإبل. تنتال: تسيل وتنصبّ. رهوا: بطيئة أو متئدة. ثنى الجدل: الأزمّة المزدوجة الطاقات.

(٥) ثهلان ويذبل: جبلان عند مكة. الذبل: الرماح.

ابن[1] السماط المهدوى

هو أبو يعقوب يوسف بن على بن عبد الملك بن السماط البكرى، ولد بالمهدية سنة ٦١٣ وبها منشؤه ومرباه، من بيت علم وفضل وثراء، وتفتحت شاعريته مبكرة، وكان من نعم الله عليه أن قصر شعره على مدح الرسول ﷺ، فلا يوجد له فى غير هذا المديح شعر إلا التافه النَّزر مما قاله فى صباه، ويقول صاحب الحلل السندسية: «هو عالى الطبقة فى الشعر جدا، وشعره مدوَّن مشهور». وظل يحيا فى المهدية يمدح الحضرة النبوية حتى وافاه الأجل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م واحتفظ له صاحب الحلل السندسية بخمس قصائد نبوية باهرة، وفى ثانيتها يقول متشوقا إلى يثرب وزيارتها الشريفة:

رَعْىُ الحقوق - كما علمتَ - حقيقُ	والصبر عن وادى العَقيق عُقوقُ[2]
ولأهـل ذَيَّـاك الحِمَى بقلوبنـا	شغفٌ يسوق نفوسنـا ويشـوقُ
ولذكرهم بَرْدٌ على طيِّ الحَشَا	تُشْفَى بـه مـرضـاهمُ وتُـفيقُ
قـومٌ بهم طـاب النسيمُ بطَيْبَةٍ	حتى انثنى كالمسك وهو فتيقُ[3]
وغَدَا ثراها للشِّفاء مَـراشِفًا	وبقـاعُها كـلَّ البقاعِ تفـوقُ
ومـزارهـا أشْهَى إلى عُشَّـاقها	من شاطئٍ يأْوِى إليه غـريقُ

وهو يقول إن للزيارة النبوية حقوقا ينبغى أن تؤدى، وإن الصبر عن زيارة وادى العقيق بالمدينة المنورة ليعد عقوقا، وإن لأهل هذا الحمى بقلوبنا شغفًا وشوقًا شديدًا ولذكرهم بَرْدًا على الأحشاء حتى لكأنه دواء يشفى المرضى من عللها الدفينة، قوم بهم ذكا النسيم وطاب بطيبة أو يثرب، حتى أصبح كالمسك حين يسطع شذاه، وإن ثراها ليود الناس حبا فى الرسول أن يرشفوه بشفاههم رشفا، وإن عشاقها فى المعمورة ليتمنون زيارتها يطلبون بها النجاة كما يتمنى الغريق شاطئا يأوى إليه من الهلاك. ويقول فى القصيدة الرابعة:

أَعِـدِ الحـديثَ فليس بـالمملولِ	عن خَيْرِ مبعوثٍ وخَيْـرِ رسولِ
وامْلأْ مسـامعَنا بـطيبِ حديثِـهِ	فهو الشفاءُ لحرِّ كل غَليـلِ[4]
وادْأَبْ عليـه مصلِّيًـا ومسـلِّمـا	فكـذا أتى فى محكم التَّنزيـلِ

---

(١) انظر فى ابن السماط المهدوى الحلل السندسية ٥٠٨/٢ وما بعدها وشجرة النور الزكية ١٩٢/١ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٠٨.

(٢) وادى العقيق: واد بالمدينة.

(٣) طيبة: المدينة. فتيق: ساطع الرائحة.

(٤) غليل: شدة العطش وحرارته.

واخْصُصْ بتَرْدَادِ السلام ضَريحَهُ	فى كلِّ شارقةٍ وكلِّ أصيلِ[١]
قمرٌ لـه هضباتُ مكةَ مطلَعٌ	والروضةُ الفَيْحاءُ أُفْقُ أفولِ[٢]
جاءتْ نعوتُ كمالِهِ منصوصةً	فى الذِّكرِ والتوراةِ والإنجيلِ
هذا الفَخارُ ومن يكنْ ذا وصْفُهُ	فالمدحُ فيه كقطرةٍ فى النِّيلِ

وهو يطلب من صاحبه أن يعيد الحديث مرارًا وتكرارًا عن خير رسول ومبعوث أهدى إلى البشرية، وأن يملأ المسامع بحديثه الطيب الذكىّ فإن فيه شفاء من حرارة كل ظمأ شديد، وأن يدأب ويجد فى الصلاة والسلام على الرسول اتباعا لهدى القرآن القائل: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسليما﴾، ويقول لصاحبه خُصَّ بترداد السلام وتكراره قبرَه كل صباح وكل مساء، وإنه لقمر بدر طلع من هضبات مكة وأفقها، وأفل أو غرب فى أفق يثرب فى الروضة الفيحاء ذات الشذى العطر، ويذكر أن نعوت كماله نصَّ عليها التنزيل كما جاء بآية سورة القلم فى خطابه ﷺ: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ كما نصَّت عليها التوراة والإنجيل وكما جاء بآية سورة الأعراف السالفة فى تعليقنا على بعض أبيات عبدالله الشقراطسى. ومضى ابن السماط فى القصيدة يعدد شمائله الرفيعة وبعض معجزاته، وقال هذا هو الفخر الحقيقى ومن يكن هذا وصفه فالمدح فيه كقطرة -حقا- فى نهر النيل. ونبويات ابن السماط تتميز بلغة سلسة عذبة منتهى العذوبة والسلاسة.

---

(١) الأصيل: وقت اصفرار الشمس قبيل الغروب.

(٢) الروضة الفيحاء: لعله يشير إلى قول الرسول ﷺ ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة.

الفصل السادس

النثر وكتّابه

١

الخطب والوصايا

معروف أن الإسلام فرض فى صلاة الجمعة الأسبوعية والعيدين: الفطر والأضحى خطبتين للوعظ والنصح للمسلمين، وظل يتولى ذلك فى تونس وإقليمها كبار الفقهاء الوعاظ من علمائها الأبرار، غير أنه لم يصلنا من هذه الخطب ما نستطيع به الحديث عنها وعرض بعض نصوصها. وطبيعى أن يكون لولاتها فى القيروان وقادتها فى الحروب أو على الأقل لبعضهم خطب من حين إلى آخر، وأقدم خطبة وصلتنا عن ولاتها خطبة موسى بن نصير التى خطبها بجامع القيروان حين دخلها سنة ٨٥ فى أول ولايته على إفريقية وفيها يقول[١]:

«أيها الناس! إنما كان قبلى على إفريقية أحد رجلين: سالم يحب العافية ويرضى بالدون من المعطية، ويكره أن يُكْلَم[٢] ويحب أن يَسْلم، أو رجل قليل المعرفة راض بالهُونى، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السَّهر، وأحسن النظر، وخاض الغُمَر[٣] وسمتْ همته، ولم يرض بالدون من المَغْنم، لينجو ويسلم، دونَ أنْ يَكْلَم أو يُكْلم.. إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذرا، وإن نُكب أظهر جلادة وصبرا.. وبعد فإن من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوًّا منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويُدَلّ منه على العَوْرة، ويكون عونا عليه عند النكبة، وأيْمُ الله لا أريم[٤] هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويُذلّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو أجمعها، أو يحكم الله لى، وهو خير الحاكمين».

وبدأ موسى بن نصير بالجيوب فى الإقليم التونسى مثل جبل زغوان، ثم أخذ يمد بفتوحه العظيمة حتى دان له المغرب جميعه، وكان شديد الطموح فمدَّ بصره وراء المغرب إلى شبه جزيرة

---

(١) تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٢٦.

(٢) يكلم: يجرح.

(٣) الغُمر: الشدائد.

(٤) أريم: أترك.

إيبيريا وأرسل إليها طارق بن زياد وتبعه، وأتم فتحها ناشرا فيها الإسلام، كما عمل على نشره فى ديار المغرب من برقة إلى المحيط، وافتتح له إقليما كبيرا فى أوربا، ولم يترك قلعة ولا حصنا لا فى المغرب وحدها كما قال فى خطبته بل أيضا فى إيبيريا مما جعله بحق من أكبر قواد العرب على مر التاريخ. ومن كبار القواد فى الإقليم التونسى بعده أسدبن الفرات أمير الجيش الفاتح لصقلية سنة٢١٢هـ/٨٢٧م وحين دقت الطبول والبوقات ونشرت الألوية واستعدت السفن لمغادرة ميناء سوسة للفتح تلفت حوله وخطب الجنود، وكان من قوله[١]: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أيها الناس! ماوَلِىَ لى أب ولا جد ولايةً قط، ولا رأى أحد من سلفى هذا قط، وما رأيتُ ما ترون إلا بالأقلام، فأَجْهِدوا أنفسكم، وأتْعِبوا أبدانكم فى طلب العلم وتدوينه، وثابروا عليه تنالوا به الدنيا والآخرة».

وكان أسد شيخ فقهاء المالكية فى القيروان، واختاره الأمير زيادة الله الأغلبى لقيادة الجيش، وهو ينصح بالمثابرة فى العلم وتدوينه، فإن من يثابر فى تحصيله ويسهر الليالى يحظى بكل ما يتمناه، وقد مضى حين أرسى أسطوله على شواطىء صقلية يفتح المدن والقلاع واتجه إلى قاعدتها الكبرى: «سرقوسة» فى شرقيها، وحاصرها واستشهد فى حصارها ودُفن تحت أسوارها، وتمّ فتح جميع مدنها بعده.

ومن المؤكد أن خطبا كثيرة ألقاها حكام الإقليم التونسى فى أول حكمهم -وربما فى أثنائه- ولكن الكتب التاريخية والأدبية لم تحتفظ بها، وأيضا لابد أن كثيرا من الوصايا فى الدول التى حكمت الإقليم التونسى أوصى بها الآباء الأبناء من بعدهم سقطت من يد الزمن فيما عدا وصية أبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية لابنه وولى عهده المستنصر، وفيها يقول[٢]:

«اعلمْ - سدَّدك الله وأرشدك، وهَداك لما يُرْضيك وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمونَ السَّريرة - أن أول ما يجب على من استَرْعاه الله فى خلقه، وجعله مسئولا عن رعيَّته فى جُلّ أمرهم ودُقِّه[٣] أن يقدِّم رضا الله فى كل أمر يحاوله.. واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقَصُر عن مقاومته رجالُه، فمفتاحه الصبر والحَزَامة[٤] وأخذ الرأى من عقلاء الدولة ورؤسائها، وذوى التجارب من نُبهائها، ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه.. ولا تسمع أقوال الغالطين المغلِّطين بأنك أعظم الناس قدرا، وأكثرهم بَذْلا، وأحسنهم سيرا، وأجملهم صبرا، فذاك غرور وبُهْتان وزُور.. وعليك بتفقد أحوال رعيَّتك، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحدا فيهم، ومهما دعيتَ لكشف ملمَّة فاكشفها عنهم، ولا تراعِ فيهم كبيرا ولا صغيرا إذا عُدل عن الحق،

---

(١) الحلل السندسية ٣/٧٥٣.
(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٨٧.
(٣) دقه: دقيقه.
(٤) الحزامة: الحزم.

ولا تقتصر على شخص واحد فى رَفْع مسائل الرعيَّة والمتظلمين، ولا تقفْ عند مُراده فيهم، واتخذ ثقاتٍ صادقين مصدِّقين لهم فى جانب الله أوفر نصيب».

والوصية طويلة، وهى أشبه بدستور يضعه لولى عهده، ليتمسَّك به فى حكمه من بعده، وواضح أنه يطلب إليه أن يكون محمود السيرة وأن يجعل رضا الله نصب عينيه فى تدبير أمور رعيته وإذا نزلت به شدة استعان بالصبر والحزم وبرؤساء الدولة ونبهائها المجربين وعمل بمشورتهم ونصيحتهم، ويحذِّره من الاستماع إلى من يتملقونه فى حاشيته زورا وبهتانا ابتغاء القربى إليه والزلفى لديه، والحاكم الحصيف يبعد عنه هؤلاء المنافقين المرائين. ويوصيه بتفقد أحوال الرعية وأن لا يغفل عن مصالحها ولا يتسامح مع من يعتدى عليها ويسارع إلى كشف كل ملمة تتعرض لها، ويأخذ على يد كل ظالم، ولا يقتصر فى رفع مسائل الرعية إليه على شخص بعينه خشية أن يكون مغرضا فيما يعرض عليه، لذلك ينبغى أن يشرك معه آخر أو آخرين، حتى لا يتعرض فى فهم هذه المسائل لغش أو خديعة، وينبغى أن تكون حاشيته مؤلفة من ثقات صادقين لا يحوم حولهم شك أو ريبة.

ونرى ابن خلدون حين نزل القاهرة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٤م يجلس للتدريس بالجامع الأزهر ويتصل بالسلطان المملوكى برقوق فيكرمه ويوفر له الراتب شأنه مع أهل العلم، ويتوفى البساطى أستاذ المدرسة القمحية المالكية، فيعينه مكانه فى شهر المحرم سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م ونراه فى يوم جلوسه للتدريس بها يخطب خطبة طويلة يستهلها بالحمد لله مطيلا فى نعوته القدسية كما يطيل فى الصلاة على الرسول والرضا عن آله وصحبه، ويتحدث عن الملة الإسلامية وانتصار أهلها على الفرس والروم وفتوحهم العظيمة، ويشيد طويلا بملوكها وبدولة المماليك ونصرتهم للإسلام وإنشائهم للمدارس وتعميرهم للمساجد وعنايتهم بالعلم والعلماء ويشيد بالسلطان برقوق وأعماله وأفضاله عليه. وخلت وظيفة أستاذ الحديث فى مدرسة صرغتمش بجوار جامع ابن طولون، فولاه برقوق تلك الوظيفة فاختار كتاب الموطأ للإمام مالك ليحدث به للطلاب فى شهر المحرم سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وحين جلس للتدريس بها ألقى خطبة طويلة، وبعد حمد الله فيها والصلاة على رسوله والثناء على السلطان برقوق قال إنه قرَّر للقراءة فى دروسه كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس لأنه من أصول السنن وأمهات كتب الحديث، وأفاض فى الحديث عن مالك ونشأته وسيرته وتأليفه لكتابه الموطأ، ثم أخذ يعدِّد الطرق لرواية تلامذة مالك عنه الكتاب، وانتقل إلى بيان سنده للكتاب والشيوخ الذين أخذه عنهم بتونس والأندلس والمغرب فى بلدانه المختلفة، ويذكر مع كل طائفة منهم شيوخهم وسندهم فى الرواية، ويضيف طرقا أخرى، مما جعل سامعيه فى هذا المجلس يرمقونه بالتجلة إلى أبعد مدى. وإنما أطلت فى بيان ذلك لأدل على أن علماء تونس - فيما يبدو - كانوا يأخذون فى

درسهم الأول بجامع الزيتونة بهذا التقليد من الخطبة الطويلة عن الكتاب الذى سيدرسونه للطلاب، وإن لم تصلنا خطبهم العلمية كما وصلتنا خطب ابن خلدون، إذ سجلها بنفسه فى ترجمته[١] عن حياته، ويقول إنه أعدَّها، وهى مكتوبة بأسلوب أدبى مسجوع بليغ.

٢

الرسائل الديوانية

عرفت القيروان الدواوين منذ أنشأها فيها واليها حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ أقام بجانب دار الإمارة ديوانا للجند وديوانا للخراج وديوانا للرسائل على شاكلة دواوين الخلافة فى دمشق، غير أنا لا نسمع عن كاتب كبير تولى ديوان الرسائل قبل خالد بن ربيعة كاتب عبد الرحمن بن حبيب الوالى فى القيروان من قبل مروان بن محمد، ويذكر البلاذرى أنه كانت بينه وبين عبد الحميد الكاتب المشهور كاتب مروان بن محمد مودة ومكاتبة، وأنه - بفضل هذه المودة - أقرَّ الخليفة عبد الرحمن بن حبيب على ولاية القيروان[٢]، ويذكر ابن النديم فى الفهرست خالدا بين الكُتّاب قائلا: «خالد بن ربيعة الإفريقى مترسل بليغ نشأ فى الدواوين، وله رسائل مجموعة فى الأدب نحو مائتى ورقة[٣]».

وجميع رسائل خالد بن ربيعة سقطت من يد الزمن وسقط معها جميع الرسائل الديوانية فى القيروان إلى أن نلتقى بإبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية ونراه يتبادل مع خُرَيْش الكندى أحد قواد الجند الثائر عليه بتونس سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م رسالتين أولاهما لخريش يتهدَّده فيها ويطلب منه طاعته له، ويرد عليه إبراهيم بن الأغلب برسالة يقول فيها[٤]:

«من إبراهيم بن الأغلب إلى خُرَيْش رأس الضلال سلامٌ على من اتبع الهُدَى أما بعد فإن مثلك مثل البعوضة التى قالت للنخلة وسقطت عليها: استمسكى فإنى أريد الطَّيران، فقالت النخلة: ما شعرت بسقوطك فَيَكْرُبنى طيرانك».

ولا نعرف هل كتب إبراهيم بن الأغلب هذه الرسالة بنفسه أو كتبها له أحد كتاب دواوينه وتُعْنَى الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) بكتاب دواوينها وتأخذ فى النهوض بها، وممن اشتهروا

---

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (طبع القاهرة) ص٢٨٠ وما بعدها.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع القاهرة) ص٢٤٠.

(٣) الفهرست (طبع القاهرة) ص١٧٧.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٤٢.

من كتّابها أبو العباس البريدى محمد بن حيون رئيس ديوان الإنشاء لعهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ). وقدم على إبراهيم من بغداد أبو اليُسْر الشيبانى إبراهيم بن محمد، وكان قد غضب على البريدى فأقامه مقامه على ديوان الإنشاء بعاصمته «رقّادة» وهو أهم كتاب هذه الدولة وسنخصه بكلمة. وكانت الدولة الصنهاجية تعنى بدواوينها ورأس ديوان الإنشاء بها لمدة ربع قرن الكاتب الرقيق القيروانى، كما رأسه على بن أبى الرجال، وهما من الكتاب البلغاء، غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ ببعض ما دبجاه من الرسائل. ومع ذلك فإن أمير المهدية الحسن حفيد تميم بن المعز حين هزم أسطول الملك روجار الثانى أمام عاصمته سنة ٥١٧ كتب إلى سائر الجهات كتبا منها كتاب يقول فى بعض فصوله[١]: «إن صاحب صقلّية لَجَّ فى طغيان غيِّه، واستمر على عدوانه وبَغْيه، وحمله سوءُ تدبيره، وفسادُ تقديره، على اهتضام جانب الإسلام، وتوهَّم أن ذلك سهلُ الملتمس قريبُ المرام، فاستجاش وحشَد، واستغزر واستمدَّ، ولما استتبَّتْ فى ظنه أموره، وكمل تدبيره، الذى كان فيه تدميره، سيَّر أسطولَه نحو المهديَّة - حماها الله - فى نحو ثلاثمائة مركب، حُمل على ظهرها ثلاثون ألف راكب، وزُهاءَ ألف فارس وكان إقلاعه فى طالعٍ مقارن للنحوس، قاضٍ عليه بإتلاف الأموال والنفوس، فمن أول ما أنشأه اللَّه فيه من صنْعه الجميل، وأظهره من عنايته التى لا يُؤدَّى حقُّها بغير الشكر الجزيل، أنْ أرسل عليهم ريحا صيَّرت جميعهم إلى التَّبار[٢]، ونابت فى إهلاكهم مناب زُرْق الأسنَّة وبيض الشِّفار. واستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا فأقبلوا أفواجا أفواجا، وجاءوا مجىء السيل يحتلج[٣] اعتلاجا، ويتدفق أمواجا، وكلهم على نيَّات فى الجهاد خالصة، وعزائم غير راهبة من مواقف الموت ولا ناكصة، ووصل الأسطول المخذول بمن أسلمه السُّوْقُ إلى حد الحسام، وتخطَّاه الغرق من الحِمام إلى الحِمام[٤]، ونزلوا على عشرة أميال من المهدية بجزيرة هنالك فتسرَّع إليهم من جُنْدنا ومن انضاف إليهم من العرب المنجدة لنا طائفة أوسعت أعداء الله طعنا وضربا، وملأت قلوبهم خَوْفا ورُعْبا. فلما عاينوا ما نزل بهم، أنزلوا عن ظهور مراكبهم، ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، وكانت نحو خمسمائة فرس.. فأكذب الله ظنونهم، وخيَّبَ آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم.. فولوا أدبارهم يرون الهزيمة غنيمة، والهرب غلبة، وتركوا كثيرا من خيلهم وأسلحتهم نهبا مقتسما، وفَيْئًا[٥] مغتنما».

ومضى الكتاب يذكر أن الجيش النورمانى كان قد استولى فى أول نزوله على قصر الديماس بين المنستير والمهدية، وكانوا قد أنزلوا به مائة منهم فاستؤصلوا عن آخرهم. والكتاب يتميز

(١) الحلل السندسية ٢/٤٧٢.
(٢) التبار: الهلاك.
(٣) يعتلج: يجتمع.
(٤) الحمام: الموت.
(٥) فيئا: مغنما.

بألفاظ منتخبة مختارة، وليس فيها غريب مهجور، والأسلوب فيه مسجوع، ويطرد في يسر، مما يدل على ما حازته كتابة الرسائل الديوانية في العهد الصنهاجي من تقدم ورقي.

ونمضي إلى عصر الدولة الحفصية وتحدث نهضة حقيقية في ديوان الإنشاء بفضل من عمل فيه من كبار الكتاب الأندلسيين المهاجرين إلى تونس من أمثال ابن الأبّار ومحمد بن الحسين بن أبي الحسين وزير مؤسس الدولة أبي زكريا وابنه المستنصر وأيضا بفضل طبقة بارعة من الكتاب التونسيين أمثال أبي العباس أحمد بن إبراهيم الغساني المتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وقد جُمعت له خِطَّة العلامة وخطة الإنشاء وابن الحَبَّاب محمد بن يحيى المُعافري وأبي بكر بن خلدون وله كتاب في النظم الحفصية لا يزال مخطوطا وفي معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مخطوطة منه، وفي الورقة رقم ٥٣ يتحدث عن طريقة المخاطبات الصادرة عن الخليفة الحفصي قائلا: «في مخاطبة من الأمير الأعظم إلى غيره تقول: من فلان باللقب: أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وتعدُّ آباءه الخلفاء إذا لم تذكر اللقب، فإن ذكرته جعلته جملة، وذكرُ اللقبِ أحسن في الحالتين، ثم تقول أيَّدهم الله بنصره وأمدَّهم بمعونته إلى الشيخ أبي فلان أو إلى أبي فلان أو إلى الأشياخ والأعيان والكافة من بني فلان أدام الله كرامتهم وتوفيقهم بتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله. وبعد تمام الصَّدْر تكون الوصية بتقوى الله وبما يجب. هذا إذا كان كتابا، وإذا كان صَكًّا، ويسمى الآن ظهيرا فلا يكون فيه صدر ولا وصية ولا اسم المكان الذي كُتب منه».

وكان أبو بكر بن خلدون يعمل في دواوين أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية. ونرى القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ يؤكد استمرار هذا التقليد في الكتابة الديوانية التونسية حتى عصره إذ يقول في كتابه صبح الأعشى عن رسم المكاتبة الواردة إلى القاهرة عن صاحب تونس: «عادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ من عبد الله الفلاني مع ذكر لقب الخلافة: أمير المؤمنين بن فلان، ويقال في كل أب من آبائه: أمير المؤمنين إن كان قد وَلِيَ الخلافة ويدعى له. إلى أخينا فلان، ويُوَّقِّ بالسلام والتحية، ثم يتخلَّص بالبعديَّة إلى المقصد ويختم الكتاب[1]». ويورد القلقشندي عقب ذلك مباشرة رسالة من الخليفة الحفصي المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله الحفصي (٧٧٢ - ٧٩٦هـ) إلى السلطان برقوق يهنئه فيها باسترداده عرش سلطنته سنة ٧٩١ وهي تستهل بهذه الصورة:

«من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله ابن مولانا الأمير أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الإسلام، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام، وغضَّ عن جانب عِزِّه عيونَ حوادث الأيام، إلى أخينا الذي لم نزل

---

(١) صبح الأعشى ٧٩/٨.

نشاهد من إخائه الكريم، فى ذات الربِّ الرحيم، قبلةَ صفاء لم تغيِّرها يَدُ بعاد ولا انتزاح، ونثابر من حفظ عهده، والقيام بحق ودِّه، على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح، ونبادر لما يبعث القلوبَ على الائتلاف، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف، وإن شحطت الدارُ وتناءت الصور والأشباح، ونعترف بما له من مزيد الإعظام بمجاورة البيت الحرام، والقيام بما هنالك من مطالع الوحى الكريم ومشاعر الصلاح، ونَجْتَلى من أنوائه الكريمة الشريفة، ومطالعه العالية المنيفة، وجوه البشائر رائعة الغرر والأوضاح.. ونبتهل إلى الله بالدعاء أن يخبرنا عنه، ويطلعنا منه على ما يقرُّ عيون الفوز ويشرح صدور النجاح، السلطان الجليل الطاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبى سعيد برقوق»

وواضح أن الكاتب الحَفْصِيّ لم يكتف فى مستهل رسالته بالأسجاع الحائية، فقد ضمن كل سجعة سجعتين داخليتين، وكأن السجع فى الرسائل الحفصية أصابه ما أصاب السجع فى الرسائل الديوانية - منذ القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى - من تطويل لتضم السجعة تحت جناحيها سجعتين داخليتين كما فى هذه القطعة من الرسالة. ويمضى فى الرسالة فيحمد الله ناظم الشمل وجابر الصَّدْع الذى قرن بالعُسْر يُسْرًا. ثم يصلى ويسلِّم على الرسول الذى صَدعت بالحقِّ آياته، وقامت بحجة دعواه معجزاته.. ويضيف الصلاة على آله وأصحابه أولياء دينه الكريم وولاته، وأنصار حزبه المفْلح وحُماته، ولُيوثُ دفاعه فى صدور الأعداء وكُماته. ويدعو الكاتب للخليفة، ويذكر للسلطان برقوق أنهم ظلوا حين عُزل عن السلطنة يدعون له أن يُرَدَّ الأمر إلى نصابه، ويُطيل فى تهنئته بنصره، ويُشيد برسالة السلطان برقوق إليه بأنه استعاد سلطانه، ويذكر انتصارًا لأسطوله أذ أغار على بعض جزر البحر المتوسط وكان صاحبها أغار على الساحل التونسى، يقول:

فلم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حَرَمَهُ وحِماه، ونَطْرق طروقَ الغارة الشَّعْواء بلادَه وقُراه، ونكتسح بأيدى الاستلاب ما جمعت بها يداه إلى أن ذاقوا من ذلك وَبال أمرهم، وتعرَّفوا عاقبة مكرهم. وكان من جرائرهم المعترضة شَجًا فى حلوق الخُطَّار[1]، ومتجشِّمى الأخطار، ورُكَّاب البحار، من الحجاج والتجَّار، جزيرة غودش[2] وبها من أعداء الله جَمٌّ كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم منن أسطولنا المنصور غِرْبانًا[3] نَعَقَتْ عليهم بالمنون، وعرَّفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون.. وسارت تحت أجنحة النجاح إليها، إلى أن رمتْ مخالبَ مَرَاسيها عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبرُّوا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بُهِتَ الذى كفر، ووَدَّ الفرارَ والحَيْنُ (الموت) يناديه

---

(١) الخطار: المتحركين بحرا.
(٢) لعلها جزيرة رودس.
(٣) غربانا: سفنا مطلية بالقار.

أين المَفَرّ. فلما قضى السيفُ منهم أو طاره، وشَفى الدينُ من دمائهم أُوارَه[١]: جمعوا منهم عددا يُنيف بعد الأربعمائة على الأربعين، وجاءوا بهم فى الأصفاد مقرَّنين، وامتلأتْ بغنائمهم - والحمد لله - أيدى المسلمين، وانقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين». وإنما ذكرنا هذه القطعة الطويلة فى ختام الرسالة لندل على براعة كاتبها وأنه لم يكن يقلّ عن كتّاب المشرق بيانًا وبلاغة. وفى ذلك مايدل على أن الكتابة الديوانية فى العهد الحفصى رقيت رقيا بعيدا وأن كتّابها لم يكونوا يقلّون عن نظرائهم فى المشرق فصاحةَ لفظٍ ورصانةً مع اصطفاء الكلام والملاءمة بين الكلمة والكلمة والسجعة والسجعة بحيث يجد القارئ لرسائلهم لذة ومتعة مع ما يجد فيها من الحقائق التاريخية كهذه الغارة على جزيرة غودش. غير أن الزمن لم يحتفظ بها جميعا، فضاعت فيما ضاع من نصوص أدبية تونسية.

٣

الرسائل الشخصية

إذا كان جمهور الرسائل الديوانية القيروانية والتونسية سقط من يد الزمن فإنه احتفظ بكثير من الرسائل الشخصية، ومن أوائل ما يلقانا منها رسالة استعطاف لداود القيروانى المتوفى حوالى سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م وكان قد تقلد ديوان الرسائل لمحمد بن مقاتل العكّىّ فلما عزل وتولى على القيروان وإفريقية مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م اختفى داود أياما وكتب - من مخبئه يستعطف ابن الأغلب - رسالة يقول فيها[٢]: «ذنبى عظيم، وخناقى ضيق، وحجتى ضعيفة، وعفوُ الأمير وطَوْلُه[٣] أعظمُ من ذلك كله، فإن تداركنى الأميرُ - أعزَّه الله - بما أُؤمِّل فذلك الذى يشبهه ويُنْسَبُ إليه وأرجوه منه، وإن يعاقبْ فبالذنب الذى اجْتَرَمْتُه[٤] وهو أحقُّ بانتشالى من زَلَّتى، وإقالتى[٥] عن عَثْرتى.. والأميرُ أولى بىَّ، وأَنْظَرُ منى لنفسى، وأعلم بما سألتهُ ورغبتُ إليه فيه عَيْنًا ويَدًا، والله ولىُّ توفيقه فيما عزم عليه من ذلك. أتمَّ الله على الأمير نعمته» فعفا عنه الأمير إبراهيم بن الأغلب وقرَّبه منه، واستكتبه، وعهد إليه فى مهماته واتخذه مستشارا فى أموره، وكان نعم الناصح له الأمين. واشتهر ابنه إبراهيم بإتقان الكتابة وعُيِّن مثل أبيه فى الدواوين الأغلبية. وإذا مضينا إلى عهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١-٢٨٩) وجدناه يسخط على كاتبه الخاص البريدى محمد بن أحمد بن حَيُّون المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ويزج

---

(١) أواره: ناره.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٤٥.
(٣) طوله: فضله.
(٤) اجترمته: اقترفته.
(٥) إقالتى: الصفح.

به فى غياهب السجون، فيرسل إليه رسالة طويلة مستعطفا، وفيها يقول[١]:

«لكرم العَفْو وعلوّ قدره وجليل خَطَره تسمّى الله عز وجلَّ به فسمّى نفسه: ﴿العفوّ الغفور﴾ والطَّبْع البشرىّ مركّبٌ على النَّقص، مقرونٌ بالزَّلل.. ولستُ - أيّد الله الأمير - ممن يدَّعى العِصْمَة والبراءةَ من الهَفْوة، ولست أُمُتُّ[٢] إليك إلا بفضلك علىّ، وإحسانك إلىّ.. وإن من غَرَس غَرْسًا فواجبٌ أن لا يجتثَّه (يقطعه) وإن أبطأ بُسُوقُه[٣] بل يمدّه بمَدِ موارده العذبة حتى تمتدَّ خيطانه[٤] وتورقَ أغصانه. أعاذك الله - بما أودعك من معالى الأخلاق - من ترك العفو عن مقرٍّ مُعْترف لا يعرف إلا فضلك، ولا يرجو إلا عدلك.. فألْحِظْنى بعين عَفْوك، وأضْفِ[٥] (أسْبغْ) علىَّ سِتْرَ نعمتك».

ويبدو أن ذنب البريدى كان كبيرا فلم يلنْ له قلب إبراهيم الثانى الأغلبى ولا صفح عنه، بل أمر بقتله وسَفْك دمه. وتكثر الرسائل الشخصية فى عصر الدولة الصنهاجية، وسنخص إبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب بكلمة عنه وعن رسائله. ونلتقى بابن شرف القيروانى المترجم له بين أصحاب المراثى للمدن والدول، وكما كان شاعرا مبدعا كان ناثرا مبدعا، وقد رحل إلى الأندلس بعد ما نزل بالقيروان من طوفان الأعراب الهلاليين، كما أسلفنا، وترجم له ابن بسام فى ذخيرته ترجمة ضافية، وذكر له فصلا من رسالة خاطب بها المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، وفيها يقول[٦]:

«كتبت وشوقى إلى شرف لُقياه، وشَبِم[٧] سقياه، شَوْقُ القارظين[٨] إلى سكون وسُكْنى، والقَيْسَيْن إلى لَيْلى ولُبْنى.. والله ببلوغ الأمل خير كفيل، والشيخ يهدمه الشتاء وقد رأيتُ طوفان قرطبة يقيم دهرا، وإنما أقام طوفان نوحٍ شهرا». ويذكر له ابن بسام فصولا نثرية يبدو أنه حبَّرها للكتَّاب كى ينتفعوا بها فى رسائلهم المختلفة فى مديح أمير أو وزير أو قائد أو قاض أو كاتب أو فقيه زاهد، من ذلك فصل يصلح أن يكتب به إلى حاكم أو وزير، وفيه يقول[٩]:

«يقدِّم الحزم، ويثنِّى بالعزم، يشاور ذوى الألباب على أن رأيه لُبـاب، يَثِبُ وثوبَ اللَّيْث،

---

(١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) القسم الثالث ص٣٠ وقارن بابن عذارى ١/١١٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٥.

(٢) أمت: أنتسب.

(٣) بسوقه: ارتفاعه.

(٤) خيطانه: فروعه.

(٥) أضف: أسبغ.

(٦) الذخيرة ١٩٣/٤.

(٧) شبم: بارد.

(٨) القارظان: جاهليان خرجا فى طلب القرظ (شجر) ولم يعودا.

(٩) الذخيرة ١٨٤/٤.

ويتدفّق دُفوقَ الغيث، ويُراوح بين العَجَل والرَّيْث، نومه غِرار[١] واضطرار، وحاجاته سِرار[٢] ثم اقتدار، لا تثبّطه الظُّلل ولا الظّلال، ولا تطَّبيه[٣] الكلل ولا يَثنيه الكلال (التعب). رأيه قَبَسُه (مصباحه) وعزمه فرسه، وبصيرته بَصَرُه، وصَدْرُه وِرْده وصَدَره[٤]».

وبهذه المقدرة الأدبية البديعة تتوالى هذه الفصول النثرية فى المديح للحكام والوزراء ورجال الدولة من قواد وقضاة وكتّاب، ويورد له ابن بسام فصولا أخرى فى الذم لا تقل عن الفصول السابقة فى روعتها الأدبية، وفى أول فصولها يقول[٥].

«فلان غَوْره أقرب قريب، وقلبه مورود القَليب[٦]، فسرائره مكشوفة، ودَخيلتُه معروفة، كتمانُه إخبار، وتدبيره إدْبار، رأيه وراء، وساحته عَراء، حِسُّه هامد، وفهمه جامد، لا يعرف الرُّشدَ من الغيِّ، ولا يفرِّق بين التَّقبيل والكَيّ، طلَلٌ بالٍ، لا يخطر على بال، الشمس عنده سُها[٧] والحُمْق نُهَى[٨]. لا يعلم راسُه، من أين أنفاسه، ولا يدرى وماغه، أين أصْداغه».

والفصل يموج كسابقه بالسجع المختار والألفاظ المنتخبة والطباقات والجناسات وناهيك بما يحمل الفصل فى سجعه من روعة، مما يزين وقعه فى الأذن والنفس، إذ ما تزال الإرنانات متصلة فى الكلام، وما يزال جرسها يمتع الأسماع والأفئدة، مع ما يبهر من الألفاظ الثلاثية التى تطير عن الأفواه فى خفة. ويلقانا بعد ابن شرف علىٌّ الحصرى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل، وقد ترجم له ابن بسام فى ذخيرته، وأورد له فصولا من بعض رسائل، استهلها بالفصل التالى له من رسالة[٩].

«السلام عليك أيها القلب الثانى، والبعيد الدانى، الراقى فى سماء المعالى، الواقى من داء الليالى، أول مَنْ عَدَدْتُ، وأفضل من أعْددت، ومَنْ لازال النسيمُ فى البُكَر والعَشِيّات، يُهْدى إليه أطيب التحيات، ومَنْ جُعِلْتُ وِقاه، ولا عدمتُ لِقاه، وإذا كان الكريم سالما، كان الزمـان مسالما».

وفى سجعه نفس العذوبة التى مرت فى سجع ابن شرف، وفيه الطباقات وكثير من الجناسات، ومع كثرتها لا يشوبها أى تكلف، وكأنه يستمدها من نبع فَيَّاض لا ينضب، وكانت قد نشبت بينه وبين ابن الطراوة النحوى الأندلسى المشهور المتوفى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م خصـومة

---

(١) غرار: قليل.

(٢) سرار: كتمان.

(٣) لا تثبطه الظلل ولا الظلال أى حياة الدعة، ومثله لا يَطَّبيه أى لا تستميله الكلل /الأستار/ أى أنه لايستهيم لحياة الدعة والخمول بل يقتحم المخاطر والمهالك، ويجد فى هذا الاقتحام متاعه.

(٤) صدره ورده وصدره كأنه النبع الذى يَرِده ويَصْدر عنه دون التماس رأى من أحد.

(٥) الذخيرة ١٨٨/٤.

(٦) القليب: البئر.

(٧) سها: نجم صغير أى أنه لا يميز.

(٨) نهى: عقل.

(٩) الذخيرة ٢٤٧/٤.

ومخاطبات نال كل منها فيها من صاحبه، ويذكر ابن بسام له فصلا من إحدى مخاطباته ورسائله إلى ابن الطراوة، وفيه يقول[١]:

«ما حياتى بين الحيّات، وثباتى فى الجميع أو الثُّبات[٢] وقد حانت وفاة الوفاء، وخانتْ صِفاتُ الصفاء، وأَرْداني[٣] الزمانُ بأردانه[٤] وأعيانى بتقلب أعْيانه. الجاهل هو الحاظى[٥] والعالم مبخوس الأحاظى[٦].. ومما أضحكنى ملءَ فِيَّ، وأطاشنى وليس الطَّيْش فِيَّ، هذا المُتَنَحْوِيّ[٧] المُتَنخويّ[٨] نظمت قصيدة سميتها سهم الشهم، وضمَّنتها مسائل لا تخفى على أولى الفهم، فما بلغَتْه حتى دَمغتْه[٩] وألقاها كأنها حية لدغته. أيها المموّه بجهله، والمدعى العلم وليس من أهله، سكرتَ فصحُوك لا يجديك.. وكأنى بمن ضمَّك قد ضامك (ظلمك)، وبمن لُمك قد لامك. وزعم هذا الأهوج الأعوج أنه لم يعرف رَسْمى، ولا سمع باسمى، كأنما وُلد بالأمس، أو بُعث من الرَّمْس (القبر)، أو عَمِيَ عن الشمس».

وكأنما بلغت القيروان فى القرن الخامس عند ابن شرف وعلى الحصرى كل ما كانت تحلم به من روعة وإبداع فى الكتابة الأدبية وأسجاعها القصيرة وألفاظها المنتخبة الرشيقة، وغضى إلى عصر الدولة الحفصية، ويُرسل أبو الفضل التِّجانى المتوفى سنة ٧١٨ رسالة إخوانية يتودد فيها إلى ابن عمه عبد الله التِّجانى صاحب الرحلة المشهورة فى أثناء رحلته بالقسم الجنوبى من الإقليم التونسى آملا فى لقاء قريب به، وفيها يقول[١٠]:

«هذا الزمن الذى أوقع رَيْبا واشتعل الرأس به شَيْبا، سرعان ما تتقهقر القواطع منهُ مُقصرة، وتمحو ليلةَ آيةُ النهار مبصرةً، وتلّقى حُبْلاه من سقط الفرقة مُضْغَة، ويرجع راجعُ الشباب صبغة الله (ومَنْ أحسنُ من الله صِبْغة) وإذ كان يعيده حاملُ كلام، ويردّه واصلُ سلام، فما ظنُّك به حين يلتقى المقيم والآيب، وتُقْبل الركائب، وتُراح من جَذْب البُرَى[١١]، ويُراح[١٢] إلى جنَّة القُرْب ونار القِرىَ[١٣] وحينئذ تتصل الأفراح، وأنشد:

مَـنْ صَـدَّ عـن نـيـرانها ... فـأنـا ابن قيس لا يـَـرَاحُ[١٤]»

والقطعة مسجوعة وتحمل كثيرا من الصور وبها طباقات وجناسات واقتباس من الذكر

---

(١) الذخيرة ٤/٢٤٩.
(٢) الثبات: الجماعات.
(٣) أرداني: أهلكني.
(٤) أردانه: أكمامه.
(٥) الحاظى: المحظوظ.
(٦) الأحاظى: المظوظ.
(٧) المتنحوى: من النحو.
(٨) المتنخوى: المتعاظم.
(٩) دمغته: آلمت دماغه.
(١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢١١.
(١١) تراح: تستريح. البرى جمع برة وهى حلقة من نحاس ونحوه توضع فى إحدى فتحتى أنف البعير لجذبه بزمام منها لتذليله.
(١٢) يراح: يرجع.
(١٣) القرى: الطعام يقدم إلى الضيف.
(١٤) يراح: فراق.

الحكيم واستشهاد ببيت سعد بن مالك فى حرب بكر وتغلب معرِّضا فيه بالحارث بن عباد حين اعتزل هذه الحرب، وهى تصوِّر براعة كاتبها الأدبية، وكان يتقلد رياسة ديوان الإنشاء أيام الخليفة الحفصى أبى يحيى زكريا المشهور باللحيانى وابنه محمد الملقَّب بأبى ضربة. ومن كتاب الرسائل الشخصية فى هذا العصر ابن خلدون، وسنخصه بكلمة. وتتكاثر الرسائل فى العصر العثمانى، من ذلك رسالة تعزية لعلى الغراب الصفاقسى يعزى صديقا له فى أمه ومن قوله فيها[1]:

«ترك القلبَ بعد المسرَّة أسيفا، وقرع الأسماعَ قَرْعًا عنيفا، ذكرُ ما أصبت به فى مبدأ لَوْحَتِك[2]، ومَنْبت دَوْحتك، ومنبع مَشْربك، ومطلع كوكبك، حيث أجابت الدواعى العُلْويَّة، إذ قالت لها ﴿ارْجعِى إلى ربك راضيةً مرضيَّة﴾.. فعزٌّ علينا - والله - هذا المصاب، وبلغنا من الحزن بهذا الرُّزْء[3] النِّصاب (الغاية).. فتأسَّ يا أخى بصبر ذوى الألباب، وادَّخر ما أصبت به عند الله ليوم الحساب، فلا يخفاكم ما أُعِدَّ للصابرين من الأجر والثواب ﴿إنما يوفَّى الصابرون أَجْرَهم بغير حساب﴾ أحسنَ الله لك بها العزاء، وجازاك الله أفضلَ الجزاء».

والتكلف واضح فى هذه الرسالة، وعلى الغراب يكثر فى كتاباته من صور التصنع المختلفة، وسنعود إلى بيان ذلك فى الحديث عن مقاماته، ولمحمد ماضور المترجم له بين شعراء الغزل رسائل شخصية متعددة، من ذلك رسالة فى تهنئة صديق بالإبلال من مرض، وفيها يقول[4]:

«سلام أعلى وأغلى، وأَجْلَى وأَحْلى، وأبقى وأَنْقَى، من سلام شائق لمشوق، ووامق لموموق، أخصُّ به حضرة الموسوم بصدق الإخاء، فى الشدة والرخاء، لازالت عيون السعادة تلاحظه، وأيادى الإيادة (التأييد) تفاوضه بمنَّة الله تعالى، أما بعد فإنى أحمد الله لى ولك على العافية الكافية، والنعمة الضافية الوافية، أمدَّها الله علينا امتداد رحمته، وأبقاها لدينا بقاء كرامته ومِنَّته».

ولغه ماضور سهلة وليس فيها لفظ غريب ولا تكلف، وهى مسجوعة، مثلها فى ذلك مثل الرسائل الشخصية فى عصرها وقبل عصرها، إذ لم يستجب الكتاب إلى دعوة ابن خلدون بتخليص الرسائل من السجع، وكأنها كانت صرخة فى فلاة، والرسالة مكتظة بالجناسات زينة الكتابات الأدبية هى وأخواتها من المحسنات البديعية. وله من رسالة يعزِّى صديقا فى رُزْء أصابه[5]:

«كتابى هذا عن نَفْس مستطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شعاره بُرَحاء (شدة) الجوى تفجعا لما فجعك، واشتراكا فى عظيم المصاب معك، وأسفا على من فقدناه فقدان

(١) انظر ديوان علی الغراب الصفاقسى ص ٣٩٣.

(٢) لوحتك: خلقتك ووجودك.

(٣) الرزء: المصيبة.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٦٣.

(٥) نفس المصدر ص٢٦٤.

السمع والبصر، ورُمينا فيه بأعظم الحوادث والغِيَر. وأي رُزْء ما أفظعه في القلوب، وأي خطب ما أشنعه في الخطوب.. وقد رماني ساعد الزمان حين رماك، وأصماني سهمُه كما أصماك.. لا أعاد الله عليك بعد هذا الخطب خطبا، ولا أرجف لك قلبا».

والاستعارات في التعزية والجناسات تخلو من التكلف، والسجع ينزلق في الرسالة - كسابقتها - عن اللسان بخفة، والألفاظ فيه متآخية كأنما بينها رحم وقرابة، لما بينها من تلاؤم في الجرس ييسِّرها في النطق على اللسان، ويزيِّنها في السمع للآذان.

٤

المقامات

فن المقامة فن عربي عباسي ابتكره بديع الزمان عارضا فيه جِبِل الأدباء السيارين المحترفين للكُدْية أو الشحاذة الأدبية عن طريق مايخلبون به الناس من فصاحتهم، وقد كتب مقاماته بأسلوب قصصي، واتخذلها جميعا راوية هو عيسى بن هشام وبطلا هو أبو الفتح الإسكندري، وعيسى يروى في كل مقامة حيلة لأبي الفتح مع شيء من حواره معه في أساليب أدبية مسجوعة بديعة. وتلقانا في القيروان وتونس رسائل أدبية يسميها أصحابها مقامات، وهي لا تقوم - كما قامت عند بديع الزمان والحريري بعده - على الكدية أو الشحاذة الأدبية، مما يجعل في تسميتها مقامات ضربا من التجوز. ومن أقدمها في القيروان رسالة نقدية لابن شرف سماها «رسائل الانتقاد» عرض فيها نحو أربعين شاعرا منذ العصر الجاهلي حتى عصره، وأتبع ذلك ببحث في سقطات عدد من الشعراء وعيوبهم. وأحكامُه على الشعراء مجملة وغير معللة غالبا، وهي بذلك ليست مقامة وإنما هي رسالة نقدية ولانسمع بعد ذلك عن عمل لقيرواني حاكي به قصص الشحاذة الأدبية عند بديع الزمان والحريري، حتى إذا كنا في العصر العثماني وجدنا غير شاعر ينسب إليه بعض المقامات، وأول ما يلقانا من ذلك ثلاث[1] مقامات للشاعر على الغراب الصفاقسي المترجم له بين شعراء المديح، وأولاها تسمى المقامة الباهية نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد الباهي في إقامه مدرسة أحدثها لمهد الأمير على باى الأول، وقد حدثه بها أبو الصلاح مسعود عن أبي الثناء محمود الذى روى له أخبار تونس مفيضا في مديحها ومديح الأمير على باى الأول. ثم يفيض في وصف المدرسة ومبانيها وغرفها وصفا مسهبا، ثم يطنب في تهنئة الشيخ الباهي وابنه بإتمام المدرسة ويختم المقامة بقصيدة في مديح الشيخ. وواضح أن هذه المقامة ليس لها من فن المقامة شيء، أما في حقيقتها فإنها رسالة تهنئة للشيخ الباهي المسماة باسمه. وسمى مقامته الثانية باسم المقامة الهندية نسبة إلى الهندى وهو التين الشوكي، وكان شخص ذمه فأخذ يبدئ ويعيد في وصفه ووصف نموه على شجره قبل قطفه والالتذاذ

(١) انظر المقامات في ديوانه ص٣٣١ وما بعدها.

بطعامه،وحاكى المقامة أبوسنان الهندى عن أبى عاصم الهندى، وليست مقامة إنما هى رسالة فى وصف التين الشوكى، ومقامته الثالثة اتخذ موضوعها عباءة كان كلف حمودة بن عطاء الله بحملها وغسلها فأبطأ بها عليه، فكتب إليه هذه المقامة مداعبا، وفيها يقول:

«المسئولُ من علىِّ همتكم وشريف حُرْمتكم أن العَباءة إذا كانت فى دائرة الوجود وعلى الوجود مشتملة، فأسرِعْ إنفاذَها على الحال اللازمة لها أو المنتقلة، وإلا فأخبرنا لنعرض عنها ونقول: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أن يبدلنا خَيْرًا منها﴾ فإن الشتاء أرسل يخبرنا بوافاته.. وهذه العباءة غاشيةٌ[1] لجميع أهل بيتنا فى البرد، كافية للجمع منهم والفَرد، ومنذ فقدت زمن ذلك الحر الكثير، لم يسألنى عنها منهم صغير ولا كبير، بل كلما أمال النوم رقابهم غلّقوا أبوابهم ﴿واسْتَغْشَوْا ثيابهم﴾ ولما أن قطّب وجه الشتاء وعَبَس، وقد أصبح أنفه يتنفّس، صاروا كلما أقبلت ليلة شاتية، تتقلّب جنوبهم فى المضاجع كلَّ ناحية، وقاموا قبل الفجر يسألوننى ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وجعلوا يتأسفون على فقرهم إليها ويقولون: ﴿يا حَسْرَتنا على ما فَرَّطْنا فيها﴾.

وليس الحديث عن هذه العباءة مقامة إنما هو رسالة أراد بها إلى الدعابة، ونراه فى هذه القطعة من الرسالة يقتبس مرارا من القرآن الكريم آيات يزين بها أسلوبه، وهو يكثر من ذلك فى مقاماته كما يكثر من التصنع لمصطلحات العروض والعلوم وخاصة النحو. وفى هذه القطعة من مصطلحاته الحالُ اللازمة والمُنتقِلة، وأيضا فإنه يكثر من التوريات، ويتكلف لذلك كله فى صور مختلفة.

وللشاعر محمد الورغى ثلاث[2] مقامات أيضا، سمى أولاها الباهية، وهى تتطابق مع المقامة الباهية لعلى الغراب فى أنها تتخذ موضوعها مديح الشيخ الباهى وابنه اسماعيل وهى بذلك مثل مقامة الغراب رسالة لا مقامة. وسمّى مقامته الثانية الورغية كتبها حين ختن على باى الثانى أولاده وأولاد أخيه محمد الرشيد، وفيها يفتخر بشعره ويضع نفسه فوق شعراء عصره، ويعارض قصيدة أحدهم ويتناولها بالنقد، وهى أيضا لا تشبه فن المقامة فى شىء إلا فى نسبتها إليه. وسمى المقامة الثالثة المقامة الخمرية كتبها حين هدم الأمير على باى الثانى الحانات فى عاصمته تونس، وجعل بطلها سعد السعود مكنيا به عن نفسه، وحاور فيها فتاة رامزا بها عن تونس، ويستهلها بقوله[2]:

«ياروواة الأخبار، وحملة القول المختار، شمل الله جمعكم بسلام، وجمع شملكم فى دار السلام[3]. خَيْرُ المتكلمين مَنْ حدَّث بما نفع، وخير السامعين من أحرز وجمع، وخير ما قيل من

---

(١) الغاشية: الغطاء.

(٢) انظر فى هذه المقامات كتاب الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٥٤ وما بعدها.

(٣) دار السلام: الجنة.

الكلم، ما يقال لقائله: سَلِمَ، فاسمعوا الآن لحديث حسن، تخيرته في سالف الزمن: كنت ممن حُبِّبَ إليه معاناة الأسفار، وخُفِّف عنه مفارقة الأوكار، ورأى أن من العجز تفضيل داره على دار، وأن من الأَسْر اتخاذ خليلة أو جار، وأن يقعد عن كَسْبٍ يحويه ليوم تظهر فيه مساويه، فشددتُ على وسطي أطماري[1]، وشمَّرت لقطع المفاوز بإزاري» ويقول إنه رأى من البلاد ألوفا، وخالط من أهلها صنوفا، حتى ألقى عصاه بتونس ويسمى فتاة فيها أعجب بها «تونس» ويجرى على لسانها بعض أحوالها ويستطرد إلى مديح حاكمها على باي الثاني ويصفها لعهده على لسان فتاته، مشيدا بها وبه قائلا إنها:

«محط الرحال، ومطمح الآمال، تجارتها نافقة، مبانيها رائقة، وسِلَعُها ثمينة، ومياهها التي عمَّت بها مَعينة، ومساجدها معمورة، وبركاتها منشورة، ومرتَّباتها لمدرسيها جارية.. وأما خراج بلاده، فقد زاد على معتاده، لكثرة العمارة، بحسن سياسة الإمارة».

وتطلب إليه الفتاة أن ينشئ قصيدة في مديح الأمير على باي الثاني لهدمه حانات العاصمة، وينظم فيه قصيدة.وواضح أن هذه المقامة مثل أختيها أشبه برسالة منها بمقامة، ونلاحظ أن لغته في مقاماته أخف وأعذب من لغة على الغراب في مقاماته. ومثل مقاماتها مقامة لحمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. ولعل فيما قدمته مايدل على أن فن المقامة لم يزدهر لا في تونس ولا في القيروان. بينما ازدهرت فنون النثر الأخرى وخاصة الرسائل الديوانية والشخصية، وحرى بنا أن نترجم لأشهر الكتاب ممن سميناهم، وهم أبو اليسر الشيباني وإبراهيم الحصري وابن خلدون.

٥

كبار الكتاب

أبو اليسر[2] الشيباني

هو إبراهيم بن محمد الشيباني ولد سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م ببغداد وبها المنشأ والمربى واختلف إلى حلقات شيوخها من المحدِّثين والفقهاء واللغويين أمثال المبرد والأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة، وبدا فيه ميل مبكر إلى الأدب جعله يلقى كبار الشعراء بها من أمثال البحتري وابن الرومي

(١) أطمار جمع طمر: الثوب البالي.

(٢) انظر في ترجمة أبي اليسر الشيباني التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) ١٩٠/١ والبيان المغرب لابن عذارى (طبع مكتبة صادر ببيروت) ٢٥٤/١ ونفح الطيب للمقرى وورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ٢٤٤/١.

ويحمل عنهم دواوينهم، ويبدو أنه عمل فى دواوين الدولة العباسية فترة مع سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأمثالهما. وكان فيه ميل إلى الرحلة ولعله عرف ارتحال زرياب إلى الأندلس وماحقق لنفسه من النجاح العظيم لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) فرأى أن يؤم بدوره قرطبة، وقدمها فى زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) وطوّف فى أنحاء الأندلس، ثم رأى أن يغادرها، ولا نعرف أسباب ذلك، وركب البحر إلى إفريقية، وقصد الأمير الأغلبى إبراهيم الثانى (٢٦١-٢٨٩هـ) فلقيه لقاء حسنا، وعمل بدواوينه ولم يلبث أن اتخذه رئيسا لديوان الرسائل لم وجد عنده من الأدب الرفيع والترسل البليغ والشعر الرائق مع حصافة الفكر ومكارم الأخلاق، ويبدو أنه هو الذى دفع إبراهيم الثانى إلى تأسيس بيت الحكمة فى عاصمته رقادة، حتى إذا تولى زيادة الله الثالث عهد به إليه مع رياسته لديوان الانشاء. ويقول الكاتب الرقيق مؤرخ القيروان المشهور إنه هو الذى أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وأخبارهم، واستمرت له منزلته الرفيعة عند الأغالبة حتى إذا انتهت دولتهم سنة ٢٩٦ وخلفتها فى إفريقية الدولة الفاطمية أقرَّه عبيد الله المهدى فى عمله مستعينا به فى توطيد حكمه، ولم يلبث أن توفى سنة ٢٩٨هـ/٩١١م بعد أن لقن ابنه وعددا من أبناء رقادة والقيروان أصول الكتابة الديوانية. ويذكر من ترجموا له مؤلفات لغوية وأدبية مختلفة، منها: سراج الهدى فى معانى القرآن وإعرابه ومشكله، ومسند فى الحديث، وكتاب لقط المرجان على شاكلة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ويقال إنه كان أكبر منه حجما. وخلّف بجانب ذلك مجموعة من الرسائل النثرية البليغة، واتخذ لبعضها أسماء مثل المرصَّعة والمدبَّجة والوحيدة والمؤنسة. وهو صاحب الرسالة العذراء التى نسبها محمد كرد على إلى إبراهيم بن المدبر فى كتاب رسائل البلغاء خطأ، وفى كتاب صبح الأعشى نصوص منها منسوبة إلى أبى اليسر مما يؤكد نسبتها إليه كما فى كتاب العصر العباسى الثانى ص٥٢١ وأشار إلى هذه النسبة الدكتور محمد طه الحاجرى فى كتابه دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية فى المغرب ص١٠٧ ووثق نسبتها إلى أبى اليسر الدكتور محمود مكى فى بحث قدمه إلى المجمع اللغوى.

والرسالة طويلة وتعرض بدقة موازين البلاغة وأدوات الكتابة، وهى - فى رأينا - أول رسالة عرضت فى تفصيل صناعة الكتابة الديوانية، ويذكر فى مطلعها أن شخصا طلب إليه أن يعرفه بآداب الكتّاب، ويطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء ودراسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعانى العجم وأمثالهم ورسائلهم وعهودهم، مع التزود بالنحو والصرف واللغة والفقه. ويقول إن من يريد التفوق فى صناعة الكتابة ينبغى أن يحسن اقتباس آى القرآن الكريم ووضعها بدقة فى مواضعها وكذلك الأمثال والأشعار. ونشعر أنه يستمد من الجاحظ

كثيرا من أفكاره عن الكتابة الأدبية. وقد طالب - كما طالب الجاحظ من قبله - بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس، وبالمشاكلة بين الألفاظ والمعاني حتى توضع الألفاظ في مواضعها. ونراه لا يرتضي - مستضيئا بابن قتيبة - عبارات في الدعاء مثل: «أبقاك الله طويلا» فخير منها «أطال الله بقاءك» إذ العبارة الثانية في رأيه أرجح وزنا وأنبه قدرا. ويطلب إلى الكاتب أن لا يستعمل الدعاء: «جُعلت فداك» لأنه ابتذل حتى مجّته الأفواه، كما يطلب إليه أن يعرف لكل كلمة مكانها. ويضرب مثلا لتوضيح رأيه هو أن شخصا كتب إلى داود بن خلف الأصفهاني صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر هذه العبارة: «وإن قال كذا فقد خرج عن الملة، والحمد لله» فقال له داود متعجبا من وضع الحمد في عبارته: «تحمد الله على أن تخرج امرءا مسلما من الإسلام، هذا موضع استرجاع وللحمد مكان يليق به، وإنما يقال في المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويقول أبو اليسر إنه يوضع مع ذكر الشكوى مثل: «والله المستعان» ومع ذكر البلوى: «نسأل الله صرف السوء» ومع ذكر النعم: «الحمد لله».

ويستضيء بالجاحظ في النهي عن الايجاز المفرط في الرسائل والألفاظ المشتركة والمبهمة، ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث يشير الكاتب في صدرها إلى المراد منها. ويفيض في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بريه، ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطيِّها ويلفت إلى كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قيل: لكذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كان الباقي أقل من النصف قيل: لكذا ليلة بقيت. ويعود إلى الحديث عن وضع الألفاظ في مواطنها بكل دقة وينهى من ليست له موهبة في الكتابة عن الانتظام في هذه الصناعة.

وينقل عن الجاحظ إعجابه بالكتاب إذ التمسوا من الالفاظ ما ليس متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا، ويبين أهمية الرسائل المحبرة تحبيرا جيدا في استنزال الجبابرة وأنها قد تصنع مالاتصنعه الجيوش اللجبة، وينقل عن البيان والتبيين للجاحظ نقولا كثيرة مثل تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة والصحيفة التي دوّنها عن الهنود في البلاغة، وأيضا ما سجله الجاحظ عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين. وتأثير الجاحظ وابن قتيبة واضح في الرسالة، وللجاحظ النصيب الأوفر. ولعل في هذا التلخيص المجمل إجمالا شديدا للرسالة العذراء لأبي اليسر الشيباني ما يوضح كيف أنه عني عناية واسعة بنقل تقاليد الكتابة في بغداد إلى إفريقية كما عني زرياب قبله بنقل تقاليد الغناء البغدادي إلى الأندلس، وبدون ريب يفتتح أبو اليسر الشيباني في إفريقية للكتابة الديوانية عصرا جديدا بأكمله.

إبراهيم[١] الحُصْرى

هو أبو إسحق إبراهيم بن على المشهور بالحُصْرىّ نسبة إلى قرية بحذاء القيروان اسمها الحُصْر، قال ابن رشيق فى التعريف به إنه «نشأ على الوراقة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزيق جامع القيروان فكان الجامع بيته وخزانته، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه. ونظر فى النحو والعروض. ولزمه شبان القيروان، وأخذ فى تأليف الأخبار وصنعة الأشعار، مما قرَّبه إلى قلوبهم، فرأس عندهم، وشَرُف لديهم. ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها وانثالت (انهالت) الصلات عليه، مات بالمنصورة (بالقرب من القيروان) سنة ٤١٣ وقد جاوز الأشدَّ. وكان شاعرا نقادا عالما بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب فى الاستعارة تشبُّها بأبى تمام فى أشعاره، وتتبعا لآثاره، وعنده من الطبع مالو أرسله على سجيته لجرى جَرْىَ الماء، ورقَّ رقة الهواء». ويتبع ابن رشيق فى الثناء عليه ابنُ بسام فى الذخيرة قائلا إنه كان صدر النَّدىّ ونكتة الخبر الجلىّ، وديوان اللسان العربى، راضَ صعابه، وسلك أوديته وشعابه، وجمع أشتاته وأحيا مواته». وللحصرى مؤلفات أدبية بديعة، أهمها زهر الآداب وثمر الألباب المنشور فى أربع مجلدات، عارض به كتاب البيان والتبيين للجاحظ كما يقول ابن بسام «وما يقصر عنه مداه، ولا قصَّرت خطاه، ولم يورد فيه كلام العرب كما صنع الجاحظ، وإنما أورد روائع العباسيين من الشعراء والكتاب حتى عصره، وكاد لا يترك لهم مقطوعة شعرية بديعة ولا رسالة أدبية رائعة إلا دوَّنها، يسعفه ذوق مصفى وحس دقيق وشعور رقيق، وأكثر من الاختيار لبديع الزمان فلم يترك له رسالة بليغة ولا مقامة باهرة فى رأيه إلا دونها فى كتابه، ونعجب أن يقدم لشباب الأدباء فى الإقليم التونسى مقامات بديع الزمان، ولا يصدرون عنها فى صنع مقاماتهم، غير أنهم إن كانوا عزفوا عما فى مقاماته من الكدية والشحاذة الأدبية فمما لاشك فيه أنهم مضوا يستوعبون ويتمثلون ما قدمه لهم من غذاء الشعر والنثر العباسى الرفيع، وهو غذاء ظل يحيا حياة متصلة فى جيله والأجيال بعده، ومن أجله كان الشباب فى إفريقية التونسية يلزمونه فى حياته ويلزمون آثاره بعد مماته، إذ كان له من التآليف بجانب زهر الآداب كتاب الجواهر فى الملح والنوادر وكتاب المصون والدرر المكنون وكتاب النورين أو نور الظَّرف ونور الطرف، وجميعها مختارات من رسائل وأشعار «أندى – كما يقول ابن بسام – من نسيم الأسحار، وأذكى من شميم الأزهار» وقد عرض منها فصولا بديعة. وتهمنا الفصول التى اختارها من رسائله، ومما اختاره له من رسالة إخوانية قوله:

---

(١) انظر فى ترجمة الحصرى الأنموذج ص٤٥ والذخيرة ٥٨٤/٤ ومعجم الأدباء ٩٤/٢ وابن خلكان ٥٤/١ والوافى للصفدى ٦١/٦.

«قد تقاربت الصفات، وتوازنت الذوات، وتكاشفنا لما تعارفنا، ورفعت الخلوة حجاب الاحتجاب، وحطّت الخلطة لثام الاكتتام، وكنا مع طول الامتحان والاختبار ومدة الالتباس والاختيار، نقنع من ارتفاع القناع بلمحة، ومن اتقاد الزّناد بقدحة، ونُبرز المهارات، من معارض الإشارات، وغوامض الاستعارات، فى طِراز يدق عن مَسْرى السِّحْر، ويرقّ عن مجرى الخمر.. ونختلس حركات البيان، فى سكنات الزمان، كما اختلس اللفظُ المعبِّ الكتوم، فهَلُمّ الآن إلى التصريح دون التعريض، والتصحيح دون التمْريض، وتعال نتلاطف، ونتكاشف، إذ قد لبسنا ثوب الأمان من الزمان».

والجناسات كثيرة فى الرسالة، وبالمثل الطباقات فى السطور الأخيرة، والاستعارات كثيرة كثرة مفرطة، وكأنه لم يكن يكثر من هذه المحسنات البديعية فى الشعر فحسب، كما قال ابن رشيق، بل كان أيضا يكثر منها فى النثر. ومن فصل فى الإشادة بكتابة كاتب يقول:

«إذا بَدَا القلمُ الأعلى براحتِهِ	مطرِّزًا لرداء الفخر بالظُّلَم
رأيتَ ما اسودَّ فى الأبصار أبيضَ فى	بصائرٍ لحظُها للفهم غيرُ عَم
كروضةٍ خطرتْ فى وَشْى زَهْرتها	وافترَّ نُوَّارُها عن ثغر مبتسم

وتبرَّجت فى حُلَلها وحليِّها، وابتهجتْ بِوَسْميِّها[١] ووَليِّها[١]، فاجتنيتُ ما اشتهيتُ من خُزّاماها وعَرارها[٢]، واجتليتُ ما رأيتُ من خِيريِّها وبَهارها[٣]، ولثمتُ خدود وَرْدِها وسوسانها[٤]، ورشفتُ ثغور أقاحِها وحَوْذانها[٥]، والتقطتُ مالا تُخْلِقُ[٦] الأيام بَهْجته، ولا تغيِّر الأعوامُ جِدَّته، من نَوْرٍ[٧] يُقْطَفُ بالأسماع والأبصار، وزهرٍ يُتناوَلُ بالخواطر والأفكار، وسرُحت الطَّرْف، فيما يفوت الوصف، من غرائب إبداع، وعجائب اختراع، لم تفترعها[٨] الأسماع».

والفصل ملىء بالاستعارات فسطور كتابة هذا الكاتب تطرِّز بسوادها أو ظلمها رداء فخره، وما أشبه كتاباته بروضة تتمايل أغصانها بوشى زهرها، وتتلألأ البسمات على ثغور نوارها. ويمضى فى وصف الروضة طويلا مصورًا بأزهارها كلماته، وكأنما أكبّ على خدود وردها يلثمه

---

(١) الوسمى: أول المطر. الولى: المطر بعد المطر.
(٢) الخزامى والعرار: نباتات طيبة الرائحة.
(٣) الخيرى: زهر أصفر، والبهار: زهر أبيض وهما عَطِران.
(٤) السُّوسن: زهر متعدد الألوان جذاب عطر.
(٥) أقاح جمع أقحوان: زهر عطر يشبه الثغر. والحوذان: نبات عشبى زهره طيب الرائحة.
(٦) تخلق: تبلى.
(٧) نور: زهر.
(٨) تفترعها: تتعود عليها.

وعلى ثغور أقحوانها يرشفه، وظل يقطف من زهر خواطر هذا الكاتب وأفكاره العبقة، مسرِّحا الطرف فيما يفوت الوصف. ويقول الحصرى من فصل مقذع فى الهجاء:

«هو كليل الخاطر سقيم النَّفس، صدئ القريحة عديم الحس، ذو طبع جاس[١]، وفهم قاس.. قد تعوَّد ليَّ الألسن بالسِّباب، وغمْز الأعين على الصُّحاب، واستعمل الملَق والكذاب، فهو بين جاهل متغافل، قد حُشِى قلبه رَيْنا، ومُلِىء لسانه مَيْنا[٢]، وبين مَنْ سمائمُ غمائمه تلذع، وعقارب مكايده تلْسع.. قد أسكرته خمرةُ الكبر، فخيِّل إليه أن كسرى حامل غاشيته، وأن قارون وكيل نفقته، وبلْقيس إحدى داياته».

وذمٌّ هذا الأديب المتعالى الدَّعِىّ شديد الإيلام، إذ لم يترك فيه الحصرى شيئا من نفس أو حسٍّ أو طبع أو ذهن أو خلق إلا وجرَّحه، وكأنما يريد أن يمزقه تمزيقا، ووصَفه بالكبر والتعالى حتى ليخال أن كسرى ملك الفرس من حشمه الذين يحملون من ورائه غاشيته وأن قارون صاحب الكنوز المشهور وكيل على نفقته، وأن بلقيس ملكة اليمن من حواضنه. ومضى يذكر له أنه يخال شعراء الجاهلية الكبار امرأ القيس والنابغة وزهيرا ليسوا شيئا مذكورًا بجانبه. والرسالة طويلة ونظن ظنا أن ابن زيدون استضاء بها فى رسالته الهزلية. ولعل فيما قدمت من هذه الفصول ما يشهد له بأنه كان كاتبا مبدعا إبداعا رائعًا لا بما كان يزين به كتاباته من محسنات البديع فحسب، بل أيضا بما كان ينتخب من الألفاظ مسوِّيا منها دُرَرًا متلاحقة.

ابن[٣] خلدون

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى التونسى، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م حتى إذا أيفع قرأ القرآن العظيم على أبى عبد الله بن بُرَّال، وبعد أن استظهره قرأه عليه بالقراءات السبع المشهورة وبقراءة يعقوب أحد العشرة، وعرض عليه الشاطبيتين فى القراءات وكتاب التقصِّى لأحاديث الموطأ لابن عبد البر وكتاب التسهيل فى النحو لابن مالك ومختصر ابن الحاجب فى الفقه، وفى خلال ذلك تعلَّم صناعة العربية على والده

---

(١) جاس: غليظ.

(٢) رينا: دنسا. مينا: كذبا.

(٣) انظر فى ترجمة ابن خلدون كتابه: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وهو سيرته بقلمه (طبع القاهرة) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ١٤٦/٤ والحلل السندسية ٦٦٥/٣ وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين ترجمة محمد عبد الله عنان وبرتشفيك ٤٠٥/٢ ومابعدها ودائرة المعارف الإسلامية فى ابن خلدون، وكتاب ابن خلدون: حياته وتراثه الفكرى (طبع القاهرة) وأعمال مهرجان ابن خلدون فى يناير سنة ١٩٦٢ بالقاهرة ودراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى (طبع القاهرة) وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد وافى (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢١٨.

وعلى الشيخين الحصائرى والزرْزالى، وعلى إمام العربية والأدب بتونس أبى عبد الله بن بحر وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة للأعلم وكتاب الحماسة وشعر أبى تمام وطائفة من أشعار المتنبى وسقط الزند للمعرى ولازم مجلس الحافظ ابن جابر الوادى آشىّ وسمع عليه صحيح مسلم، وكتاب الموطأ، وأجازه إجازة عامة. وأخذ الفقه عن جماعة منهم أبو القاسم محمد بن القصير قرأ عليه كتاب التهذيب للبرادعى ومختصر المدوّنة وتفقه عليه، وفى خلال ذلك كان يحضر مجلس الإمام محمد بن عبد السلام، وعليه سمع كتاب الموطأ. ولما ملك السلطان أبو الحسن المرينى تونس سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م أحضر معه جماعة كبيرة من علماء فاس، فاستمع إليهم وانتفع بهم، وبخاصة من الشيخ أبى عبد الله الأبلى التلمسانى تلميذ ابن البناء المراكشى، وعنه أخذ الأصلين والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية.

وواضح من ذلك أن ابن خلدون كان – منذ نشأ – يكبُّ على تحصيل العلوم بل يلتهمها التهاماً، وقد لفت إليه معاصريه منذ حداثته، مما جعل أبا محمد بن تافراكين المستبد بالدولة بعد رحيل السلطان أبى الحسن المرينى عن تونس يستدعيه سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م لكتابة العلامة عن الخليفة الحفصى أبى إسحق وهى وضع كلمة «الحمد لله والشكر لله» بقلم غليظ بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مكاتبة، وفى سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٣م استدعاه السلطان المرينى أبو عنان فارس لينتظم فى سلك رجال دولته، ولبَّاه، فأكرم وفادته عليه، وعهد إليه سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٦م بالكتابة والتوقيع بين يديه، ونَفِس عليه بعض من حوله هذه المكانة عند السلطان وأخذوا يدسّون عليه فاعتقله السلطان سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م وظل فى معتقله حتى توفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وردُّت إليه حريته بعد وفاته، ولحق بالسلطان أبى سالم وولاه كتابة السر والإنشاء حتى توفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ودخل بعده إلى غرناطة بالأندلس واحتفى به سلطانها ابن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب، وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير، وأرسله السلطان سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م فى سفارة إلى ملك قشتالة، ونجح فى سفارته وسرعان ما أخذ أهل السعايات يفسدون ابن الخطيب عليه، وأحسَّ منه شيئا من الانقباض لم يكن عَهِده فيه، وكانت قد وردت عليه كتب من الأمير أبى عبد الله صاحب بجاية يستدعيه، فصمم على مغادرة غرناطة وركب البحر سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م إلى بجاية، واحتفل أميرها ورجال دولته به، وخَلَع عليه، وأخذ يستعين به فى تدبير حكمه، وأسند إليه خطابة الجامع، ودرَّس للطلاب، وقُتل وخلفه أخوه، وأحسَّ بالسعايات تكثر ضده، وجاءه كتاب من السلطان أبى حمو صاحب تلمسان فى الجزائر سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م يستدعيه – وهو بمدينة بَسْكرة – لحجابته، فلبَّاه، وظل عنده حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م إذ استدعاه السلطان المرينى عبدالعزيز ليعمل معه، وارتحل إليه، غير أنه توفى قبيل قدومه عليه، ولقيه الوزير أبو بكر بن غازى لقاء كريما، وأحسَّ بدسائس تُحاك ضده من

حوله. فرحل إلى غرناطة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م رحلته الثانية، وسرعان ما أخذ أهل الدولة بفاس يدسون ضده عند سلطانها ويحثونه على إعادته إلى تلمسان، وعاد إليها وأحسَّ ريبة من أبي حمو سلطانها لتركه له وعمله مع الدولة المرينية، فخرج من تلمسان واتجه إلى أحياء أولاد عريف في البادية فأكرموه، ومكث بينهم مع أسرته أربعة أعوام، نزل فيها مع أهله بقلعة ابن سلامة في جبل بني راشد وأسكنوه فيها قصرا، اختلى فيه لوضع أصول كتابه العبر ومقدمته. وأحسَّ أنه محتاج إلى مطالعة أمهات الكتب في مكتبات الدولة الحفصية في تونس ليستعين بها في تاريخه منقحا ومصححا وارتحل في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م يريد تونس ولقي في سوسة سلطانها. فراجعه وذكر له أنه يريد الرجوع إلى تونس مسكن آبائه، فجهزه إليها، وعاد إلى عُشّه الذي درج منه، وكان السلطان قد أمر نائبه فيها أن يهيىء له منزلا كريما مع راتب كاف. وعاد السلطان الحفصي إلى عاصمته، وأخذ يستشيره في شئون الدولة، وطلب إليه الإكباب على تكملة تاريخه، وأكمله وأهدى الخزانة الحفصية الكبيرة منه نسخة، وأحسَّ بسعايات ضده عند السلطان الحفصي فقرر مغادرة تونس متعللا بالحج وركب البحر إلى الإسكندرية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م ودخل القاهرة وانهال عليه طلابها يريدون الاستماع إليه، فانتصب للتدريس بالجامع الأزهر، يقرأ لهم كتاب الأصول للإمام المصرى المالكى ابن الحاجب، وأخذت شهرته تتسع في أروقة العلماء والأمراء، ولقى السلطان المملوكى برقوق فآنسه ووفر راتبه، وولّاه التدريس في المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو أهم مدارس الفقهاء المالكية بمصر. والتمس منه ابن خلدون أن يرسل إلى الخليفة الحفصى بتونس رسالة يرجوه فيها أن يرسل إليه أسرته بحْرًا، وأرسلها، غير أنه لم يكتب له أن يرى أحدًا من أهله، فقد غرقت السفينة بكل من كان فيها، وحزن حزنًا شديدًا. وكان برقوق قلَّده قضاء القضاة المالكية سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م بالإضافة إلى تدريسه في المدرسة القمحية وكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابه في أهله وولده، وعظُم جزعه، فاعتزم الخروج من منصب القضاء والخلوص للعبادة والتدريس، وظل مترددا، حتى إذا عرف برقوق رغبته أخلاه من هذا المنصب سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م. ومكث بعد عزله منه نحو سنتين في حال رفعة وعز من تردد الطلاب والعلماء ووجوه القاهرة إليه، وتوجه إلى أداء فريضة الحج سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م فقضى النسك وعاد إلى القاهرة محفوفا بمحبة الناس وتجلّتهم له إلى أن رأى السلطان أن يقلِّده القضاء ثانية في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م وصُرف عنه في سنة ٨٠٣. ولم يلبث أن خرج مع السلطان فرج للقاء تيمور لنك وإعصاره التتارى، وهزم فرج وجيشه بالقرب من دمشق وخرج ابن خلدون مع وفد للقاء تيمور لنك والتفاوض معه في تسليم دمشق ووعظه وعظا طويلا استطاع به أن يفديها من النهب والسلب وما كان يأتى جيش تيمور لنك من الفظائع، وعُقد صلح بين السلطان فرج وتيمور لنك. وعاد ابن خلدون إلى القاهرة واستقبل بحفاوة بالغة، وأعيد إلى القضاء في نفس السنة، وصُرف في السنة التالية، وأعيد فيها،

وصرف سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م وأعيد سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م ولبَّى نداء ربه - وهو قاض - فى السنة التالية.

وقد بهر ابن خلدون معاصريه ومَنْ جاءوا بعدهم إلى اليوم بتاريخه الذى سماه: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر» وهو ثلاثة أقسام فى سبعة كتب، والكتاب الأول مقدمة فى الفلسفة الاجتماعية فى مجلد كبير، والكتاب الثانى فى أربعة مجلدات تتناول أخبار العرب فى المشرق، والكتاب الثالث فى مجلدين يتناولان تاريخ البربر، وهو حجة فى تاريخهم، وأيضا فيما كتبه عن تونس وصقلية والأندلس. والدافع الذى دفعه إلى كتابة مقدمة مسهبة لتاريخه ما لاحظه عند المؤرخين قبله من قبولهم كثيرًا من الأخبار الزائفةوالخرافية وخضوعهم للأهواء وبعض النِّحل دون تصور واضح للقوانين الاقتصادية التى تحكم المجتمعات الإنسانية، فأراد أن يقفهم على هذه القوانين ومدى سيطرتها على الظواهر الاجتماعية والسياسية، وبذلك فسر التاريخ على أسس تطور الأوضاع الاقتصادية لا على أسس تطور الأوضاع السياسية كما تصوره اليونان. والمقدمة فى ستة أبواب، أولها يتحدث عن العمران البشرى وضرورة الاجتماع الإنسانى ومن قوله فى ذلك.

«إن الاجتماع الإنسانى ضرورىٌّ، ويعبِّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنىٌّ بالطبع أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركَّبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما رُكِّب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرةٌ عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فَرْضُه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعَجْن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجَّار وفاخورى. هَبْ أنه يأكله حَبًّا من غير علاج فهو أيضا يحتاج فى تحصيله إلى أعمال أخرى أكثر من هذه: من الزراعة والحصاد والدِّراس الذى يخرج الحب من غلاف السُّنْبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن توفِّى بذلك كله أو ببعضه قدرةُ الواحد فلابُدَّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوتُ له ولهم، فيحصل بالتعاون قدرُ الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه».

ويقول إنه إذا حصل للبشر هذا الاجتماع أو المجتمع وتم لهم العمران كان لابد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وهذا الوازع إما يكون بواحد منهم له عليهم الغلبة والسلطان، وإما بشرع مفروض من عند الله يأتى به واحد

منهم متميز بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم له الحكم فيهم من غير إنكار. ويفيض فى الحديث عن العمران بالأرض وأقاليمها ومدى تأثير البيئة فى السكان سواء فى الألوان أو فى الأخلاق.

والباب الثانى يتناول العمران البدوى مع مقارنات بالعمران الحضارى وبيان أن الأمم الوحشية تتغلب على مالا يبلغها فى الوحشية من الأمم، ويقول إن الانغماس فى الترف من عوائق الملك، وإن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب، وإن تغلب العرب على الأوطان يسرع إليها بالخراب وإنهم أبعد الناس عن سياسة الملك. وظن بعض الباحثين أنه يريد العرب عامة، وهو إنما يريد الأعراب المتبدين الجفاة من أمثال بنى هلال وبنى سليم الذين سبق أن تحدثنا عنهم وعن سيولهم التى قدمت إلى إفريقية وخرّبت القيروان وغيرها من المدن فى القرن الخامس الهجرى.

والباب الثالث عن الملك وأصنافه وأنه يحصل بالعصبية وحين يسود فيه الترف يفضى إلى الهرم، ويقول إن الدول تنتقل من البداوة إلى الحضارة وإن لها أعمارًا مثل الأشخاص، ويتحدث عن الخلافة وانتقالها إلى الملك كما يتحدث عمن تستعين بهم الدول من الوزراء والحجاب والعمال والكتاب ورجال الشرطة وقواد الجيش، وعن الحروب والجباية والمكوس، ويقول إن التجارة من السلطان مفسدة للرعية، وبالمثل تفرده هو وحاشيته بأكبر نصيب من دخل الدولة. وليس شىء يؤذن بخراب العمران مثل الظلم، ولابد للعمران البشرى من سياسة عادلة ينتظم بها أمره. والباب الرابع عن البلدان والأمصار وما يجب مراعاته فى أوضاع المدن، ويقول إن الحضارة غاية العمران غير أنها تعدّ لفساده. والباب الخامس عن المعاش (الاقتصاد) ووجوهه من الكسب ويقول إنه: «إما أن يكون بالاستيلاء عليه من يد الغير على قانون متعارف ويسمى مَغْرَمًا وجباية وإما أن يكون باقتناص الحيوان الوحشى وأخذه بِرُمّته ويسمى ذلك اصطيادًا، وإما أن يكون من نتاج الحيوان الداجن كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله، وإما أن يكون من الزَّرع نباتا أو شجرًا ويسمى ذلك فلاحة أو فَلْحًا، وإما أن يكون من الأعمال الإنسانية فى مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك، وإما أن يكون من البضائع وأعدادها للأعْواض[1]، ويسمّى ذلك تجارة». ويفصّل القول عن الفلاحة وعن التجارة وأصنافها وما يحدث فيها من الاحتكار، ويقول إنه يعود على صاحبه بالتلف والخسران، وإنه هو الذى اعتبره الشارع أَخْذَ أموال الناس بالباطل. ويُفيض فى الحديث عن أمهات الصنائع ويذكر من بينها صناعة التوليد وصناعة الطب ويفصّل القول فيهما كما يفصله فى صناعة الغناء وأنغامه وآلاته وتطوره من الجاهلية إلى زمنه.

---

(١) الأعواض جمع عوض: البدل فى التجارة.

والباب السادس مقصور على العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويتحدث عن العقل التجريبي وعلوم الأنبياء وأن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب وأن العلم والتعليم طبيعيان فى العمران البشرى وأن العلوم إنما تكثر حين يكثر العمران وتعظم الحضارة، ويُفيض فى الحديث عن أصناف العلوم بادئًا بالعلوم الإسلامية: علوم القرآن من التفسير والقراءات وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله وعلم الكلام وعلم التصوف ومذاهب الوحدة والحلول فيه، ويتسع بالحديث فى علوم الأوائل من الحساب والهيئة والمنطق والطبيعيات والطب والفلاحة وعلم الإلهيات وعلم الكيمياء والفلسفة عارضا فى كل علم تاريخه وأشهر أعلامه. وينتقل إلى علوم اللسان العربى: علم النحو وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب ويقول «إنه لا موضوع له يُنْظَرُ فى إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم. ويقول إن لغة العرب من أهل الحضر والأمصار لزمنه مغايرةٌ أو مخالفة للغة مضر الفصحى، إذ اتخذ كل مِصْر وكل بلد لنفسه لغة عامية عربية مستقلة به. ويتحدث عن صناعة الشعر والنثر وأشعار العرب والأمصار لزمنه والموشحات والأزجال وغيرهما من فنون الشعر المستحدثة كالمواليا. وبذلك كله وضع ابن خلدون فى مقدمة تاريخه لأول مرة فى تاريخ الفكر الإنسانى علم الاجتماع بأركانه وقواعده وقوانينه أو كما يسميه علم العِمران البشرى سابقا بذلك علماء الغرب الذين لم يعنوا به بعده إلا بنحو أربعة قرون، وهو بحق عبقرىٌّ فَذٌّ لا لتونس وحدها بل للعرب جميعا فى كل مكان وزمان.

وواضح من حياة ابن خلدون أنه عمل بدواوين حكام مختلفين، وهو بذلك يُعَدّ من كتّاب الدواوين، وكان السجع قد شاع فى كتاباتهم بحيث لا يكتبون رسالة ديوانية إلا مسجوعة سجعا تاما، وليس ذلك فحسب، بل كانوا يضيفون إلى السجع المحسنات البديعية، ورأى أن ينحى هذه الطريقة عن كتابته الديوانية، وأن يكتب بالأسلوب المرسل محاكيا عبد الحميد الكاتب والجاحظ وأضرابهما من قدماء الكتاب البلغاء. ويصرح بذلك فى كتابه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، إذ يقول فيه: «لما استعملنى السلطان أبو سالم [المرينى] فى كتابة سِرِّه والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته كان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل دون الأسجاع لضعف انتحالها وخفاء العالى منها على أكثر الناس بخلاف الكلام المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغربا بين أهل الصناعة». ونراه فى المقدمة يهاجم الكتابة الديوانية المسجوعة بعنف فى الفصل الذى عقده لانقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر، ويقول: «استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية.. واستمروا على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية.. وهجروا المرسل وتناسوه.. ووجب أن تنزَّه المخاطبات السلطانية عنه.. والمحمود فيها الترسل، وأما إجراؤها على هذا النحو المقفى فمذموم، وما حملهم عليه إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطائهم الكلام حقَّه فى

مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل، وجبروه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب (المحسنات) البديعية». وهو يضم إلى مهاجمة الأسجاع فى المكاتبات السلطانية مهاجمة المحسنات البديعية التى أكثر منها المتأخرون، وعاد إلى هذه المهاجمة فى الفصل الذى عقده فى المقدمة بعد ذلك للمطبوع والمصنوع من الكلام، وقال إن تلك المحسنات تغلب اليوم على أهل العصر، وأصحاب الأذواق فى البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون ويعدون ذلك من القصور عن سواه وليس بين أيدينا رسائل ديوانية لابن خلدون إلا ما ذكره فى كتابه: «التعريف» من فصل فى رسالة أرسل بها إلى ملك المغرب أبى سعيد عثمان بن أحمد المرينى يخبره فيه بأحوال تيمور والتتار منذ جنكيزخان وفيه يقول:

«كنت فى العام الفارط توجهت صحبة الرِّكاب السُّلْطانى (الناصر فرج) إلى الشام عندما زحف الطُّطَر إليه من بلاد الروم (آسية الصغرى) والعراق مع مَلِكهم تمُرْو استولى على حلب وحماة وحمص وبَعْلبك وخرَّبها جميعا، وعاثت عساكره فيها بما لَم يُسْمَع أشنع منه، ونهض السلطان فى عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق وأقام فى مقابلته نحوا من شهر، ثم قفل راجعا إلى مصر، وتخلَّف الكثيرُ من أمرائه وقضاته، وكنت فى المخلَّفين، وسمعت أن سلطانهم تمُرْ سأل عنى، فلم يَسَعْنى إلا لقاؤه، فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلنى بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمتُ عنده خمسة وثلاثين يوما، أباكره وأراوحه، ثم صَرَفنى وودَّعنى على أحسن حال، ورجعتُ إلى مصر.. ثم رجع آخِرًا إلى بلاده، والأخبارُ تتصل بأنه قصد سَمَرْقَنْد، وهى كرسيُّه (عاصمة ملكه) - والقومُ فى عددٍ لا يسعه الإحصاء، إن قدَّرتُ ألفَ ألفٍ (مليون) فغير كثير، ولا تقول أنقص، وإن خيَّموا فى الأرض ملأوا السَّاح (الساحات) وإن سارت كتائبهم فى الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء، وهم فى الغارة والنهب والفتك بأهل العمران وابتلائهم بأنواع العذاب على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادى الأعراب».

والفصل - على هذه الشاكلة - مكتوب بأسلوب مرسل دون أى تكلف لسجع أو لمحسن بديعى، وكان يستخدم هذا الأسلوب فى رسائله الشخصية على نحو ما يتضح فى رسالة أرسل بها إلى لسان الدين بن الخطيب ردًا على رسائله الموشاة بالسجع والبديع، وقد دون الرسالة ورسائل ابن الخطيب فى كتابه: «التعريف» ويقول ابن خلدون إنه تفادى فى رسالته السجع خشية القصور عن مساجلة ابن الخطيب فى رسالاته المسجوعة، وهى مجاملة لابن الخطيب، والحقيقة أنه نحىَّ السجع عن كتاباته فى الرسائل الشخصية والديوانية جميعا، ودعا الكتَّاب - إلى ذلك - كما أسلفنا - فى مقدمته غير أنهم ظلوا لا يستمعون إليه فى جميع البلدان العربية، إلى أن تحررت الكتابات ديوانية وغير ديوانية من السجع والمحسنات البديعية بمصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتبعتها البلدان العربية.



القسم الثالث

صَقَلِّيَة



الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

صقلية جزيرة كبيرة تقع فى منتصف البحر المتوسط، فتقسمه إلى شطرين شرقى وغربى، ويكاد يتلاقى شماليها الشرقى بإيطاليا فبينها مضيق مسِّينى الذى لا يكاد يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات. بينما يتسع البحر المتوسط بينها وبين تونس وطرابلس حتى ليبلغ عرضه نحو مائة وعشرين كيلو متر تقريبا أو يزيد وبخاصة أمام طرابلس. وهى فى الداخل مرتفعات وهضاب ووديان، وعلى مرتفعاتها أقيمت مدنها الداخلية لتكون حصينة. وفى جنوبيها إلى الغرب مدينة جرجنت، والشاطئ الغربى والجنوبى الغربى موانيها لا تصلح للملاحة، وإذا تغلغلنا نحو الشمال الغربى وجدنا مروجا ومراعى متسعة، ونمضى نحو الشمال فنجد ثغر أومرفأ طرابنش، ونتجه غربا فى الساحل الشمالى وهو ساحل صخرى جبلى، ونلتقى بخليج تام الاستدارة، ويلقانا بعده خليج مدينة بلرْم (Palermo) عاصمة صقلية الإسلامية ولا تزال عاصمتها إلى اليوم، ووراءها تنحسر الجبال ويلقانا سهل من أخصب السهول، ونستمر فى السير على الساحل الصخرى الجبلى حتى تلقانا مسينى على مضيقها. ونسير من مدينة سينى متجهين إلى الجنوب شرقى صقلية فى ساحل جبلى صخرى ونلتقى بثغر أو مدينة طبرمين، ونمضى حتى قرب ثغر أو ميناء قطانية حيث يصبح الساحل رمليا، ويصبُّ فيه بعض الجداول. وإذا مضينا فى اتجاهنا نحو الجنوب لقينا ثغر سرقوسة الذى أنشأه اليونان، وبه ولد العالم الإغريقى الفيزيقى المشهور أرشميدس، وبها قتل سنة ٢١٢ ق.م.

وأعلى جبال صقلية جبل إتنا فى أقصى الشمال، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة متر

---

(١) انظر فى جغرافية صقلية صورة الأرض لابن حوقل ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى وكتاب المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى (طبع الجزائر) وكتاب العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس (طبع دار المعارف - القاهرة).

تقريبا، ويجلل هامته شيب أوثلج أزلى، بينما يَغْلى جوفه بنار لا تخمد أبدا، وكأنه شيخ رحيم قاس فى آن واحد، وقسوته لا توصف، إذ يظل يُلْقى بحممه مغيظا محنقا أياما، وتغطى حُمَمُهُ الأرض بطبقة خصبة. وتمتد شمالى الجزيرة سلسلة جبال من الشرق إلى الغرب، أكبر الظن أنها امتداد لجبال الأبنين فى إيطاليا وجبال الأطلس فى شمالى إفريقيا، وهى جبال صخرية جرداء عارية مما كانْ يُنْتَظَرْ لها من زينة النباتات الخضراء، وطبقتها الخارجية تتكون من حجارة كلسية وبعض أنواع الرُّخام الرفيع، ومنها تتكون بعض جبال فرعية، تنحدر صوب الجنوب ومن أهمها الجبال التى أنشئت فوقها مدينة قصريانة وسط الجزيرة، والجبال التى تتجه نحو مدينة جرجنت. وهذه الجبال غنية بالخزف والرخام والملح المعدنى والجص، وكل ذلك يكوِّن ثروة طبيعية مهمة لصقلية، ويوجد الكبريت قرب جرجنت وحول قطانية وبلرْم.

ومناخ صقلية فى جملته معتدل، وفصل الشتاء فيها ليس قارس البرد بفضل الجبال الشمالية التى تحميها منه، وهو يمتدّ فيها من شهر نوفمبر حتى شهر مارس، وفصل الصيف معتدل الطقس إلا ما يهب عليها فيه من رياح السموم التى تأتيها من إفرتقية. ويكفى لنتصور اعتدال المنجغ فيها أن درجة الحرارة فى بلرم لا ترتفع عن ٢٦ درجة صيفا ولا تهبط عن ١١ درجة شتاء، ولذلك سميت بلاد الربيع الأبدى.

واعتدال مناخها هيَّأها لأن تنمو فيها مختلف الزروع والغروس، وتكثر الأمطار فى ساحلها الغربى والشمالى وقد نقل إليها القرطاجيون القمح والزيتون والإغريق الكَرْمة، ونقل إليها العرب النخيل والليمون واللوز والفستق والتين ومختلف الأزهار، وأيضا الموز والبرتقال،، وبها بعض مراع فى سهولها هيأت لكثير من قطعان الغنم والماعز والخنازير. ويكثر فى سواحلها صيد البحر بمختلف أنواعه.

٢

التاريخ[١] القديم

استوطن صقلية فى أقدم عصورها شعب الصيقول (Les Sicules) ومنه اشتق اسمها، ومنذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد أخذ يفد عليها غزاة من الشرق أوالجنوب أوالشمال، فكانت

(١) انظر فى التاريخ القديم لصقلية كتاب تاريخ مسلمى صقلية لميخائيل أمارى: Amari: Storia Dei Musulmani Di Sicilia وكتاب المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص١٩ وما بعدها وكتاب العرب فى صقلية ص ٢٥ وما بعدها وتاريخ صقلية الإسلامية فى القسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ٤٣٥/٣ وما بعدها.

تخضع لهم بحكم أنها جزيرة صغيرة لا يمكنها مقاومة هؤلاء الغزاة. ولها قبل الفتح الإسلامى تاريخ قديم، وبعده تاريخ نورمانى سنلم بأحوال المسلمين فيه. وأول من سكنها – كما قلنا آنفا – شعب الصيقول، وكان الفينيقيون – منذ نشأتهم على صفحات التاريخ – شعبا تجاريا يجوب سواحل البحر المتوسط، ويؤسس له عليها قواعد تجارية، وقد نزلوا سواحل صقلية وأسسوا لهم فى شماليها قاعدة هى بَلَرْم. ومضت على ذلك قرون، وإذا اليونان يتبعونهم فى الاستيلاء على ساحلها الشرقى ويؤسسونهم به قاعدتين فى القرن الثامن قبل الميلاد هما سرقوسة وقطانية، وسرعان ما تحولتا مدينتين كبيرتين، وصعدوا إلى الشمال وأسسوا مدينة مسِّينى. وفى هذه الأثناء كانت دولة قرطاجة فى الشمال التونسى آخذة فى القوة ومددت ذراعها إلى صقلية تريد أن تستولى عليها من الإغريق وظلت الحرب بينها فى مدٍّ وجزر وانتصار وانهزام إلى أن استطاعت قرطاجة أن تفرض سيادتها على الجزيرة سنة ٢٦٤ قبل الميلاد. غير أن القرطاجيين لم يكادوا يحوزونها لأنفسهم حتى نشبت حروب عاتية بينهم وبين الرومان، وعبثا حاولوا إنقاذها، فغادروها سنة ٢٤٢ قبل الميلاد، وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية، وأصابها ما أصاب أهل روما منذ القرن الثالث الميلادى من التدهور والفتن والفساد الأخلاقى. ولما سقطت روما تحت أقدام المغيرين الشماليين لم تلبث أن سقطت بدورها تحت ضربات الواندال الذين استولوا على إفريقية التونسية، وقد أرهقوهم لمدة نحو قرن بالضرائب الفادحة، وأذاقوهم ضروبا من العَسْف والظلم والاستبداد لا تطاق.

وتسترجع بيزنطة فى عهد جستنيان صقلية، إذ كلَّف قائده بلزاريوس بالاستيلاء على الجزيرة من الواندال كما استولى على إفريقية الشمالية وكانت المدن خالية من حاميات واندالية، ما عدا بلرم، فقد كان بها حامية لهم، وكانت أسوارها منيعة، فقاومته فترة ثم استسلمت مثل أخواتها الصقليات، وفرحت جميعها بنزول الجيش البيزنطى فيها واستبشرت لخلاصها من ظلم الواندال وتعسفهم فى جمع الضرائب. غير أنهم لم يلبثوا أن شعروا بأنهم تخلَّصوا من ربقة عَسْف إلى ربقة عسف جديد، إذ أُصْلاهم ولاه بيزنطة طوال ثلاثة قرون عبئا ثقيلا من الضرائب الفادحة، فقد فرضوا عليهم ضريبة على الأملاك وضريبة على الرءوس وضريبة على التجارة أو الصناعة وضريبة للجيش أو ضريبة دفاع وضريبة للملاحين وضريبة للموظفين. ولم تكن الدولة البيزنطية وحدها هى التى تجبى الضرائب من صقلية، فقد كانت تجبيها معها الكنيسة: كنيسة روما وميلانو ورافنا، وكان للكنيسة الأولى الحظ الأوفر، إذ كان لها إقطاعات كثيرة موزعة حول بلرْم وقطانية وسرقوسة وجرجنت، وكان يديرها قِسِّيسان أحدهما فى بلرم والثانى فى سرقوسة. وكان همُّ كل منهما أن يجمع أكثر ما يمكن من الضرائب، وبالمثل كان وكلاء كنيستى ميلانو ورافنا، وكان يُرْسَلُ إلى روما سنويا أسطولان محمَّلان بالقمح فى الربيع وفى الخريف، وكانت تُرْسَلُ إلى رافنا سفن محملة بمئات القناطير من القمح والفواكه والخضراوات والجلود المدبوغة والحرير

والمواد الصوفية. والفلاح الصقلي يتصبب عرقا، ويجمع الضرائب وكلاء الكنائس المذكورة مرة ويجمعها وكلاء الدولة البيزنطية مرة، دون رحمة أو إشفاق. وكانت روما فى أثناء ذلك تُرْسِل إلى صقلية بكثير من العبيد، وأضافت إليهم من كانت تنفيهم من المذنبين ومقترفى الجرائم والجنود المتمردين. وكل ذلك عمل على إضعاف شخصية صقلية فى العهد البيزنطى - كما يقول أمارى - وأزهق فيها الشعور بالكرامة الإنسانية ولم يبق فيها منه بقية.

٣

الفتح[١] العربى وعهد الدولة الأغلبية

بينما هذا الظلام يطبق على صقلية ويطبق معه الضنك والضيق والإعسار إذا بالعرب يفتحون ديار إفريقية التونسية المواجهة لصقلية ويستولون على جميع بلاد المغرب، وكان طبيعيا أن يفكروا فى السيطرة على البحر المتوسط وعلى جزره: صقلية وغيرها، وتبعا لخطتهم الحربية فى التعرف على أحوال البلاد قبل غزوها نراهم يرسلون سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م حملة استطلاعية إلى صقلية بقيادة عبد الله بن قيس، وبعد تعرفه على سواحلها الجنوبية عاد إلى إفريقية التونسية، وأرسلت بعد ذلك حملات بحرية مماثلة بقيادة محمد بن أوس الأنصارى وبشر بن صفوان الكلبى، وتبعهم جميعا فى تلك الحملات سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م حبيب بن أبى عبيدة حفيد عقبة بن نافع مؤسس القيروان، واضطر إلى العودة سريعا لاضطراب الأحوال فى إفريقية التونسية ويقول ابن عذارى إن ابنه عبد الرحمن غزا بعده صقلية ثم سردانية وقاتل بها حتى صالحه أهلها. وهذه الحملات المبكرة نبّهت الدولة البيزنطية إلى أن تحسب حساب الغزو العربى المفاجىء، فأحالت صقلية إلى قاعدة حربية تمتلئ ثغورها ومدنها وقلاعها وحصونها بالعتاد الحربى الوافر.

وكان من أهم الأسباب التى أسرعت بفتح صقلية أن قائدا بيزنطيا يسمى أوفيموس (Euphemius) وتسميه المصادر العربية فيمى ثار على قسطنطين بطريق صقلية، فأمرته حكومة

---

(١) انظر فى الفتح والعهد الأغلبى البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب والمؤنس لابن أبى دينار والجزء الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس.

القسطنطينية بالقبض عليه وتعذيبه، وعلم فيمى بذلك الأمر، فرأى أن يستنجد بالأمير زيادة الله الأغلبى حاكم إفريقية التونسية ضد البطريق وحكومته، واستجاب إليه زيادة الله إذ رأى فى ذلك فرصة لا تعوَّض للاستيلاء على صقلية، فأعدَّ سريعا جيشا لفتحها، ورأى بكياسته أن يسند قيادته إلى أسد بن الفرات القاضى وشيخ فقهاء المالكية بالقيروان.

وأقلع الأسطول الأغلبى بقيادة أسد بن الفرات من ميناء سوسة فى منيصف ربيع الأول من سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان يحمل عشرة آلاف مقاتل، وأرسى بعد ثلاثة أيام على ساحل صقلية عند مدينة مازَر فى الجنوب الغربى، واستطاعوا فى وقت قصير الاستيلاء على بعض المدن والحصون الجنوبية، وتقدموا إلى الساحل الشرقى حتى حاصروا مدينة سرقوسة قاطعين نحو مائتى كيلو متر إليها، وتعززوا بمدد جديد إليهم من إفريقية. وكان أسد يباشر الحصار بنفسه ويضيِّق على المدينة، وانتشر مرض بين صفوف الجند العرى أَوْدَى بحياته العظيمة، فلبَّى داعى ربه فى ربيع الثانى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م ودُفن تحت أسوار سرقوسة. وخلفه على قيادة الجيش محمد بن أبى الجوارى، واستولى على جرجنت فى الجنوب بالإضافة إلى مازر، وأخذ يستعد للهجوم على مدينة قصريانَّة، وكانت الحملة قد أصابها عناء شديد بسبب المعارك المتصلة، وأوشكت على الانسحاب إلى إفريقية، غير أن ما نذروا أنفسهم له من الجهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام تحت راية الشيخ أسد بن الفرات كان يطرد اليأس من نفوسهم ويشدّ أزرهم إلى أبعد حد، ولم يلبث الأمل أن ملأ نفوسهم إذ رفدهم مددٌ جديد من إفريقية ومن أسطول لشرصان المجاهدتن الأندلسيين سمع بحملتهم، فجاء يؤيدهم، وتوفى قائدهم محمد بن أبى الجوارى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م فأرسل إليهم الأمير زيادة الله الأغلبى قائدا جديدًا هو زهير بن عوف، فصمم على الاتجاه إلى الشمال وغَزْو بَلرْم وحاصرها برا وبحرا وضيَّق الخناق عليها، وفى أثناء ذلك استولى على ماسينى سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م ومازال يزداد شدة فى تضييق الحصار على بلرم إلى أن استيأس منها الروم، فغادروها بحرا وبرًّا، تاركين المدينة مفتوحة أمامخجيش المسلمين فدخلها فى رجب سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م وكان بها سبعون ألفا قبل الحصار فلم يجد الجيش بها سوى ثلاثة آلاف كما يقول ابن الأثير فى تاريخه. واتخذها المسلمون هناك عاصمة لحكمهم فى الجزيرة كما كانت عاصمة لمن قبلهم، وظلت كذلك لمن بعدهم، وأخذوا فى تشييد القصور بها والمساجد والحمامات والفنادق وإقامة الأسواق بها والحدائق حولها، وحوَّلوها مركزا علميا يبث إشعاعات نوره إلى ظلمات القرون الوسطى فى أوربا.

وتوفِّى هذا القائد المجاهد العظيم زهير بن عوف سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م ووَلِى صقلية بعده أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب واهتم بالحرب البحرية ونازل سفن البيزنطيين غير مرة وانتصر عليها، بل حطمها حطما، وبذلك أصبحت للأسطول الإسلامى الصقلى سمعة كانت

تُدْخل الرعب والفزع فى قلوب الأعداء. وكانت مطامع المسلمين المجاهدين تتجه صَوْبَ إيطاليا القريبة ديارها من مسِّينى فجهز أسطولا أرسل به صوب قَلَوْرِيَّة بجنوبى إيطاليا فنزل بها الجند المسلمون ووصلوا إلى نهر البو سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م. ويتوفى أبو الأغلب سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م ويتولى صقلية العباس بن الفضل ويجهز أسطولا لغزو قَلَوْرِيَّة سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م. ويقيم بها بعض الحاميات، وخرجت مسِّينى بعون من الروم عليه فأعادها سنة ٢٤٢ وأخذ يفتح الحصون فى الداخل الواحد بعد الآخر، وفتح جفلود (شفلودى) على البحر بالشمال فى نفس السنة، وشدَّد الحصار على قصريانَّة المنيعة فى وسط الجزيرة، واستسلمت سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م بعد جهاد عنيف، وبنى العباس فيها توًّا مسجدا، ونَصَب فيه منبرا وخطب فيه الجمعة. ولعل فى ذلك دلالة واضحة على أن قواد الفتوح فى صقلية وجنودها المسلمين كانوا يعدون غزو مدنها وحصونها جهادا فى سبيل الله. وأزعج أَخْذُه لمدينة قصريانة الكبيرة المحصنة بيزنطة فأرسلت أسطولا يحمل مددا كبيرا من الرجال والمؤن إلى سرقوسة، والتقى به الأسطول الإسلامى الصقلى ونشبت بينهما معركة عنيفة انتصر فيها الأسطول الإسلامى، واستولى على مائة من سفن الأسطول البيزنطى، ولاذ الباقون بالفرار، ويقول ابن الأثير إن المسلمين لم يستشهد من جنودهم فى هذه المعركة البحرية سوى ثلاثة، وكأن الجنود البيزنطيين لم يلبثوا حين رأوا أسطول المسلمين وجنوده البُسَلاء أن ألقوا سلاحهم وسفنهم وفروا من المعركة منهزمين.

ولم يلبث هذا القائد المجاهد أن لبَّى نداء ربه سنة ٢٤٧هـ/٨٦٢م وتولاها خفاجة بن سفيان سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م ويحتل مدينة نُوطِس فى شرقى الجزيرة إلى الجنوب. وكان أهل طبرمين ينازلون المسلمين نزالا مستميتا، ورأوا أن يجنحوا إلى السلم بعد أن أعياهم القتال وطلبوا إلى القائد خفاجة أن يرسل إليهم وفدا للصلح فأرسل إليهم وفدا يفاوضهم وعلى رأسه زوجته، ومرَّ بنا فى إفريقية التونسية إلى أى حد كانت المرأة التونسية تحافظ على كرامتها ومدى ما كان لها من منزلة فى نفوس التونسيين بالقيروان وغير القيروان، وهذه إحدى نسائهم تتولى السفارة لأول مرة بين قومها وأعدائهم لتضع شروط الصلح، وهى بذلك تعد أول سفيرة عربية، واستقبلها الأعداء بحفاوة واستجابوا لما وضعته من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت السفارة نجاحا عظيما، فدخلها المسلمون صلحا. ولابن هذه السيدة محمد الذى كان يناضل نصارى صقلية نضالا عنيفا الفضل فى استيلاء المسلمين على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فإنه جهز أسطولا لفتحها ونزلها، وقضى على الحامية الرومية فيها واستولى عليها وجعلها تابعة لصقلية. ونزلتها جالية تونسية أشاعت بها لهجتها العربية، ودارت السنة فأرسلت بيزنطة أسطولا تبغى استردادها، ولم يكد يظهر له فى مياهها الأسطول الإسلامى الصقلى حتى ألقى الرعب والفزع فى قلب كلٍّ من فيه، فولَّوا على وجوههم فرارا دون أن يخوضوا معركة. وظلت مالطة تابعة لصقلية نحو مائتين وعشرين عاما إلى أن استولى عليها

النورمان مع استيلائهم على صقلية، ولغتها إلى اليوم لهجة عربية. تونسية محرفة حُرِّفت بمر الزمن، وعبثا حاولت الدول التى استولت عليها – ومعها إنجلترا – أن تترك لغتها كما تركت الإسلام وتتخذ فى ألسنتها مكانها اللغة الإيطالية أو اللغة الإنجليزية، وباءت كل هذه المحاولات فى القرون الثمانية الماضية بالفشل، مما يدل على قوة العربية وحيويتها، وأن قوما إذا اتخذوها لا يمكن أن يتحولوا عنها – مهما دخل عليها من التصحيف والتحريف خلال قرون متطاولة – إلى لغة أخرى لسلاستها وعذوبة جريانها فى الألسنة.

ويتوفى خفاجة وابنه محمد، وتؤول ولاية صقلية إلى أحمد بن عبد الله الأغلبى، وكان بطلا مقداما فصمم على فتح سرقوسة، وكانت بيزنطة لا تزال ترسل إليها بالنجدة تلو النجدة، وكلما انهزم لهم أسطول جهزوا لها أسطولا آخر، وحاصرها أحمد، واستمر الحصار تسعة أشهر من أوائل المحرم إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧ م ثم اقتحمها بمجانيقه وخَيْله وجُنْده، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت الأمرَّيْن من الجوع وَدَكِّ الأسوار وسقوط القلاع، وبعد أن لقى حتفه من المدافعين عنها أكثر من أربعة آلاف جندى بيزنطى. ووَلِىَ صقلية سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١ م محمد بن الفضل فجعل همه القضاء على معقل مهم للروم هو قلعة الملك وكان مَنْ فيه يُكثرون من الإغارة على المسلمين ويقضّون مضاجعهم، والتقى الجمعان بقرب المعقل وحمى وطيس الحرب وانجلت عن انتصار عظيم للمسلمين واندحار شديد لأعدائهم إذ قتلوا منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف ودخلوا القلعة تخفق على رءوسهم رايات النصر.

ووَلِىَ إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على صقلية، وفى أيامه سنة ٢٧٥ نشبت معركة عنيفة برًّا وبحرا بين الروم والعرب، فإن الدولة البيزنطية أرسلت بأسطول ضخم إلى صقلية، ولقيه الأسطول الإسلامى الصقلى واحتدمت المعركة، وكانت كارثة الروم هائلة وإذ قتل منهم سبعة آلاف وغرق خمسة آلاف ولاذ من كتبت له الحياة بالفرار. وانتهز المسلمون هذه الفرصة من النصر على الأسطول البيزنطى، وهاجموا قَلَوْرِيَّة فى جنوب إيطاليا تأديبا لمن يحشدهم الروم فيها لإمداد حاميات المدن والحصون التى لم يستسلم من فيها للمسلمين.

وفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م استدعى الأمير إبراهيم بن الأغلب ابنه عبدالله والى صقلية وتنازل له عن صولجان الحكم فى القيروان وإفريقية التونسية، وصمم على أن يقضى بقية أيامه مجاهدا فى صقلية، واتجه إلى سوسة فى ثوب مرقَّع علامة الزهاد، وأبحر منها على رأس جيش قوى إلى بلرم، وكان قد أعدَّ إعدادا قويا بالأسلحة والعتاد، وسار على رأسه لغزو مدينة طبرمين شرقى الجزيرة إلى الشمال أمنع المراكز التى لا تزال باقية للروم فى الجزيرة، وكانوا لا يزالون يرسلون إليها بالإمدادات. وهاجمها ودارت رَحَى الحرب عنيفة بين الفريقين. وأحسَّ شيئا من التخاذل فى صفوف جيشه لاشتداد وطيس الحرب فجمعهم، وأمر قارئا أن يقرأ عليهم بصوت مرتفع

قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثيابٌ من نار يُصَبّ من فوق رءوسهم الحَمِيم، يُصْهَرُ به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامعُ من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غَمٍّ أعيدوا فيها وذُوقوا عذابَ الحريق، إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤًا ولباسُهم فيها حرير وهُدُوا إلى الطَّيِّب من القَوْل وهُدُوا إلى صِراط الحميد﴾. ولعل فى ذلك ما يؤكِّد مرة أخرى أن غَزْوَ صقلية وفتح بلدانها إنما كان جهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف. وبمجرد أن استمع الجند إلى هذه الآيات الكريمة وارتسم أمامهم الفردوس وما أُعِدَّ فيه للمجاهدين امتلئوا حماسة وانقضُّوا على أعداء الله ودينه الحنيف، فانهزموا انهزاما ساحقا، وأصبحت مدينة طبرمين أمام جيش المسلمين مفتَّحة الأبواب ولا حامىَ ولا مدافع، وارتعدت فرائص إمبراطور بيزنطة كما رَوَى ذلك ابن الأثير وابن خلدون وأَعْلن فى القسطنطينية الحدادَ سبعة أيام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك. وسار إبراهيم بن الأغلب توا إلى مدينة رمطة آخر معاقل الروم شرقى الجزيرة جنوبى طبرمين، ففتحوا له أبوابها سريعا واستولى عليها دون قتال. ولم تكف إبراهيم بن الأغلب هذه الانتصارات، فقد ركب البحر مع جنده من مسينى إلى شبه جزيرة قَلَوْرِيّة جنوبى إيطاليا، واخترقها بجنده مستوليا فيها على كثير من الحصون، ونصب الحصارَ على قلعة كشنتة (Consenza) المنيعة شمالى قلورية وضيق عليها الحصار، غير أن مرضا ألم به فى أثناء ذلك، فأسلم روحه إلى بارئها تحت أسوار هذه القلعة، ونُقل رفاته إلى بلرم ثم نقله ابنه أبو العباس إلى القيروان.

ولعل فى كل ما قدمت ما يصوِّر الدور التاريخى المجيد الذى نهضت به الدولة الأغلبية فى القرن الثالث الهجرى الذى ظلَّ فيه صولجان الحكم بإفريقية التونسية فى يدها، فقد أضافت إلى البقاع الإسلامية جزيرتين كبيرتين: صقلية ومالطة، وظلت تجاهد فى سبيل الله بصقلية وتُعِدّ الأساطيل لمنازلة الأسطول البيزنطى وتنكِّل به وتمزِّق سفنه شر ممزق. وبدأت تلك الحرب بشارقٍ تميزها وأنها حرب جهاد ونشر للإسلام، إذ كان قائد الحملة شَيْخ الإسلام وإمام المالكية وقاضى قضاتها أسد بن الفرات، وكان يشترك فى هذا الجهاد غير واحد من أمراء الدولة الأغلبية، حتى إذا أوشكت شمس دولتهم على الغروب خلع إبراهيم بن الأغلب زىَّ الإمارة والسلطان ولبس زىَّ الزهاد المجاهدين فى سبيل الله، وأَبْلَى فى الجهاد بصقلية وقَلَوْرِيّة بلاء عظيما.

٤

العهد[1] العبيدى – عهد بنى أبى الحسين الكلبيين

(أ) العهد العبيدى

انتهى عهد الدولة الأغلبية فى القيروان وإفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وانتقلت البلاد إلى عهد جديد هو عهد الدولة العبيدية وانقسم الناس بين راضين عن العهد الشيعى الجديد وساخطين على هذا العهد وهم فقهاء أهل السنة ومن كان يجلهم من العامة، وكان لذلك تأثيره فى صقلية، وانضاف إليه أنه برزت فى نفوس كثيرين هناك فكرة الاستقلال والانفلات من التبعية الإفريقية، وأيضا فإن بعض الولاة كان يَعُدُّ صقلية كأنها كنز أُلْقِىَ إليه، وينبغى أن يأخذ لنفسه منه كلَّ ما يريد من مال وثروة، وقد تفاعلت هذه العوامل بعضها مع بعض وأدت إلى اضطراب وفتن كثيرة فى السنوات الثلاثين الأولى من حكم العبيديين لإفريقية التونسية، وأسرع عبيد الله المهدى بإرساله إلى صقلية واليا وقاضيا يحكمانها بمبادئ الفقه الشيعى ويحاولان أن ينشرا فيها الدعوة العبيدية الشيعية ، وثاروا على أول ولاته وثانيهم، وولوا عليهم من أنفسهم واليا هو أحمد بن زيادة الله ابن قَرْهَب، فاشترط عليهم أن يعلن ولاءه للدولة العباسية، وكانت عامتهم سُنِّيَّة فارتضوا ذلك وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله يضع إمارة صقلية تحت سلطانه، وخطب له وقطع خطبة المهدى الفاطمى. وأرسل إليه المقتدر بألوية سود وخِلَعٍ سود وطَوْق ذهب، وكان للمهدى العبيدى أسطول بمرسى لمطة فأحرقه وقتل قائده. وثار عليه أهل جرجنت وصقلية جميعها فحاول الهروب إلى الأندلس فأسره أهل صقلية هو وابنه وقاضيه وبعثوا بهم إلى المهدى سنة ٣٠٤ فصلبهم وانتهت بذلك حركة ابن قرهب. وأرسلت صقلية تطلب من المهدى واليا وقاضيا وأنهم فى غير حاجة إلى جند، فتنبَّه إلى ما يريدون من الاستقلال فأرسل إليهم من الكتاميين حملة تؤدِّبهم، وولَّى عليهم فى سنة ٣٠٥ سالم بن أبى راشد، وكان جبَّارا عاتيا وظالما عَسُوفًا، فأخذ يُنْزِل صُوَرًا شديدة من التنكيل لا بالأفراد فحسب، بل أيضا بالمدن، وهو تنكيل أدَّى بأهل صقلية إلى الإمعان فى مقاومته فثارت عليه جرجنت، وتبعتها بلرم،

---

(١) انظر فى العهد العبيدى وعهد بنى أبى الحسين المراجع المذكورة فى عهد الأغالبة والحلة السيراء لابن الأبار فى الخلفاء العبيدين وخليل بن إسحق واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط والنويرى فى المكتبة الصقلية وأبا الفدا فى حوادث سنة ٣٣٦ وسفرنامه لناصر خسرو ورياض النفوس للمالكى.

فأرسل إلى الخليفة القائم العبيدى القائم يهوِّل عليه الأمر ويقول إن أهل صقلية خرجوا عن طاعته، فأرسل إليه سنة ٣٢٥ جندا جديدا يقوده خليل بن إسحق، واستقبلوه بالشكوى من سياسة سالم وبطشه، يظنون أنه سيَرْتُق الفتق ويُصْلح الأمر، وسرعان ما خيَّب ظنونهم إذ رأوه يهدم أسوار بلرم ويَبْنى عند المرسى مدينة جديدة لخاصته وجنده وسلاحه ويحصِّنها مسمِّيا لها باسم: «الخالصة» وأرهق أهل بلرم إرهاقا شديدا فى بنائها. وثارت عليه جرجنت واستعدت لحربه، فسار إليها سنة ٣٢٦ وحاصرها ثمانية أشهر، ودخل الشتاء ففكَّ عنها الحصار. وفى سنة ٣٢٧ ثارت عليه جميع القلاع وسكان مازر، وكاتب أهل جرجنت إمبراطور بيزنطة يستنجدون به، فأمدَّهم بالرجال والطعام. واستنجد خليل بالقائم فأمدَّه بجيش ضخم أخذ يحاصر به المدن والقلاع سنة ٣٢٨ وحاصر جرجنت وضيَّق عليها الخناق حتى سنة ٣٢٩ وفرَّ كثير من أهلها إلى بلاد الروم وتنصَّر كثير منهم وهو لا يرعوى ولا يزدجر، بل يزداد ظلما وإزهاقا للأرواح إلى درجة لم يُسْمَع بها من والٍ مسلم لا قبله ولا بعده. وبعد أربعة أعوام عاد إلى إفريقية، فحمل معه جماعة كبيرة من كبراء الجزيرة وأعيانها وعلمائها، وبين أمواج البحر أمر بثقب مراكبهم، فغرقوا جميعا فيه غير مراع عهدًا لهم ولا لآبائهم الذين فتحوا صقلية وجاهدوا فى سبيل نشر الإسلام فيها بدمائهم وأرواحهم، وإنها لصفحة سوداء له وعار فى جَبينه لا يمكن أن تطمسه الأيام.

(ب) عهد بنى أبى الحسين الكلبيين

ولَّى الخليفة العبيدى القائم على صقلية بعد خليل بن إسحق واليا جديدا هو عطاف الأزدى فاستمر فى سياسة الظلم والقمع، وطَفَح الغضب بالمدن الصقلية وفى مقدمتها بلرم، وثارت جميعا فى سنة ٣٣٥ ثورة كبرى عامة، والتجأ عطاف إلى قلعة الخالصة وامتنع فيها، واجتمع رأى وجوه بلرم وغيرها من المدن على أن يذهب وفدٌ إلى الخليفة الفاطمى الجديد المنصور ويطلب إليه أن يقوم الحكم فى صقلية على أسس راسخة من العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ومن الحرية فى العقيدة فلا يتعرض حاكم وزبانيته لأهل السنة وأيضا الحرية فى المعاملات فلا يُغْتَصَب من أى تاجر ولا من أى شخص ماله. وكان الخليفة المنصور حصيفا، فرأى أن سياسة الخليفتين قبله وما أرسلا لهم من ولاة جبارين كانت سياسة جائرة باطشة إلى أقصى حد، ورأى أن يقتنع بالسيادة الاسمية على صقلية إرضاء لأهلها، وعهد بالولاية عليها لقائد من خيرة قواده سنة ٣٣٦ هو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى. ومنذ هذا التاريخ أصبح حكم صقلية وراثيا فى أسرته، وأخذ يحكمها حكما عادلا رشيدا، وتصادف فى أول حكمه أن غلاما من غلمانه اغتصب إحدى جواريه، فأمر بقتله حتى لا تسوِّل لأحد من جنده وغلمانه نفسَه بالاعتداء على الحرمات، وأكْبَر الناس ذلك منه واستبشروا به. ولما رسخت قدمه فى بلرم

قبض على مدبرى الفتنة فيها من بنى الطبرى وصادر أموالهم. واطمأن له الناس والتفوا حوله. وحاول إمبراطور بيزنطة فى أول حكمه أن يسترد ما استولى عليه الصقليون من شبه جزيرة قَلَوْرِيَّة، وأرسل لذلك أسطولا فردَّه على أعقابه مخذولا، وشيَّد مسجدا بها بمدينة رجيو (Reggio) ترسيخًا لحكم المسلمين لها وتثبيتا، وأجبر الروم فى مدينة تارنته Tarente على أداء الجزية. وجمع هذا الوالى وقيل بل ابنه أحمد ثلاثين رجلا من وجوه صقلية وسار بهم إلى الخليفة العبيدىّ فى المهدية بإفريقية وبايعوه وخلع عليهم الخليفة. وهو رمز لدخول الجزيرة فى المذهب العبيدى، ونرى ابن حوقل - وهو من دعاة الفاطميين - يذم الصقليين ذما شديدا، مما قد يدل على أن العامة فيها لم تعتنق هذا المذهب.

ويتوفى الحسن سنة ٣٤١ ويخلفه فى حكم صقلية ابنه أحمد، وكان يشاركه فى الحكم والتدبير فاتبع سياسته العادلة الرشيدة وكانت رمطة قد خرجت على الدولة فاسترجعها، وركب البحر إلى قَلَوْرِيَّة وأحرق أسطول بيزنطة وأسر قائده وأرسل به مع عدد كبير من الروم إلى المعز، وشعرت بيزنطة بأن أملها فى صقلية أصبح من إحدى المستحيلات فأرسلت إلى المعز وفدا يطلب الصلح حاملا إليه هدايا ثمينة، وتعاقد الوفد معه على ترك الجزيرة له، فى مقابل إخلاء المسلمين مدينتى طبرمين ورمطة لنصارى الجزيرة، وارتضى ذلك المعز، وكانت غلطة كبيرة من أغلاطه. وأخذ المسلمون يتلكئون فى تسليم المدينتين وعُزل أحمد بن الحسن سنة ٣٥٨ وكان حسن السيرة كما يقول ابن خلدون ووُلِّىَ الجزيرة سنة ٣٥٩ أخوه أبو القاسم على بن الحسن، وكانت مسِّينى خرجت على الدولة واتخذها العدو مركزًا لأعماله ضد المسلمين، فنازلها وحاصرها حتى أعلنت الطاعة، واستعاد مدينة رمطة وأمر بتجديد بنائها، ونازل الروم بقَلَوْرِيَّة ومن عاونهم من الألمان والنُّرْمان، واستشهد فى إحدى المعارك الطاحنة سنة ٣٧٢ ونقل المسلمون رفاته إلى صقلية. وولى بعده من الأسرة الكلبية أحد أبنائها: جعفر بن محمد وكان من أصحاب الرأى والتدبير، فأخذ يحكم صقلية حكما عادلا نزيها. وحدث فى عهده أن جارية صقلية للخليفة الفاطمى العزيز وكانت محبَّبة عنده وكان لها أخ راهب بصقلية فتوسلت إليه أن يرجع إلى النصارى فيها قلاعَ طبرمين ورمطة وأجابها إلى مطلبها وكتب إلى واليه جعفر يأمره بإخلائها لنصارى الجزيرة، فراجع الخليفة بدهائه حتى عدال ن مطلبه. وتوفِّى سريعا سنة ٣٧٥ وتولَّى الجزيرة بعده ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله سنة ٣٧٧ وهو من خيرة الولاة الكلبيين، وفيه يقول ابن خلدون: «أنْسَى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم» ويقول لسان الدين بن الخطيب فى أعمال الأعلام: «كانت أيام الناس فى مدته على أفضل ما يشتهون، وقد ضبط الجزيرة ضبطا محكما وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف، وعمَّ العدل والرخاء والأمن كل جهات الجزيرة» ولم يتحرك فى وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها، وزار القاهرة، واستقامت الأمور فى عهده أعظم ما يكون من الاستقامة، وكانت دار

ولايته أو إمارته فى بلرم مقصد الشعراء والأدباء والعلماء، وهو ممدوح الشاعر الجزائرى المشهور ابن قاضى ميلة، وما زال يسوس الجزيرة وأهلها خير سياسة حتى أصابه الفالج سنة ٣٨٨ وعطَّل جانبه الأيسر، واتفق الناس معه على تسليم صولجان الحكم لابنه جعفر، وثار عليه أخوه على وانضمَّ إليه البربر والعبيد، وانتصر عليه جعفر فقتله، وأمر بقتل العبيد ونفْى الجند البربرى من صقلية، وجعل جنده جميعا من أهل صقلية المسلمين، فقلَّ بذلك جنده – كما يقول البكرى – وأعدَّ لانهيار ملكه. وسخط عليه أهل صقلية لتفاضيه عن كاتبه حسن الباغانى فى عسفه فى جباية الضرائب، وزادهم سخطا عليه استخفافه بشيوخ بلرم: فحاصروه وشدَّدوا الحصار عليه، فخرج إليهم أبوه فى محفَّة، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، فاحتفوا به، وطلبوا إليه أن ينصفهم منه، واتفق معهم على أن يعزله من ولايته عليهم ويولِّى أخاه الأكحل، وارتضوه أميرا بعد أخيه، ولم يلبث الأكحل أن أشرك ابنه جعفرا معه فى الحكم، وكان غِرًّا تنقصه الخبرة، فاتبع سياسة حمقاء هى التفرقة بين الإفريقيين والصقليين فى المعاملة المالية، واستجار الصقليون من ظلمه بالمعز بن باديس حاكم إفريقية التونسية سنة ٤٢٧ فأرسل معهم ابنه عبد الله فى جيش عداده ستة آلاف نصفه من الفرسان، وانضم إليه أهل الجزيرة، وسرعان ما ندموا وتنكروا لعبد الله بن المعز، فعاد مع جيشه إلى إفريقية، وولَّوا عليهم صمصام الدولة شقيق الأكحل. ولم تطل مدته، إذ ثار عليه أهل بلرم، وخلعوه.

وتدخل صقلية بعد خلع الصمصام فى عهد يمكن أن يسمى عهد أمراء الطوائف، وفيه ضاعت كل ممتلكاتها فى قَلَوْرِيَّة بإيطاليا، وأخذ قواد الثورة على الصمصام يستقلون ببلدانهم مكونين فيها إمارات، وكانت بلرم من نصيب محمد بن الثمنة أحد القواد، وضمَّ إليه مدينة سرقوسة، واستقل ابن منكود من قواد الثورة بمدن: مازر وطرابنش والشاقة ومرسى على فى الغرب والجنوب الغربى، واستقل ابن الحواس على بن نعمة من قواد الثورة أيضا بمدينتى قصريانَّة وجرجنت، وتفاقمت الفتن وسوء الأحوال فى الجزيرة، ونشبت الحروب بين هؤلاء الأمراء، وأشدُّها ما كان بين ابن الثمنة وعلى بن نعمة. وهُزم ابن الثمنة هزيمة ساحقة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م فاستغاث بالنورمان، وكان ذلك إيذانا قويا بضياع الجزيرة من أيدى المسلمين.

٥

التاريخ النورمانى - أحوال المسلمين

(أ) التاريخ[١] النورمانى

النورمان قبائل متبربرة سقطت من شمالى أوربا على شرقيها وغربيها مهاجمة ومكتسحة، وقد اكتسحت الشمال الغربى لفرنسا. واضطر ملك فرنسا إلى إقطاعهم الإقليم المشتق من اسمهم «نورمانديا» فتأقلموا فيه وانتهى عدوانهم. واتجهت جماعات منهم إلى إيطاليا واستولت على أجزائها الجنوبية، وتواتى الفرصة أحد ملوكهم المسمى روجار الأول كى يستولى على صقلية بخيانة أحد أبنائها: «ابن الثمنة»، إذ ساومه فى عونه ضد على بن نعمة على أن يفتح له أبواب مدينة مسِّينى واحتلها واتخذها قاعدة لأعماله الحربية فى الجزيرة، غير أن ابن الثمنة توفى فى العام التالى، وكان جيش روجار قليلا فلم يسارع إلى فتح مدن صقلية. واستصرخ المسلمون فى صقلية تميم بن المعز أمير المهدية فى إفريقية التونسية لينقذهم من براثن روجار والنورمان فأنجدهم بأسطول يقوده ابناه: أيوب وعلى، ونزل أيوب فى الجنوب بمدينة جرجنت ولقيه على بن نعمة لقاء حسنا، بينما نزل أخوه على فى بلرم، واستبشر الناس واستعدوا مع عسكريها لجنود النورمان. غير أن على بن نعمة صاحب جرجنت عاد فظن الظنون بهذا الجيش الغريب، وانضمّ الأخوان إلى حربه، وسقط فى المعركة. وقامت فتنة بين أهل جرجنت والجيش الإفريقى، وكان النورمان قد جمعوا جموعها ولقوا هذا الجيش وهزموه، واضطُر أيوب وعلى أن يعودا إلى إفريقية التونسية بمن بقى من جيشهما سنة ٤٦١ للهجرة، واندفع روجار والنورمان يحتلون المدن فى الجزيرة، وبدءوا بمدينة بلرم وحاصروها بحرا وبرا خمسة أشهر وأهلها يقاومون، وخنقهم الجوع، وظلوا لا يبالون به إلى أن فشا بينهم وباء، ودخلها النورمان سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م ينهبون ويفتكون بشبابها الباسل ويتوزعون بينهم الصبية ليبيعوهم عبيدا، وأحال روجار مسجدها كنيسة. وسلّمت مازر سريعا خوفا من أن يصيبها ما أصاب بلرم وتبعتها قطانية فى الشرق، غير أن بقية مدن صقلية ظلت تقاوم النورمان عشرين عاما طوالا، وكان من أشدّها

(١) انظر فى التاريخ النورمانى بصقلية ابن الأثير ورحلة ابن جبير والمكتبة الصقلية لأمارى وكتابه تاريخ مسلمى صقلية المار ذكره وكتاب Freeman وتاريخ Edward, History of Sicily, Oxford, 1891 ابن خلدون والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس والجزء الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ص ٤٥٧ والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى.

مقاومة لهم سرقوسة بفضل بطلها ابن عباد الذى نظَّم المقاومة فيها وفى ولاية نوطس. وبعد خمس سنوات من الاستيلاء على بلرم استولى روجَّار على ثغر أو مدينة طرابنش فى الغرب وهدم سورها ووزَّع أرضها على أتباعه. وبعد سنتين من استيلائه عليها استولى على طبرمين فى الشرق. وكان ابن عباد بطل سرقوسة استطاع الاستيلاء على مدينته وجهَّز روجار الأول أسطولا ضخما هاجم به سرقوسة بعد أربعة عشر عاما من استيلائه على بلرم وظلت الجبهة الشرقية تقاومه مقاومة عنيفة مع سرقوسة غير أن كفة الأسطول النورمانى علت أخيرا على سفن ابن عباد، وكان يقودها بنفسه وكلما غرقت سفينة من سفنه انتقل إلى أخرى، وزلَّت به القدم فى إحدى قفزاته، فتلقَّته موجات البحر منحنية لبطولته، وشيَّعته إلى قرارها شهيدا، ولولا ذلك لظلت سرقوسة تقاوم النورمان طويلا. وحاصر النورمان مدينة جرجنت ثلاث سنوات طوال إلى أن اضطرتها المخمصة والجوع إلى الاستسلام، وظلوا بعدها يحاصرون مدينة قصريانَّة وهى تضرب أروع الأمثلة فى مقاومتهم مقاومة باسلة حادة إلى أن سلَّمها لهم سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م أميرها ابن حمود، وخشى على نفسه من أهلها أن يفتكوا به فلجأ إلى روجَّار وتنصَّر فيها يقال خاسرا بذلك بلده ودينه. واستسلمت مدينتا نوطس فى الجنوب الشرقى وبثيرة فى الجنوب. وبذلك استولى روجار على الجزيرة جميعها وأفل نجم الإسلام بها سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م وبالمثل استولى على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م، وظل ملكا عليها وعلى بعض أجزاء فى جنوبى إيطاليا نحو عشرين عاما حتى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م. وخلفه على حكم صقلية روجار الثانى وطال حكمه خمسين عاما ونيفا (٤٩٤هـ/١١٠٢م - ٥٤٨هـ/١١٥٤م) وبينما كان حكم أبيه يعد دورا من أدوار الفتح الحربى وتثبيت الحكم النورمانى فى الجزيرة كان حكمه يعد دورا حضاريا للنورمان -عن طريق العرب- إذ تحضروا فى الجزيرة وامتدت آثار ذلك فى الغرب، وبالمثل حكم ابنه غليوم الأول حتى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م وحفيده غليوم الثانى حتى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م. وتولى بعد ذلك ابن عمه طانكرد لمدة أربع سنوات ثم ابنه غليوم الثالث، وتطورت الظروف واستولى أباطرة ألمانيا على صقلية وأصبح فردريك الثانى ملكا عليها (١١٩٤-١٢٥٠م).

وحرىٌّ بنا قبل أن نترك الحديث عن الحكم النورمانى بصقلية أن نذكر أنه ظلَّ لأسطول صقلية الإسلامية طويلا استعلاء فى البحر المتوسط بحيث كان يُعَدُّ من شمالى مصر إلى الأندلس بحيرة عربية، ومرَّ بنا أنه حطم الأسطول البيزنطى مرارا حتى اضطروا أن يرسلوا وفدهم خانعين مستذلين إلى المهدية يطلبون الصلح. وهذه المكانة للأسطول الإسلامى الصقلى ضاعت بضياع صقلية، واستحالت إلى مكانة للأسطول النورمانى الصقلى بحيث أصبح البحر المتوسط بين صقلية ومصر بحيرة نورمانية، وساعدت على ذلك هجرة القبائل العربية من بنى سليم وهلال إلى أفريقية التونسية وقضاؤها على الدولة الصنهاجية بالقيروان وانحيازها إلى

المهدية، فلم يعد عندها من المال ما تستطيع أن تُعِدَّ به أسطولا ضخما يقف لأسطول النورمان. وكان للدولة العبيدية أسطول قوى أيام مقامها بالمهدية حتى إذا بارحها المعز الفاطمى إلى مصر لم تعد تلك الدولة تُعْنَى بأسطولها إلا ببعض سفن تحرس سواحلها، ويدل على مدى ما كان يشعر الخلفاء الفاطميون تجاه النورمان الصقليين وأسطولهم من خزى أن نجد الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ) حين يستولى روجار الثانى على جزيرة جربة التونسية لا يكتب إليه مهدِّدا متوعدا، بل يكتب إليه متخاذلا ردًّا على رسالة له كما سجل ذلك القلقشندى فى الجزء السادس من صبحه ص ٤٥٨ قائلا: «وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجرْبة لما شرحته من عدوان أهلها.. واجترائهم فى الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها.. فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية[1]». وبدلا من أن يعد أسطولا لإخراج النورمان على وجوههم من صقلية التى طالما طعم هو وآباؤه من خيراتها وطيباتها أرسل إليه هذا الخطاب المخزى. ومن الغريب أن الحملات الصليبية بدأت بعد تمام استيلاء النورمان على صقلية بسبع سنوات، وقد ظللنا نتنازلها نزالا عنيفا قرنين من الزمان والبحر المتوسط بحيرة نورمانية، وهم يغدون فيه ويروحون. ولو أن أسطول صقلية الإسلامية كان لا يزال قائما لفلَّ من قوتهم بل لأغرق كثيرا من سفنهم المتجهة إلى ساحل الشام ومصر، بل أيضا إلى ساحل تونس على نحو ما هو معروف من حملة لويس التاسع عليها وموته تحت أسوارها سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. ويتضح من ذلك أن صقلية لم تكن جزيرة إسلامية فقدها المسلمون فحسب بل كانت درعا كبيرا لهم يحمى ثغورهم على سواحل المتوسط، حتى إذا سقط هذا الدرع أخذ الصليبيون يجوبون المتوسط وأخذ النورمان الصقليون يغيرون على سواحل إفريقية التونسية، وكانت آخر غاراتهم وأشدها على تلك السواحل غارتهم سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م فى عهد روجّار الثانى وابنه غليوم واغتصابهم لمدينة المهدية وغالب المدن الساحلية الشرقية: قابس وصفاقس وسوسة، وكان ذلك بعد احتلال جربة التى هنأهم بها الخليفة الفاطمى بقليل. وكان ذلك بسبب ما حدث فى إفريقية التونسية من قيام عصر أمراء الطوائف بعد الهجرة الهلالية السليمية وتنابذ هؤلاء الأمراء وتحاربهم ومحاولةِ بعضهم الاستعانة بصاحب صقلية ضد إخوته وأهله. ولولا أن قيَّض الله لإفريقية التونسية عبد المؤمن أمير الموحدين بالمغرب، فقضى فيها على هؤلاء الأمراء المتنازعين وقهر نصارى النورمان المستولين على الساحل التونسى ومدنه وعلى جربة وطرابلس لظلوا بها طويلا إذ أخرجهم على وجوههم، وسحقهم سحقا ذريعا بحيث لم يعد النورمان بعده يحاولون احتلال الساحل التونسى.

---

(١) صبح الأعشى ٦/٤٥٩.

(ب) أحوال المسلمين

لما فتح النورمان صقلية الإسلامية ظلوا طوال فتحهم لها يشعرون أنهم دخلاء غرباء على من فيها من المسلمين والعناصر الأخرى الصقلية الأصيلة والإغريقية والرومية وغير الرومية، وعمَّق هذا الشعور فى نفوسهم أنهم لم يكونوا متحضرين وواجهتهم مدن إسلامية متحضرة فى سكانها وفى نظمها فلم يكن أمامهم إلا أن يحاولوا الانتفاع بحضارتها، غير أنهم كانوا مشبَّعين بدعوات وإيحاءات من بابا روما ضد الإسلام والمسلمين لتمكين سلطان المسيحية فيها واستئصال جذور الإسلام منها، وهو ما يلاحظ على تصرفات روجَّار الأول فيها، إذ أنزل بالمسلمين بها فى حكمه الذى امتد نحو ثلاثين عاما صورا مختلفة من التنكيل، وأول ما يلاحظ من ذلك أنه عمَّم نظام الإقطاع فى الجزيرة، فكان يُقْطع أنصاره وجنوده والأساقفة والقساوسة ما يفتحه من البلدان، ويَعُدُّ مَنْ يَفْلح أو يزرع تلك الممتلكات من المسلمين عبيدا يهدون مع الأرض إلى صاحب الإقطاع، على نحو ما صنع بمدينة قطانية حين فتحها، إذ جعل أهلها المسلمين عبيدًا مسترقِّين ومنحها إقطاعا للأسقف هناك. وكانت هذه أول ضَرْبة أنزلها بأعدائه المسلمين. والضربة الثانية أنه قرَّر على المسلمين عامةً دفْع جزية، وظلوا يدفعونها حتى نهاية الحكم النورمانى. والضَّرْبة الثالثة أنه أسكن الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد منهم - كما يقول ابن الأثير - حمَّاما خاصا به - ولا دُكانا ولا طاحونا ولا فُرنًا. ويقول بعض الباحثين المعاصرين إن هذا إنما يصدق على جماعات الفلاحين أو من أحالهم الفتح مسترقين، وهو تخصيص لا يقتضيه كلام ابن الأثير. ويقول آخرون دفاعا عن الملك النورمانى روجَّار الأول إنه لم يشرِّد المسلمين عن مدن صقلية ولو كان يريد التنكيل بهم حقا لشرَّدهم، وينْسَون أنه كان لا يستطيع تشريدهم وإخراجهم من البلاد، لأنهم كانوا الأداة التى تزرع فيها وتصنع وتنتج ولو شرَّدهم لأصبحت خرابا ولجفَّت ضروعها ولم يَعُدْ يجد فيها ما يحميه هو وجنده وشعبه من الجوع والمسغبة.

ومع أن ابنه الملك روجَّار الثانى (٤٩٤-٥٤٨هـ) وحفيده غليوم الأول (٥٤٨-٥٦١هـ) كانا لا يقسوان على المسلمين قسوته ظلت فى عهدهما آثار من هذه المعاملة الظالمة للمسلمين صوَّرها فى رحلته ابن جبير الذى زار صقلية فى أيام الملك غليوم الأول، إذ يقول عن مدينة مسِّينى إنها: «معمورة بعبدة الصلبان، يمشون فى مناكبها ويرتعون فى أكنافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسَّنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة (جزية) فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها» فتملك الأرض فى مسِّينى - مع سعتها - كان محرَّما على المسلمين، فهم يشتغلون فى مسِّينى عُمَّالا ولا يتحولون بحال مُلاكا.

ويقول ابن جبير عن مسلمى بلرم إن لهم أرباضا (ضواحى) انفردوا بسكناها عن النصارى، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم إلا فى الأعياد، فهم ممنوعون من صلاة الجمعة. ويحدثنا عن فتىً بِسِّينى كان يُخفى إسلامه متسميا باسم عبد المسيح وأنه احْتفى به وبمن كان معه حتى إذا لم يجد حوله من يتهمه بإفشاء سره محافظة على نفسه من النصارى سألهم عن مكة ومشاهدها المعظمة ومشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبروه وهو يذوب شوقا وتحرقا إلى مشاهدة تلك الأماكن، وغبطهم على رحلتهم إلى مشاهدتها، وقال: أما نحن فكاتمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا. ومما يذكره ابن جبير مما يدل على اضطهاد المسلمين وإدخالهم فى النصرانية قسرا أن فقيها حدثه فى مدينة طرابنش أنهم ظلوا يطاردونه بمطالبته بأموال يكتنزها فى رأيهم حتى أظهر لهم أنه فارق دينه الحنيف، ولكى يقنعهم بذلك حول مسجدا له بجوار داره إلى كنيسة، فكفّوا عنه وقال إنه يكتم إيمانه!. وذكر أنه لقى زعيم المسلمين المعروف فى تلك الديار باسم ابن حجر ممدوح ابن قلاقس الشاعر الإسكندرى. فقال له إنهم ظلوا يوالون عليه مصادرات بلغت ثلاثين ألف دينار، ومازال يتخلى عن جميع ممتلكاته وعقاراته حتى أصبح بدون مال، ومما قال له: «كنت أودُّ لو أباعُ أنا وأهلى يبقى لعل البيع يخلِّصنا مما نحن فيه ونصبح فى بلاد المسلمين». ويَرْوِى ابن جبير قصة تقطِّع نياط القلوب حسرة إذ يقول إن أحد أعيان الجزيرة وجَّه ابنه إلى حاجٍّ من أصحابنا الحجاج راغبا إليه فى أن يَقْبَل منه بنتا له عذراء صغيرة السن قد راهقت الإدراك، فإن رضيها تزوَّجها، وإن لم يرضها زوَّجها، ممن يرضاه لها من أهل بلده. طمعا فى التخلص من هذه الفتنة. وطاب الأب وإخوتها بذلك نفسا لعلهم يجدون يوما السبيل إلى التخلص إلى بلاد المسلمين. وتأجَّر (طلبَ الثواب) هذا الحاج المرغوب إليه بقبول ذلك، وأعانه ابن جبير ومن معه على اغتنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة، يقول ابن جبير: «وطال عجبنا من حالٍ تؤدى بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة فى القلب وإسلامها إلى يد مَنْ يُغَرِّبها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها، كما استغربنا حال الصبيَّة، صانها الله، ورضاها بفراق أهلها رغبة فى الإسلام واستمساكا بعروته الوثقى».

وهل بعد ذلك من دليل على أن النورمان عاملوا المسلمين فى صقلية بمنتهى الظلم والقسوة والعتو والبغى حتى يفارقوا دينهم الحنيف كرها، ومن عجب أن يكتب المؤرخون الغربيون أبناء عمومتهم أنهم عاملوا المسلمين بتسامح لا حد له وبعدلٍ مابعده عدل، فنصدقهم، وهم قد عاملوهم بوحشية مامثلها وحشية واستذلوهم ونهبوا حريتهم التى خلقهم الله بها وأحالوهم – أو أحالوا الشطر الأكبر منهم – عبيدا مسترقين.

وازدادت هذه الوحشية ضراوة فى عهد أباطرة الألمان حين استولوا على صقلية سنة

٥٩١هـ/١١٩٤م فإنهم أخذوا ينزلون بأهلها من المسلمين - بتأثير الكنيسة - صورا فظيعة من الاضطهاد والتنكيل، ومنعوهم منعا باتا من حمل السلاح، وفرضوا عليهم - كما يقول الأستاذ الجليل حسن حسنى عبد الوهاب - أن يُعمِّد أبناؤهم مثل أبناء النصارى: أمرٌ لا رادَّ له من البابا دون استحياء، كما فرضوا عليهم أن يضعوا على صدورهم قطعة من النسيج الأحمر طولها شبر وعرضها إصبعان للتمييز بينهم وبين النصارى، وهاجرت كثرة من مسلمى صقلية - وخاصة من التجار والصناع - إلى الساحل التونسى والبلاد الإفريقية، فرارا من هذا الظلم الذى لايطاق، وبقيت قلة مستضعفة - وخاصة من أهل الأرياف - تتحمل هذا العذاب والهوان، وتعامل معاملة العبيد الأرقاء. وحين صارت إفريقية التونسية إلى أبى زكريا الحفصى وعلم بما يقع على تلك القلة من الظلم فى أبشع صوره كاتب فردريك الثانى إمبراطور المانيا وملك صقلية ليرفع هذا الظلم عن مسلمى الجزيرة، وعقد معه معاهدة تضمن لهم الحرية الدينية، حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٥م رجع الظلم والعدوان الذى لايطاق، واستغاثوا بالمستنصر بن أبى زكريا، فاتفق مع فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك صقلية سنة ٦٤٧ على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، وبالمثل إخلاء مالطة من كل من بقى فيها من المسلمين.

الفصل الثانى

المجتمع الصقلى والثقافة

١

المجتمع الصقلى[1] فى العهد العربى

ظل المسلمون فى صقلية – طوال حكمهم بها – لايزيدون عن نصف سكانها وكانت مجمعا لعناصر شتى مسيحيين من سكانها الأصليين الصيقول ومن النورمان والإغريق والصقالبة ومن بقايا الفينيقيين والقرطاجيين مع قلة من اليهود وكانت لهم حارة فى بلرم وقلة من الزنوج ونزل أكثر البربر.. نواحى مازَر وجرجنت. وكان فى كل بلد مَنْ يملكون الإقطاعات الكبيرة ومَنْ يملكون القطع الصغيرة، وكان الولاة يكتنزون لأنفسهم كثيرًا من الذهب والفضة، ويقال إن واليها ثقة الدولة حين ارتحل إلى مصر كان معه ٦٧٠ ألف دينار سوى آلاف الخيل والبغال. ويبالغ ابن حوقل فيقول إن أهلها فقراء، بينما نجد الإصطخرى يقول: «فى صقلية من الخصب والزروع والمواشى والرقيق ما يفضل سائر الموانى المتاخمة للبحر» ونفس ابن حوقل يعدِّد الأسواق فى بلرم ويبلغ بها نحو الثلاثين إذ كان بها سوق الزياتين والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة وبائعى القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة وباعة الريحان والجزارين والخبازين والعطارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين، وكان بها للقصابين نحو مائتى حانوت لبيع اللحم ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذَّاءون». وفى ذلك مايدل على انتعاش الحركة التجارية فى بلرم وأن سكانها لم يكن يعمهم الفقر كما يقول ابن حوقل، وبالمثل بقية المدن فى صقلية.

---

(١) انظر فى المجتمع الصقلى فى العهد العربى صورة الأرض لابن حوقل ومسالك الممالك للإصطخرى ونزهة المشتاق والنويرى والمكتبة الصقلية وإنباه الرواة فى ترجمة ابن البر ١٤٦/٢ ورياض النفوس للمالكى وسفر نامه لناصر خسرو والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس: الفصل الثانى من الكتاب الأول، وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، الفصل الخاص فى الجزء الثالث بتاريخ صقلية الإسلامية.

وكانت الجزيرة موزعة قبل فتح المسلمين لها إلى ولايتين كبيرتين: ولاية بلرم وولاية سرْقوسة، ووزعها المسلمون بعد الفتح إلى ثلاث ولايات كبيرة: شرقية وجنوبية غربية ثم غربية وتضم الشمال. وجعل المسلمون لكل ولاية واليا يدير أعمالها ومعه عدد من العمال يساعدونه فى تصريف هذه الأعمال، وكان كل وال يسمى قائدا، ربما لكثرة ما كان ينهض به من الحروب ضد الحصون فى إقليمه. وكان فى كل ناحية وكل بلد قاض، ومعه كاتب لتقييد الأحكام. وكان قاضى بلرم يفصل فى القضايا المهمة، ولذلك كان يسمى المفتى. وكان السكان المسيحيون فى الجزيرة يمثلون ما يقرب من نصف سكانها وعاملهم الولاة المسلمون ونوابهم بمنتهى العدل والتسامح طبقا لتعاليم الإسلام فكان الثرى يدفع سنويا للدولة ٤٨ دينارا والفرد فى الطبقة الوسطى يدفع ٢٤ دينارا، بينما يدفع من يكسب عيشه بعرق جبينه ١٢ دينارا فحسب. ولم تكن تؤخذ ضريبة من الرهبان والقسس والنساء والعجزة والأطفال، فهم جميعا مُعْفَوْن من الضرائب إعفاء تاما. وكانت الضريبة السالفة تسمى خراجا وهى فى حقيقتها ضريبة دفاع. وحافظ المسلمون فى صقلية – كما حافظوا فى كل ديارهم – على مؤسسات المسيحيين الدينية من كنائس وغير كنائس، كما حافظوا لهم على قوانينهم الدينية والمدنية وعلى محاكمهم الخاصة، وأتاحوا لهم الحرية التامة فى أداء شعائرهم الدينية.

وطبيعى أن تكون بصقلية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم وتدبير شئونه، فكان بها ديوان المحاسبة الذى يقوم بأعمال وزارة المالية فى عصرنا، فيه خزانة الدولة، وفيه موظفون يراجعون ما يجمعه المحتسبون فى المدن والأعمال المختلفة من الضرائب. ويقول ابن حوقل إن الضرائب فيها كانت تضم: «خمسها ومستغلاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة فى كل سنة على أهالى قَلَوْرِيَّة وقبالة الصيود وجميع المرافق». ولم يسمِّ ابن حوقل الدواوين التى كانت تشرف على جمع هذه الضرائب الكثيرة، ومن الممكن بالمقابلة على النصوص الصقلية أن نعرف بعضها على الأقل فكان عندهم ديوان الخمس المشرف على مايجمع من غنائم الحرب، فإن للدولة – كما هو معروف – خمس مايجمع من الغنائم كما تقرر ذلك سورة الأنفال، وكان عندهم ديوان الممتلكات العقارية المستغلة. وديوان اللطف وهو ديوان الهدايا التى كانت ترسل سنويا للخليفة الفاطمى فى المهدية والقاهرة، وديوان الجوالى وهو ديوان الجزية التى كانت تؤخذ على الرءوس أو على الجماجم كما يقول ابن حوقل. وكانت تُفْرَض ضريبة على الوارد من البحر، وإما كان لها ديوان خاص وإما كانت تضم إلى ديوان المستغلات، وقبالة الصيود أى ضمانها بمبلغ معين ولعلها كانت تضم أيضا إلى ديوان المستغلات، ولعله هو المسمى فى بعض النصوص باسم ديوان التحقيق. وكلمة: جميع المرافق عند ابن حوقل تدل على أنهم كانوا يأخذون ضريبة على كل المنتجات وخاصة الصناعية إذ كان للصناعة ديوان خاص وقد يسمى ديوان الطراز. وكان من أهم الدواوين عندهم ديوان الإنشاء

ويتولاه أبلغ الكتاب مثل ابن الطوبى فى عهد ثقة الدولة وأبنائه. ويبدو أنه كانت فى بلرم طبقة من الشيوخ وبعض الأعيان يرجع إليها الوالى للمشورة فى بعض القضايا العامة أو بعض الأحكام، وكانت تبرز حين يُؤْخَذُ الرأى فى والى صقلية الجديد. وكثيرا ما كان يؤخذ برأيها فيه كما كان يؤخذ برأيها فى ضبط أموال الدولة.

وكانت الزراعة فى صقلية تُغِلُّ محصولا كبيرا من القمح الذى أدخله فيها القرطاجيون وكان يغطى أجزاء كبيرة فيها بردائه الذهبى كل عام، وكانوا قد أدخلوا فيها غَرْس شجر الزيتون كما أدخل الإغريق غرس الكروم، وعِنَبُها يَفْضل عِنَبَ اليونان، ونقل العربُ إليها كثيرا من الزروع مثل القصب والأرز والقطن والبصل وكثيرا من الأشجار مثل النخيل والليمون واللوز والفستق وكثيرا من الفواكه مثل التين والبرتقال والتوت وكثيرا من الخضروات ومن الرياحين. وفى سبيل خدمة الزراعة والحصول على إنتاج وافر حفروا القنوات والترع التى ماتزال موجودة بها إلى اليوم، واستعملوا طواحين الماء والخزانات لتوزيع المياه على الزرع والبساتين كما استعملوا النواعير والمواسير المعقوفة التى توجه مجارى المياه كما يشاءون. وبذلك أحال العرب صقلية إلى مزرعة كبيرة، تتخللها الحدائق والبساتين البديعة. وكان بها مراع واسعة يربى بها الماعز والأغنام والمواشى، وكانت بها خيول مشهورة فى عهد البيزنطيين، وأدخل فيها العرب خيولهم، وتفوقت على الخيول البيزنطية.

وكانت فى صقلية بعض صناعات قبل نزول المسلمين بها، ولكن صناعاتها ازدهرت فى أيامهم ازدهارًا واسعا بما ألقته الأرض إليهم من مناجمها فى حجورهم من الذهب والفضة والنحاس والكبريت سوى منتوجات الثروة المعدنية من الشَّبِّ والقَطْران ومنتوجات البحر المتوسط حولها من التنّ والمرجان ومختلف الأسماك. وأدخل المسلمون إليها صناعة الحرير وتطريزالمنسوجات وتزيين السجاجيد بالنقوش البديعة وزركشة الثياب والجلود المصبوغة وإتقان صناعة الحلىِّ. واشتهر ما كان ينتجه المسلمون من الكتّان فى الجزيرة شهرة واسعة، ويشيد بكتانها ابن حوقل جودة ورخصا، ويقول إن نسيجه مما يقطع قطعين وكان يباع بمصر من خمسين رباعيا إلى ستين، ويقول ناصر خسرو: يُجْلَبُ من صقلية كتان رقيق وثياب منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير مغربية، وفى خطط المقريزى أنه وجد لعزّة بنت المعز فى خزائنها ثلاثون ألف شقة صقلية. وكان قَطْعُ الأخشاب فى غابات جبل إتنا والغابات الشمالية يعود بغير قليل من الربح، وكانت صناعة السفن رائجة، وكان يُجْلَبُ لها الخشب من جفلود والحديد من بلهرا. وكانت بالجزيرة بقاع يكثر فيها البربير، وهو البردى، وكانت مصر من قديم تصنع منه الورق للكتابة عليه، ونقل العرب عنها هذه الصناعة وكان الورق المتخذ منه لكتابة المنشورات والوثائق يسمى باسم الكاغد، ونقلت الدولة الأغلبية صناعته عن مصر إلى إفريقية

التونسية وأدخلتها إلى صقلية، فكان يصنع لها فيها الكاغد أو الطوامير لكتاباتها الرسمية، وما فضل عن حاجتها يَفْتِله صنَّاعٌ حِبالاً للمراكب ولغيرها. واجتازت صناعة الطوامير من مضيق مسِّيني إلى سالرنو Salerno بإيطاليا وتغلغلت - في عهد النورمان - إلى الشمال ومدينة نابولي، واجتازتها إلى أوربا الوسطى وألمانيا وهو فضل كبير لمسلمي صقلية على الحضارة الإنسانية، فلولاهم ما عرفت ألمانيا الورق ولا صناعته، ولا أتيح فيها بعد - لعالمها الفذ «جوتنبرج» - اختراع الطباعة.

ولا ريب في أن صناعة صقلية الإسلامية المزدهرة وازدهار إنتاجها الزراعي أهَّلها لأن تزدهر بها التجارة، وقد مرت بنا كثرة الأسواق في بلرم حتى لتبلغ نحو ثلاثين سوقا، وكان بسوق القصابين أو الجزارين وحدهم - كما مرَّ بنا - نحو مائتي محل أو دكان. وأتاح ذلك لصقلية ثراء واسعا، أما ما يقوله ابن حوقل من فَقْر أهلها فكان داعية للفاطميين ووجد عامَّة الناس هناك تنفر من العقيدة الفاطمية وتتعلق بمذاهب أهل السنَّة فحمل عليهم، ولم يحمل عليهم من ناحية ما وصمهم به من الفقر المادي فحسب فقد حمل عليهم أيضا من ناحية الفقر الخلقي، فوصفهم بالخبث واللؤم وقلة الذكاء ونقص المروءة وشدة الجهل، وهو متَّهم في كل ما وصفهم به من الناحية الخلقية وأيضا من الناحية الدينية فقد رماهم بضعف دينهم لأنهم - في رأينا - لا يدينون بالمذهب الفاطمي الإسماعيلي، بينما يصفهم غيره بنظافة الثياب وحسن الصور إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة. والحق أن ابن حوقل في ذلك كله مغرض، ومن يقرأ وصف مدنها عند الإدريسي يراه يشيد بقصورها وبساتينها وأسواقها مبهورًا بما فيها من حركة تجارية واسعة لا في بلرم وحدها بل في كل المدن التي زارها وخاصة مسيني وقطانية وسرقوسة ونوطس وجرجنت ومازر وأطرابنش، وإذا كان الإدريسي زارها في العصر النورماني فإننا نجد أماري ينقل في المكتبة الصقلية عن الراهب ثيودوسيوس - وكان قد أسر في سرقوسة بالقرن التاسع الميلادي سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م زمن الأغالبة ونُقل منها إلى بلرم - أنه تحدث بإعجاب عما شاهده من القصور في المدينتين كما تحدث عن أسواق بلرم وكثرة مَنْ فيها من جميع الأجناس الأوربية والإفريقية والآسيوية، ويقول نوبل دي فرجي في كتابه «العالم» إن تجارة صقلية بلغت أيام المسلمين ازدهارًا عظيمًا لم تدركه في تاريخها لا قبلهم ولا بعدهم. وعلى الرغم من عوادي الأيام على قصور المسلمين ومساجدهم ومبانيهم فيها لا تزال في بقاياها وأروقتها الباقية ما يشهد بأن شعبا عظيما سكن تلك الجزيرة وشاد فيها روائع من القصور والأبنية الفخمة برخامها وفسيفسائها ونقوشها البديعة، مما بهر فون شاك وتجرد له سنوات طوالا يصفه في كتابه: الفن العربي في إسبانيا وصقلية. ومن القصور المشيدة التي خلفها المسلمون ببلرم قصر العزيز الذي بناه الأمراء الكلبيون وقصر القبة وقصر المنصورية وقصر الفوارة شرقيّ بلرم، وسنذكر طرفا مما نظمه فيها بعض الشعراء في غير هذا الموضع.

وطبيعى أن يكون للزهد والتصوف مسارب فى الحياة بصقلية الإسلامية؛ وكان القضاة والفقهاء فى طليعة من يمثلون الزهد والتقشف والانصراف عن متاع الحياة طلبا لما عند الله من ثواب الآخرة. ونلتقى فى أول نزول المسلمين فى صقلية بقاضيها ابن أبى محرز، وكانت تُضْرَبُ بعدله ونزاهته وتقواه الأمثال، وكان قد عاد إلى القيروان قبيل وفاته. فأوصى عمر أخاه أن يكتم خبر موته حين ينزل به القضاء، خوفا من أن يكفّنه ويدفنه الأمير الأغلبى وينفق ثمن ذلك عليه من بيت مال المسلمين، فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شىء. وأنفذ أخوه وصيته، وتعجب الناس من ورعه حتى فى موته. ويذكر صاحب رياض النفوس عن القاضى أبى عمرو ميمون بن عمر المتوفى سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م أنه ولى قضاء صقلية، فاجتاز بمدينة سوسة، فقال: يا أهل سوسة انظروا هذا كسائى وهذه فروتى وهذا خُرْج فيه كتبى وهذه الجارية السوداء تخدمنى ومعها جُبَّة وكساء، فبهذا رحلت عنكم، فانظروا بأى شىء أرجع. فلما وصل إلى بلرم قالوا له: هذه دار القضاء (وكانت واسعة) تنزل فيها، فتركها ونزل فى دُوَيْرة (صغيرة) لطيفة، وكانت الجارية السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فَضْل ذلك. ومرض ولم يخرج ثلاثة أيام فدخلوا عليه لعيادته فوجدوا عند رأسه وسادتين محشوَّتين تبْنا وتحته حصيرة من البردى. وعاد إلى بلده عن طريق سوسة فاستقبله بعض أهلها، فقال: يا أهل سوسة كما غادرناكم نعود إليكم: هذه جُبّتى وكسائى وخُرْجى فيه كتبى، وهذه السوداء تخدمنى.

والقاضيان: ميمون وابن أبى محرز مثلان رائعان لمن كان يزهد من أهل صقلية وقضاتها وفقهائها فى متاع الحياة مكتفيا بأقل القليل من عيشته راضيا بحياة التقشف بل واجدًا فيها متاعه فليس له مأرب سواها، وممن يمثل ذلك من أهل صقلية ما رواه المالكى فى رياض النفوس عن أبى الحسن الصقلى الحريرى من أنه قضى عمره - أو شطرًا كبيرًا منه - صامتا لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوَّه وتواجد وقال: «واذَهابَ عمرى فى خسارة». وقد ظَلّ الزهد فى صقلية الإسلامية فرديا، ولم يتحول إلى حركة واسعة بحيث تنشأ عنه حركة صوفية، وحقا قد يوصف بعض الصقليين بأنه صوفى دون أن يُعْنَى الوصف بذلك الحقيقة الصوفية إنما يعنى العبادة. وربما كان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يسلك هناك فى عداد الصوفية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الذى حجَّ وسمع العلماء بمكة سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م ويوصف بأنه «إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة» وله مؤلفات مختلفة تدل على أنه كان ينزع نزعة صوفية، منها: «الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار وصفة الأولياء ومراتب أحوال الصفاء والشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل التسترى». وبدار الكتب المصرية منه مخطوطة فى ستة أجزاء وعبد الرحمن فيه فقيه يتمسك بمذهب أهل السنة مستشعرًا دائمًا القرآن الكريم والسنة النبوية، والكتاب إلى أن يكون زهدًا وتقشفا فى الحياة أقرب منه إلى أن يكون تصوفًا بالمعنى الدقيق. وظل التصوف بعد البكرى فى صقلية

لا ينفك عن الفقه والحديث ومذهب أهل السنة غير متخذ منهجًا عمليا من التصوف، على نحو ما يلقانا عند الفقيه الحافظ السمنطارى، فقد صنف فى الرقائق وأخبار الصالحين كتابًا كبيرًا، كان فى عشرة مجلدات، سماه: «دليل القاصدين» كما ذكر ذلك ياقوت عند ذكره بلدته «سمنطار». وبذلك لم يكن - فى رأينا - للتصوف حياة فى صقلية الإسلامية إلا هذه الحياة السنية الملتزمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتى تدفع الفقهاء إلى التأليف النظرى فى التصوف بمعناه العام أكثر مما تدفع إلى التطبيق العملى.

٢

المجتمع[1] الصقلى فى العهد النورمانى

من قديم كان يقال إذا كانت روما فتحت أثينا حربيا فإن أثينا فتحتها حضاريا بأدبها وفلسفتها وروعة فنونها، وهو ما نستطيع أن نقوله عن النورمان وصقلية الإسلامية فإن النورمان فتحوا صقلية الإسلامية حربيا، وفتحتهم صقلية الإسلامية حضاريًّا، إذ كانوا شعبا متبربرًا ليس له حضارة ولا عهد له بأى حضارة، فلما نزلوا صقلية بهرتهم الحضارة الإسلامية فيها، واجتمعت أسباب كثيرة لكى يَحْنوا رءوسهم أمام من بها من المسلمين، فقد كانوا قلة ضئيلة بالنسبة إلى سكانها، وكانوا لا يعرفون شيئا من نظمها الإدارية ومن ترانيب أهلها فى الزراعة والصناعة وأسباب العمران، فاضطروا إلى استبقائهم لينتفعوا بهم فى شئون الصناعة والزراعة وتشييد القصور والمبانى الباذخة. ومع ذلك فإن الملك روجَّار الأول الفاتح لم يحسن معاملتهم بتأثير الكنيسة كما أسلفنا فإذا هو يحيل كثيرين منهم فى المدن والقلاع والحصون المفتوحة عَنْوةً إلى عبيد مسترَقِّين، وإذا هو يطبِّق عليهم نظام الإقطاع مسرفًا فى تطبيقه، وإذا هو لا يترك لأحد منهم لا أرضا متسعة فحسب، بل أيضا لا حَمَّاما - كما يقول ابن الأثير كما مرَّ - ولا دُكَّانا ولا طاحونا ولا فُرْنا، وأسكن معهم فى الحقول الروم والفرنج - كما يقول ابن الأثير - حتى يتعلموا منهم طرق الفلاحة والقيامَ على الزروع والغروس كما حدث فى قطانية وغيرها من المدن ومن الحصون والقلاع التى بلغت ثلاثمائة وعشرين عَدًّا. ويبدو أنه أخذ يثوب إلى رشده، فخفف من هذه المعاملة الصارمة للمسلمين وخاصة فى بلرم وفيمن اتخذه منهم جندا فى

---

(١) راجع ابن الأثير فى الجزءين العاشر والحادى عشر، وتاريخ ابن خلدون وأمارى فى المكتبة الصقلية وتاريخ مسلمى صقلية وفريمان فى كتابه السالف: تاريخ صقلية ورحلة ابن جبير ونزهة المشتاق للإدريسى والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى.

جيشه وأسطوله، ومع ذلك فقد فرض عليهم - كما فرض على مسلمى الجزيرة عامة - أن يدفعوا جزية، ولم يتنبّه إلى أن المسلمين لم يكونوا يفرضونها ضريبة عامة على الرءوس من حيث هى ضريبة، وإنما كانوا يفرضونها على غير المحاربين ضريبة دفاع عنهم، ولذلك لم يكونوا يفرضونها على القساوسة والرهبان والعجزة والنساء والأطفال، فهى ليست عندهم ضريبة اضطهاد، إنما هى ضريبة دفاع لجيش المسلمين الذى يحمى النصارى ويحارب دونهم، نصيبا مما يحتاج إليه فى حربه من المؤن وعُدّة السلاح، أما هو فجعلها ضريبة اضطهاد عامة، مع استخدامهم فى الجيش والأسطول والدفاع عن الجزيرة. وكان ابنه الملك روجّار الثانى قد نشأ نشأة صقلية عربية، فإن اللغة النورمانية لم يكن بها علم ولا فلسفة ولا فكر ولا أدب، فاضطر أبوه إلى تعليمه العربية اللغة المتحضرة، وتنفّس فى الحضارة الإسلامية التى كانت مسيطرة على الجزيرة بروحها وتقاليدها، وأخذت هذه الحضارة تؤثر فى حياة النورمان الغالبين كما أخذوا يُفيدون من نُظُمها وتراتيبها الإدارية، وبالمثل من شئون الزراعة والصناعة والجيش، وفيه يقول ابن الأثير: «سلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب (ما يركبه) والحجاب والسّلاحية والجاندارية وغير ذلك، وخالف عادات الفرنج فى ذلك كله فإنهم لا يعرفون شيئا منه، واتخذ الملك روجّار الثانى ديوان المظالم الذى كان شائعًا عند الحكومات الإسلامية الصقلية فنقله عنهم كما نقل عنها ديوان التحقيق وديوان الجزية وديوان الصناعة، ومنه يتفرع ديوان الطراز الخاص بالمنسوجات المطرزة بالذهب وغيرها، وأيضا ديوان المستغلات من تجارة الموانى الصادرة والواردة وصيد البحر. وكان فى بلاطه. نفر من علماء العرب ومفكريهم وأرباب الأدب والصناعة، وكان هناك ديوان عام ينظر فى أمور الدولة اشترك فيه بعض العرب. وخلفه ابنه الملك غليوم الأول، وكان قد تعلم العربية وحذقها مثل أبيه، ويقال إنه كان يعتمد فى كثير من المهمات على مسلمى صقلية، وإنه فتح فى وجوهم مناصب الدولة يتولونها وقرب منه بعض العلماء المسلمين وبعض رجال الأدب والفكر. وقد دفع هو وأبوه النورمان إلى اقتباس الفنون والعلوم والعناصر الأساسية للحضارة الإسلامية، فتحضروا بعد أن كانوا قوما متبدّين ونقلوا حضارتهم إلى إيطاليا فكانت بذلك من أسباب انبعاث النهضة الإيطالية بها فى القرن الخامس عشر قبل غيرها من الأمم الغربية، وهو تأثير عميق لصقلية الإسلامية فى النهضة الأوربية الوسيطة، وينقل الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب عن دى سلان وصف البلاط النورمانى فى عهد غليوم الأول وأبيه روجار الثانى إذ يقول: «إن كل شىء فى البلاط النورمانى أصبح يذكِّر بالعادات والتقاليد الشرقية من حجّاب وغلمان وعبيد إلى خصيان (سود وبيض) وقيان وعازفين، ومن حريم إلى مراسم وتشريفات». ولم تكن اللغة العربية لغة التخاطب فحسب، بل كانت أيضا لغة الثقافة، وكانت المراسيم تصدر عن الديوان الملكى باللغة العربية ثم تنقل إلى اللاتينية أو اليونانية، كما كانت النقود منقوشة بالخط الكوفى» ومرّ ابن جبير بالجزيرة بعد عودته من الحج فى أيام غليوم

الأول حوالى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م فنوّه بأنه يتخذ من فتيان مسلمين بحابيب حُجّابَه ووزراءه وعيون دولته وعمالته فى الجزيرة. ويقول إنه كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم. ويقول إن أهل دولته من المسلمين يلوح عليهم رونق ملكه، لاتساعهم فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والعبيد والأتباع. ويقول عن غليوم الأول: «ليس فى ملوك النصارى أترف فى الملك ولا أنعم ولا أرفه منه. وهو يتشبه بملوك المسلمين فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته». ويذكر ابن جبير حين مرَّ ببلده أنه كان فى نحو الثلاثين سنة من عمره وأنه يتقن العربية قراءة وكتابة، والعلامة التى يضعها على رأس مناشيره ورسائله: «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبيه روجّار الثانى: «الحمد لله شكرًا لأنعمه». ومما يدل على مدى انغماس النورمان فى الحضارة الإسلامية التى كانت منبثّة فى الجزيرة أن زىّ النساء النصرانيات فى بلرم كان نفس زى النساء المسلمات، ويقول ابن جبير إنهن فصيحات الألسن بالعربية الشريفة طبعا (اللغة الأولى فى الجزيرة حينذاك) وإنه رآهن فى عيد الفطر قد خرجن فيه ولبسْن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف (الملاءات وما يشبهها) الرائقة وانتقبن بالنُّقُب الملونة (أى أنهن كن محجبات تماما مثل المسلمات) وانْتَعَلْنَ الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر».

ومن دلائل الانغماس الواضح فى الحضارة الإسلامية لعهد غليوم الأول ما يذكره ابن جبير من أن جواريه وحظاياه فى قصره كلُّ مسلمات جميعهن، وأن الجارية النصرانية من الفرنجيات إذا وقعت فى قصره أصبحت مسلمة بفضل مَنْ فيه من الجوارى المسلمات. ولم يكن غليوم ولا أبوه يتعرضان - فيما يظن - لأداء شعائر مَنْ فى بلاطها وبلدتها أو عاصمتها بلرم من المسلمين، وربما كان تسامح غليوم فى هذا الجانب أقوى وأوسع من تسامح أبيه فقد كان مَنْ فى بلاطه من الفتيان يصوم الأشهر تطوعا وطلبا للأجر والثواب، وكان إذا دخل وقت الصلاة يخرجون من مجلسه فرادى فيؤدونها، وهو لا يتعرض لهم أى تعرض. ويقول ابن جبير إن بلرم كانت غاصة بالمسلمين ولهم فيها أرباض أو ضواح ينفردون فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، ويقول إن لهم مساجد يعمرونها ويقيمون الصلاة فيها بأذان مسموع، وإن لهم قاضيا يتقاضون أمامه، ويذكر أن المساجد كثيرة، وكان يحفّظ فى أكثرها القرآن. على أنه يعود فيذكر أن صلاة الجمعة كانت محرَّمة على سكان بلرم - كما مرَّ بنا - بسبب الخُطْبَة الدينية التى تسبقها إذ كانت محظورة عليهم.

وحرى بنا أن نتوقف لنعود إلى المقالة الشائعة بين المؤرخين، من أن النورمان عاملوا مسلمى

صقلية معاملة حسنة وأنهم سمحوا لهم بحرية العقيدة مستدلين على ذلك بما يقول ابن جبير وغيره عن بلاط روجار الثانى وغليوم الأول من أنه كان بلاطا عربيا إسلاميا فى نظر أمراء المسيحية، وهو إنما كان كذلك بحكم تبدِّى النورمان وشعور هذين الملكين بحاجتهما وحاجة شعبهما إلى تشرب الحضارة الإسلامية العربية، ولذلك أحسنا معاملة المسلمين وسمحا لهم – على الأقل فى بلرم – بإقامة شعائرهم الدينية والأذان والصلاة فى المساجد، وبالمثل سمحا بذلك لمن شعرا بحاجتهما إليه فى بلاطهما وحياتهما من الفتيان ومن الجوارى والحظايا. أما بعد ذلك فكانت المسألة تتوقف على كثرة المسلمين فى البقاع والمدن، فقد اتجه ابن جبير بعد زيارته لبلرم إلى زيارة مدينة طرابنش، ولاحظ أن جميع سكان الطريق بين المدينتين مسلمون يفلحون الأرض فى ضياع ومحارث ومزارع متصلة، واقترب من مدينة ثرمة فى الشمال، وكان الإعياء قد أخذ منه فبات بقصر قريب منها داخله مساكن وعلالى مشرفة، وهو كامل مرافق السكنى، وفى أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، وبات فيه أحسن مبيت وأطيبه وسمع أذان الفجر – وكان قد طال عهده بسماعه كما يقول – وأكرمه القائمون عليه وصلى به الفريضة والتراويح إذ كان فى رمضان، وأكبر الظن أنه كان محرسا للمدينة وبُنى على شاكلة المحارس فى الساحل التونسى، وانتهى إلى طرابنش ورأى ما للمسلمين والنصارى فيها من مساجد وكنائس، ورأى المسلمين يصلون يوم العيد بالطبول والبوقات وعجب من ذلك.

وقبل أن نستمع إلى ابن جبير فيما ذكره بتلك البلدة من الفتنة فى الدين الحنيف نتوقف قليلا عند سياسة الملك، روجار الثانى، فقد ظل معتمدًا لإجراءات الإقطاع التى فرضها أبوه روجار الأول فى البلاد والحصون التى فُتحت عَنْوةً، ولما هاجم أسطوله الساحل التونسى واستولى على مدينة بونة (عنابة) ترك أميره فيليب جماعة من العلماء والنُّسَّاك يخرجون منها إلى القرى المجاورة بأهليهم وأموالهم. فلما عاد قُبض عليه لرِفْقه وحسن صنيعه بجماعة من المسلمين وجمل الأساقفة والقسس والرهبان يحاكمونه فحكموا عليه حكما ظالما بحرقه، كما نص على ذلك التجانى فى رحلته. فلم يكن روجار الثانى يؤمن بحرية العقيدة كما يحلو لمؤرخى الغرب – وتابعهم مؤرخو العرب – القول بذلك. ونفس غليوم الأول الذى أشاد ابن جبير بمعاملته لمن فى بلاطه من المسلمين ومن فى قصره من الجوارى والحظايا المسلمات حدثت مذبحة للمسلمين ببلرم فى أيامه، إذ أمر وزيره مايون بنزع السلاح من أيدى المسلمين سنة ١١٦٠/٥٥٦م فثار المسلمون ضد هذا الأمر، وانتهز المسيحيون الفرصة فسفكوا دماء كثيرين منهم فى شوارع بلرم وفى الدواوين والحوانيت والفنادق كما سفكوا دماء جماعة ممن كانوا فى القصر، وقتل فى هذه الواقعة الشاعر القفصى يحيى بن التيفاشى كما قتل – فى ظن أمارى – الإدريسى الجغرافى، وهو ما يؤكد أن استخدام غليوم الأول للمسلمين فى القصر إنما كان ضرورة حضارية، اضطرته إليها الحضارة الإسلامية التى قهرته وقهرت شعبه. ومرت بنا – منذ قليل – أخبار عن ابن جبير

تدل على أن حرية المسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية لم تكن مكفولة تماما على نحو ما أوضح ذلك على لسان عبد المسيح فى مسِّينى وفقيه مدينة طرابنش وزعيم المسلمين بها ابن حجر والمسلم الصقلى الذى اختار أن يُحَرِّم من ابنته وأهداها زوجة إلى أحد الحجاج مع ابن جبير حتى لا تذوق ما يذوقه مع إخوتها من العذاب الأليم.

ويتضاعف الظلم الغاشم مع استيلاء أباطرة الألمان على صقلية - كما مرَّ بنا فى الفصل الأول - ويفر من صقلية آلاف من المسلمين إلى إفريقية التونسية، ولا يبقى بها إلا من عجزوا عن الفرار والرحيل ويصبحون بها مستعبدين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام للسادة الفرنجة ولا يكفل لهم شىء من الحرية الدينية، واستغاثوا بأبى زكريا مؤسس دولة الموحدين فعقد معاهدة مع فردريك الثانى الإمبراطور الألمانى، وتعهد له فردريك فيها بضمان تلك الحرية، ولم يطبِّق هذا التعهد، وازداد العسف والظلم الغاشم، واستغاث المسلمون هناك بالمستنصر ابن أبى زكريا، فعقد معاهدة مع فردريك على إجلاء المسلمين نهائيا من صقلية، وحلُّوا بتونس فى سواحلها ورحَّبت بهم المدن الساحلية وعاشوا فى أمان، ويقال إن فردريك أجْلى من بقى بجزيرة مالطة من المسلمين إلى أمالفى Amalfi جنوبى إيطاليا، وبمر الزمن تنصرت ذراريهم.

٣

الثقافة[1] فى العهد العربى

دائما تتحرك الثقافة الإسلامية مع الجيوش العربية الفاتحة، فبمجرد أن يفتح جيش عربى بلدا يقيم فيه مسجدا تُخْطَبُ فيه خطبة الجمعة وتُؤدَّى الصلوات الخمس، ويدخل أهل البلد المفتوح فى الإسلام أو كثيرون منهم، وتنشأ كتاتيب لتحفيظ الداخلين فى الإسلام شيئا من سور القرآن وتعليمهم وتعليم ناشئتهم مبادئ الكتابة العربية وشيئا من الشعر العربى لتستقيم العربية فى ألسنتهم. وكان هؤلاء المسلمون الجدد والجند العربى يتحلَّقون حول الشيوخ فى المساجد يأخذون عنهم تعاليم الإسلام، وكان من هؤلاء الشيوخ من يعرض الأسدية لأسد بن

---

(١) انظر فى الثقافة بالعهد العربى البيان المغرب لابن عذارى ومعجم الأدباء ومعجم البلدان فى سمنطار لياقوت وتثقيف اللسان لابن مكى وتاريخ الحكماء للقفطى وصورة الأرض لابن حوقل وطبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والخريدة للعماد الأصبهانى: الجزء الأول وإنباه الرواة للقفطى وبغية الوعاة للسيوطى وطبقات القراء لابن الجزرى والديباج المذهب لابن فرحون والصلة لابن بشكوال والحلة السيراء لابن الأبار والقسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس.

الفرات قائد الحملة الذى قضى نحبه فى حصاره لسرقوسة وهى تصور مذهب مالك من إملاءات أستاذه عبد الرحمن بن القاسم بمصر، حتى إذا شاعت مدوَّنة سحنون - وهى أيضا من إملاءات ابن القاسم - فى القيروان والبلاد المغربية أخذ الشيوخ فى صقلّية يلقنونها الناس والطلاب هناك.

ومع أن المسلمين فى صقلية ظلوا أشبه بمعسكر حربى لا يزالون ينتظرون النداء للحرب صباح مساء، ولا يزالون يُشهرون سيوفهم مع أول صارخ، ومع أن الصرخات كانت لاتنى ترتفع، ومع أنهم ظلوا يفتحون الحصون طوال عهدهم بها ولا يكادون ينتهون من حرب حتى يبدءوا حربا جديدة، مع ذلك كله استقروا بالمدن التى فتحوها، وكوَّنوا لأنفسهم فيها ولايات إسلامية، ونقلوا إليها الحضارة العربية وكل ما اتصل بها من عمران وبناء منازل وقصور فخمه، ونهضوا بالزراعة والصناعة والتجارة، كما نهضوا بالثقافة فى مختلف فروعها وعلومها وفنونها. ولم يكتف الشباب المسلم الصقلى بما كان يحصِّله من ذلك على علماء سرقوسة وجرجنت ومازر وبلرم وغيرها من المدن فقد كانوا يرحلون إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها، وكان كثيرون من علماء القيروان وشيوخها يعبرون البحر لتزويد الطلاب هناك بما أحرزوا من العلوم وصاغوا من المؤلفات. وكأنما كانت صقلية - طوال العهد الإسلامى - بلدا تونسيا، فكل ما فى القيروان من كتب ومصنفات وعلوم وآداب يرحل مع التونسيين المهاجرين إليها ومع أبنائها فى حقائبهم حين عودتهم إلى بلدانهم. وليست المسألة إذن أن كتابا نعثر على اسمه فى النصوص الصقلية مثل كتاب الملخص للقابسى الذى لخص فيه ما اتصل إسناده من أحاديث كتاب الموطأ لمالك، حتى إذا وجدناه هو أو غيره من الكتب سجلنا به وبها ما نُقل إلى صقلية من المصنفات العلمية، والمسألة كانت أوسع من ذلك إذ لم يؤلف فى القيروان كتاب مهم إلا حُمل إلى صقلية، وقد يحمله نفس مؤلفه على نحو ما هو معروف عن كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى، فقد ارتحل إليها بعد الهجرة الهلالية إلى موطنه، وحمل إليها معه هذا الكتابَ النفيس الذى يُعَدّ أروع ما وضعت المغرب والأندلس فى النقد الأدبى والبلاغة ومحسناتها من كتب، ولا ريب فى أنه كان له أثر بعيد فى نهضة صقلية الأدبية.

وعلى نحو ما تبادل العلماء والأدباء فى صقلية الرحلة مع علماء وأدباء القيروان كذلك تبادلوها مع علماء وأدباء المشرق والأندلس، بل كان بعض الشباب الأندلسى يقصد إلى صقلية للاستماع إلى هذا العالم أو ذاك ممن بلغت شهرتهم العلمية الأندلس، وكثيرا ما كان يقصد بعض علماء صقلية الأندلس فيجد شهرته سبقته إليها. وكانت رحلة الطلاب الصقليين إلى مصر والمشرق كثيرة، ونزلها غير عالم وأديب من المشرق من مثل أبى محمد إسماعيل بن محمد النيسابورى، وأخذ عنه - كما يقول ابن ظافر فى كتابه بدائع البدائه - غير واحد كتاب

اليتيمة للثعالبي. ومثل على بن حمزة اللغوى فقد ذكر ياقوت فى ترجمته أنه كان راوية لديوان المتنبى وأنه رحل إلى بلرم فى صقلية وظل فيها يروى للطلاب ديوان المتنبى ويشرحه إلى أن توفى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٦م ويبدو أن دواوين أخرى كثيرة دخلت إلى صقلية، فابن مكى يذكر فى ألباب الأربعين من كتابه «تثقيف اللسان ما كان يحظى فيه المعنون من أشعار كثير وذى الرمة وجرير وابن الرومى والشريف الرضى. ويقول القفطى بكتابه تاريخ الحكماء فى ترجمة أبى سليمان المنطقى عن كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى: إنه خاض كل بحر وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة منه بخطٍّ بعض أهل جزيرة صقلية، وهو قوله: «ابتدأ أبو حيان كتابه الإمتاع صوفيا وتوسطه محدّثا وختمه سائلا ملحفًا». وفى ذلك ما يدل على أن كتب الفكر العميق المشرقية - مثل كتب أبى حيان - كانت تحت أعين الصقليين. وما ذكرناه أو أشرنا إليه من ذلك إنما هو رموز لما نُقل إلى صقلية من نفائس الكتب الأدبية والفكرية، ولابد أن كانت نفائس الكتب التونسية والمشرقية فى التفسير والحديث النبوى والفقه تُنقَلُ بدورها إليها.

ومن المؤكد أن الحركة العلمية كانت نشيطة بها، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يقوله ابن حوقل فى كتابه صورة الأرض من أنه كان بها ما يزيد على مائتى مسجد، ويقول أيضا - ونقل ذلك عنه ياقوت فى معجم البلدان - إن فى بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم، ولابد أن كانت لهم حلقات كثيرة فى المساجد يحاضرون بها الناس فى مختلف فروع الثقافة الإسلامية. ومن طريف ما يذكره ابن حوقل أنه رأى بها كُتّابا به خمسة من المعلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكُتّاب أو مدير هذه المدرسة، ويقول إن صبيان الكتاتيب كثيرون وإنهم يبلغون أحيانا ثمانين طالبا فى الحلقة الواحدة أو الفصل الواحد، وهى بذلك ليست كتاتيب - كما يقول - إنما هى مدارس، وقد أهّلت لنشاط علمى واسع فى بلرم، وعلى شاكلتها كانت المدن الأخرى فى صقلية.

وحرىٌّ بنا أن نستعرض النشاط فى العلوم المختلفة بصقلية الإسلامية، ونبدأ بعلوم الأوائل، وكانت - فى رأينا - نشيطة بصقلية، إذ كان ما يقرب من نصف سكانها من الإغريق والرومان وكان لهم تراث قديم بلغتيها الإغريقية واللاتينية، وحذق كثيرون منهم العربية وحذق بعض العرب لغتيها بحكم الامتزاج والاختلاط والتعامل اليومى بين السكان، ودفع ذلك إلى التبادل عن طريق الترجمة بين التراث الإغريقى اللاتينى والتراث العربى، ومن أهم من عنوا بذلك الرهبان الصقليون، فكانوا ينقلون عن العربية بعض نفائس تراثها كما كانوا ينقلون إليها بعض نفائس التراث الإغريقى اللاتينى ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية

بإفريقية التونسية من أن الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد (٢٧١ - ٢٨٩ هـ) مؤسس بيت الحكمة فى عاصمته رقادة تخير بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية التى اطلع عليها، وكلف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية وألحق بهم بعض علماء اللغة من الإفريقيين، وعهد إليهم بهمة تنقيح عباراتهم وسبكها فى قالب عربى صحيح» ويستظهر أن يكونوا قد نقلوا إلى العربية كتاب بلينوس (Plinius) فى علم النبات. ويذكر ابن جلجل فى كتابه طبقات الأطباء أنه هاجر إلى قرطبة فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) من صقلية طبيب يدعى أبا عبد الله كان يتكلم اليونانية ويعرف أسماء العقاقير والأدوية، فضمه الناصر إلى علماء قرطبة وأطبائها ليكون عونا لهم فى ترجمة كتاب ديوسقوريدس المؤلف بالإغريقية عن الأدوية والنباتات. وقد مضت صقلية تعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب فى الترجمة. وكما كان التراث اللاتينى الإغريقى العلمى يترجم إلى العربية كان التراث العربى العلمى يترجم بدوره إلى اللاتينية. وكان الأطباء قد أخذوا يتكاثرون فى القيروان منذ أيام الأغالبة، فتكاثروا بصقلية مجاراة لأختها القيروان واطرد ذلك فى القرون التالية، ومما يدل عليه الفصل الذى عقده ابن مكى فى كتابه: «تثقيف اللسان» لبيان أغلاط الأطباء فى صقلية، واشتهرت فى القرن الرابع الهجرى بأنها بيئة فلسفية، مما جعل سعيد بن فرحون التجيبى الملقب بلقب الحمار السرقسطى يلجأ إليها حين أصابته محنة أيام المنصور بن أبى عامر فى أواخر هذا القرن كما يقول صاعد فى كتابه طبقات الأمم وظل بها إلى وفاته، وكان يحسن الفلسفة والموسيقى جميعا وله فى علوم الفلسفة رسالة بديعة سماها شجرة الحكمة. وبجانب فلاسفة أو متفلسفة صقلية كان هناك مهندسون ورياضيون من مثل العالم الرياضى عبد العزيز المعافرى وله ترجمة فى الخريدة. وتؤكد القصور الباذخة فى بلرم التى تغنى بها شعراء صقلية واصفين فخامتها وزخارفها وحدائقها النضرة وفواراتها البديعة مهارة مهندسيها البارعين. وبهرت قصور بلرم وغيرها من مدن صقلية فون شاك بفسيفسائها ورخامها وأبهائها وغرفها ونقوشها، وظل يدرسها سنوات طوالا كما مر بنا فى غير هذا الموضع وسجل ما بهره من مشاهدها فى كتابه الفن العربى فى إسبانيا وصقلية.

وتنشط صقلية الإسلامية فى الدراسات اللغوية والنحوية، وتمدها فى تلك الدراسات روافد من الخارج، فقد نزلها موسى بن أصبغ المرادى القرطبى الذى رحل فى طلب التعمق فى اللغة إلى المشرق، ودخل العراق وتتلمذ لعلمائه اللغويين وخاصة ابن دريد صاحب معجم الجمهرة، ولم يعد إلى وطنه وإنما عاد إلى صقلية واتخذها موطنا له كما يقول السيوطى فى البغية. وتلاه صاعد اللغوى الأندلسى المشهور بكثرة تلاميذه الأندلسيين رحل إليها فى أوائل الفتنة التى نشبت بقرطبة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ورجع إلى الأندلس ولم يلبث أن عاد إلى صقلية وتوفى بها سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م كما ذكر القفطى فى إنباه الرواة. ومن علمائها فى اللغة والنحو على بن

حبيب اللغوى الصقلى أحد رجال اللغة المعدودين والعلماء بها المبرزين، ومنهم طاهر بن محمد الرقبانى الصقلى اللغوى، ويقول القفطى عنه: لم يكن فى زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها، ونثرها ونظامها، وقصدته العلماء من كل مكان فلقوا منه بحرا خِضَرما (واسعا) وعلى شاكلته ابنه على بن طاهر الرقبانى، وكان حافظا للغة وأيام العرب، جامعا لأدوات الأدب. وما نلبث فى القرن الخامس قبل الغزو النورمانى أن نلتقى بعلم كبير من أعلام اللغة والنحو تكونت له بها مدرسة لغوية كبيرة هو محمد بن على بن الحسين بن البِرّ التميمى، وُلد بصقلية فى أواخر القرن الرابع الهجرى، حتى إذا أخذ ما لدى شيوخها من اللغة والنحو رحل عنها إلى المشرق للتزود منها، وألقى عصاه بالقاهرة، وتتلمذ فيها ليوسف النجيرمى المتوفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م وهو أهم من روى عنه المصريون كتب اللغة ودواوين الشعراء، يقول ابن خلكان: «أكثر ما تُرْوَى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه» وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجه فى أوثق صورة ممكنة، وبجانب الدواوين التى أخذها عن النجيرمى وفى مقدمتها ديوان ذى الرمة أخذ فى القاهرة عن صالح بن رشدين ديوان المتنبى الذى سمعه مباشرة من المتنبى وشرحه له، وأخذ أيضا فى القاهرة عن ابن بابشاذ مقدمته المشهورة فى النحو، وعاد إلى موطنه، واتخذ مدينة مازّر مقاما له، وأكرمه صاحبها ابن منكود وقرَّبه منه، وتحوَّل إلى مدينة بلرم سنة ٤٥٠ واتسعت شهرته وجاءه الطلاب من كل فج صقليين وغير صقليين، ومن الصقليين على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع وسنعود إلى الحديث عنه فى أيام النورمان، ومن تلاميذه غير الصقليين عبد الله بن إبراهيم الصيرفى ومنه سمع ديوان المتنبى سنة ٤٥٩، ومنهم عبد المنعم بن منّ الله القروى المعروف بابن الكماد وقد ألممنا به فى كتابنا عن الأندلس وردَّه المفحم على رسالة ابن غرسية، وحرى بنا أن نذكر أن من تلاميذه الصقليين عمر بن خلف المشهور باسم ابن مكى الصقلى مصنف كتاب تثقيف اللسان الذى سجل فيه الأغلاط التى سمعها من أفواه العلماء وغيرهم ونراه يقول فى مقدمته إنه عرضه على أستاذه ابن البِرّ «الإمام الأوحد والعلم الفَرْد، فأثبت ما عرفه وارتضاه، ومحا ما أنكره وأباه». وقد وزَّع ابن مكى كتابه على خمسين بابا تحدث فيها عن التصحيف والتبديل والزيادة والنقص فى الأسماء وكذلك الزيادة والنقص فى الأفعال وتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث إلى غير ذلك من صور الغلط على ألسنة الخاصة والعامة، وأضاف إلى ذلك فصولا طريفة عن أخطاء القرّاء والمحدِّثين والفقهاء والأطباء. والكتاب يدل على أنه كان فى صقلية حينئذ حركة لغوية خصبة بثَّها ابن البر فى تلاميذه كى يخلِّصوا الألسنة من أغلاطها وخاصة ألسنة العلماء. وما توافى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م حتى يبارح ابن البر صقلية إلى الأندلس، ويبارحها تلميذه ابن مكى إلى تونس، ويقول العماد الأصبهانى عنه فى ترجمته بالخريدة: «ولى قضاء تونس وهو فقيه محدث خطيب لغوى، وفضله بالألسنة فى جميع الأمكنة

مأثور مروى، وله خطب لا تقصُر عن خطب ابن نباتة». وابن نباتة أكبر خطيب أنتجه المشرق، وكان خطيب سيف الدولة فى حربه لبيزنطة. ولعل فى هذه الشهادة لخطيب من صقلية ما يمحو محوا ما زعمه ابن حوقل عن خطيب شاهده ببلرم يوم جمعة يجزم الأسماء مع الوصل ويجرُّ الأفعال من أول خطبته إلى آخرها. وليس فى المستمعين له من مسلمى بلرم مَنْ يعترض عليه. مع أنه ظل يخطبهم نحو عامين! وذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان مغرضا فى كل ما وصف به صقلية لأنها كانت ترفض المذهب الشيعى الإسماعيلى مذهب الدولة الفاطمية. فاتهاماته لها ولخطبائها اتهامات زائفة، وسنراها تنتج فى مجال الدراسات الدينية والأدب شعرا ونثرا ما يؤكد بطلان اتهاماته.

ويدل ما قدمنا على أنه وصلت الشباب الصقلى مجموعة اليتيمة للثعالبى وديوان ذى الرمة وغيره من شعراء الجاهلية والإسلام، كما وصلتهم دواوين عباسية مختلفة لأبى تمام وابن الرومى والمتنبى وأضرابهم، ولابد أن وصلهم كتاب البيان والتبيين للجاحظ وما به من خطب ومجموعة زهر الآداب للحصرى، وما من شك فى أن أكثر مجاميع الأدب المؤلفة فى المشرق وصلتهم ومرَّ بنا أن ابن البرِّ كان يروى بين ما يروى من الكتب والدواوين كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وكل ذلك كان له تأثيره فى نشوء ذوق أدبى عام فى صقلية بين الشباب والشيوخ، ولابد أن اطلعوا على بعض الكتابات البلاغية والنقدية فى المشرق بدليل استخدام شعرائهم وكتّابهم لمحسنات البديع، وبدليل ما فى أشعارهم من عذوبة وسلاسة، وكان حظ الشباب فى صقلية عظيما إذ نزل ابن رشيق فى أواخر أيامه بمازر واتخذها مقاما له إلى وفاته سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وظل هناك سنوات يدرس للطلاب كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده ويعد من أروع كتب الأسلاف فى النقد وفى بيان المحسنات البلاغية إن لم يكن أروعها كما يقول ابن خلدون، وقرأه عليه ابن متكود والى مازر بشهادة نسخة من الكتاب وقعت للقفطى كما يقول فى ترجمته بكتابه إنباه الرواة وأخذ الطلاب فى صقلية بمازر وغير مازر يتدارسونه فى حياته وبعد وفاته. ومعنى ذلك أن صقلية أتيح لها من المختارات الشعرية والنثرية ما أتاح لأدبائها ملكات أدبية خصبة كما أتيح لها من كتب البلاغة والنقد، وفى مقدمتها كتاب العمدة ما أتاح لأدبائها جمال الصياغة ودقة الذوق الأدبى ورهافته.

وإذا تركنا الدراسات النقدية واللغوية فى صقلية الإسلامية إلى الدراسات الدينية وجدنا من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى محمد بن خراسان كما فى طبقات القراء لابن الجزرى، طلب العلم بمصر وفيها درس القراءات والحديث النبوى وتتلمذ لأبى جعفر النحاس وكتب عنه مصنفاته وقرأها عليه وكان بينها كتابه إعراب القرآن، وظل مقرئا متصدرا بصقلية إلى أن توفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وقد بلغ ستا وتسعين، وممن روى القراءة عنه يوسف بن حبيب وغيلان بن

تميم. وطبيعى أن تزدهر قراءة القرآن فى صقلية مثلها فى ذلك مثل جميع البلاد الإسلامية، وكانت مثل تونس والبلاد المغربية – تقْرأ بقراءة ورش المصرى عن نافع وعادة يوصَف المقرئ بأنه مفسر للقرآن مما يدل على أن المقرئين للذكر الحكيم فى صقلية كانوا كثيرا ما يعنون بتفسيره حتى تفهم الناشئة ما تحفظه منه، ونجد حَمّل محمد بن خراسان المار آنفا لكتاب إعراب القرآن للنحاس يحدث فى صقلية نشاطا فى هذا الموضوع فإذا أبو طاهر إسماعيل بن خلف الصقلى المتوفى سنة٤٥٥ هـ/١٠٦٣م يؤلف كتابا فى إعراب القرآن كان فى تسع مجلدات، وسنترجم – فيما بعد – لابن ظفر الصقلى وله فى التفسير ثلاثة كتب.

وعلى نحو ما كان إقراء الذكر الحكيم وإعرابه وتفسيره ناشطا فى صقلية كانت – بالمثل – رواية الحديث النبوى، إذ كان حُفّاظه النابهون كثيرين من مثل أبى بكر الحصائرى، ومن أهم حفاظها عتيق السمنطارى وقد نوه به ياقوت فى الحديث عن بلدته «سمنطار» فى كتابه «معجم البلدان» وكان قد لزم حلقات الشيوخ فى بلرم حتى أخذ ما عندهم، وارتحل إلى لقاء الشيوخ ونزل مدينة الرسول ﷺ، واتسع فى رحلته فأخذ عن شيوخ اليمن وفارس وخراسان والشام ومصر، وكان يلقى فى تلك البلدان بجانب شيوخ الحديث وحفاظه العُبّاد والنساك ويكتب ما يسمعه من الفئتين. وصنف كل ما جمعه عنهم، كما صنفّ فى الفقه تأليفًا كان فى غاية الترتيب والبيان. وكان يدرس لتلاميذه فى صقلية الحديث النبوى وكتاب الموطأ فى الفقه المالكى، وتوفى سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م حين احتل روجّار الأول ملك النورمان بلرم.

وأكثر فقهاء المالكية بصقلية كانوا محدِّثين لأن الموطأ لمالك كتاب فقه وحديث وكان نشاط الفقه بصقلية واسعًا جدًا، وهُيأ لذلك أن كان قضاة صقلية – منذ أول الأمر – يحاضرون الناس فى الفقه المالكى عمدتهم فى القضاء يتقدمهم فى ذلك سالم بن سليمان الكندى الذى ولى القضاء فى صقلية سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤م وقد عمل بكل جهده على نشر مذهب مالك فى صقلية كما فى كتاب رياض النفوس. ونزلها تلميذ من كبار تلامذة الإمام ابن أبى زيد فقيه القيروان المتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦م هو البراذعى خلف بن أبى القاسم وكان زملاؤه من فقهاء القيروان يزورّون عنه، فلم تحصل له بها رياسة، فرحل إلى صقلية، وقصد أميرها فى بلرم، فحصلت له عنده مكانة طيبة، وعنده ألف كتابه التهذيب فى اختصار مدونة سحنون فى الفقه المالكى يقول ابن فرحون وعليه معول الناس فى صقلية والمغرب والأندلس، وطارت شهرته فى العالم الإسلامى وكتبت له شروح مختلفة. وألف بصقلية أيضا كتابا فى التمهيد لمسائل المدونة وكتاب الشرح والتتمات لمسائل المدونة، وله أيضا اختصار الواضحة من كتب الفقه المالكى يقول ابن فرحون: وعليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة وكان ابن أبى زيد قد جمع ما فى الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال فى كتابه النوادر فنقل البراذعى معظمه فى كتابه على المدونة. ويبدو أنه توفى بصقلية فى أوائل القرن الخامس الهجرى.

ومن فقهاء صقلية بعده محمد بن يونس التميمي من مدينة مازر المتوفى سنة ٤٥١ وقد لقب بالإمام الأكبر لتبحره فى الفقه المالكى وجاءه الناس للفتوى، وله مؤلف جيد فى مسائل كتاب الموطأ للإمام مالك، وله إضافات مفيدة وتعليقات علمية جيدة على مدونة سحنون. وكان يعاصره عبد الحق بن محمد القرشى الصقلى، لزم حلقات الشيوخ فى بلده حتى ارتوى منها، ورحل للحج ولقاء الشيوخ والفقهاء الكبار والتقى بأبى ذر الهروى شيخ المالكية فى هراة وبالقاضى عبد الوهاب المالكى شيخهم فى العراق كما التقى فى حجة ثانية بإمام الحرمين الجوينى وسأله عن مسائل أجابه عنها وسجل ذلك فى أحد كتبه، وكان يدرس لطلابه فى بلرم مدوّنة سحنون التى جمعت أصول المذهب المالكى، يقول ابن فرحون أيضا عنه: «كان مليح التأليف، ومن مؤلفاته كتابه «النكت والفروق لمسائل المدونة» ويقول ابن فرحون أيضا إنه «عاد إليه بالتغيير والتبديل ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته» وله كتاب فى الفقه المالكى كبير باسم «تهذيب الطالب» وله استدراك على تهذيب المدونة للبراذعى وله كتاب فى بسط ألفاظ المدونة، وكأن أعماله الفقهية انحصرت فى خدمة مدونة سحنون. وحاز شهرة كبيرة فى حياته وكان كثير الارتحال، فدرس عليه فى القيروان - كما فى الصلة لابن بشكوال - ابن الخياط ومحمد بن نعمة الأسدى، ودرس عليه فى صقلية من الأندلسيين أبوبكر بن الحصار، وهاجر إلى الأندلس من تلامذته الصقليين - ثابت الفقيه الصقلى، وتوفى بالاسكندرية سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ويبدو أنه رحل عن بلرم بمجرد استيلاء روجار الأول ملك النورمان عليها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م.

٤

الثقافة[1] فى العهد النورمانى

دخل النورمان صقلية والحركة العلمية بها مزدهرة، وهالهم ما رأوا فيها من حضارة ومدنية إسلاميتين، وشعروا بوضوح أنهم فى حاجة، بل فى أشد الحاجة إلى أن يجلسوا من سكانها العرب مجلس التلامذة من أساتذتهم فى الزراعة والصناعة والتجارة وفى الثقافة والعلوم والفنون المختلفة. ودفع روجّار الأول ابنه روجار الثانى إلى تعلم العربية وإلى الإكباب على علومها وفنونها، وبالمثل دفع روجار الثانى ابنه غليوم الأول إلى التزود من هذه العلوم والفنون ما وسعه

(١) انظر فى الثقافة بالعهد النورمانى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى ورحلة ابن جبير، وخطط المقريزى، والخريدة للعماد الإصبهانى، وإنباه الرواة للقفطى، وطبقات القراء لابن الجزرى، وابن خلكان، ومقدمة ابن خلدون، والقسم الثالث من ورقات عن الحضارة فى إفريقيا التونسية، والعلم عند العرب لألدوميلى ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار، والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس.

التزود وحث بدوره ابنه غليوم الثانى على استيعابها ما أمكنه. ويحدثنا الإدريسى فى فواتح كتابه «نزهة المشتاق» عن مدى ما أحرز روجار الثانى من هذه الفنون والعلوم قائلا: «أما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تُدرَكُ بِعَدٍّ، ولا تُحْصَرُ بحَدٍّ، لكونه قد أخذ بكل فَنٍّ منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقِدْح المعلَّى» ويقول ابن جبير - كما مرَّ بنا - عن غليوم الثانى: «له الأطباء المنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذُكر له طبيب أو منجم اجتاز ببلده أمر بإمساكه، وأدرَّ له أرزاق معيشته، حتى يسلِّيه عن وطنه.

وأحسَّ روجار الأول - منذ أول الأمر - بالحاجة إلى ترجمة الكنوز العلمية النفيسة من العربية إلى اللاتينية، حتى يحوز النورمان لأنفسهم هذه الثروات العلمية، ولم يلبث أن أتاح له ذلك نصرانى يسمى قسطنطين الإفريقى ولد بمدينة قرطاجة التونسية سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م وثقف العربية وأتقنها، واختلف فى القيروان إلى أصحاب علوم الأوائل فى الطب والرياضة والفلك، ورحل إلى القاهرة وفيها استكمل معرفته بالعلوم المذكورة، وعاد إلى بلده: قرطاجة وتركها إلى صقلية فى عهد روجار الأول وعرف منه حاجته إلى ترجمة كل ما كتبه العرب عن الطب، فرجع إلى القيروان، وجمع منها أنفس ما كتبه أطباؤها العظام، وعاد إلى روجار الأول يبشره بأنه اصطفى له أفضل وأنفس ما لأطباء القيروان والعرب عامة من كتب طبية وغير طبية، فأسِّس له دَيْر جبل كاسينو بالقرب من مدينة سالرنو فى جنوبى إيطاليا فتولى رياسته وأخذ يُغْرِى رهبانه بتعلم العربية حتى إذا تعلموها أغراهم بترجمة مصنفاتها الرياضية والفلكية والطبية إلى اللاتينية، ودُرِّس ما ترجموه فى كلية سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوربية، ومما يدل على ذلك أبلغ الدلالة فى المجال الطبى أن نجد فردريك الثانى ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا يسنُّ لائحة خاصة لمزاولة العمل الطبى فى مملكته يفرض فيها على كل طبيب يعمل بها أن يحصل على إجازة الطب من كلية سالرنو، وكان ذلك قبيل عصر النهضة الأوربية، فكان له تأثير بالغ فيها. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى القسم الأول من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية»: «جدير بالملاحظة أن جُلَّ ماترجمه قسطنطين من الكتب العربية إلى اللاتينية أو حاول تقليده والوضع على غراره إنما كان مستمدا من مصنفات أطباء قيروانيين مثل إسحق بن عمران وأحمد بن الجزار، كما أنه اعتمد فى الفلك وعلم الهيئة على كتاب البارع فى الفلك والنجوم لعلى بن أبى الرجال القيروانى». وكل ذلك كان يصب فى صقلية أخت القيروان، ويبدو أنها اشتهرت فى الفلك والهندسة بعلماء ومهندسين أفذاذ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - أننا نجد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ/٩٩٦م - ٤١١هـ/١٠٢٠م) حين ينشىء مرصده فى القاهرة يرسل إلى صقلية، فى طلب حذَّاقها فى الهندسة والتنجيم، ويوافيه أبو محمد عبد الكريم المهندس الصقلى، ويتوقف العماد الأصبهانى فى القسم الخاص بصقلية ليقول عن هذا الشاعر أو ذاك إنه رياضى أو منجم فلكى أو مهندس

مثل عبد العزيز المعافرى وكان من علماء الرياضيات ومثل ابن القرنى وكان منجما حاسبا، ومثل محمد بن عيسى الفقيه وكان مهندسا منجما وشاعرا بارعا.

ومعروف أن روجار الثانى ملك صقلية النورمانى استدعى الشريف الإدريسى إلى «بلرم» عاصمته، وطلب إليه أن يؤلف له كتابا فى الجغرافيا، فألّف له كتابه الرائع: «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» وهو أكمل كتاب جغرافى ألفه العرب، وظل عند الأوربيين أهم مرجع فى علم الجغرافيا إلى القرن السادس عشر، وقد أتم الإدريسى تأليفه سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م وترجمت قطع كبيرة منه إلى مختلف لغات العالم. وطلب منه روجّار الثانى خريطة للعالم فنقشها على كرة من الفضة تزن ثمانمائة أوقية، ورسم عليها جميع الأقاليم التى كانت معروفة لعصره، وهما عملان باهران من أعمال العبقرية العربية. وكان حريا بالإدريسى أن يقدمها إلى حاكم عربى فى عصره لا لحاكم نورمانى نهب هو وأبوه صقلية العربية وقد وجه إلى المهدية بالإقليم التونسى اسطولا مكونا من ثلاثمائة سفينة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واستولى عليها وظل بها اثنى عشر عاما حتى خلصها عبد المؤمن سلطان الموحدين. وظل الإدريسى فى بلرم أيام غليوم الأول وله ألف كتابا سماه «روض الأنس ونزهة النفس، وقد وضع فيه الإدريسى - كما يقول الدومييلى - خرائط أصغر سعة ومقياسا، وخرائطه جميعا تقوم على تحديد درجات الطول والعرض، ويقال إنه توفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م والمظنون أنه قتل فى ثورة للنورمان حينئذ على العرب فى بلرم.

ويلقانا فى العهد النورمانى غير عالم لغوى ونحوى، ومن نحاتها ولغوييها الذين ظلوا بها ولم يبرحوها على بن بشرى اللغوى الصقلى ويقول القفطى: «كان فى النظم والنثر سابقا لا يجارَى، وفى اللغة والإعراب لا يبارى» ومنهم عمر بن حسن النحوى الصقلى يقول القفطى: «شيخ فى اللغة والنحو طويل الباع فيهما، أُخِذا ورُويا عنه تصدر للإفاده ببلرم» ومنهم محمد بن زيد الطُّرْطائى الصقلى «آخذ من كل العلوم بالحظ الوافى، متقدم فى علم الأوزان والقوافى». ومن بارحوا صقلية - فى العهد النورمانى من كبار اللغويين والنحاة على بن عبدالرحمن الصقلى العروضى، يقول عنه القفطى: «نزيل الإسكندرية عالم بعلمى النحو والعروض قيم بهما. بليغ فيهما، مشارك فى جميع الأنواع الأدبية، متصدر لإفادة الطلاب». ومنهم ابن القطاع على بن جعفر التميمى المولود سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م تلميذ ابن البر، وكان مثل أستاذه عالما لغويا كبيرا، ومازال بصقلية يدرس ويؤلف لطلابه حتى إذا كانت سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م انتقل إلى مصر فاحْتفى به أهلها، وتصدر للتدريس والافادة إلى أن توفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ومن تصانيفه كتاب تهذيب أفعال ابن القوطية فى اللغة وهو خير من كتاب ابن القوطية وكتاب أبنية الأسماء يقول ابن خلكان جمع فيه فأوعى. وكان كتاب الصحاح للجوهرى بمصر - كما يقول القفطى - لا يروَى إلا عن طريقه عن ابن البر، وكان له كتاب نفيس فى

شعراء صقلية سماه: «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة» وفى دار الكتب المصرية مختصر له، ونقل عنه العماد الأصبهانى فى الخريدة: قسم صقلية طائفة كبيرة من شعرائها البارعين. ومن هؤلاء النازحين عن صقلية فى العهد النورمانى على بن ابراهيم النحوى الصقلى المعروف بابن المعلم، كان مجيدا للغة والنحو وتصدر للإفادة فيها، بارح صقلية واستوطن مصر إلى أن توفى بها سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧م. ومنهم عثمان بن على السَّرقوسى الصقلى النحوى، كان عالما نحويا مقرئا للقرآن الكريم، وله حاشية على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى، وكانت له فى جامع الفسطاط حلقة للإقراء، وانتفع به الناس ونقلوا كلامه وكتبوا تصانيفه، وله مختصر كتاب العمدة لابن رشيق زاد به أبوابا أُخل بها مؤلفه وهى واقعة موقعا جيدا من التصنيف. وحقا كان النشاط العلمى لهؤلاء النحاة واللغويين الصقليين خارج جزيرتهم، ولكنى ذكرتهم لأدل على مدى ما حدث بالحركة العلمية فى صقلية من خمود وقف ما كان ينتظر لها من ازدهار عظيم بسبب استيلاء النورمان عليها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة الدينية وبدأنا بالقراءات القرآنية وجدنا لصقلية إماما كبيرا من أئمتها هو عبد الرحمن بن عتيق المقرئ المعروف بابن الفحام المولود بسرقوسة سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وقد رحل من صقلية إلى مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م فى طلب القراءة القرآنية على أئمتها المصريين وظل يأخذها عنهم حتى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢م ومن شيوخه فيها ابن نفيس تلميذ عبد المنعم بن غلبون شيخ القراءات بمصر، وتتلمذ لابن بابشاذ وأملى عليه شرح مقدمته المشهورة فى النحو، وعاد إلى بلده، ولم يلبث أن نزلها النورمان فبارحها إلى الإسكندرية واتخذها موطنا له، وكان من أعلم القراء بالقراءات ووجوهها، ولم يلبث أن أصبح شيخ القراء بالاسكندرية علما ودراية، وألف فيها كتابه «التجريد فى بغية المريد» وبها توفى سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢م.

وكان كثير من القُرّاء لايزالون يلقون على طلاب صقلية دروسا فى التفسير، ويلقانا فى منتصف القرن السادس الهجرى مفسر صقلى كبير هو ابن ظفر ويهاجر منها إلى الشام وسنترجم له فى حديثنا عن النثر الصقلى، وتظل رواية الحديث النبوى ناشطة فى العهد النورمانى، ويلقانا فيه إمام من أئمته، هو الحافظ محمد بن على بن عمر التميمى المعروف باسم المازرى نسبة إلى مسقط رأسه فى مدينة مازر بصقلية، وقد لزم حلقات شيوخها حتى اكتمل مرباه العلمى، وهاجر منها إلى الإقليم التونسى، وتولى القضاء فى القيروان ثم فى المهدية، وبها ألقى عصاه إلى أن توفى سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١م عن ثلاث وثمانين سنة ودُفن برباط المُنَسْتير وفيه يقول ابن خلكان هو أحد الأعلام المشار إليهم فى حفظ الحديث، ويقول المقرى فى أزهار الرياض ناعتا له: «الإمام المجتهد أبو عبد الله المازرى عمدة النظار، ومحور الأمصار، المشهور

فى الآفاق والأقطار حتى عُدَّ فى المذهب المالكى إماما». وله فى الحديث النبوى شرح جيد على صحيح مسلم سمَّاه كتاب «المعلم بفوائد مسلم» وفيه يقول ابن خلدون فى المقدمة: «أما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به.. وأملى الإمام المازرى من كبار فقهاء المالكية عليه شرحا سماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه. وكان العلماء فى عصره يتسابقون إلى أخذ الإجازة عنه برواية هذا الشرح وبقية كتبه، ومنهم القاضى عياض الإمام المشهور وقد بنى على شرحه لصحيح مسلم شرحا سماه «إكمال المعلم بفوائد مسلم». وللمازرى بجانب هذا الشرح مصنفات فى الفقه المالكى وعلم الأصول، من ذلك شرحه لكتاب التلقين للقاضى المالكى عبد الوهاب ويقال إنه ليس للمالكية كتاب مثل شرح كتاب هذا القاضى وشرح البرهان فى الأصول لإمام الحرمين الجوينى. وهو بحق يعد خاتمة الفقهاء والمحدثين بصقلية.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

نشاط الشعر

كانت صقلية جَنَّة من جِنان العالم الإسلامي بما كانت تحمل فوق حقولها من رداء القمح الذهبي ورداءات الكروم والبرتقال ومزارع القطن الزمردية وبساتين النخيل والموز والفواكه والزهور الأرِجة، والخيل الكريمة، ومعادن الذهب والفضة والكبريت والنحاس ومصانع الأقمشة والحرير المزركش. لقد كانت حديقة كبيرة فى البحر المتوسط لم يحسن الخلفاء العبيديون بعد الدولة الأغلبية القيام عليها فضلا عما تبعها من شبه جزيرة قَلَوْرِيَّة فى إيطاليا.

وطبيعى أن يتغنَّى بهذه الحديقة الفاتنة كثير من الشعراء، ونلاحظ أن هذا التغنى تأخر نحو قرن فقد تأخر طوال حكم الدولة الأغلبية، إذ كانت فى صراع مستمر مع كثير من المدن والحصون، ومع ذلك مدَّت ذراعها إلى جنوبى إيطاليا واستولت على قَلَوْرِيَّة. وتستولى الدولة العبيديَّة على مقاليد الأمور بإفريقية التونسية وتخمد حركة الفتوح فى الجزيرة وكأنما لم تكن تعنيها فى قليل ولا كثير، حتى إذا تركتْ شئونَها السياسية والإدارية إلى بنى أبى الحسين الكلبيين أخذت الجزيرة تشعر معهم بشىء من الاستقلال، كما أخذت تشعر بشىء من شخصيتها، وعادت لها الحماسة الإسلامية، وأخذت هذه الدولة تعنى بفتح ما تبقى من البلدان والحصون فى صقلِّية وفى قلوريَّة.

وتزدهر الحركة الشعرية فى صقلية لعهد هذه الدولة، وخير كتاب كنا نطلع منه على هذا الازدهار لو أنه لم يسقط من يد الزمن هو كتاب «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة» لابن القطاع على بن جعفر السعدى الذى توفى بمصر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، فقد كان يشتمل على مائة وسبعين شاعرا، وكأنه أراد أن ينافس بكتابه كتاب الأنموذج لابن رشيق الذى اشتمل على مائة شاعر فحسب، صوَّر بهم الحركة الأدبية فى إفريقية التونسية. ولو أن كتاب ابن القطاع وصلنا لاستبانت الحركة الشعرية بصقلية الإسلامية تمام الاستبانة إذ قصره على تلك الحركة وحدها، ولم يدخل عليه أحدا من العصر النورمانى. وفى المكتبة التيمورية مختصر للكتاب اختيار أبى إسحق بن أغلب، قال فى مقدمته له إنه ذكر فيه سبعة وستين شاعرا فقط،

ولا يوضّح على أى أساس اختار من اختار وأهمل من أهمل، والنسخة بها نقص فى تضاعيفها وفى آخرها، بحيث لم يبق فيها سوى ٤٣ شاعرا، وحَذْفُ ما وضعه ابن القطاع مع الشاعر من مقدمات كانت حريّة أن تفيد الباحثين فى دراستهم لشعراء صقلية الإسلامية فى عصر الكلبيين. وهناك اختيار ثان لعلى بن منجب الصيرفى المصرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة من كتاب الدرة الخطيرة ضمنه تسعة عشر شاعرا، وهو منشور فى عنوان الأريب المطبوع بتونس للشيخ الجليل محمد النيفر التونسى. وبجانب اختيارات ابن منجب الصيرفى وأبى إسحق بن أغلب من الدرة الخطيرة تلقانا اختيارات العماد الأصبهانى منها فى كتابه الخريدة، ويبلغ ما اختاره منها ٤٤ شاعرا مجموعة فى الجزء الأول المنشور وبعدها فى نفس الجزء شاعر من الدرة الخطيرة ص ٣٢٧ من طبعة تونس ثم شاعران آخران ص ٣٣٥، ٣٣٦ وربما كانا أيضا من شعراء الدرة. ويبدأ العماد الحديث عن شعراء الخريدة بشاعر يقول إن أباالصلت أمية بن أبى الصلت الأندلسى سماه فى رسالته المصرية، البلّنوبى أباالحسن على بن عبدالرحمن بن أبى البشر الكاتب الصقلى الأنصارى، ويفيض فى ذكر غزلياته، ثم ينقل عن ابن بشرون المهدوى من كتابه المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر أحد عشر شاعرا كلهم من العصر النورمانى، ويضيف إليهم فى ص ٢٧٣ ترجمة لأبى الضوء سراج بن أحمد بن رجاء الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بشرون فيكون مجموع ما ساقه عن ابن بشرون اثنى عشر شاعرا من العصر النورمانى، وبذلك يبلغ من ذكرهم العماد فى الخريدة من شعراء صقلية نحو ستين شاعرا وإذا حاولنا أن نرصد بينهم أول من له صلة بالولاة الكلبيين لقينا القاسم بن نزار الكلبى يعاتب ابن عمه الأمير أحمد بن الحسن بن أبى الحسين الكلبى (٣٥٤-٣٥٨هـ) على جفائه له وهو عتاب فيه مرارة شديدة إذ يقول[1]:

إنّى متى يجفو الحبيـ	ـبُ وصلْت جَفْوته ببيْنِ
ومنعتُ عينى أن ترا	هُ ولو رأته فقأْتُ عَيْنِى
ووضعتُــه دون الحضيـ	ـض لو أنَّه فى الفَرْقدينِ
وقطعتُه لـو كـان يُشْـ	ـبه أحمد بن أبى الحسين

وأكبر الظن أن الأمير أحمد بن الحسن بن أبى الحسين لم يكن فظا فقد كان قائد أسطول صقلية قبل توليه زمام الأمور بها، وكان يتعامل مع الناس تعاملا كريما، ونرى المعز يستقدمه إلى المهدية، ويوليه قيادة أساطيل الدولة، ويولى مكانه أخاه على بن الحسن (٣٥٩ - ٣٧٢ هـ)

---

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (طبع تونس) ٨٧/١.

ومن مادحيه سهل بن مهران، وعُرف بأنه كان ممن يطيلون فيجيدون. وولى - بعد على - صقلية جعفر بن محمد فحسنت به الأحوال واستقامت الأمور إلى أن توفى سنة ٣٧٥ وخلفه أخوه عبد الله ولم تطل مدته إذ توفى بعد عامين، وولى بعده ابنه يوسف، وكان عادلا حسن السيرة فأحبه الناس ولقَّبه الخليفة الفاطمى بلقب ثقة الدولة وعمَّ الرخاء والأمن فى أنحاء الجزيرة وفى عهده وصل حكم الكلبيين فيها إلى القمة المتفاة من المجد والعزة، ووفد عليه الشعراء من إفريقية التونسية ومن الجزائر يمدحونه وفى مقدمتهم محمد بن عبدون السوسى الذى ترجمنا له بين شعراء تونس وأطلنا فى بيان صلته بثقة الدولة وابنه جعفر، وعلى شاكلته شاعر الجزائر أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخى المعروف بابن قاضى ميلة، وله فى ثقة الدولة مدحة ضافية، ومن شعراء صقلية الذين دبَّجوا فيه المدائح الطوالَ ابن القرقورى وهاشم بن يونس ولهما فى الخريدة مدحتان فى ثقة الدولة نوَّها فيهما بشجاعته وبأسه، وعلى شاكلتهما شعر مشرف بن راشد، وإن لم يسم ممدوحه، ومن شعرائه الحسن بن محمد الطوبى، وله مدحة فى المعز بن باديس، ومنهم محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلى صاحب ديوان الإنشاء، وله فى ثقة الدولة مرثية استهلها بقوله: (حنانيك ما حىٌّ على الدهر يسلم). وأخذت الولاية الصقلية تتضعضع فى عهد ابنه جعفر ثم فى عهد أخيه أحمد الأكحل، ومن شعرائها المشرف بن راشد وابن الخياط، وثار عليه الصقليون كما أسلفنا واستغاثوا بالمعز بن باديس صاحب القيروان وإفريقية التونسية، ثم عادوا فولَّوا عليهم صمصام الدولة وسرعان ما يثور به الصقليون وتدخل صقلية فى عصر أمراء الطوائف، وأصبح لكل أمير شاعره أو شعراؤه، فمحمد بن القاسم بن زيد ينحاز إلى على بن نعمة صاحب جرجنت وقصريانة، وعبد الحليم الصقلى إلى ابن متكود فى مازر وابن الخياط إلى ابن الثمنة فى بلرم، ونلتقى بعد ذلك بالشعراء الذين بكوا صقلية ومدنها حين سقطت فى حجر النورمان من أمثال أبى محمد القاسم بن عبد الله التميمى وابن حمديس. وحرى بنا أن نتوقف الآن لنتحدث عن شعراء الشعر الصقلى موزعين على موضوعاته.

٢

شعراء المديح

ظل المديح يدبَّج فى أمراء الأسرة الكلبية طوال حكمها لصقلية، غير أن كتب المختارات لم تعرض علينا منه إلا شظايا: بيتا أو بيتين من القصيدة مع عرضها فى الغالب لمقدمتها من الغزل وغير الغزل، وكانت صقلية قد أخذت تكتظ بالشعراء منذ عصر ثقة الدولة يوسف بن عبدالله الكلبى (٣٧٧-٣٨٨هـ) وجاءه من يمدحونه من الجزائر وإفريقية التونسية كما أسلفنا وكثر من يمدحونه فى صقلية نفسها من أبنائها الشعراء مثل أبى الفتح محمد بن الحسين بن القرقورى

الكاتب، وله يعتز به وبما ينال من عطاياه فى التخلص إلى المدح من قصيدة[1]:

وماذا عليهمْ أن أجودَ بتالدى ... وأُفنى طَريفى قبل يومى وأُتلِفُ[2]

لهم ما اقْتَنَوْا فَلْيَحْرِصوا فى ادِّخاره ... ولى كنزُ شعرٍ لا يَبِيدُ ويوسفُ

ويوسف هو يوسف بن عبد الله ثقة الدولة، وهو يقول لخصومه الذين يعنفونه لتبذيره أمواله إنه لا يخشى شيئا من هذا التبذير طالما ينظم مدائحه المطولة فى يوسف ويسبغ عليه عطاياه. وأكبر الظن أن ما ساقه العماد للمشرف بن راشد وهاشم بن يونس من مديح لقائد بشجاعته إنما يريدان به ثقة الدولة، وهى أبيات محدودة. ومن شعراء ثقة الدولة على بن الحسن الطوبى، وكان يلازمه وتراه بعد وفاته يعبر البحر إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية التونسية، وله يقول من مدحة رصّع بها ديوانه كما يقول العماد[3]:

إليكَ مُعِزَّ الدينِ وابنَ نَصيرِهِ ... حلتُ عقودَ المدحِ بعد انْتِخابِها

وأثوابَ حمدٍ حُكْتُ أثوابَ وَشْيِها ... على ثِقَةٍ منى بِعُظْمِ ثَوابِها

وكان الشعراء فى صقلية وإفريقية التونسية كثيرا ما يتبادلون ممدوحيهم، فالشاعر القيروانى يعبر البحر لمدح الوالى أو الأمير الكلبى كما عبّره محمد بن عبدون السوسى، والشاعر الصقلى يجتاز بدوره البحر ليمدح الأمير القيروانى أو الأمير المشهور فى عصر أمراء الطوائف ويلقانا بأخرة من عصر الكلبيين ابن الخياط، وسنخصه بكلمة، ونلتقى بعده بجعفر بن الطيب الكلبى، وكان شاعرا مجيدا، وله قصيدة بديعة يمدح بها مُدافع بن رشيد الهلالى أمير قابس فى آخر عهد أمراء الطوائف، وله يخاطب ناقته فيها[4]:

سأنزل عنكِ فى مَرْعىً خَصيبٍ ... وماءٍ باردٍ عَذْبٍ فُراتِ

بأرض مُدافعٍ مأوى الأمانى ... وقتّالِ السنين المُجْدِباتِ

فيحملُ عنكِ هَمِّى فوق طِرْفٍ ... سَبُوقٍ من خيول سابقاتِ[5]

أغرَّ تخاله ريحًا أُعيرتْ ... قوائمَ باللُّجَيْنِ محجَّلاتِ[6]

لقد أطمعتَ فى جَدْواك حتى ... سِباعَ الطَّيرِ من بعض العُفاةِ[7]

وهو يقول لناقته إنه سينزل عنها فى مرعى مدافع الخصيب حصن الأمانى وقتّال السنين

---

(١) الخريدة ٩٦/١.

(٢) تالدى: مالى القديم. طريفى: مالى الجديد.

(٣) الخريدة ٧٣/١.

(٤) الخريدة ١١٣/١.

(٥) طرف: فرس كريم.

(٦) أغر: له غرة بيضاء. قوائم محجلة: بيضاء أو بها بعض بياض. اللجين: الفضة.

(٧) جدواك: عطائك والعفاة: طلاب المعروف.

العجاف المجدبات، فيحمله فوق حصان سبوق أغرّ قوائمه محجلة بلجين يخطف الأبصار، ويقول له لقد أطعمت فى كرمك الفيّاض حتى إن سباع الطير لتلزمك وتلزم جيشك لما تعرف من كرمك وفتكك المستمر بالأعداء، حتى لكأنها من طلاب النوال.

ويُظِلُّ العهد النورمانى صقلية، وكان المظنون أن لا يجد الشعراء المسلمون الذين ظلوا هناك ملوك النورمان، ويبدو أنهم كانوا يفرضون على الشعراء تمجيدهم، وكانوا يضطرون إليه أحيانا لأنهم أسرى فى أيديهم ويريدون أن يفكوا عن أقدامهم أغلال الأسر، على نحو ما نجد عند أبى حفص عمر بن حسن النحوى فى مديحه لروجار الثانى وهو فى قبضة سجنه قصيدة له وفيها يقول[٤]:

يهتزُّ للجَـدْوَىَ اهتـزاز مُهنَّـد ... يهتـزُّ فى كفِّيه يـوم جِـلادهِ
ويضيئُ فى الدَّيْجور ضوءُ جبينِهِ ... فتخالُ ضوءَ الشمس من حُسَّادِهِ

وأظنها كانت فدية لتحريره وأنه ردُّ إليه حريته. ويدل على ما نقول من أن الشعراء المسلمين كانوا يضطرون أحيانا إلى مديح روجار أن نجد شاعرا يسمى عبد الرحمن بن رمضان المالطى استنفد معظم شعره - كما يقول ابن بشرون - فى مدح روجار الإفرنجى المستولى على صقلية يسأله العودة إلى مدينة مالطة، ولا يحصل منه إلا على المغالطة[٢]. غير أننا نجد ثلاثة شعراء يشيدون لروجار الثانى بقصوره - وفى قصريه: القبة والمنصورية يقول عبد الرحمن بن محمد البثيرى[٣]:

وقـصـور مـنـصـوريّـةٍ ... حطُّ السرورُ بها مَطِيّه
أعجبْ بمنـزلها الـذى ... قـد أكمل الرحمنُ زِيَّهْ
وريـاضـه الأُنُـفِ التـى ... عادتْ بها الدنيا زَهِيّهْ[٤]
وأســـودُ شـــاذَرْوانـهِ ... تَهْمِى مياهَا كوثريّهْ[٥]

وهو يقول إن السرور ألقى عصا تسياره بهذه القصور لجمالها وبنوه بمكانها وما حولها من الرياض وأزهارها العطرة وحللها البهية، وما بها من الأسود التى تمج المياه من أفواهها فى شكل بديع وكنا نؤثر له أن لا يزجّ باسم الرحمن ومياه الكوثر نهر الجنة فى قصيدة يقدمها لملك نصرانى. وحين قدَّم قصيدته إلى ابن بشرون ليسجلها فى كتابه: «المختار من النظم والنثر لأفاضل العصر» سأله أن يعارضه بقصيدة على وزنها ورويِّها فقال[٦]:

---

(١) الخريدة ٤٥/١ وإنباه الرواة ٣٢٨/٤ والجدوى: العطية والمهند: السيف.
(٢) الخريدة ٢١٠/٢.
(٣) الخريدة ٢٣/١.
(٤) الأنف: الجديدة.
(٥) الشاذروان: مقدم البيت. تهمى: تصب. كوثرية: كأنها من مياه نهر الفردوس: الكوثر.
(٦) الخريدة ٢٤/١.

لِـلّهِ مـنـصـوريّـةٌ راقتْ ببهجتهـا البهيّه
وبقَصْرِها الحسنِ البِنا والشكل والغُرَفِ العَلِيَّه
وبـوحشِيها ومياهها الـ ـغُزْر العُيُونِ الكوثريَّه
وقـد اكتست جنّـاتُهـا من نَبْتِها حُلَلاً بَهِيَّهْ

ويقول العماد: اقتصرت من القصيدتين على ما أوردته، لأنها فى مدح الكفار فما أثبتُه، ونحن بدورنا إنما اقتطفنا بعضا مما أنشده من قصيدتى الشاعرين، وقصر ثالث هو قصر الفوّارة شرقى بلرم، وقد عنى روجار الثانى - فيما نظن - ببركة بجواره أمر أن يوضع فيها السمك من كل نوع وأن تحف بها الأشجار والأزهار بحيث تصبح متنزّها بديعا وفى الفوارة ورياضها يقول عبد الرحمن بن أبى العباس الأطرابنشى[1]:

فَـوَّارةَ البَحْـرين جمَّعْتِ المُنَى عيشٌ يـطيبُ ومنظرٌ يُسْتَعْـظَمُ
وكأنَّ أغصانَ الرياضِ تطاولتْ تَرْنُو إلى سمـك المياه وتَبْسِمُ
وكـأنَّ نارِنجَ الجزيـرةِ إذ زَهَـا نارٌ على قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ تُضْرَمُ
وكـأنما اللَّيمـونُ صفرةُ عـاشقٍ قد بات من ألمِ النَّوَى يتألَّم
والنَّخْلتـان كـعاشقين استخلصـا حَـذَرَ العِدَا حِصْنًا مَنيعا مِنْهُمُ
يـا نَخْلتَىْ بَحْرَىْ بَلِرْمَ سُقِيتُمـا صَوْبَ الحَيَا بتواصلٍ لا يُصْرَمُ[2]
هُنِّيتمـا مَرَّ الـزمانِ ونِلْتمـا كـلَّ الأمانى والحـوادثُ نُوَّمُ

والبحرين يريد بهما بحر البركة وبحر خليج بلرم، وهو يشيد بالبركة وما عليها من أشجار تطاولت أغصانها بأزهارها لترسل ببسماتها إلى سمك البركة، ويتخيل النارنج نارا مضرمة على قضب زبرجدية، والليمون يحيط بها وقد علا وجهه صفرة العشاق، وتسترعيه النخلتان المغروستان على حافة البركة وكأنما هما بقية للعرب وصحرائهم فى الجزيرة ويتخيلهما كعاشقين، استخلصا لهما حصنا منيعا فى عنان السماء ولا يستطيع الأعداء الوصول إليه، ويستمر فى الدعاء لهما أن يرعاهما المطر بتواصل لا ينقطع أبدا، وأن تظللهما الهناءة على طول الزمان وكل ما تصبوان إليه، وتظل الحوادث نائمة عنهما لا تنالهما أى نيل. ويبدو أن الشاعر لم يتماد فى مديح روجار كما تمادى عبد الرحمن البثيرى وابن بشرون المهدوى، ولذلك لم يعلق عليه العماد بتعليق مماثل، ونعجب أن لا يستنكف هؤلاء الشعراء المسلمون من مديح ملوك النصارى الذين نهبوا منهم الأرض وأحالوها أنهارًا من دماء أهليهم، ولكن ربما ألجأتهم إلى ذلك ضرورة من أسر أو تعذيب أو معاملة سيئة، ولن نستطيع بحال الاعتذار عن الشريف الأدريسى وذهابه إلى

(١) الخريدة ٢٥/١.
(٢) الحيا: الغيث. يصرم: يقطع.

روجار الثانى حين استدعاه وتأليفه له – أو إهدائه إليه – كتابه المشهور فى الجغرافيا الذى مر حديثنا عنه ووضعه له خريطة العالم. ونتوقف قليلا للحديث عن ابن الخياط شاعر المديح فى زمن الكلبيين.

ابن[1] الخياط

شاعر من شعراء الكلبيين فى عهدهم الأخير، ولا نعرف شيئا عن نشأته كأكثر شعراء صقلية الإسلامية، ونراه يمدح من أمرائهم الأكحل الملقب بمؤيد الدولة (٤١٠ – ٤٢٧ هـ) كما يمدح أخاه صمصام الدولة (٤٢٧ – ٤٣١ هـ) وفى مدحهما معا يقول:

كـلاهـمـا زيـن أخـوهُ بـهِ ... كـما يَزين الفَرْقَدَ الفَرْقَدُ[2]
مَنْ تـرَهُ مـنـفـردا منهـما ... فى مجلسٍ قلتَ هـو السَّيِّدُ

فهما فرقدان أو كوكبان لا يتميز أحدهما عن صاحبه وكل منهما عليه سيماء السيادة والشرف، ونراه حين شغبت صقلية على الأكحل فى سنة ٤٢٧ يعزيه عن شغبهم بمثل قوله:

أرى كـلَّ شىءٍ لـه دولـةٌ ... لحكم التعـاقب فيها عَمَـلْ
فـلا تـفـرحـنَّ ولا تحـزنـنَّ ... لشىءٍ إذا ما تناهى انتقل

فالدول لا تظل لأحد، بل تتعاقب كما يتعاقب الليل والنهار والحاكم العاقل لا يحزن إن عبس له القدر، كما لا يفرح له حين يبتسم، إذ لا شىء من عبوسه ولا من ابتسامه باق، بل الكل إلى زوال. ونراه يتعلق بمديح قائد من قواد الدولة كانت لقبته بلقب انتصار الدولة، ويصور شجاعته وبأسه فى الحروب منشدا:

ويـارب يـومٍ لـه مِسْعَـرٌ ... إذا خمـدتْ نـاره أوقـدا[3]
تخاف به الرِّجْلُ من أختها ... ولا تـأمن اليَـدُ فيـه اليَـدَا
ترى السَّيْفَ عُرْيانَ من غِمْدِهِ ... وتـحسبـهُ من دَمٍ مُغْمَـدَا

فهو مسعر حرب يوقدها كلما خمدت أو خبت، ويكاد الخوف والفزع يخنقان محاربيه حتى لتتخوف الرجل من أختها واليد من شقيقتها لما يأخذ الناس من الهول، وترى السيف فتخاله

---

(١) انظر فى أشعار ابن الخياط شرح صديقه التجيبى القيروانى للمختار من شعر بشار، وراجع ترجمة إحسان عباس له فى كتابه: العرب فى صقلية ص ٢٠٧.

(٢) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالى.

(٣) مسعر: موقد.

عريان من غمده بينما هو مغمد ومغمور من دم الأعداء. ويصور أحد أعدائه وقد أخذه الهلع من كل جانب:

ظَنُّ الإمارةَ ظُلَّةً فإذا بها ... حربٌ يكاد أُوارُها يتأجَّجُ[١]
ومهنَّداتٍ كالعقائق ماؤها ... مترقرقٌ ولهيبُها متأجِّج
لا تستقرُّ العينُ فوق مُتونها ... فكأنما هى زئبقٌ مُتَرَجْرِجُ
فى موطنٍ سلب الحليمَ .وقارَه ... فكأنما هو مستطارٌ أهْوَجُ

فهذا الخارج ظن الإمارة ظلة يستظل بها ويستريح عندها فإذا هى نار حرب متأججة. وإذا السيوف يلمع عليها ما يشبه الماء بل ما يشبه النار المضطرمة، والعين لا تستطيع استقرارًا فوق متونها لأنها زئبق مترجرج، فى ساحة حرب تسلب الحليم وقاره حتى ليغدو كأنه مستطارٌ أهوج من شدة الهول والفزع. وتولى الحكم بعد الأكحل صمصام الدولة لمدة أربع سنوات وضاعت الجزيرة من يده ودخلت فى عصر أمراء الطوائف وأخذ ابن الخياط يعزى أمراء بنى أبى الحسين الكلبيين بمثل قوله:

لِيُسْلِكُمُ أنَّ الجزيرةَ بعدكم ... كما قيلَ فى الأمثال لحمٌ على وَضَمْ[٢]
تركتُمْ بقايا حسْنكم فى خَرَابها ... كما ذَبَل النُّوَّارُ فى خَلل الحُمَمْ[٣]
وجوهٌ كأن اللّهَ قال لمائها ... ترقرقْ حَيَاءً وامزج الحُسْنَ بالكرمْ
كأنهمُ فوقَ الأسِرَّة أنْجُمٌ ... سعودٌ وفى الهيجا ضراغمةٌ بُهَمْ[٤]

فالجزيرة قد تعرَّت بعد الكلبيين من بهجتها وأصبحت عارية من حسنها لحما على وضم، وإن شعبها لا يزال يكنّ لكم حبا وكأنى به ذبل كما يذبل النوار فى أثناء الحمم الملتهبة، ويقول ما أروع وجوه الكلبيين، لقد كان الحياء يترقرق فيها، وكان الحسن يمتزج بالكرم، وكانوا فوق الأسرة والعروش وبأيديهم صولجان الحكم كأنهم نجوم ساطعة فى السلم، وفى الهيجاء أسود لا يماثلها أسود. ولا نعرف شيئا عن مولد ابن الخياط ولا عن وفاته، ويبدو أنه عاش فى عصر أمراء الطوائف حتى زمن محمد بن الثمنة حاكم بلرم، غير أنه لم يلحق عصر روجّار وأبنائه. وربما كان قد ترك صقلية إلى القيروان قبل هذا التاريخ.

---

(١) أوارها: نارها.
(٢) لحم على وضم: الوضم: ما يوضع عليه اللحم. مثل للدلالة على أنه لم يعد لها واق.
(٣) الحمم: الفحم والرماد.
(٤) بهم، جمع بهمة: الشجاع.

٣

شعراء الغزل

هذا هو الموضوع الأساسى لشعر صقلية الإسلامية سواء فيما اختاره لها ابن القطاع أو ابن بشرون المهدوى أو العماد الأصبهانى، وهو موضوع إنسانى نجده دائما فى جميع البيئات الإسلامية، إذ يتغنى الشعراء بحبهم للمرأة ويتفننون فى هذا التغنى بصور مختلفة، لعلها تُغيرهم التفاتة أوتذكر لهم عهدا أو تفى لهم بوصل أو بوعد. من ذلك قول أبى الحسن على بن الحسن بن الطوبى أحد شعراء ثقة الدولة[١]: -

ما أحسبُ السحرَ غَيْرَ مَعْنَاها	والعنبرَ الجَوْنَ غير ريَّاها[٢]
إنا جهلنا ديارها قَبَـدَا	من عَرْفها ما به عَرَفْناها[٣]
كأنما خلَقتْ بساحتها	منه دليلا لكل مَنْ تاها
وأغبط الماء حين تَـرْشفه	إذ كان دونى مقبِّلا فاها
وما تنائى على قلائدها	إلا بأن أشبهتْ ثناياها

وكان ابن الطُّوبى قد عبر البحر إلى القيروان فى أيام المعز بن باديس فاصطفاه لنفسه، ومرَّت بنا إحدى مدائحه له، وكان المعز كثيرًا ما ينشد البيت الرابع من هذه المقطوعة لرقته وعذوبته وهى جميعها فى غاية النعومة والسلاسة، حتى لتكاد ألفاظها تطير عن الفم طيرانا لما فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويذرف الدموع مدرارًا، فذلك نصيبه وحظه فى دنياه.

وهذه الصورة الطبيعية من الغزل نصادفها عند غير شاعر صقلى، من ذلك قول مستخلص الدولة عبد الرحمن بن الحسن الكلبى ممدوح ابن الخياط[٤]:

قلتُ يومًا لها - وقد أحرجتْنى -	قولةً ما قدرت أنفسكُ عنها
أشتهى لو ملكتُ أمركِ حتى	آمر الآن فيكِ قَهْرًا وأَنْهَى
فبكتْ - ثم أعرضتْ - ثم قالتْ	خُنْتَنى فى محبَّةٍ لم أَخُنْها

وهى رقة شعور واضحة، فإنها لم ترتض منه أن يملك أمرها ويأمر فيها قهرًا وينهى، وأين الحب؟ لقد خانه، ولذلك بكت بكاء مرا، إنه لم يعد عاشقًا بل أصبح سيدًا يريد أن يسترقها ويستذلها. ويقول أبو محمد جعفر بن الطيب الكلبى[٥]:

---

(١) الخريدة ٧٤/١.

(٢) رياها: شذاها العطر.

(٣) عرفها: شذاها وعطرها.

(٤) الخريدة ٨٥/١.

(٥) الخريدة ١١٤/١.

فــارقتكم لا عن قِـلًى وتـركتكم رَغْمًا عـلى حكم الـزمان الجـائرِ
وفقـدتكم من ناظـرى فـوجـدتُكم - لما أردت لقاءكم - فى خـاطرى

فقد فارق صاحبته لا عن بغض ولكن نزولا على حكم الزمان الظالم، وفقدها من ناظره وأمام عينيه ووجدها بطلعتها السنيـة فى خاطـره، وهى فكرة رقيقـة ودقيقة. ويقـول الفقيه عبد الرحمن بن أبى بكر السرقوسى[1]:

أسـارقـه اللحظ الخفىَّ مخـافـةً عليـه من الـواشـين والـرقبـاءِ
وأجهـد أن أشكـو إليـه صبابتى فيمنعـنى من ذاك فَـرْطُ حيـائى
سـأكتم ما ألقـاه من حُرَقِ الأسَى عليـه ولـو أنى أمـوت بـدائى

فهو يسارق صاحبته اللحظ خشية أن يتنبَّه بعض الواشين والرقباء، ويجهد فى أن يشكو إليها صبابته فيمنعه فرط حيائه، وسيظل يكتم ما ينطوى عليه قلبه من حرق الأسى ولوعاته مؤثرًا أن يموت بدائه. ومثل هذه القطعة اليائسة قطعة لابن الخياط يقول فيها:

لـيس إلا تـنـفسُ الـصـعـداءِ وبكـائى ومـا غَـنـاءُ بكـائى
مَنْ رسـولى إلى السـماء يـؤدى لى كتـابـا إلى هـلال السـماء
كيف يَـرْقَى إلى السـماءِ كثيـفٌ يـسلك الجسمَ فى رقـيق الهـواءِ
عجـز الإنس أن شـوقى إليهـا فعسى الجن أن تكـون شفـائى
أم تـرى الجن تتَّقى شُهُبَ الـرَّجْـمِ فـدعـنى كـذا أمـوت بـدائى

وصاحبته فى السماء فكيف يرقى إليها فى الهواء جسم كثيف لإنسان فيفكر فى الجن، غير أن الجن حرِّم عليها الصعود فى السماء، وشهب الرجم لها بالمرصاد وستتلقاها بالموت الزؤام، وييأس فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويذرف الدموع مدرارًا، فذلك نصيبه وحظه فى دنياه.

وإذا تحولنا إلى العهـد النورمـانى لقينا عبـد الحليم بن عبد الـواحد السـوسى الأصل الإفريقى المنشأ الصقلى الدار، وهو من سكان مدينة بَلَرْم، وله مقطوعتان غزليتان طريفتان، يقول فى أولاهما[2]:

قـالتْ لأتـرابٍ لهـا يشفَعْنَ لى قـولَ امرىءٍ يُـزْهَى على أترابـهِ
وحيـاةِ حـاجتـه إلىَّ وفقْـرِهِ لأواصـلنَّ عَـذابـه بـعـذابـهِ

---

(١) الخريدة ١/١١٦.

(٢) الخريدة ١/٢٢.

ولأمنعنَّ جُفونَـهُ طَعْمَ الكَـرَى ... ولأمزجنَّ دموعَـه بشرابـهِ[1]
لِمْ باحَ باسمي بعد ما كتم الهَـوَى ... دَهْـرًا، وكان صِيانتي أولى بـه

وهى تعلم مدى حبه لها وشغفه بها، وكان يكتم حبه ولا يصرِّح باسمها، فلما صرَّح به وأعلن حبه لها غضبت غضبا شديدا وصممت على الانتقام منه أشد الانتقام، إذ ستواصل عذابه بعذابه وستمنعه النوم وتمزج دموعه بأى شراب يشربه، حتى تأخذ بثأرها من بَوْحه باسمها بعد كتمانه دهرا، وكان أولى أن لا يصرح به أبدا. ويقول فى الأخرى[2]:

شكـوتُ فقـالت كـل هـذا تبـرُّمًا ... بـحبِّى أراح اللهُ قلبَـك من حُبِّى
فلما كتمتُ الحبَّ قـالتْ: لشَـدَّ مـا ... صبرتَ وما هـذا بفعلِ شَجِى القَلْبِ
فـأدنو فتُقْصينى فـأبعدُ طـالبًـا ... رِضـاها فتعتدُّ التباعـد من ذنبى
فشكـواىَ تُؤْذيهـا وصبـرى يسوءُهـا ... وتُحْرَجُ من بُعْدِى وتنفر من قربى[3]
فيـا قـوم هـل من حيلةٍ تعلمـونهـا ... أشيـروا بها واستوجبوا الأجر من رَبِّى

وهو لا يعرف كيف يرضى صاحبته، فإنه إذا شكا من حبها عدَّت ذلك تبرما ودعت له أن يريحه الله من حبه، وإذا كتم شكواه وحبه قالت له: ما أشد صبرك وليس هذا من ديدن المحب العاشق. ويقول إنه يدنو فتقصيه، فيبعد آملا فى رضاها، فتعد بعده أو تباعده من ذنوبه عندها، وهو حائر فشكواه تؤذيها وصبره يسوؤها، ويؤلمها بعده وتنفر من قربه، ويسأل من حوله هل من حيلة له فى إرضائها ويدعو لمن دلَّه على حيلة أن ينال جزاءه من ربه. وله بيتان بديعان يصور فيهما حال صقلية وقد نهكتها حروب النورمان[4]:

عـشـقـتُ صِـقِـلِّـيَّـةً يـافِـعًـا ... وكـانـتْ كـبعض جنـان الخلـودِ
فـلـمـا قُـدِّر الـوَصْـلُ حتى اكتهلتُ ... وصـارت جهنَّمَ ذاتَ الـوقـودِ

فصقلية الجنة البديعة بقصورها وحقولها وزروعها وثمارها وأزهارها الزاهية أصبحت فى عهد النورمان بحروبهم وفتكهم برجالها وشبابها جهنَّم المتقدة المشتعلة التى تلتهم كل سكانها. ولمحمد بن عيسى بن عبد المنعم من غزلية رائعة كان يغنَّى بها هناك[5]:

مـولاىَ يـا نـورَ قلبى ... ونـورَ كـلِّ الـقـلـوبِ
أمـا تَـرَى مـا بجسمى ... مـن رِقَّـةٍ وشُـحـوبِ

(١) الكرى: النوم.
(٢) الخريدة ١/٢٢.
(٣) تحرج: تضيق.
(٤) الخريدة ١/٢٢.
(٥) الخريدة ١/٣٧.

فلمْ بخلت بوصلي	وليس لي من ذنوبِ
ومَا لِسُقْمِي شفاءٌ	ولا لَه من طبيبِ
ولا لدائي دواءٌ	إلا وصالُ الحبيبِ

والقطعة جديرة بأن يغنَّى بها، لخفتها فى السمع وعذوبتها وتعبيرها عن الحب الذى أضناه ببساطة، وفيم هذا البخل بالوصل، وليس له من ذنوب، والبيتان الأخيران فى غاية الرشاقة مع النعومة ومع الحلاوة فى السمع التى تشيع فى كل الأبيات. ونتوقف قليلا للحديث عن الشاعر البلِّنوبى وغزلياته.

البلَّنوبى[1]

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشر الأنصارى، ولد بمدينة بَلَّنوبة Villanova فى صقلية، فنُسب إليها، وعلى شاكلة لداته اختلف إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، ولزم الشيوخ حتى ثقف ما عندهم فى اللغة والنحو، وهاجر إلى مصر وعنى فيها بتدريس العروض والنحو فى كتبها المشهورة حتى توفى سنة ٤٤٢ للهجرة ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت بصقلية مبكرة ونشر رزِّيتانو قطعة من شعره باسم ديوان البلَّنوبى، وافتتح العماد تراجم الشعراء فى صقلية بترجمته، وبها مختارات كثيرة من غزلياته، وهو فى غزله يصور ما يتسم به الغزل عند شعراء صقلية من التجافى عن الغزل المادى الحسى وما يتصل به من وصف الجسم إلى الغزل المعنوى وما يتصل به من رقة الحس والشكوى من عذاب الحب والسهر وبعد الحبيب وهجره وما يجره ذلك على المحب من الضنا والنحول والسقم الذى لا شفاء منه، ومن طريف غزله:

إليكِ أشكو عيونا أنتِ قلتِ لها	فيضِى فقد فضحتْنى بين جُلاّسى
ومـا تـركتِ عَـدُوًّا لى علمتِ بـهِ	إلا وقـد رقَّ لى من قلْبك القاسى
فـإن رضيتِ بـأن ألقى الحِمـام فيا	أهْلاً بذاك على العينين والـراسِ

فهى التى أمرت عيونه أن تظل تذرف الدمع شوقا إلى لقائها، حتى فضحته بين جلاسه من صديق وعدو فالكل يرقّ له من قلبها المتناهى فى القسوة، وهو بذلك راض أن يظل مستجيبا لها ويظل الدمع يترقرق فى عيونه، حتى لو رضيت بأن يموت فى سبيلها، فسيتقبل الموت بمنتهى

---

(١) انظر فى البلنوبى إنباه الرواة ٢/٢٩٠ والخريدة للعماد الأصبهانى ١/٥ والعرب فى صقلية ونشر رزيتانو ديوانه بالقاهرة سنة ١٩٦٨.

الرضا. ويقول :

أتــرانـى أحيــا إلى أن يعــودا ... تــازحٌ لـم يَـدَعْ لعينى هُجـودا
كيف أرجـو الحيـاة بعـد حبيبٍ ... كـان يومى بـه من الـدهـر عِيدا
أشتهى أن أبـوحَ بـاسمـك لـكن ... لقّنتنى الـوشـاةُ فيـك الجُحـودا

وهو يظن أنه لن يحيا حتى يعود حبيبه لطول سهاده وما يعانى منه، حتى ليتصور أنه ميت لا محالة، فقد ذهبت أيام لقائه به التي كان يعدها أعيادًا، وإنه ليشتهى أن يبوح باسمه أو اسمها ولكنه يخاف الوشاة، وكأنما علّموه الجحود ونكران الحب. ويقول:

أمـا تعـطِفِنَّ عـلى خـاضـعٍ ... لـديـكِ يُنـاجيـك مُسْتـعـطفـا
إذا كـتـبـتْ يَـدُهُ أحْـرُفًـا ... إليـكِ مَحَـا دَمْـعُـهُ أحْـرُفـا
ولـو كنت أملك غَرْبَ الـدموعِ ... منعتُ جُفـونـىَ أن تَـنْزِفـا[1]

وهو يشكو لصاحبته حبَّه متذللا مستعطفا، ويقول إنه كلما كتب لها سطرًا فى رسالة محت الدموع سطرًا سابقا له، ولو كان يملك مصدر دموعه لمنع جفونه أن تنزف الدمع مدرارًا، وصورة السطر الذى يكتب والسطر الذى تمحوه دموعه فى الرسالة بديعة. ويقول:

هجرتـكِ يـا سُـؤْلَ نفسى ولى ... فـؤادٌ متى تُـذْكَـرِى يَخْـفُـقِ
ومـا ذاك منى اطِّـراحُ الملولِ ... ولـكـنـه نـظرُ الـمـشـفـقِ
كمـا تـتـركين بَـرُودَ الـشـرا ... بِ ظمأى مخافَـةَ أنْ تَشْـرَقِى

وهو يقول إنه هجر سُؤْل نفسه حُبَّ قلبه لا مللا ولكن إشفاقا عليها أشد الإشفاق، كما تترك وهى شاعرة بحرقة العطش كوبا من الماء البارد الذى يطفىء غلة ظمئها خوفا من أن تشرق بها وتغص غصة مؤذية شديدة. وكان يدرس العروض لطلابه، فرأى أن ينظم لهم مقطوعة غزلية ثلاثية الشطور، والشطر الأول فيها من مجزوء الخفيف والثانى من مجزوء الرمل والثالث من مجزوء المجتث بحيث إذا ضُمّ شطر إلى أخويه أو إلى أخيه نتج وزن جديد، وهى تجرى على هذه الشاكلة[1]:

وغـزالٍ مـشـنَّـفٍ[2] ... قـد رَنَى لى بعـد بُعْـدى
لمــا رأى مـا لقيـتُ

---

(١) تنزف: تسيل. (٢) مشنف: متخذ قرطا.

مثل روض مفوَّفٍ[١] لا أبالى وهو عندى
فى حبِّه إذْ ضنيتُ

وهى غزلية للتدريس، وإن شكا فيها بعد المحبوبة وجفائها وامتناعها، ومن هذا الباب عنده مقطوعات يجمع فيها حروف المعجم أويلغز فيها. وفى الحق أنه يصور الغزل الصقلى المعنوى تصويرًا بديعًا بما نجد عنده من الصبابة واللهفة على لقاء المحبوبة وكثرة الشجى لهجرها والحزن حتى ليكاد يموت المحب فى إثر محبوبته ضنا وسقما وبكاء متصلا.

٤

شعراء الفخر

من موضوعات الشعر العربى القديمة الفخر، وكان كثيرًا جدًا فى الجاهلية، لأن القوم كانوا يقتتلون، وكان الشعراء من ورائهم يحمّسونهم فى القتال، وكان من المقتتلين أنفسهم شجعان يذودون عن القبيلة ويفتخرون بشجاعتهم ومآثر قبائلهم، فكثر شعر الفخر والحماسة حينئذ، وكان المظنون، والسيوف فى صقلية دائمًا مشرعة وقلما توضع فى أغمادها أن يكون شعر الفخر والحماسة فيها كثيرًا، غير أن ماروى منه قليل، وقد يرجع ذلك إلى ابن القطاع الصقلى وابن بشرون المهدوى، فإنهما لم يرويا منه إلا القليل وخاصة ابن بشرون فإنه كاد أن لا يروى منه شيئا فى العهد النورمانى، وقد يكون ذلك راجعًا إلى أن العرب كانوا مهزومين، ففيم الفخر وفيم الحماسة، أما فى العهد السابق لذلك فإن نفسيتهم كانت قوية، ونجد ابن القطاع يسوق لهم فخرًا وحماسة من حين إلى آخر، من ذلك قول أبى عبد الله محمد بن على بن الصباغ الكاتب[٢]:

قَوْمِى الذين إذا السنابكُ أنشأتْ دون السحاب سحائبا من عِثْيَرِ[٣]
برقتْ صوارمهم وأمطرت الطُّلَى علقًا كثرثار الحَيَا المتفجِّرِ[٤]
الواترين فلا يُقَاد وتيرُهُمْ والفاتكين بحِمْيَرٍ وبقَيْصَرِ[٥]
والمانعين حِماهُمْ أن يُسْتَبَى والحاسمين لكل داءٍ يَعْتَرِى

فقومه حين يشتد وطيس الحرب وتنشىء سنابك الخيل سحابا من غبارها تبرق

(١) مفوّف هنا: جميل.
(٢) الخريدة ١/٨٤.
(٣) السنابك جمع سنبك: طرف الحافر. عثير: غبار.
(٤) علقا: دما غليظا. ثرثار الحيا غزير الغيث. الطلى: الأعناق.
(٥) الواترين: القاتلين لا يقاد وتيرهم: لا تؤدى دية قتيلهم.

سيوفهم وتقطر أعناق الأعداء سيولا من دم متفجر أنهارا، وإنهم ليَتِرون أعداءهم ويفتكون بهم دون أن يُطْلَب منهم – لبأسهم – وتر أوثأر، وطالما فتكوا بأقيال حمير وفرسان قيصر. وقد اشتهروا بأنهم المانعون جاهم فلا تستطيع قبيلة أن تقترب منه وترعاه، وإنهم ليحسمون كل شر ويقضون عليه قضاء مبرما. وسنخص معاصره أبا الحسن على بن الحسن بن الطوبى بكلمة. ويقول أبو على أحمد بن محمد بن القاف الكاتب[1].

سأكرم نفسى جاهدا وأصونُها	وإن قَرَّحَتْ من ناظِرِىَّ جفونَها
ولست بزوّارٍ لمن لا يزورنى	ولا طارحًا نفسى على من يُهينُها

فهو سيكرم نفسه إلى أقصى حد ويصونها عن أن تتعرض لإهانة مهما كلفه ذلك من السهاد، ولن يزور من لا يزوره إكراما لنفسه أن تمسها إهانة بأى صورة من الصور. ويقول الفقيه المحدث أبو محمد عمار بن المنصور الكلبى وكان من أفاضل العلماء وسادات الأمراء[2]:

تقول: لقد رأيتُ رجال نَجْدٍ	وما أبصرتُ مثلك من يَمانِ
ألِفتَ وقائعَ الغَمرات حتى	كأنك من رَداها فى أمانِ[3]
إلى كم ذا الهجومُ على المنايا	وكم هذا التعرُّض للطِّعانِ
فقلت لها: سمعتُ بكل شىء	ولم أسمع بكلبىٍّ جَبانِ

وهى ترفعه فوق رجال نجد واليمن جميعا، فليس مثله بينهم شجاع، وتقول إنه ألف وقائع الحرب حتى كأنه من موتها فى أمان، بل إنه ليهجم على الموت هجوما ضاريا متعرضا للطعان غير جزع ولا وجل، وردَّ عليها قائلا إنه سمع بكل شىء إلا أنه لم يسمع بكلبى يمانى جبان. ونقف عند ابن الطوبى قليلا.

أبو الحسن[4] الطوبى

هو أبو الحسن على بن الحسن بن الطوبى الذى تقدم ذكره فى المديح والغزل، وفيه يقول العماد الأصبهانى نقلا عن ابن القطاع: «إمام البلغاء وزمام الشعراء مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين، ومعتمد سلاطين» يقول فى قصيدته التى مدح بها المعز بن باديس ومرَّ ذكرها:

---

(١) الخريدة ٨٧/١.

(٢) الخريدة ١٠٠/١.

(٣) الغمرات: الشدائد ويريد شدائد الحروب. الردى: الهلاك.

(٤) انظر فى أبى الحسن الطوبى الخريدة ٧٢/١.

وإما المنى أو فالمنيَّةُ إنها ... حياةُ لبيب لم ينل من لُبابها
وهل نعمةٌ إلا ببؤسى وإنما ... عذوبةُ دنيا المرء عند عَذابها

فإما تحقيق المنى والحصول عليها وإما الموت الزؤام، وهل نعمة إلا مصحوبة ببؤس وشقاء، وإنما عذوبة دنيا الإنسان فى عذابها، وهو بذلك صاحب نفس كبيرة، ويصورها فى الأبيات التالية:

أعددتُ للدهر إن أَرْدَتْ حوادثه ... عزما يَحُلُّ عليه كلُّ ماعَقَدا
وصارمًا تتخطَّى العينَ هِزَّتُهُ ... كأنما ارتاعَ من حَدَّيْهِ فارتعدا
وذابلًا توضح العليا ذُبالته ... كأنها نَجْمُ سعدٍ لاح منفردا[١]
ونَثْرةً ليس للريح المضئُ بها ... إلا كما عرضتْ للنِّهْى فاطَّرَدا[٢]

وهو يقول إنه أعدَّ للدهر حين تنزل به حوادثه عزما يحل كل شدائده، وسيفا قاطعا تتخطى هزته العيون، وكأنما أخذه وجلٌ من حَدَّيْه القاطعين فارتعد، ورمحا يوضح العلياءَ حده القاطع وكأنه نجم سعد يكتب له دائما النصر والظفر، ودرعا تشبه طيَّاتها موجات مياه الغدير حين تحركها الرياح ويقول.

سَل الليل عَنى هل أنامُ إذا سَجَى ... وهل ملَّ جَنْبى مضجعى ومكانى
على أننى جَلْدٌ إذا الضـرُّ مَسَّنى ... صبورٌ على ماتابنى وعَرانى

وهو يقول لصاحبه: سل الليل عنى فإنى دائما يقظ، ودائما يجفو جنبى المضجع والمكان، وإننى لجلد أحتمل كل ضر يمسنى، صبور على كل ماينوبنى، أحتمل من ذلك ما يطاق وما لا يطاق، حتى يأتى الله بالفرج.

٥

شعراء الوصف

الشاعر العربى - من قديم - يصف كل ما حوله من الإنسان وغير الإنسان من الحيوانات والنباتات والأزهار، وقد مر بنا فى المديح وصف قصور روجار: القبة والمنصورية والفوارة عند البشيرى والطرابنشى وما حف بالأولين من بركة وبها جميعا من رياض، ولأبى الحسن بن الطوبى فى وصف الثريا[٣]:

(١) ذابلا: رمحا. ذبالته: حده القاطع.
(٢) نثرة هنا: درعا. النهى: الغدير.
(٣) الخريدة ١/٨٠.

انـظرْ إلى الأفْق كيف بَهْجَتُه ... وللثـريّـا عليـه تـنكـتُـه
كـأنهـا وهْيَ فيـه طـالـعـةٌ ... قميصُ وَشْـي وتلك عُـرْوتُـهُ

فالسماء بنجومها كأنها قميص وشي بديع والثريا عروته المضيئة الجميلة، وسنخص أخاه أبا عبد الله بن الطوبى بكلمة لإكثاره من الأوصاف والتشبيهات فى الطبيعة وغير الطبيعة. ويقول مشرف بن راشد[١]:

وروضـةٍ بـالحَـزْنِ ممـطورةٍ ... لم تنتهبهـا أعْيُنُ النـاسِ
بكى عليها الغيث فاسْتَضْحَكتْ ... عن نَرجْسٍ غضٍّ وعن آسِ

وكان يكثر من استخدام الطباق كما فى البيت الثانى، وجعل الروضة تضحك أو تبتسم عن نرجس غضٍّ وعن آسٍ، ويقول ابن متكود صاحب مازر فى عهد أمراء الطوائف واصفا النيلوفر[٢]:

كئـوسٌ من يـواقيتٍ ... تفتَّـح عـن دنـانـيرِ
وفى جـنَبـاتهـا زَهْـرٌ ... كـألسنة العصـافـيرِ

والنيلوفر هو اللوتس عند المصريين القدماء والبشنين عند أهل الريف المصرى، وحين تتفتح تتدلى من جنباتها أزهار - كما يقول ابن متكود - مثل ألسنة العصافير. ويقول ابن القطاع فى وصف رُمانةٍ[٣]:

كـأنها حُقَّـةٌ من عَـسْجَـدٍ ملئتْ ... من اليـواقيت نَثْرًا غـير منظومِ

وهى صورة بديعة، ويفتح ابن القطاع صحفا غير قليلة لمديح المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات وذمهم، من ذلك ذم البلنوبى لمغن فى قوله[٤]:

ولنـا مغنٌّ لايـزا ... ل يَغيظنا مـا يفعَـل
غَـثٌّ ثـقـيـلًا أوّلًا ... وهـوَ الثقيلُ الأوّلُ

والثقيل الأول نغمة موسيقية معروفة عند العرب، وهى مكررة مئات المرات فى كتاب الأغانى واستغلها البلنوبى فى هجاء هذا المغنى، والتورية واضحة ونراه يمدح راقصة من راقصات صقلية قائلا[٥]:

(١) الخريدة ٩٣/١
(٢) الخريدة ١٠٣/١.
(٣) الخريدة ٥٣/١.
(٤) الخريدة ١٣/١.
(٥) الخريدة ٧/١.

هَيفاءُ إنْ رقصتْ في مجلسٍ رقصتْ قلوبُ مَنْ حولها مِنْ جذلها طَرَبَا
خفيفةُ الوَطْءِ لو جالتْ بخطوتها في جَفْنِ ذي رَمَدٍ لم يَشْتَكِ الوَصَبَا

فالقلوب ترقص مع رقصها، وهي خفيفة الوطء للأرض في رقصاتها حتى لو جالتْ بخطوتها الخفيفة في جفن أرمد لم يحس بها فحسب، بل أيضا أزالتْ عنه مايشكو من وصب الرمد - ويقول أبو بكر محمد بن علي الكموني في وصف راقص[1]:

ما إن رأيت كراقصٍ مُسْتَطْرَفٍ في كل فَنّْ
يحكي الغناءَ برقصه كمراقصٍ يحكي المغنّي
رجلاه مزمارٌ وعو دٌ في نهايةِ كلِّ حُسْنِ
فهو السرور لكل عَيـ نٍ والنعيمُ لكل أُذْنِ

وتدل المقطوعة دلالة قاطعة على أن الغناء كان قد ارتقى في مصاحبة الرقص فنونا من الرقي، حتى ليقول ابن الكموني عن هذاالراقص أن رجليه كانتا مزمارا له وعودا فهو يوقّع على ضرباتهما غناءه ويلحنه تلحينا دقيقا، فهو سرور برقصه لكل عين، وهو نعيم بغنائه لكل أذن. ونتوقف لنتحدث عن أبي عبد الله بن الطوبي وبراعته في الوصف.

أبو عبد الله[2] بن الطوبي

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الطوبي، كان صاحب ديوان الإنشاء في عهد ثقة الدولة وأبنائه - كما يقول العماد - ومن ذوى الفضائل البلغاء، طبيبا، مترسلا، شاعرا. ويقول القفطي: «مقيم بصقلية يتولى الإنشاء نحوي أُرَبِي في النحو على نفطويه وفي الطب على ابن ما سويه، وكلامه في نهاية الفصاحة وشعره في غاية الملاحة وله مقامات تزرى بمقامات البديع وإخوانيات كأنها زهر الربيع. كان بصقلية سنة خمسين وأربعمائة وأظنه عاش بعد ذلك مدة، وأورد ابن القطاع من نظمه كل مليح الحوك، صحيح السبك، فمن ذلك قوله في نرجس:

أريد لأَشْفِي سُقْمَ قلبي بنرجسٍ فيذبلُ إن صافحته بتنفُّسي
له مقلةٌ كالتِّبْرِ، والجَفْنُ فضَّةٌ وقَدٌّ كغُصْنِ البانِ في ثوبِ سُنْدُسِ

ويدل العماد على براعته في هذا الوصف للنرجس بأنه أتى فيه بأربع تشبيهات، كما يتضح في

---

(١) الخريدة ١/١٠٤.

(٢) انظر في ترجمة أبي عبدالله بن الطوبي الخريدة ١/٥٥ وأنباه الرواه للقفطي ٣/١٠٧ والمكتبة الصقلية ٥٨٩.

البيت الثانى، وهى تشبيهات دقيقة. ويقول فى نار فحم والشرار يتطاير من حولها:

ونـارِ فـحمٍ ذى مـنـظرٍ عجبٍ يـطرد عنـه الشَّرارَ بـاللهبِ
كـأنما النـارُ مبـردٌ جـعلَتْ تبْـردُ منـه بُـرادةَ الـذهـبِ

فلهب النار يطرد الشرار من حولها، كأنما النار مبرد يبرد من الفحم برادة ذهبية، وقد راعى النظير فى البيت الثانى، فالنار مبرد وهى تبرد من الفحم برادة الذهب، ويقول فى مديح مغنٍّ.

إذا غـنَّى يُـزيـل الهمَّ عنَّـا ويـأتيـنـا بمـا تهواه مـنـهُ
لـه وَتَـرٌ يـطالب كـلَّ همٍّ بـوِتْـرٍ فـالهموم تَفِـرُّ عنه

فهو مغن حاذق يعرف ما تهواه النفوس ويعرضه على سامعيه، وكأنما لعوده وتر يطالب كل هم فى نفوس الناس بوتره أو ثأره، فالهموم تفر عنه منطلقة إلى غير مآب. ويذم فى مقابل هذا المغنى مغنين آخرين من بَرْد غنائهم يجعلون الصيف شتاء ويحولون الأعراس مآتم، وفى أحدهم يقول، وهو أخف ما قال:

لـنـا مغـنٍّ غِـنـاهُ يـعـود شَـرًّا عـليـه
لم يـأت منـزلَ قـومٍ فـعـاد قطُّ إلـيـه

فبمجرد أن يسمعه أهل منزل يزورّون عنه ولا يعودون إلى طلبه مرة أخرى. وكان يُغرب أحيانا فى أوصافه مدحا وذما، وقد وجد الناس يمدحون البياض فى المرأة ويذمون السواد، فرأى أن يعكس عليهم القضية قائلا:

شبيهـاتِ المشيب تـعـافُ نفسى وأشـيـاءُ الشـبيـبـة هنَّ حـورُ
سـواد العين نـورُ العـين فيـهِ ومـا لبياضهـا فى العـين نـورُ

فهو يرى بسواد عينيه لابياضها، ولذلك يعاف البياض رمز المشيب والشيخوخة، كما يعاف معه المرأة البيضاء، بينما يحب السواد رمز الشبيبة ونضرة الحياة ويحب المرأة السوداء. وكانت لديه قدرة فى حسن التعليل كقوله فى فص أحمر:

حمْـرتـى مـن دم قـلـبـى أيـن مَنْ يَـنْـدُبُ أينـا
أنـا مِـنْ أحـجـار أرضٍ قُـتلوا فيهـا الحُسَيْنَـا

وربما كان فى ذلك مايدل على أنه كان متشيعا يعتنق المذهب الإسماعيلى الفاطمى. ومن حسن تأتيه فى التصوير قوله فى لحية كبيرة غطت وجه صاحبها:

مـا إن رأيتُ ولا سمعتُ بلحيـةٍ	عَـرُضَتْ كلحية جعفـر بن محمَّدِ
سـدَّتْ عليـه وَجْهَـهُ فـكـأنمـا	عَيْنـاه فى ثُقْبَىْ كِسـاءٍ أسـود

فهى قد سترت وجه صاحبها حتى لم يعد يبدو منها إلا العينان، وكأنها ثقبان فى كساء أسود. وكما كانت لحية جعفر بن محمد تؤذيه كذلك كانت لحية حمدون، وفيها يقول:

لِـحْـيـةُ حـمـدون دِثـارٌ لـه	تُـكِـنُّـه مـن شَـدَّة الـبَـرْدِ
كـأنها - إذ غـاب فى وَسْطها -	قـطـيـفـةٌ لُـفَّـتْ عـلى قِـرْدِ

فلحية حمدون كأنها دثار أو ثوب تكنّه من قسوة البرد، وكأنها إذ غاب فى وسطها ولم يعد أحد يرى له أثرا قطيفة لفت لا على إنسان بل على قرد. ونختم تصاويره بتصويره لراقصة صقلية:

راقصـةٌ كـالغصْنِ من فـوقـه	بـدرٌ منيـرٌ تـحت ظَـلْمـاءِ
تَلْهبُ مثـل النـار فى رقصهـا	وهْىَ من النَّعْمـة كـالمـاء
كـأنمـا فى رجلهـا عـودُهـا	وزامـرٌ يَـتْـبَـعُـ بـالـنَّـاءِ
سـاحـرةُ الـرَّقص غُـلاميَّـةٌ	منهـا دوائـى وبهـا دائـى
إذا بـدت تـرقص مـا بَيْنـنـا	يـرقص قـلبى بين أحشـائى

وهى راقصة قوامها كغصن البان ووجهها كالبدر المنير، وكأنما تجمع النار والماء فى رقصها،تجمعها بحركاتها وتثنياتها وكأنما توقع حركات أرجلها على عودها وزامر يتبعها بالناى وإنها لساحرة فى رقصها، وبإحدى يديها داؤه، وبالثانية دواؤه. وإن القلوب لترقص مع رقصها وإيقاعاتها المبدعة فيه.

الفصل الرابع
طوائف من الشعراء

١

شعراء الرثاء

من موضوعات الشعر القديمة الرثاء، وهو يتخذ ثلاثة اتجاهات: اتجاه الندب والتوجع لفقد المصاب، وعادة يكون من الأهل وخاصة الأخ والولد، واتجاه التأبين وهو ذكر فضائل الموت وبيان خسارة القبيلة أو الأمة فيه، والعزاء وهو التعزى عن المصاب فى الميت بأن الموت كأس دائر على الجميع لا يفلت منه أحد. ويقول الحسن بن إبراهيم الشامى الكتانى[١]:

فلا البؤسُ مدفوعٌ بما أنت جازعٌ ... ولا الخيرُ مجلوبٌ بعلمٍ ولا فَهْمِ
وإن الحريصَ العمرَ يُلقيه حِرْصُهُ ... إلى حُفْرةٍ جَوْفاء واهية الرَّضْمِ[٢]
تعلَّمْ بأن الموت أَزْيَنُ للفتى ... وأهونُ من عيشٍ يَشينُ ومن وَصْمِ

وهو يقول إن الحزن لا يدفعه الجزع والمرء لا يعرف ماكتبه القدر ولا أحد يستطيع أن يحمى نفسه من الموت، فالحريص كغير الحريص لابد أن يُلْقَى يوما فى حفرة واهية الرضم أو واهية الصخور والحجارة، وإن الموت لأزين للفتى من عيش نكد يعيشه ووصم يشينه – ويقول عمر بن الحسن بن الفوفى الكاتب فى مطلع مرثية[٣] له:

للموتِ ما يولدُ لا للحياهْ ... وإنما المرءُ رهينُ الوفاه
كأنما يَنْشره عمره ... حتى إذا الموت أتاه طَواه
من تَرْمِ أَيْدِى الدَّهْرِ لاتُخْطِه ... والدَّهْرُ لا يخطئُ من قد رماه
نَفْسُ الفتى عاريةٌ عنده ... ما بُخْلُهُ بالردِّ إلا سَفَاه[٤]

وهو يستهل مرثيته بالعزاء وأن الموت مكتوب على الإنسان منذ مولده، وكأنه يولد للموت

(١) الخريدة ٩٩/١.
(٢) الرضم: انضمام الحجارة بعضها إلى بعض.
(٣) الخريدة ١٠٣/١.
(٤) سفاه: سفاهة.

لا للحياة، ويظل منذ خطواته الأولى فى دنياه رهين الوفاة، وما أشبهه بثوب ينشره عمره حتى إذا الموت أتاه طواه إلى الأبد، ومَنْ ترمه أيدى الدهر تصبه ولا تخطئه أبدا، فإن الدهر لايخطئُ البتة فيمن قد رماه، وكأنما نفس الفتى عارية عنده ولا بد أن تسترد وما بخله بردها إلا حمق، لأنها لابد أن تعود إلى بارئها. ويظل الرثاء فى عهد النورمان. وسنخص محمد بن عيسى بكلمة فيه، ويلقانا به عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن السوسى، ومالطة مسقط رأسه وبها تهذب وقرأ على أبيه الأدب، ثم سكن بلرم واتخذها دارا، ووجد بها قرارا، وله مرثية فى بعض رؤساء المسلمين بصقلية تدل على ماحواه من فضائل، وهى مرثية طويلة، استهلها[1] بقوله:

ركـابُ المعـالى بـالأسَى رحلَه حـطَّا	وطَـوْدُ العُلى العـالى تـهـدَّم وانحـطَّا
وكيف لـنـور الشَّمْسِ والبَـدْر عـودةٌ	وهـذا منـارُ المجـدِ والعِزِّ قـد قُـطَّا[2]
أُصِيبَ فـمـا ردَّ الـرَّدَى عنـه رَهْـطُه	بلى أوْدَعَ الأحـزانَ إذ ودَّع الرَّهْـطا[3]
فيـارُزْءُ مـا أنكى ويـا حُـزْنُ مـا أبكى	ويـا دَهْرُ مـا أعْدَى ويـاموتُ مـا أسْطا[4]

وهو يقول إن ركاب المعالى حط رحله بالحزن الطويل، وقد تهدّم طود العلا السامى ولن يعود أبدا، وكيف يعود نور الشمس والبدر وهذا منار المجد والعز قد استؤصل استئصالا، أصابه الموت فما ردته عنه عشيرته ولا أهله، ودّعهم وأودع. فى قلب كل منهم جمرة حزن لاتنطفئُ أبدا، فيارزء ما أشد نكايتك، وياحزن ما أشد ما تثير من البكاء، ويادهر ما أشد عدوانك، وياموت ما أشد سطوتك، وكأنما كان يبكى فيه رؤساء صقلية المسلمين بصقلية جميعا. ونعجب إذ نجد أبا الضوء سراج بن أحمد بن رجاء يعزّى روجّار الثانى عن ابنه روجار بمرثية باكية، وفيها يقول[5]:

خَبَا القَمَرُ الأَسْنَى فـأظلمتِ الدُّنَـا	ومـادَ من العليـاء والمجـد أركـانُ[6]
تخـطَّفَـه رَيْـبُ المـنـون مُخَـاتِـلا	عـلى غِـرَّةٍ إن المـنـون لخـوَّانُ[7]
فيـالـك من رُزْءٍ عـظيم وحـادثٍ	يَعِـزُّ لـه صـبر ويَعْـوزُ سُلْوَانُ

وقد ذهب يقيم الدنيا ويقعدها لموت ابن روجار الثانى وأنـه حرى أن تهمى لـه العيون وتحترق الأكباد وتعظم الأشجان وأن تبكى عليه خيماته وقصوره وسيوفه ورماحه وأن تعاف

---

(١) الخريدة ١/٤٦.

(٢) قُطَّ هنا: انطفأ.

(٣) الردى: الهلاك. الرهط: الجماعة والعشيرة.

(٤) ما أسْطا: ما أشّد بطشك.

(٥) الخريدة ١/٢٧٧.

(٦) خبـا: خفت. الأسنى: عالى الضوء. الدنى: جمع دنيا. ماد: مال.

(٧) مخاتلا: مخادعا.

خيله اللجم والأرسان، وما نواح الحمام إلا له، وما كان أفظع يومه، لكأنه كان يوم الحشر. كل ذلك ولا يرجع أبو الضوء إلى نفسه ويستنكف من تقديم هذا العزاء للك نصرانى. ونتوقف قليلا لنتحدث عن محمد بن عيسى ومراثيه.

محمد[1] بن عيسى

هو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم يقول القفطى عنه: «من أهل صقلية من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ماهر فيها قيِّمٌ بها مذكور بين الحكماء هناك بأحكامها»، ويقول العماد نقلا عن ابن بشرون: «كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس، منجم، لغارب (لكاهل) الفصاحة متسنم، فى ملتقى أولى العلم كمىٌّ (شجاع) مُعْلم (معروف)». ويقول إن ابن بشرون أورد من شعره ما يهز أعطاف القلوب مراحا (مرحا) ويدير على الأسماع من الرحيق المختوم راحا. ويعجب العماد بمراثيه وينقل قطعة طويلة من إحداها، وفيها يقول:

عــزَّ الْعَـزاءُ وجَـلَّ البَـيْنُ والجَـزَعُ ... وحلَّ بـالنفسِ منه فـوقَ مـا تَسَعُ
مَنْ لليتـامى وأبنـاءِ السبيـلِ وهم ... قد ارْتَـوَوْا من أياديـهِ وقـد شَبِعوا
بكتْـه شَمْسُ ضُحـاهُ واختفتْ جَـزَعًـا ... وألْبِفَـتْ تحت سِـتْرٍ للغيـمِ تَـطَّلِعُ
سعـوا مشـاةً وهم فى الزِّىِّ أَغْـرِبَـةٌ ... مسـودَّةٌ من وراءِ الـنَّعْشِ تَـتَّبِـعُ
ولم يكن لَهُمُ بـالعيـدِ مِنْ فَـرَحٍ ... ولا لهم فى التسلِّ بعـده طمـعُ

فالعزاء فى موت هذا الشخص صعب إذ عظم فيه الجزع وحلَّ بالنفس حزن لا تطيقه. ويبكى فيه الشاعر مواساته لليتامى وأبناء السبيل والبؤساء الذين طالما أسبغ عليهم من أفضاله، ويقول إن الشمس توارت باكية وراء سحاب لتطلع على جنازته الضخمة، وقد سعت الجموع وراء نعشه تلبس السواد بعد أن كانت تلبس البياض وكأنما كانت حمائم وانقلبت غربانا، وجاء العيد سريعا فلم يفرحوا فيه ولا فزعوا إلى شىء يتسلون به، إذ غمرهم لموته حزن شديد. ويقول إن أعماله الطيبة ستفسح له فى الفردوس الأعلى:

جـاءت مـلائكـةُ الرِّضـوانِ مُعْلِـمَـةً ... بـأنـه لجـنـانِ الخُلْدِ مـرتـفـعُ

---

[1] انظر فى ترجمة محمد بن عيسى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (طبع ليبزج) ص٢٨٩ والخريدة ٣٤/١ وما بعدها

وقـد أعدّتْ لـه أعمالـهُ غُرَفًـا ... فيها لأنفُسِ أهْلِ الفضلِ مُرْتَبَعُ[١]

يـا فجعةً لم تَدَعْ فى العيش من أرَبٍ ... وغُصَّـةً فى لَهـاه ليس تُـبْتـلَعُ[٢]

أضرمتِ نارا عـلى الأحْشاء مُوصَدةً ... أكبادُنا فى لـظى أنفاسهـا قِطَعُ

فملائكة الرضوان نزلت لتستقبله وتأخذه إلى الرفيق الأعلى وجنان الخلد، إذ أعدت له أعماله الخيِّرة بها غرفا فى عليين. ويعود على بن عيسى إلى التفجع على الميت قائلا إن الفجيعة فيه لم تدع فى الحياة من أمل فقد ماتت معه كل الآمال، وأودع موته غصصا لا يطيق أحد ابتلاعها، وقد أضرم فى الأحشاء نارا متقدة تتقطع فى لظاها الأكباد حسرة عليه. ويختار العماد من مرثية ثانية لمحمد بن عيسى مقاطع، وفيها يقول:

شهابُ المنايا من سماء الرَّدى انقضَّا ... ورُكْنُ المعـالى والجلال قـد انفضَّـا

بكتْـه المذاكى المُقْـرَبـاتُ وقـطِّعتْ ... شكـائمهَا إذ منه أُعدمتِ الرَّكضا[٣]

وكـادتْ سيـوفُ الهند تندقُّ حَسْرةً ... وأجفـانها تنشقُّ عنهـا لكى تُنْضَى[٤]

شهدنـا عـلى قـرب بمشهـد موتـهِ ... مشاهد لم نَحْظ القيامة والعَـرْضا

أعادَ سـرورَ العيـدِ حُـزْنًـا مماتُـه ... ومُبْـرَمُ أمـرٍ فيـه حـوْلـه نَقْضـا

فشهاب الموت قد انقض على هذا الميت من سماء الهلاك، وانهدم بذلك ركن المعالى والجلال، وإن الخيل الكريمة أو المكرمة لتبكى فروسيته، وقد قطعت الشكائم، إذ لم يعد يركض عليها لقتال أعدائه، وإن سيوف الهند لتندقّ حسرة عليه، وإن أغمادها لتنشقّ عنها لكى ينتضيها فارسها المغوار. ويصف الشاعر جنازته ويقول كأنها كانت يوم الحشر ازدحاما وهولا، وأعقب موته العيد فلم يعرف الناس فيه سرورا ولا استطاعوا أن يبرموا أمرًا من أمورهم، إذ انتابهم حزن عميق. ويصور الشاعر مدى الخسارة فيه قائلا:

لـقـد مـات فيـه عُـدَّةٌ أىُّ عـدَّةٍ ... لنا فَمِنْنا كـل عيشٍ بـه يُـرْضَى

وأبصـارُنـا كـانت تسـامى لـه وقـد ... غدا الكلُّ منا طرفَه اليوم قد غَضَّا[٥]

وقد كان طرفى ليس يُغْضى على القَذَى ... فأضحى على أقذائِهِ اليوم قد أغضى[٦]

فقد ماتت فى هذا الفقيد عدَّة ضخمة للمسلمين فى صقلية النورمانية، إذ عدم الشاعر وغيره

(١) مرتبع: مقام طيب.

(٢) لهاةُ كل ذى حلق: الجزء المشرف عليه فى أقصى سقف الفم.

(٣) المذاكى: الخيل. المقربات: المعدة للركوب

(٤) أجفانها: أغمادها. تنضى: تُسَلّ

(٥) غضّ الطرف: خفضه

(٦) أغضى يغضى: أغمض

من المسلمين هناك كل عيش كانوا يقنعون به وبعد أن كانت أبصارهم تتطلّع إلى الفقيد معلّقة به أمانيها أخذت اليوم تغضّ منها خشوعا، وكان طرف الشاعر لايغضى على القذى فأصبح اليوم يغضى على أقذاء كثيرة.

٢

شعراء الزهد والوعظ

زاهد الأمة الأول وواعظها الرسول ﷺ وتلته طبقات من الزهاد والوعاظ كانت تقرن وعظها وزهدها بالعبادة والنسك، ونجدهم فى جميع البيئات الإسلامية، وفى كل زمن. وتموج بمواعظهم وكلماتهم الزاهدة الكتب من مثل البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحصرى، وتجرى على ألسنة الشعراء فى صقلية الإسلامية أبيات تتصل بالوعظ والزهد، من ذلك قول أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الغنى المقرئ الواعظ[1]:

أيا من نال فى الدنيا مُناهُ	تأهبْ للفراق وللرحيلِ
ولا تفرحْ بشىءٍ قد تناهى	فما بعد الطلوع سوى النزولِ

وهو ينصح من نال فى الدنيا كل آماله أن يتأهب لفراقها بالصلاة والنسك، ويقول له لا تفرح بشىء بلغ نهايته، فلم يعد أمامك بعد المنزلة التى صعدت إليها إلا النزول إلى قبرك الموحش. ويقول جعفر[2] ابن الطيب الكلبى:

ومغتبطٍ بعيشٍ غير باقٍ	يروم سلامةً تحت الهلاكِ
ألا ياحارِ قد حارتْ عقولٌ	وغُلّت بالقليل عن الحراكِ
وقد نصبتْ لك الدنيا شباكا	فإياكَ الدنوَّ من الشِّباكِ

وهو يعجب لمن يفرح بعيش لا يدوم وكأنه يروم سلامة تحت هلاك محقق، ويعجب لأناس غرهم ما حصلوا عليه من قليل فى الدنيا فسكنوا إليه ولم يتحركوا لقضاء ما عليهم من الحقوق لربهم، وينصحهم أن لا يقتربوا من شباك اللذات والشهوات التى نصبتها لهم الدنيا، حتى لا يقعوا فيها عن غير بصيرة. ويقول أبو عبدالله محمد بن قاسم بن زيد اللخمى الكاتب القاضى مناجيا ربه[4]:

---

(١) الخريدة ١/١١٠

(٢) الخريدة ١/١١٤

(٣) حار: مرخم حارث

(٤) الخريدة ١/١١٨

يـاربَّ صفحا وغفـرانا ومعـذرةً ... لـمذنب كثـرتْ منـه المعـاذيـرُ
يُبْكيه إجْرامُـه طورا ويُضْحكـه ... رجـاؤه فَـهْـوَ محـزونٌ ومسـرورُ

وهو يطلب من الله الصفح والعفو والغفران لما ارتكب من الذنوب، ويفكر فى أمره فيراه يبكى لكثرة ذنوبه ويضحك لرجائه لربه، وكأنه يجمع بين نقيضين، فهو دائما محزون لمعاصيه ومسرور لما يأمل عند الله من العفو والمغفرة، ولأبى حفص عمر بن حسن بن الطبرق، وكان من أهل الدين والورع والعفاف[1]:

سيلقى العَبْـدُ مـا كسبتْ يـداهُ ... ويـقـرأ فى الصحيفـة مـا جنـاهُ
ويُسْـأَلُ عـن ذنـوبٍ سـالـفـاتٍ ... فـيـبـقـى حـائـرا فـيـما دَهـاهُ
فيـاذا الجهـل مـالـك والـتمـادى ... ونـارُ الله تحـرقُ مَـنْ عـصـاهُ
فـعـوِّل فى الأمـور عـلى كـريـمٍ ... تـوحَّـدَ فى الجَـلالـة فى عُـلاهُ
وأمِّـلْ عَـفْـوَهُ وافْـزَعْ إلـيـه ... ولـيس يخـيـبُ مخـلوقٌ رجـاه

وهو يقول إن كل إنسان سيحاسب يوم القيامة وتعرض عليه صحيفة حاملة إليه ما كسبت يداه فى دنياه، ويسأل عما ارتكب من ذنوب وآثام فيُرْتج عليه، ويحتار فيما اقترفه، وواجب أن لا يتمادى الإنسان فى غيه ويذكر الجحيم المعدة للعاصين، ولا ييأس من رحمة ربه الكريم قابل الذنب والتوب الذى يعفو عن عباده الآثمين، ولا يخيب مخلوق رجاه. ويقول أبو عبدالله بن الطوبى[2]:

يحـبُّ بـنـو آدمٍ ربَّـهـم ... ولـكـنهم بـعـدُ يـعـصُـونَـهُ
وإبليسُ قـد شَـرِبـوا بُغْضَـهُ ... وهـمْ بـعـد ذاك يُـطـيـعـونـه
فـهـذا الـتـنـاقـض فـيـما بـالُهم ... يـرون الضـلالَ ويـأتـونَـهُ

وهو يعجب لمن حوله، فهم يعلنون حبهم لربهم ويعصونه، كما يعلنون بغضهم لإبليس ويطيعونه، وإنه لتناقض ما بعده تناقض، فما بالهم يرون الضلال وانحرافه بهم عن الطريق المستقيم ويأتونه. ويقول فى مقطوعة ثانية[3]:

لـو قـلتَ لى أىَّ شىءٍ ... تَهْوَى؟ لقلتُ خلاصى
النـاسُ طـرًّا أفـاعٍ ... فـلاتَ حين مناص[4]

(١) الخريدة ١/١٠٦
(٢) الخريدة ١/٦٤
(٣) الخريدة ١/٧٢
(٤) مناص: ملجأ

نَسُوا الشريعةَ حتى تغامزوا بالمعاصى
ياويحهم لو أُعِدّوا لهول يوم القِصاصِ

وهو يقول إن المجتمع فسد، والناس فيه جميعا أفاع ويتمنى منهم الخلاص، إذ نسوا الشريعة وأوامر الدين وإنهم ليتغامزون على ارتكاب المعاصى فى غير خوف من الله ولا من يوم القيامة يوم يؤخذ العاصون بالنواصى والأقدام ويقول: ياويحهم لقد كان حريا بهم أن يُعِدّوا ليوم القصاص، يوم يُسْأل كل شخص عما قدمت يداه. ويبدو أن ظاهرا من التصوف كان قد دخل صقلية الإسلامية فى زمنه، فأناس يلبسون مرقّعات الصوف، وأناس يغنون على صفوف الذكر، وآخرون يصيحون ويرقصون، فقال[1]:

ليس التصوفُ لبسَ الصُّوفِ ترقعه ولا بكاؤك إن غنَّى المغنونا
ولا صياحٌ ولا رقصٌ ولا طَربٌ ولا تغاشٍ كأن قد صرتَ مجنونا
بل التصوفُ أن تصفو بلا كَدَرٍ وتتبع الحق والقرآن والدِّينا
وأن تُرَى خائفا لله ذا نَدَمٍ على ذنوبك طولَ الدهر محزونا

فالتصوف ليس لبس مرقعات الصوف والبكاء حين سماع المغنين والرقص والطرب وأن يقع المتصوف مغشيا عليه أو كالمغشى كأنه صار مجنونا، بل التصوف الصفاء الدينى واتباع الكتاب والسنة والخوف من الله والندم على الذنوب. ومن الوعاظ قبل العهد النورمانى عمر بن خلف بن مكى، وسنفرده بكلمة، ويقول ابن القطاع[2]:

تنبَّه أيها الرجلُ النَّؤومُ فقد نجمتْ بعارضِكَ النجومُ
وقد أبدى ضياءُ الصبح عما أجنَّ ظلامُه الليلُ البهيمُ[3]
فلا تغْرُرْك يا مغرورُ دُنْيا غَرورٌ لا يدومُ بها نعيمُ[4]
ولا تخْبِطْ بمعوجٍّ غموضٍ فقد وضح الطريق المستقيم

وهو يقول تنبه أيها الرجل الذى اعتاد النوم عن أداء فروض دينه وعبادة ربه، فقد ظهرت نجوم الشيب بعارضيك. وأبدى ضياء الرشاد عما أجنَّ ليل الشباب البهيم من ظلام الغى، فلا تغتر يا مغرور بدنيا خادعة لا يدوم بها نعيم ولا تخبط - كالأعمى - فى طريق معوج غامض، فقد وضح أمام عينيك الطريق المستقيم. ونلم بعمر بن خلف بن مكى وماله من مواعظ.

---

(١) الخريدة ٧٢/١
(٢) الخريدة ٥٥/١
(٣) البهيم: المعتم
(٤) غرور: خادعة

ابن[1] مكى

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكى، منشؤه ومرباه وشيوخه فى صقلية وفى مقدمتهم ابن البر اللغوى، وعليه تخرج ويذكر فى مقدمة كتابه اللغوى النفيس: «تثقيف اللسان» أنه عرضه عليه فما أقرَّه أبقاه وما أنكره أخلا الكتاب منه، وأدى به فقهه وعلمه إلى تولى منصب القضاء فى بلده، وقد خرج منها إلى تونس قبيل استيلاء النورمان عليها، واستوطنها وولى قضاءها وخطابة جامعها. وينقل العماد عن ابن القطاع تقديه له بقوله: «انتقل إلى تونس، وولى قضاءها، وهو فقيه محدث، خطيب، لغوى، وفضله بالألسنة فى جميع الأمكنة مأثور مروى، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة، تُعجب رواته، ومن قوله:

يـا حـريصًـا قـطعَ الأيّـام فى	بؤسِ عيشٍ وعنـاءٍ وتـعـبْ
ليس يَعْـدوك من الـرزق الـذى	قـسمَ اللهُ فـأجـمِـلْ فى الـطَّلبْ

وهو يدعو إلى القناعة والزهد والرضا بما قسمه الله للإنسان، فإن أحدا لن يصيبه ضياع، بل الكل سيكفل له رزقه، ولا داعى للعناء الشديد فى طلبه ولا للحرص أكثر مما ينبغى، فما قدِّر لك سيأتيك. ويقول مذكرا بالموت داعيا إلى التقوى والعمل الصالح:

عجبًـا لـلمـوت يُنْسَى	وهْـو مـا لابُـدَّ مِـنْـهُ
كيف تـنسـاه وقـدجـا	ءتْـك رُسْلٌ من لَـدُنْـه
سوف تلقى الوَيْلَ إن جئـ	ـتَ بـعـذرٍ لم تُـبِـنْـه
وتـرى جسمَك فى النـا	ر غـدا إن لم تَـصُـنْـه
والـذى ينجـو من النـا	ر أخـو التقوى فَكُنْـه

وهو يعجب لمن ينسى الموت وهو مكتوب على الإنسان، وقد جاءته رسل من لدن الله تهديه إلى الرشاد، ويقول إن من لا يستطيع أن يقدم عذرا عن سيئاته سيلقى الويل والعذاب الشديد،ومن لا يصون جسمه بالعمل الصالح ستكون النار مصيره، إذ لا ينجو منها إلا أخو التقوى والعمل الصالح، وحرى بك أن تسلك مسالك التقوى والهدى، فإن فى ذلك الفوز الكبير. ويدعو إلى العزلة عن الناس والاكتفاء بأقل ما يمكن من العيش وبصاحبة الكتب، ولا تعلق رجاءك بأحد، يقول:

---

(١) انظر فى ابن مكى الخريدة ١/٢/١٠٦ وإنباه الرواة للقفطى٣٢٩/٢ والمكتبة الصقلية ٥٩٧، ٦٤٦ وكتابه تثقيف اللسان مطبوع بالقاهرة بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب

اجعلْ صديقَك نَفْسَكْ	وجوفَ بيتك جِلْسَكْ[1]
واقْنَعْ بخُبْزٍ ومِلْحٍ	واجعلْ كتابك أُنْسَكْ
واقطَعْ رجاءَك إلا	ممن يصرِّف نَفْسَكْ
تَعِشْ سليمًا كريمًا	حتى توافىَ رَمْسَكْ[2]

وهو ينصح الإنسان أن لا يتخذ صديقا له إلا نفسه، فليس من صديق حقيقى تستطيع الاستعانة به حين يلم بك خطب من الخطوب، بل إنه ليدعوه إلى اعتزال الناس جميعا ولزوم بيته، حتى لا يصيبه أذاهم، وينصحه بالزهد فى متاع الحياة والرضا بأقل القليل: بخبز وملح فهما حسبه، وهما يكفيانه أن يريق ماء وجهه فى طلب ما فوقهما من طيبات الدنيا. ويقول له: اكتف بالكتاب، واتخذه صديقك وأنيسك فإنه سيضيف إليك معرفة، ولن يؤذيك أى أذى ولن يضرك أى ضرر، وينصحه أن يقطع رجاءه من الناس، فليس بينهم من يحقق له رجاء إلا إذا ألجأته الضرورة لمن يصرِّف أمره. ويقول له إذا اتبعت هذه النصيحة من الزهد فى متع الحياة وعشت متقشفا ترضى بكسرة أو قطعة من الخبز واكتفيت بإدامها من الملح، ولم تتخذ لك صديقا سوى الكتاب، ولا أملت من أحد شيئا عشت أسعد السعداء حتى وفاتك. ويقول:

مَنْ كان منفردا فى ذا الزمان فقد	نجا من الذلِّ والأحزان والقَلَقِ
تزويجنا كركوب البحر ثم إذا	صرنا إلى ولدٍ صرنا إلى الغَرَقِ

وهو يمتدح العزلة والانفراد عن الناس حتى عن تكوين الأسرة، ويتمثل الزواج كركوب البحر ومخاطره من العواصف، ويتصور الأولاد ومطالبهم ومتاعبهم فى الحياة عواصف ماتنى تتناول راكب البحر وسفينته، حتى يغرق.

٣

شعراء التفجع والحنين واللوعة

استحالت صقلية فى العهد الإسلامى إلى جنة فيحاء من جنات المسلمين بدنها وحصونها التى تُعد بالعشرات، بل بالمئات، وبحقولها وزروعها من كل صنف، وبحدائقها وثمارها من كل لون، وبأزهارها الأرجة التى تعطر جميع الأنحاء فيها والأرجاء. وبينما كانت تعيش فى أمن ورفاهية إذا أمراء الطوائف يقيمون لهم فيها عروشا وإمارات ويدب بينهم الشقاق وتتكاثر الفتن. ويشهر الإخوة المسلمون السلاح بعضهم على بعض، ويتسلل ابن الثمنة حاكم بلرم الخائن إلى روجار وروبرت ابنى طنكراد (Tancrede) أميرى قَلَوريَّة وأنكبَردة فى جنوبى إيطاليا مستنجدا بهما ضد

(١) جلسك: مكان إقامتك لا تبرحه

(٢) رمسك: قبرك

حاكم مدينة قصريانة وينجده روجار، ويستولى على مسينى ثم على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وكان ذلك إنذارًا باحتلال الجزيرة وضياعها، فلم يمر عشرون عاما حتى أخذت مدنها فيها تتساقط فى حجر روجار، وأصبح المسلمون يقلبون أكفهم على ما أنفقوا فيها وأنشئوا بها من حضارة وقصور وزروع وحدائق ذات بهجة، وأخذ كثير من علمائها وشعرائها يودّعونها، منهم من يتماسك مثل أبى العرب[1] الصقلى الذى رحل عنها إلى الأندلس منشدا:

أهُمّ ولى عَـزْمان عَـزْمٌ مشـرِّقٌ	وآخَـر يُغْـرِى همَّتى بـالمغـارب
ويـا وطنى إن بِنْـتَ عنّى فـإننى	سـأوطِنُ أكوارَ العِتـاق النجائبِ[2]
إذا كـان أصـلى من تـرابٍ فكلُّهـا	بـلادى وكـلُّ العـالمين أقـاربى

وكان لا يدرى حين فراقه للجزيرة هل يتجه شرقا أو يتجه غربا إلى الأندلس، واختار الاتجاه إلى الغرب. ويتخيل كأن الوطن هو الذى بان عنه بكثرة ما فيه من الفتن والحروب مما اضطره إلى مفارقته وتوطنه فى رحال الإبل النجيبة باحثا عن وطن جديد، ويخفف الأمر على نفسه، فإذا كان أصله من تراب وكل البلاد تحمل التراب فهى جميعا بلاده، وكل من فيها من العالمين من أقاربه وذوى رحمه. وإذا كان أبو العرب متماسكا هذا التماسك فى اضطراره إلى النزوح عن وطنه فقد كان هناك من لا يزال يحن إليه مثل عمر بن رحيق الذى نشأ وتربى فى بلرم، حتى إذا استولى عليها روجار والنورمان رحل عنها، ولا تزال ماثلة نصب عينيه، ولايزال يحن لها ولأهله، ولا يزال حبها يضطرم فى حنايا فؤاده ويجنه[3].

نـفـسـى تحـنّ إلى أهـلى وأوطـانى	وهـل رأيـتـم محبًّـا غـير حنّـانِ
كـانـوا بقلبىَ أحيـاءً وفى كَـبِـدِى	نـارٌ تـأجَّـج من شجوى وأحـزانى
عـزُّ اصـطبـارى لـرُزْءٍ قـد دُهِيتُ بـه	وبـانَ عنى لَـوشْـكِ البَـيْنِ سُلْوانى

فهو يحن إلى أهله ووطنه حنين ملتاع فقد هما، وكانوا ماثلين تحت بصره وفى قلبه، فغابوا عنه وتأججت نار بكبده من شجوه وأحزانه التى يكتوى بها فؤاده، ويقول إنه رزء ومحنة دهته، وعزّ عليه أن يتحمّلها وكيف يتحملها؟ لقد نفد صبره، وفارقه سلوانه، ولم يبق له إلا الحزن المض والشّجى الموجع، وأكبر شاعر توجع وتفجع على فقدان صقلية ابن حمديس، وهو جدير بأن نفرده بترجمة.

---

(١) الخريدة ٢٢٢/٢

(٢) بنت: بعدت. أكوار جمع كور: الرَّحْل

(٣) الخريدة ٢٨٩/٢

ابن[1] حمديس

هو عبدالجبار بن حمديس، ولد بمدينة سرقُوسة الواقعة بشرقى صقلية سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٦م لأسرة على شيء من الثراء والعلم والفضل، واختلف مثل لداته إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم، وتحوَّل منه إلى حلقات الشيوخ، ونزعت به ميوله إلى الأدب والشعر، ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، وتكونت له رفقة كانت تأخذ بنصيب غير قليل من اللهو والذهاب إلى الحانات والأديرة لشرب الخمر والمتاع بالغناء. وكانت بلرم قد سقطت فى يد روجار والنورمان، وبدا فى الأفق أنهم يتأهبون للاستيلاء على سرقوسة وغيرها من بلاد الجزيرة، وأخذ يعدُّ نفسه – مثل أقرانه – للقائهم برا وبحرا، ونفاجأ به فى نحو الرابعة والعشرين من عمره يُصِرّ على أن يغادر بلده إلى الأندلس مارا بإفريقية وتميم بن المعز مرورا سريعا وربما كان السبب الحقيقى فى مغادرته بلده لا فرارا من معركة صقلية وسرقوسة مسقط رأسه ضد النورمان، ولكن طلبا للشهرة فى عالم شعرى مزدهر، يأمل أن يتحقق له فيه ما يتمناه لنفسه من مكانة أدبية مرموقة بين شعراء الأندلس الذين كانت أسماؤهم تدوِّى فى العالم العربى، ولعله من أجل ذلك اختار النزول بأهم بيئة شعرية فى الأندلس، إذ كان بها أكبر راع للشعر بين أمراء الطوائف، ونقصد المعتمد بن عباد. وحط رحاله فى بلدته إشبيلية سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨م ولزم باب قصره فترة، وبعث إليه ببطاقة شعرية يقول فيها:

أيَا مُولِيَ الصُّنْعِ الجميلِ إذا انْتشَى ... ويا مُسْدِيَ النَّيْلِ الجزيلِ إذا صَحَا

وفى كلِّ أرضٍ من نَدَاهُ حديقةٌ ... تضوَّعَ مسكًا نَوْرُها وتفتَّحا[2]

أأُفْرَدُ بالحرمانِ من كلِّ عاطلٍ ... تطوَّقَ من نُعْماك ثم توشَّحا[3]

وما إن قرأ المعتمد البطاقة حتى أعجب به واستدعاه محتفلا باستقباله ومنحه جائزة سنية، وطلب إليه أن يظل فى حضرته، وظل بها يمدحه بقصائد طوال فى مناسبات مختلفة، وكانت إشبيلية فى عهد المعتمد تعيش عيشة لاهية فشارك فى هذه المعيشة وتمتع بمناظرها الطبيعية البديعة، وأتاه نعى أبيه فحزن لوفاته ورثاه بقصيدة باكية استهلها بقوله:

---

(١) انظر فى ابن حمديس الخريدة ١٩٤/٢ والذخيرة ٣٢٠/٤ وابن خلكان ٢١٢/٣ والجزء الأول من عنوان الأريب لمحمد النيفر (طبع تونس) بتحقيقه وتقديمه له ودراسة الدكتور إحسان عباس فى كتابه العرب فى صقلية ص٢٣٥ وديوانه بتحقيقه وتقديمه له.

(٢) تضوع: ذكت رائحته

(٣) تطوق من الطوق وتوشح من الوشاح كناية عن إسباغ نعمه عليه

أتـانى بـدار النَّـوَى نَعْيُـهُ فيـا روعة السمع بـالـداهيه

وكان يسمع أخبار مسقط رأسه سرقوسة ومقاومتها العنيفة للنورمان بقيادة بطلها ابن عباد فيهتز طربا ويكبر عنده الأمل فى ضرب النورمان الضربة القاضية، وبالمثل كانت تأتيه أخبار ابن حمودة فى قصريانة ومنازلته للنورمان منازلة ضارية، فيعظم عنده الأمل فى طرد النورمان من صقلية، ويرسل إلى قومه يحضهم على جهاد العدو الغاشم ويحثهم على منازلة العدو منازلة حاسمة، فلها عليهم جميعا حقوق، وواجب أن ينصروها ولا يخذلوها حتى النَّماء الأخير:

ولله أرضٌ إن عَـدِمْتم هـواءَهـا	فأهواؤُكم فى الأرض منثورةُ النظمِ
وعـزُّكُمْ يُفْضِى إلى الذلِّ والنَّوَى	من البَيْن ترمى الشملَ منكم بما ترمى
أعَنْ أرضِكم يُغْنيكمُ أرضُ غيركم	وكم خالةٍ جَدَّاء لم تُغْنِ عن أمّ[١]
تَقَيَّدْ من القـطر العـزيـز بموطنٍ	ومُتْ عند رَبْعٍ من ربوعك أو رسْم
وإيـاك يـومـا أن تجـرِّب غُـرْبَـةً	فلن يَسْتجيـزَ العقلُ تجـربـةَ السُّمِّ

وهو ينصح الباقين بعده فى سرقوسة وغير سرقوسة أن لا يفكروا فى مبارحتها حتى لا يعدموا هواءها الذى يتنفسونه ويحيون به ولا عزَّهم الذى يعيشون فيه وإلا تحولت حياتهم إلى ذل وهوان، وهل تغنى أرض عن أرض الوطن، ويهيب بكل صقلى مسلم أن يقيد نفسه بوطنه، وأن يظل يدافع عنه حتى يموت عند ربع من ربوعه أو عند رسم من رسومه، ويحذره من الهجرة عنه والإفضاء إلى غربة، هى سم قاتل. ويعتذر لنفسه مرارا عن مبارحته الوطن فى وقت محنته وأنه لا يستطيع العودة إليه، لما يُغْدق عليه المعتمد بن عباد من أفضال متصلة. وقد رأينا أن العائق الأهم عن عودته لوطنه إنما كان المجد الأدبى الذى أخذ شعره يحققه له فى الأندلس، وبذلك تحققت أمنيته الكبرى من مبارحة الوطن. وكأنما قيَّده هذا المجد بإشبيلية فلا يستطيع منها خلاصا وحراكا. وتسقط فى أيدى النورمان سرقوسة مسقط رأسه سنة ٤٨٢ وتسقط بعدها قصريانة سنة ٤٨٤ ويتلاشى من نفسه ونفس كل صقلى الأمل فى استرداد صقلية، وينظم قصيدة جنائزية يودعها بها قائلا:

أعـاذلُ دَعْنى أُطْلقِ العَبْـرةَ التـى	عـدمت لها من أجمـل الصبر حـابِسَـا
لقـدْرتُ أرْضِى أن تعـودَ لقـومهـا	فسـاءتْ ظنـونى ثم أصبحتُ يـائِسَـا
وكيف وقـد سِيمَتْ هَـوانًـا وصيِّـرتْ	مسـاجدُهـا أيـدى النصارى كنـائسـا
إذا شـاءتِ الرهبـانُ بالضَّـرب أنطقت	مع الصبح والإمساء فيهـا النَّواقِسـا

---

(١) جداء: قليلة اللبن.

أرى بلدى قد سامهُ الرومُ ذِلَّةً　　وكان بقومى عِزُّهُ مُتَقاعِسا[1]
وكانتْ بلادُ الكفر تَلْبسُ خوفَهُ　　فأضحى لذاك الخوفِ منهن لابسا

وهو يقول لصاحبه دعنى أذرف الدموع التى لم يعد لها حابس من الصبر، إذ ظل سنين طويلة يظن أن صقلية ستعود إلى أهلها، فخاب ظنه، بل لقد أصبح يائسا يأسا مرا، فقد صهلت خيل النورمان فى كل أنحائها، وسيمت هوانا ما بعده هوان، وأى هوان أعظم على نفس المسلم من أن يرى بلده تسقط فى حجر النصارى ويحيلوا مساجدها كنائس، ويضرب الرهبان فيها النواقيس صباح مساء، لقد سام الروم صقلية الإسلامية ذلة ماتماثلها ذلة، صقلية التى كانت تعتز بمسلميها عزة لا تدانيها عزة. وكان النورمان فى جنوبى إيطاليا إذا سمعوا اسمها ارتعدت فرائصهم خوفا ورعبا، فإذا الأمر ينعكس ويصبحون هم مصدر الخوف لأهل صقلية الإسلامية.

ويفيض ابن حمديس فى الحديث عن بأس أهل صقلية المهيضة وجهادهم اليائس حين كانوا يسوقون أمامهم فرانس قَلَوْرِيَّة وبطارقتها وأشاوسها أسارى منكَّسين ومعهم نساؤهم حواسر. وليتأنَّ الجيش النورمانى فى خَطْوه، فإنه يمشى فى بلاد تحت أرضها شجعانها الذين طالما أذلوا أهل قلوريه،ولو شقت القبور عنهم لخرج إليهم منها أسد كاسرة غاضبة، غير أن الغيل غابت ليوثه فتبخترت فى أرجائه الذئاب.

ويحدث عقب ذلك أن يخلع يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد سنة ٤٨٥ من إمارته فى إشبيلية وينفيه إلى أغمات فى مراكش ونرى ابن حمديس يزوره بها ويحاول أن يخفف عنه مادهاه، منشدا ردا على شعر كتب به إليه مستيئسًا:

أتيأسُ فى يوم يناقضُ أَمْسَهُ　　وزهرُ الدَّرَارِى فى البروج تَدورُ[2]
ولما رحلتم بالنَّدَى فى أكفِّكم　　وقُلْقِلَ رَضْوَى منكمُ وثَبِيرُ
رفعتُ لسانى بالقيامة قد دَنَتْ　　فهذى الجبالُ الراسياتُ تَسِيرُ

ورضوى جبل بالمدينة، وثبير: جبل بمكة، وهو يقول له ينبغى أن لاتيأس من أن يتغير الحال، فالكواكب الساطعة لا تثبت بل تدور فى بروج متعددة، ولما رحلتم بالجود الفياض فى أكفكم وكأنما تحرك جبلا المدينة ومكة المقدسان صحت إن القيامة قد دنت فها هى الجبال الراسيات تسير كما جاء فى الذكر الحكيم نعتا ليوم البعث.

ويتصل بأبى القاسم بن عشرة قاضى «سلا» على المحيط ويتجه إلى بجاية بالجزائر ويمدح المنصور بن الناصر بن علنَّاس (٤٨٣ - ٤٩٨هـ) ويولى وجهه نحو المهدية وتميم بن المعز بن

---

(١) متقاعسا: متخلفا.　　(٢) الدرارى: الكواكب.

باديس ويلقاه لقاء حسنا، ويظل يتردد بين البلدتين ويضفي مدائحه على يحيى بن تميم بن المعز وابنه من بعده علي وحفيده من بعدهما الحسن ويكتظ الديوان بمديحهم جميعا، ويمدح بني خراسان في تونس ويظل يتردد على بجاية يمدح بعض رجالاتها من بني حماد. ومنذ أن هاجر من صقلية لم ينسها يوما وظلت لا تبرح ذاكرته حتى أنفاسه الأخيرة، ويخصّها بعد سقوطها بأشعار مؤثرة يبكيها ويبكي أيام مجدها، من ذلك قصيدة بائية في مديح تميم بن المعز وفيها يقول:

تدرَّعْتُ صبرى جُنَّةً للنوائبِ فإن لم تُسالم بازمانُ فحاربِ

وهو إنما يتدرع صبره ويحتمي به استسلاما، فإن الزمان أدار معه معركة حامية الوطيس فقد فيها كثيرا من أهله وحماة بلده، بل لقد فقد بلده نفسها غير مبق له على أي شيء، إلا أن يتنقل في صحاري إفريقيا وسهوبها ولا أليف ولا أنيس:

ولا سكنٌ إلا مناجاة فكرةٍ كأني بها مستحضرٌ كلَّ غائبِ
ولما رأيتُ الناس يُرْهَبُ شَرُّهم تجنَّبْتُهم واخترتُ وَحْدَة راهبِ
وحتى خيالٌ كنت أَحْظَى بوصْلِهِ له في الكَرَى عن مضجعي صَدُّ عاتبِ
فهل حالَ من شَكْلي عليه - فلم يَزُرْ - قضَافةُ جسمي وابيضاضُ ذوائبي[١]

فلم يعد له سكن يسكن إليه إلا أن يناجي فكره مستحضرا ما غاب عنه خاليا بنفسه ومعتزلا للناس، بل لكأن كل شيء من حوله يعتزله حتى الطيف الذي كان يسعده وصله في نومه وأحلامه انقطع عن مضجعه صادًّا عنه لا يزوره، فهل تغير شكله عليه وماحدث له من نحافة جسمه وابيضاض شعره، فلم يعد يعرفه ولم يعد يلقاه، ويذكر إخوان الصفاء وليالي الأنس بصقلية. وكان يتمنى لو استطاع الرجوع، غير أنها أصبحت مسترقة للأعداء:

ولو أن أرضى حُرَّةٌ لأتيتُها بعزمٍ يَعُدُّ السَّيْرَ ضربةَ لازبِ
ولكنْ أَرْضي كيف لي بفِكَاكها من الأَسْرِ في أيدي العلوج الغواصبِ
لئنْ ظفرتْ تلك الكلابُ بأكلها فبعد سكونٍ للعروق الضوارب[٢]

فعانقه إلى أرضه أنها استُعبِدت وأصبحت ملكا لغير أهلها، بل لقد أسرت ووضعت الأغلال في أيديها وأرجلها، ولم تعد تستطيع خلاصا ولا فكاكا ولا تحررا، وقد ظفرت بها كلاب الأعداء تنهشها بعد جهاد أهلها لهم جهادا عنيفا، وعز بفتنتهم قبل غزو النورمان مرورا خاطفا ويفيض

---

(١) قضافة: نحافة.

(٢) كنى ابن حمديس بسكون العروق الضوارب عن هدوء مقاومة أهل صقلية بعد الجهاد العنيف.

فى الحديث عن بطولتهم فى حروب الروم وكيف كانوا يموتون موت البسلاء الشجعان:

يموتون موت العِزّ فى حَوْمة الوَغَى | إذا مات أهلُ الجبن بين الكواعبِ[1]
حَشوا من عَجاجات الجهاد وسائدًا | أُعِدّتْ لهم فى الدَّفن تحت المناكبِ[2]
فغاروا أفولَ الشهب فى حُفَر البِلَى | وأبقوا على الدنيا سوادَ الغياهبِ[3]

لقد أبلوا بلاء عظيما فى حرب الروم قديما بَقَلَوْرِيَّة وحديثا بصقلية، وما منهم إلا من يقدم نفسه فداء لوطنه، وما منهم إلا من واقع الروم مرارا وتكرارا حتى اجتمعت له وسادة من غبار وقائعه أُعِدَّتْ له ليتوسدها فى قبره، ومازالت بهم البطولة المتناهية حتى أفلوا - أفول النجوم - فى حفر البلى مخلِّفين وراءهم على آفاق الدنيا سواد حزن وثكل لا يشبهه سواد. ويلتفت إلى داره العريقة بنوطس وسرقوسة، ويستودعها الله ويستمطر لها السحاب الممطر، ويهتف:

ألا فى ضمـانِ الله دارٌ بنُـوطُس | ودرَّتْ عليها مُعْصِراتُ الهواضبِ[4]
أُمثِّلها فى خاطـرى كلَّ سـاعـةٍ | وأَمْرِى لها قَطْرَ الدموع السوّاكبِ[5]
أحنُّ حنينَ النِّيب للموطن الـذى | مغـانى غـوانيـه إلىَّ جـواذبِ[6]

وهى تَمثَّل له ليل نهار وصباح مساء فى خواطره، بل إنها لتمثل له كل ساعة وكل لحظة، وينزف لها الدموع السواكب مدرارا، ويحن - حنين الإبل - للموطن الذى نبتت فيه، وإن مغانيه ومنازله لتجذبه إليها جذبا، وكأنما أودعها فؤاده ويريد أن يستردَّه، حتى لايحيا جسمه بدونه ودون خفقاته. وله فى صقلية قصيدة ثانية هائية يستهلها بقوله:

قضتْ فى الصِّبا النفسُ أوطارَهـا | وأبلغهـا الشيبُ إنـذارَهـا[7]

وهى أشبه بشريط لذكريات صباه وشبابه فى سرقوسة، ويذكر مجالس لهوه بها ويتذكر ليلة ساهرة والندامى من حوله وساقية تزرِّر بكفَّها أزرارها:

تـديـر بيـاقـوتـةٍ درَّةً | فتغمسُ فى مـائها نـارَها

ويشربها رفاقه، ويمعنون فى الشرب، ويذهبون إلى دير، يحتسون الخمر، ويطيل فى وصف

---

(١) حومة الوغى: أشد موضع فى الحرب.
(٢) عجاجات جمع عجاج: غبار.
(٣) الغياهب جمع غيهب: الظلام الشديد.
(٤) المعصرات: السحب الممطرة والهواضب: السحب يدوم مطرها أياما ولا يقلع.
(٥) أمرى: أسكب وأذرف.
(٦) النيب: النوق. مغانى: منازل.
(٧) أوطارها جمع وطر: البغية والحاجة.

مجلس الطرب، ويذكر ما فيه من الغناء والرقص والشموع المتقدة قائلا:

لقد سكّنَتْ حركاتِ الأسى قيانٌ تُحرِّك أوتارها
فهذى تعانق عُودًا لها وتلك تقبِّل مِزْمارها
وراقصةٍ لقطتْ رِجْلُها حسابَ يدٍ نَقَرتْ طارها
وقُضْبٍ من الشمع مصفرةٍ تريك من النار نُوّارَها
كأنا نُسلِّطُ آجالَها عليها فتَمْحَقُ أعمارها

وإن للغناء هناك من القيان لنشوة تسكن حركات الأسى فى النفس أو تارها بما تصب فى الآذان من نغم بديع، والعود مسند إلى صدر قينة كأنه يعانقها، وقينة أخرى كأنها تقبِّل مزمارها، وراقصة كأنما تلقط قدمها نقر صاحبتها بيدها على طارها، متفننة فى حركاتها، والشموع متقدة طول هذا المجلس اللاهى، وكأنما آجالها تنقص أعمارها تدريجا حتى تنمحق. وينتهى شريط الذكريات ويحنّ إلى صقلية مستودع صباه وشبابه وليالى أنسه ومرحه، ويهتف.

ذكرتُ صقليَّةً والأسى يهيِّج للنفس تذكارَها
ومنزلةً للتصابى خلَتْ وكان بَنُو اللَّهْو عُمَّارها
فإن كنتُ أُخْرِجْتُ من جنَّةٍ فإنى أحدِّث أخبارَها
ولولا ملوحةُ ماء البُكا حسِبْتُ دموعىَ أنهارَها

وهو يذكر صقلية ومنازل صابيه وشبابه فيها والحزن يقطِّع نياط قلبه عليها حسرة ولوعة، ويقول إنها لجنة عظيمة أخرجت منها، وحرى بى أن أحدِّث أخبارها وأبكيها بدموع غزار، ويذكر أنه سيبكيها عشرات السنين بأنهار من الدموع لا تتوقف سيولها، ولعلها توقفت قليلا حين أبهجه انتصار جيش الحسن بن على بن يحيى بن تميم سنة ٥١٧ هـ/١١٣٧م على جيش الملك روجار الثانى فى وقعة الديماس بمنتصف الطريق بين المنستير والمهدية على الساحل التونسى، وكان روجار يبغى الاستيلاء على المهدية، فردَّ جيشه مدحورا إلى صقلية، وأشاد ابن حمديس بهذا الانتصار إشادة رائعة فى قصيدة له رائية يمدح بها الحسن بن على بن تميم مهنئا له بالنَّصر على الأعداء من النورمان:

ليهْنِك فتحٌ أولغَ السيفَ فيهمُ ولاح بوجه الدِّين من ذكره بِشْرُ[1]

---

(١) أولغ السيف فيهم: جعله يلغ ويشرب من دمائهم.

ودون مَرامِ الرُّوم فيما سَمَوْا له	قلائدُ أعناقٍ هي القُضُبُ البُتْرُ[١]
وكم من فريق منهمُ إذ تمزّقوا	له غَرَقٌ فى زَخْرةِ الموج أو أَسْرُ
فَسَلْ عنهمُ الديماسَ تسمعْ حديثَهم	فهم بالمواضى فى جزيرته جُزْرُ[٢]
هناك شفى الإسلام منهم غَليلَهُ	بطعنٍ له بَتْرٌ وضربٍ له هَبْرُ[٣]
أعاربُ جَدُّوا فى جهادِ أعاجمٍ	خنازيرَ شَبَّتْ حَرْبَها أُسُدٌ هُصْرُ[٤]

وهو يهنئه بهذا الانتصار المروِّع الذى جعل السيوف تلغ فى دمائهم وتشرب منها مرتوية، وكأنما ابن حمديس نفسه هو الذى يشرب منها محاولا أن يشفى غليله من النورمان وقد استبشر وجه الدين بشرا لا يماثله بشر. ويقول إن فيما تطلعوا إليه من استيلائهم على الساحل التونسى قلائد من الرماح استأصلت أعناقهم وتمزقوا كل ممزق، ووقع منهم فريق فى قبضة الأسر وفريق غرق فى زخرة الموج، وسَلْ عنهم حصن الديماس الكبير يجبك أن عيدا كبيرا نُصب لنحرهم وذَبْحهم فى جزيرته بالسيوف المواضى، وهناك شفى الإسلام غليله وغيظه بطعن وضرب يقطعان أجسادهم تقطيعا، ويحيِّى الجيش الباسل إنه جيش أعارب صدقوا فى حملتهم العنيفة على الروم الخنازير، وإنها لحملة أُسْد افترستهم، أسد أعز الله بها الدين الحنيف. والقصيدة من أروع القصائد فى جهاد أعداء الإسلام وتدمير جيوشهم تدميرا لا يكاد يبقى منهم باقية.

ولم يلبث أن عاد إلى حزنه على وطنه الضائع، وعاد إلى شعوره بغربته، وهو شعور لازمه طول حياته، وطالما ردده فى قصائده وجاءه وهو فى سن الثمانين نعى ابنته، ولم تكن تظن أنه على قيد الحياة فبكاها بقوله:

أرانى غريبا قد بكيت غريبةً	كلانا مشوقٌ للمواطن والأهل
بكتْنى وظنَّتْ أننى متُّ قبلها	فعشتُ وماتت - وهْىَ محزونةٌ - قَبْلى

واجتمع عليه حزنه فى فلذة كبده بحزنه فى وطنه أو فردوسه المفقود، ودار به العام فلبى نداء ربه سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣م فى بجاية، وما تعرف العربية شاعرا عاش يتفجع على وطنه ويحنُّ إليه كما تعرف فى ابن حمديس، إذ كان يشعر شعورا عميقا بأنه كان كل شىء فى دنياه، بل كان فردوسه الذى أخرج منه كما أخرج أبوه آدم قديما من الفردوس، ويشعر كأنما أتى ذنبا كبيرا كذنب أبيه آدم، بل لكأنما غربته المستمرة وتطوافه فى الآفاق إصرار منه على ارتكاب هذا الذنب:

---

(١) القضب البتر: السيوف القاطعة.
(٢) المواضى: السيوف. جزر جمع جزور: الذبيح.
(٣) هبر: قطع، واستئصال.
(٤) هصر جمع هصور: مفترس.

ألم تر أنّا فى نَوًى مستمرَّةٍ　　نروح ونغدو كالمصرّ على الذَّنْبِ

وديوان ابن حمديس ديوان ضخم وقد حققه تحقيقا دقيقا الدكتور إحسان عباس وهو يموج بقصائد المديح كما يموج بقصائد الغزل ووصف الطبيعة والخمر ومجالسها. وكأنما يريد أن يغرق فيها لوعاته على ضياع صقلية وظلت تشتعل فى دخائله إلى آخر أنفاسه. وللصيد أراجيز بديعة فى الديوان وبالمثل للرثاء، وخاصة لمن فقدهم من أسرته وذوى رحمه. وتلمح من حين إلى آخر مقطوعات فى الزهد لعله نظمها بأخرة من حياته. وغرض وحيد من أغراض الشعر العربى لم ينظم فيه بيتا هو الهجاء، إذ كان يترفع عن الشتم والبذاءة، يقول:

إنى امرؤٌ -وطباعُ الحق تعضدنى-　　مطهَّر العِرْض لا أدنو من الدَّنَسِ
فما أحرِّك فى فكِّىَ عن غضبٍ　　لسانَ منتهش الأعْراض منتهسِ

فهو طاهر النفس يسمو عن كل دنس فضلا عن دنس الهجاء، وهو حليم لايغضب غضبا يخرجه عن طوره، فينتهك أعْراض الناس ويمضغ لحومهم موجدةً وغلًّا، وليس ذلك عن ضعف فى شاعريته، بل هو العفو والصفح عن مقدرة، يقول:

إنى امرؤٌ لا ترى لسانى　　منتظمًا ما حييتُ هَجْوا
كم شاتم لى عفوتُ عنه　　مصمِّما فى اللسان نهوا
لو شئتُ صيَّرت بالقوافى　　غارةَ هَجْوى عليه شَعْوَا
وسرِّق القولُ منه عِرْضًا　　لا يجد المدح فيه رَفْوَا

فقد عاهد نفسه أن لا ينظم هجاء طوال حياته، وأن يعفو عمن يشتمه، ولو أراد لتتابعت على خصمه حملات شعواء من هجائه ولمزَّق عرضه وهتكه هتكا لا يمكن أن يرفوه مديح أو يرتق فتوقه صنيع. وفى ذلك دلالة واضحة على نبل خلقه وسمو نفسه.

وكان خياله خصبا إلى أبعد حد مما جعله ينفذ إلى كثير من الصور المبتكرة الفريدة، وهى تلقانا فى جميع أغراض شعره مفاجئة لنا، مما يحدث تأثيرا بعيدا فى نفس قارئه كقوله فى الغزل:

زادتْ على كُحْل الجفون تكحُّلًا　　فَيُسَمُّ نَصْلُ السَّهْم وهو قَتُولُ

والشعراء قبله كانوا يتحدثون عن سهام العيون وأنها قاتلة، وزاد ابن حمديس أن سهام عيون صاحبته أشد قتلا وفتكا بما أضافت إليها من تكحل جعلها سهامًا مسمومة، ما إن تصيب شخصا حتى تفقده حياته، ويقول فى نهر لعله نهر إشبيلية مصورا خرير مياهه:

جريحٌ بأطراف الحَصَا كلما جَرى　　عليها شَكَا أوجاعَهُ بِخَريرهِ

وهو خيال بديع، فأطراف الحصا كأنما تجرح النهر وكلما جرى عليها شكا جاعه بخريره، وكأنما هى أوجاع ابن حمديس لفراقه وطنه إلى الأبد. ومن تلك الصور الفريدة قوله فى البَرَد:

نَـشَـرَ الجـوُّ عـلى الأرضِ بَـرَدْ   أىُّ درٍّ لـنـحـورٍ لـو جَمَـدْ

وكأن السماء لا تمطر بَرَدًا وإنما تمطر دررا تطوِّق عقودها جيد الطبيعة بلآلئها المتساقطة من أصداف السحب. ويطول بنا القول لو أردنا أن نعرض فرائد ابن حمديس ما يفجأ به قارئه من الصور والمعانى المبتكرة. وهو بحق يعد فى الذروة الرفيعة لا من شعراء صقلية وحدها، بل أيضا من شعراء العرب والأندلس قاطبة.

الفصل الخامس
النثر وكتابه

نشاط النثر

من المؤكد أن النثر الفنى من رسائل وغير رسائل نهض فى صقلية كما نهض الشعر، وكما نهضت العلوم الدينية، ومن يرجع إلى الخريدة ومن ترجم لهم من الشعراء هناك يجده يذكر فى عنوانات الشعراء أنهم كتاب. ذكر ذلك مع خمسة عشر شاعرًا، ونوّه فى غير كاتب بإحسانه فى الكتابة كأن يقول فى البشيرى الشاعر الكاتب: «باعُه فى الترسل أمدّ، وخاطره فى النثر أحدّ» ويقول فى على بن الحسن بن الطوبى : «مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين» يشير بذلك إلى أنه من كتاب الدواوين، ويصف نثره بأنه جواهر، ويقول عن ابن القرقورى إن ابن القطاع أثنى على نظمه ونثره كثيرا، كما يقول إن ابن القطاع ذكر عن هاشم بن يونس الكاتب أنه صاحب ترسل ومقامات وعن محمد بن الحسن الطوبى أنه كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء مترسلا شاعرا، ويقول القفطى عنه: عالم بالرسائل، وكلامه فى نهاية الفصاحة، وشعره فى غاية الملاحة، وله مقامات تُزْرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع».

وكل ذلك يدل على أن صقلية حازت لنفسها فى النثر نشاطا واسعا، بل إن من كتابها - كما يقول القفطى - من كانت مقاماته تزرى بمقامات البديع، وسقطت تلك المقامات من يد الزمن كما سقطت معها الرسائل البديعة شخصية ورسمية مما دبّجه الكتّاب هناك قبل العصر النورمانى وأيضا ما كتبوا ودبّجوا من أعمال أدبية متنوعة، ولولا أن ابن بسام ترجم لبعض من غادروا صقلية من الكتاب البارعين قبيل العهد النورمانى مثل ابن الصباغ، وسنخصه بكلمة. وأيضا لولا أن ابن بشرون المهدوى زارها فى عهد روجار الثانى واحتفظ فى ترجمته لبعض شعرائها - وأقصد عيسى بن عبد المنعم وابنه محمد - ببعض رسائلهما ما استطعنا التعرف بوضوح على ما حظى به النثر هناك من نهضة ورقى، وسنراهما واضحين عند كاتبها المتأخر ابن ظفر، وسنفرده بترجمة قصيرة.

أما عيسى بن عبد المنعم فيذكر العماد عن ابن بشرون أنه: «كان كبير الشان، ذا الحجة والبرهان، فقيه الأمة، وأمثل الأئمة، له المعانى الأبكار البعيدةُ مرامى مرامها، والألفاظ التى هى

كالرياض جادها هامى رهامها (غيثها)» ويقول العماد إنه أورد من كلامه ما يأسو سماعُه الكلوم (الجروح)، ويجلو سَنَا إحسانهُ العلوم، ويحكى درر الأصداف ودَرارى (كواكب) النجوم.. ويذكر له العماد فصولا من ثلاث رسائل، أولاها فى براعة صديق له فى خطه الرائع وبلاغته البديعة، ومن قوله فيها:

«نظرت من الكتاب إلى خط موصوف، معتدل الحروف، أملس المتون، مفتّح العيون، لطيف الإشارات، دقيق الحركات، لين المعاطف والأرداف، متناسب الأوائل والأطراف، يروق العيون حسنه وشكله، ويعجز المحاولَ صنعه، متضمنا معانى كأنها رُقْية الزمان، وصُمْتة (ألْهية) الأمان.. وقلت سبحان ربى القيوم: ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ أكل هذا الإحسان، فى طاقة الإنسان. ثم رجعت إلى نفسى، وثاب إلىَّ حِسِّى، فقلت عند سكون جأشى (نفسى) وثبوت طيشى، وإفراخ روعى وذهاب دهَشى، إن من دبَّ فى الفصاحة ودرج فى وكرها، ورضع بلبانها، وجرَع من دَرِّها (لبنها الكثير) وصحب السادات مقتبلا (شابا) والأمجاد مكتهلا لخليق أن يحلّ من الفضل وسائطه ويجمع قطريه، بل يستولى على غواربه (أعاليه) وعلك شطريه».

وانتخاب الألفاظ واضح فى الرسالة مع المقدرة البينة على وصف الخط البديع وما يحسن عيسى بن عبد المنعم من وصف بلاغة صاحبه، مع ما يزين وصفه من سجع أحيانا وهو سجع طبيعى لا تكلف فيه، إذ يأتى به فى تضاعيف الكلام دون محاولة التعمل له، وليس ذلك كل ما يزين به وصفه فهو يزينه بعبارات تصويرية كوصفه المعانى فى رسالة صاحبه بأنها «رقية الزمان وصمتة الأمان» وكوصف صاحبه بصور متلاحقة إذ يقول إنه «دبَّ فى الفصاحة ودرج فى وَكْرها، ورضع بلبانها، وجرع من دَرِّها. ويقتبس العماد فصلا من رسالة ثانية لعيسى بن عبد المنعم أسقط فيها حرف الألف واللام مشيدًا فى مطالعها:

«رقعتى نحوك سيدى وسندى، وذُخْرى وعَضُدى، ومن بَذَّ[1] وبَزّ.. فَذُّدهره، ووحيد عصره، وغريب زمنه، ونسيج وحده، مدَّ ربىٌّ مُدّتك فى مربوب (دائم) نعمته، ومدد نُصْرَته، وكبّت من نكب[2] عن ودك بعظيم ذُخْره (المُدخرلك) ومخوف زجره.. وسوَّغك من ضَرَب[3] نعمه بهنيِّه، ومَريِّه[4]، ومتعك من موفور قَسْمه[5] بحميده، ومزيده».

ولا يحسُّ القارئُ للرسالة بما تكلفه عيسى بن عبد المنعم من إسقاط الكلمات ذات الألف واللام لمقدرته البيانية، وكأن كتاب صقلية لم يتأثروا فى كتابة رسائلهم بأسلوب السجع الذى عمّ فى المشرق منذ أواسط القرن الرابع الهجرى، بل تأثروا أيضا بما شاع فى كتابة الرسائل من

---

(١) بذ: سبق. بز: غلب.

(٢) نكب: انحرف.

(٣) الضرب: عسل النحل.

(٤) مريه: سائغه.

(٥) قسمه: مايقسمه للناس.

ضروب تصنع مختلفة كأن تخلو الرسالة من حرف معين كهذه الرسالة أو يطَّرد حرف معين فى جميع ألفاظها على نحو ما صورنا ذلك مرارا فى عرضنا للكتابة الأدبية بالمشرق وفى الأندلس. وأحكم عيسى بن عبدالمنعم فى هذه الرسالة انتخاب الألفاظ والأسجاع، ولم يكتف بالسجع من حيث هو، بل طلب فيه القصر حتى تكون الرسالة وافرة النغم، وعُنى فى السجع بتصاوير كثيرة. ورسالة عيسى بن عبدالمنعم الثالثة فى العتاب وفيها يقول:

«لولا أن ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب.. لكان لنا وللرئيس مجال واسع ومتسع بالغ فيما أتاه، إن لم نقل جناه، وفيما وعد فأخلف، إن لم نقل الذنب الذى اقترف، ومهما أجللنا قدره عن أن ينسب إليه خلف الوعد وإن كان جليلا، ما عذره إذ لم يكتب بوجه العذر أنه ما وجد سبيلا، وقد كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نقنع بأمانى التلاق».

والعناية بانتخاب الألفاظ والأسجاع واضحة فى الرسالة، مع رهافة الشعور فى مثل قوله: «ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب» وقوله: «كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نقنع بأمانى التلاق».

وقد ترجمنا لابنه محمد بن الشعراء وعرضنا هناك إشادة ابن بشرون به فى الفصاحة والتفطن به فى علوم الأوائل، وألممنا ببعض مراثيه البديعة. وساق له العماد عن ابن بشرون فصولا من ثلاث رسائل، مثل أبيه، وأولاها فى التشوق إلى صديق عزيز، ومن قوله فى صدرها:

«أخى ومولاىَ علَّ الدهرَ يجْمَعُنا   بمنزلٍ عن جميع الشرِّ مُبْتعِدِ

شوقى إلى لقائك شوق الظمآن إلى الماء الزُّلال (العذب الصافى) وارتياحى إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصِّحة والإبلال، وتلهفى على فراقك تلهف الحيران، وتأسفى على بعدك تأسف الولهان، لكننى إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل، يمازج قلبى سرورا، ويخالط شوقى بهجة وحبورا.. فأفزع إلى الدعاء لمقدر الأمور، الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) أن يحسن لنا العُقْبى، ويقضى لنا بالحُسْنَى، ويُسْبل علينا من العافية سترا سابغا ضافيا، ويوردنا من السلامة موردا سائغا صافيا، وأن يقرِّب بك الاجتماع، حيث يوجد الاستمتاع، بما تَقَرّبه الأعين ويلذ الأسماع».

ومحمد لا يقل عن أبيه عيسى بن عبد المنعم فى براعة اختياره للألفاظ وروعة انتخابه للتصاوير، مع حسن الأسجاع وكأنه يريد أن يرضى الأذن بما تجد فى الألفاظ من جمال الجرس، وفى المعانى والتصاوير من الحسن الفائق، وربما تفوق فى ذلك كله على أبيه. وله من رسالة فى عتاب بعض خُلَصائه:

«قد عاملنى فى مشاهد هذه الأيام، التى قَمَعت (قهرت) الخاص والعام، بأشياء لو جرت بينى وبينه على خلوة لعددتها من لذيذ الأنس، لكنها أتت فى الملأ (أشراف الجماعة) بما آلم النفس، واحتملتُ ذلك منه، رجاء أن يقلع عنه، فازداد لَجاجة، وازددت حراجة (ضيقا) حتى استفحل

الثُّقاة (التافهون) عليّ بسبب ذلك المزاح، واستنسر البغاث إليّ وهزّ الجناح.. وأعرضت عن أشياء لو شئت قلتها، ولو قلتها لم أُبْقِ للصلح موضعا، وأنا أحرص على صحبته ومن يرعاها حق رعايتها.. فأحب أن يحسن الظن بي، والذكر عني، فإن فعل ذلك فعل الأشكل (الأشبه) به، والأليق بأدبه، والأولى بجميل مذهبه. وقد أطفأت هذه المعاتبة نارا مُؤْصَدة (مطبقة) وبرَّدتْ من صدرى غُلَّة موقدة».

والرسالة عتاب لشخص لا يعرف متى يمازحه، إذ يمازحه بما قد يقبله منه فى الخلوة، أما أمام الناس فإن المزاح يصبح كأنه هزء به وسخرية منه، ولذلك يؤلمه، ومع ذلك يقول إنه يحتمله رجاء أن يكف عنه ولكنه لا يكف، حتى تعاظم من لا وزن لهم عليه، وحتى «استنسر البغاث» وهو مثل يضرب لمن استشعر العزة بعد الهوان، إذ البغاث من أضأل الطير فشعر كأنه أصبح نسرا. وأضاف محمد بن عيسى إلى ذلك إضافة بديعة، إذ قال إنه استنسر وهز الجناح كناية عن شعوره الشديد بالعزة إزاءه. ومع ذلك كله يصفح محمد بن عيسى عن هذا الصديق الثقيل، إذ التزم له التجلة أمام الناس. والرسالة تتخفف من السجع أحيانا، مما يدل على أن محمد بن عيسى لم يكن يتكلفه دائما، وكأنما كان يجرى على لسانه عفوا. وله من رسالة فى الشكر لشخصية مهمة يثنى على حضرتها قائلا:

«إن غَرْس فضلها السابق إليه أثمر عنده شكرا وحمدا، وأنبت لديه محبة وودا، وإنه من موالاتها لعلى صراط مستقيم، ومن الإقرار بفضلها لعلى منهج قويم، ومن الدعاء لها لعلى حال مقيم، وكيف لا يكون كذلك وقد صيَّره سالفُ إحسانها فى الرِّق، وملَّكه فارطُ امتنانها ملك المستحق، فهو لا يفتر من جميل شكرها لسانا، ولا يُخْلِى من خلوص وُدِّها جَنانا».

والفصل -على شاكلة فصليه السالفين- فى دقة اختياره للألفاظ والأسجاع حتى تنزلق عن الألسنة فى يسر، وحتى يحسن وقعها فى الأسماع، وهو لذلك لايزال يلائم بين اللفظ واللفظ، وبين المعنى والمعنى وبين الصورة والصورة، حتى يلذ الآذان والألسنة والأذهان حين تقرؤه أوتصغى إليه. وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء الكاتبين الصقليين: ابن الصباغ وابن ظفر.

ابن[1] الصبَّاغ الصقلى

هو أبو عبدالله محمد بن الصباغ، من أدباء صقلية وكتابها البارعين، تألق اسمه فيها لأواخر عهد بنى أبى الحسين الكلبيين بالقرن الخامس الهجرى، وحين اضطربت صقلية بعدهم واستقلّ

(١) انظر فى ترجمة ابن الصباغ الذخيرة ٣٠٨/٤ ولعله هو نفسه الذى نقل ترجمته العماد عن الدرة الخطيرة لابن القطاع ص٨٣ باسم أبى عبدالله محمدبن على بن الصباغ الكاتب وقال عنه: كان فى عهد ابن رشيق المتوفى سنة٤٥٦ وقال كانت بينهما مراسلات.

كل قائد فيها بمنطقته غادرها إلى الأندلس، واستوطنها، وفيه يقول ابن بسام: «أحد أدباء وقته المشاهير، وكلامه يعرب عن أدب كثير وحفظ غزير». ويعرض طائفة من فصول رقاعه ورسائله، من ذلك فصل من رقعة وجَّه بها إلى ابن الشامى متولى الأرض التى كانت تتملكها الدولة فى المدن التى افتتحت عنوة، راغبا فى أن يكلّم له أمير صقلية صمصام الدولة آخر الأمراء الكلبيين الذى تولى الجزيرة بعد أخيه الأكحل سنة ٤٢٧ كى يحرِّر له أرضا للدولة كان اشتراها مما عليه من ضريبتها، وربما من دين للدولة كان لا يزال مدينا به. ويمضى صدر الرسالة على هذا النمط:

«إذا الحاجاتُ عَنَّ بها رجالٌ وكان قضاؤها صعبَ المرامِ
وقلَّتْ حيلةُ الشُّفَعاءِ فيها فحاوِلْ نُجْحَها بِبَنِى الشآمى
دراريُّ العُلا حُفَّتْ ببدرٍ منيرٍ فى سماء المجد سامى

ويعلم - أدام الله تمكينه - مذهبى فى التخفيف، وحَمْل مئونة التكليف، إلا فيما تلجىء الضرورة إليه، ويحمل الاضطهاد عليه، وكنت من ترفيه النفس عن الامتهان، والقناعة بما تسمح به نفسُ الزمان، فى حالةٍ يعلم - حرس الله مجده - تقلُّبى فى أثنائها، ومَقيلى (قيلولتى) فى أفيائها (ظلالها) حتى عرض لى من سوء القضاء، ما أجار بالنار من الرَّمْضاء (شدة الحر) فسوَّل لى الحِرْص الذى ما شِمْتُ (رأيت) له بارقا، والطمع الذى ما ركبتُ قط له عاتقا (منكبا) النظر فى إحداث بستان فى خرائب أخْربت مالى، وشغلتنى عن كثير من أشغالى، وصرتُ منفقا ما جمعت فى الغربة والوطن، وكسبتُ فى الإقامة والظَّعن (الارتحال) بين جدار فيها أهدمه، وغار أُردِمه، وأرض أرفع مرة وهادها، وأخفض تارة نِجادها (مرتفعاتها) حتى استوت ساحاتها وتوطَّدتْ (تمهدت) وغابتْ مغاراتُها وتغطَّتْ، وانكشطت أسنمتها وانحطَّتْ.. ولا يُقْدَرُ على سَقْى دوحاته، ولا يتوصَّل إلى إحياء مواته، إلا بدولاب (ساقية) وجابية (حوض) يأخذان الماء أخذة رابية (شديدة).. ومتى أُعْلِم الأمير أن هذه الخرائب التى عانى وليُّه غِراسها لا يُرْتَجى لها عمارة تعود بفائد، ولا ينتفع الديوان منها بدرهم واحد، وساكنوها منذ أعوام ما أدَّى واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولارتاجا (بابا كبيرا) فهم بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأبَّ (الحشائش) قبل الحب».

والرسالة قطعة أدبية بديعة، وهى مكتوبة بأسلوب السجع الذى يمتع اللسان بنطقه والآذان بسماعه، وتكتظ بصور تتعاقب فيها ومشاهد بديعة كمشهد إصلاح ابن الصباغ للأرض وإعدادها للزرع بين جدار يهدمه وغار يردمه ونجاد يخفضها ووهاد يرفعها حتى غابت مغاراتها وانكشطت أسنمتها وانحطت. فهو ليس حائك أسجاع وراسم تصاوير فحسب، بل هو أيضا

مصور يعرف كيف يعرض عليك مشهدا بأكمله كأنك تبصره وتراه. وهو إلى ذلك خفيف الظل يعرف كيف يسرك بالكلم، وكيف يورد عليك ما يضحك سنك على نحو ما صور ساكنى أرضه وبستانه، فمنذ أعوام لم يؤد واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولارتاجا، وإنهم – لفقرهم المدقع – ليأكلون الشجر والأبّ ومراعيه كالأنعام قبل الثمر والحب. ولابد أن ابن الشامى وصمصام الدولة ضحكا ضحكا طويلا حين وصلا فى الرسالة إلى هذا المشهد المضحك . وهذا الجانب الفكه فى ابن الصباغ اتضح بصورة أوسع فى رسائل ساقها له ابن بسام حين استوطن الأندلس وصحب هناك الأديب أبا حفص القعينى، وكانت فيه بدوره دعابة، وحدث أن ماتت له هرة، فجلس للعزاء عنها تماجنا، فما كان من ابن الصباغ إلا أن كتب له رسالة عزاء فيها، ومن قوله فى بعض فصولها:

«الحياةُ لبنى الدنيا مراحل، والمنايا لجميعهم مناهل، والأعمار، كالأسفار، منها القريب الوصول، العاجل الحلول، ومنها البعيد الشُّقّة، الشديد المشقّة، أنفاس معدودة، وآجال محدودة، وليس يناج من محتومها أحد، ولا لمخلوق منها مُلتحد (ملجأ). وانتهى إلىّ – جعل الله الصبر الجميل سبيلك، وأطفأ ببرْد السُّلْوان غليلك – نَبأٌ جَلَل، وخطب معضل، وهو مصابك بشقيقة نَفْسك، وموضع راحتك وأُنسك، وربيبة حِجْرك وحجرتك، وآلة حيطتك على حِنْطتك (قمحك) وكالئة (حافظة) ذخائرك وقُنْيَتك (ما تقتنيه) واستحواذ فجيعتها على لُبِّك، وما عالجتها به من ذَرور (ما يُذَر من العطور على الميت) وحَنوط (ما يخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسادهم) وإشفاقك من إسلامها إلى التراب، وإبقائك إياها طويلا فى المحراب، وأَلِيَّتك (حَلِفُك) عليها لتدعونَّ إلى جنازتها مأتما، يَشْقُقْنَ (أى النساء) عليها جُيوب المدارع (فتحات الثياب) ويُفِضنَ من الوجد بها غُروبَ (دلاء) المدامع، ويُعْولن عليها بالصراخ والنِّياح، ويُذْرين (يرسلن) لمصرعها شعورهن مع الرياح».

وابن الصباغ عزّى أباحفص القعينى فى هرّته، وكأنها كانت شقيقة نفسه وموضع راحته وأنسه، كما يقول، أو كأنها كانت محبوبة عزيزة. وهو يبدأ رسالته بأن هذه حالة الدنيا فهى دائما إلى فناء، أنفاس معدودة وآجال محدودة، ويدعو الله له أن يلهمه الصبر الجميل على فجيعته ويطفئ ببرد السلوان غليله، ويعزّيه فى ربيبة حجره وحجرته، وإضافة حجرته إلى حجره بديعة. وتتراءى لنا فى الرسالة روح الفكاهة والسخرية مجسدة، وخاصة حين يحدثنا أن القعينى أقسم ليعقدنّ لها مأتما كبيرا تُشَقّ فيه جيوب النساء على محبوبته ويفضن الدمع ويرسلنه وجدا على هرته، ويُعْولن عليها بالصراخ والنواح. ولا نصل إلى هذه القطعة من الرسالة حتى نغرق فى الضحك، ويستمر قائلا للقعينى:

«ولستُ بناسٍ ذكر تلك المُلَح التى كتبت لى تصف من أخلاقها وآدابها، والمِدَح التى أوردت

فى أعراقها وأنسابها، والغرائب التى ذكرت عن قوّتها وأيّدها، وحِيَلها وكيدها، ومكرها بالفار وصيدها.. ذات ناب مطلول (عجيب) وساعد مفتول، وخصر مجدول (صلب) ريّانة (ممتلئة) الكاهل، ظمآنة الأسافل، تستضيىء من عينيها بأنور من المصباح، وتعتدُّ من مخالبها بأمضى من السلاح».

وابن الصباغ يستمر فى روحه الفكهة، فيزعم أن القعينى طالما حدَّثه عن أخلاقها وآدابها وأعراقها وأنسابها ومكرها بالفار وصَيدها له فى لمحة، ويشيد بجمال تكوينها وقوة بصرها ومخالبها. وهى روح فكهة بديعة لابن الصباغ، مع القدرة البارعة على انتخاب اللفظة وأختها والسجعة وشقيقتها مع إحكام التصاوير والمشاهد. وحدث أن كانت لصديقه القعينى جارية سوداء كَلِف بها ثم باعها، وندم فحاول استرجاعها، فزعم مشتريها أنها حامل، وتولاه الأسف، ونظم فى ذلك أشعارًا كثيرة، فكتب إليه ابن الصباغ رسالة فكهة يقول فيها:

«نقل إلىَّ بعضُ من يعرف أحوالك، ويشارف فعالك خبرًا يُصِمّ السَّمْع، ويضيِّق الذَّرْع (الطاقة الواسعة) وذلك أنك أخرجتَ عن ملكك ضِفْدعتك المريعة (المفزعة) فتناولها من استحسنتْ غُدْرانه، وبلغك من إقبالها عليه، وانصرافها بكلِّيتها إليه، ما أضرم قلبك شوقا لا تخبو ناره، وسلَّ الوَجْد بها عَضْبًا (سيفا) لا ينبو غِراره (حدُّه) فأنشرتَ (بعثت) للناس من نفسك (تَوْبَةَ) الأخْيلية، وأحييتَ لهم منك مجنون (قَيس) العامرية، وعضضتَ على بيْعها أناملك، وأنضيت (أهزلت) فى طلبها زواملك (إبلك) وأطلت فى وصف شوقك لها وأوجزت، وقصَّدت (نظمت القصائد) فى ذكر الأسف عليها ورجزت (نظمت الأراجيز) وجمعت لها من المحاسن ما افترق، وفتحت من البدائع فيها ما انغلق.. فأصبحتَ والظنون بك مرجَّمة (متكلمة) والألسنة عنك مترجِمة، والأقوال فيك كثيرة، والأيدى إليك مشيرة، فَنَهْنِه (ازْجُرْ) قلبك، وراجع لُبَّك. واذكر خَلْقها وخُلُقَها، وتأمَّلْ وجهها وعنقها، وانظر خَدَّها وقدَّها، وهل شىء مما يُسْتَمْلَحُ عندها؟! فهنيئا أبا حفص راحةَ بصرك من شخصها المقيت، وفراغ قلبك من الكبَد بخلقها المميت.. وكأنى بك قد أنشدت بيت ابن الرومى فيمن لا يشبهها إلا فى سواد الجلد، ولا يشركها إلا فى النسبة إلى الجد إذ يقول:

أكسبهـا الحـبَّ أنها صُبِغَتْ ... صِبْغـةَ حبِّ القلوب والحَـدَقِ

هيهات.. ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة».

وابن الصباغ يتهكم بصديقه القعينى مرارًا وتكرارًا، إذ يصـور عشقه لجاريته وما يضرم فى قلبه من نار لا تخبو، حتى لكأنما بعث من نفسه توبة بن الحُمَيِّر عاشق ليلى الأخيلية وقيْسًا عاشق ليلى العامرية، ويذم الجارية ذمًّا شديدًا ترويحا عن صاحبه حتى يسلوها ويمسك عن ذكرها

وينساها كما نسيته. وهو يسوق ذلك فى لغة عذبة صافية وفى عبارات مسجوعة مصورة منمقة بالغة الروعة، وراجعه القعينى برقعة انتصر فيها لنفسه، فأجابه الصقلى برقعة على شاكلة رقعته السابقة، وإن ما دوّنه ابن بسام من رقعه ورسائله ليصور للنثر الأدبى فى صقلية نهضة وازدهارًا.

ابن[1] ظفر الصقلى

هو حجّة الدين أبوعبدالله محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر المشهور باسم ابن ظفر الصقلى، وُلد بصقلية سنة٤٩٧فى أيام ملكها النورمانى روجار الثانى، رحل من بلده صغيرًا فى طلب العلم، ويقال إنه نشأ فى مكة، ولا نعرف كيف انتقل إليها، وبارحها إلى مصر ثم إلى إفريقية، وأقام بالمهدية مدة فى زمن الحسن بن على بن تميم آخر ملوكها الصنهاجيين، وشهد بها الحروب بين روجّار الثانى ملك صقلية والحسن المذكور، كما شهد أخذها منه واستيلاء النورمان عليها سنة ٥٤٣ ورحل إلى صقلية وفيها تعرف على قائد مسلم من قوادها يسمى محمد بن أبى القاسم القرشى، وبقى عنده فترة أكرمه فيها غاية الكرم، مما دفعه إلى تصنيف أربع مؤلفات أهداها إليه جميعا، ولم يحتفظ الزمن باثنين منها، وهما أساليب الغاية فى إحكام آية ومثنى الاستئناف للمعونة والإشراف، واحتفظ باثنين طُبعا ونشرا هما: أنباء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع، وسنلم بهما عما قليل، وعاد من صقلية إلى مصر، ورحل منها إلى حلب وأقام فيها بمدرسة ابن أبى عصرون، ووقعت فيها فتنة بين الشيعة وأهل السنة نُهبت فيها كتبه، فخرج منها إلى مدينة حَماة فصادف من أهلها وطلابها قبولا فسكن بها، ويقول العماد الأصبهانى: «كان إمام وقته فى التفسير والأدب، رأيته بحماة مقيما، ونفوس طلبة العلم إليه هيما (عَطْشَى) وأجرى له راتب فى ديوان حماة، غير أنه كان دون الكفاف»، فلم يزل يكابد الفقر إلى أن لبّى نداء ربه سنة ٥٦٧ للهجرة. وكان قصير القامة تقتحمه العين، غير أنه كان علامة فى التفسير واللغة والأدب غزير التأليف والتصنيف، وإن كانت أكثر مصنفاته ومؤلفاته سقطت من يد الزمن، ومنها فى التفسير ثلاثة كتب: التفسير الكبير وينبوع الحياة وإكسير كيمياء التفسير، وحاشية على كتاب درة الغواص للحريرى ردٌّ فيها عليه، والمطول شرح مقامات الحريرى، والمختصر شرحها أيضا، والتنقيب على ما فى المقامات من الغريب، وخير البُشَر بخير البشر ذكر فيه الإرهاصات التى كانت بين يدى ظهور الرسول ﷺ، وأرجوزة فى الفرائض، وكتاب الاشتراك اللغوى، وكتاب ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه وكتاب القواعد والبيان فى

---

(1) انظر فى ترجمة ابن ظفر الخريدة قسم الشام ٤٩/٣ وابن خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدباء ٤٨/١٩ وإنباه الرواة ٧٤/٣ والوافى للصفدى ١٤١/١ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى (طبع القاهرة) ٣٤٤/٢ وبغية الوعاة للسيوطى ٥٩ والمكتبة الصقلية لأمارى ٦٠٥، ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٧١.

النحو. وتلم بكتابيه البارعين فى الأدب وهما أنباء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع.

أنباء نجباء الأبناء

كتاب تربوى عرض فيه نجابة الصفوة من أبناء الأمة العربية فى حداثتهم، وأضاف إليهم بعض من عرفوا بنجابتهم فى الصغر من الفرس وزراء للعباسيين أو ملوكا فى القديم، واستهله بأخبار الفريدة اليتيمة المهداة إلى الأمة الإسلامية محمد ﷺ وبعض ما ذُكر عنه قبل بعثته، تيمنا بذكره العطر، ثم وزع الكتاب على أربعة أصناف ممن رُويت الأخبار عن نجابتهم فى صغرهم، والصنف الأول عشرة ممن كرَّمهم الله بصحابة رسوله، وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب والعباس عم الرسول والحسن والحسين حفيداه والنفس الزكية محمد بن على ومعاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن الزبير، والصنف الثانى فى ذكر طائفة من أبناء الصحابة النجباء وغيرهم مثل عبد الملك بن مروان ويزيد بن المهلب والمأمون، والصنف الثالث للنجباء فى الصغر من الزهاد والمتصوفة، والصنف الرابع للنجباء من عرب الجاهلية فى الحداثة مثل لبيد ومن ملوك الفرس مثل بهرام جور. ويقول ابن ظفر فى مقدمة الكتاب: «وبعد فهذا كتاب أودعته من أنباء نجباء الأبناء ما هو كشررة من ضرام (نار مضطرمة) بل كقطرة من رِهام (غيث منهمر) لأنى قصدت به تلقيح همة غلام، وتنقيح فطنة كَهام (بليد). فغرضه من الكتاب تعليمى، ليبعث الهمة فى الناشئة بما يعرض عليهم من همم نظرائهم، وليشحذ أذهانهم بما يعرض عليهم من فِطَن قرنائهم. وأيضا ليتخذوا من خلقهم وحسن سلوكهم أمثلة رفيعة يقتدون بها فى حياتهم. ونضرب لذلك مثلا بما ساقه فى الصنف الثانى مما يدل على نجابة الفضل وجعفر ابنى يحيى البرمكى ووزيرى هرون الرشيد فيما بعد. وعادة إذا كان الحديث عن شخص يجعل له عنوانا: دُرَّة زين لقُرَّة عين. وإذا كان عن شخصين مثل الفضل وأخيه جعفر يجعل العنوان: درتازين لقرتى عين أى لمسرتى الأب والأم. ويذكر أن ابن صاحبة لأمهما سألها عن ابنيها أيهما يفضل صاحبه قائلا إن الناس يختلفون فيهما منهم من يقدم الفضل ومنهم من يقدم جعفرا، فقالت له: أحدثك عنهما واقض أنت.

«إنهما كانا يوما يلعبان فى دارى، فدخل أبوهما يحيى، فدعا بالغداء وأحضرهما، فطعما معه ثم آنسهما بحديثه، فقال لهما أتلعبان بالشطرنج، فقال جعفر وكان أجرأهما: نعم، قال فهل لا عبت أخاك بها قال جعفر: لا، قال: فالعبا بها بين يدىّ لأرى لمن الغلب، فقال جعفر: نعم — وكان الفضل أبصر منه بها — فجىء بالشطرنج، فصُفَّت بينهما، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل، فقال له أبوه: مالك لا تلاعب أخاك، فقال: لا أحب ذلك، فقال جعفر

إنه يرى أنه أعلم بها فيأنف من ملاعبتي، وأنا ألاعبه مخاطرة (قمارا) فقال الفضل: لا أفعل. فقال أبوه: لاعبه وأنا معك. فقال جعفر: رضيت، وأبَى الفضل، واستعفى أباه فأعفاه. ثم قالت الأم للسائل: قد حدثتك عنها فاقض. فقال: قد قضيت لجعفر بالفضل على أخيه. فقالت له: لو علمت أنك لا تحسن القضاء ما حكّمتك أفلا ترى أن جعفرا قد سقط أربع سقطات تنزّه الفضل عنهن. فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج وكان أبوه صاحب جِدّ، وسقط على التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغَلَبه والتعرض لغضبه، وسقط فى طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه. والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معك. فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم، فناصب (عادى) صفًّا فيه أبوه وأخوه. فقال السائل [حين سمع منها ذلك] أحسنتِ والله. ثم قال لها: عزمت عليك أخبريني هل خفى مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه. فقالت له: لولا العَزْمة ما أخبرتك. إن أباهما لما خرج قلت للفضل خالية به: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك؟ فقال أمران: أحدهما لو أنى لاعبته لغلبته فأخجلته، والثانى قول أبى: لاعبه وأنا معك، فما يسرنى أن يكون أبى معى على أخى. ثم خلوت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف، وأبوك صاحب جد. فقال: إنى سمعت أبى يقول: نعم لهو البال المكدود، وقد علم ما نلقاه من كد التعلم والتأدب، ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعب بها، ولا أن يبادر فنتنكر، فبادرت بالإقرار إشفاقا على نفسى وعليه، وقلت إن كان توبيخ فديته من المواجهة به. فقلت له: يا بنىّ فلِمَ تقول: ألاعبه مخاطرة، كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله؟ فقال: كلا، ولكنه يستحسن الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين (الرشيد) فعرضتها عليه، فأبى قبولها، وطمعت أن يلاعبنى فأخاطره عليها وهو يغلبنى، فتطيب نفسه. فقال لها السائل: ما كانت هذه الدواة؟ فقالت إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظر إليها، فوهبها له. ثم قالت: قلت لجعفر: هبك اعتذرت بما سمعت، فما عذرك من الرضا بمغاضبة أبيك حين قال: لاعبه وأنا معك، فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا، فقال: عرفت أنه غالبى ولو فتر لعبه لتغالبت له مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه. فقال لها السائل مادحا للأخوين ومعجبا: بَخٍ بَخٍ هذه والله السيادة، ثم قال لها: أكان منهما من بلغ الرشد. فقالت له: يا بُنَىّ أين يُذْهَبُ بك؟! أُخبرك عن صبيَّيْن يلعبان، فتقول أكان منهما من بلغ الرشد. لقد كنا ننهى الصبىّ - إذا بلغ العشر وحضر من يُسْتَحْيَى منه - أن يبتسم».

وهذه الدرة - كما يسميها ابن ظفر - أو هذا الخبر عن الفضل بن يحيى البرمكى وأخيه جعفر بلسان أمهما يصور مدى براعة ابن ظفر الأدبية فى السرد الأسلوبى لأخبار نجباء الأبناء بحيث لا تجد عنده أى غرابة ى لفظة ولا أى التواء فى عبارة، بل تجد أسلوبا مطردًا متسقا

يروع بحسن اتساقه. فإذا أنت تركت ذلك إلى ما يشتمل عليه هذا الخبر من تربية وجدته يصور إلى أبعد حد الفطنة التى ينبغى أن يتحلى بها الناشئة إزاء إخوتهم ورفقائهم بحيث لا يبدر منهم لهم ما قد يؤذيهم. والخبر بحق يجسِّد آداب الأخوّة كما يجسِّد التربية الرشيدة للأم وما أروع قول الأم: لقد كنا نهى الصبى - إذا بلغ العشر وحضر من يُستحيَى منه - أن لا يبتسم». وهى صحيفة تربوية بديعية فى آداب الأخوة خاصة وآداب السلوك عامة.

سلوان المطاع فى عدوان الأتباع

كتاب نفيس فى التربية السياسية ترجمة المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية. وقد استهله ابن ظفر بشكر القائد الصقلى محمد بن أبى القاسم القرشى الذى صنعه له سنة ٥٤٥ ويقول فى خطبته أو مقدمته إنه عمد فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها، ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها، فتوسع فى التعبير بألفاظه عنها والتفنن بقوى فطنته فيها، وكسا جسومها حلل الآداب الملوكية، وقلَّد عواتقها بسيوف المكايد الحربية. فالكتاب إذن ليس رواية عن كتب غيره السابقة، بل هو من تأليفه وصنعه نثرا وشعرا وحكما وأمثالا وقصصا. وهو فيه يكثر من ضرب الأمثال تارة على ألسنة بعض الحيوانات مثل كليلة ودمنة، وتارة على ألسنة شيوخ حكماء ووزراء دهاة من الفرس والعرب. وقد يتوسع بذكر قصص عن ملوك اليونان وبالمثل عن ملوك الفرس. وقد يستطرد من قصة إلى قصة أو من مثل إلى مثل على طريقة كتاب كليلة ودمنة. وإذا كان كتاب أنباء نجباء الأبناء فى السلوك الاجتماعى والخلقى وآدابها فإن هذا الكتاب فى آداب السياسة وما ينبغى أن يكون عليه الحاكم من الرفق بالرعية والعدل والإنصاف وما ينبغى أن يتخلَّى عنه من البغى والطغيان والعسف والظلم. والكتاب موزع على خمس سلوانات: السلوانة الأولى فى التفويض، والثانية فى التأسى، والثالثة فى الصبر، والرابعة فى الرضا، والخامسة فى الزهد. وعادة يبدأ السلوانة بآى من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية، ويعلق عليها تعليقات طريفة، ثم يفضى إلى غرضه فى الكتاب من ضرب الأمثلة والقصص الحيوانية والإنسانية تبصرة وعظة للحكام، حتى يتبعوا الصراط السوىّ فى تدبير حكمهم وشئونه مع سياسة الرعية سياسة حكيمة محكمة.

وابن ظفر يذكر فى مستهل سلوانة التفويض لأحكام الله قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون التى وردت فى الذكر الحكيم وكيف أن الله تقدس اسمه وقاه سيآت ما مكروا، ويذكر بعض أسجاع وأبيات حكمية. فمن النثر قوله:

معارضة العليل طبيبه، توجب تعذيبه... إنما الكيِّس (العاقل) الماهر، من استسلم فى قبضة القاهر - إذا التبست الموارد بالمصادر، ففوِّض إلى الواحد القادر.

ومن الشعر قوله:

يـا ربَّ مغتبطٍ ومغـ ـبوط برأى فيه هُلْكه
علمُ العواقب دونه سترٌ وليس يرام هتكه
ومعارضُ الأقدار بالـ آراء سَيِّئُ الحال ضَنْكه

ويذكر مأزقين لخليفتين: أموى وعباسى، هما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والمأمون وكيف أن لقاءهما بشخصين محنكين بصَّراهما بما ينبغى أن يتخذا من سياسة إزاء باغين عليهما، أما شيخ الوليد فقد عرض عليه مأزقا مماثلا لجده عبدالملك بن مروان وكيف أن شيخا كبير السن لقيه وهداه إلى ما ينبغى اتخاذه من السياسة والتدبير حتى ينتصر على عدوه الباغى، وضرب له مثلا أو قصة عن ثعلبين وحية وكيف أن الباغى تدور عليه الدوائر، وأما شيخ المأمون فضرب له مثلا من بَغْى فيروز الملك الفارسى على ملك الهياطلة الذى كان قد أسره فى بعض الحروب ورد إليه حريته بعد أن عاهده على أن لا يغزو بلده ولا يقصدها بسوء، ودارت الأيام بعد رجوعه إلى دار ملكه فصمم على غزو ملك الهياطلة وبلاده، وفى طريقه بغى أحد فرسانه على مسكين فقتله، وتصدَّى له أخوه يريد مصارعته، وخوَّفه الناس منه، فقال لهم: دعونى وإياه فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لابس درع الشك وأنا لابس درع الثقة، وهو مقاتل بسيف البغى وأنا مقاتل بسيف الحق، وانتصر الحق على البغى وقتل أخو المسكين الفارس أو الإسوار المظيم من أساورة فيروز. ويقول الشيخ للمأمون إن فيروز لم يتعظ من هذا الحادث ومضى حتى وطىء كثيرًا من أرض ملك الهياطلة، والتقيا ودارت الدوائر على فيروز وجنده ثمرة بغيه وعدوانه. ولقيت مقالة الشيخ قبولا لدى المأمون على إرسال الجيوش للباغى عليه، وكان أخاه الأمين الذى نكث عهد أبيه أن يكون المأمون ولى عهده والخليفة بعده، فنكث العهد ونشبت بينهما الحرب ضارية وانتصر جيش المأمون وقتل الأمين الذى لم يرع لأبيه عهده ولا خاف تبعة نكثه.

وخلال هذه الأمثال أو القصص التى ضربها الشيخان للمأمون والوليد تتعاقب حكم كثيرة طريفة لتوعية الحكام بآداب الحكم وما ينبغى أن يأخذوا به أنفسهم من السياسة الحكيمة للرعية ومع الأعداء. من ذلك قول ابن ظفر: «الرأى سيف العقل - كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام - من دلائل الوفاء بر الآباء والأمهات وصلة ذوى القرابات - الباغى باحث عن مدية حتفه بظِلْفه ومتردٍّ فى مهاوى تدميره بمساوئ تدبيره - الهوى طاغية فمن ملكه أهلكه - الهوى كالنار إذا تحكم اتقادها عسر إخمادها، وكالسيل إذا اتصل مده تعسَّر صده».

ودائمًا تلقانا مثل هذه الحكم فى الكتاب، وننتقل معه إلى سلوانة التأسى، وقد أدارها على قصة طويلة لسابور الملك ووزيره وحيله واستطرد فى أثنائها لقصتى فتى وفتاة وفرس وخنزير وينثر فى تضاعيفها كثيرًا من الحكم السياسية والاجتماعية مثل قوله: مَنْ غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، ومَنْ غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الحلم اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة، ومن غرس المداراة اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقْت، ومن غرس الحرص اجتنى الذل، ومن غرس الطمع اجتنى الخزى، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد. ويقول: تتميز الملوك على السوقة بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذات الملك تتميز بخمس خصال: رحمة تشمل الرعية، وتغطية تحوطهم، وصولة تذبُّ عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحزم ينتهز به الفرص. ويقول فى سلوانة الصبر التالية:

صبر الملوك ثلاثة قوى: قوة الحلم وثمرتها العفو، وقوة الكلاءة (الرعاية) والحفظ وثمرتها عمارة المملكة، وقوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات وفى حُماة المملكة الإقدام فى المعارك، ولا يراد من الملك الإقدام فى المكافحة، فإن ذلك من الملك تهوروطيش وتغرير، وإنما شجاعته ثباته حتى يكون قُطْبًا للمحاربين ومعقلا للمنهزمين، وهذا ما دام بحضرته من يثق بذبِّه عنه، ودفاعه دونه، وحمايته له. ومما قاله فى هذه السلوانة: صلاح الملك: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منها بغير عنف، والتودد بالعدل، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم.

وتلى ذلك سلوانة الرضا، ومن حِكمه فيها الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولا يخفى عن البصائر الباصرة - أمران يسلبان الحر كمال الحرية: قبول البِرّ، وإفشاء السر - كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار - مَنْ لزم الرقاد عدم المراد - كن من عينك على حذر، فرب جنوح حَيْن (هلاك) جناه جموح عين - السآمة من أخلاق العامة - ما أحرى الملولَ بأن يحرم المأمول. ومن قوله فى سلوانة الزهدالأخيرة:

يـا متعبًا كـدُّه الحِرْ	صُ فى الفضول وكاده
لو حزتَ ما حاز كسرى	ومـا حـوى وأفـاده
مـا كنت إلا معنىًّ	ومغـرمـا بـالـزِّيـاده
لم يَصْفُ فى الأرض عَيْشٌ	إلا لأهـل الـزهـاده

ودائما يضع مثل هذه الأبيات فى صدر كل سلوانة، مما يصور شاعرية خصبة لديه بجانب ما يسوق من حكم مسجوعة فى عبارات محكمة، وأيضا ما يسوق من أمثال وقصص فى أساليب متناسقة، تصور حسا دقيقا وذوقا مصفى وقدرة على الحوار الأدبى البارع.

ملحق

ابن قلاقس الإسكندرى[1] فى صِقلّية

لعهد غليوم الثانى

مرَّت بنا ترجمة ابن قلاقس الإسكندرى فى الحديث عن تاريخ الأدب العربى بمصر، وهناك ألممنا برحلته إلى صقلية فى إيجاز، وحرىٌ بنا الآن أن نفصِّل الحديث فيها بعض الشىء تتمة للكلام عن صقلية، وقد رحل إليها فى سنة ٥٦٣ للهجرة، وهو فى نحو الثلاثين من عمره وظل بها نحو سنتين. وحار الدارسون له فى تبين أسباب تلك الرحلة ودوافعها. غير أن من يتعقب أشعاره وأخباره يعرف أنه كان على صلة وثيقة بالرشيد بن الزبير أحد أعلام الثقافة والأدب والشعر فى عصره، حين ولى النظر بثغر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية سنة ٥٥٩ للهجرة وكان قد وضع يده فى يد صلاح الدين الأيوبى حين ولاه عمه أسد الدين شيركوه الإسكندرية فى أثناء حربه مع شاوَر وزير الفاطميين وأعوانه من الصليبيين سنة ٥٦٢ وتطورت الظروف حينئذ وعاد صلاح الدين مع عمه شيركوه إلى الشام وتركا مصر. ولم يكن هم شاوَر بعد خروجهما من مصر فى تلك المرة إلا طلب من انضموا إلى صلاح الدين من رجال الدولة فى الإسكندرية وفى مقدمتهم الرشيد بن الزبير، وسارع الرشيد فاختبأ فى إحدى الدور بالمدينة فترة، وقُبض عليه وقُتل فى شهر المحرم سنة ٥٦٣ ونرى ابن قلاقس يرسل إليه فى مخبئه قصائد يستهل إحداها بقوله:

تدانيتَ دارًا والوُصُــولُ شُسُوعُ فخِلُّك ذو الودِّ الوَصول قَطوعُ

وهو يقول له إن دار مُخْبئك قريبة، غير أن الوصول بعيد، وكأنه يخشى أن يزور الرشيد فيتبعه رجال شاوور إلى مخبئه، ويقول له: خلُّك الودود الوَصول يُرَى كأنه لم يثبت على ودك وإخائك، ولعله يريد نفسه. وفى رأينا أن هذه الصلة بين ابن قلاقس والرشيد الذى كان فى مقدمة الثائرين على شاور وانحاز إلى صلاح الدين وما حدث من طلب شاوَر له، ومقتله هذه الصلة هى التى جعلت ابن قلاقس – فى رأينا – يفكر فى الرحيل عن الإسكندرية خشية أن يلقى نفس المصير على يد رجال شاور، إما لصداقته للرشيد وإما لأنه كان ممن التفُّوا حول

(١) انظر فى رحلة ابن قلاقس إلى صقلية كتاب خريدة القصر: قسم شعراء مصر (طبع القاهرة) ١٤٦/١ وما بعدها وكتاب الزهر الباسم والعَرْف الناسم فى مديح الأجلّ أبى القاسم لابن قلاقس تحقيق الدكتور عبدالعزيز المانع (نشر جامعة الملك سعود) والنصوص الصقلية من شعر ابن قلاقس الإسكندرى وآثاره النثرية للدكتور محمد زكريا عنانى (طبع دار المعارف) وترسل ابن قلاقس الإسكندرى تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع (طبع الرياض) وكتاب العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧ وما بعدها.

صلاح الدين فى مقامه بالإسكندرية حينئذاك. وأخذ يفكر إلى أَيْنَ يرحل ورأى أن يرحل بعيدا عن مصر وديارها، وصمَّم على الرحيل إلى صقلية، وكان قد سمع ممن يلمون بمجالس شيخه السلفى أحيانا من أهل صقلية فى ذهابهم إلى الحج أو فى عودتهم منه - بزعيم المسلمين بجزيرتهم أبى القاسم ابن الحجَر بن حمود بن محمد القرشى وكرمه الفياض وفى كتابه الرائع: الزهر الباسم والعرف الباسم فى مديح الأجل أبى القاسم الذى وصف فيه رحلته إلى صقلية وسجل مدائحه فى أبى القاسم بن الحجر نراه يذكر أنه كان قد أرسل إليه مدحة سنة ٥٦١ فكان طبيعيا أن يفكر فى النزول بجزيرته فرارا من شاور ورجاله. ونزل فى غُرَّة شعبان من سنة ٥٦٣ فى مدينة مَسِّينى فى الشمال الشرقى من صقلية، وأعجب بموقعها من البحر المتوسط وبشاهدها الطبيعية ومبانيها الرائقة، مما جعله ينشد فى وصفها قوله:

بلدٌ أعـارتْـه الحمـامـةُ طَـوْقَهـا ... وكَـسَـاهُ حُلَّةَ رِيشِـهِ الطـاووسُ

فكـأنَّمـا الأزهـارُ منـه سُـلافـةٌ ... وكـأنَّ سـاحـاتِ الـديـارِ كئـوسُ

ومكث بها فترة قليلة، واتجه غربا إلى العاصمة «بلرم» على الساحل الشمالى للجزيرة، وأحسن استقباله أبوالقاسم ابن الحجر بن حمود القرشى وظل حفيا به طوال مقامه بالجزيرة، وكان زعيم المسلمين فى الجزيرة، كما أسلفنا، ومن كبار رجالات الدولة لعهد الملك غليولم (غليوم) الثانى وأخذ ابن قلاقس يتعرف عن طريقه إلى بعض رجال الدولة النورمانية، وكأنما كان من واجب مَنْ ينزل صقلية من الشعراء المسلمين أن يمتدح مليكها النورمانى وبعض رجال دولته، ومر بنا أن عبد الرحمن بن رمضان المالطى استنفد أكثر شعره فى مديح روجَّار وأن ابن بشرون المهدوى التونسى مَدَحَ روجار الثانى. وقد مدح ابن قلاقس غليولم (غليوم) الثانى بقصيدة ميمية روتها إحدى مخطوطات الديوان، وله يقول:

كـذا فـليكـنْ عـزمُ الملوكِ وقـلما ... ترى ملكا يـأتى بمـالَـكَ من عَـزْمِ

وفى القصيدة مبالغات مفرطة فى مديح غليوم، وكان حريا بابن قلاقس أن يأنف من أن يسبغها على ملك مسيحى نهب هو وآباؤه الجزيرة من أهلها المسلمين، ولكن ربما دفعته إلى ذلك ضرورة لبقائه فى الجزيرة دون تعرض له أولإذن برحيله، ولعل نفس الضرورة هى التى دفعته لمديح جُرْدَنًّا أحد رجال الدولة النورمانية ويصفه بأنه وزير، وربما كان قائما على شئون الأمن، وفيه يقول:

وجـرَّدْنـا المـدائـحَ فـاستقـرَّتْ ... على أوصاف جُـرْدَنَّـا[1] الـوزيـرِ

فنـظَّمْنـا المفـاخـرَ كـالـلآلى ... وحلَّيْنَـا المعـالـىَ كـالنُّحـورِ

---

(١) فى الزهر الباسم: يَزْجُرْدَ.

وأعجبُ ما جرى أنا أمِنَّا ... ونحن بجانب اللَّيْثِ الهصور[1]
رأى منه المليكُ حِلًى أمين ... بَرىء النُّصح من سَقم الضمير
فصدَّره على الديوان سَطْرًا ... هو البَسْمُ الذى فوق السطور
ومدَّ على الرعيَّة ظلَّ عدل ... وقاهم لَفْحَ ألسنةِ الهَجير

والقصيدة تطفح بالمبالغات المسرفة مثل قصيدة غليوم (غليوم) الثانى. وشخصية ثالثة من شخصيات الدولة النورمانية هى شخصية غارات بن جوش، ولم ينظم فيه قصيدة إنما كتب إليه رسالة شكر، يقول فيها إنه فارق حضرته: «ممتلىء اليد نعمة، والفم نغمة، والخاطر آمالا، والناظر أموالا، اصطناعا منها (أى الحضرة) وتفضلا أبى الله أن يصدر إلا عنها».

وإذا رجعنا إلى راعيه أبى القاسم بن الحجر الذى قصد الجزيرة من أجله وجدناه يلقَّب بالقائد، وكان من الأثرياء ذوى الإقطاعات الواسعة، ويذكر ابن جبير فى رحلته أنه رأى له ولأهل بيته قصورا أنيقة فى بلرم، وقد أضفى على ابن قلاقس من الإكرام والأموال ما جعله يلهج بالثناء عليه فى قصائد كثيرة بل ما جعله يؤلف فيه كتابه الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم» ويشيد فى مطلع الكتاب به إشادة رائعة، ثم يصف ركوبه البحر المتوسط نثرا مسجوعا بديعا وشعرا رائعا من مثل قوله:

الناس كُثْرٌ ولكن لا يقدَّر لى ... إلا مرافقةُ الملَّاحِ والحادى
أقلعتُ والبحر قد لانتْ شكائمُه ... جِدًّا وأقلعَ عن موجٍ وإزْبادِ
فعاد - لاعاد - ذاريحٍ مدمِّرةٍ ... كأنها أختُ تلك الرِّيحِ فى عادِ
ونحن فى منزلٍ يَسْرى بساكنِه ... فاسْمَعْ حديثَ مقيمٍ بيْتُه غادى
لا يستقرُّ لنا جَنْبٌ بمضجعِه ... كأن حالاتنا حالاتُ عُبَّادِ

وهو يقول إن كثيرين من الناس مقيمون لا يبرحون ديارهم وأوطانهم، أما هو فقُدِّر له أن يرافق الملاحين فى لجج البحار وحُداة الإبل فى فيافى الصحارى، ثم يقول إن السفينة أقلعت رافعة شراعها وقد سكن البحر وكفَّ عن موجه وإزباده، وسارت السفينة فى عرض البحر المتوسط، وما هى إلا ساعات حتى هبَّت ريح عاصفة أشد العصف، كأنها أخت ريح عاد الموصوفة فى الذكر الحكيم بأنها صَرْصر شديدة البرد عاتية ويتصور السفينة منزلا غير أنه منزل لا يستقر، وكأنه ساكن مقيم وبيته منطلق به، وهو ومن حوله لا يستقر لهم جنب فى مضاجعهم بهذا المنزل لكثرة تمايله، وكأنما هم عُبَّاد فهم بين راكع وساجد منكفىء على جبينه، ومازالت تلك

(١) الهصور: المفترس.

حال السفينة وسكانها والبحر المتوسط وجنونه حتى اقتربتْ السفينة من الجزيرة وثغر مِسِّينى فى أقصى الشمال الشرقى، وحينئذ كست البحرَ الرُّخاءُ (الريح اللَّيِّنة) ثوب وقارها، وأمسكت الزَّعْزَعُ (الريح العاصفة) عنه كأسَ عُقارها (خمرها) وصحا بعد جنونه وسكره» كما يقول ابن قلاقس.

ومضى العماد فى الخريدة يقتبس من كتاب الزهر الباسم بعض المدائح التى نظمها ابن قلاقس فى أبى القاسم بن الحجر، ويتضح منها ومما تحدث به عن أبى القاسم فى الكتاب أنه لم يكن قائدا أو مساعدا من مساعدى الدولة فحسب، بل كان أيضا على رأس دواوين الدولة، ومعروف أن تلك الدولة كانت تتخذ العربية لغة رسمية لها أو على الأقل كانت مكانتها فى الدواوين لا تقل عن مكانة اللغة النورمانية، ونرى ابن قلاقس يشيد ببراعة أبى القاسم الكتابية حتى ليقول: «إن ألبس قلمه المداد عَرِى من الفصاحة قُسُّ إياد، وإن أنطق طِرْسَه الرسائل، أخْرسَ عن الخطابة سحبان وائل، يلزم لديه ابن العميد، سَمْتَ العبيد، ويغدو عليه عبد الحميد غير حميد، ويقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ونهاية الصابئ أنه بألفاظه صابئ». وهو بذلك يرفع بلاغته الكتابية فوق بلاغة قس الإيادى خطيب الجاهلية وسحبان وائل خطيب العصر الأموى وعبد الحميد الكاتب المشهور فى الدولة الأموية وابن العميد والصاحب بن عباد الكاتبين الفذين للدولة البويهية والصابئ الكاتب البغدادى المعروف فى القرن الرابع، وكان من الصابئة ويستغل اسمه فى أنه إزاء بلاغة أبى القاسم يصبأ أو يكفر ببلاغته. ومن قوله فيه بأولى مدائحه، وفيها يصف البحر وركوبه وصفا بديعا:

أنت فى الفضل فى بنى الحجَر السَّا	دةِ مثلُ الياقوت فى الأحجار
وبيُمْناك طَيْرُ يُمْنٍ وسَعْدٍ	أصْفَرُ الظَّهْرِ أسودُ المنقارِ
قلمٌ دبَّر الأقاليم فالكُتْـ	ـبُ به من كتائب الأقدارِ
يا طرازَ الديوان والمُلْك أصبحـ	ـتَ طرازَ الديوانِ فى الأشعارِ

والبيت الأول بديع، فبنو الحجر السادة أحجار كريمة، وهو بينهم ياقوت متوهج، وبيمناه قلم كأنه طير يمن وسعد، جلده – أو كما يقول ظهره – أصفر ومنقاره أسود، وهى إشارة بديعة إلى أنه يُغْمَسُ فى مداد أسود، ويقول: إن هذا القلم يدبرُّ أقاليم الجزيرة بما يكتب من رسائل ديوانية مختلفة، سياسية وغير سياسية يصرِّف بها أمور سكان الجزيرة المسلمين، ويمنه بأنه زخرفُ الديوانِ والملك النورمانى، وانضاف إليه أنه أصبح زخرفَ ديوانه وأشعاره. ويقول فى قصيدة أخرى:

قد أقسم الحمدُ لا يُشيرُ إلى	غير أبى القاسم بن حمُّودِ

فـي يـده لـلنـوال مـعـركـةٌ أَرْدَى بهـا البُخْلَ صـارمُ الجودِ[١]
وتلتقى كُتُبُهُ الكتـائب فـى جيش من الخطِّ صائدِ الصِّيدِ[٢]
بكـل لـفظٍ كـأنـه نَـفَسٌ غيرِ ممـلٍّ بـطـول ترديـد
صَحَّتْ معانيه فـانْقَسَمن إلى فضـل ابتكارٍ وحُسْنِ توليد
وربما استضحك الخميسُ بـه عن أَهْرَتِ الماضغين صِنْديدِ[٣]

فالحمد لا يعرف طريقا إلى أحد يستحقه سوى ابن حمود أو ابن الحجر الذى أقام للجود معركة تلمع فيها السيوف القاطعة للرقاب: رقاب البخل والشحّ البغيض. وإن رسائله لتخضع لها كتائب الجيوش المسلحة، وبعبارة أخرى تخضع لجيش من الخط والكتابة البليغة التى تستنزل العصاة العتاة. بكل لفظ يلذ اللسان والآذان بحسن جرسه وروعة معانيه المولدة والمبتكرة. وليس ذلك كل ما يميز ابن حمود فإنه يتميز أيضا بالبأس والشجاعة حتى لكأنه أسد يمزق فرائسه بأضاغيه أو أنيابه، أسد صنديد، شديد غاية الشدة. ولابن قلاقس مدائح وأشعار كثيرة بديعة فى ابن الحجر، من ذلك قوله:

إن ابنَ حمـودٍ لـه راحـةٌ تستجلب الحمدَ من المِرْزَمِ[٤]
فى كلّ يومٍ لوفود النَّدى ببـابـه مُجْتَمَـعُ المَـوْسِمِ
للمـال من راحتـه عنـدهم أضعـافُ ما للماء من زَمْزَمِ
ولـو أعـار الـليـلَ آراءه ما احتاج ساريه إلى الأنجم
فضـائـلٌ كـادتْ لإفـراطهـا تُنْطِقُ بالشكر فَمَ الأَبْكَم

وهو يقول إن راحة ابن حمود ما تزال تهطل بالجود، حتى لكأنما تريد أن تجلب لنفسها الحمد من نوء المطر وغيثه المدرار، ويبالغ فى مديحه فيقول كل يوم تجتمع الوفود ببابه وتأخذ من ماله أضعاف ما يأخذ الناس من ماء زمزم، ولو أنه أقرض الليل آراءه ما احتاج ساريه إلى نجوم تهديه فى جنح الظلام. فضائل ليس لها مثيل تكاد تنطق فم الأبكم بالشكر والامتنان. ونراه يقوم برحلة بحرية إلى سرقوسة فى شرقى صقلية، ويبدأ فيها بمدينة ثرمة فى الشمال شرقى بلرم، وغادرها سريعا لحرارتها الشديدة حتى لكأنه شرب فيها ماء المُهْل أو شراب الكفار فى جهنم أوكأنما طَعِمَ شجرة الزقوم طعام الكفار فى النار الحامية، واتجه شرقا إلى جَفْلود، وشاهد رياضها

(١) صارم: سيف.
(٢) الصيد جمع أصيد: السيد.
(٣) الخميس: الجيش. أهرت الماضغين: واسع الشدقين. صنديد: شجاع.
(٤) المرزم: نوء كثير المطر.

وما يحفّ بالعيون فيها من حورعين، غير أنه أسرع فى مغادرتها إسراع من يُطْلب بالدَّين أو كمن يُطْلب فى صقلية بالدِّين مشيرا بذلك إلى اضطهاد المسلمين فيها، ويقول إنه نزل ثغر مسِّينى وظل فيها تسعين يوما عند جلف ثقيل الظل لا يخفّ أبدا حتى لو طار بجناحى جبريل، وركب السفينة أو المجنونة كما يسميها على ماء مجنون حتى ليظن أنه سيكون طعاما للحيتان، وينزل سرقوسة أخيرا ويجد فيها الملجأ الأمين. والقصيدة وصف بديع لرحلة بحرية فى صقلية، وقد أتبعها بوصفه لرحلة برية من سرقوسة إلى بلرم حيث راعيه الأمين أبو القاسم بن الحجر، ولا يتضح سبب رحلته إلى سرقوسة وعودته، وفى رأيى أنه كان يبحث فى الثغور التى مرَّ بها عمن يحدثه عن مصر وأحوالها وهل لا يزال شاور وأعوانه متسلطين فيها على الحكم، وكان أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قد عادا إلى مصر سنة ٥٦٤ فى قدمتها الثالثة، وسرعان ما قُبض على شاور وقُتل وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين وتوفى، وتولاها صلاح الدين. وأكبر الظن أن كل ذلك علم به ابن قلاقس، فاطمأن وصمَّم على العودة إلى وطنه بعد وداع راعيه أبى القاسم وأصدقائه فى بلرم من مثل هبة الله السديد الحصْرى وله فيه مدائح بديعة ومثل الفقيه أبى الحسن على بن أبى الفتح بن خلف الأموى، ويقول عنه فى كتابه الزهر الباسم: «هو حَدَقة العلم الناظرة، وحديقة الأدب الناضرة» ويسوق ابن قلاقس فى الكتاب ما كان بينهما من مكاتبات شعرية قبيل رحيله، وله يقول مودعا:

تَخِذْتُك من صَقَلِّيَـــةٍ خليلا	فكنتَ الوَرْدَ يُقْطَفُ من قَتادِ
وشِمْتُــك بين أهليهـا صَفِيًّـا	فكنتَ الجَمْرَ يُقْبَسُ من زِنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو صقلية وأهلها بأنهم شوك وابن خلف وحده هو الورد، ولا أنهم زناد صَلْد لا يخرج منه شرر وهو وحده الجمر، وكل ما فى الأمر أنه مدحه مودعا وبالغ فى مدحه. ولابن قلاقسْ أشعار متعددة فى وصف مجالس الشراب بصقلية ووصف المغنين بها والراقصات من مثل قوله:

ومغنٍّ تنـاولتْ يـدُه العـو	دَ فعـادتْ بنا إلى الأفـراحِ
بين ريحٍ من المزامير أسْرَى	بين أجْسـامنـا من الأرْواحِ
وصِباحٍ قد عقدوا طُرَرَ اللَّيـ	ـلِ جمالا على الوجوه الصِّباحِ
يبعث الـرقْصُ منهمُ حركـاتٍ	سرقتْ بعضَها طِوالُ الرِّماحِ

وهو يقول إن صوت المغنى وهو يضرب على العود صوت مفرح ونسيم أنغام المزامير من حولهم تسرى فى أجسامهم سريان الأرواح، وراقصات فاتنات تتهدل خصل الشعر على جباههنَّ وهن يتثنين ويتحركن حركات رشيقة، وكأنما سرقت الرماح فى أيدى المحاربين بعض

حركاتهن ورَشاقتهن. وقد رحل عن صقلية والصلة بين أبي القاسم والدولة صلة طيبة، وبتأثير من الوشايات صُودرتْ أمواله بعد رحيل ابن قلاقس وإقطاعاته وأُغرم ما يزيد على ثلاثين ألف دينار، وزار ابن جبير الجزيرة وقد عُفِى عنه وعاد إلى سابق العهد به، ولذلك يقول ابن جبير عنه حينئذ إنه زعيم أهل الجزيرة من المسلمين وسيدهم. وعاد ابن قلاقس إلى القاهرة سنة ٥٦٣ قبل تولّى صلاح الدين وزارة العاضد الفاطمى فمدحه ومدح رئيس الدواوين، القاضى الفاضل، وكأنما ظن أن الأحوال فى مصر لاتزال غير مستقرة فرأى أن يزور اليمن، وربما كان الذى حبّبه فى زيارتها صديقه الرشيد بن الزبير الذى كان قد زارها وتقلّد أحكامها وقضاءها فترة كما يقول ياقوت، وفى أثناء عودة ابن قلاقس منها سنة ٥٦٧ أسلم روحه إلى بارئها بثغر عيذاب على الساحل المصرى للبحر الأحمر وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

خاتمة

١

تحدثت – فى الصحف الماضية – عن ليبيا فى القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فيها وفى تونس وصقلية من الفتح العربى إلى العصر الحديث. وعرضت جغرافيتها وتاريخها القديم وأنها ظلت تستقبل الحضارات الفينيقية والقرطاجية واليونانية والرومانية والبيزنطية دون أن تضيف إليها شيئا، وألممت بفتح العرب لها فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتعاقب الولاة عليها فى العصرين الأموى والعباسى، وتبعية طرابلس للدولة الأغلبية فى القيروان منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م إلى ٢٩٦هـ/٩٠٨م بينما كانت برقة تتبع مصر. ويتبعان جميعا الدولة العبيدية، ويسترد بلكين الصنهاجى تبعية طرابلس إلى القيروان ويؤسس بها بنو خزرون دولة ظلت خمسين عاما، وتعمها هى وبرقة الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وقد أحالوا معظم ليبيا إلى مشيخات بدوية، ويعيث فيها فسادا قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى، وتتبع برقة مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك، ويوكّلون عنهم بنى عزاز فى حكمها وجبايتها، وتتبع طرابلس الدولة الحفصية فى تونس، ويؤسس بها بنو عمار دولة لهم من سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م إلى ٨٠١هـ/١٣٩٨م وتعود للحفصيين ويستولى عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/١٥١١م ويتركها سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م لفرسان مالطة، ويخرجهم منها الأسطول العثمانى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م وتظل للعثمانيين، ويتولاها منهم أحمد القرمانلى سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م ويجعلها وراثية فى أبنائه إلى أن استردها العثمانيون منهم سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وسكان ليبيا – من قديم – ينقسمون إلى حضر فى المدن على الساحل وما وراءه من بساتين وزروع، وإلى بدو رُحَّل فى منطقة شبه الصحراء والصحراء الليبية المترامية الأطراف. وقد نزلتها عناصر جنسية كثيرة بجانب سكانها البربر من فينيقيين وإغريق ويهود ورومان وزنوج وعرب وترك وجَلِيهم المسيحى الأوربى من القرصنة. وبجانب النشاطين الزراعى والرعوى وصيد الأسماك والإسفنج على السواحل نمت بليبيا صناعات يدوية كثيرة مثل عصر الزيت ونسيج الملابس والأبسطة ودبغ الجلود واستخراج الملح من السواحل. وكان البربر وثنيين،

ونزل بديارهم اليهود، وحاول الرومان وكنيسة الإسكندرية نشر المسيحية بها وخاصة فى المدن الشمالية واكتسحها الإسلام، ودخل فيه سكانها أفواجا، حتى أصبح دينَهم فى كل مكان كما أصبحت العربية لسانهم، وشاع المذهب الإباضى فى جبل نفوسة وطرابلس، وحاول العبيديون -حين أقاموا دولتهم فى القيروان- نشر عقيدتهم الإسماعيلية الشيعية فى ليبيا، ورفضها سكانها، وعلى مر العصور آثرت ليبيا مذهب مالك السنى، وتبع بعض أهلها فى العهد العثمانى المذهب الحنفى غير أن مذهب مالك ظل هو المذهب الغالب على الليبيين. ونرى كثيرين من الليبيين - على مر العصور - يؤثرون الزهد فى متاع الحياة والتقشف طلبا لما عند الله من الثواب ونعيم الفردوس، وشاعت بينهم فى الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

ومنذ الفتح العربى ودخول ليبيا فى الإسلام كان فاتحوها يعملون - بكل ما وسعهم - على نشر الدين الحنيف بها، وسرعان ما شاعت فيها الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، كما استدارت فى المساجد حلقات الشيوخ يلقّنون الناس شيئا من تفسير الذكر الحكيم ومن الحديث النبوى وقواعد الفقه وتعاليم الإسلام، وأخذ بعض أبناء ليبيا يطلبون السعة فى الزاد العلمى، فرحلوا إلى المشرق للتزود من حلقات علماء العربية وعلماء الفقه والدراسات الدينية، وعُنوا خاصة بالأخذ عن الإمام مالك فقيه المدينة وتلاميذه المصريين. وأخذت تنمو العلوم الإسلامية واللغوية فى ليبيا على مر الزمن وازدهرت فى عهد الدولة الحفصية بما أنشأت من مدارس وما نشأ من زوايا كانت تُعْنَى بدراسة العلوم، وأصاب الحركة العلمية غير قليل من الجمود والركود فى عهد الدولة العثمانية.

وإذا تعقبنا العلوم والعلماء فى ليبيا على مر القرون لاحظنا أنه لم ينشأ فيها نشاط فى علوم الأوائل، بخلاف العلوم اللغوية والدينية فقد اشتهر فيها كثيرون فى مقدمتهم الأجدابى اللغوى فى القرن الخامس الهجرى والمقرئ مؤمن بن فرج فى القرن الخامس الهجرى أيضا والحافظ المحدث الكبير أحمد بن نصر الداودى فى القرن الرابع الهجرى وعلى شاكلته ابن عبيد فى القرن السابع، ويتكاثر الفقهاء السنيون مثل ابن المنمر فى القرن الخامس وعمران بن موسى فى القرن السابع، وبالمثل فقهاء الإباضية، ومنهم عمروس بن فتح النفوسى فى القرن الثالث والجيطالى فى القرن الثامن.

وأسرعت ليبيا فى التعرب لسببين : كثرة من نزل بها من القبائل وكثرة من استقر بها من الجند، وأتمت تعربها هجرة الأعراب الكبرى من بنى سليم وبنى هلال وامتزج الشعبان: البربرى والأعرابى وأصبحا شعبا واحدا فى الأخلاق والعادات والفروسية والنجدة والزّى والمآكل والأفراح والأحزان، وسرعان ما انتصرت العربية على البربرية. ويشهد الرحالة العبدرى فى أواخر القرن السابع لأهل برقة بالفصاحة ولا تزال لغتهم فى التخاطب إلى اليوم

أقرب إلى الفصحى من لغة أى بلد عربى. ولم تحدث فى ليبيا قبل عصرها الحديث نهضة أدبية واسعة، ومرجع ذلك إلى أنها لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء ولا أنشئ فيها ديوان يبعث فيها حركة نثرية أدبية، وأول شاعر بها ينال شيئا من الشهرة خليل بن إسحق فى القرن الثالث الهجرى، ويتكاثر شعراؤها فى القرن السابع من أمثال فتح بن نوح الإباضى وابن أبى الدنيا وابن معمر، وأهم شعرائها فى العهد العثمانى البُهلول الطرابلسى، وله ديوان كله مدائح نبوية، ومن الشعراء بعده أحمد بن عبد الدائم. وتشير كتب التراجم بأن لهذا الكاتب الليبى أو ذاك رسالة أو مقامة، وتكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر منها شيئا، ولفتح بن نوح الإباضى الشاعر كتاب كله وعظ على شاكلة كتاب ملتقى السبيل لأبى العلاء المعرى.

٢

وانتقلت فى القسم الثانى من هذا الجزء إلى تونس فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ودخول أهلها فى الإسلام أفواجا وظل مدة يتعاظم فيها وفيما وراءها من بلاد المغرب. ومن ولاتها الأولين وولاة المغرب جميعه عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس وناشر الإسلام فيه وفى المغرب جميعه حتى المحيط، ووليها للعباسيين يزيد بن حاتم المهلبى وأحدث بها حركة أدبية خصبة، وتولاها إبراهيم بن الأغلب للرشيد سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠م ويجعلها الرشيد وراثية فى أبنائه، وتظل تلك الدولة الأغلبية حتى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨م ومن أعمالها الجليلة فتح صقلية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م وفتح مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨م ونشر الدين الحنيف واللغة العربية بها، وتخلف الدولة العبيدية تلك الدولة إلى أن انتقل الخليفة العبيدى المعز إلى القاهرة سنة ٣٦١ هـ/٩٧١م وجعل حكم إفريقية التونسية بعده لقبيلة صنهاجة وزعيمها بلكين، وظلت تلك الدولة الصنهاجية موالية للخلفاء الفاطميين فى القاهرة إلى أن أعلن المعز بن باديس الصنهاجى استقلاله عن خلافتهم سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦م وقيل بل فى سنة ٤٣٩ أو ٤٤٠ وغضب الخليفة الفاطمى المستنصر، فسلَّط عليه أعراب بنى سليم وبنى هلال النازلين شرقى الصعيد، وكانوا نحو نصف مليون، فاكتسحوا ليبيا وإفريقية التونسية، وحاربوا المعز فى القيروان وهزموه، واضطروه إلى الانزواء فى مدينة المهدية، واستقل بعض الولاة فى مدن إفريقية التونسية وأنحائها بالحكم، وقام فيها نظام أمراء الطوائف إلى نحو قرن. ونزل روجار الثانى النورمانى ساحل تونس سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م واستولى على المهدية وطرده منها عبد المؤمن أمير دولة الموحدين المغربية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م وعاث بها فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وخلصها منهم الموحدون والدولة الحفصية، وازدهرت الحياة بها فى أيام

المفصيين، وحاصر لويس التاسع تونس، وقُبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م وخلصها من الإسبان الأسطول العثمانى سنة ٩٨١ هـ/١٥٧٤ م وأصبحت تابعة للدولة العثمانية وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وتوارثها أبناؤه وحسين بن على وبالمثل توارثتها أسرته حتى العصر الحديث.

ونزل إفريقية التونسية - بجانب سلالات البربر العريقة بها - عناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجنية ويهودية وزنجية ورومانية وألمانية من الوانداد وبيزنطية وعربية ومن كان فى جيوش العرب من الشعوب الإسلامية ونزلتها عناصر أندلسية وتركية وأوربية مسيحية ممن كان يأسرهم القراصنة، ومع كل هذه العناصر ظلت للعنصر البربرى الغلبة، وظل يفرض عليها شخصيته وهويته. وتموج إفريقية التونسية - من قديم - بطيبات الرزق من الزروع وأشجار الزيتون والفاكهة والنخيل، وتموج مراعيها بقطعان الغنم والأبقار والخيل والإبل. وتكثر بها الصناعات اليدوية مثل عصر الزيتون ودبغ الجلود وصناعة الزجاج والبلور والخزف والمنسوجات على اختلاف أنواعها والورق وكل ما تحتاج إليه المنشآت العمرانية. وأهلتها هذه المنتجات الصناعية والزراعية وما كان يرد إليها من إفريقيا السوداء لتكون سوقا تجاريا عالميا. وهيَّأها كل ذلك لرفه واسع فى المطعم والملبس وما يتصل بذلك من كثرة الاحتفالات والأعياد والعناية بالموسيقى وآلات الطرب. وحَظِيَتْ المرأة فى هذا المجتمع بمكانة كريمة.

وكان البربر قديما وثنيين، ونزلت بينهم جماعات من اليهود، وحاولت نشر دينها اليهودى فيهم واستجابت لها أقلية، واستولى الرومان على ديارهم وأخذوا يحاولون - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر الدين المسيحى بها وتأسست بعض الكنائس والأسقفيات، واعتنقه بعض البربر - وخاصة فى المدن الشمالية، وظلت فى العهود الإسلامية عناصر صقلية مسيحية تنزل بالبلاد، وعناصر أخرى ممن كان يأسرهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين السماوى الوحيد الذى عمَّ - بعد الفتح - إفريقية التونسية وجميع البلدان المغربية لتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ولبساطته ومحوه الفوارق الطبقية بين أفراد الأمة. واختارت إفريقية التونسية مذهب مالك الفقهى السنى، وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى، وعاد إلى الظهور أيام العثمانيين. ولم تنجح فى إفريقية التونسية مبادئ الإباضيين ولا مبادئ العبيديين الإسماعيلية الشيعية، ومن قديم يتكاثر بها الزهاد وكثرت فيها - منذ القرن السابع - الطرق الصوفية.

ونشطت الحركة العلمية فى إفريقية التونسية منذ الفتح، وكان يقودها فى أول الأمر الفاتحون بنشرهم للدين الحنيف وتعاليمه، وما نكاد نقبل على القرن الثانى الهجرى حتى ينشأ جيل من أبناء البربر والعرب يطلب المزيد من العلم، ويرحل فى طلبه إلى المشرق للقاء أبى حنيفة ومالك

ويحمل مذهبيها إلى مدينتى القيروان وتونس، ويساعد فى ازدهار الحركة العلمية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة فى القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة فى تونس وما أنشأ الحفصيون من مدارس ومكتبات. وتعنى إفريقية التونسية بعلوم الأوائل ويؤسس فيها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٧١-٢٨٩هـ) بيت الحكمة للعناية بتلك العلوم، وتشتهر القيروان بأطباء كبار كان لهم تأثير عظيم فى النهضة الغربية كما تشتهر بفلكى جزائرى كبير هو على بن أبى الرجال كان له تأثير قليل فى علم الفلك الأوربى. وتؤسس الدولة الصنهاجية مدرسة فى الكيمياء، وينبغ فى الدولة الحفصية كيميائى هو التيفاشى، ونلتقى فيها بأطباء ورياضيين متعددين وببعض الجغرافيين. ويكثر علماء اللغة والنحو فى العهد الصنهاجى من مثل القزاز والحصرى، ويضع ابن عصفور أسس مدرسة نحوية تونسية، ويقود ابن رشيق بكتابه «العمدة فى صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية واسعة، ويشتهر فى القراءات ابن خيرون حامل قراءة ورش عن نافع إلى موطنه، ولا يلبث أن يظهر إمام كبير من أئمة القراءات هو مكى بن أبى طالب. ومن أوائل المفسرين عكرمة مولى ابن عباس ومن كبارهم فى القيروان على بن فضال وابن بزيزة ويكثر الحفاظ المحدثون ومن كبارهم القابسى فى القرن الرابع والمازرى فى القرن السادس، ويتعايش فى الفقه المذهبان: المالكى والحنفى وفقهاؤهما فى القرنين الثانى والثالث من أمثال سحنون المالكى وعبد الله بن فروخ الحنفى، ثم تصبح الغلبة للمذهب المالكى منذ أخذ المعز بن باديس الناس والفقهاء به، ويعود المذهب الحنفى إلى الظهور فى عهد العثمانيين، وتكون له الكلمة العليا فى الفتوى والقضاء. وكل ما كان موضعا للمناظرة والجدل من المذاهب الكلامية فى المشرق انتقل إلى المغرب سواء فى ذلك مذاهب الخوارج والمرجئة والمعتزلة، وأخذ المذهب الأشعرى يعم منذ القرن الخامس الهجرى. ونشطت الكتابات التاريخية فى القيروان عن مغازى إفريقية والدولة الأغلبية وأمرائها والدولة العبيدية وخلفائها وعن علماء إفريقية وتاريخهم وتاريخ المغرب وعن شعرائها وعمن كان بها من الزهاد وكبار العلماء وعن دولة بنى عبدالواد بتلمسان، ولابن خلدون تاريخه العظيم ومقدمته النفيسة، ويلقانا بعده كتاب المنتاق عن الدولة الحفصية وكتاب ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس، وكتاب السراج: الحلل السندسية وكتاب حسين خوجه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، وفيه ترجمات لفقهاء البلدان الكبيرة.

وعلى الرغم من أن اللغة البربرية ظلت تعايش لغتين متحضرتين هما الفينيقية واللاتينية فإنها لم تتحول قديما إلى لغة متحضرة لها أبجديتها وكتاباتها التاريخية، وكان من يتحضر من البربر أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل أيام الرومان، وكثيرون منهم كانوا يتقنون اللاتينية نطقا وكتابة، وظلت من ذلك بقية بعد الفتح، وسريعا أخذت البربرية لغة الشعب واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل محلهما العربية حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف

القرن الخامس الهجرى اختلط البربر بالأعراب وكوّنوا شعبا عربيا واحدا فى حياته ولغته ودينه. وظلت الكثرة من الأعراب تنطق بالفصحى نطقا سليما حتى القرن السابع الهجرى، وسرت إليهم عدوى العامية فهجروا الإعراب،ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلم والأدب الرفيع، وغذاها المهاجرون الأندلسيون فى القرن السابع ثم فى القرن التاسع والحادى عشر بغذاء قويم بثّ فيها روحًا وغير قليل من الانتعاش. ويكثر الشعراء فى إفريقية التونسية منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى فى أواسط القرن الثانى الهجرى، وكان أمراء الدولة الأغلبية وخلفاء الدولة العبيدية شعراء وأجزلوا العطايا لمادحيهم، وينهض الشعر فى زمن الدولة الصنهاجية، ويقال إن مادحى المعز بن باديس بلغوا المائة عَدًّا، وكان ابنه تميم شاعرا ومقصدا للشعراء من كل بلد مغربى ومشرقى وكان ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن غاية فى الجود، فقصدهم غير شاعر، ولابن حمديس وأمية بن أبى الصلت الأندلسى فيهم مدائح رائعة، ويتكاثر الشعراء حول أمراء الطوائف مثل سلامة بن فرحان شاعر أبى الحملات أمير مدينة قابس والتراب السوسى شاعر جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة. ومن شعراء هذا العهد على الحصرى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر فى العهد الحفصى ويرفده جدول أندلسى، ومن شعرائه جابر بن عنان وابن عُرَيبة وابن حُسَيْنَة وابن السماط المهدوى والّلليانى وغيرهم كثير، ومنذ القرن الثامن الهجرى يزاحم الشعر الشعبى الملحون الشعر، ويهاجر كثير من الأندلسيين إلى إفريقية التونسية فى القرن الحادى عشر ويسترد الشعر شيئا من حيويته ونشاطه فى العصر العثمانى، وخاصة منذ عهد الأسرة الحسينية.

وتظهر فى كل غرض من أغراض الشعر طائفة منَ الشعراء المبدعين، ودائما كانت سوق المديح نافقة، ومن أعلامه الذين ترجمنا لهم على بن محمد الإيادى، والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسى وابن عُرَيبة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى. ومن أعلام الفخر المهمين تميم بن المعز ومحمد الرشيد الحسينى. ومن أعلام الغزل على الحصرىّ وأحمد الّلليانى ومحمد ماضور. ومن أعلام شعر الغربة والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبى الحسين. ومن أعلام شعر الطبيعة عبد الواحد بن فتوح وابن أبى حديدة وأبو على بن إبراهيم. ومن أعلام شعر الرثاء للأفراد والمدن والدول ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبد السلام. ومن أعلام الوعظ أحمد الصواف، ومن أعلام التصوف محرز بن خلف، ومن أعلام المديح النبوى الشقراطسى والسماط المهدوى. وكل هؤلاء الشعراء حاولت تبين شخصياتهم، مع عرض أهم روائعهم الشعرية.

ونهض النثر فى تونس على لسان الولاة والقواد، وتأسست بها - مبكرة - الدواوين، ونهض أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الانشاء فى عهد الأغالبة بالكتابة الديوانية وكون فيها

مدرسة كانت لها تقاليد متبعة، وفى صبح الأعشى رسالة ديوانية بليغة من العهد الحفصى. وكثرت الرسائل الشخصية، وهى مسجوعة، وبها - فى الحقب المتأخرة - كثير من التكلف. وتلقانا بعض مقامات، وهى لا تتناول حياة أديب متسول وخُدَعه الكثيرة لجذب السامعين، إنما هى موضوعات أدبية لبيان التفنن فى الكتابة الأدبية، وترجمت لثلاثة من الكتاب البارعين أبى اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد الأغالبة وإبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب، وابن خلدون الكاتب التونسى الفذ.

٣

وتحدثت - فى القسم الثالث من هذا الجزء - عن جزيرة صقلية وجغرافيتها وتاريخها القديم إلى أن فتحها العرب أيام الأمير زيادة الله الأغلبى سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م وظلوا طويلا يفتحون مدنها وحصونها وينشرون العربية والدين الحنيف فى ربوعها. واستولوا على مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨م ونشروا بها - مثل صقلية - الإسلام والعربية، ولا يزال أهلها - حتى اليوم - يتكلمون لكنة عربية تونسية دخلها - مع طول الزمن - كثير من التحريف - وغزوا قَلَوْرِيَّة فى جنوبى إيطاليا، وظل للدولة الأغلبية فيها شطر بل أشطار طوال مدة حكمهم. وولى على صقلية للدولة العبيدية ولاة أساءوا السيرة إلى أن وليها للخليفة العبيدى المنصور قائد من خيرة قواده هو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧م فجعلها وراثية فى أبنائه، وساء حكمهم فى القرن الخامس الهجرى، وثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى إمارات طوائف لكل بلدة أمير، واختارت بلرم قائدا من قواد الثورة هو ابن الثمنة، وكان شؤما على الجزيرة كلها فإنه تحارب مع أمير قصريانة وهُزم، فاستغاث بالنورمان فى قلوريَّة بجنوب إيطاليا، وأغاثه روجار الأول، وسرعان ما استولى على بلرم سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢م ويحاول الاستيلاء على بقية مدن صقلية وتم له ذلك فى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١م ويدور العام فيستولى على مالطة سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م. ورأى شعب صقلية العربى يفوق شعبه مدنية وحضارة واتقانا للزراعة ولكثير من الصناعات اليدوية فأخذ يصانعه للإفادة منه مع التنكيل به فى صور شتى، وحاول ابنه روجار الثانى وحفيده غليوم الأول التخفيف من هذا التنكيل الغاشم، ولكن ظل الاضطهاد قائما كما يصور ذلك ابن جبير فى رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول، وازداد الاضطهاد ضراوة حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١ هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصى سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩م فراسل فردريك الثانى واتفق معه على إجلائهم إلى إفريقية التونسية. وأجبر فردريك من بقى بمالطة من المسلمين على مبارحتها إلى مدينة أمالفى Amalfi جنوبى إيطاليا وكانت صقلية موزعة بعد الفتح العربى إلى ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية وال

يديرها ومعه مساعدون وكل منهم يسمى قائدا ولكل ولاية قاض أو قضاة، وعامل المسلمون المسيحيين معاملة سمحة إلى أبعد الحدود، وحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية ومحاكمهم الخاصة. وكان بكل ولاية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم، ومن أهمها ديوان المحاسبة القائم على جمع الضرائب. وكانت صقلية مَلْأى بالزروع وأشجار الزيتون والفاكهة وبالغنم والخيول، وكانت الصناعات مزدهرة بها وخاصة صناعة المنسوجات وصناعة الورق التى انتقلت إليها من القيروان ونقلتها إلى أوربا لتلهم - فيما بعد - جوتنبرج - اختراع الطباعة. ونلتقى فيها ببعض الزهاد مثل القاضيين ميمون وابن أبى محرز وببعض من ينزعون فى نسكهم منزع التصوف مثل أبى القاسم عبد الرحمن البكرى.

وقد فتح النورمان صقلية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، مما جعل ملوكها يكبّون على تعلم العربية ليقرءوا ذخائرها العلمية، وتعلموا من المسلمين شئون الزراعة والصناعة ونظمهم الادارية والديوانية، واتخذوا العربية فى مراسيمهم الحكومية، ومع ذلك لم تكن إقامة المسلمين لشعائرهم الدينية مكفولة وساموهم غير قليل من الخسف والاضطهاد بشهادة ابن جبير لما شاهده فى الجزيرة. ودائما تنزل الثقافة الإسلامية البلدان المفتوحة مع الجيوش العربية، وهو ما حدث سريعا فى صقلية، وكان بعض أبنائها لايكتفون بما يأخذون عن شيوخها، فكانوا يرحلون - استزادة فى العلم - إلى القيروان ومدّوا رحلتهم أحيانا إلى المشرق، ورحل إليهم بعض العلماء القيروانيين والمشارقة، ويقول ابن حوقل إنه كان فى بلرم وحدها مائتا مسجد وثلاثمائة معلم. وعنيت صقلية بعلوم الأوائل، وكان نصف سكانها مسيحيين وكانوا فئتين: فئة تتكلم اللاتينية وفئة تتكلم الإغريقية، وكان بين قساوستها من يستطيع الترجمة من اللاتينية والإغريقية إلى العربية مما جعل الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى حين أسس بيت الحكمة فى عاصمته رقادة وعنى فيه بعلوم الأوائل يستعين ببعض الرهبان الصقليين فى ترجمة بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية إلى العربية، ونظل نسمع عن إتقان بعض أطبائها من العرب للغة الإغريقية وعن نزول بعض متفلسفة الأندلس بها، وتتردد فى الكتب أسماء لبعض من كانوا فيها من الأطباء والرياضيين والمهندسين والفلكيين.

وعُنيت صقلية برواية الدواوين وأمهات الكتب الأدبية كما عنيت بالعلوم اللغوية واشتهر من لغوييها ابن البِرّ الذى رحل إلى مصر وحمل منها كثيرا من دواوين الشعراء وأسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكى صاحب كتاب تثقيف اللسان، ونزلها ابن رشيق، وقاد فيها بكتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده حركة أدبية نقدية مثمرة. ونشطت بصقلية الدراسات الدينية ومن كبار قرائها فى القرن الرابع محمد بن خراسان، ومن كبار مفسريها ابن ظَفر، ومن كبار محدثيها عتيق السمنطارى ومن فقهائها المهمين البراذعى

ومحمد بن يونس التميمى وعبد الحق بن محمد القرشى. وظلت الحياة العلمية مطردة النمو فى عهد النورمان، وكانوا يهتمون خاصة بعلوم الأوائل، ويتكاثر فى عهدهم من ينعت بأنه رياضى أو فلكى أو طبيب. واستدعى روجّار الثانى الجغرافى العربى الإدريسى ليصنف له كتابا فى الجغرافيا، فألّف له كتابين جغرافيين: كبيرًا وصغيرًا وضمنهما بعض الخرائط، ورسم له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان أولى للإدريسى أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية البديعة لحاكم عربى فى عصره لا لحاكم نورمانى. وتظل العلوم اللغوية والإسلامية ناشطة فى العهد النورمانى، غير أن علماء أعلاما كبارا بارحوا صقلية فرارا من الظلم النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى نزيل القاهرة وإليها حمل عن أستاذه ابن البر معجم الصحاح للجوهرى، ومثل ابن الفحام أحد أئمة القراءات نزيل الإسكندرية، ومثل ابن ظفر مفسر القرآن الكريم نزيل حماة بالشام ومثل الإمام الفقيه والحافظ الكبير المازرى نزيل القيروان والمهدية.

ويزدهر الشعر بصقلية فى عهد بنى أبى الحسين الكلبيين: ويسجل لها ابن القطاع مائة وسبعين شاعرا فى كتابه: «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة»، غير أن الكتاب سقط من يد الزمن فلم يصلنا، ونقل عنه العماد فى الخريدة تراجم لسبعة وأربعين شاعرًا، وأضاف إليهم البلّنوبى بن أبى البشر، كما أضاف إليهم اثنى عشر شاعرًا من كتاب ابن بشرون المهدوى: «المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر». ونظم شعراء صقلية فى مختلف أغراض الشعر العربى، وعرضت ذلك مفصلا مع الترجمة فى كل غرض لأهم شعرائه، وقد ترجمت فى المديح لابن الخياط وفى الغزل للبلّنوبى وفى الفخر لأبى الحسن الطوبى وفى الوصف لأبى عبد الله بن الطوبى وفى الرثاء لمحمد بن عيسى ولغيرهم فى الزهد والوعظ وفى التفجع والحنين واللوعة ولابن حمديس وأشعاره الرائعة.

وتحدثت عن النثر وكتّابه بصقلية، ويدل تنويه كتب التراجم بما لكتابها من مقامات ورسائل على أنها حظيت فيها بأعمال قيمة، غير أن الزمن أضاعها، واحتفظ ابن بشرون فى ترجمته لشعرائها ببعض رسائلهم الشخصية وعرضتها مع التعليق عليها، وترجمت لكاتبين من كتابها المبدعين هما ابن الصباغ وابن ظفر. وأضفت ملحقا عن زيارة ابن قلاقس الإسكندرى لصقلية وأشعاره هناك.



فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة